العالم بين يديك

جولات سائح

بقلم
الدكتور جوزيف رعد

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى ١٩٧٤
الطبعة الثانية ١٩٨٤

المقدمة

بقلم : سعيد عقل

هل كان مُوحداً آونة تنقّل في العالم ؟

لا .. وما دام أنه كاهن فقد تنقّل ومعه الله .

مِن هنا أنه رأى العجب عجباً .

مَن معه الله يبقى قلبه نَضِراً ، وعيناه نَضِرَتَيِ النظر . يُحِسُّ برهافة ، ويرى بما يُبقيه ابداً مشوقاً الى رؤية .

●

أحببتُه حتى في حَمْلهِ إليّ ولو هذا الذي كنت اظنني أعرف . إنه لَيحملُه جديداً . تقول ان الدنيا هي السائحة في قلبه ، اكثر منه هو سائحاً في مجاهلها . ببساطةٍ يُحدّثُك عما يرى، فكأنما الأشياء بذاتها بشر ، وملائكة ذات اجنحة، وأرباب . وتُحبُّها انت . وتقولها ، وقد اضطربت بين يديك ، آمال الأشياء لا الأشياء . انه ابن معلّمهِ الأسيزيّ، مَن يعرف ان الله ما قصد من السماء الى البشر وحدهم ، وإنما الى كل الخليقة .

●

وحتى إذا حطت قدما مؤلّفنا في الهند ، مثلاً ، او في الشرق الأقصى ، ردّ البقعة شرراً ، وهمس في أذن قارئه بالشرر .

يعرف أن يتساءل : هل عرف المصريون القدماء الكهرباء ؟ هل عرفت بغداد البطاريات قبل ألفي سنة ؟ هل الاطباق الطائرة خرافة أم زيارات من عوالم اخرى ؟ ما معنى المطار الأثري في جبال البيرو ، وزِيُّ روّاد الفضاء، المرسوم على الصخر في المكسيك ، منذ آلاف السنين ؟ .

ويعرف أن يصدمك بالرقم . عام ١٩٦٦ ، يقول ، بلغ في الولايات المتحدة، عَدَدُ قتلى السيارات ٥٢٥٠٠ ، فيما لم يُقتل ، في حرب الفييتنام ، في السنة نفسها ، سوى ٥٠٠٨ . تراه قصد الى القول ان استخدام المدنية للسيارة هو الحرب ، ومصادقة الشباب الاميركي للنيران هو تذوقُ المغامرة ؟ لا ، لن أقـوّلـَهُ ما لم يقله هذا الذي همّه إبداء الإعجاب بخلق من خلق ، ووصفـُهُ كما هو على انه بذاك هو الجلل .

●

فِهرستُ كتابه هو وحدَهُ كتاب .

وهكذا سيكون لك أن تبدأ القراءة حيث تشُكُّ اصبعكَ . فـتَـطـْرفُ، او تـفـكـّه، او تتعلم، او تـسـكـُنُ العَجَب. وأكيداً لن تبقى على حياد .

●

هذا الدكتور في الحقوق والعلوم السياسية والاجتماعية ، ما هي الفلسفة التي يمكن أن تـلـمّ من على تضاعيف سفره الضخم ؟ .

لربما القول : « زار الوجود » .

قلائلُ ممن عاشوا على كوكبنا ، وعمّروا طويلاً ، يمكنهم الزعم انهم « زاروا الوجود » .

هو يقدر على قولها . ومن اجلهـــا يُصبح لِزاماً عليه ، هو ، أن يشكـُر لربّه .

إن هو اعداك بلذائذِ ما عاش ، يكون قد جدّد منك العينين .

وتنفـَذُ معه الى صميم اشياء شتى . وهكذا تقوم ، انت ايضاً ، ولو من خلال كتابه، الى زيارة الوجود . وزيارةُ الوجود أروع من السياحة في العالم .

انا المتعصب تجاه المكتوب ، (اريد المكتوب كله يطالعني بلغة الساحر أمين نخلة ، مثلاً ، وهيهات ان يتأتى ذلك لاثنين) ، أجـِدُني اشكر لهذا الوَرعِ النديّ ِ القلم ، انه رفع لي جانباً من ستار ، وحضرتُ معـه اشتاتاً من الرواية .

وها أنا ، الذي لا أشرَب ، سَكِرْت .

تمهيد

بعد الجولات

ما أجمل الخريف في الجبال !

في إيطاليا وكندا ، واليابان وكشمير قيل لي : أروع شهر هو تشرين الأول . وكم يزداد روعة وجمالاً عندما يقترن بذكريات الصبا في لبنان !

في شرفة منزلي الجبلي الذي درجت فيه طفلاً وهجرته حدثا أجلس الآن وذاكرتي تسرح في الماضي القريب والبعيد وخيالي يمرح في أرجاء الدنيا التي عدت منها . هنا كان عالمي وأنا طفل الأفق الذي يقف على حافته نظري وبانتشار الضباب وتحجّب الرؤيا كان ينكمش عالمي ويصغر . حين تمطر فكأن المطر يعم الدنيا وعندما تشمس فكأن الأرض كلها نور . والآن عالمي هو الكرة الأرضية التي تجولت فيها مرات شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً :

« وشرّقت حتى ليس للشرق مشرق وغرّبت حتى ليس للغرب مغرب »

المنظر من شرفتي ظلٌ على قدمه : قطعة زرقاء من بحر « بيروت » يخرق إليها البصر من بين أكمتين . وادي نهر « الصفا » الأخضر متدرج من الشاطىء

إلى القمم . أرز جبال « الباروك » و « المعاصر » و « عين زحلتا » شامخ على سفوح رمادية بيضاء فصفراء فبنفسجية من الشروق إلى الغروب . غابات الصنوبر والسنديان وكروم التين والعنب وحقول الزيتون والتفاح تحيط بقريتي « كفر نبرخ » . الزهور في حديقتي ذابلة ذاوية فقدت نضارة الربيع وزها الصيف ومالت لتنام بذورها في الأرض حتى موسم انبعاثها . أوراق الشجر المتعددة الألوان متناثرة في الطريق وعلى أقدام أمهاتها أو طائرة مع الهواء إلى حيث لا تدري . وشواعر نفسي تتوه في المجهول مع أسرار الأوراق والزهور والغابات . . .

ريح فاترة تهب من الشرق وتداعب الأغصان كأوتار فتخرج منها أنغاماً تتموج في الجو حولي ولا أدري هل هي تتغلغل إلى أعماق روحي أم هي تغزو كياني الداخلي وتسبيه لتطوف به في أجواء لا أعلم أين هي . ترى ماذا تقول الريح ؟ وبماذا تتغنى الأشجار ؟ وماذا تخفي الأوراق ؟ وأية علاقة سرية تربطني بهذه الأوراق والأشجار والرياح حتى تهز كياني من أعماقه ؟ . . .

انه جو خريفي حالم يشيع في النفس سعادة هادئة وادعة ويدعوها لتضيع ولتذوب في الطبيعة أم الجميع . . .

ما أحلى الاستمتاع بهذه الخلوة واستذكار جولاتي حول العالم عبرت خط الاستواء ست مرات . بلغت أقصى الشمال في ألاسكا وأقصى الجنوب في نيوزيلاندا . مرت عليّ فصول السنة غير منتظمة : ربيع هنا ثم شتاء في أمريكا الجنوبية فصيف في أمريكا الشمالية فربيع في استراليا فخريف في الهند .

اختلطت بأتباع كل الديانات ورأيت مختلف الألوان والأجناس ، الزنوج والأسكيمو وهنود الغرب والشرق ، اليابانيين والصينيين والهنود ، الاسترالي والماوري والبولينيزي . . . كم يتشابه البشر بطبيعتهم الواحدة على كوكبهم الواحد وكم يختلفون في شتى البلدان بأشكالهم ولغاتهم ودياناتهم وعاداتهم

وتقاليدهم ! في حقيبتي أفلام عن كل بلد وشعب وفي ذاكرتي انطباعات عن كوكب الإنسان بعجائبه وغرائبه .

رجعت إلى ثنايا الماضي لأتقصّى كيف تولدت فيّ فكرة السفر . هنا على هذه الشرفة اكتشفت وأنا صغير انني أحب الجغرافيا . بقيت زمناً لا أدرك كيف يصعد نهر « النيل » في خريطة أفريقيا فأقلبها لأن مياه الجداول والسواقي عندنا هنا هي دوماً منحدرة إلى البحر . . . حينما فهمت اختلاف مجرى « النيل » في الطبيعة وفي الخريطة ا كتشفت أنني أحب الجغرافيا وكبر معي حبي لها . وفي كلية العلوم السياسية والإجتماعية في روما أحببت مادة « علم الشعوب — اتنولوجيا » وبدأت أحلم بالتعرف عن كثب على مختلف الشعوب . ثم ساقتني الصدفة إلى مساعدة طالب في الجغرافيا فاشتريت كرة أرضية وضعتها على مكتبي أدوّرها بين يديّ في انتظار أن أدور أنا حولها وكانت لي المجرب المغري . وانطوت الأيام والليالي وإذا بعثات الأقارب والأصدقاء شرّقوا وغرّبوا إلى بلاد الهجرة في نيوزيلاندا واستراليا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل والأرجنتين واشتد فيّ الحنين إلى زيارتهم . تجمعت هذه البواعث ودفعتني إلى طائرة « بان أمريكان » فقطعت القارات والمحيطات .

مع استعراض الذكريات تطلعت إلى جدول بين يديّ يدل على الوقت في مختلف البلدان . الآن الساعة في يدي ١٢ ظهراً وفي دا كار ١٠ قبل الظهر وفي ريودي جانرو ٥ قبل الظهر وفي واشنطن ٧ قبل الظهر وفي هاواي نصف الليل وفي طوكيو ٧ مساء وفي نيودلهي ٤ بعد الظهر وفي طهران ٢ بعد الظهر.

مسكينة ساعتي كم قاست من التقديم والتأخير لتنسجم مع التوقيت المحلي ان اختلاف التوقيت ساعات يقابله تباين أجيال وقرون في شتى نواحي حياة الشعوب . فهل هو صحيح زعم الفلسفة العريقة : من نفسك أعرف العالم ؟

يتشابه الأفراد بطبيعتهم وغرائزهم وحاجاتهم ومراحل حياتهم فلماذا لاتتشابه المجتمعات ؟ .

عاشت الأمم منعزلة متباعدة متجاهلة تنطوي كل قارة على نفسها بل ينكمش كل قطر على ذاته . القارة الأمريكية لم تكتشف إلا سنة ١٤٩٥ . الاتصال بين الشرق الاسيوي والغرب الأوروبي لم يتجاوز عمره خمسمائة سنة . التنقل كان مستحيلاً أو شاقتاً إلى ماض قريب .

طوت الشعوب قروناً وقروناً في عبودية الجهل وتغليب المنقول على المعقول في استطالة ظل الماضي على الحاضر . وإلى الآن تخاف أن تمدّ الأيدي لما تقدّمه احياناً من غير وعي .

لم تخل حقبة من انوطنية الزائفة التي تدعي نعرات قومية . اعطى الله الأرض للأسرة البشرية جمعاء — كلاً للكل — فأقامت فئاتٌ حدوداً وباعدت وفصلت ما وحّد الله ومنعت التنقل والتعاون ونادت بمحاربة واستغلال الجيران وانكرت المساواة بين البشر .

وربما قبل هذا وفوق هذا كان اختلاف الأديان الباعث الأكبر على التفرقة . فكم من دين كان ولا يزال عائقاً للتقدم وللانفتاح وللمساواة وللتعاون سواء بين الأفراد والعائلات داخل الوطن الواحد أو بين الأوطان . وفي تاريخ البشرية تعاقبت حروب دينية واختلفت عادات شعوب وطرق معيشتها ونظرتها إلى الحياة ومعاملاتها وفقاً لصبغتها الدينية . ليت الأديان ، التي هي اسمى القيم الإنسانية ، تقرّب بين البشر !

ولا انسى اللغة وما يتبعها من عقلية وثقافة . اللغة هي الحاجز الأول بين المسافرين . كانت أمنيتي الاولى عندما التقي بأحد ان استطيع التفاهم معه بلغة مشتركة . مهما كانت الشعوب بعيدة فإذا كانت تتحدث اللغة ذاتها تشعر

انها متقاربة . فلم لا يتحقق حلم اللغة العالمية المقترحة ال « اسبرنتو » فتعلم منذ الصغر مع اللغة القومية ؟ .

أما الاختلافات السياسية فلا اتعرض لها لأنني آليت على نفسي ان اتحاشى السياسة في كتاباتي وفي حياتي . . .

يلاحظ المتقصّي أن أسباب الاختلافات هي أيضا العامل الأساسي للتفاوت في أحوال الشعوب مع إضافة ما منحتها او حرمتها طبيعة ارضها . إنما الإنسانية هي في حقبة تقارب لأن الفروق آخذة في الزوال او في التضاؤل ولو ان الطريق طويل لعدم توفر الحرية الحقة . ان تقدم المواصلات واتساع التعامل وتعميم وسائل الاعلام لا تكفي لتوحيد البشر إذا لم تطلق الحرية .

في العالم ظاهرة عامة وهي ان الإنسان – فردا وجماعات – لا يتمتع بحرية كافية . فيه رواسب خوف وعبودية من الانفتاح ومن تخطي الحواجز . آخذ مثلا واقعياً من الهند . في الهند خوف في الدين يحول دون تفاهم الفئات الهندوسية مع غير الهندوسية ويحول دون اعتناق دين آخر « معقول » مصفّى من اساطير لانهاية لها ، ويحول دون حدّ النسل فالتكاثر من روح الدين حتى لو كان فيضاناً مجتاحاً يعمم الشقاء . خوف في تكوين الاسرة فحتى الآن الأهل هم الذين يزوّجون الفتى او الفتاة ، والمرأة هي دوماً تحت سلطان رجل ، والانتساب الى عشيرة او فئة اهم من الانتساب الى دولة موحدة ، ومعيشة الازواج الجدد في بيوت الحمى والحماة افضل من المعيشة في مسكن مستقل . خوف من التقاليد لئلا تتدنس حتى ولو كانت خرافات منحدرة مما قبل التاريخ فصواعق الآلهة تحميها . يفضل الهندوسي ان يموت جوعاً ولا يأكل لحم البقرة . يرمي موتاه – احياناً دون حرق – في المياه التي يغتسل فيها ويشرب منها . خوف من البلدان المجاورة فهي في عداء سافر او مستتر مع الصين وباكستان . خوف من الفقر الشائع وما يجر معه من همّ وذل وحرمان وجهل ومرض .

إذا قارنت الهند، على سبيل المثال، مع الولايات المتحدة الاميركية ارى أن هذه الأنواع من الخوف لا توجد فيها . وأرى ان اسباب تقدمها ليس فقط غنى ارضها بل ايضاً حرية كاملة من هذه المخاوف بقدر ما يسمح به التعايش الإنساني . إنني لا اعني بذلك ان الأميركي اسعد من غيره . فكما ان التحرر من الخوف نسبي ومفهوم الحرية نسبي فكذلك السعادة .

في اعماق كل انسان رغبة تحقيق سعادته ورغبة تحرره من الخوف . هل تقدم عالمنا حقق له السعادة ؟ هل نحن اسعد من اجيال القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر؟ هل انا اسعد مَنجدّي الذي لم يغادر قريتنا ؟ هل الشعوب الغنية اسعد من الشعوب الفقيرة ؟ قد يعتقد المرء أن السعادة – فردية وجماعية – هي في كمية التنعم والتلذذ . ربما هذا وهمٌ فالسعادة حالة نفسية قوامها الهدوء والاستقرار وعدم الخوف واستقلال الذات . وربما هذه هي بعض البواعث العميقة التي تجعلنا نفضل بيتاً نائياً في الأعالي البدائية على العيشة في صخب المدينة . وكلما زادت مطالب الإنسان ورغائبه كلما تعرض انقصان في سعادته . ان في هذا لعجباً ولكنه الحق فالمرء يلتهم ولا يشبع ويعبّ ولا يرتوي والصائم احسن صحة من المتخوم ! لست ادري من هو اكثر سعادة : اميركي في الدور المائة والثاني في الا « امباير ستيت » ام هندي في كوخ القش على حافة نهر « الجانج » ! من الكتب التي اشتريتها في رحلتي « اقوال كنفوشيوس » معلم الصين الاول في القرن الخامس قبل الميلاد . انه يتحسر فيه على الماضي السعيد ماضي الأجداد ! ...

عدا نسبية السعادة تغزو الرّحالة نسبية التفكير . يتطور التفكير ويلين وينزل من برجه العاجي « المطلق » ويضع علامات استفهام حول امور قد جمّدها . اسوق على ذلك مثلاً آخذه من نفسي: كنت استغرب حرق الموتى ولكني عندما رأيت الهنود يحزقون موتاهم فضلت هذه الطريقة على الدفن في القبر . كنت اعرف ثلاثة اديان المسيحية والاسلام واليهودية فتعرفت

بغيرها في الشرق الأقصى مما اتاح لي المقارنة والتعميق وزادني اقتناعاً بأن الإنسان هو بطبيعته ديّن .

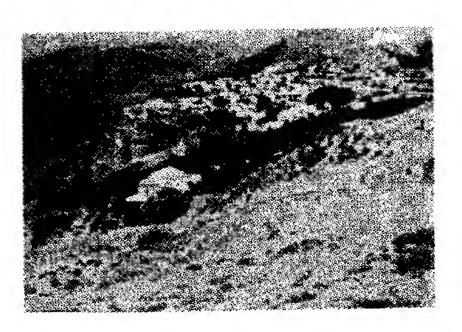
ولكن ما لي ولهذا « التفلسف » يا قارئي العزيز . ان التعرف على العالم يهمك اكثر منمعرفة افكاري. فتعالمعي نطوف بعض الاقطار التي زرتها[1]. اعذرني إذا قرأت احياناً ما لا يروق لك فقد يروق لغيرك وقد يروق لي . وعفواً إذا ما وقعت على وصف مكرر فأنا اصوّر وأنقل من الطبيعة ما يختلف وما يتشابه .

ولو سألتني : ماذا تتمنى بعد هذه الجولات ؟

أجبتك : اتمناها لك ...

الدكتور جوزيف رعد

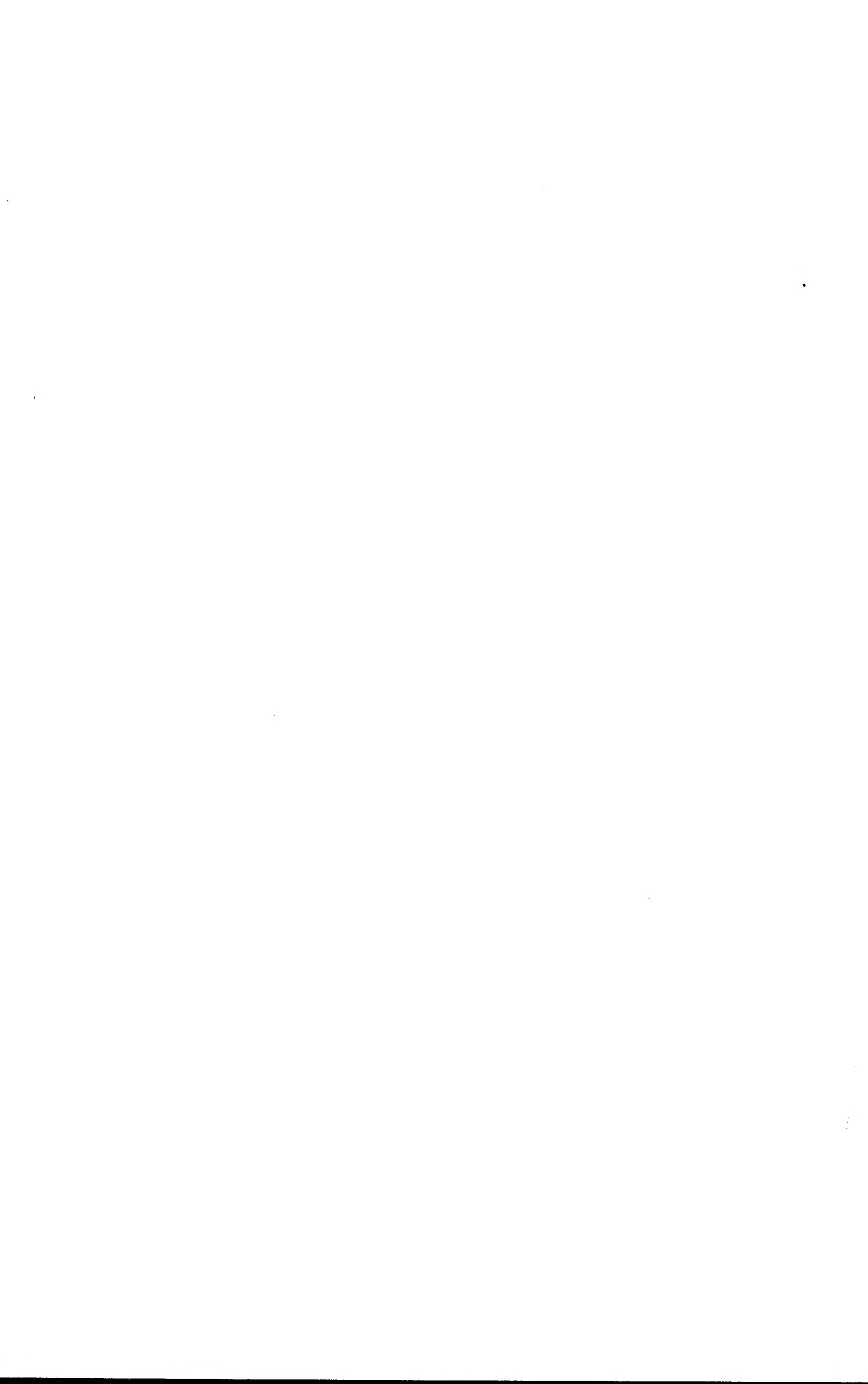
كفرنبرخ ـ الشوف ـ لبنان



كفر نبرخ ـ الشوف

---

(١) منذ ١٩٤٩ وأنا في اسفار تلو اسفار . لن أصف البلدان الاوروبية لأن ما كتب عنها كثير . اصف في هذا الكتاب ثلاث جولات لي حول العـــالم قمت بها في ١٩٦٦ و ١٩٦٨ و ١٩٧٢ .



١

من القاهرة الى داكار

كان من الصعب أن تغمض عيناي عشية الجولة. سبقني الخيال المجنح يطير حول الكرة الارضية التي سأباشر التجول فيها غداً . جو هذه الليلة في القاهرة صاف منعش . الأحلام تطير مع ضوء القمر وتسبح في النهر الخالد وتهيم في صحراء « هليوبوليس » . لا يعكر هدوء هذا الليل إلا هدير الطائرات لكنه لا يزعجني فهو موسيقى الفضاء تحمل انغاماً بين الأقطار وتعكس صدى حضارة القرن العشرين وتطرب لها نفسي .

« كارافيل » شركة طيران الشرق الاوسط تزمجر في ارض المطار متأهبة للتحليق . الكارافيل طائرة انيقة مريحة يكاد صوت محركاتها يموت قبل إزعاج آذان الركاب . ليس فيها مقعد رقم ١٣ بل بدلاً منه ١٢ مكرر لكي لا يتشاءم أي مسافر ! عزمت أن افتح عينيّ وأذنيّ وشفتيّ لأعي وأستوعب قدر ما استطيع خلال جولتي . وفعلا بدأت بالتنفيذ فتحدثت الى جاري وإذا به مكسيكي يزور الشرق الاوسط مع سبعة رفاق . أريته في مجموعة تذاكر سفري تذكرة شيكاغو ــ مكسيكو ــ اكابولكو فسُرّ وأعطاني عنوانه في مكسيكو وتبادلنا المعلومات عن بلدينا . من نافذة الطائرة اريته وسميّت

له بعض ما تقع عليه العين من لبنان . لقد بهر بالتقاء البحر والجبل وبتلوي الشواطىء الزرقاء مع الخلجان ، وبالأودية المتعاقبة في اخاديد سفح لبنان الغربي وبالبيوت المزروعة بين الخضرة . لدى توديعه اظهر لي إعجابه بحيوية اللبنانيين وبسرعتهم فمن الطائرة الى التاكسي فقط ١٧ دقيقة .

صعدت توّاً الى قريتي « كفر نبرخ » في الجبل على ارتفاع ١٠٢٠ متراً عن سطح البحر . هذه البقعة هي اول ما انفتحت عليه عيني وأول ما احببت . كل مرة اطل عليها يعود الى ذاكرتي بيتا « ابي تمام » :

« كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل »

« نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول »

أمعنت النظر في كل قطعة منها موجساً ان لا اراها ثانية إذ كان يكمن في اعماق نفسي خوف غامض من مفاجآت غير سارة ... سألتقي في الأرجنتين بأقارب هاجروا من هذه البلدة منذ اربعين عاماً فصوّرت لهم كل قطعة ولفتة منها . كانت ساحرة في الربيع يزين زهر الوزّال الاصفر حواشيها .

أقلعت بي طائرة « بوينج - بان امريكان» من بيروت متجهة الى روما . قطعت ساعات الطيران الثلاث في مطالعة رفيق سفري وجليسي الدائم كتاب « دليل العالم - آفاق جديدة » وهو يتحدث عن مائة وسبع دول .

في مطار « ليوناردو دافنتشي » حنّ قلبي الى روما التي طويت فيها اربع سنين من شبابي وودعتها سنة ١٩٥٤ . طفت فيها ساعات متواصلة استعيد معالمها . نافورات المياه - الساحات الكبيرة - الكولوسيوم - الفوروم - مذبح الوطن حيث ضريح الجندي المجهول - مونتيماريو والجانيكولو . كنيسة القديس بطرس ومن سطحها منظر يشمل جنائن

الفاتيكان ومعظم احياء العاصمة . ثم روما الجديدة البراقة واسمها « معرض روما العالمي .E. U. R » .

من روما ركبت طائرة « اليطاليا » قاصداً « داكار » . قبل الركوب يعرض على كل مسافر رسم مقاعد الطائرة فيختار رقم مقعده ويصعد . حالما جلسنا قدمت لنا المضيفة « شبشباً » من قماش مطاط نستعين به عن الحذاء في سفرنا الطويل . دام الطيران خمس ساعات ونصف ونزلت مع الفجر في مطار « داكار » عاصمة « السنغال » .

●



بين بيروت وروما



امام المدرسة

٢

السنغال

داكار

لمحة :

تقع السنغال وسط غربي أفريقيا في نهاية شبه جزيرة « الرأس الأخضر » . مساحتها نحو ٢٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع معظمها سهول مكشوفة يابسة إلا على بعض الشواطىء . سكانها ٣,٢٤٠,٠٠٠ – ٨٥ ٪ منهم مسلمون و ١٥ ٪ مسيحيون . يقطنها ٤٨ ألف أوروبيا . يتألف السكان من ثلاث قبائل رئيسية هي : توكولور و سيريسرس و وولوف . لغتاها الفرنسية والوولوف . عدد سكان العاصمة « داكار » ٣٤٠ ألفا وهي أكبر ميناء بحري وجوي في أفريقيا الغربية تستطلع من فوق المحيط الأطلسي الى القارة الأميركية .

ظلت السنغال نحو مائتي سنة تحت حكم الفرنسيين الذين جعلوها مركز حكم أفريقيا الغربية وأطلق على داكار لقب « باريس أفريقيا » سنة ١٩٦٠ استقلت البلاد وانضمت في اتحاد مع « مالي » ثم انفصلت عنها وبقيت عضواً في مجموعة الدول الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية .

جولة في داكار :

مع شروق الشمس أخذني صديق في سيارته فتجولنا في داكار في الشوارع الرئيسية وعلى الشواطىء وحول الميناء وفي بعض أحياء فقيرة أزقتها رملية وبيوتها من صفيح . تناولنا طعام الغداء في أوتيل « نجور – NGOR » وهو أجمل فندق في السنغال . لأول مرة أرى الافريقيين في بلد افريقي صرف ولون بشرتهم في السنغال أسود قاتم . انهم هنا شعب وديع قريب الى القلب. يلبس الرجال « الجلابية » على أنواع او سروالاً فضفاضاً . يغطون رؤوسهم بالطربوش الصغير او بالطاقية . في يمينهم قضيب وفي قدميهم شبشب او قبقاب لا شيء . تلبس المرأة فستاناً واسعاً فوقه مشلح أشبه بالساري . يحلّين الأذنين بالأقراط ويعمّمن الرأس فيحجبن شعرهن الأكرت بينما شعر الصغيرات مكشوف ومخطط كالأقلام . تسير البنات في الشوارع وعلى ظهورهن الأطفال وفي أفواهن أعواد يمضغنها لتنظيف الأسنان . « الديكولتيه » عريض جداً هنا ولكنه لا يخدش البصر .

صادفت على الأرصفة مع الباعة المتجولين ثمرة الكولا حمراء او بيضاء بحجم الكستناء . قضمتها فإذا بها مرّة جداً . شجرة الكولا تشبه شجرة الليمون الحامض . يستعملون منها أحياناً الورق والثمر « للكيف » وربما خاصة الكولا هذه هي سبب شيوعها وإقبال الاذواق عليها .

القرية المهنية :

أنشئت القرية المهنية النموذجية مع أول معرض للفنون الزنجية في عام ١٩٦٥ . بيوتها من قش ويعمل فيها المهنيون بأيدٍ بارعة وبألسنة عذبة تضطر السائح الى أن يخرج محمّل اليدين . غالب مصنوعاتها من الخوص والخشب . فيها تماثيل سوداء بالشفاه العريضة المتهدلة ورسوم من أسلاك

حديدية لتزيين الجدران وشالات تنسج على أنوال بدائية وحقائب وأحزمة ومحافظ من جلود الأفعى والتمساح والحردون وعنقود من أصداف بين ثمر البامبو الذي يشبه كرز صنوبر صغيراً جداً إلخ ...

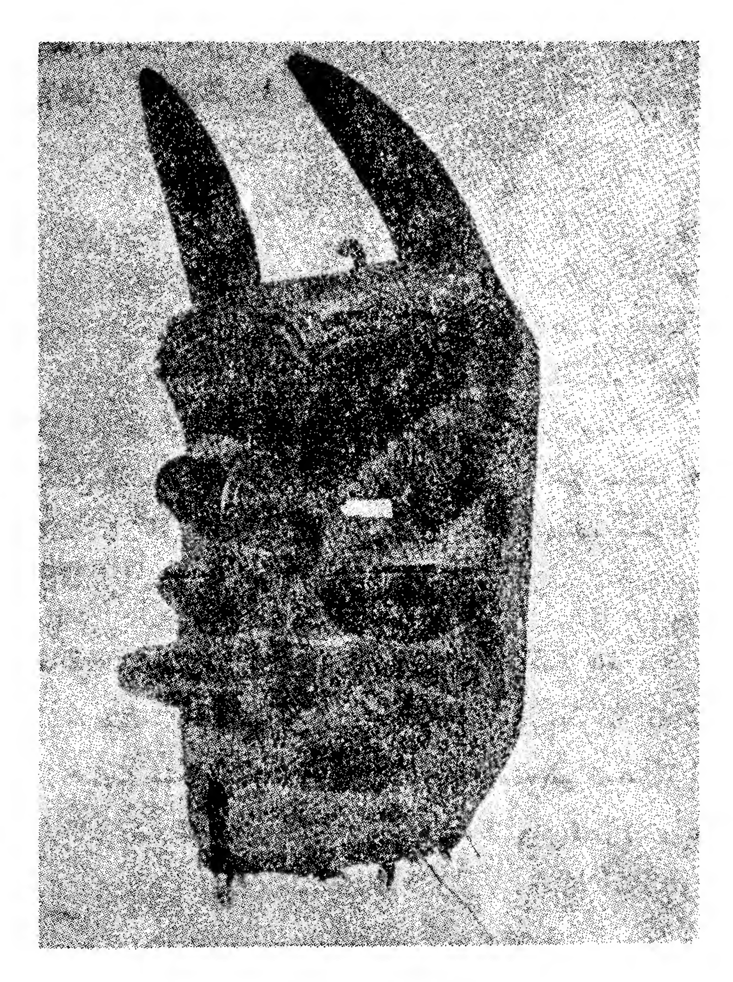
طلب مني صانع ثمن تمثالي غزالين ٣٦٠٠ فرنك أي ١٥ دولاراً (الدولار = ٢٤٠ فرنك افريقي) وبالمساومة خفّض لي أربع دولارات .

جزيرة « غوره GORÉE » :

تعوم هذه الجزيرة الصغيرة في المحيط الأطلسي على بعد خمس كيلو مترات من داكار وهي من معالم السنغال السياحية والتاريخية . رافقني فيها دليل متطوع من فتيان مدارسها يتكلم اللغة الفرنسية بلكنة سنغالية مستحبة . طاف معي في شوارعها الرملية وأراني القلعة واستراحة الرئيس ومتحف البحر والمتحف التاريخي .

أهم ما في « غوره » سجن العبيد الذي تخيّم عليه ذكريات سوداء . كان الأوربيون يصطادون الزنوج في القارة ثم يحشرونهم في هذا السجن وينزلونهم من نافذة الى السفن التي تقلّهم الى البلدان الأميركية التي استعمرها الأوربيون لا سيما البرتغاليون والأسبانيون . قضى المستعمر الاوربي على « هنود الغرب » ـ السكان الاصليين في أميركا ـ واستعبد سكان أفريقيا ليخدموه هناك وليعملوا في الارض وليسخّروا بالاشغال الشاقة .

في الجزيرة متحف تاريخي عن أفريقيا الغربية منذ دخلت التاريخ الى أن نالت استقلالها لسنين قليلة خلت . لفتت نظري في هذا المتحف بعض رؤوس بشرية ذات تكوين بـدائي عجيب قريب الى رأس القرد . زرت أيضاً « متحف البحر » عن جغرافية المحيطات والبحار والبحيرات : عن أعماقها وتياراتها ، عن حركة الامواج والمد والجزر ، عن المراكب وعن أنواع الاسماك



قناع في متحف ايفان

وطرق صيدها، عن تنوع الشواطىء واستخدامها ... استوقفني قسم خاص عن تطور الحياة من مادة غير حسيّة ، الى بكتيريات دقيقة ميكروسكوبية، الى طفيليات بدون عظم ، الى دودة مائية ، فاسفنج ، فسمك ، فطير، فحيوان برّي ثم الإنسان . بالطبع هذه هي نظرية خاصة بمنشئي المتحف عن الحياة وبدئها وتطورها ولا سيا عن مرحلة الانتقال الى الإنسان .

متحف « ايفان » :

في وسط المدينة وبجوار قصر الجمعيـــة الوطنية يقوم متحف الشعوب الافريقية « إيفان » . فيــه نحو ٢٠ ألف قطعة أثرية تقــدّم أفضل وسيلة للتعرف على عادات الشعوب الافريقية ودينهـــا وقبائلها وطرق معيشتها . ولا يغرب عن البـــال أن الافريقيين كانوا يعيشون ــ حتى عندما اتصل بهم الاوربيون ــ كما كانوا منـــــذ ألوف السنين : قبائل مستقلة منعزلة في حياة بدائية على الفطرة .

أهم ما في المتحف مجموعات الاقنعة . في عهــد مصر الفرعوني عُثر على رؤوس كهنة مقنّعة بوجوه حيوانات . وقد ذكر ابن بطوطة أنه شاهد في رحلته منذ خمسمائة سنة المقنّعين الافريقيين. القناع ملخص للحضارة الافريقية البدائية . كان يضع القناع رجــال الدين والزعماء والراقصون والمغنون والمشعوذون ... وكان يلبس لإقامة شعائر تكريم أرواح الاجداد، واخصاب الارض، وبلوغ سن المراهقة إذ « يعمّد» الصبي فيصبح عضواً عاملاً في الجماعة، والانخراط في سلك المحاربين ، والزواج والمأتم إلخ ... لكل نوع من الشعائر نوع من الاقنعة بأشكال وجوه بشرية او حيوانية او مختلطة . وقد تمثل رجالاً عظاماً وأجواداً او آلهة اوحيوانات كخروف او قرد اوغزال او جاموس او اسداو ضبع ... في الاقنعة فن وتقاليد قبلية وروحانية ورموز وسِحْر. ان

رئيس الجمهورية « ليوبولد سنجور » هو شاعر وعلى لوحة في صالة الاقنعة نقشت له هذه القصيدة :

« أيتها الاقنعة !

أيها القناع الاسود والاحمر والابيض .

في ثناياك تهبّ الروح من الرياح الاربع .

أحييّك في خشوع صامت .

وانت يا قناع الاسد الذي كان يلبسه آخر اجدادي

انك تحرس هذا المكان وتحرّم فيه كل ضحكة عابثة عابرة وكل بسمة معرضة للذبول .

انك تطهّر وتقطّر نسمة من الخلود اشمّ فيها هواء آبائي

ايتها الاقنعة ! انت وجوه بلا قناع . لا اثر فيك لتقعّر ولتجعيد » .

في المتحف معروضات عن طرق معيشتهم : اكواخ القش التي يعيشون فيها حتى الآن وخيام وآلات صيد السمك والحيوانات والاسلحة بأنواعها لا سيما القوس والرمح ومن آلات الزراعة المعول والجرفة والفأس . مصنوعات من الفخار والخشب والخوص وانسجة مزركشة وآلات موسيقية في مقدمتها طبولهم الشهيرة « تم تم » من خشب وجلد ماعز .

يستخلص من القناع الكثير عن حياتهم الاجتماعية . كان امر ذا اهمية إعداد الرجال للصيد وللدفاع عن القبيلة ـ الدولة . كان الطفل يعتبر في مستوى حيوان صغير يُمَهّدُ للارتقاء الى مستوى الإنسان الاجتماعي . تبدأ فترة الإعداد مع هلال شهر كانون الاول في الظلمة والبرد ليتعلم الشجاعة والتحمّل . تستمر هذه التربية ٢١ سنة : ٧ سنين للصبي و٧ للمراهق و٧ للبالغ . لتمييز واحد عن الآخر يطبعون علامات لا تمحى على وجوههم

وجباههم وزنودهم تدل على انتمائهم الى هـذه القبيلة او تلك الفئة : ولهذا « الوشم » اهمية لانتماء المحارب الى فريق (كما كان يفعل الرومان) .

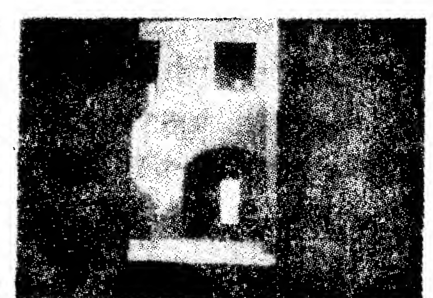
التوتمية :

للسحر دوره الرئيسي عنـدهم . رأيت في المتحف ادوات السحر من جماجم وقرون وخرز ازرق وظهر سلحفاة وفك حيوان وتمـــاثيل من صلصال ... وفي المتحف اصناف عديدة من الـ « التوتم – TOTEM » هي اشبه بعواميد عالية كانت تنصب على مداخل المخيّم كأنها حرّاس القبيلة. فيها شيء من السحر والخرافة وشيء من اولى ديانات العالم « التوتمية » .

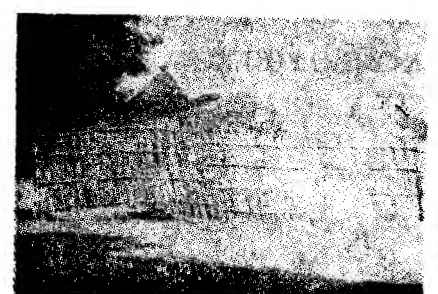
كان التوتم رمز العشيرة وعلامة وحدتها كعلم الوطن في ايامنا . يحمل لقبه كل افراد العشيرة لانهم من نسله او لان روح جدّهم الاعلى تقمصت فيه او لانهم من تزاوج بين إنسان وحيوان توتمهم . عـادة كان التوتم حيواناً[1] يحتفظون منه بجسمه او برسمه او بجزء منه او بجلده او بريشه . وهذا التوتم محجب في مقدس حوله حرم يتمتع من يلتجيء اليه بالحماية . لا يجوز للنساء ان يقربن التوتم لانهنّ لم يقتبلن « العماد » . العماد كان فقط للذكور إذ يلحقون بمجتمع الرجال وكان يصير عادة بالدم الذي هو من حياة التوتم ومن حياة العشيرة . يلجأون الى التوتم في الشـدة والحرب ويشعلون امامه النار ويرقصون حولها ويطوفون به في حرمه وفي مخيّمهم. لا يؤذون ولايقتلون[2] الحيوان الذي من نوع توتمهم بل يدفنونه باحتفال رهيب ويقيمون له فترة حداد . اصل « المحرّمات – TABOO » من تقديس التوتم وما يخصه . بدأت التوتمية تقليدًا عشائرياً ثم تطورت الى عقيـــدة وديانة . حسب

(١) احياناً كان نباتاً او جماداً او نجماً .

(٢) كان بعضهم يأكلونه ليتحدوا به .



سجن العبيد في غوره



بيوت ريفية



سنغالي امام شجرة باوباب



مع حاكم مقاطعة كزمانس

« دركهيم – DURKHEIM » اصل التوتمية هو تقديس الافراد لمجتمعهم الذي يضمن الحياة لهم والبقاء لنسلهم ومن التوتمية نبعث الديانات . وفعلاً في ديانات اليابان والصين والهند أهم عمل عبادة هو تكريم أرواح الأجداد .

من بعض اعتقاداتهم المعروضة في المتحف أن الإله « اب العالم » ويدعى « كولوتياليو – KOULOTIELEO » خلق الأرض وما عليها على مراحل. ثم تجسد لخير وخلاص الجماعات التي شكلت كل واحدة منها عالماً صغيراً مستقلاً يعبده بطريقته الخاصة . مراحل الخلق هي : الأرض (الأم) ثم النبات ثم الحيوانات المقدسة الأربعة الحرباء والحية والتمساح والسلحفاة ثم باقي الحيوانات ، وأخيراً الإنسان ولكن في مستوى الحيوان المنفرد الهائم . ثم أصبح الإنسان اجتماعياً وعاشر أخاه الإنسان واستخدم الحيوانات . اسم الرجل الأول « ياني – YÉNÉ » والمرأة الأولى « سيالي SIÉLÉ » . أمام تماثيلها يزحف الفتيان والفتيات محيين « سلام عليك أيها الرجل الأول وأيتها المرأة الاولى » . من عباداتهم الاساسية عبادة أرواح الاجداد وتلعب فيها الاقنعة دوراً هاماً . قناع هذه العبادة مكون من جزأين حيواني وإنساني وهو يمثل كائناً خارقاً مزيجاً من إنسان وتمساح . وهذا القناع نفسه يلبس في المأتم لتشييع روح المتوفى الى العالم الاعلى . إن المأتم ضروري ليتم انفصال روح المتوفى عن جماعة الاحياء، ولابس القناع الجنائزي هو الذي يشرف على المأتم . من عوائد التشييع ان يكسر على الجثة إناء الفخار الذي كان يستعمله المتوفى وان توضع مآ كل في إناء فخار احمر ليتغذى منها في رحلته الى العالم الآخر . ارواح الموتى لا تختلط بالآلهة او بغيرها بل تعيش منفردة . كانوا يجسّدون أرواح الاجداد في الاقنعة وفي التماثيل وفي الهياكل ويتحاشون إغضابها .

نقوش افريقية :

في المتحف مجموعة من نقوش وُجدت في بيت زعيمين هنديين من داهومي

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . منهـــا القطع الآتية التي لا تخلو من الطابع الفطري الجذاب .

اول لقـاء بين الافريقيين الاوربيين الممثلين بكاهن برتغالي . انتقام الملك تجبّو (١٧٢٨ – ١٧٧٥) من بعض اعدائه الذين شمتوا به لدى وفاة والدته وقالوا : « هل يستطيع ان يخرم انوفنا ليدفن في الثقب امه » . كرّ عليهم وقتلهم وجدع انوفهم وثقبها .

الملك « جيزو » (١٧٧١ – ١٧٩٧) بهيئة نخلة لانه كان يقول بعجرفة : « الخراف لا تستطيع ان تأكل اوراق النخلة إذ تعجز عن ان تطالهـا » .

عرش الملك « جيزو » على اربع جماجم لاربعة رؤساء قبائل معادية كان قد هزمهم . الملك جيزو بهيئـــة جاموس يتقدم قطيعاً من الثيران إذ أنه اكتسح قبائل « ماهي » كجيش من الجواميس المجتاحة .

نقش يمثل إله الرعد بشكل خروف ذي قرنين صلبين طويلين ينطح بهما بين الغيوم ويقذف من بين اسنانه حجر الرعد اي الصاعقة . بقربه نقش يمثل إله قوس قزح .

رسم لقصة طريفة وهي : قدم الى « ادنزان » (١٧٩٧ – ١٨١٨) ملك « داهومي » ، رسـل من قبيلة الـ « ناجو » يطلبون الجزية . رفض واعطاهم شمسية عليها رسم قرد يمسك بيد سنبلة ذرة ويقطف بيد سنبلة اخرى علامة الجشع في طلب تلك الضرائب ... رد عليه ملك الـ « ناجو » بارسال مجرفة مع هذه الكلمات : « هل انت فقير الى هذا الحد ؟ احرث ارضك بهـذه المجرفة لتستكمل من دوافع الجزية » .

رأس الملك « صافي – SAVÉ » على رأس مغزل إحدى زوجات جيزو . وذلك لان « صافي » كان قد قال : « إني اعظم واقوى من جيزو . سأقتله وسأدوّر رأسه كما يدور المغزل » .

إله الدمار بشكل طائر خرافي ذي منقـار صلب يكسر كل شيء . رؤوس الاعداء معلقة في اعناق الخيول او في ذيولها . وغير ذلك الكثير مما قد نعتبره رمزياً او بدائياً ولكن فيه لذة التعرف على تلك الشعوب .

في جامبيا وبرّ السنغال :

قضيت يومـــاً كاملاً في برّ السنغال وقطعت نحو الف كيلو متر . لدى الخروج من « داكار » توقفت سيارتنا في مدينة « روفيسك » بعض الوقت ليس لزيارة تلك الضاحية الصناعية بل لمرور موكب الرئيس سنجور . ان سنجور شعبي جـــدّاً وهو رئيس حزب الاتحاد التقدمي السنغالي ، الحزب الوحيد في البلاد وصبغته اشتراكية . على بعـد ١٩٠ كيلو متراً من داكار استرحنا في مدينة السنغال الثانية « كولك – KAULK » في بيت لبناني . ثم تابعنا السير وعلى جانبي الطريق بيوت قروية من قش والبقر يقطع الطريق ويعرضنا لاخطار الحوادث ، والنسانيس تقفز وتلعب بخفة حرّة طليقة ، وطيور الـ « ابي قردان » ذكّرتني بأشباهها في حقول مصر . الارض التي رأيتها كانت إما قاحلة وإما ترتفع فيها اشجار الـ « باوباب » التي تشبه السنديان وهي الشجرة المميزة لافريقيا ورمز لها . قطعنا بلاد « جامبيا » التي حصلت على استقلالها من بريطانيا سنة ١٩٦٥ . انهـــا من اصغر دول في العالم فسكانها نصف مليون وعرضها ٣٣ كيلو متراً كشريط ممتد في داخل السنغال التي تحوطها . انها اثر واضح من التقسيم الذي خلّفه الاستعمار الاوربي في افريقيا : ٢٢٠ مليون نسمة في ٤٠ دولة ! يشتري العابرون السنغاليون من كل ما يجدون في جامبيا لان الاثمان منخفضة . نهر « جامبيا » واسع جداً لا جسر عليه فعبرت السيارات على متن سفينة . رأيت الفلاحين يمهـــدون الارض لزرع الفستق في اواخر « حزيران » . من بعد جامبيا قطعنا ايضاً ١١٣ كيلو متراً الى ان بلغنا مدينة « بينيونا » عاصمة مقاطعة « كزمانس » . انهـا مدينة ريفية لا بأس بها وبها لبنانيون كثيرون لكن الحياة فيها شاقة : ميـاه قليلة وشوارع غير

معبّدة وحرّ شديد . مــــا اصلب هؤلاء اللبنانيين الذين هاجروا من لبنانهم الجميل وعاشوا طويلاً هنا في المناخ القاسي والبيئة المتأخرة بدافع من الطموح !

فوق المحيط الأطلسي :

في الساعة الثالثة وخمس دقائق اقلعت طائرة « لوفتهــانزا » وما عتمت ان حلقت فوق المحيط الاطلسي والمذيعة تقول لنا : « اننا نطير على ارتفاع اثني عشر الف متر والمســافة بين داكار وريودي جانيرو ٥٠٣١ كيلو متراً نقطعها في ست ساعات وخمس دقائق » . ذكرت عفواً كم يومــــاً ابحر « كريستوفورو كولومبو » عبر الاطلسي وكم ساعة نطير فوقه الآن . قامت مراكبه الثلاثة من اسبانيا في ٣ آب ١٤٩٢ ووصلت الى اميركا في ١٢ تشرين الاول ١٤٩٢ . كل ساعة طيران الآن تساوي ١٢ يوماً من ملاحته ! اليست السرعة اهم علامات التقدم ؟ .

تحققت ان السنغال دون ما كنت اتصوّر وان طريق النمو امامها طويل وشاق وربما اغلب الدول الافريقية في مثل هــــذا الوضع . مناخ افريقيا وطبيعة ارضها وشطرنج دويلاتها الاربعين والاستعمار الذي رزحت تحته قروناً وقرونا ساهمت في رسم صورتها الحالية .

كانت السماء صافية لامعة النجوم شاحبة القمر في يومه العشرين . تمتعنا بمشهد نادر فريد : الصبح يزحف من ورائنا ويتقدم معنا نحو الغرب النائم في الظلام وكأننا نهرب امـــام الصبح مستمرّين في ثنايا الليل . في الآفاق وراءنا وعلى يميننا وشمالنا قوس احمر فوقه قوس ابيض وامامنا باقي قوس الدائرة اسود .

●

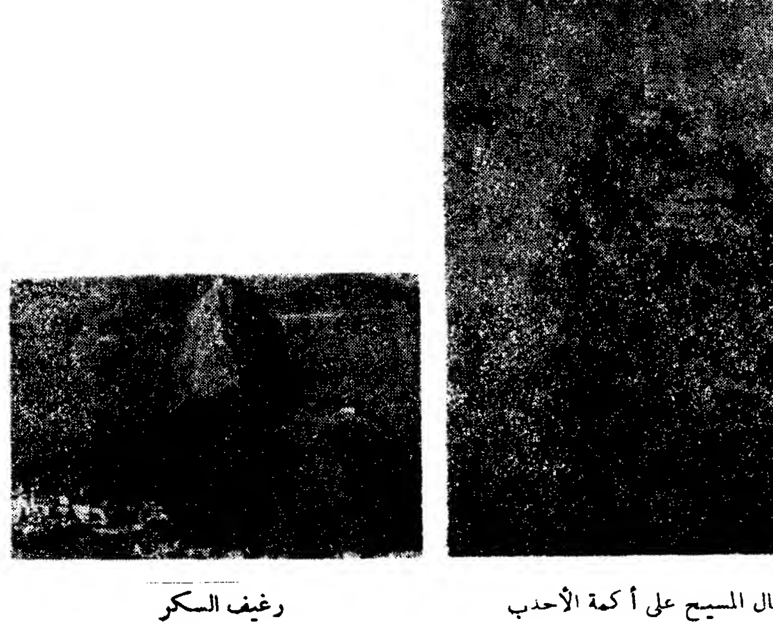
٣

البرازيل

ريو دي جانيرو

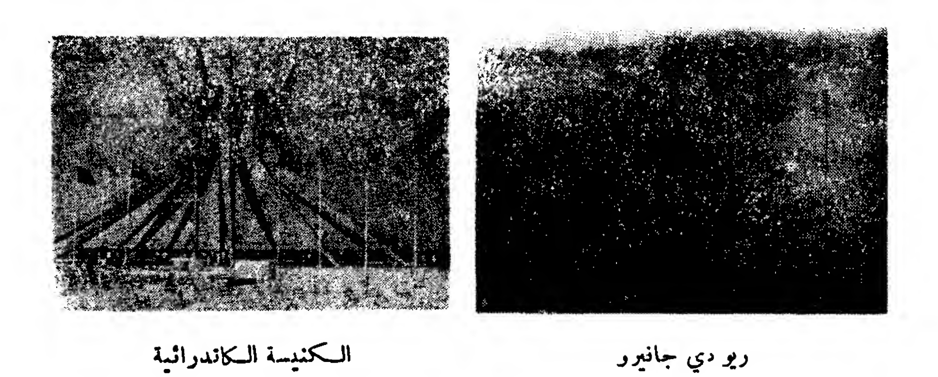
لمحة عن البرازيل :

تبلغ مساحة البرازيل ٨,٥١٦ ملايين كلم مربع أي نصف اميركا الجنوبية او ما يعادل القارة الاوروبية فيما عدا روسيا. فيها ثاني شبكة طيران داخلية بعد الولايات المتحدة الاميركية ونحو الف مطار لصعوبة المواصلات البرية في ولايات عديدة لا سيما «امازونيا» حيث الاحراش البكر. حوض «الامازون» يغطّي ٧ مليون كيلومتر مربع من اميركا الجنوبية ويبقى لون النهر العكر متميزاً عن لون البحر في مصبه الى ١٦٠ كم . بسبب امتداد البرازيل مع خطوط العرض والطول فيها كل أنواع المناخ ولو انه يغلب عليها الحار الرطب. وهي غنية جداً بطبيعة أرضها: الاولى في القهوة والثانية في الكاكاو وقصب السكر والذرة . فيها ثلث احتياطي حديد العالم، وبترول ومعادن. لكن عوامل عديدة تبقيها متخلفة منها : عدم استغلال طاقات أرضها ، الفوضى في كل شيء ، الخمول ، الرشوة والفساد ، تصاعد الاسعار ، نفقات



تمثال المسيح على أكمة الأحدب

رغيف السكر



ريو دي جانيرو

الكنيسة الكاتدرائية

الدولة ، تضخّم عملتها باستمرار ، الديون الخارجية التي تجعلها من اكثر بلدان العالم استدانة .

٥ ٪ فقط من أرضها مزروعة تخص فقط ١,٦ ٪ من السكان . اكثر من نصف البلاد احراش . ٥٠ ٪ من المواطنين اميّون ونحو ٦ مليون ولد لا يذهبون الى المدارس . لكي ينصفها العالم ولكي تعذر نفسها يقال انها « بلاد المستقبل » لكن الانسان في عصر القمر يصبو الى مستقبل غير بعيد .. كان عدد سكانها في مطلع هذا القرن ١٥ مليوناً وهم الآن ٧٥ مليوناً يدينون بالمذهب الكاثوليكي . يتزايدون بمعدل ٣,٤ ٪ فمن المنتظر أن يصبحوا مائتي مليون سنة الفين . ٦٠ ٪ بيض و١٥ ٪ سود و٢٥ ٪ ذوو لون متوسط . يتعايشون دون تفرقة عنصرية . نصف السكان تحت سن الثامنة عشرة فيغلب على البلاد طابع الشباب والغناء والرقص والحماس والتقلّب والانقلابات .

في سنة ١٥٠٠ اكتشف البرتغالي « بدرو الفاريز كبرال » هذه البلاد وأطلق عليها اسم بلاد « الصليب المقدس » ثم دعيت فيما بعد «برازيل» باسم شجرها ذي الخشب الاحمر . حكمتها البرتغال ثلاثة قرون وربع . كانت اسبانيا والبرتغال تتنافسان وتتحاربان لبسط نفوذهما في مناطق الاستعمار في اميركا الجنوبية وأفريقيا . بما انهما كاثوليكيتان احتكمتا الى البابا بصدد مستعمراتهما الاميركية فحدّد لهما خط طول فما يقع شرقيه للبرتغال وما يقع غربيه لاسبانيا . وهكذا كان نصيب البرتغال البرازيل التي تتكلم الآن البرتغالية ونصيب اسبانيا باقي بلدان اميركا الجنوبية وكلها تتكلم الآن الاسبانية .

سنة ١٨٠٨ لجأت الى البرازيل الاسرة البرتغالية المالكة هاربة على ٤٠ سفينة من غزوات نابليون بونابرت . وسنة ١٨٢١ بعد ان استراحت اوروبا من حروب نابليون عاد الامبراطور يوحنا السادس الى البرتغال تاركاً ابنه بدرو نائباً في البرازيل . بعد سنة واحدة أعلن « بدرو » نفسه امبراطوراً

مستقلاً وفصل البرازيل عن البرتغال . سنة ١٨٨٩ خلع الامبراطور بدرو الثاني وأعلنت البلاد جمهورية دستورية .

صورة من عل :

مهما تفنّن البراع في وصف ريو دي جانيرو يبقى عاجزاً . لكي لا تضيع تأثيراتي عنها في كلام وهمي . تعالَ معي نلقِ نظرة عليها من قمة « اكمة الأحدب ـ كركوفادو » حيث ينتصب تمثال المسيح الفادي الذي اصبح من أشهر معالمها وقد أهدته شركة « جنرال الكتريك » : الآفاق الشاسعة مقفلة بسلاسل جبال حلقاتها قمم مسنّنة . أمامها سفوح ومروج خضراء منبسطة وراء بحر أزرق زرعت فيه عشرات الجزر نابتة من الماء منتصبة كالأبراج . الذروة التي أشرف منها الآن تقف على شاطىء خليج « جواناباريا » وتعلوه ٧١٢ متراً . التمثال المرتفع ٣٠ متراً يتطلع الى مدخل الميناء باسطاً ذراعيه كأنه يستقبل كل قادم وكأنه يقول للبشر الطامعين المتعبين الماديين : تطلعوا الى فوق ! أغرب ما يوقف النظر أكمة « رغيف السكر » الواقعة على قاب قوس الخليج إزاء « الأحدب » وهي جرداء ملساء مرتفعة ٣٩٥ متراً وكأنها متحفزة لتغطس في الماء .

الى جمال الطبيعة أضافت يد الانسان مدينة متلوية مع تلوّي الشطآن ، ترتفع في احضانها أبنية متنوعة الاشكال والألوان أروعها البنايات القائمة حول قوس شاطىء « كوباكابانا » الشهير وكلها بعلوّ واحد وبتصميم هندسي واحد . كلمة « كوباكابانا » هندية معناها « القوس الأزرق » وهو حقاً كذلك. مياهه الفاترة تسمح بالاستحمام فيه تسعة أشهر في السنة. سنة ١٩٦٣ اكتسبت البلدية شاطئاً إضافياً من ردم البحر ليقرّب بين اطراف المدينة المتباعدة وهو شاطىء « فلامنجو » . أغلب أبنية المدينة بيضاء . سكان ريو يلقبون بـ « كاريوكاس – CARIOCAS » أي منازل الرجل الابيض . كل

شيء هنا جميل حتى اسم المدينة . ألا يكفي اسم العَلَم أن يكون ذا رنّة موسيقية حتى ولو كان دون معنى واقعي . وكثيراً ما يفضل الانسان الخيال على الواقع ! عندما اطل البرتغاليون بمراكبهم منذ اربعمائة سنة ونيف دخلوا بين هذين الجبلين في شهر كانون الثاني وظنوا ان الماء هو نهر يصب في المحيط فدعوه « ريو دي جانيرو » أي نهر يناير .

حقاً هـذا المنظر أخاذ خاطف لكنه يمر بسرعة كالجمال فأخذ الضباب يتصاعد من الخليج ويلف ربوة « الاحدب » الى ان ابتلعها بأكملهـا فنزلت بالقطار البطيء المتشبك في السفح وهو يتدرج الهوينا كأنـه يخاف ان يهوي في الغابة الاستوائية التي تحتويه وبدأت التجول في احياء المدينة .

شوارع « ريو » ضيقة ما عدا شارع « الرئيس فارجاس » وهو الرئيس الذي انتحر سنة ١٩٥٤ . تبدو المدينة خانقة بجلجلة تتزاحم فيها السيارات ويضيع الوقت بسبب تلويها مع الشواطىء . السائقون لا يحترمون إشارات المرور وإعلاناته معترضين بأنهم لن يصلوا ابداً إذا تبعوها فغيرهم يزاحمهم .

زرت ملعب كرة القدم « ماراكانا » وهو اكبر ملعب في العالم يسع ربع مليون متفرج وله ٣٢ بوابة . البرازيليون شديدو التحمس والهوس لهـذه الرياضة وأشهر لاعبيهم « بيليه » يدعونه « الملك » وهو معبودهم الاول . في اضطرام حماسهم قـد يخلّون بالنظام ويقتحمون الملاعب يرفعون هـذا على الاكتاف ويضربون غيره ، لذلك حفر هنا خندق حول الملعب عرضه ثلاثة امتار يفصل بين ادراج المتفرجين وبين اللاعبين .

متحف الهنود :

الهنود هنا وفي كل القـارة الاميركية دعوا هنوداً لأن مكتشفي العـالم الجديد ظنوا ان اميركا التي بلغوها عن طريق بحر الغرب هي الهند . ان

محتويات هذا المتحف الصغير تشبه الى حد بعيد محتويات متحف « داكار » سيوف وفؤوس وحراب من خشب . في يمين الهندي سلاحه العصا وحول رأسه المروحة المريشة . أدوات من قش وخوص لحمل كل شيء حتى الاطفال. عقود من الصدف تتدلى من الشفة السفلى او تطوّق العنق . قرط في خرم الأنف . أدوات منزلية أغلبها من الخشب او الطين . فرش البيت حصير . مجموعة من الأقنعة . تماثيل « أشباح الحقول » التي كانوا ينصبونها لتخيف الحيوانات المتلفة للمزروعات . ناي من القصب او بالأحرى نايان توأمان مثل « المجوز » اللبناني . غلايين للتدخين ولقد تعلم الاوروبيون التدخين من هنود اميركا فعندما وطىء كولومبو أرض اميركا ورأى الهنود يدخنون قال : كم هؤلاء القوم متوحشون ، يدخلون الدخان في أفواههم وينفثونه من أنوفهم ! جعلني هذا المتحف افكر في طريقة معيشة قرويي الجبال كيف كانت الى وقت قريب تشبه طريقة هؤلاء الهنود : أدوات القش والخشب والحصيرة وأواني الطين وأشباح الحقول الخ.. حقاً ان الانسان هو ابن لبيئته و «الحاجة هي أمّ الاختراع » تدفعه ليوجد حوله ما يلبّي مطالبه في الحياة. ان التقدم ان لا يبقى الانسان ابن بيئته بل أن يكيّفها ويصنّعها فالتصنيع هو التحويل.

مشكلة تدهور العملة :

لدى خروجي من المتحف مررت بشارع اصطفّ فيه ماسحو الأحذية ولحسن حظي التقيت بايطالي « دردشت » معه بالايطالية . ظن انني ايطالي مثله فتركته وظنه .. أجلسني على كرسي عال جداً بحيث وهو واقف تصل يداه الى قدميّ . فهمت منه انه هاجر الى هنا منذ سبع سنين ولم يجد عملاً أحسن من هذا ، إذ يكسب ١١ سنتاً في كل مسحة حذاء . قال لي انه حين قدم الى البرازيل كان الدولار الاميركي يساوي ٥٠٠ كروزيرو والآن يساوي ٢٢٠٠ كروزيرو . والمعيشة تغلو وتغلي بسبب تدهور العملة المستمر . ان

قريباً لي في البرازيل أخبرني أنه منذ عشر سنوات سافر بحراً الى لبنان حيث قضى أربعة أشهر . صرف حينئذ للسفر كـــله أربعين الف كروزيرو كانت وقتئذ مبلغاً ضخماً والآن تساوي فقط ١٨ دولاراً ! عند الاصيل أخـــذت المركب السياحي الذي يذهب ويجيء بين « ريو » وجزيرة « پاكيتا » مـدة ثلاث ساعات بين عشرات الجزر . الغريب في هذه الجزر ان بعضها صخري أملس يبدو كجلد الفيل وبعضها صخر او صخران فقط . وبعضها الآخر باقة من أشجار النخيل او جوز الهند. وفي غيرها بيت او اكثر للسكن او مرسى للمراكب او مستودعات بترول . خلال النزهة كان الترانزستور ينقل مباراة كرة القدم من « ماراكانا » بين البرازيل وتشيكوسلوفاكيا . فازت البرازيل فعمّ المركب هياج وصراخ وعناق وقفز وغناء . جزيرة « پاكيتا » لا شيء هام فيها سوى أنها نهاية النزهة الجميلة . في طريق العودة غربت الشمس وراء القمم المسنّنة وكان أجمل مـا في ريو بعد الغروب تمثال المسيح الفادي مضيء في فضاء مظلم كأنه قضيب فسفور معلق في الهواء .

عالم نبات غريب :

في البرازيل ثلث أشجار العالم فلا بدّ من زيارة لحديقة النبات فيها. لحسن حظي صادف يوم زيارتي — وهو ١٣ حزيران — الذكرى المائـــة والثامنة والخمسين لإنشاء الحديقة . رافقني مـدير الحديقة « لويس ادموندو بايس » إذ رآني كاهناً غريباً، ففي الحديقة ذكرى طيبة لرهبان وكهنة ساهموا في إنشائها وعيّن امبراطور البرازيل بعضاً منهم مديرين فيها . كان يخاطبني بالبرتغالية وأخاطبه بالايطالية. تبلغ مساحة الحديقة ٣٤٣ ٥٦٤ مترا مربعاً وفيها سبعة آلاف نوع من النبات . أول مـا يلفت النظر فيها أصناف من النخل العالي واقفة كالشموع عمرها ١٢٤ سنة وعددها ٢٢٠٠ . في نظر المدير أجمل شجرة هي الـ «سوماوما» من فصيلة شجر الباوباب الذي رأيته في السنغال . وأراني

شجرة الـ « كاموانسيا » التي دعيت هكذا تكريماً للشاعر البرتغالي الشهير « كامويئس » مؤلف « اللويزياد » . ثم « عروسة الامازون » التي تدعى أيضاً «الملكة فكتوريا» . تنبت هذه الزهرة في الماء وورقها كطبق مستدير وزهرتها بجانبه كوردة حمراء . تصل أحياناً دائرة زهرتها الى ستين سنتيمترا ودائرة ورقتها الى ستة أمتار فهي من أكبر الاوراق في الطبيعة . وهنالك شجرة « آكلة الحشرات » التي تطبق ورقتها على الحشرة وتفنيها . روى لي المدير وقرأت في دليل الحديقة ان «البرت اينشتين» عندما زار الحديقة سنة ١٩٢١ ركع أمام هذه الشجرة مأخوذا بها وبميزتها المذكورة . ذكر لي بعض اسماء شعبية للزهور مثل: الملاك ــ الشمعة ــ ياسمين العذراء ــ لسان البقرة ــ شجرة الموت الخ.. رأيت اليوم لأول مرة بعض الاشجار مثل الأناناس وجوز الهند والمطاط [1] و « الاباكاتي » التي تشبه ثمرتها البرتقالة لكنها خضراء ، و « الجوارانا » التي تشبه الكاكي ومنها يستخرجون مشروباً لذيذا جدا . و «المأمون» وهو مثل الشمام من الداخل ومن الخارج لكنه يتدلى من الشجر.

بتروبوليس :

بعد الظهر اخذني صديق في سيارته الى مدينة « بتروبوليس » وهي المدينة التي انشأها « بدرو الأول » وجعل منها مصيفاً راقياً . انها على بعد ٧٠ كيلومترا من ريو وعلى ارتفاع ٩٠٠ متر عن سطح البحر . الطريق اليها مصعدة بين الجبال والأشجار الكثيفة الظليلة ذات اللون الأخضر الزاهي . بدت لي « بتروبوليس » وكأنّ فيها شارعاً واحدا طويلاً جدا يمر في الوادي

---

(١) هرّب انجليزي من البرازيل بذور شجرة المطاط « الهيفيا » الى الشرق الاقصى . كان الهنود يجرحون جذع الهيفيا ويتلقون السائل في أواني فيصبح لزجاً في آخر النهار فيعملون منه كرات ضخمة ويبيعونها « كارتشوك » .

وعلى جانبيه المدينة المستطيلة بمبانيها الأنيقة ذات الدور الواحـــد . تناولنا طعام العشاء عند اقارب صديقي وسمعت منهم امرا مستغربا : عندما وصلوا الى هنا وكانوا يأكلون من الخضرة استهجن ذلك منهم البرازيليون ودعوهم « الارانب » كأنّ اكل الخضرة امر جديـد في البرازيل . ان البرازيل بمناخها المتنوع وأراضيها المترامية وتربتها الخصبة وشمسها القوية تكفي لتموين اوروبا كلها بالخضرة لو اهتمت بذلك .

●

٤

برازيليا

حلم نبوي :

« بين خطي العرض ١٥ و٢٠ حيث ستلتقي ثلاثة أنهر لتكوّن بحيرة ستولد حضارة عظيمة . سيحدث هذا في الجيل الثالث وستكون تلك البقعة أرض ميعاد » .

كان هذا حلماً رآه القديس يوحنا بوسكو الايطالي في ٣٠ آب سنة ١٨٨٣ ودوّنه في المجلد السادس عشر من ذكرياته وتحقق الحلم . نحن الآن في الجيل الثالث من بعده والتقت أنهر « جاما » و « تورتو » و « ياكوفوندو » وكوّنت بحيرة قامت بجانبها مدينة وسط بقعة تقع بين خطي العرض ١٥ و٢٠ .

بانت لي برازيليا من الجو كطائرة جبارة رابضة وكان تخيّلي صحيحاً إذ تحققتُ بعدئذ أنها صمّمت على شكل طائرة فهي عاصمة القرن العشرين عصر الطيران والفضاء .

نقل العاصمة :

عبرالتاريخ نُقِلت عواصم عديدة مثل القسطنطينية والاسكندرية وأنقره وطوكيو وأوتاوا وكانبرا وبتروجراد .. لكن عادة المدن الكبرى والعواصم هي التي تغيّر مجرى التاريخ ، أما في برازيليا فمجرى التاريخ فرض نقل العاصمة . تولدت فكرة النقل من أسباب عديدة أهمها : لم تعد « ريو » تصلح كعاصمة بسبب بعدها عن سائر أطراف البلاد ومناخها السيء وتجمع السكان حولها وحول « ساوباولو » . ان البرتغاليين ومن بعدهم استوطنوا الساحل وأهملوا الداخل فنتج عن ذلك ان بلاداً مساحتها ثمانية ملايين ونصف مليون كم ٢ تجمّع ثلاثة أرباع سكانها في طرفها الجنوبي وبقي شمال البلاد كأنه مقطوع عن جنوبيها ، وشرقيها عن غربيها . من جراء ذلك كان تفاوت شاسع بين سكان مختلف المناطق عرّفه المثقفون بهذا التشبيه : عصر المحرّك في الشاطىء الجنوبي وعصر الحمار في الداخل والعصر الحجري في مقاطعة أمازونيا في الغابات حيث القبائل البدائية .

إن الموقع المختار للعاصمة الجديدة هو في وسط البلاد ويربط كل أجزائها وينعش الداخل المهمل ويبعد موظفي الحكومة والسلك السياسي عن جو « ريو » الداعي الى الملاهي والباعث على التعب والكسل بحرارته ورطوبته . أما هنا فالعاصمة على ارتفاع ١٢٠٠ متر عن سطح البحر ، ومناخها جيد على مدار السنة ، ومعدّل درجة الحرارة في الصيف ٢٢ مئوية وفي الشتاء ١٩ ، والعاملون فيها يتفرغون بهدوء وجدّ لعملهم في خدمة البلاد والشعب .

تصميم طائرة :

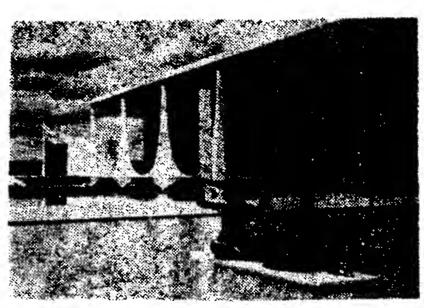
بعد اختيار الموقع بقي اختيار التصميم والهندسة . تقدم المهندسون فرادى وجماعات بستة وعشرين مشروعاً درستها لجنة مكوّنة من مهندسين برازيليين وأميركيين وبريطانيين وفرنسيين وايطاليين وفاز المهندس البرازيلي



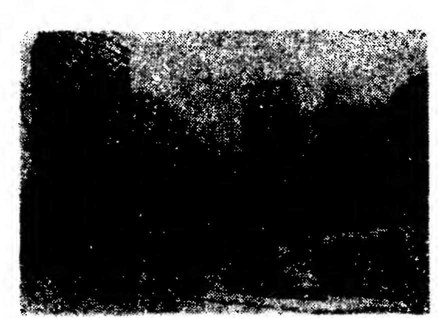
من شوارع برازيليا



ميدان السلطات الثلاث



قصر الرئاسة



منظر من ساوباولو

« لوسيو كوستا » الذي قـــدم تصميمه بشكل طائرة طول جسمها ١٥ كم وطول الجناح الايمن ٧ كم وكذلك الايسر . الشوارع مستقيمة وهي بالأرقـام لا بالأسماء وليس فيها تقاطع فـلا يقطع شارع شارعاً آخر بـل يمرّ تحته او فوقه . في رأس جسم الطائرة دور الحكومة وفي ذيله محطة القطار والسوق الكبيرة وما بينهما مباني المرافق والخدمات العامة من فنادق وبنوك ومركز البوليس ونوادي وبرج التلفزيون . الجناحان الايمن والايسر للسكن وللتجارة وللأعمال . ان تصميماً كهذا واضحاً منظماً مستجداً يوحي بـأن برازيليا ستكون كذلك .

عاصمة الغرائب :

في المطار استأجرت من مكتب السياحة دليلا فردياً دفعت له ٢٠ دولاراً ليبقى معي نهاراً كاملا ويريني في برازيليا كل كبيرة وصغيرة وغريبة فهنا عاصمة الغرائب ! سكان برازيليا ٣٢٠ ألفاً ٨٠٪ منهم موظفو الدولة يشتغلون من الساعة ١٢ ظهراً الى ٦ مساء فحتى مواعيد العمل غريبة ! مبانيها على هذا الطراز : حول ميدان فسيح يقوم مربع من إحدى عشرة بناية مصممة بحيث ترى كلها الشمس وتسرح فيها العين الى أفق بعيد. نوافذها من جهتين فقط . لكل شقة مرآبها (جراج) تحت البناية وثمانية مصاعد من المرآب الى الشقق . في الشقة ثلاث غرف حمام . ايجارها لموظفي الدولة ٣٠ ألف كروزيرو (١٤ دولاراً)، ولغيرهم ٤٠٠ مئة ألف كروزيرو (١٨١ دولاراً) . كل اربع مربعات أي كل ٤٤ بناية تكوّن مجموعة كبرى لها كنيستها ومستوصفها وسوقها ومدرستها للحضانة وللفصول الابتدائية وناديها وفيــــه حوض سباحة وحديقة وصالون ومطعم وبار وملاعب رياضية. في الشوارع الصغيرة والمفضية الى داخل البنايات تبرز اضلاع صغيرة تضطر السائقين الى التأني . الشارع الرئيسي رقم ٣ عرضه ٤٠ متراً يضاف اليها الرصيفان وعرض كل رصيف ١٠ أمتار فيه من جهة مخازن ومن الجهة المقابلة سكن. شارع رقم ٥ للكنائس وللمدارس الثانوية من سن ١٢

الى ١٨ . مواقف السيارات في وسط الشارع بين اتجاهي المرور . رأيت مدرسة حكومية لا نوافذ لها بل من سطحها يدخل النور والهواء ولا تنفذ اليها الامطار . يتفننون جداً في هندسة الكنائس ، فكنيسة سيدة فاطمة على شكل قبعة راهبة من راهبات المحبة والكاتدرائية بشكل تاج لا حوائط لها بل عواميد من رخام وبينها ألواح زجاج ومدخلها من تحت الارض . من البنايات الغريبة مسرح في الهواء على شكل هرم مدرّج مكسيكي .

أروع ما في برازيليا ميدان « السلطات الثلاث » التشريعية والتنفيذية والقضائية وهو من تصميم أشهر مهندس برازيلي « اوسكار نيميير OSCAR NIEMEYER » الذي كتب عن نفسه : « ان إنشاءاتي الهندسية غريبة توافق طبعي البوهيمي » وتم فيه القول : إن الهندسة هي موسيقى الخطوط. في وسط الميدان بنايتان توأمتان نحيفتان صاعدتان ٢٥ دوراً كعلبتي كبريت فيهما مكاتب أعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء مجلس النواب . عن اليمين طبق أبيض لا منفذ فيه وعن اليسار قبة بيضاء لا منفذ فيها يخالها المرء المزينة لكنهما الاول قاعة مجلس النواب والثاني قاعة مجلس الشيوخ والدخول اليهما من تحت الأرض . حضرت مع دليلي نصف ساعة من الجلستين المنعقدتين في مجلس النواب (٤٠٩) وفي مجلس الشيوخ (٦٦) أي ثلاثة عن كل ولاية من ولايات البلاد الاثنتين والعشرين . عجبت – او بالحري لم أعجب كثيراً – كيف يجلس الاعضاء بغير اكتراث ويتحادثون ويذهبون ويجيئون بينما الخطيب في أشد حماس يدافع عن مشروع فيه حياة او موت ! قال لي الدليل إنهم سنوا هنا قانوناً حرموا به الرئيس السابق « كوبتشيك » باني برازيليا من حقوقه السياسية لمدة عشر سنوات هو وزمرة من المقرّبين اليه اتهموا تهماً عديدة متعلقة بإنشاء برازيليا .

يقوم في الميدان تمثالان من البرونز لعامل وعاملة يطلق عليهما اسم « كاندانجوس – CANDANGOS ». في الاصل اطلق السكان الاصليون هذه

الكلمة ـ ومعناهـا الوسخ ـ على البرتغاليين دلالة على الازدراء والاشمئزاز . ثم حصرت في عمـال شمال البرازيل وأخذها لنفسهم العمال الذين شيدوا برازيليا فتحوّل معناها الاصلي حتى ان كوبتشيك كان يجاهر في خطبه انه « كاندانجو » رقم واحد في برازيليا !

من هنا اخذني الدليل الى شاطىء البحيرة قرب قصر الرئيس المنبسط على ضفتها بشكل قيثارة وحوله مرج اخضر وحديقـة يابانية وكنيسة صغيرة بشكل قوقعة . ثم مررت في « شارع الأمم » المخصص للبعثات الدبلوماسية. قدّمت البرازيل مجاناً لكل دولة قطعة أرض مساحتها ٢٥ الف متر مربع (٢٥٠ × ١٠٠ متر) لتقيم بناية لا تتجاوز ثلاثة أدوار وتبقى حول جهاتها الاربع أرض فضاء . قدمت القطعة الاولى للفاتيكان لأن ممثـل الكرسي الرسولي هو دوماً عميد السلك السياسي في البرازيل اكبر بلاد كاثوليكية في العالم . وباقي القطع وزعت على سائر البلدان بالقرعة . تقوم البنايات على جهة واحـدة من « شارع الأمم » ومن الجهـة الأخرى حدائق ونواد وشاطىء البحيرة .

حول المدينة أجّرت الحكومـة الفيدرالية ٣٠٠ مزرعة لتغذّي العاصمة بكل مـا يلزم من مأكل . يعمل فيها كثير من اليابانيين كما يعملون في جهات زراعية عديدة من البلاد .

٥

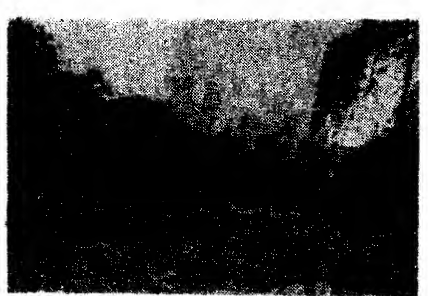
ساوباولو

مركز الثروة :

ساوباولو هي اوسع مدن البرازيل وأغناها وأكبرها عدداً (٥ ملايين نسمة) . وهي مدينة البنوك والبن والبنايات الشامخة الرشيقة . وهي مدينة المصانع إذ فيها وحولها نحو ٢٥ الف مصنعاً تشجعها الدولة بتقييد الاستيراد لإنعاش الإنتاج الوطني . وتغذّي ولاية ساوباولو ٦٥٪ من خزينة الدولة .

مع دليل لبناني :

تعرّفت على « ساوباولو » مع دليل آثرت أن اكون معه وحدي . بدأ يشرح باللغة الإنجليزية وأنا اكتب باللغة العربيـــة وإذا به يفاجئني : « انت ابن عرب ؟ » اجبته : « انا لبناني » . فأجاب : « وأنا ايضاً لبناني اسمي عزيز توما حبيب من زحلة » وأرفق هذا التعرّف بعبارة زحلاوية مستملحة لا يطاوعني قلمي لذكرها هنا ... طوى ١٣ سنة في ساوباولو وهو في خدمة السائحين يتكلم ست لغات . كان مسروراً بأن يحادثني بالعربيـة وبأن يريني اقصى ما يستطيع . قال لي ان ابناء العرب كثيرون جداً هنا ولامعون في



في ساوباولو



من فواكه البرازيل



طريق سانتوس



سانتوس

كل نواحي الحياة ولهم جمعيات ونوادي ، والأكلة المفضلة في كل ساوباولو هي « الكبّة » . وفعلاً يقدمونها في كل مطعم وبوفيه وبار .

ارقام البيوت هنا حسب الأمتار فبعد رقم ١٠٢٦ مثلاً قد أقرأ رقم ١٠٤٨ والسبب هو أن الأرقام تدل على المسافة بالأمتار من اول الشارع . طريقة لا بأس بها خصوصاً للسائر على قدميه ...

اجمل ما في ساوباولو ناطحات السحاب المزخرفة الرشيقة رسم العديد منها «اوسكار نيمير» . ومنها بناية ملتوية علوها ٤٢ دوراً وبناية « ايطاليا » ٤٥ دوراً بشكل اهليلجي . سررت جداً برؤيتها لأنني كنت قد اعجبت بها حين رأيتها في القاهرة في عرض سينمائي قدمته سفارة البرازيل .

يشعر المرء انه لا فروق هنا في اللون والجنسيات والدين والمستوى الاجتماعي . من عاداتهم انه عندما يموت احد لا يسجّونه في البيت بل في قاعة كبيرة مخصصة لعرض الجثمان تكون عادة ملحقة بالكنيسة وبعد تقبّل التعازي يدفنونه بدون صلاة وفي اليوم السابع يقيمون الصلاة .

مزرعة الأفاعي :

ساوباولو ممتدة على مرتفعات متعاقبة ولذا شوارعها صاعدة نازلة . قطعت حيّ « باكمبو » أي الجرادين وتجولت في الجامعة وزرت معهد « بوتانتان » ومعناه « جبل الهواء السريع » حيث توجد اكبر مزرعة للأفاعي في العالم . هنا يشترون الأفاعي من اي شخص يصطادها . يضعونها في صناديق من زجاج او في قباب من طين او في حفر عميقة مفتوحة لاتستطيع تسلق جدرانها ، او في حجر بالحائط. تأكل ضفادع وفئران وما الى ذلك وأحياناً تأكل بعضها . رأيت ثمان افاعي ملتفة على بعضها فقال لي الدليل انها تفعل هكذا عندما تشعر بالبرد . منذ أن اكتشف الدكتور البرازيلي « فيدال برازيل » التطعيم



استقطار السم

ضد لدغ الأفعى انشأوا هذا المعهد . كل ١٥ يوماً يستخرجون السم من الحية ويصنعون منه « السيروم » للتطعيم او لأية ادوية تفيـد ضد لدغ الثعبان .
الأفاعي تبعث الهول لمجرد ذكر اسمها ولكن هنا يعيشون معهـا ويحبونها فأمامي أمسك أحد العاملين بحيّة بيده اليسرى بين إبهامه وسبابته وضغط ففتحت فاها فأمسك ملقطاً بيده اليمنى وأزاح اللحم عن نابيها وعصر فتقطر السم نقطاً . توسّع المعهـد فأصبح يستخرج السموم من العناكب والعقارب لاستعمالها في الأدوية .

خطر لدغ الافعى يتوقف على ثلاثة عناصر هي نوع السم او قوة فتكه وكمية السم المفرزة والمسافة بين الافعى وفريستها . ان كمية السم تقـاس بال « جام – GAMME » وهو جزء من الف من المليجرام ويكفي لصرع حمامة يبلغ وزنها ٣٠ جراماً . يفتك السم بالجهاز العصبي ويحدث الشلل فإذا لم يعط الملدوغ حقنة « السيروم » بسرعة يموت بعد ساعات معدودة ، وحتى ٢٠ ٪ من المحقونين يموتون . في البرازيل ٤٠ ٪ من الوفيات النـاجمة عن لدغ الافاعي هي من الافعى ذات الاجراس التي تفرز لدغتها ثلاثة آلاف «جام» ولدغتها اقوى فتكاً عشرين مرة من الافعى « المرجانية – CORAIL » . بينما لدغة افعى « سوروروكو » تفرز سنتيمترين مكعبين اي ٦ آلاف جام ولا تقلّ خطراً عن ذات الاجراس . الافعى الطويلة تطال الملدوغ بسرعة وعن بُعدٍ وفي استطاعتها أن تلدغه في اي جـــزء من جسمه بينما الافاعي القصيرة لا تصل بنابيها الى فوق ركبة الإنسان فيكفي حذاء عال قوي لتجنب لدغها . كان الهندي يبتر لحمه في موقع اللدغة ويجوّفه ويضع فيـه مسحوقاً ثم يربطه بشدة . عندما تبدّل ذات الاجراس جلدها يبقى مؤخره عند ذيلها اشبه بزعنفتين متقابلتين وعند كل تبديل تضاف إليهـا زعنفتان اخريان كصنجين صغيرين . وقـد يصل عدد الزعانف الى ٤٤ اي ٢٢ من كل جهة . عندما تستشعر حركة ترفع رأسها وترقّص ذيلها يمنة ويسرة فيُسمع حفيف رنان ثم تنشب الى مكان الخطر .

مليونير عربي كان بائعاً :

أجمل حيّ سكني مررت به كان « حديقة اوروبا » و «حديقة اميركا » حيث الشوارع تحمل اسماء بلدان اوروبا وأميركا وكلهـا فيلات وقصور وحدائق . لا مخازن فيها ولا مصانع ولا ضجيج . أراني الدليل بيت مهاجر عربي اسمه الحالي « كاميلتو » لا يعرف القراءة والكتابة بل يبصم فقط . بدأ عمله بائعاً متجولاً سلعته على ظهره . ثم اشترى قطعة ارض في بقعة مهجورة ومع مرور الزمن اصبحت حيّاً غنياً وارتفع سعرها فأصبح هو مليونيراً بالدولارات وليس بالكروزيرو ، إذ أن مليونير الكروزيرو هنا ليس بشيء . وهكذا حكايات المليونيريين العرب هنا لا تنتهي ...

وقفت عند نصب « العَلَمْ » في حديقة « إيبيرابويرا » وقـد اقيم هنا سنة ١٩٥٤ احتفالاً بمرور اربعمائة عام على تأسيس مدينة ساوباولو . الجنود حاملو العلم هم « البنديرانتيس » الذين كانوا طليعة الفاتحين البرتغاليين . اسس ساوباولو كاهن يسوعي اسمه « خوسا انشيتا » اقيم له تمثال في الميدان الرئيسي امام الكاتدرائية .

الطائرة الأولى :

في متحف العلوم والطيران رأيت الطائرة الاولى التي اخترعهـا البرازيلي « سانتوس ديمون » . مساحتها ٨٠ متراً مربعاً ووزنها ١٦٠ كيلوجراماً من خشب . طار بها سانتوس ديمون امام جمهور في باريس سنة ١٩٠٦ إذ ارتفعت عن الأرض ٧٠ سنتيمتراً وطارت ٧ امتار ! ماذا كان يقول سانتوس ديمون الآن لو قطع معي المحيط الاطلسي بدون توقف في ست ساعات ؟ .. في هذه الستينيات تقدم العلم اكثر مما تقدم منذ بدء الحياة على هذا الكواكب وإذا قـُدِّر لنا أن نعيش الى سنة الفين فمـاذا سنرى ؟ وهل سنكون على الأرض ام على كوكب آخر ؟ ...

حول ساوباولو ذهبت الى « كمبيناس » على بعد ١٠٠ كيلومتر وفيها مطار ساوباولو الدولي . رأيت شجرة البن لأول مرة وهي اشبه بشجرة الليمون الحامض تعطي حبوباً ذات قشرة حمراء ، تزال القشرة فتظهر حبة البن التي يجففونها ثم يبيعونها . قضيت بعض الوقت في مكان سياحي معروف اسمه « نبع سونيا » حيث المياه ذات خواص إشعاعية . ورأيت شجرة غريبة يسمونها شجرة القطن وهي رغم عظم حجمها تخلو من الورق وثمارها بحجم برتقالة لبّها ابيض .

سانتوس :

تقوم ساوباولو على هضبة مرتفعة ٨٠٠ متر عن سطح البحر وطول الطريق منها الى مينائها سانتوس ٧٥ كيلومترًا . اشهر طريق في البرازيل هو الذي نسلكه الآن . ينحدر بين الربى والسفوح الخضراء والبحيرات الى سانتوس . الطريق ذو اتجاه واحد حتى بجسوره وأنفاقه ، فالسيارات الصاعدة الى ساوباولو لا تلتقي بالمنحدرة الى سانتوس . متعة سكان ساوباولو الكبرى هي القيادة على هذا الطريق « المسكر » حسب تعبيرهم ويسألون كل غريب : هل نزلت إلى سانتوس ؟ .

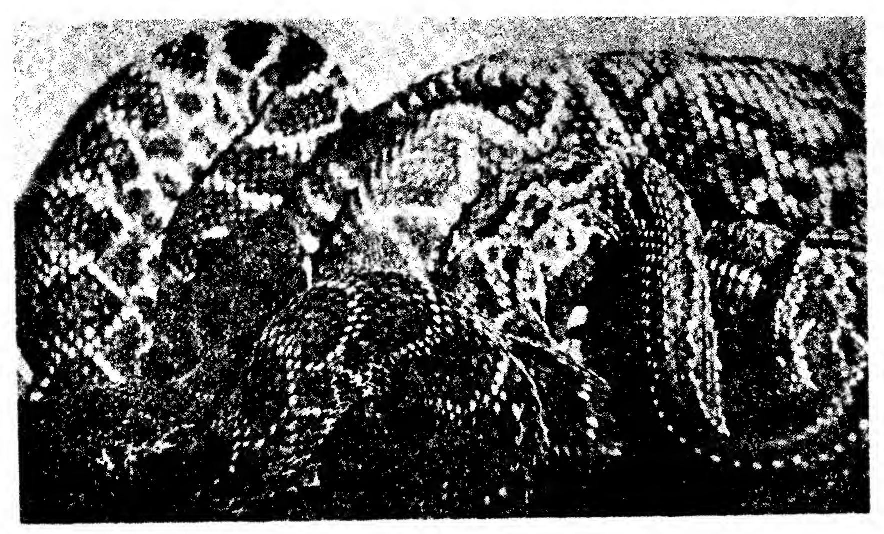
من سانتوس يُصدَّر ٤٠٪ من بن العالم وهي ايضاً مصيف اثرياء ساوباولو. تدور حول البحر في قوس متباعد القابين جدًا تقوم عليه بنايات لا تقل جمالاً عن بنايات ساوباولو وتزيدها ألواناً ورونقاً . زرنا المدينة وجزيرة « بورشا » (اي الخنزير) وشبه جزيرة « جواروجا » حي الاثرياء وشاطيء « سلاحف البحر » حيث يداعبها المستحمون ويطعمونها . في المخازن جبن معلق ضخم جدًا يبين كجذع شجرة او كخنزير مذبوح معروض للبيع . وموز صغير جدًا يدعونه « اصابع الذهب » . لاحظت هنا – كما في ريو – انه لا توجد شواطيء خاصة بأفراد او بهيئات او بنوادي فالشواطيء حرة مفتوحة

للجميع مجاناً . وإذا ما سمعت انهم في البرازيل يسيرون في الشوارع بثوب الاستحمام فلا تستعجب لأنه لا توجد « كبائن » على البحر .

في سهرة الوداع مع اصدقائي استنتجت أن البرازيل لا تصلح الآن للهجرة . فرص العمل محصورة في ريو وساوباولو . غلاء المعيشة في تصاعد لا يطاق بسبب التضخم وتدهور العملة وحدود الإيراد . لا ينجح إلا صاحب رأس المال لكن كل المدخرات تتبخر بسقوط العملة .

من ساوباولو الى « إيجواسو » كانت ارض البرازيل تحت الطائرة تلالاً بعد تلال مما يزيد في مساحة الأراضي القابلة للزراعة . هبطت الطائرة في حقل يدعى مطار «بلدة شلالات إيجواسو» . قضيت بعد الظهر في الاستمتاع بمنظر الشلالات وبت ليلة في « فندق الشلالات » الذي هو من اجمل وأفخم فنادق البرازيل .

وفي اليوم التالي عبرت نهر إيجواسو بقارب الى الأرجنتين . استغرق الانتقال من حدود الى حدود دقيقتين ولكن هنا الساعة ٩ صباحاً وهنالك ٨ صباحاً .



في مزرعة الأفاعي

٦

الارجنتين

شلالات ايجواسو

لمحة عن الارجنتين :

الارجنتين ـ اقصى بلاد في جنوب القارة الامريكية ـ تبلغ مساحتها ٢,٧٧٦,٦٥٥ كيلو متراً مربعاً . امتدادها الشاسع من الشمال الى الجنوب يجعل طبيعة ارضها ومناخها متنوعين وصالحين لكل المزروعات . معظمها سهول وإنما فيها جبال شاهقة اشهرها سلسلة « الانديز » وأعلى قمة هي « اكونجاجوا » تبلغ ٦٩٥٩ متراً . انهارها طويلة جداً تلتقي فيها مئات الجداول والسواقي . فيها ٤٠٠ بحيرة أغلبها في بقعة «باريلوشه» سويسرا امريكا . مراعيها المترامية « البامباس » تنبسط خاصة في اواسط البلاد وتجعل منها أول قطر مصدّر للحوم وثالث قطر مصدّر للصوف والجلود . فيها أيضاً البترول وكل أنواع المعادن ما عدا الحديد . انها غنية جداً ولكن شعبها فقير ! تمتد « البامباس » الوف الاميال بدون شجر بل فقط أعشاب وحشائش وهي ملعب الرياح الهوجاء « بومبيرو » تهب وتندفع ولا مرتفع

يوقفها. في تلك المراعي بقية من القرويين «الفولكلوريين» اسمهم الـ «جاوتشو» وهم رعاة يمتطون الخيل وعلى رؤوسهم اقبعة واسعة مزخرفة أشبه «بالسومبريرو» وعلى الكتفين الشال الشهير «مانتا» وبدلتهم زاهية الالوان مزركشة والسروال فضفاض : زيٌّ يجعلهم ملوك البامباس غير المتوجين .

يبلغ عدد سكان الارجنتين حالياً ٢٣ مليوناً، ٩٧٪ منهم من أصل اوروبي لا سيما اسباني وهم يمتازون بالجمال والبشرة البيضاء والشعر الاسود ويزيد في جمالهم تأنقهم . عيونهم مائلة الى الجمال والجنس اللطيف ولا تنزعج الفتاة إذا مرّ بها أي رجل لا يعرفها وأسمعها كلمة استحسان بل قد تفكر أنه خامل قليل الذوق إذا تجاهلها ... تقول الارجنتين انها « بلاد الرجل الابيض » الوحيدة في القارة الامريكية فليس فيها بقايا زنوج أو هنود حمر .

سنة ١٥١٥ اكتشف الفاتح الاسباني « دياز دي سوليس » جوانب نهر « بلاتا » ولكن قتل مع رجاله على أيدي الهنود . سنة ١٥٢٧ صعد « سبستيان كابوت » في نهر « بارانا » وأنشأ محمية حيث تقوم الآن مدينة « روساريو » . رافقه مغامرون طامعون في العثور على الفضة . لم يعثروا عليها ومع ذلك ورّثوها للأجيال اللاحقة، فالفضة تدعى باللغة الاسبانية «بلاتا» وهو اسم النهر الكبير بل اسم البلاد « ارجنتين » أي الفضية . أصبح الاستعمار فعالاً ومسيطراً مع « مندوسا » سنة ١٥٣٤ .

ظل عدد السكان ضئيلاً زمناً طويلاً فسنة ١٨٥٧ لم يكونوا سوى مليون ونصف . أصبحوا بعد قرن واحد أكثر من عشرين مليوناً . لقد أمعن الفاتحون فتكاً وإبادة في السكان الاصليين كما فعلوا في كثير من بلدان امريكا.

بقيت الارجنتين تحت الحكم الاسباني الى ان استقلت بحرب التحرير (١٨٠٩ – ١٨١٨) على يد الثائرين الذين أصبحوا فيما بعد الابطال القوميين:

« بلجرانو وسان مرتين وبلكارسيه » وغـيرهم . تعاقبت فيها حكومات دكتاتورية وانقلابية ودفع هذان الطابعان الحكم في الارجنتين .

في اثنـاء الحرب العالمية الاولى حاربت الارجنتين الى جانب الحلفاء . أما في الحرب العالمية الثـانية فكان الحكام والعسكريون والبرجوازيون يميلون الى المحور « برلين – روما – طوكيو » بينما يميل العمال والمثقفون الى الحلفاء الغربيين فوقفت البلاد على الحياد. قد يفاجأ السائحون بأخبار انقلاب وهم يزورون الارجنتين وهذا ما حدث لي .

ايجواسو اروع منظر على وجه الارض :

بدأت جولتي في الارجنتين بحدودها مع البرازيل في « ايجواسو » عند ٢٧٥ شلالاً يبلغ عرضها الاجمالي – او نصف القمر كما يقولون هناك – ٤٠٠٠ متر ويتراوح ارتفاعها بين ٧٥ و ٨٥ متراً وتنصب في انحدارين او ثلاثة بين الخضرة . تعلو بقعتها عن سطح البحر ٣٠٠ متر . تنحدر الشلالات خصلات بيضاء متفاوتة الحجم والغزارة بين الحشائش والاشجار الكثيفة المتعانقة حتى تقع العين على اربعة انواع من النبـات ملتفة بعضها على بعض في تلك التربة البكر . هنـالك النباتات الغريبـة والطيور ذات الالوان الزاهية والوف الفراشات والقرود الأليفة تطالع السائح من خلال الاغصان . تسمع هـدير الشلالات ثلاثة بلدان هي البرازيل والارجنتين والبراجواي . بعد مسقطها تسير ٢٣ كيلو متراً فينضم نهر « ايجواسو » الى نهر « بارانا » الذي هو خط الحدود بين الارجنتين والبراجواي .

كان برنامجي ان اقـيم يوماً واحداً في تلك البقعة ولكني أقمت ثلاثة ايام للاستمتاع بما اعتقد انه أروع منظر على وجه الارض . الشلالات من الضفة الارجنتينية أجمل بحيث يقول السياح: الفندق للبرازيل والشلالات للارجنتين.

سلكت مع السياح مسالك وعرة تنفتح فيها فجوات على مناظر ساحرة وانحدرنا الى ضفة النهر بحيث وقفنا عند اقدام الشلالات . ثم صعدنا السفح وعبرنا جسوراً خشبية يجاوز عددها الاربعين ممدودة فوق صفحة النهر عند رؤوس الشلالات . التربة هنا لا حصى فيها ولا حجارة إلا بعض الصخور الملساء السوداء عند مسقط الشلالات .

تبدأ الشلالات انحدارها بلون وحل عكر ثم تنصب زبداً ابيض وحول جسمها وعند اقدامها رذاذ وضباب شفاف كأنه البخار . شعرت بدوار خفيف وانا اتابع منظرها من رؤوسها الى اقدامها . اقواس قزح متعددة تضفي على الوادي الضيق الواناً فرحة وهي تربط بين الضفة الارجنتينية والضفة البرازيلية . وبين الضفتين الوف والوف الفراشات الطائرة والعابرة بدون جواز سفر ! اعطى الارجنتينيون اسماء للشلالات الكبرى منها : الشقيقتان ــ آدم وحواء ــ رأس البقرة وهو لقب بطل اسباني ــ الفرسان الثلاثة ــ التل الكبير والتل الصغير ــ وبعض اسماء مشاهير البلاد ومنهم « ريفادافيا » اول رئيس جمهورية .

نحو الساعة الرابعة بعد الظهر يأخذ غشاء من الضباب بالتصاعد من مجرى النهر بعد مرمى الشلالات ثم يتكاثف كالغيم ويبقى هكذا طوال الليل الى ان تبدده اشعة الشمس . وسواء في الفندق البرازيلي او الارجنتيني يسمع هدير الشلالات طوال الليل كأنها اصداء قادمة من بعيد .

بلعوم الشيطان :

ارهب شلال يدعى « بلعوم الشيطان » وهو بعيد عن الفندق وصلنا اليه بعد ساعة في السيارة ثم مشياً على الاقدام فقفزاً على الجسور الخشبية فركوباً في القوارب . رافقنا الدليل وستة بحارة وركبنا ثلاثة قوارب صغيرة وقد ارتسم الخوف على وجوهنا خصوصاً عندما قيل لنا ان مغامرين لقيا حتفهما

هنا منذ زمن غير بعيد ... حاولنا إبعاد الخوف بالفكاهة والاميركيون لا ينقصهم المرح . فكنا نتساءل من يعرف ان يعوم وإذا انقلب القارب اين هي اقرب جزيرة واقرب شجرة . وإذا بقائل : انا لا اعرف ان اعوم . فأجابه ثان : على الاقل تعرف ان تغطس في « بلعوم الشيطان » مع الشلال من ارتفاع ٨٥ متراً ... « بلعوم الشيطان » يستحق اسمه الرهيب فهو هنا اغزر واعظم شلال تدور مياهه كالأعصار ثم تسقط في بلعوم بين حائطين من الصخور المخيفة ويحدث هديراً مروعاً . قال بعض السياح الاميركيين : مسكينة « نياجرا » إذا ما قيست بايجواسوا » ... ولكن الشهرة لنياجرا.

في حديقةالفندق رأيت لأول مرة نبات الشاي ونبات «الماتى» (جاربه) ان مهاجرينا العائدين من الارجنتين علّموا اللبنانيين والسوريين شرب « الماتى » يشربونها كالشاي او « يشفطونها » من اكواب خاصة بقضيب مجوف هو عادة من فضة . بعد الظهر تجولت لآخر مرة في الغابات حول الشلالات ثم أويت الى غرفتي ادوّن ذكرياتي عن هذه البقعة الساحرة قبل ان استقل الطائرة الى « بونس ايرس » . حلقت الطائرة فوق الشلالات فبانت كلها على امتداد الاربعة آلاف متر ورأيت « جسر الصداقة » الرابط بين الباراجواي والبرازيل فوق نهر بارانا و « هرم الحدود الثلاثة » رمز التضامن وحسن الجوار . مرت الطائرة فوق عشرات الجداول المتلوية في السهول قبل ان تلتقي بنهر بارانا الذي ثار منذ ايام قليلة واغرق بفيضانه مساحات شاسعة بدت كمستنقعات خالية من الاشجار يبرز منها العشب والنبات القصير . بعد غروب الشمس بقليل هبطت في بونس ايرس وقالت لنا المذيعة ان نلبس ثياباً ثقيلة لأن الحرارة في الخارج ١٢ درجة مئوية . لم انتبه حسناً لكلام المذيعة لأني كنت افكر في مشكلة شخصية ملحّة وهي ان اقاربي الذين سيستقبلونني الآن لا يعرفونني . ولكن لم يطل تفكيري في الحل لأن اصواتاً دعتني بإسمي وانا انزل سلم الطائرة ...

كانت سهرتي الاولى مع الاقارب طويلة وشيقة بعد ان قطعت ١٥٣٤٠ كلم للاجتماع بهم . اسمعتهم اصوات اقاربهم مسجلة على شريط وعرضت عليهم فيلماً عن بيوت آبائهم وعن الربوع التي ولدوا ولم يكبروا فيها وعن الوجوه التي يحنّون اليها وتحنّ اليهم رغم هذه الابعاد . حقاً ان بعض الساعات في الحياة مثقلة بالذكريات اكثر من اعوام كاملة ! ...



شلالات ايجواسو

٧



وقفة امام شلالات ايجواسو

إذا كان الجمال هو ما يلذ للعين وإذا كان الفن هو ما يعبّر عن الجمال فشلالات « ايجواسو » جمعت من كل فن في كل جمال . انها تحفة الباري الفنان الأعظم الذي ذرّ من جماله على الكون الذي أبدعه ورأى أن كل ما خلقه هو حسن .

هديرها الخالد يغنّي نشيد شلاّل الزمن :

انا اعذب غناء في الغابات والمنحدرات والأودية تبعثه أمواجي إلى قلب الأرض وإلى جوانب الفضاء .

أنا أجمل لوحة لم ترسمني يد بشرية بل خرجت من خيال الرسام الأول .

أنا أروع شعر ترويه الطبيعة الأولى الفطرية وتردده الطيور والاصداء والرياح .

لي ٢٧٥ ساقاً تتراقص بين الأشجار والأعشاب والصخور في عيد لا ينقطع .

في النهار أغني لألوف الفراشات الحائمة حولي ، ولمئات الطيور والحيوانات الآمنة في غاباتي وجنّاتي ؛ أغنّي للأشجار فتترنح أغصانها وأغني للضفتين فتطربان وأكون انا عناقهما . اغني لأقواس الغمام فتسطع ألوانها فوقي وتربط ضفة البرازيل بضفة الأرجنتين .

في الليل اغنّي للسماء المكوكبة ولأمواج الاثير الهائمة ، ولأشـــعة القمر الحالمة . اغني والطبيعة نائمة في كنفي . كل الاحياء بجواري من بشر وحيوان ونبات يغيبون في سنة الـكرى وأنا أسهر عليهم وأهد هدهم كأم بجانب أطفالها .

عند الغروب أتلحف الضباب المتولد مني ، وعند الشروق أشلحه وانفضه عن مجراي لاستدفىء بأشعة الشمس المنعكسة على صفحتي والمستحمة في مياهي.

أنبع من قلب الأرض . أوزّع الرواء والخصب والحياة . انصبّ من هنا ومن انصبابي يستخرج الإنسان طاقة ونوراً . أتابع مسيري معرّجاً عـبر الهضاب والسيول وأكسوها باللون الاخضر، وانثر الحسن في المدن والقرى إلى أن أضيع في اليمّ العظيم .

ثم أعاود الصعود على خيوطها أشعة الشمس إلى الغيوم أهيم معها في الفضاء إلى أن أتساقط على الارض واتغلغل في قلبها ، ثم انبع منها بادئة طريقي من جديد في الجو وفوق الارض وتحت الثرى وفي البحار .

أنا لا أعرف راحة لأنني في سفر دائم ، ولا أعرف التعب لانني لا أفكر. أنا مصــدر الحياة والحياة حركة . إذا توقفت أصبحت آسنة منتنة وفقدت روعتي وغنائي . وهجرتني العيون الهيانة بي .

أغنيتي لا تنتهي ، واجمل اغنية هي التي لاتنتهي ، كأنها رنـّة الافلاك.

سفري لاينتهي ، واجعل سفري هو الذي لاينتهي ، يحاكي ويماشي اللانهاية . قصتي لا نهاية لها واجعل قصة ما ليس لها نهاية . . .

أيتها الشلالات .

إنك تهدرين بدون انقطاع فهلاّ سمعت حوار زائريك ؟ منذ ألوف السنين وهم يقولون لك : انت رائعة ساحرة جبارة فهل تكترثين بما يقولون ؟

أغانيك وألوانك وفتنتك قديمة كقدم الارض ولكنها جديدة على كل من يقف أمامك . فلا جديد تحت الشمس بذاته بل يعتبره جديداً من يدركه للمرة الاولى . والإنسان ابن الطبيعة وجزء منها يحب أن يكتشفها ويخلو إليها ويضيع فيها هي الكائن الا كبر الشامل .

عند اقدامك وعلى حواشيك ملتقى العشاق والشعراء والسائحين والفرحين والحزانى . عندك للعشاق انغام حب قديمة قدم طبيعة البشر . وللشعراء الهام الدهور ووحي أُمهم الطبيعة . وللسائحين أروع منظر يقع تحت عين على وجه الارض . يسمعك القلب الفرح فيزداد فرحاً حتى لينتشي ويكاد يرقص معك وينصت إليك القلب الحزين فيشعر بالسكون والنسيان كأنّ مياهك الجارفة تمر على صفحة الذاكرة وتمحو عنها حبرها الاسود وكأن « جاز » جلجلتك يسكت كل أصـــداء الذكريات والتأوهات . حاولت ان اسمعك تنوحين وتولولين انما لم اسمع إلا هزيجاً .

جمالك لا خطوط تحدّده فيطالع فيه المشاهدون صور احلامهم . واغانيك لا ألحان ولا كلمات تقيّدها فيلذ المسامعين ان يحمّلوها ما يتخيلون . حتى في الليل عندما يأوون ويلتمسون الراحة في شبه العدم انت تهدرين وتحدين وتحملين احلامهم الى آفاق محجوبة لايرونها وعيونهم مفتوحة ووعيهم واعٍ .

ازاءك يشعر المرء بحاجة الى الوحدة ليتأمل فيك ويناجيك ويصغي إليك والى ذاته . ويشعر بحاجة الى رفقة ليتبادل معهم الحديث عن فتنتك . ليت

كل انسان من كل بلد يراك فيحب أكثر الحياة والسلام والنعيم له ولاخيه الإنسان فهذه هي اماني النفوس السعيدة بقربك .

اندفاعك والوانك وانغامك تهز العاطفة وتجنح الخيال وتتلاعب بالذاكرة، فلا يعلم المرء ما حلّ به . كأنك أسكرته برحيق انصبابك وهيهات ان يصحو . اغفا بقربك ام توقف ام خطا وتأنى فأنت تملكين عليه كل كيانه.

تمر بك النسائم ولهى فتعطيك قبلات وتأخـذ ألحاناً . تمر بك الطـيور والفراشات سكرى وصرعى خافقة ومصفقة بأجنحتها وانت تداعبينها برذاذك.

يمر بك البشر حيارى لا يعلمون ما بك وما بهـم ويودّون كشف سرك وسرهم . .

كأنك خالدة ايتها الشلالات ومشاهدوك وسامعوك فانون . منذ ملايين السنين انت هنا وهم رحلوا اجيالاً تلو اجيال .

انت تعلمين من اين جئت والى اين تذهبين لـكن الانسان يتساءل بينما يدفعه مجرى الحياة إلى بحر اللانهاية الممتد وراء افق الحياة .

انت أسيرة مجراك من منبعك إلى مصبك . وهو ؟ هل هو حرّ من مهده الى لحده ام يسير في مجرى محدد له وهو لا يدري ؟

تتزاحم نقاط مياهك ولا تعرف عودة او صـعوداً ولا تقوى على مقاومة التيار الذى يجرفها إلى عـالم الحياة الا كبر . وهكذا ملايين البشر يتدافعون في الحياة إلى ان يلتقوا في اللانهاية . انهم افراد فانون ولـكن البشرية مستمرة . وهكذا نقاطك فانية لكن انصبابك مستمر تغذّيه نقط وخيوط وامواج مستجدة في كل لحظة .

انت اعظم من الإنسان اذ تسحقينه بجبروتك وزئيرك ولـكنه هو اعظم منك اذ يدرك ذاته ويدركك ويستطيع ان يقاوم ويسمو .

انت جزء من طبيعة وطاقة مادية لا واعيـة وهو من طبيعة وطاقة روحية واعية .

٨

روساريو

مدينة العذراء :

روساريو هي ثاني مدن الأرجنتين ويبلغ عدد سكانها ثمانمائة ألف . تبعد عن العاصمة بونس أيرس ٣١٠ كم إلى الشمال . وصلت إليها يوم ٢٣ حزيران ، وكانت عليها آثار المهرجانات والأعياد فيوم ٢٠ حزيران من كل عام يقيمون فيها عيد العَلَم الذي أسسه هنا سنة ١٨١٧ القائد « بلجرانو » . كان متعبداً للعذراء فدعا المدينة « روساريو » أي مسبحة، وجعل ألوان العلم كلون ثيابها أزرق وأبيض .

أهم مافي روساريو نهر « بارانا » واجمل ما فيها « نُصُب العَلَم » تفاخر به وتعتبره الطابع المميز لها . شارعاها الرئيسيان التجاريان هما كوردوبا وسان مرتين . حديقتها الفرنسية منسقة تنسيقاً رائعاً أنيقاً . تلفت النظر شجرة « السكران » التي تدعى هكذا لان جذعها متمايل ملتوٍ كمشية السكران . .

ان الجالية السورية اللبنانية لامعة مزدهرة في روساريو وأفرادها وطنيون مخلصون للارجنتين ولذكرى بلادهم الأولى . وهم متحدون روحاً ونشاطاً

تجمعهم نواديهم ومعاهدهم الثقافية وجمعياتهم وكنائسهم وأعمالهم الخيرية كثيرون منهم يدرسون اللغة العربية لحفظ صلتهم بالأمّة الأمّ .

لاحظت منهم أن الشرقي طيب الاصل والطبيعة ولكن جو الشرق « يؤخره »، فإذا ابتعد عنه نبذ التعصب الديني والسياسي والمنازعات والقناعة الخاملة . إن ما كنت أقرأه عند أدباء وشعراء المهجر عن هذا اختبرته بنفسي فهم ينادون بالتآخي بين كل العرب المهاجرين مسلمين ومسيحيين ويدعون إلى الانتماء الواسع للعروبة وليس فقط إلى قطر منها .

بما أن خالي هو أحـــد المذيعين في الراديو مهّد لي الطريق إلى الإذاعة فألقيت كلمة من الإذاعـة الوطنيـة ومن إذاعة روساريو المحلية ويلذ لي أن اثبتهما هنا .

كلمة من الاذاعة الوطنية :

أيهـا السامعون الكرام :

رب صدفة خير من ميعاد . سعدت بتحقيق حلم طالما راودني وهو أن أزور بلاد الأرجنتين وان اتعرف إلى شعبها الـكريم . وسعدت أكثر بهذه الصدفة التي لم أ كن لأحـلم بهـا وهي ان يتسنى لي الحديث إليـكم على أمواج الأثير . .

أشكر المعهد الثقافي الارجنتيني العربي وإدارة الإذاعة الوطنية اللذين أتاحا لي هذه الفرصــة . حقا الارجنتين هي بلد مضياف مفتوح للعمـل ولكسب الرزق ومفتوح أيضاً لسماع أصوات قادمة من بعيد من أوطان الفئات الإجتماعية التي تعايشت وانصهرت لتكوين شعباً واحداً .

ألقى يوماً العالم « فراداي » محاضرة عن مبدأ الكهرباء الذي ا كتشفه . فسألته سيدة : وما فوائده ؟ أجابها : أتسألينني فائدة الطفل عندما يولد ؟ انتظري إلى أن يكبر . لسنا بحاجة إلى السؤال عن فوائد المعهد الارجنتيني

العربي فرغم عمره الذي لم يتجاوز الخامسة حقق أهدافاً كبيرة . وقدّرت قيمته ونبوغه المبكر الإذاعة الوطنية فخصصت له وقتاً من براجها . انه يقوم بنشر الثقافة العربية بين أبناء العرب المهاجرين وبين عشاق العربية والشرق انه أداة تفاعل بين الثقافتين الأرجنتينية والعربية، والثقافات هي جسور تربط بين الأمم ، وتتخطى الحدود السياسية وتمزج أرواح مختلف الشعوب .

لقد تعايشت الثقافتان الأسبانية والعربية قروناً وبعد افتراقهما الجغرافي والسياسي ظل التفاعل بينهما ولا يزال . اول قرية أرجنتينية وطأتها قدماي منذ أيام كانت قرية « بوارتو ايجواسو » على ضفة نهر وشلالات « ايجواسو » التي هي اجمل منظر في الدنيا . زرت هناك مدرسة القرية ووقفت امام تمثال الرئيس « سارمينتو » وحدّثني مدير المدرسة عن فضـل « سارمينتو » على نشر الثقافة وعما كتبه عن التشابه بين العرب و « الجاوتشو » في العقلية والطباع والعادات .

اننا في البلاد العربية نتابع الحركة الثقافية في المهجر ولا بد انكم تتابعون الثقافة النابعة من الشرق ، وكم نودّ ان تورثوا ابناءكم منها . اهتمامكم بالثقافة دليل على تقديركم للقيم الأدبية في الحياة ، فالثقافة هي غذاء الروح وثراؤها .

حسب المبدأ الفلسفي لا نحب إلا ما نعرف . كنت اسمع بالأرجنتين عن بُعد وهنا عرفتها وأحببتها . عندما أعود إلى سوريا ولبنان سأزيد اخوانكم أبناء الوطن معرفة بالارجنتين . انهم يعرفون القليل عن روساريو عاصمتها الثانية . سأقول لهم : ان روساريو هي مدينة العمل والعَلَم والعِلْم . هنا ابناء الجالية مجلّون . هنا اسس علم البلاد رمز استقلالها وعزتها وانطلقت الروح القومية الاستقلالية وغزت باقي مقاطعات البـلاد كما يتدفق الدم من القلب إلي سائر أعضاء الجسم . هنا مدينة العِلْم بكلياتها ومدارسها وإذاعاتها وصحفها . إخواننا هنا لا يعملون فقط بأيديهم للكسب المـادي بل يعملون أيضاً بعقولهم وقلوبهم للكسب الثقافي والروحي .

وفقكم الله جميعاً إلى كل خير وزرع السعادة على طريق حياتكم .

عاشت الأرجنتين   عاشت سوريا   وعاش لبنان

●

كلمة من اذاعة روساريو المحلية :

بني وطني أبناء سوريا ولبنان :

من قلب الشهداء ، من نسائم بردى ، من ربوع الأرز ، أحمل لكم أجمل التحيات . أشكر النادي الارجنتيني السوري الذي شرّفني بالوقوف أمام المذياع لأخاطبكم .

إخواني ، أول ما يجول في خاطري بيت من الشاعر اللبناني ناصيف اليازجي :

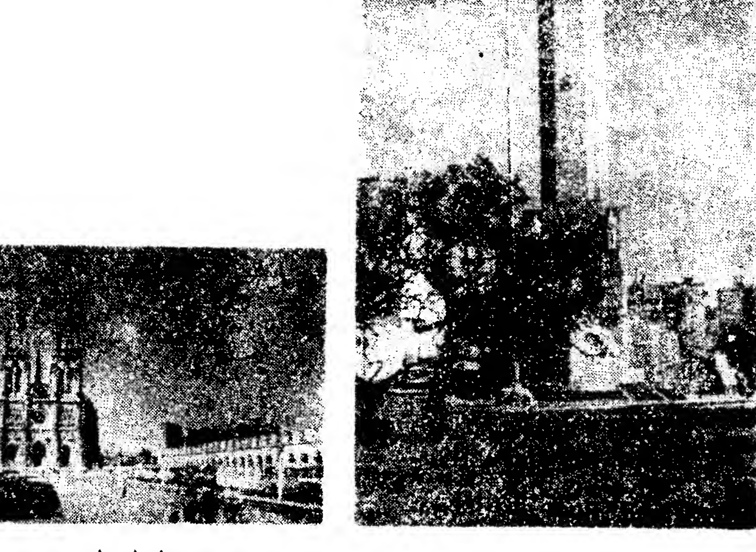
قد كان يحسد ناظري بك مسمعي

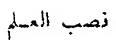
واليوم يحسد مسمعي بك ناظري

فكم حسدت العينُ الأذن لكثرة ما سمعت عنكم واليوم عندما حضرت إليكم وانفتحت عينيّ على احوالكم حسدت الأذن العين .

إني قادم من موطن الآباء والاجداد لألتقي بوجه سوريا ولبنان المغترب. كل واحد منكم رسول العروبة .

يقال ان الجمال في التنوع فما اجمل حديقة تنوعت ازهارها واشجارها . ان الارجنتين الخضراء جميلة بين حدائق الدنيا بجغرافيتها الطبيعية والبشرية. انزرعت فيها وتعايشت زهور من أصول عديدة وبمجموعها المتناسق شكلت شعبها الكريم . اننا ولله الحمد عندما نستطلع إلى أزهار هذه الحديقة نرى أن من أروعها الجالية العربية . من مشاتل حلب وحمص وحماة ودمشق ، من شواطيء لبنان وسفوحه وقممه ، انزرعتم هنا فأورقتم وأزهرتم وأثمرتم .



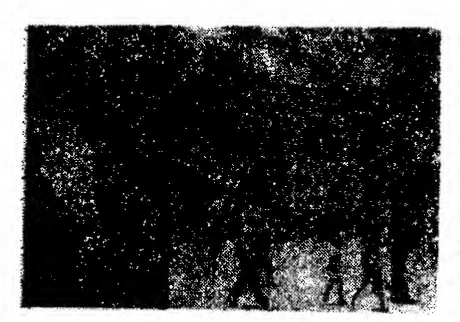


نصب العلم

مزار لوخان



ماردلبلاتا



كازينو في ماردلبلاتا

غادر الألوف الوطن الأم إلى الآفاق الاربعة تحت كل كوكب وحيثما حلوا كانوا موضع التقدير والإعجاب . وانتم هنا من صفوفهم . إن الجمعيات والنوادي وهيئات النشاط الروحي والثقافي تضمكم إلى بعضكم فداوموا على هـذا الإتحاد بين جوال عديدة . وكم هو جميل منكم انتم الذين أنعم الله عليكم بالتوفيق والإزدهار أن تهتموا بما هو لله ولخير المجتمع دون تفرقة في الأديان والملل والجنسيات . انكم بذلك تقدّمون المثل لسكان البلاد العربية انفسهم وتعلّمونهم التعاون والإتحاد والانفتاح .

إخواني ، إذا كان لي ولكل عربي يتشرف بزيارتكم أمنية ما فهي أن لا تضيّعوا اللون الأصلي الذى أعطتكم إياه عناية الله . أجل لابد من الاندماج في بلادكم الجديدة مع كل فئات الشعب الارجنتيني . ولكن لا بد أيضاً من الحفاظ على اللون الاول . لذلك نأمل منكم أن « تشرّفوا » الحين بعد الحين لزيارة وطنكم العربي . عندما نقف على أي شاطيء ونتابع الأمواج المتدافعة في عرض البحر ونرقب السفن الماخرة في عباب اليمّ نفكر عفوا بكم ، بالأحباء الذين وراء ، البحار ونود أن تكون هذه العاطفة متبادلة كالأمواج في مدّها وجزرها واحدة تذهب وأخرى تعود .

●

كلمة في التلفزيون :

بعد إلقاء هذين الحديثين من الإذاعة طلب إليّ الكثيرون أن أحدثهم في محاضرة عن بلدان الآباء والأجداد ، فاجتمعنا في النادي الارجنتيني السوري وعرضت عليهم أفلاماً ملونة عن مصر وفلسطين وسوريا ولبنان مرافقاً العرض بشرح وجيز عن كل ما يرون فكان سرورهم بذلك عظيما خصوصاً وأن الغالبية العظمى منهم لم يروا أوطانهم الأولى . وظهرت بعدئذ في مقابلة بالتليفزيون للاجابة عن تأثيراتي وانطباعاتي عن الارجنتين وعن الجالية السورية واللبنانية فيها وعن جولتي التي أقوم بها حول العالم .

« غلفيس »:

أخذني صديق مع خالي إلي بلدة « غلفيس – GALVES » حيث تقطن عائلات عديدة من أقاربي . في الطريق كان الصديق يتوقف عند تجار الريف الذين يتعامل معهم فتذكرت كيف كان مهاجرونا الأوائل يتجولون في الريف سيراً على الأقدام حاملين « القجة » وهم لايعرفون لغة البلاد، وكيف اصبحوا الآن أصحاب محـلات عظيمة يطوفون في القرى بسياراتهم على الأرجنتينيين أنفسهم . مدينة « غلفيس » صغيرة تعدّ عشرة آلاف نسمة . لا أعرف أحداً من أقاربي الذين فيها فلقد غادروا لبنان وأنا طفل أو ولدوا هنـا . كانت فرحتهم تتراقص في عيونهم وشفاهم وهم يسمعون أصوات أقاربهم التي سجلتها لهم ويشاهدون صـور بيوت آبائهم . يحنّ الإنسان دوما إلى مسقط رأسه ويحنّ إلي البعيد في الماضي وإلى البعيد في المـكان . فما هو سرّ جاذبية البعد ؟ لربما هو نداء المجهول ورغبة المعرفة . . .

« غلفيس » هي نموذج لقرى الريف الارجنتيني مقسمة إلى مربعات ١٠٠ × ١٠٠ متر . فيها كنيسة كبيرة يمتد أمامها ميدان فسيح لتجمّع الشعب . شارع كبير واحد للتجارة وشوارع صغيرة للسكن . عند الظهر اجتمع الأقارب لنتناول الأكلة الارجنتينية المفضلة « اسادو – ASSADO » وهي شرائح لحم كبيرة تشوى على السفـّود . في كل بيت موقدة « الأسادو » يضعون فيها الفحم أو الحطب وفوقه المشواة يقلبون عليها شرائح اللحـم . ولكن بدا لي أن « الـكباب » المصري واللحم المقطع المشوي « بالشيش » في لبنان هما أطيب من « الاسادو » ... تساءلنا حول الموقدة : هل صحيح زعم بعض الأطباء أن أكل اللحم المشوي على الجمر قد يسبب السرطان ؟ فكان الجواب مزيداً من « الاسادو » . . .

منذ يومين والشعب يتحدث عن انقلاب عسكري وشيك الوقوع . وفعلا وقع يوم ٢٧ حزيران فأطاح بالرئيس « ايليا » وجاء مكانه الرئيس «اونجنيا»

حدث بهدوء و « نظام » كأنه شيء « روتيني » ورافقه ارتياح شعبي عام بسبب حالة الركود وجشع الحكام وإثرائهم على حساب الشعب ، وبسبب التضخم وتدهور العملة شهراً عن شهر . ولكن في الوقت نفسه يبقى الشعب في قلق وخوف لان الحكومات الإنقلابية لا تتحقق وعودها بل تتقهقر الاحوال الإقتصادية باستمرار ويُبعد المواطنون عن الديمقراطية الحقة . إنما في الإنقلاب عزاء وأمل تغيير . . .

في العودة إلى « روساريو » بالقطار شرح لي خالي الذي يعيش في الارجنتين منذ أربعين عاماً أن الاراضي مقسمة إلى « استانسيا » مساحتها مليون متر مربع ، فهي مكونة من مائة مربع وكل مربع ١٠٠ + ١٠٠ متر . بعضها مخصص للمزروعات وبعضها للمرعى بحيث يكون لكل مربع ست رؤوس بقر فقط .

« مزار لوخان » :

من روساريو إلى بونس إيرس الطريق ضيّق تقطعه البقر والخنازير والخيول والاغنام . عرّجنا على مزار سيدة « لوخان » وهو المزار القومي الاول في البلاد يعجّ بالزائرين كل يوم . تعرفنا فيه على « شماس » من أصل لبناني مولود في « الميدان » قرب « جزين » بلبنان الجنوبي فأهل بنا وأرانا كل شيء مدة ساعتين ووقفنا بين عشرات أعلام الدول أمام العلم اللبناني الذي قدمته الجالية اللبنانية مع تقادم أخرى للمعبد . على جهتي المدخل الفسيح يقوم جناحان لمتحف وطني ولقصة عذراء « لوخان » العجائبية .

بعد ساعة ونصف اطلّت بونس ايرس فتركت عجلة القيادة لصاحب السيارة الذي كافح ساعة ونصف ليصل إلى قلب العاصمة فالشوارع ضيقة مزدحمة صاخبة والسائقون « مؤدبون » يصبرون وينتظرون دورهم بهدوء فالحياة بالارجنتين تسير عموماً ببطء .

مارد لبلاتا :

قبل التجول في بونس ايرس سافرت ست ساعات ونصف بالقطار إلى « مارد لبلاتا » على بعد ٤٠٠ كلم جنوبي العاصمة . مارد لبـلاتا ـ أي بحر الفضة ـ هي مصيف سكان بونس ايرس على المحيط الاطلسي : يبلغ عدد سكانها أربعمائة ألف في الشتاء ومليوناً في الصيف . لون الماء فيها جميل جداً خاصة إذا ما قورن بالمياه السوداء في شواطيء العاصمة . زرت فيها « أ كبر كازينو قمار في العالم » بل بالاحرى هما اثنان : الـكازينو الاتحادي المتعلق بالحكومة الاتحادية والـكازينو الإقليمي المتعلق بحكومة مارد لبلاتا الإقليمية . يقوم الواحد ازاء الآخر كتوأمين أمامهما ساحات واسعة جداً وشواطيء استحمام راقية . لا يجوز للداخل إلى الـكازينو أن يحمل معه شيئاً لا حقيبة يد ولا شمسية ولا ترانزستور ولا آ لة تصوير بل يودع كل شيء في مخزن الأمانات .

بعد قضاء نصف ساعة في الصالونات والمطاعم والبارات وصالات الألعاب ـ التي لم أفهم منها شيئاً ـ طفت في ماردلبلاتا فرأيت شوارعها نظيفة جميلة واسعة تزينها الأشجار الانحدار إلى خط الماء مكسوّ بالأعشاب والحشائش التي تضفي على مارد لبلاتا منظراً بهيجاً . في ميناء صيد السمك شبكة غريبة مكونة من سلتين، الصغيرة منقلبة في قلب الكبيرة يدخلها السمك ولايعرف طريق الخروج . ينصب الصياد أعداداً منها ثم يمرّ يجمع السمك السجين . قرب ميناء صيد السمك تقوم أبراج إهراء القمح المعدّ للتصدير والارجنتين من أ كبر مصـــدّري القمح في العالم . كذلك زرت على رابية مشرفة على البحر ديراً لليسوعيين هو أول دير بني هنا مع قدوم الفتح الأسباني .

●

٩

بونس ايرس

المدينة الرحبة :

معنى بونس إيرس بالاسبانية « الاهوية الجيدة » رغم أنها باردة رطبة شتاء وحارة رطبة صيفاً « والروماتيزم » متوطن فيها . يبلغ عدد سكانها ستة ملايين . أسَّسَها « جاري – GARAY » سنة ١٥٨٠ . حاول الإنجليز أن يحتلوها سنة ١٨٠٦ قبل بدء ثورة التحرير بثلاث سنوات .

انها مدينة ضخمة شوارعها واسعة وميادينها فسيحة وبناياتها جميلة وحدائقها وخضرتها ونافورات مياهها وتماثيلها وجوّ الموسيقى الشائع فيها ليل نهار تجعل منها مدينة جذابة .

أطول شارع هو « ريفادافيا » يخترق بونس ايرس من الطرف إلى الطرف وتتفرع منه باقي الشوارع بادئة بالرقم واحد ثم تتوالى الأرقام بحسب المربعات « كوادراتي » . ففي المربع ٨ مثلا المباني من ٨١٠ إلى ٨٩٩ وفي المربع ١٢ المباني من ١٢١٠ إلي ١٢٩٩ وهكذا . . .

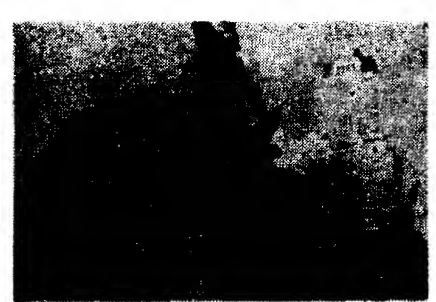
شارعها التجاري الرئيسي هو « فلوريدا » لا تدخله السيارات وبقربه شارع « كورينتيس » المتوهج الأنوار ليلا . ثم « لافاجي » شارع السينمات والمسارح . سكان « بونس ايرس » يطيلون سهراتهم وكالاسبانيين ينامون



ميناء بونس ايرس



الـكونجرسو



من التماثيل التي تزين بونس ايرس



في حديقة باليرمو

متأخرين جداً ويبدأون العمل الساعة ٩ صباحاً . قطعت مراراً « اعرض شارع في العالم » وهو شارع ٩ تموز – تاريخ إعلان الإستقلال – تنتصب في وسطه مسلّة تذكارية للاستقلال لـكنه شارع قصير يبدو موقفاً للسيارات . بالقرب منه « تياتروكولون » الذي يزعم الارجنتينيون انه أ كمل مسرح وأوبرا في العالم ! انهم مغرورون بأمور عديدة فيا يخص شعبهم وبـــلادهم ويميلون إلى التفاخر ولـكن « بخفة دم » وبدون غطرسة . وهم عشاق فن وغناء وتمثيل ، وعشاق الحياة ، وعشاق دِين ولـكن على طريقتهم .

في الـكاتدرائية رفات البطل القومي « سان مرتين » نقلت من فرنسا حيث قضى نحبه بعد منفى اختياري لاختلافه مع « بوليفار » أشهر محرري أمريكا اللاتينية . صولجان القائد « بلجرانو » في يد أحد تماثيل العذراء . فالديانة والقومية شقيقتان هنا .

المباني الحكومية :

رغم وقوع الإنقلاب العسكري منذ ثلاثة أيام فقط ورغم منع الدخول إلى قاعات مجلس الشيوخ والنواب « الكنجرسو » سُمح لي بالدخول . إسم البناية وهندستها يشبهان « الكنجرس » في واشنطن . شرح لي الدليل طريقة التصويت : يضغط الشيخ أو النائب على أحد أزرار ثلاثة مثبتة في ذراع كرسيه : ايجابي أو سلبي أو امتناع فتظهر نتيجة التصويت على لوحـة . وعقّب الدليل بخفة ولؤم : يحدث أحياناً أن أحدهم يضغط على زر الكرسي الخالي الذي بجانبه فيزوّر النتيجة وتلافياً لذلك ينتبه رئيس المجلس لعـدد الحاضرين .

قرب الكنجرسو يقوم « البيت الوردي – CASAROSADA » وهو مقر رئيس الدولة يمتد أمامه ميدان ايار ثم شارع ايار للوزارات .

« المتحف الوطني » هو المتحف الوحيد الكبير الذي يستحق الزيارة . فيه معروضات منذ الاحتلال الاسباني وصور الحكام الاول والأبطال القوميين

ورؤساء الجمهورية . وأهم ما فيه جناح سان مرتين وجناح الجنرال بلجرانو وجناح السكان الريفيين « الجاوتشو » بزيّهم الفولكلوري .

الشاطىء الأسود :

ميناء بونس ايرس واقع على « الشاطىء الأسود – COSTA NERA » الذي اتخذ اسمه من مياهه السوداء . وهنا يبلغ عرض نهر « بلاتا » ٣٤٤ كم ممتدة بين بونس ايرس وأورجواي . ولا أثر لملوحة البحر فيـــه لأن مصبه متغلغل جداً في اليمّ . هذه الكميات الهائلة من المياه العذبة في أعرض مصبّ بالعالم هي سبب رطوبة مناخ العاصمة . بالقرب من الميناء يمتـــد نادي صيد السمك ٣ كيلو مترات تتـدلى منها ألوف « السنـّارات » فسكان العاصمة مغرمون بهذه الرياضة ربما لأنها « تروّق » رؤوسهم من ضجيج بونس إيرس .

في « المركادو » أي السوق العمومي أوقفنـا بائع إذ سمعنا نتحدث باللغة العربية وسرعان ما تصادفنا الصدف إنه من « دير القمر » جارة بلدتي اللبنانية فحقاً ان العالم صغير !

حي الفم :

حي « البوكا » – أي الفم – هو الحي الأكثر شعبيـــة بمعطفاته وعدم نظافته ومطاعمه الصغيرة ومشروباته الشعبيـة وأشكال ساكنيه وزيّهم ، وأغلبهم من أصل إيطالي . هنــا موطن « القبضايات والبلطجية » كل شيء فيه رخيص حق الحياة فقلما يطلع فجر دون جريمـة ... تطبع زياراته في النفس أثراً شيقاً ذا لون محلي جذاب .

حديقة باليرمو :

تزيّن بونس إيرس حديقة « باليرمو » التي تبلغ مساحتها ٣٦٤ كلم مربعاً. فيها ميدان سباق الخيل وبحيرة وقنوات صناعية وحـديقة الحيوان وحديقة النبات وغابات أنيسة وحديقة الزهور المسماة « روسيدال – ROSEDAL »

ومطاعم ومقاهي . يخترقها « شارع المحررين » المزين بتماثيلهم . إنهـــا رئة واسعة جداً تتنفس منها المدينـة المجهدة فيضيع فيها عشرات الألوف من الزوار دون أن يشعروا بالازدحام وكأنهم نقلوا الى غير عـــالم . أغلب أشجارها أرز وصنوبر وشربين وسرو وشجره بونس إيرس الخاصة « سيبو – CEIBO » تعطي زهوراً حمراء . في حديقـــة الحيوان لفت نظري حيوان « الجاما – JAMA » وهو أشبــه بعجل صغير وحيوان « الكونيو – CUNIO » ، ويصنع من جلدهما الشال الأرجنتيني « مانتا » .

بعض ظلال :

الى هذه الجوانب المشرقة في بونس إيرس توجـد بعض ظلال : مناخها رطب جداً . تنقص شوارعها وأرصفتها النظافة والنظام . حركة السيارات فيها مضنية . يوجد خط مترو واحد تحت الارض فلا يكفيها . السكن غال جداً فإيجار الشقة العادية ١٥ ألف بزوس في الشهر مع أن الماهية العادية هي ٢٥ ألف بزوس ومتى تجاوز الإيجار ثلث الماهية تصبح المعيشة شاقة . لسبب تدهور العملة الرسمي وغير الرسمي يغلو كل شيء حتى إن سائق التاكسي يزيد قانوناً ٥٠ ٪ على رقم العداد !

منتزه النمر :

لابد لزائر بونس إيرس أن يأخذ القطار الشعبي البطيء مدة ٤٠ دقيقة الى منتزه « النمر – AL TIGRO » الذي هو « دلتا » نهر بارانا . انه حقاً منتزه جذاب غريب بجزره وملاهيه وقنواته وقصوره ومقاهيه . فيه الخضرة الكثيفة والميـــاه الغزيرة وبيوت الأحلام منثورة على شواطىء قنواته بين الأشجار والزهور .

فوق القارة الأميركية :

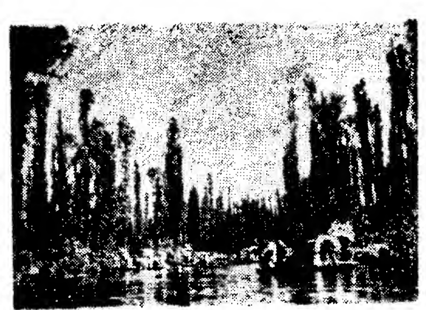
عند المغادرة في المطار لا تأشيرة على جواز السفر ولا سؤال عنه ولاجمرك .



الزرافة وحمار الوحش في حديقة باليرمو



جاما في حديقة باليرمو



منتزه النمر



في طائرة بان اميركان

في الساعة ٩ صباحاً أقلعت بوينج بان أميركان محلقة فوق بونس أيرس ونهر بلاتا والسهول والمراعي ثم صعدنا فوق السحب الى أن اقتربنـــا من مطار « اسنسيون » عاصمة براجواي فاخترقت الطائرة الغيوم التي بانت كأنها ترقص فوقنا وحولنا بسرعة جنونية محرّكة السماء مع أننـــا نحن المسرعون . كان منظراً رائعاً جداً ذكـّرني بالغيوم التي كنت أرقبها فيصغري وهي تهرب من تحت القمر فأظن أن القمر هو الذي يتنقل بينها ...

الساعة ١٠,٣٠ كنا في مطار « اسنسيون » . تغيّرت الأشكال هنا فاللون أسمر جـــداً والقامات قصيرة والأنف افطس قليلاً : إنه الشكل الهندي الاميركي الأصلي .

غادرنا مطار اسنسيون الساعة ١١,١٠ وطرنا فوق براجواي والبرازيل وفنزويلا . قبل تقديم الغــداء وزعت المضيفات لائحة الطعام وعليها هذه الملحوظة الطريفة : « يمكن إعداد أطعمة خاصة للركاب لاسباب دينية او للصوم على أن ينبهوا مسبقاً . وللركاب الكاثوليك حصلت بان أميركان من المجمع الروماني المقدس على تفسيح من القطاعة . المآكل مجهزة ومعبأة بحيث لا تخالف قانون صوم اليهود » . لا ينقصهم الوعي وحسن الالتفات والدعاية ولكن ترى ماذا يكتبون لمختلف طبقات الهنود ؟ ...

هبطنا في مرحلتنا الثانية في مطار « كاراكاس » عاصمة فنزويلا . بانت العاصمة متدرجة من الشواطىء الى أعالي التلال وأبنيتها في الاودية والسفوح وعلى سطوح الروابي بين الغابات . لون تربتهـا رملي أحمر . خارج الطائرة شعرنا بحر شديد فنحن قريبون جداً الى خط الاستواء . أشكالهم هنا أيضاً يغلب فيها اللون الاسمر والقصر . تابعنا رحلتنا الطويلة الى نيويورك طائرين فوق الانتيل وهايتي وجزر باهاما والمحيط الاطلسي وقطعت بنـــا الطائرة هذا اليوم ٨٤٩٦ كلم.

●

١٠

مكسيكو

لمحة عن المكسيك :

في مطار مكسيكو الإجراءات طويلة وغريبة . تأشيرة الدخول هي جواز مرور بثلاث نسخ وهي أغلى تأشيرة عرفتها : كلفتني اثني عشر دولاراً فربما في اعتقادهم المكسيك هي الجنة !

تشغل المكسيك رقعة واسعة من جسر اميركا الوسطى الذي يربط بين الشمالية والجنوبية . مساحتها ١,٩٦٩,٣٦٧ كم مربع وسكانها ٤٠ مليون . دستورها جمهورية رئاسية والوزراء يدعون « سكرتير الدولة » وعاصمتها هي اقليم فدرالي .

الاسبان الصرف من سكانها ١٠٪ والهنود الصرف ١٪ والباقون منحدرون من اختلاط الاوروبيين بالهنود . الغالب هو الشكل الهندي واللون الاسمر الذي يقارب السواد . لغة البلاد هي الاسبانية (الكستلانو). معظم الهنود اميّون وهم اما فلاحون بدائيون او عمال عاديون او خدم في البيوت .

في المكسيك ثلاثة أنواع من المناخ هي الحار والمعتدل الدافىء والبارد مما يجعل زراعتها متوفرة متنوعة رغم ان معظم أرضها جبال أهمهـــا سلسلة « سيرا مادريـــه – SIERRA MADRE » الشرقية القريبة من الاطلسي والغربية القريبة من الباسيفيكي . فيها قصب السكر والرز والذرة والدخان والقهوة والـكاكاو والقطن وجميع أصناف الفواكه . ينبت فيها « الشيكلس » الذي تستورده اميركا لصنع اللبان المضغ . وفيها الغابات الشاسعة والمراعي لتربية الماشية . هي الاولى في العـالم بالفضة (ربـع الانتاج العالمي) والثانية بالرصاص . وفيها مناجم زنك وقصدير وذهب وأحجار كريمـــة وفحم وأورانيوم . تصدّر من البترول ربـع انتاجها . الشعب فقـير لأن إمكانيات البلاد لم تستثمر بكفاية ولأن الغنى محصور في أيد قليلة فنظام الحكم برجوازي. أربعة أخماس تجارتها الخارجية مع جارتها اميركا الشمالية وتمتد الحدود بينهما على طول ۳۲۰۰ كم .

المكسيك هي – مع بيرو – البلاد التي احتفظت بأعظم الآثار الهندية في القارة الاميركية . كانت موطن القبائل الشهيرة : ازتيك وتولتيك ومـــايا وشولولا وتيوتيهواكان الخ .. يقول علمـاء الآثار ان فيها نحو عشرة آلاف مكان أثري . بينما قبائـــل كندا والولايات المتحدة والارجنتين والبرازيل لم تخلـّف شيئاً تقريباً وانقرضت أمام غزو الرجل الأبيض .

ان ألوف الاعوام التي عاشتها المكسيك قبـل مطلع القرن السادس عشر ضائعة في غياهب القدم كتاريخ جميع شعوب القارة الاميركية ، إنما يستطلع بعض الشيء في الآثار التي تركهـــا الهنود . سنة ١٥١٩ غزاها الاسباني « كورتيس » إذ كان شعب « الازتيك » مسيطراً على وسط البلاد وجنوبها أمّا الشمال فكان بيد شعب الـ «شيشيميك» الرّحل وذوي النزعات الحربية. نزل كورتيس في مكان دعاه « فيراكروز » أي الصليب الحقيقي . بلغ النبأ ملك الازتيك « موتكزوما » ففكر بأن يسترضي الغازي الجبّار بهدايا ثمينة

جداً لكن كورتيس بدل أن ينثني طمع حين وقعت عيناه عليها فغزا العاصمة بجيش مكوّن من ٤٠٠ مقاتل ومعهم فقط ١٥ حصاناً و٦ قطع سلاح ثقيل . استقبله الملك الهندي بالترحاب لكن كورتيس مـا عتم أن تخلص منه وحكم المستعمرة بقوة سجلها له التاريخ . ظن الهنود ان الفارس مع حصانه حيوان سحري مخيف وإن الفارس بوجهه المقنع هو من أنصاف الآلهـة ! وزاد كورتيس من مخاوفهم إذ قال للمبعوثين الاربعين منهم ان إله الرعـد مغتاظ وسينقض عليهم بصواعقه وانطلقت المدافع فذعروا وخرّوا على الارض . ثم عقد معاهدات مع بعض قبائل الهنود الذين كان يحكمهم « الازتيك » وحاصر معهم « شولولا » ثم أخـذ « مكسيكو » سنة ١٥٢١ وامتد الاحتلال الى سائر البلاد ومن ذلك الحين حكمت اسبانيا المكسيك . وصف الاسبان قصر « مونتيزوما » كما يـلي : « فيه جنائن معلقة وبرك وحديقة حيوانات وثلاثة آلاف خادم . يقدم الملك الف صنف من المآكل يومياً وهو يقرب للآلهة كل يوم ذبائـح بشرية لصنم إلههم الاكبر المحاط بأفاعي ذهبية وعنقه مطوق بعقد من القلوب والجماجم » .

سنة ١٨١١ نادى بالثورة كاهن مكسيكي اسمه «هيدالجو ـ HIDALGO» لكنه اخفق وقتل مـع صحبه رمياً بالرصاص . وبعد عامين ألـّف الاب « موريلوس ـ MORELOS » أول حكومة مكسيكية ثائرة لكنـه لقي مصير سابقـه . وسنة ١٨٢٢ أعلن « ايتربيدي ـ ITURBIDO » نفسه امبراطوراً لكنه أُعدم بعد سنتين . سنة ١٨٤٧ دخلت المكسيك في حرب ضد الولايات المتحدة فهزمت وتخلـّت لأمـيركا عن ولايات تكساس ونيو مكسيكو وكاليفورنيا العليا وبقيت لها كاليفورنيا السفلى . عانت المكسيك من حروب الدول الاوروبية ونصّب فيهـا الفرنسيون امبراطوراً هو « مكسيميليان » شقيق « فرنسوا جوزيف الاول » امبراطور النمسا. لكن مكسيميليان أعدم بالرصاص سنة ١٨٦٧ . سنة ١٨٧٨ أعلن دستور جمهورية

رئاسية وسارت عليه البلاد لكن انقلابات وثورات متوالية تعاقبت فيها ولم تعرف الاستقرار إلا منذ أعوام قليلة .

مدينة على اسفنج :

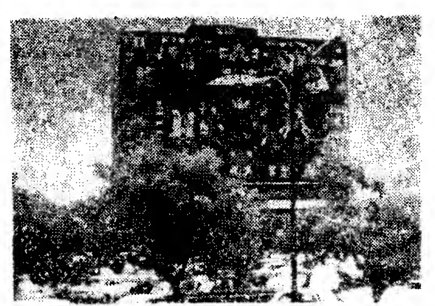
قامت مكسيكو على انقاض « تينو شتيتلان » عاصمة الازتيك . رغم ارتفاعها ٢٢٦٠ متراً عن سطح البحر ليست باردة بسبب قربها من خط الاستواء، وعلوها هذا يجعل جوها مفيداً للمصابين بالربو وخطراً لمرضى القلب. مناخها معتدل على مدار السنة ويؤثر هذا على أناقتهم ، إذ من النادر جداً أن يخرج مكسيكي من بيته بدون ياقة و « جاكيت » . أنشئت على أرض كانت فيما مضى مستنقعاً وهي لا تزال تعاني من مشكلة أساسية فسنة بعد سنة تغوص وتنخفض أرضها بضع سنتيمترات ويحتار المهندسون والخبراء في درء هذا الخطر الذي قد يصبح متفاقماً مع مرور الزمن . بين عشية وضحاها تلتوي قضبان الترام وتنخفض الارصفة . سنة ١٩٣٥ أنجز بناء «قصر الفنون الجميلة» وبعد ١٥ عاماً أصبح سطح الدور الأول مساوياً للشارع! بين ١٩٣٨ و١٩٥٠ غاصت مكسيكو بمعدل ½ ٧ سنتيمتراً في السنة لذلك يقال إنها مبنية على « اسفنجة » .

المطر بعد الظهر فقط :

تجولت في مكسيكو مع مكتب سياحة ثلاثة أيام كاملة . انها متنوعة ومجموعة متناقضات . كانت الى أعوام خلت مدينة صغيرة فتمدّدت أطرافها وأدخلت في نطاقها جميع ضواحيها فأصبحت تعد الآن ٦ ملايين. لا تخلو من الابنية الجميلة والشاهقة لكنها تبدو قذرة فلا ينظفونها . تعلّموا من الاميركيين الصعود في الجو ولم يتعلموا النظافة والإتقان . يسيطر على سمائها « برج اميركا اللاتينية » بأدواره الثلاثة والاربعين . تكثر فيها البرك



نافورة ديانا آلهة الصيد



في الجامعة



من مباني الجامعة

والنافورات وقد تفننوا وأبدعوا في هندستها وزينتها وتماثيلها لا سيما في أطول وأعرض شارع فيهـا شارع الثوار « انسيرجنتس – INSURGENTES » حتى أصبحت النافورات تسترعي النظر اكثر من أي شيء آخر . مقابل هذا المـــاء المنبثق من الارض هنالك المطر النازل من السماء ولكن في مواعيد محددة : فقط بعد الظهر بـدءاً من الساعة الثانية والنصف وذلـك من شهر حزيران الى شهر تشرين الاول، هنا الطبيعة تعرف مواعيدها أفضل من السكان.

بدأت الجولة من عند نُصُب « الاجناس الهندية » الذي شيد سنة ١٩٢٦ لتخليد ذكرى السكان الاصليين . عـدا التماثيل ذات الاشكال الهندية هنالك نموذج تقليدي لهرم مكسيكي . ملعبها الرياضي يتسع لمائة وخمسين الف متفرج وفيها اكبر ميدان في العالم لمصارعة الثيران .

شيبولتيبيك :

حديقة « شيبولتيبيك – CHAPULTEPEC » (معناها اكمـة الجراد) بقسميها القديم والجديد تضفي على مكسيكو جاذبية ونضارة وتبلغ مساحتها ١٠،١١٥،٠٠٠ مـتراً مربعاً . فيها شلالات ونافورات وحديقة حيوان وبرك وتماثيل وزهور ومروج من الحشائش وأشجار غالبهـا سرو عمره اكثر من اربعمائة سنة إذ زُرع مـع مطلع الاحتلال الاسباني . وفيهـا قصر رئاسة الجمهورية الجديد . ومتحف كان فـــيما مضى المركز الصيفي لنائب الملك ، فالأكاديمية العسكرية، فقصر الامبراطور مكسيميليان، فالمقر السابق لرئيس الجمهورية. تاريخ مكسيميليان وكارلوتا في هذا القصر مؤثر حزين: لقد جُنّت كارلوتا وهي في زهرة شبابها، ويقول المؤرخون إن سبب جنونها حبها وغيرتها (الجنونية) على زوجها . وظلت في هـذا القصر حبيسة هائمة حتى عندما أعـدم مكسيميليان وأعلنت الجمهورية . ثم عادت الى بلادها بلجيكا وماتت هناك . الميدان الذي أمام المتحف يشرف من رابية على العاصمة بأكملها فترى

مكسيكو رابضة وسط هضبة تقف الجبال على كل آفاقها . في الميدان كان يعلو نداء بائعي اليانصيب ، فهنا يجري السحب ثلاث مرات في الاسبوع .

جنائن الحمم :

تجوّلنا في السيارة وعلى الاقدام بين « جنائن الحمم » وقد دعيت هكذا لأن حجارة ابنيتها هي بلون حمم البراكين. انها أرقى حيّ سكني في العاصمة. هندسة فيلاته متنوعة الى حـــد الغرابة . من الاشجار الكثيرة التي تزين شوارعها وحدائق بيوتها شجرة « ملكة الليل » التي تبعث بعطرها في الجو خلال الليل فقط وهي أشبه بشجرة البهار . وقالت لنا سائحة هندية كانت تتجول معنا، انها شجرة معروفة مشهورة في الهند. أغرب من «جنائن الحمم» بنايات « جامعة مكسيكو » وفيها ٨٥ ألف طالب . تضافرت لإخراجها جهود مئتي مهندس . على كثير من جدرانها أشكال ورسوم هندية بـــألوان صارخة ورموز خرافية ومخيفة . عطلة الجامعات هنا من ١٥ تشرين الثاني الى ١٥ شباط ، فالتقينا بكثير من الجامعيين والجامعيات .

الحي الأحمر :

في المدينة القديمة قصور كورتيس وأعوانه في « الحيّ الاحمر » ، وأقدم كنيسة يخدمها الفرنسيسكان لأنهم هم الذين قدموا للتبشير مع الغزاة . اوقفنا الدليـــل في شارع « فرنسيسكو سوزا » رقم ٧٦ حيث اغتيل « تروتسكي » على يـــد شخص روسي من أصل اسباني سنة ١٩٤٠ وكان رفيق كفاحه « ستالين » نفاه من الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٢٩ [١] .

تزين ميادين العاصمة تماثيل عـــديدة منها تمثال اسود لـ « كريستوفورو

---

(١) في المكسيك أعلى نسبة قتل في العالم فسنة ١٩٥٨ كان ٤٣ قتيلاً في اليوم. ليست لديهم عقوبة الاعدام و٥٦ ٪ من القتلى يطلق سراحهم فيما بعد .

كولومبو » و « ملاك الاستقلال » المذهّب ونُصُب الثورة وهو قوس نصر تعلوه قبة ضخمة تُنار في الليل وتمثال ملك هندي الخ .

في نهاية شارع « خواريس ـ JUAREZ » الرئيسي أعظم ميدان في مكسيكو تقوم حوله دار الحكومة القديمة (كابيتول) والوزارات والكاتدرائية . يؤمّه متفرجون عديدون يومي السبت والاحد مساء لأنه يكون مشعّاً بآلاف المصابيح الكهربائية . وبالقرب من هذا الميدان شارع التجار اللبنانيين وهم كثيرون جداً في المكسيك ويتمتعون بمركز اجتماعي ممتاز . على جدران الكابيتول من الداخل لوحات كبيرة لا أزال أذكر منها كارل مركس وبقربه استاذ يعلّم الاشتراكية المكسيكية ، ولا بدّ انهم رسموها هنا يوم حكمت الشيوعية في المكسيك . والهنود وهم يستخرجون المطاط من الشجر . والاسبان وهم ينزلون من مراكبهم ومعهم بعض البهائم التي لم يكن يعرفها المكسيكيون .

عذراء الثلج ومسيح السم :

الكاتدرائية هي أوسع كنيسة في اميركا اللاتينية وظلت مئات السنين أعظم بناء في مكسيكو فيها كل طراز من الهندسة : دوريك وايونيك وكورنتي وباروك وروكوكو ومنعصر النهضة ، ولا عجب فيذلك فقد امتدت حقبة بنائها ٢٩٥ سنة ! بعض أبوابها من خشب الارز . تعيش في داخلها ذكريات طريفة ومنها عذراء الثلج ومسيح السم . تدعى عذراء الثلج أيضاً عذراء الغفران لأن فناناً من أصل هولندي اسمه « سيمون باريئيس » جدّف على الدين فحُكم عليه بالسجن . وذات يوم دخل عليه حارس السجن ليقدم له الطعام فرأى انه صوّر على الباب من الداخل العذراء تحمل طفلها على ذراعيها ، فرفع الأمر الى الحكم فعفا عنه ونُقلت الصورة الى الكنيسة . أما « مسيح السم » فقصته ان عدوّاً لمطران مكسيكو وضع سمّاً فتاكاً لا يُرى

على قـدمي المصلوب الخشبي ، عند الصباح تقـدم المطران ليقبّلها كعادته فامتقع لون المصلوب وصار أسود وتقوّست ساقاه فارتفعت قدمـاه وبذلك نجـا المطران من الموت . في الكاتدرائية أيضاً جرن العماد الذي عمّد فيـه القديس فيليب اليسوعي ، وهو القديس المكسيكي الوحيد استشهد مصلوباً في « ناجازاكي » باليابان سنة ١٩٥٧ . ويعتقد الشعب ان همسة المـاء الذي سُكب على جبين فيليب حـين عماده لا تزال تُسمع حـتى الآن لمن يصغي بأذنه وقلبه .

الحضارات في المتحف :

في مكسيكو يتضمن متحف «الانثروبولوجيا ـ علم الانسان» آثاراً قيّمة جـداً من مـايا وتوازتيك وتوتوناك ودكساكا وتولتيك وبويبلا وتيويهواكان وأوتومي وغيرهـا وكلها قبائـل او اماكن هندية . في المتحف ٢٥ قسماً ، ومدرسة انثروبولوجيا ، ومكتبة ، وسينما ، وصالة محـاضرات ، عرفت من هذا المتحف انـه بين ١٧٠٠ و٢٠٠ ق. م. تحوّلت تلك القبائل من صيادين ورحل الى فلاحين . وبين ٢٠٠ ق. م. و٨٠٠ ب. م. عرفوا البناء وصناعة الخزف والفخار ومهناً يـدوية عديدة . وبـين ٨٠٠ و١٥٢١ ب. م. عرفوا المعادن وإقامة المـدن وتنظيم المجتمع المدني والجيوش . كانوا يقسمون الشعب الى طبقات كما في الهنـــد . عرفوا أيضاً الرسم والنحت والنقش والخط الهيروغليفي لكن العلماء لم يتوصلوا بعد الى حلّ رموزه . لونهم المفضل كان الاحمر فـلم يدعوا عبثاً « الجلود الحمر او الهنود الحمر » رغم ان لون بشرتهم اسمر جـــداً يقارب الاسود . كانوا يضعون الوشم على الجبين والخدين للزينة ولتمييز بعضهم من بعض . كانوا يستخرجون مشروباً من ورق الصبير وهذا مـــا يعمله المكسيكيون الآن . وكانوا يضعون موتاهم في جرّة او في عباءة ويودعون مع المتوفى ما كان يستعمله في حياته ليستعمله في آخرته ـ كما كان يفعل قدمـاء المصريين . في المتحف مجموعات وصور من بقـايا قبور وهياكل ومعابد واهرام وآلهة .

لتمثال « المصارع » – وهو تمثال شهير من حجر – قصة طريفــة . منذ ثلاثين سنة عثر عليه مزارع ما لبث ان باعه بخمسة بزوس لأنــه كان يزعج زوجته بأصوات تنبعث منه ليلاً . اشتراه جاره ليربط به خنزيره . وفي عام ١٩٤٣ اشترته الدولة المتحف .

أعظم قسم في المتحف هو عن حضارة « مايا » من القرن الرابع الىالقرن العاشر بعــد الميلاد . عرفوا التقويمين الشمسي والقمري . كانت سنتهم ٣٦٥ يوماً مقسمة الى ١٨ شهراً والشهر الى ٢٠ يوماً ولكل شهر بل لكل يوم اسم إله. الخمسة الايام المتبقية هي للتوبة وللصوم وللاستعاذة من الارواح الشريرة. في رسوم آلهتهم يحتل الرأس ثلاثـــة أرباع الرسم . ديانتهم حلولية وإلههم الأعظم هو « الروح الشامـــلة او القوة المنظمة للطبيعة » . في المتحف إله الذرة – واسمه هونافو – شاب مكلل بأوراق الذرة ويحمل الحب في يديه . من يوم عرف أسلافهم زراعة الذرة انتقلوا من الصيد والترحال الى الفلاحة المستقرة . في كتاب « المـــايا » المقدس المدعو « بوبو فوه – PoPo VUH » يوجد إلهان توأمان للذرة همـــا « هونافو واكسبالا مكوى » يقولان قبل انتقالهما من عالمنا الى « العـــالم الاسفل » : « إذا ذبلت حبة الذرة في الارض ستموت وإذا نبتت ستحيا من جديـــد » . في كل مدينة وقرية كان شعب « المايا » يقوم بلعبة مرة في السنة تدعى « لعبة الحلقة الحجرية » وهي ترمز الى الانبعاث : كاهنان يمثلان آلهــة الجحيم « العالم الاسفل » ورجلان يمثلان إلهي الذرة التوأمين . كل فريق ثنائي يحـــاول أن يدخل الآخر في حلقة حجرية . إذا انتصر إلها الجحيم فستكون سنة قحط وإذا انتصر إلهـــا الذرة فستكون سنة خصب. في ميثولوجيتهم اعترضت أرواح « مصاصي الدماء » طريق التوأمين وأهلكت « هونافو » لكنه بُعث في نبات الذرة . وهكذا في النهاية – حسب اعتقادهم – يتغلب الخـــير على الشر ، تدفن حبة الذرة ثم تنبت ، تغيب الشمس ثم تشرق ، والموت ليس نهاية بل انتقالاً الى عالم آخر.

●

١١

مزار عذراء جوادا لوبي

« عند أقدام الرابية حيث تنبت الورود رأيت العذراء التي تسحر القلوب. ظهرت في « تيبياك – TEPYEYEC » كنجم إلهي وشع منها الهدى والأمل » .

هكذا يترنم الوف الزائرين القادمين الى معبد « جوادا لوبي – GUADA LUPE » .

على بُعد عشرة كيلو مترات شمالي مكسيكو يقوم مزار عذراء « جوادا لوبى » شفيعة المكسيك . زرته في يوم عادي ومع ذلك كان الزوار يملأون الكنيسة والفناء الواسع الذي يمتد أمامها ولا أذكر انني شاهدت زهوراً في أي معبد كما شاهدت هنا . أما سبب كثرة الزوار بمعدل ١٥ ألفا يومياً فلأن عذراء جواد الوبى هي السبب في انضمام الثمانية ملايين مكسيكي من الهنود الوثنيين انضماماً جماعياً الى الدين الكاثوليكي في فترة سبعة اعوام فقط . وأما سبب كثرة الزهور فلأن العذراء طبعت صورتها على عباءة الهندي التي كانت تلف زهوراً .

قصة ظهور العذراء :

كان « كواو هتلا هواك » (أي النسر الشادي) هندياً من شعب

« الازتيك » . بعد وصول الاسبان تنصّر مع زوجته وعمه واتخـــذ اسم « خوان دييجو – GUAN DIEGO » . كان يزرع الارض وينسج عباءات من الالياف وسلالاً من الخوص الى ان ظهرت له العذراء وكان عمره ٥٧ سنة فكرس حياته للعبادة وللتبشير ولحراسة صورتها العجيبة ومعبدها حتى توفي عن ٧٤ عاماً ودُفن داخل المعبد .

مع فجر ٩ كانون الاول سنة ١٥٣١ كان خوان دييجو قاصـــداً كنيسة بعيدة من الكنائس النادرة في مطلع الغزو . سمع عنـــد رابية « تيبياك » موسيقى عذبة كأنهـا جوقة عصافير . لكن الذروة بدون شجر وطين فمن أين الاصوات الشجية ؟ وازدادت دهشته إذ رأى غمامة نـيّرة فتسلق السفح ووقع نظره على فتاة وديعة تقف بجوار الغمامة وتسأله بلغته الهندية : يا ابني خوان دييجو أين انت ذاهب ؟ أنا ذاهب الى كنيسة « تلاتيلولكو » وأنتِ من أنتِ ؟ يا ابني العزيز أنا مريم العذراء أم المسيح . أريد ان يُبنى لي معبد هنا ... هنا سأظهر محبتي وعوني وحمايتي لشعبك ... هنا سأخفف آلامهم ومصائبهم ... إذهب الى مطران مكسيكو وقل له إنني أنا التي أرسلتك لتبلغه رغبتي في قيام معبد لي هنا . لن أنساك وسأكافئك على عملك هذا . اذهب بسلام يا بني .

عندما سمع المطران الحكاية طلب الى خوان علامـة من صاحبة الرؤيا . مع غروب الشمس وصل خوان الى رأس الربوة فظهرت له العذراء وسمعت منه حكايته مع الاسقف . فابتسمت وقالت له : « حسناً عد الى هنا غداً » . وإذ عاد طلبت منه ان يصعد الى ذروة الأكمة ويقطف لهـا زهوراً فأجاب انه لا توجد زهور فوق بل فقط نبات صبير وصخور . وأشارت اليه ان يصعد ففعل . وإذا بروض من الزهور أمـام عينيه المندهشتين . ملأ عباءته زهوراً وجمع اطرافها الاربعة ونزل وقدّمها الى العذراء . وضعها في العباءة ثم عقد الاطراف عقدة واحـدة مرتفعة وطلبت منه ان يحملها الى المطران

ولا يفتحها في الطريق ولا يدع احداً يأخذ منها شيئاً او يرى ما في داخلها. اسرع الى المطرانية. فسأله المطران عن العلامة ففتح العباءة ونثر منها الزهور وإذا بصورة العذراء مطبوعة على العباءة ورآها المطران وكل من حضر تلك اللحظة فأسرعوا الى مكان الرؤيا . اخذ المطران الصورة العجيبة ووضعها في كنيسة المطرانية الى ان أنجز المعبد في رأس الرابية حيث هو باق الى الآن . إنما الصورة العجيبة — التي لم ترسمها يد — معروضة في كنيسة عظيمة مبنية على أقدام الرابية طولها ٥٥ متراً وعرضها ٣٧ متراً . في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ انفجرت قنبلة كانت قد اخفيت في إناء زهور موضوع على المذبح فدمرت الكثير حولها واقتلعت رخام المذبح واسقطت كل ما عليه لكنها لم تحدث اي تلف للصورة العجيبة . تعرض هذا المعبد لنكبة اخرى إذ أقفل عامين بين سنة ١٩٢٥ و ١٩٢٧ كما اقفلت كل كنائس المكسيك بأمر من الحكومة الشيوعية آنئذ . وحتى الآن تتجاهل الدولة الكنيسة مع ان الشعب كله كاثوليكي ولا يسمح للكهنة بارتداء الزي الكهنوتي .

صورة العذراء :

ان العباءة التي طبعت عليها الصورة منسوجة من خيوط نبات الصبير ذي الورق العريض والطويل . لون جسم العذراء مائل الى الاسمر . الخدان ورديان . الشعر اسود . العينان نصف مقفلتين ولكن البؤبؤ ظاهر . اليدان مضمومتان . الرداء النازل من رأسها الى قدميها أزرق . القميص الطويل الذي تحت الرداء لونه وردي عليه عند صدر العذراء صليب اسود . وراء جسم العذراء اشعة شمس مشرقة على سحابة بيضاء . والعذراء واقفة على هلال اسود يبدو كأنه جلد افعى .

الوان الصورة :

درس علماء ورسامون هذه الصورة منهم الاستاذ « فرنسيسكو كامبص ريبيرا» الذي حللها سنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٦٣ واستخلص ما يلي : لا يوجد

أي اثر لفرشاة او لريشة رسم الوان الصورة غـير مضافة الى خيوط القماش بل هي من اصل الخيط . عمر القماش نحو اربعمائة سنة ونيف . لقـد بحث هو في آلاف الرسومات بمتاحف أوروبا ليعرف هل اللون هو مائي ام زيتي أم غير ذلك لكنه عجز عن تحديد اصل لون الصورة . درس اعمال رسامي القرن السادس عشرفلم يجد ان أحداً منهم رسم مثلها وكذلك اعمال الرسامين الاسبان الذين رافقوا طلائع المستعمرين في المكسيك .

شكل الصورة :

لم يذكر الكتاب المقدس شكل العذراء إنمـا حاول البعض تخيله بحسب ظهورها . ففي ٢٤ ايلول ١٨٢١ ظهرت العذراء للالمانية «آن كاترين امريش» فوصفتها هذه كما يلي : شعر غزير طويل . حاجبان ورموش سوداء . جبين عريض عال . عينان واسعتان مستطيلتان . انف رفيع . شفتان صغيرتان. ذقن نحيفة . طول قامتها متوسط بل دون المتوسط : كل هــــذه الاوصاف تنطبق على صورة عذراء جوادا لوبي .

وجوه هندية في عيني الصورة :

درس عشرات من الاخصائيين الصورة منهم ٣ فنانين و٥ مصورين وكاتب واحد و٧ اطباء عيون و٤ اخصائيين نظارات . درسوا بنوع خاص العينين وكتبوا تقارير عن الوجوه المنعكسة في العين اليمنى . التقطوا للعين صوراً مكبرة فيها ثلاثة وجوة هندية . فلا بد ان هــذه الوجوه انعكست في عين العذراء عندما فتحت العباءة امـــام المطران إذ ان وجهاً يتطلع الى الامام وكأنه يتحدث والوجهين الآخرين يتطلعان اليه فيُعتقد ان الاول هو وجه خوان ديسيجو . ولو كانت الصورة من يد رسام هل كان فكر او استطاع ان يضع في العين هذه الوجوه ؟ تُعرض بجانب الكنيسة صورة فوتوغرافية مكبرة ٤٠ × ٦٠ بوصة (١٠٠ × ١٥٠) لوجه العذراء وترى فيها الوجوه الهندية الثلاثة .



مزار عذراء جوادا لوبي



عذراء جوادا لوبي

١٢

اهرام المكسيك

الطريق العالي :

من مزار جوادا لوبي تابعنا مع الدليل طريقنا الى الاهرام . مررنا بقرى عديدة عليها مظاهر الفقر والتأخر . توقفنا عنـد حقول الصبير ذي الورق العريض والطويل وبانت كأنها حديقة منسقة . من هذا الصبير يستخرجون مشروبين كحولين هما الـ« تكيلا – TEKILA » والـ «بولكيه – PULKÉ » وكان الهنود يصنعونها من قبل الفتح الاوروبي . من أوراق الصبير أيضاً كانوا يأخذون الإبرة والخيط وينسجون ثيابهم. توقفنا عند اكشاك تبيع تذكارات وهدايا هندية : اقنعة – توتم – برانيط عريضـــة مزركشة (سومبريرو) مناديل الخ... اشتريت تذكاراً واحداً طلب فيه البائع ٢٥ بزوس(دولارين). ثم باعه لي بـ ٩ بزوس . في هذا أيضاً فرق بين اميركا اللاتينية والانجليزية... ومررت بكشك المرطبات وطلبت زجاجة كوكا كولا إذ هي مشروبي المفضل طوال رحلتي فقيل لي انهم مقاطعون الكوكا كولا الى ان تخفض أسعارها .

مكان التأله :

على بعد ٥٢ كم شمال شرقي مكسيكو تمتـــد منطقة « تيوتيهو اكان –

TEOTIHUACAN » تعني « مكان التآله » حيث أصبح بعض البشر آلهة .
لم يدوّن التاريخ شيئاً واضحاً عن شعب تيوتيهوا كان لأنه كان قد انقرض عندما دخل الاسبان المكسيك .

اصل الاهرام الاسطوري :

كان الهنود يروون للاسبان ان الاهرام بُنيت بأيادي أناس عمالقة وقد زعموا ذلك لأنه بجوار البقعة وُجدت عظام ضخمة ظنوها عظاماً بشرية وتبين للعلماء فيما بعد انها عظام حيوانات. وكان يروي غيرهم ان الآلهة أوجدت تلك الاهرام قبل ان يوجد البشر على وجه الارض . كان إلهان وضيعان وعليلان اسم احدهما « نانا هواتزين » واسم الآخر « تيكوسيزتكتل ». ارتميا في النار وتحول أحدهما الى الشمس والثاني الى القمر . في البدء كان نور القمر ساطعاً كنور الشمس الى ان سخطت عليه آلهة أقوى منه وضربته بأرنب طبع رسمه عليه ويرى بوضوح (حسب زعمهم) عندما يكون القمر بدراً . ومن ذلك الحين الى الآن دعيا هرم الشمس وهرم القمر .

اصل الاهرام التاريخي :

اعتقد علماء الآثار زمناً طويلاً أن هذه المنطقة هي اطلال مدينة « تولا — TULA » عاصمة شعب التولتيك الى ان اكتشفت توك الحقيقية سنة ١٩٤٠ في اقليم « هيدلجو — HIDALGO » بعيداً عن مكسيكو فأدركوا أن هذه هي عاصمة تيوتيهوا كان . امتدت أعمال التنقيب في المنطقة من ١٩٠٥ الى ١٩٦٤ . حاول العلماء تحديد عمر الاهرام وما حولها من أواني الفخار ومن طراز الابنية ومن مقارنتها بآثار شعوب مكسيكية أخرى . كما لجأوا الى أسلوب « فحم ١٤ » المؤسس على العمر الاشعاعي للفحم أي على كمية الاشعاع الذي تفقده رويداً رويداً العناصر الحيوية من حين موتها الى حين فحصها . توصلوا الى ان حقبة مدينة تيوتيهوا كان تمتد من سنة ١٠٠ ق . م . الى سنة ٦٥٠ ب . م . وبالتالي فلا تاريخ محدد لبناء تلك الاهرام .

كانت مدينة تيوتيهواكان واسعة جداً والرقعة التي اكتشفت منها هي الجزء الديني والحكومي يخترقها من الشمال الى الجنوب « شـارع الاموات » وعلى جهتيه الآثار : القلعـــة وهرم « كوتز لكواتيل » وهرم الشمس وهرم القمر وعشرات المعابد وبقايا بعض القصور حول هذا الحي الرئيسي المستطيل كانت منازل القوم بهندستها المربعة . جهـة المنزل ٧٠ متراً وأمام كل جهة طريق فهو أشبه بجزيرة بين أربع شوارع .

المتحف :

أول ما رأينا أربع خرائط تبين حضارة اقليم مكسيكو خلال ١٥٠٠ سنة وهضبة تيوتيهواكان بطبقاتها الجيولوجية وطبيعة أرضها وقيمتها بالنسبة الى باقي حضارات هنود اميركا الوسطى . من تماثيل الحجر والفخار يتضح ان عيون السكان كانت مستطيلة ومعوّجة وكانوا يحلقون كل شعر رأسهم ويتركون فقط خصلة تتنوع بطولها وغزارتها حسب المقام الاجتماعي . ويُرى في بعض الجماجم تشويه وتسميج متعمّدان إذ كانت تلك عـــادة معروفة لديهم قبل وصول الاسبان . ويوجد تمثال امرأة تستعمل المغزل وتفرك الخيط . بعض العقود والاساور من أسنان بشرية ومن حلزون وصدف . من تماثيل آلهتهم : الصحة — الموت — النبات — الخ ... رسم يمثل إله المطر « تلالوك » وعلى جبينه رأس طير ومن يديه ينصبّ المـاء وتحته جداول وسلاحف وأصداف واسماك منها سمك « النجم البحري » . بعض اقنعة من حجر واواني صغيرة للعبادة . يظهر من أحد الرسوم ان الكهان كانوا يتسلـّمون غِلال الارض ثم يوزعونها . لقد كانت قبائل اميركا « اشتراكية » على طريقتها فالجماعة قبل الفرد في كل شيء وعملهو لها. كانوا يضعون الوان الرسم المعدنية أو العضوية في أواني خاصة . يسترعي الانتباه رأس افعى ضخم وهو واحـد من مئات الرؤوس التي كانت منتشرة في المنطقة لا سيا في معبد « الافعى المجنحة » . برع الهنود بأشغال الفخار حتى ان العلماء قسموها الى اربعة عصور واستدلوا

منها على الكثير من حضارتهم . أبرز مصممو المتحف الطريقة التي استوحى بها الهنود فكرة وهندسة الاهرام من الروابي المحيطة بهم . وفي النهاية نموذج مصغر لكل هذة المنطقة الأثرية الهامة .

القلعة وهرم الافعى :

يقومان في مربع مساحته ٦٧٥٠٠ متراً مربعاً . الهرم الموّحد في حالته الحاضرة ينقصه الهرمان الخامس والسادس . صعدت الى قمته على درج تتلوى حوله نقوش الافاعي المرّيشة برؤوسها الجبارة الفاغرة فاها . وتوجد نقوش بدائية مستهجنة من أنياب وخطوط معوجة او مستديرة . ظن المنقبون العارفون ان الخطوط ترمز لإله المطر والانياب لإله الذُرة فالذرة كانت الغذاء الاساسي لجميع هنود اميركا والمطر هو الذي ُينبته .

شارع الاموات :

دعـــاه هكذا خطأ الهنود الازتيك الذين ظنوا ان الابنية والمصاطب المتعاقبة على جانبيه هي قبور. كان مشيّدوها قد هجروها منذ مئات السنين وتراكم عليها القدم ونالت منها عوادي الزمن . طول هذا الشارع ٤ كم يخترق المنطقة الأثرية من هرم القمر في الشمال الى هرم الافعى في الجنوب وانحـدار الشارع ٢٧ متراً مما جعلهم يبنون فيه درجات متباعدة . كثير من حجارة المباني أسود او مائل الى الأحمر وكلاهما من أصل بركاني .

هرم الشمس :

يقوم في ميدان مربع طول جبهته ٧٠ متراً . اكتشف سنة ١٩٠٥ مهدّماً ما عدا جزء صغير منه وبنى الاثريون الباقي . في شكله الحالي هو مكون من خمسة أدوار . في سطحه الأعلى قاعدة لمعبد الشمس وآثار غرفتين أما المعبد نفسه فمندثر . في الميـــدان تقوم بعض معابد صغيرة ومذبح ُيصعد اليه من جهاته الأربع . في كل جهة ١٣ درجة وهـــذا رمز عندهم لعدد السنين إذا

كان القرن مؤلفاً من ٥٢ عاماً. سنتهم المدنية كانت ٣٦٠يوماً وسنتهم الدينية ٢٦٠ يوماً . تسلقت ٢٤٦ درجـــة للوصول الى سطح هرم الشمس . كانت طريقة بناء الهرم سهلة جداً : يبنون حيطان الدور الاول من حجارة ملتحمة بالكلس ثم يملأون ما بينها بالتراب والطين ومـــا أشبه وسطح الدور الأول يكون قاعـــدة للدور أو الهرم الثاني وهكذا . هرم الشمس بحجمه الحالي المرمم أصغر من الهرم الاصلي سواء في قمته حيث لا يوجد المعبد أو في جدرانه إذ أُسقطت عنها القشرة الكثيفة وبقيت ثلاثة حيطان منه معرّاة. في قاعدة جـــدار الواجهة يوجد صف من الحجارة الضخمة استعملها المهندسون الهنود كدعائم لسند البناء لأن الهرم منحنٍ . الحجر الذي ُبني عليه هو من آجرّ لم يطبخ بالنار بل ُنشفَ بأشعة الشمس . في داخل الهرم بعض اروقة .

هرم خوفو الفرعوني وهرم الشمس المكسيكي :

رغم الأبعاد الشاسعة واختلاف الجنس والحضارة والجهل الكامل في نصف الكرة الشرقي عن وجود نصف الكرة الغربي الذي لم يكتشف إلا بعد مئات السنين فكر الفراعنة والمكسيكيون بتشييد الاهرام . أود ان أضع مقارنة بين أكبر هرم فرعوني وهو هرم خوفو في الجيزة بضاحية القاهرة وأكبر هرم مكسيكي وهو هرم الشمس .

هرم خوفو	هرم الشمس
— شيد نحو سنة ١٦٥٠ ق . م .	نحو سنة ١٠٠ ق . م .
— ارتفاعه ٣٢ و ١٤٤ متراً	٦٥ متراً يضـاف اليها ١٠ أمتار للمعبد المندثر
— طول جهة قاعدته ٥٠ و٢٢٦متراً	٢٢٥ متراً
— قمته نقطة	قمتة سطح
— غير مدرج ويمكن ان يعتبر دوراً واحداً شاهقاً وحيطانه	ذو خمسة أدوار يصعد اليها بدرج خـــارجي

الخارجية صفحة واحدة ملساء	مرتكز عليها
– بُني من صخور كانت مغطاة برمر	بُني من آجر منشف بأشعة الشمس وملتحم بالكلس .
– اكتشف وبقي كما هــو فهو الهرم الاصلي العريق	اكتشف مهدّماً وعلماء الآثار هم الذين بنوه .

فمن جميع الوجوه هرم خوفو أعظم وأروع من هرم الشمس بما لا يُحد . هذا عدا ان هرم خوفو – كسائر الاهرام الفرعونية – كان ضريحاً . أمـا هرم الشمس – كسائر الاهرام المكسيكية – كان قاعدة لمعبد . فلا علاقة تاريخية او هندسية بينهما .

بعد زيارة هرم الشمس عدت الى شارع الاموات ومررت بأطلال معابد صغيرة وبمعبد « القط الوحشي » وقد دُعي هكذا من رسم ذلك الحيوان الممتد على جدرانه ثم بمعبد الحيوانات الميثولوجية وفيه رسوم مصغرة جـداً وملونة تمثل الأفعى والقط الوحشي والسمك والحلزون... ثممعبد إله الحراثة وفي نهاية الشارع ميدان هرم القمر .

قصر القط الوحشي :

أجمـل قصر محفوظ هو قصر « كوتزالماريبوزا » وهو اسم طائر خرافي شهير عند الهنود يملأ رسمه الجدران . يُعتقد ان القصر كان مسكن الكاهن الملك . وفوق هـذا القصر يقوم قصر « القط الوحشي » حيث توجد لوحة نادرة تمثل يدين تحملان قططاً متوحشة تُخرج من افواهها ألسنة عديدة رمز بطشها. ولوحة أخرى تمثل آلهة طرب مغطاة بريش ويخرج من اعلاها لسانان ومن اسفلها نقاط دم . ويلاحظ الزائر في هـذا القصر وفي غيره ان الهنود عرفوا إقامة شبكات مجاري تحت الارض . ثم عبرنا رواقاً اشبه بنفق أفضى

الى معبد الحلزون الذي يرجع عمره الى القرن الثاني بعد الميلاد . ويوجد رسم ببغاء تقطر من منقارها سائلاً أزرق .

هرم القمر :

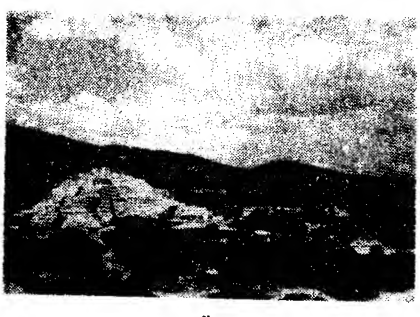
في نهاية شارع الأموات وفي أعلى نقطة منـه يقوم هرم القمر . ارتفاعه ٧٠ و ٤٥ متراً ولكنه يبدو في علو هرم الشمس لأن الارض التي شيد عليها هي أكثر ارتفاعاً . ان شكله وهندسته كهرم الشمس : خمسة ادوار مرممّة ويستند اليها درج خارجي . ضلع قاعدته من الشمال الى الجنوب ١٤٠ متراً ومن الشرق الى الغرب ١٥٠ متراً وحجمه ٧٦١ و ٣٦٦ متراً مكعباً. ارتفاع الدور او الهرم الخامس ٨ و ١٧ متراً ولقاعدته خمسة اضلاع .



هرم الافعى



هرم الشمس



هرم القمر

إله المطر :

الرسم الوحيد المرح في هذه المنطقة هو رسم فردوس إله المطر «تلالوك» من يديه تتساقط المياه على رابية وعلى سهل يرويه نهران يصبان في بحيرة . وفي البحيرة أناس يستحمون وغيرهم يهمّون للارتماء في الماء. وهنود يلتقطون الحلزون الذي يخرج من حجره بعد سقوط المطر . وغيرهم يقطفون الزهور ويرقصون . وحقل فيه أناس يلعبون ويغنون . أهمية هذا الرسم انه الوحيد الذي لا تخيم عليه جدية ورزانة الرسوم الدينية ففيه منطلق لخيال الرسام المرح . على جدار آخر رسوم لكهنة بثياب حمراء وعلى صدرهم رمز جغرافي للخوافق الاربع . وهنالك رسوم الذبائح الآدمية : قلب تتساقط منه الدماء وكهنة ترفرف على رؤوسهم الرياش وهم يحملون باليد اليمنى الخنجر الذي يغرسونه في صدر الذبيحة وباليسرى ثلاثة سهام . واجسام شبه بشرية فيها تشويهات متعمّدة كساقين متقوّسين . هذه الرسوم هي لمسوخ خرافية كان يرهبها ويتقيها هنود اميركا الوسطى .

١٣

شولولا وهرمها

قدم على أكمة :

كلمـــة « شولولا » تعني « مكان الانطلاق » وكان التعبير الهيروغليفي عنها أكمة على ذروتها قـــدم . وحسب التقاليد من هنا انطلقت عبادة « كواتز الكواتل » .

يرجّح ان شعب « اولمبك » هو الذي بناهـا . وعندما استولى عليها من بعـــدهم شعب « تولتيك » جعلها مدينة « نجمة الصبح والمساء » كما جعلها « تيوتيهوا كان » مدينة الشمس . عندما قمعها « كورتيس» قدّر عدد سكانها بأربعين الفاً وعدد معابدها بأربعمائة .

هرم شولولا :

وقفنا عند هرم « شولولا » وتسلقناه وتجولنا في داخله . يعتقد ان الهرم الاول من القرن الخامس قبل الميلاد وفوق الهرم الاول بنى المنتصرون أهراماً أخرى — سبعة او خمسة — إذ كان من عادة بعض الشعوب الهندية بناء هرم فوق أهرام المهزومين علامة الاذلال والتسلط .

حفظت التقاليد الشعبية انه شيد لتكريم « كواتز الكواتل » ولأغراض دفاعية . طول كل ضلع من اضلاع القاعدة الاربع ٤٣٩ متراً . في شكلها الحالي هي أربعة أهرام يعلو أحدها الآخر ويبلغ ارتفاعها الاجمالي ٥٤ متراً فقط وفي قمتها « كنيسة عذراء الادوية » بدل معبد الافعى الجنحة .

نسبة الارتفاع الى طول أحد اضلاع القاعدة هي — فيحالتها الحاضرة — $\frac{١}{٨}$ بينما في هرم خوفو $\frac{١}{١٠٦}$ وفي هرم خفرع $\frac{١}{١٠٧}$. تجولنا في بعض انفاقها وأروقتها الداخلية البالغ طولها ٦ كيلومترات . اكتشف فيها الأثريون جثث وجماجم وأواني وأصنام ورسوماً ملونة . كان للألوان رمز فالأحمر لون الموت والأسود لون الحداد والأصفر لون الحياة . في أحد القبور بجوار الهرم عثر على أدوات منزلية وعلى نافذة لدخول وخروج الروح كما فيالاهرام الفرعونية. من سطح هـذا الهرم استمتعنا لأول مرة برؤية أشهر الجبال البركانية في المكسيك وهي «بوبا كاتيبتل —POPACATEPETEL » «واكساتاسيهواتل— IXTACCIHUATL وايزالتيزتيبك EZALTIZTEPEC » . ارتفاع الاول ٥٤٦٠ متراً فهو أعلىقمة بركانية ومغطى بالثلوج الأبدية وشكله مخروطي كامل رشيق أبيض والثاني وارتفاعه ٤٧٦٥ متراً ومعنى اسمه «المرأة النائمة» لأنه يبدو هكذا . والثالث كان «مقرّ الاذاعة» يُرسل اليه ملك « شولولا » منادياً يُسمع صوته الى بُعد ٤٠٠ كيلومتراً كما كانوا يزعمون .

من هو كواتز الكواتل :

معنى هذا الاسم الازتيكي هو الافعى ذات الريش او الجنحة او الطائرة . كان إنساناً بطلاً ألـّه بعد موته . يرسمه الهنود بهذه الملامح : عملاق ابيض عريض الجبين واسع العينين اسود الشعر كث اللحية يرتـدي رداء أحمر فضفاضاً وفي يمينه صولجان وعلى هامته تاج . كان ملك وكاهن المدينة العظيمة « تولا » وحكيماً ومشترعاً . في حياتـه الخاصة كان مثال العفاف والزهد والتصوف . علـّم شعبه استخدام المعادن وتشذيب الحجر للبنـاء . اضطـهد

في « تولا » فهجرها واستقرّ في « شولولا » وحكمها كملك وكاهن أعظم . ولد على الارجح سنة ٨٩٥ ب. م. وحامت حوله الاساطير . في عام ٩٢٥ أصبح ملكاً على «التولتيك» في «تولا» والكاهن الاعظم الإله كواتز الكواتل. أقام أربعة مناسك للعبادة وللتقشف الاول من لبن والثاني من مرجان والثالث من عظام الحلزون والرابع من ريش ! هكذا تروى الاسطورة التي لم أفهمها. كان عند انتصاف الليل ينزل الى ضفة الماء ويتضرع الى السماء الى الكواكب والنجوم والمجرّة والنجم الاحمر (؟) وزوجة الشمس (؟) وتعلّم من الآلهة اكتشاف واستعمال الاحجار الكريمة. واكتشف المشروب السحري «بولكه - PULQUE » والكاكاو .

قبيل وفاته - وعمره ٧٢ سنة - تزين بكل حلاه وارتمى في النار . وعندما أخذ يحترق حضرت أجمل الطيور ترفرف وتغرّد له . ولدى خمود النار صعدت روحه مزرماد قلبه ولم تذهب لا الى السماء ولا الى جهنم بل الى الجحيم حيث قضت اسبوعاً وفي اليوم السابع ظهرت في الفلك كوكباً جديداً لامعاً هو كوكب الصبح وهكذا دخل كواتز الكواتل في مصف الآلهة !

حسب اسطورة أخرى : تحدّى الشمس بعد مماقه وهاجمها ثم اختفى فكان كسوف كامل على الارض ومات اناس كثيرون ثم تحول الى كوكب الصبح . فسرّ البعض هذا باندهاش الهنود المكسيكيين من ظاهرة النجوم المذنّبة والشهب التي تنساب كالأفعى في عرض السماء .. في هذه الاسطورة مزج التولتيك اعتقاداتهم الفلكية والدينية والتاريخية . وفي إحدى حفلاتهم الدينية كان كاهن كوكب الصبح يرمي سهماً في وجه إله كوكب المريخ الذي كان إله الحرب يحمل جعبة وسهاماً .

طغمة الكهّان :

بعد وفاته وتأليهه بقي نظام الحكم في « شولولا » إلهياً باسم الدين . في القمة كاهنان هما « اكويياش » وشارته النسر و « تلاكويياش » وشارته النمر.

يعاونهما ستة مستشارين : للحفلات الدينية ولاستطلاع الغيب وللتشريع وللقضاء ولعلم الفلك وللطب .

كان كهّانهم من فئة النبلاء ويسكنون حيّاً خاصاً بهم . أما الذين يهبون منهم كل مالهم لـ كواتز الكواتل فيسكنون بجوار المعابد ويرتقون الى مناصب دينية عالية . يدخلون المعبد يومياً – بعد أن يخلعوا أحذيتهم – ويبخّرون الاصنام طالبين حماية البلاد ومطراً للمزروعات وازدهاراً للشعب . في السنين الاربع الاولى يرتدون عباءة سوداء وفي الاربع التالية عباءة بلونين اسود وأحمر ثم الذين لا يترقون يلبسون الاسود طوال عمرهم والذين يترقون يلبسون ألواناً قد تصل الى حزام مذهب وتاج مذهب . وهؤلاء يُشعلون النار المقدسة الجديدة في رأس كل سنة وقد كانوا يعتبرون النار مبدأ الحياة تعود كل سنة كما ينبت النبات .

الذبائح البشرية :

كان كهنة شعب الازتيك يقدمون للآلهة قلوب ذبائح بشرية . يلبس الكاهن المضحّي ثوباً قطنياً منقوشاً بزهور ويزين هامته وأذنيه وشفتيه بأحجار كريمة . ويلبس معاونوه الخمسة ثوباً قطنياً ابيض ويحملون الانسان الذي سيُضحّى . أحدهم يمسك برأسه واثنان بيديه واثنان بقدميه ويمدّونه على مذبح صغير بحيث يلقى عليه ظهره فقط أما ساقاه وهامته فتتدلى . يتقدم الكاهن المضحّي ويغرز خنجراً في صدر الضحية ويستخرج القلب ويبلّل بدمه شفتي الصنم ويرش أركان المعبد ثم يحرق الضحية . وإذا كانت الذبيحة أسير حرب فيقطع رأسه أيضاً ولهذا عثر الاسبان على مئات الجماجم عندما هدموا المعابد . الجسم الذي نُزع منه قلبه ورأسه يُدحرج على درج المعبد فيلتقطه الجندي الذي كان قد أسره . ذكر المؤرخون الاسبان ان الازتيك كانوا يذبحون لآلهتهم نحو عشرين الف أسير كل سنة لذلك كثرت غزواتهم .

قمع شولولا :

في ١٢ تشرين الاول ١٥١٩ قصد الفاتح كورتيس مدينة شولولا على رأس جيش من ستة آلاف من شعب « تلاكسكالا – TLAXCALA » المعادي لـ شولولا ومعهم قلة من الاسبان . خرج الكاهن الاعظم « تلاكوياش » مع شعبه لاستقبال كورتيس وادخلوه بالترحاب الى مدينتهم بيد انهم لم يسمحوا لجيش تلاكسكالا بالدخول فبقي معسكراً خارج المدينة . بعد ان طوى فيها كورتيس ثلاثة أيام نُعي اليه ان السكان ذبحوا ضحية لإله الحرب . وخانهم كاهن منهم وأفشى سرهم ناقلاً الى كورتيس انهم سيداهمون البيض وقد أرسلوا يستقدمون من مكسيكو جيشاً حليفاً مناصراً . فأصدر كورتيس أمره الى جيشه بالهجوم ففتكوا ودمروا طوال يومين حتى قدّر عدد الضحايا بستة آلاف . ولم يكفّ كورتيس عن قمع شولولا إلا بعد أن أتاه كهنتها مسترحمين مستعطفين .



جبل بركان بوبا كاتيبتل



من هنود المكسيك

بويبلا :

بعـد زيارة شولولا وهرمها تابعنا السير الى « بويبلا – PUEBLA » وهي مدينة جميلة واسعة تعدّ ٧٥٠ ألفـاً يظهر على بيوتها الثراء والذوق ولا عجب فهي عاصمة القطن . اندلعت منها الثورة سنة ١٩١٠ . زرنا فيهـا دير القديسة « مونيكا » الذي هو الآن متحف . أخبرنا الدليل عن الحادث الذي يتناقله جميع سكان « بويبلا » إذ هاجم البوليس الشيوعي سنة ١٩٣٤ هـذا الدير الذي كان يأوي راهبات محصنات . ساعد الشعب الراهبات على الفرار إذ جعلهن يخلعن الزي الرهباني ويلبسن الزي النسائي العادي وهكذا هربن مع الشعب الى الشارع . ثم حوّل النظام الجديد دير العبادة الى بيت بغـاء وبعدئذ صار متحفاً . زرنا أيضاً معامل الفخار والخزف التي تشتهر بهـا « بويبلا » .

١٤

اكابولكو

في الطائرة من مكسيكو الى « اكابولكو – ACAPULCO » كنا نعلو بقليل رؤوس الجبـال الشاهقة حيث لا يصل الطير نفسه ونرى مناطق وعرة مهجورة كلها أخاديد عميقة وشلالات وأنهر . ثم أخذت القمم وسلاسل الجبال تنخفض ونحن ننزل معها الى أن هبطت الطائرة في اكابولكو بعـــد ٥٠ دقيقة طيران .

مبنى مطار اكابولكو تحفة هندسية رائعة . انـه صغير جذّاب كله من مرمر مختلف الألوان . المطار بعيد عن المدينة ٢٢ كم قطعناها صعوداً ونزولاً بـين الرُبى . عن شمالنا الباسيفيكي وعن يميننا آكام لا يحصى لهـا عدد تبرز منها صخور جبارة ناتئة بين الشجر وعلى سفوحها تتدرج البيوت والفيلات . لكثرة ما قرأت وسمعت عن اكابولكو لم أرد أن أغادر المكسيك دون أن أزورها . انهـــا في المكسيك مثل سانتوس في البرازيل وماردلبلاتا في الارجنتين. يسأل المكسيكيون كل سائح هل رأيت اكابولكو وبوبا كاتيبتل. سياحياً اكابولكو هي من أشهر شواطىء الاستحمام في العالم ليس فقط لسحر طبيعتها وموقعها بـل لدفء مياهها فالفرق في حرارة مياهها بـين الصيف

والشتاء درجتان مئويتان فقط . تصل اليها خطوط طيران مباشر من أغلب مدن اميركا الشمالية والجنوبية ومن استراليا .

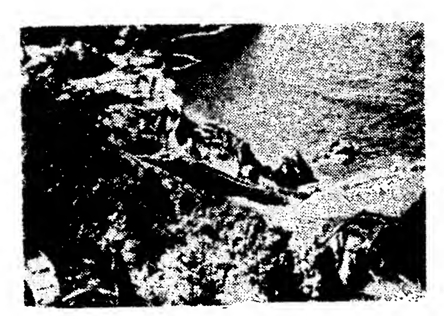
أسسها الاسبان سنة ١٥٥٠ كميناء صغير على خليج طوله ٥ كلم ويقال أنه من أكثر خلجان العالم استدارةً . كان ميناء للسفر الى مستعمرات اسبانيا في اميركا الجنوبية وإلى الشرق الاقصى لا سيما الفيلبين التي كانت تحكمها اسبانيا . وضعوا في قعره تمثال عذراء جواد الوبي شفيعة المكسيك .

في جولتي على شاطىء الخليج كنت أرى عشرات الجزر الصخرية بعضها أجرد وبعضها باقات نخيل . المدينة مزينة بأشجار النارجيل (جوز الهند) والماجنوليا والعنبر وأنواع من الياسمين والصبير وغيرها من نبات المناخ الدافئ فوق الاستوائي . وفي كل مكان ألوان زاهية فرِحة كأنّ اكابولكو في عيد لا ينقطع . فندق هيلتون يحمل هنا اسم « قرية هيلتون » وهو بأجنحته المتعددة مزيج من الطابع الهندي والمكسيكي المعاصر والاميركي. الناس نصف عراة في المخازن والشوارع فالشمس حادة والجوّ حارّ . كل هـذا ونحن في فصل شتائهم فماذا تراهم يفعلون في فصل صيفهم !

عنـد رأس الخليج المتقدم في البحر صعدنا الى مقلب الجبل حيث سفح صخري رهيب يطل على بحر هائج . جلسنا نصف ساعة في شرفـة فندق « ميرامار » نستمتع بهذا المشهد الفريد ثم أعددنا آلات التصوير واتخذنا لقطة تعرض للسياح كل يوم : ركع مكسيكي وصلّى أمـام تمثال العذراء ثم حيّانا ورمى بنفسه في الماء من ارتفاع ٣٨و٤٠ متراً بين جدارين صغيرين متقاربين جداً – اسمها « لاكويبرادا – LA QUEBRADA » . هـذه هي أعلى وأخطر غطسة في العـالم ولا يجوز لأي زائر في اكابولكو أن يجهلها . زرنا أيضاً قلعة « سان دييجو » حيث جرت موقعة بين الاسبان والفرنسيين الذين ساعدوا المكسيكيين في اوائـل القرن الماضي في حرب التحرير

والاستقلال. وأخذنا الدليل الى الاحياء الشعبية وسوق السمك وسوق الخضار والفاكهة وسوق المشتريات السياحية فإذا بها كلها شوارع ضيقة شعبية صاخبة لا تخلو من لون محلى ممتع تضفي عليه الطابع المكسيكي القبعة الواسعة كمظلة .

في المطار وقع نظري على فتاة اميركية كسيحة وممسوخة جسمياً وعقلياً يجرّها والداها على كرسي متنقّل ويطوفان بهـــا للنزهة . إن عاطفتهم الانسانية تُجاوز ما نشعر به نحن إذ أننا نعامل من يشابهها كحبيسة مراعاة لشعورها ولشعور من يراها .



في اكابولكو

١٥

كندا

مونتريال

لمحة عن المكسيك :

كلما أتطلع الى الكرة الارضية على مكتبي تقف العين عند كندا جارة القطب الشمالي وموطن البحيرات والثلوج والغابات ومهجر الاصدقاء والاحباب. وعندما تطوف مخيلتي في العالم – في أحلام اليقظة وفي رؤى الكرى – وتنبّه الذكريات الهاجعة تتمهل طويلاً حيالها . وطني الاول لبنان حيث ولدت ووطني الثاني مصر حيث عشت طويلاً ووطني الثالث حيث تتلفت الروح وتهفو ... العالم كبير واسع ولكن أية بقعة تشدنا اليها؟ والبشر ملايين وملايين ولكن من منهم يستهوينا ؟ حقاً « سر المكان بالسكان » وكذلك الاوطان !

تقع كندا في شمال القارة الاميركية ممتدة ٥٦٠٠ كم بين الاطلسي والباسيفيكي . تبلغ مساحتها ٩,٩٦٤,٠٠٠ كم مربعاً فهي الثانية في العالم بعد الاتحاد السوفياتي . على هذه البقعة الواسعة يعيش فقط ٢٣ مليوناً منهم ٣١٪

من اصل فرنسي و ٥٠٪ من اصـل انجليزي والباقون من جنسيات اخرى . هذا عدا ١٦٥ الفاً من الاسكيمو والهنود . خلا اللغتين الانجليزية والفرنسية هنالك ثالثة يطلقون عليها لقب « اللغة الاميركية » .

يعيش ٩٠٪ من السكان على حـدود كندا مع الولايات المتحدة لأن المناخ الغالب في باقي البلاد هو الصقيـع . يقول الشماليون منهم ان عندهم شهر صيف واحد هو تموز والباقي فصل الشتاء . تهبط الحرارة الى ٣٥ درجة مئوية تحت الصفر وفي الشمال القاصي تنخفض الى ٥٥ درجة .

كانت كندا قبل اكتشافها موطن الاسكيمو والهنود. سنة١٥٣٥ اكتشفها «جاك كرتييه – JACQUES CARTIER » ولكن فرنسا لم تهتم بها الى ان حط الرحال فيها « شمبلين– CHAMPLAIN » سنة ١٦٠٩. فيسنة ١٦٤١ تركزت اول حامية في مونتريال وفي ١٦٦٥ جرّد ملك فرنسا حملة عسكرية انتصرت على « الدول الهندية الايروكوا الخمس » . إنما بعـد معاهدة السلام سُرح الجنود وفكروا في العودة الىفرنسا فأرسلاليهم الملك اعداداً كبيرة من فتيات مستعدات للزواج من أي واحد ولُقبّنَ ببنات الملك .

سنة ١٧٥٩ هزمت بريطانيا فرنسا في «كيبك» فأصبحتبعدها كندا كلها مستعمرة بريطانية . نص الدستور على ان يحتفظ اقليم كيبك بلغته الفرنسية وتقاليده وقوانينه ولا تزال هذه الروح حيّة الى الآن واحياناً مثيرة للنعرات لا سيما وان ٦٥٪ في الاقليم من اصـل فرنسي . بعد استقلال اميركا حارب الاميركيون الانجليز حتى على ارض كندا وخفق « عَلم النجوم » ستة اشهر في مونتريال وحاولت اميركا اقناع كنـدا بالانضمام اليها . وفي سنة ١٨٩٧ وُلد الاتحاد الفدرالي الكندي بـين اربع ولايات انضمت اليها فيما بعد ست اخرى .

كندا هي خامس دولة مصدّرة في العالم . سنة ١٩٤٨ كان دخلها القومي ١٥ مليـار دولار اصبح ٦٧ مليـار سنة ١٩٦٤ . سنة ١٨٦٦ كان ٨١٪ من

سكانها فلاحين وسنة ١٩٦٦ فقط ٣١٪. الوضع الحالي يتطور من الاقتصاديات الفردية والصغيرة الى الجماعية والمسيطرة. أهمّ الصناعات الكندية هي الآتية بحسب مستوى أهميتها : الورق (٦٠٪ من انتاج العالم). المعادن غير الحديدية. البترول . المجازر واللحوم المعلبة . السيارات والآلات . الحديد والصلب . الخشب . الالبان . الجلود . المطاط . الطائرات . قطع الغيار . المواد الكيماوية . الاسمنت . القصدير والنحاس . هل هذا درس جغرافيا ؟ كلا بل تنوير لذهنك فربما تنوي الهجرة الى كندا ، أحد اقطار الانتشار اللبناني...

صورة عامة لمونتريال :

مطار «دورفال» او مطار مونتريال هو من أحدث مطارات العالم وأكملها وفي مونتريال نفسها مقر الاتحاد الدولي للنقل الجوي . بعد إجراءات الدخول المعهودة — وقد رأيتها طويلة جداً لأن مستقبليّ اخذوا يحدثونني بالعيون وبالاشارات — انتظرت أمام ركن استلام الحقائب فإذا بها تسقط من فوق وتدور مع منحنى دائري دائم الحركة كما في مطحنة .

تقع مونتريال في جزيرة طولها ٤٨ كم وعرضها يتراوح بين ١١ و ١٦ كم . يبلغ عدد سكانها مليونين ونصف ثلثاهم فرنسيون والثلث الباقي من بلدان اوروبا والشرق الاوسط . من يسكنها ويسمع عن ثلوجها يظن انها في منطقة القطب الشمالي مع انها تبعد عنه كباريس ولندن .

قبل قدوم الاوروبيين كانت في الجزيرة قرية هندية تدعى « هاشيلاجا ». في سنة ١٦٤١ نزل في الجزيرة الفرنسي « دي ميزون نوف — DE MAISO-NNEUVE » على رأس حملة من المستعمرين الفرنسيين ارسلهم معه « مسيو اوليه » رئيس معهد « سان سولبيس » الشهير في باريس . أسسوا مدينة جديدة دعوها « مدينة مريم — VILLE - MARIE » واحتفظت بهذا الاسم حتى سنة ١٧٠١ إذ عُرفت بـ«مونتريال» أي «الجبل الملكي» من اسم رابيتها.

اسعدني الحظ ان اقيم في مونتريال اوقاتاً طويلة . ليست مدينة واحدة

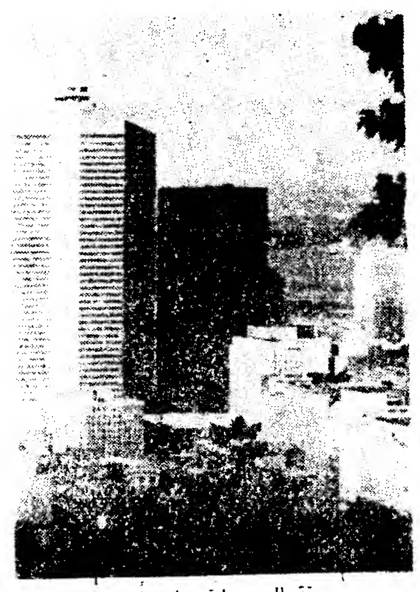
بل هي فسيفساء من ٥٠ مدينة ولكل واحدة بلديتها وبعض انظمتها الخاصة بها. يفضل الكندنون الفرنسيون الاحياء الشرقية والكنديون الانجليز الاحياء الغربية وما بينها تختلط لغات جميع الشعوب لا سيا الايطالية والعربية .

يخترق شارع « سان لوران » المدينة من جنوبيها عند نهر «سان لوران» الى شماليها عند « نهر المروج » فيقسم باقي الشوارع الى شطر غربي وشطر شرقي لذلك يجب دوماً إضافة « غرباً » أو « شرقاً » الى العنوان . وبما ان الاعداد تبدأ بالواحد عندشارع سان لوران ثم تكبر وتكبر فمن قراءة النمرة يعرف المرء كم هو بعيد عن وسط المدينة او عن حواشيها . والنقليات في مونتريال سهلة ومريحة جداً سواء في الاوتوبيس او في المترو الذي أنشىء تحت الارض سنة ١٩٦٧ وخرج آية في الفن الهندسي وجميلاً وسريعاً ونظيفاً. يمكن الراكب ان ينتقل بتذكرة واحدة من مترو الى آخر ومن المترو الى الاوتوبيس او بالعكس الى ان يبلغ مقصده . الشوارع الرئيسية تخترق المدينة من اولها الى آخرها فتسهل التوجه . وإذا ضاع احد او احتار يمكنه ان يطلب نمرة ٦٢٦٠-٧٧٨ فيرشده صوت لطيف ويقول له : اركب اوتوبيس كذا او انزل الى المترو في محطة كذا. في كندا لا ينزعج الناس إذا استأذنهم احد في استعمال تليفونهم فالمكالمات التليفونية مهما كثرت وطالت هي مجانية داخل المدن .

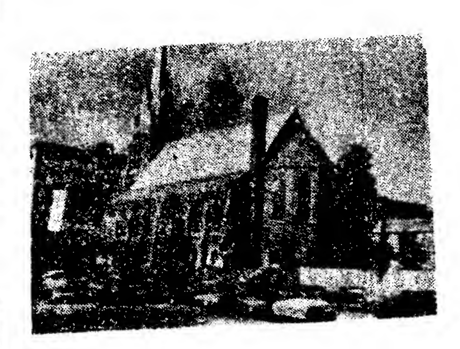
في مونتريال القديمة :

كان مقري في كنيسة المخلص في شارع « ڤيجيه - VIGER » بمونتريال القديمة وعلى قرب نصف كيلو متر من قلب المدينة التجاري فطالما سرت على قدميّ استطلع جمال القديم والحديث .

وُلدت مونتريال في « الميدان الملكي - PLACE ROYALE » حيث تذكر مسلة اسماء ٦٠ فرنسياً كانوا اول من استوطن فيها . بين ١٦٩٥ و ١٨٢٥ تعرضت مونتريال القديمة لثمان حرائق فحاولوا التخفيض من استعمال



مونتريال وبناية فيل ماري



كنيسة المخلص في حي فيجيه



أحد الأحياء الراقية



مونتريال النظيفة الأنيقة

الخشب في المباني . سنة ١٨٣٣ انتخب فيها اول عمدة «جاك ڤيجيه» وتبرّع لشعبها بأرض واسعة لتكون حديقة فأطلق اسمه على الحي والشارع . على مسافة غير بعيدة من شارعه تمثال للبطلة « جان دارك » أمام مقرّ الاتحاد القومي الفرنسي . على ضفة النهر عند رأس شارع « دورشيستير » مسلّة « الوطنيين أبناء الحرية » الذين شنقوا ليلة عيد الميلاد سنة ١٨٣٨ . وفي مونتريال الفرنسية نصب للأميرال «نلسن» قاهر نابليون في معركة « الطرف الأغر » شارك في اقامته سنة ١٨٠٥ الكنديون الفرنسيون أنفسهم .

يحتل المرفأ اكبر مساحة في المدينة القديمة إذ يمتد ٢٢ كم على ضفة « سان لوران » . رغم ان مونتريال تبعد عن المحيط نحو الف كيلومتر فهي من اكبر موانىء العالم لا سيما بعد ١٩٥٩ إذ دُشّن خط «سان لوران» الملاحي المؤدّي الى البحيرات الخمس الكبرى . تغلّبَ المهندسون على فرق الارتفاع البالغ بين مونتريال والبحيرات ١٨٥ متراً وذلك بإنشاء الاهوسة وتغلبوا على الاجزاء التي لا تسمح بالملاحة في النهر بفتح قنوات جانبية . في الماضي كان الميناء يقفل في فصل الشتاء وعندما تدخله — عادة في أواخر نيسان — أول سفينة بعد ذوبان الجليد يُسلَّم قبطانها عصا بمقبض ذهبي ، أما الآن فيعمل الميناء ٣٦٥ يوماً في السنة بفضل كاسحات الجليد والبواخر العصرية الجبارة .

في مونتريال القديمة «قصر رامزاي — «CHATEAU DE RAMEZAY وهو متحف يحفظ الكثير من تاريخ « فرنسا الجديدة » [١] ويغلب على محتوياته الطابع العسكري والطابع الديني فالدولة والكنيسة كانتا متحالفتين في « كيبك » حتى أواسط القرن العشرين » [٢] . ويقول مهاجرونا ان عند

---

(١) هكذا دعا الفرنسيون كندا كما دعا الانجليز « الانجلترا الجديدة — نيوا نجلاند » ست ولايات اميركية .

(٢) بجوار كنيسة « نوتردام » كان معهد « سان سولبيس » الكنسي وكان ساكنوه يلقبون الى سنة ١٩٣٥ « بأسياد مونتريال وبأرباب الجزيرة » .

غالب الكنديين الفرنسيين أنفسهم الآن «ردّ فعل» فلا يحبون كثيراً الكنيسة والاكليروس . بنى هـذا القصر « رامزاي » الحاكم الحادي عشر في مونتريال وأصبح قصره على التوالي مقراً لشركة الهند ولنائب الملــك ومحكمة ودار المعلمين وجامعة وأخيراً متحفاً .

لا اكثر من الكنائس في مونتريال القديمة حتى قال يومـاً « مارك توين » وهو يلقي محاضرة فيها : « هذه أول مرة أزور مدينة لا يمكن لأحد أن يرمي شيئاً فيها إلا ويخشى أن يكسر زجاج كنيسة » . الكاتدرائية هي « كنيسة مريم سيدة العـالم » وهي بالحجم خمس كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان . على حيطانها رسومات تاريخيـــة للحوادث التي رافقت استيطان الفرنسيين في المدينة وتحت مذبحها يدفن مطارنة مونتريال .

أما ملكة الكنائس هنا فهي «نوتردام دي مونتريال» التي يعتزّ الكنديون بفنّها وجمالهـــا وبتقليدها لكنيسة « نوتردام » في باريس . كان مهندسها انجليزياً ، بروتسطنتياً اصبح كاثوليكياً بعد إنجازها سنة ١٨٢٩ وأكرم بدفنه فيها . ظلـّت طوال قرن وثلث أعلى بناية في مونتريال الى أن ارتفعت أبراج الدولار أعلى من أبراج المعابـــد . في البرج الايمن جرس ضخم يزن ١٨ طناً ُكتب عليه « ُصببت سنة ١٨٤٧ وهي السنة الثانية بعـــد المائتين لتأسيس مونتريال والأولى من باباوية بيوس التاسع والعاشرة من ُملك الملكة فكتوريا. إنهـا هبة تبرّع بهـا البائعون والعمال والفلاحون في فيل ماري » . في البرج المقابل عشرة أجراس رنـّة كل واحد منها هي « نوتـة » من السلم الموسيقي فعندما تقرع ُتخرج ترانيم فكأنها أصابع بيانو او ثقوب ناي. ارغن الكنيسة مكوّن من ٥٧٧٢ أنبوباً مفضضاً. ُصمّم المذبح الرئيسي بحيث يذكـّر بذبائح عديدة حول ذبيحة الصليب فيتضمّن ذبيحة اسحق ، وذبيحة الحمل اليومية في هيكل سليمان ، وذبيحة ملكي صادق من خبز وخمر، وجرّة المن في تابوت العهد . في قمة المذبح المسيح يكلـّل العذراء لأن الكنيسة هي على اسم « مريم

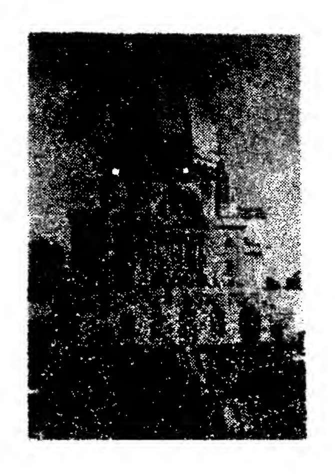
الملكة » . على جوانب الكنيسة عشرة معابد أروعها « معبد سيدة القلب الاقدس » حيث يحتفل بصلاة الزواج .

في مونتريال الحديثة :

في قلب المدينة الحديثة ترتفع بناية « ڤيل ماري » ٤٥ دوراً وهي بناية بنك كندا الملكي مكونة من اربع ناطحات سحاب ارتفعت ملتصقة بشكل صليب سنة ١٩٦٢ وكلّفت مائة مليون دولار. في قمتها مطعم اسمه « ارتفاع ٧٣٧ » قدماً أي ٢٢٢ متراً وشرفة منفتحة على الآفاق الاربعة تعطي أكمل وأجمل صورة عن مونتريال . حول « ڤيل ماري » بعض ناطحات سحاب قليلة لا يزيد عمرها على عشر سنوات أهمها بنك التجارة الامبريالي والـ « آي. بي. ايم » و « شاتو شمبلين » و (فندق البزابيث) . وقال لنا الدليل ان شبكة الشوارع تبلغ ١٦٠٠ كلم تكلّف سنوياً ٩ ملايين دولاراً لجرف الثلج عنها والويل للسكان عندما يضرب جارفو الثلج . لا يمر اسبوع إلا وتشهد مونتريال إضراباً ما لكن الاشق هو اضراب عمال الثلج .

تحت « ڤيل ماري » وتحت وسط مونتريال التجاري تمتد أكبر مدينة في العالم تحت الارض . لا تنطفىء فيها الإنارة الكهربائية ولا تستريح أجهزة التكييف لحظة واحدة في السنة . انها رائعة أنيقة هادئة تحمي من المطر والعاصفة والثلج والبرد والحر فمونتريال حارة ورطبة جداً في تموز وآب . يمكن للسائح أن يمشي تحت الارض ساعات بين المطاعم والمسارح والسينمات ومحطات المترو وسكة الحديد وألوف المتاجر فيجد فيها كل شيء ولا يشعر بحاجة للصعود الى سطح الارض .

منذ أعوام قليلة قام في مونتريال الحديثة « ميدان الفنون » وهو مكوّن من ثلاث صالات فخمة جداً تتسع كل واحدة منها لألوف المشاهدين . وعلى بُعدٍ يسير منها قصر الرياضة للاجتماعات السياسية الكبيرة ولقداس نصف



سان جوزيف



في حديقة النبات



في معرض مونتريال



درب الصليب في سان جوزيف

الليل ليلة عيد الميلاد ولحفلات فرق فنية شهيرة ولمباريات الرياضة على اختلاف أنواعها لا سيا الهوكى على الجليد . تعتبر كندا نفسها بطلة العالم في الهوكى ولكن في فترة إقامتي خـلال ايلول ١٩٧٢ هزمتها روسيا فكانت أيام حزن وحداد سرعان مـا نسيت بانتصار الفريق الكندي في روسيا بعد شهرين . الهوكى هي من امتع الالعاب الرياضية تتجلى فيها الخفة والاناقـــة إذ يجري اللاعبون على الجليد الصناعي وقـد تصل نسبة سرعتهم الى ٦٠ كم في الساعة وهم ينزلقون على « كرّاجات » .

أشهر الشوارع في وسط المدينـــة التجاري هي « دورشيستر وشربروك وسانت كاترين » الاول هو اكثرها اتساعاً وازدحاماً في الوقت نفسه. والثاني يقال عنـــه « الجادة الخامسة – FIFTH AUENUE» في مونتريال تشبُّهاً بنيويورك ففيه حدائق ومتاحف ومعارض وفنادق ومستشفيات ودور أزياء. كنت قرأت ان مونتريال هي نيويورك مـا عدا النظام فلما عرفت مونتريال على حقيقتها اختبرت انها تفوق نيويورك تنظيماً وأناقة وجمالاً ونظافة ويحبّها الاميركيون لأن فيها من اللاتيني والانجلو سكسوني ومن الاميركي والانجليزي والفرنسي ومن القديم والجديد ولأنها «خفيفة الدم» عكس نيويورك الساحقة. نسيت أن اقول لك أن «جون كوب» الذي حكم كندا من ١٨١٦ الى ١٨١٨ حين تزوج « ساره شربروك » أخذ اسم عائلتها بـدل أن يعطيها اسم عائلته ودعى الشارع باسمها . أمـا شارع سانت كاترين فهو حي المسارح والسينمات والمطاعم والبارات وملتقى «سياح الليل» والهيبيز وفيه أهم المحلات التجارية في المدينة : « ديبوي – DUPUIS و ايتونز – EATON'S ومورجانز – MORGAN'S وسيمبسونز – SIMPSON'S » .

في مونتريال أربع جامعات هي ماكجيل وسيرويليام جورج انجليزيتان ، ومونتريال وكيبك فرنسيتان . قضيت يومـين في إحداها وأعجبت بالهدوء والنظام والغنى الذي فيهـــا . لفت نظري في صالة اجتماعات كبيرة ان

المنشورات المطبوعة تتحدث عن موضوعين همـــا أنواع المخدرات ودرجة فاعليتها او ضررها ثم وسائـل منع الحمل فالشبيبة الكندية تصل بالحرية الى أقصى حدود .

مون روايال :

يرتفع جبل – حديقة « مون روايال » ۲۳۰ متراً عن مستوى المدينة ويقع تقريباً في وسطها وهو أجمل وأكبر منتزه فيها تبلغ مساحته۰۰۰و۲۳۰و۲ متراً مربعاً . فيه الاشجار والمروج والزهور وبحيرة ومتحف وقطار مزوّق يطوف بالزائرين في أرجاء الحديقة وفيه محطات التلفزيون والراديو وملاعب الهوكي وكرة القـــدم والتنس وركوب الخيل ومسالك الانزلاق على الثلج والجليد ومعرض فني ومسرح . وعلى سفوحه تقوم مستشفيات هامـــة منها اوتيل ديو وفكتوريا ومونتريال العام واليهودي وفيـــه ثلاث مقابر لليهود والبروتسطنت والكاثوليك وتدعى جبانـــة الكاثوليك « سيدة الثلوج – N. D. DES NEIGES » . كان معظمه ملك « أسياد مونتريال » رجـال الدين وأصبح حديقة عامـة في ١٨٧٦ . يزين ذروته صليب رفع سنة ١٩٢٤ ارتفاعه ٣١ متراً وفيـــه ٢٤٠ مصباحاً كهربائياً ويمتد من عنده النظر الى مسافة ٦٤ كلم فيستكشف جبال « اللورنتيد » في مونتريال إذا كان مطر فلا أجمل من « المدينة التي تحت الارض » وإذا كان صحو فلا أجمل من مون روايال !

بعـــد انحدار شارع (منحنى الثلوج – CôTE DES NEIGES) من (مون روايال) زرت متحف الشمع وهو اروقـة تحت الارض تحتوي على مائتي تمثال تحكي تاريـــخ تأسيس (مونتريال) واستيطان الفرنسيين في اقليم (كيبك) وبعض منها لأبرز الشخصيات المعاصرة مثل البابا والملكة اليزابيت ورئيس-وزراء كندا .. ويوجد جزء يمثـل دياميس روما مدفن المسيحيين . ولا انسى جولات ممتعة في الاحياء السكنية الراقية (واستموانت وماونت

رويال وادجيل رود وساني سايـــد ولاڤال سيرلي لاك ودولار ديزورمو) وغيرها وغيرها . وحديقة لافونتين وبالأخص جنينة العجائب فيها للاطفال. وحديقـة النبات الفتانة بتنسيقها وبألوف الاصناف فيها وبالخمسمائـة نوع من فصيلة الصنوبر وبهدوئها الاخضر المزهر .

اوراتوار سان جوزيف :

في مون روايال يقوم (مزار القديس يوسف — ORATOIRE ST. YOSEPH) كأنه يدعو المونترالبين للتطلع الى العلاء ، ويزوره سنوياً ٣ مـلايين . أنشأه (الأخ اندريه) راهب من رهبانية الصليب المقدس كان يعمل بواب مدرسة . في ملحقات المعبد معرض عـن تاريخ المزار منذ تأسيسه الى الآن . ومعرض عـن حياة الأخ اندريه الذي عـاش ٩١ سنة وتوفي هنا سنة ١٩٣٦ وأجرى عجائب كثيرة ففتحت دعوى تطويبه في رومـا سنة ١٩٦١ . ومعرض عن حياة القديس يوسف منها ركن فرعوني فيه آمون وقرص الشمس وأبو الهول لتذكـّر بالفترة التي طواها القديس يوسف في مصر . مررت بالدرج المقدس المنقول عن (سكالا سانتا — SCALA SANTA) في روما وهو الدرج الذي صعد عليه المسيح ليُحاكم أمـام بيلاطس . هنا كما في رومـا يصعد المصلون راكعين زاحفين على ركبهم . الكنيسة مبنية على طراز عصر النهضة . طولها ١٠٩ امتار وعرضها ٦٣ متراً وعلو القبة ٥٩ متراً وهي تتسع لخمسة عشرالف مصلّ . ارغنها ذو ٥٨١١ انبوباً. أمام تمثال القديس يوسف يتبارك الزائرون بزيت كان يشفي بـه الأخ اندريه المرضى . وعلى مدخل الكنيسة ألوف النذور التي قدمها الذين شفوا بشفاعته. يتدلى من ثريا في وسط السقف ٣٥٠٠ مصباح . بلغت تكاليف البناء حتى الآن أحـد عشر مليون دولار كلها من تبرعات المؤمنين ولا يُعلـَم متى ينجز المزار كله . على سفح ربوة المزار توجد مراحـــل درب الصليب الاربع عشرة وتماثيلها من مرمر ابيض وبالحجم الطبيعي تدعو المتنزهين في الغابـة الى الصلاة . ينتهي درب الصليب ببركة

ونافورات رمزية. فواحدة تصعد منقلب حمل وأخرى يرتوي منها أيّل وثالثة تنبع من دائرة مكونة من أربع أسماك .. قرأت تنبيهاً يرجو الزائرين أن لا يلقوا سنتات (قروشاً) طالبين تحقيق أمانيهم فتلك خرافة . رأيت مثل هذه العادة في روما وكانبرا ونيوزيلاند فالانسان يعيش بالآمال والاماني .

جزيرة سانت ايلين والمعرض :

أقامت مونتريال معرضها الدولي سنة ١٩٦٧ في جزيرة « سانت ايلين » والانشاءات باقية يقام فيها معرض كل صيف . في صيف ١٩٧٢ زرتُ مباني نحو ثلاثين دولة عارضة وأركاناً أخرى للتثقيف وللترفيه وللشراء . تأشيرة الدخول الى المعرض هي سوار ملون يُطوّق معصم الزائر طوال اليوم وإلا فيضطر لدفع رسم الدخول في كل جناح .. في « مخازن الشعوب » تعرض المنتوجات القومية والفولكلورية من غالب دول العالم . وهنالك عروض سينمائية حضرتُ منها فيلماً مرحاً انتجته الحكومة الكندية وموضوعه هو النقد المتبادل بين الكنديين الانجليز والفرنسيين ووجوب التفاهم والاتحاد لمصلحة الفريقين . وقضيت وقتاً ممتعاً في « جناح الفكاهة – PAVILLON DE L'HUMOUR » حيث تعرض «نكات» وصور كاريكاتورية من وعن كل البلدان وبالاخص عن سياسي كندا وأميركا . وأشدّ الاجنحة طرافة هو المدعو « الغرائب في ١٩٧٢ – L'INSOLITE 1972 » حيث تعرض حقائق علمية مدهشة ومعجزات من المعرفة والفن والاختراع توصل اليها القدماء ومنها الكثير مما قرأته في كتاب « مركبات الآلهة – CHARIOTS OF THE GODS » . فيتساءَل المعرض مثلاً : هل عرف المصريون القدماء الكهرباء لأنه يوجد في معبد هاتور في دندره رسم رجال ينقلون مواسير كهرباء .. وهل عرفت بغداد البطاريات منذ الفي سنة ؟ وهل الاطباق الطائرة خرافة أم زيارات من عوالم أخرى ؟ وما معنى المطار الأثري على جبال « بيرو » ؟ وزي روّاد الفضاء منذ آلاف السنين في المكسيك ؟ الخ .

على أرض المعرض متحف فـــني دولي وملعب للمباريات الرياضية وميناء لقوارب الفسحة وبالأخص مدينة مــــلاهي « لاروند — LA RONDE » وحديقة واسعة هي مـــا بقي اخضر من جزيرة سانت ايلين التي كانت بأكملها حديقة متسعة قبل أن يحتلها المعرض . يمكن الوصول الى المعرض بمترو تحت قاع النهر او بعبور جسر « جاك كرتييه » او بالقوارب . تقريباً لكل اسم مكانٍ في مونتريال سبب تاريخي فلماذا دُعيت الجزيرة سانت ايلين؟ في ١٦٠٩ نزل فيها « شمبلن » لأول مرة وأطلق عليها اسم زوجته .. وفيهـــا احرق الجنرال « ليفي — LÉVIS » الأعلام الفرنسية كيلا (يدنّسها) الانجليز الذين احتلوا مونتريال .

جبال اللورانتيد :

شماليّ مونتريال بعد نصف ساعة من القيادة الممتعة على (الهايواي) تبدأ سلاسل جبال (اللورانتيد) . عشرات من قممها تدعى بأسماء ، وألوف تعرف بالنمر فقط . يستمتع بهـــا الكنديون في فصول السنة الاربعة ففي الصيف للاصطياف وللاستحمام في بحيراتها والسير بـين غاباتها . وفي الخريف للتأمل بروعة ألوانها الخضراء والصفراء والبنفسجية والمخملية والخمرية وللشعور بالوحي تحت أوراقها المتناثرة . وفي الشتاء للانزلاق على ثـلوجها . وفي الربيع لرؤية تفتح أوراقها وزهورها واكتسائها حلة جديدة بعد عرى الشتاء كأنهـــا تعود الى الحياة من مدافن الثلوج . لن أنسى في ذاكرتي وفي مجموعة صوري (سان سوفير ومونـ جبريال واستيريل وسانت آديل) وبالأخص قرية وبحــــيرة (سانت آجات) . في ولاية (كيبك) غالب الأماكن تحمل أسماء قديسين وقديسات فكأن طلائــــع الفرنسيين فتحوا التقويم الكنسي عندما اطلقوا الاسماء في (فرنسا الجديدة) .

في طريق العودة طفت في اكبر سوق كندي اسمه (بوانت كلــــير — POINTE CLAIR) يبيع كل شيء (من الزرّ الى السيارة) . ساحاتـــه



بحيرة سانت آجات



بيته من خشب

الداخلية وأروقته ونافوراته وأنواره وواجهات المحلات تجـــذب المشترين . أمامه موقف يتسع لـ ٤٥٠٠ سيارة وتوجـــد في مونتريال وحول كل مدينة كندية مثل هذه الاسواق الشاملة .

بحيرة ممفري ماجوج :

تشبه هذه البحيرة ومـــا يجاورها مدخل قناة السويس وتكتمل الصورة بوجود قرية اسمها (مصر — EGYPTE) . مررنا بحقول فواكه أهمها التفاح وبمروج قمح وقطعنا مدينة (جرانبي — GRANBY) حيث توجـــد حديقة حيوانات . زرنا ديرا بندكتيا على ضفة البحيرة ذكـّرني بأديرة البندكتيين في فرنسا وايطاليا فهو يشبهها بهندسته وبمـــا فيه . تناولنا طعام الغداء على ضفة البحيرة أمام هليكوبتر جاثم على سطح الماء .

شلال « دوروين » :

تبعد بلدة (رودون — RAWDON) ٤٥ كلم عن مونتريال وتقع بين نهري (اوارو) و (روج) تزينها أشجار الصنوبر والسرو والجرمشق (الدلب) . بجانب النهرين مخيات يقضي فيها الكنديون فترة صيفهم في ذلك الموقع الجبلي المتحضر والموحش معاً . تنحدر المياه الى بحيرة (بونبريان — PONTBRIAND)

حيث تختزن وراء سدها ثم تقفز منه في مضيق بين جبلين وتكون شلالات تملأ البقعة من هديرها . اكبر شلال يدعى (دوروين – DORWIN) صنعت فيه الطبيعة وجه هندي نسجت حوله الاسطورة قصة عن أحد أفراد قبيلة (هيرون) الذي غضب على زوجته حين عرف بخيانتها فجرّها ودحرجها في هذا الشلال .

قبل أن أغادر مونتريال كنت اسمع المذيع يقول : انتهت الالعاب الاولمبية في مونيخ ويبقى للدورة القادمة في مونتريال ١٤٤٢ يوماً وهكذا.. لقد بدأوا (العد التنازلي) من الآن استعداداً ودعاية .

●

١٦

القرية الهندية

كوجناواجا

حفلة هندية :

على بعد نصف ساعة من مونتريال قرية هندية اسمها « كوجناواجا — CAUGHNAWAGA » يقطنها نحو أربعة آلاف هندي من قبيلة «ايروكوا — IROQUOIS رغم احتفاظهم بالشكل الهندي لم يبقوا على الفطرة ولكنهم شبه منعزلين ويتزاوجون من بعضهم فقط . اسم زعيمهم نافث النار أو النار المشتعلة . استقبلنا مع زوجته بكل ترحاب ورافقنا في جولة بأقسام القرية وبعرض مصنوعاتها . أقاموا للسياح كعادتهم حفلة هندية في الهواء الطلق . المسرح هو خيمة الزعيم يرتفع امامها عامودا التوتم [١] والمقاعد هي جذوع شجر . في افتتاح الحفلة طاف الزعيم المقنّع الوجه حول كومة من حطب ثم اشعل ولده النار . تعاقبت اغاني ورقصات بالازياء الهندية والطبول والمراوح والرياش والعصي والعقود والشعور الطويلة والضفائر . وكان يتخلل كل ذلك

---

(١) انظر ص ١٠ .

صراخ وقفز كما في أفلام الهنود ورعاة البقر . انها حركات بدائية لكنها لاتخلو من رونق إذ تنقل تراث الماضي وسط حضارة القرن العشرين .

أدوية هندية :

الزعيم « نافث النار » هو طبيب يداوي بالاعشاب ويعطي « وصفات » توارثها أباً عن جدّ . فعنده ادوية لتسهيل الهضم وللنزلة الصــدرية ولبعث الشهية ولتنشيط الدورة الدموية وللحصوة وللحروق الخ . . اعطاني لائحة من ٣٢ دواء بأسمائها الهندية والانجليزية مع ذكر مصادر تركيبها وفوائدها .

هنود كندا وأميركا :

أصلهم : عندما وصل كريستوفورو كولومبو كان في أميركا الشمالية نحو ٣٥٠ قبيلة هندية لكل منها عاداتها ولهجتها وأرضها كدويلات الهنود هم من أصل أسيوى عــبروا اقصى الشمال إلى القارة الأمريكية مارّين على جليد « مضيق بيرنج ـ BERING » . حدث هــذا حسب تقدير علماء الاجناس البشرية على موجات هجرة متوالية بين سنة ٢٥٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ قبل المسيح .

سكنهم : أووا في البدء الى الكهوف والملاجيء الطبيعية ثم أخذوا يبنون منازل متلاصقة من خشب أو قش . امام بيت الزعيم ينتصب عامودا الـ«توتم» ويحملان وجوه حيوانات هي رمز القبيلة ثم معبوداتها المتوارثة عن الاجـداد وقد يحفر عليها وجه زعيم عظيم قضى . عرفوا أيضـا الحفر لإقامة مساكن تحت سطح الأرض وكانت بعض البيوت خياماً من جلود الجاموس لـكنها نادرة محفوظة للعظماء .

الحياة العائلية : كانت هادئة قنوعة و « على الطبيعة » . بعــد ولادة الطفل بأسبوع واحد تقام حفلة اطلاق الإسم ويتوارثون حق الأسمـاء . (أليست هذه عادتنا الشرقية في اعطاء اسم الجد للحفيد ؟) . يعتبرون الاسم الاول مقدساً ومَهابا لا يجوز التلفظ به الا نادراً وفي ظروف هامة ولذا يرفقونه

بكنية للاستعمال اليومي العادي تشبه « اسم الدلع » . يُضيف المرء في حياته أسماء أخرى إلى اسمه الاصلي للتعظيم وللدلالة على شجاعته ومفاخره . تعتني الأم بطفلها إلى سنّه السادسة ثم يتـــولى ابوه أمره فيصطحبه إلى الحقول والغابات وإلى صيد الحيوانات والأسماك . أما البنت فتبقى مع امها تتعلم منها الاشغال المنزلية كدبغ الجلود وحبك السلال ونسج الثياب الخ . . . يعـدّ شيوخ القبيلة وأطباؤها الصبي لدخول مرحلة المراهقة فيحدّثونه عن الدين وعن اسرار القبيلة وشؤونها . لايجوز التزاوج بين الأقارب المنتمين إلى عشيرة واحدة . يدفنون الموتى بعيداً عن القرية حسب تقاليد القبيلة ودينها . الفرد « ذائب » في المجتمع وحياته مكرسة لخدمة القبيلة . كان هذا من مستلزمات الوضع « السياسي » لتجاور عشرات القبائل المستقلة ولقلة عدد أفرادها ولتواتر المنازعات والحروب فيما بينها .

سبل المعيشة : كانوا يعيشون من صيد الأسماك والطيور والحيوانات البرية لا سيما الجاموس والوعل والدب . يفتتح موسم صيد الجاموس بإقامة شعائر ورقصات . عند اصطياد أول جاموس يتأنب أعضاء القبيلة ويصلّي الاطباء والكهان حــول الجاموس الصريع . كان بعض الصيادين يتنكرون بجلود الحيوانات . عرفوا تجفيف سمك ال «سومون» وحفظه لموسم الثلوج . قسّموا الشواطىء على القبائل منعاً للمنازعات . لم يكونوا يفرطون في شيء ممـــا يصيدون فيستعملون حتى العظام والقرون . عرفت قبائل السهول زرع الذرة الذي كان المحصول الرئيسي وتعلمته منهم أوربا . كما زرعوا القمح والتبـغ والباسيلا والفاصوليا والفستق والفلفل وبعض الفواكه . اهتدوا إلى استخراج الشراب والسكّر من سائل شجر الجومشق (الولب) حتى الآن يجرح الكنديون جذع الجرمشق ويصنعون من السائل شراباً ومربّى .

الثياب : كان الرجال والنساء على السواء مغرمين بالألوان الزاهية والشعر

المسترسل وريش الطيور خاصة النسر والحلي من حلق وأساور وخلاخل والعقود من صدف او من اسنان حيوانات . في فصل البرد يرتدون جلد دب او جاموس ويصنعون اغطية من شعر الكلاب والأرانب وسواها .

لغاتهم : يتباهى الهنود ببراعة الكلام . عند اكتشاف امريكا كان عدد لغاتهم نحو ثلاثمائة . أخذت عنهم اللغات الأوروبية مفردات عديدة مثل : شوكولاته و موكاسّين و طماطم و مايبس (الذرة) الخ . . . الغريب الذي لا يعرف لغة القوم يخاطبهم بالإشارات ومنها :

الأصابع المنحدرة : مطر — الأصابع المفتوحة : طلب

القبضة المنكمشة : عداوة — اليد تطوّق الرسغ : جاموس

راحة اليد المقلوبة : دب — ابهام وسبابة اليد اليمنى على سبابة اليد اليسرى : حصان

الابهام والسبابة مفتوحان : نعم

الابهام والسبابة مقفلان : كلا

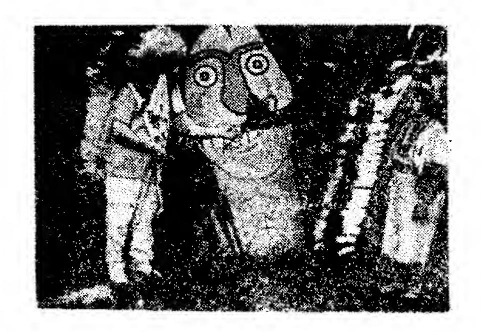
الأدوات والأسلحة : كانت بسيطة ولكن عملية وأهمها المعاول والجارف والعصي المحددة . المعول مصنوع من حجر حاد أو من قرن حيوان . السكا كين من حجر أو عظم أو صدف . يضع الرجال دوما خنجراً في حزامهم . الملاعق من خشب أو صدف . في حروبهم التي كانت غزوات سريعة كانوا يستعملون الحراب والفخاخ والسهام مع القوس . كانوا يتبادلون تجارة منتجاتهم بين القبائل المتجاورة حتى والنائية عن الشواطىء إلى الداخل. يحملون بضائعهم في قوارب من جلد أو خشب أو حتى من جذع واحد لشجرة أرز . تحمل النساء المتاع في سلال على ظهورهن ويحمل الرجال جعبتهم تحذّرا للطوارىء . استخدموا الكلاب للجرّ فكانوا يربطون على ظهر الكلب

خشبتين طويلتين يسحبهما وراءه وعليهما منقولاتهم . غلايين التدخين من خشب او من حجر مجوّف او من عظم . بعد الحصاد وجمع الغلال يلتقون لتبادل البضاعة وللّهو وللألعاب وللرقص .

الديانة : كانوا يعتقدون بآ لهة كثيرة وبالارواح الصالحة والشريرة تعيش في الافلاك وتحت سطح الارض . وبأرواح الاشجار والصخور والانهر والحيوانات . تسكن آ لهة السهول والجبال في قصــور وآ لهة البحار في منازل براقة من صدف وتهيم ارواح الجواميس في المراعى . كانوا يجتهدون في استرضاء الآ لهة والارواح بإقامة شعائر دينيـــة كثيرة وبمشاركتها في أكلهم وتبغهم . قبل مباشرة الاعمــال الدينية كانوا يتطهرون بالاغتسال ويصومون . يصلي الشبان كي تأتيهم من عند الآ لهة رؤى واحلام يستمدون منها قوة خارقة . في كل عام يقيمون مهرجانات يرقصون فيها رقصـــات الشمس والجاموس والدب وغيرها لشكر الآ لهة ولاسترضاء الارواح ويرفعون ابتهالاتهم لاكرام ارواح الذرة والنسر والوعل وغيرها اذ لــكل نوع روح : وإذا انحبس المطر « رقصــة الافاعي » كفيلة بالاستمطار . كان هنود قبائــل « نافاجو – NAVAJO » يكرمون آ لهتهم برسوم سحرية على الرمل لتشفي من الامراض ولتقي من الاوبئة ولتمنح الصحة والقوة .

الملاهي والألعاب : كان أعمها الرقص يرافقه القفز والصراخ . « رقصة الحرب » ملهاة وتدريب وتضرع لا يشترك فيها الصغار والنساء بل يشاهدونها فقط متطلعين إلى المحاربين وهم يقومون بحركات الهجوم والدفاع . يستمتع إله الحرب برقصهم ويؤازرهم بقوة خارقة لاحراز النصر . واذا ما انتصروا يرقصون لشكر الآ لهة ولاستعراض شجاعتهم امام قبيلتهم وحينئذ ترقص معهم النساء رافعات الغنائم التي كسبها المحاربون . من بين رقصاتهم أيضاً

« التحطيب » اما بقضيب واحد او باثنين . يتقابل فريقان لاداء هذه اللعبة الجماعية بعد ان يخط الطبيب رسوما على وجوه واذرع اللاعبين كأنهم ذاهبون إلى ساحة القتال . اللعبة شاقة ومتوحشة ولا يجوز لأحـد ان يغادر الميدان ولو أصيب بجرح . عرفوا أيضاً الجري ورمي السهام ورمي الاثقال إلى بعيد والمصارعة والتنكر بجلود الحيوانات وألعاباً متنوعة بالثلج : جري بأحذية مستطيلة او انزلاق بعربات صغيرة او قذف « افاعي الثلج » كناية عن قضبان ترمى فتتجمع داخل دوائر .



مع زعيم الهنود

١٧

سهرة فولكلورية مع الحباحب

أليس حنين الأجيال الى الماضي هو من أهم أسباب انبعاث الفولكلور في مختلف أقطار العالم ؟ ألا يخشى المواطنون اندثار التراث القومي فيحاولون أن ينجّوه من فيضان الحاضر الطاغي ؟ ألا توافقني أن الأحدوثة التي سمعتها من جدّيك سَمَر ليالي الشتاء وأنت طفل هي من ألذّ ما تحتفظ به في حياتك ؟ وهكذا الشعوب عندما تتلهّى بما دعته « الفنون الشعبية » ...

فرقة الحباحب :

سنة ١٩٥٢ أسس « ميشيل كرتييه – MICHEL CARTIER فرقة الفن الشعبي الكندي ودعاها « الحباحب » او باللغة العامية « سراج الليل » . انه اسم موفق فكما تلمع الحباحب في الليالي يلمع فنانو وفنانات الفرقة الفولكلورية في السهرات . ابتدأ الفريق بكشافة وجوالة ثم انضم اليهم الهواة فأصبح العدد سبعين من راقصين ومغنين وموسيقيين تتراوح أعمارهم بين عشرين وثلاثين سنة . قدموا عرضاً دعوه « فسيفساء كندية » . تجول « ميشيل كرتييه » في كلا نواحي كندا وخالط أجناسها وفئاتها ليجمع الموسيقى والرقصات والازياء والعادات ويقدمها في هذه الفسيفساء .

هنود الباسيفيك :

على اقـدام جبال الـ « روشيز ـ ROCHEUSES » في أحد شواطىء المحيط الهادىء بيوت من خشب الأرز يحرسها عامود الـ « توتم » . في غرف البيت المستطيل تعيش عائلات منحدرة من آلهة ميثلوجية ممثلة في رؤوس حيوانات . فيهذا الاطار المسرحي يستقبل الزعيم ـ واسمه (صانع النحاس) المدعوين الى حفلة انخراط ابنه في صف المحاربين . قديماً كان على عميد القبيلة أن يحارب ضـــد (إله الدمار) وجنوده المتنكرين بأقنعة رؤوس غربان ، فالغراب حيوان خرافي ذو شـأن في أساطيرهم (ألم يكن غراب البين كذلك عند العرب ؟) . بعد رفع الابتهالات وتلاوة التعاويذ يُعلـَن انضمام الحدث الى سلك المحاربين ويعبّر الحضور عن فرحهم باشتراكهم في رقصات هندية تتميز بالصياح والريش والأقنعة .

هنود السهول الداخلية :

حصان وجاموس مربوطان أمام خيام منصوبة حول بحيرة. حاول انفار الطليعة الذين اقتحموا المسرح أن يصطادوا نسراً وأعلنوا بطلاً الذي اصطاده وتزين بريشه . ثم دخلت فتيات متحليات باللآلىء والأصداف تبعهن فتيان بالجلود . ثم رقص الجميع رقصة « الحـَجـَلْ » المستحبة لديهم (كما يستحب العرب « كرج » الحجل) . وإذا بعربات المستعمرين أطلـّت من مشارف الأفق فرفع الهنود المخيّم وأقلعوا على دق الطبول .

الاسكيمو :

ينتظر صيادون جائعون لحظة الانطلاق لصيـد الدب ولكن قبل ذلك ينبغي إتمام الشعائر المعهودة . تقدمت راقصات بالزي الاسكيمي في حركات تقلـّد الصيد ثم ظهر الزعيم وعلى وجهه قناع « روح الاهوية الباردة » فعيـّن الصياد وصَبَعَ على مكان الصيد . رفع الراقصون الصياد على جلد دب ورنـّحوه

ثم قذفوا به في الهواء وعـــاد فهوى واقفاً على الجلد [1] ثم كر وانقضّ على الدبّ وعاد برأسه .

آكادي :

« آكادي — ACADIE » هو اسم أول بقعـــة في كندا استوطنها الفرنسيون . قدموا رقصات جماعية بشكل دوائر وكانت الأغاني بلهجات المقاطعة الفرنسية . ومن الآلات الموسيقية القباقيب الخشبيـــة الضخمة في أقدامهم .

البحث عن الذهب :

تسير عربات المستعمرين نحو الغرب عبر سهول مترامية . القافلة تتوقف . يشرب المسافرون القهوة ويتحـدثون عن الحرّ والتعب والمسافات الشاسعة ولكن الأمل بمستقبل مشرق يحث خطاهم . المسدس على الجنب الأيسر والزاد على الكتف يجوبون آفاقاً مجهولة سعياً وراء الذهب . يغسلون رمل وتراب السواقي والأنهر ليفرزوا منها قشور الذهب . كانت القوافل الأولى مؤلفة من اسكتلنديين وانجليز وألمان واسكندنافيين وسلافيين ... قدّمت كل فئة رقصة من فنها الشعبي الأصلي .

اسكتلندا الجديدة :

هو اسم إحـــدى ولايات كندا « NOVA SCOTIA » استوطنها الاسكتلنديون منذ سنة منـذ سنة ١٦٢١ بأمر الملك جاك الاول . حافظوا فيها على فولكلور نـسبيَ حتى في الموطن الأصلي . عنـدما يُنـْجَز العمل وتجمع الغلال وتهب الرياح الباردة تجتمع القرى للغناء والرقص واللعب .

---

(١) رأيت هذه الرقصة عندما زرت اسكيمو الاسكا . انظر صفحة ٢٦٦ .

اللورنتيد :

تمتد جبال « اللورنتيد ـ LAURENTIDES » في مقاطعة « كيبك » وتستهوي كل من يمرّ بها . قدموا لنا رقصة صيد الوعل في ادغالها . تشيّع الفتيات الصيادين بالمناديل وإذا بالوعل ينقضّ عليهم فيُذعرون ويتبددون الى الى أن ينبري البطل ويجاري الوعل ويصرعه ثم يقدّدون لحمه ويضعونه في قدر كبير ويرقصون حوله .

اقليم كيبك :

ختام الحفلة سهرة على ضفاف « سان لوران » . ربعت طلائع الفرنسيين بقرب النهر فارتفعت قباب الكنائس وسمع سان لوران أغاني وحكايات فرنسا . قدموا رقصات وأغاني من مختلف أنحاء فرنسا اختتموها برقصة المكانس .

ربما بعد سنين قليلة تقدم حفلات من الفن الشعبي المصري واللبناني فالجاليتان في ازدياد وبالفعل في شهر ايلول ١٩٧٢ قدّمت فرقة رضا المصرية حفلات في كندا [١] .

●

---

(١) انظر صفحة ٩٨ .

١٨

كيبك

خط من القرى :

ركبت السيارة مع صديقين واستعنا بخريطة الطرق الى ان دخلنا (الهايواي رقم ٢ شرقي) لنقطع ٢٦٥ كم بين (مونتريال) و (كيبك) . على لوحة سيارتنا – كما على لوحات جميع سيارات هذا الاقليم – كتب بجانب النمرة (كيبك الولاية الجميلة) . عن يميننا نهـر (سان لوران) وعن يسارنا سهول مزروعـــة ومراعي والقرى متصلة من مونتريال الى كيبك على ضفتي النهر، ملونة منمنمة كما في ثوب عيد دائم، وتبدو كأنها بنيت على نمط واحد : سوق و كنيسة وشارع طويل .

كاب دي لا مادلين :

توقفنا في مدينـة السواقي الثلاث – « TROIS RIVIERES » حيث يتشعب نهر (سان موريس) الى ثلاث سواقٍ تصب في (سان لوران) . على مقربة منها قرية (كاب دي لا مادلين – CAP DE LA MADELEINE) حيث قضينا ساعتين في مزار (نوتردام دي كاب) .

بعد ان حضرنا نصف ساعة عرضاً فنياً يشبه (الصوت والضوء) عن تاريخ هذه البقعة تجولنا في أقسام المزار . رأينا جسراً عليـــه (مسبحة) جبارة وهو رمز لجسر الجليد الذي يتناقل الشعب روايته . ففي سنة ١٨٧٩ كان هنا سكان ضفة سان لوران الغربية بحاجة الى حجارة من الضفة الشرقية ليجدّدوا بناء معبد العذراء . النهر واسع وعميق ولا جسر للعبور . أخـذ الكاهن يصلي المسبحة مـع الشعب عقب قداديس يوم الاحد وإذا بحجر من جليد تكوّن في ١٥ آذار بين الضفتين وأتاح للسكان نقل الحجارة عليه. وفي ٢٢ حزيران سنة١٨٨٨ رأى المصلون وجه تمثال العذراء يتحرك ويفتح عينيه مـــدة عشر دقائق . بُنِيَ هنا ديران وفنادق لاستقبال خمسمائة شخص ومطاعم وحديقة وكنيسة رحبة انتهت سنة ١٩٦٣ . ونصبت في الحديقـة تماثيل أسرار مسبحة الوردية الخمسة عشر .

جولة في كيبك :

تابعنا الطريق رقم ٢ الى الشرق الشمالي حـتى بلغنا مدينة (كيبك) . انهــا صغيرة (نصف مليون نسمة) وجذابة بطابعها الاوروبي القديم السائد في طراز بيوتها وهندسة كنائسها وضيق شوارعها وارتفاع حصونها كأنها من بقايا القرون الوسطى ، مع ان عمرها لا يتجاوز ثلاثمائة سنة . هنا أقدم قلعة وكنيسة أسسها في كندا المطران (لاڤـال) . وهنا الحنطور كقطعة أثرية بجانب الفورد والكاديلاك .

تقوم المدينة علىمرتفع صخري يتوجه (فندق فرونتناك – CHATEAU FRONTENAC) وهو أشبه بقلعة بُني مع بـــدء العمل في سكة حديد كندا من الاطلسي الى الباسيفيكي .

لا بدّ لكل زائر من أن يذرع (نزهة الحاكم) وهي طريق خشبي عريض يصعد وينحدر مشرفاً على المدينة وعلى (سان لوران) . اوقفنا الدليل عند

(سهل ابراهام) حيث قرأنا لوحة تذكارية عن المعركة التي نشبت سنة ١٧٥٩ هنا بين الجيش الانجليزي يقوده (وولف – WOLFE) والجيش الفرنسي بقيادة (مونكالم –MONCALM) . سقط القائدان في المعركة وانتصر الانجليز وضموا مقاطعة كيبك الى التاج البريطاني . فيما بعد بنى القائد الانجليزي (ابراهام) منزله في هذا المرج فدعي باسمه . من التماثيل التي تزين المدينة تمثال البطلة القومية (جان دارك) وتمثال (شمبلين) وتمثال القديس (فرنسيس الاسيزي) ، لأن الرهبان الفرنسيسكان هم أول من وصل الى هنا مع (شمبلين) .

في الجزء القديم من المدينة زرنا بيت (شيفالييه – CHEVALIER) من أواسط القرن الثامن عشر ومررنا بـ (شارع الفنانين) حيث يعرض الرسامون لوحاتهم بينما أشكالهم أغرب من لوحاتهم .. في هذا أيضاً نقلت كيبك مظهراً من بعض شوارع باريس ومن ضفاف (السين) . انحدرنا في شارع ضيق اسمه (تحت الرأس – SOUS LE CAP) عرضه ١٨٥ سم وعن جانبه جدران مهلهلة . كتب على مدخله (البلدية غير مسؤولة عن أي حادث يقع هنا لأية سيارة) . رغم هذا اخترقته سيارتنا وما ان خرجنا منه حتى حاصرنا اطفال حفاة يمدون الأيدي للاستعطاء . لم ندرِ هل هم فقراء أم تلك عادة يستقبلون بها السياح . إنما أشكالهم الحلوة الممتلئة صحة ولوناً لا تنمّ عن العوز . ان استعطاءهم من المستلزمات السياحية في كيبك .

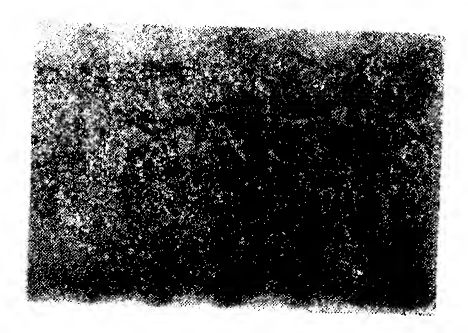
عند الاصيل انتهينا من التجول في المدينة فزرنا بعض الاصدقاء المصريين وقضينا السهرة معهم يحدثوننا عن حياتهم الجديدة وعن البرد والثلج . فاليوم – ونحن في آب – أشّر ميزان الحرارة الذي يرافقني ١١ درجة مئوية.

قلعة كيبك :

أهم أثر في كيبك الفرنسية هي قلعتها الانجليزية التي بنيت بأمر وإشراف



تيس الفرقة



قلعة كيبك

الكولونيل (ديرنفورد – DURNFORD) من ١٨٢٠ الى ١٨٣٢ . تبدو مربعة الزوايا وعلى كل زاوية محرس ومرقب . في ١٨٧١ سلمتها القوات الانجليزية للقوات الكندية ومنذ ١٩٢٠ اصبحت ولا تزال مقر الفرقة الملكية الثانية والعشرين المكونة من جنود كنديين فرنسيين . القلعة تفاخر بالفرقة والفرقة تتباهى بقلعتها وقد اتخذتا لها شعار كيبك : « أتذكـر – JEME SOUVIENS » . قبل بدء الزيارة رأينا تغيير الحرس كل ربع ساعة مرة . حارس مدخل القلعة يلبس الزي البريطاني القديم ويقف جامداً كالصنم كما يُرى أمام قصر « بكنجهام » في لندن . يقضي حاكم كندا العام شهري تموز وآب في جناح هنا فيه ٢٣ غرفة حمام وقد عقد فيه خلال الحرب العالمية الثانية اجتماع ضم روزفلت وتشرتشل وماكينزي كينج رئيس وزراء كندا. أما متحف القلعة فيهمّ انفار الفرقة الثانية والعشرين أكثر مما يهمّ الزائر... في المرقب الغربي مدفع ضخم جداً نقل من بريطانيا وحمله الى موقعه حصانان وتسعة رجال، واطلق مرة واحدة فقط إذ لم تخرج منه تلك الطلقة الى الآن، ومدفع آخر كان يطلق طلقتين في اليوم : الساعة ١٢ ظهراً لصلاة « السلام الملائكي » والساعة ٩,٣٠ ليلاً وقد لقبت بطلقة « مساء الخير يا كارمن » لأن الجندي كان حين سماعها يودع صديقته ويأوي الى قلعته . من تقاليد القلعة « تيس الفرقة » فسنة ١٨٤٤ أهدت الملكة فكتوريا تيساً لكل فرقة من الجيش البريطاني ودام هذا التقليد .

تفاخر كيبك بأنها «اصفى وانقى» مدينة فرنسية خارج فرنسا ، ولكن من يسمع اللهجة الفرنسية فيها يستغرب جداً ويكاد لا يفهم، فلقد احتفظ الكنديون الفرنسيون باللهجة القديمة (جوال) التي لا تستسيغها آذاننا ويقدّرون مهاجرينا لأنهم ينطقون كالفرنسيين .

من كيبك اطلق « ديجول » عبارته الشهيرة « لتحيا كيبك الحرة » فزاد

شعلة النزعة الاستقلالية اضطراماً وخسرت كيبك مليارات الدولارات التي رحلت الى ولاية « انتاريو » .

شلال مونمورنسي :

في اليوم التالي طفنا في اماكن عديدة حول كيبك منها جزيرة«اورليان» ومزار « سانت آن دی بوبري – STE ANNE DE BEAUPRÉ » وبحيرة « بوپور ». على بعد ٩ كم من كيبك شاهدنا شلال « مونمورنسي » المنحدر من ارتفاع ٨٣ متراً . هناك وقع لي اخطر حادث في رحلتي . وقفت مع زميلين على الجسر لالتقاط صورة امـــام الشلال وإذا بالصراخ يعلو « حذار حذار القطار » كان القطار يزمجر مندفعاً على خطيه وينقض علينا ولا مفر منـــه فالجسر ضيق . تعلقنا « بدرابزون » الجسر وتدلينا فوق النهر الى ان عبر القطار . وسرعان ما تحول الهلع الى ضحك . وفيما كانت تلتقط لنا الصورة ذكرت لزميليّ ما كنت قرأته منذ زمن وأنا في روما عن ايطالي كان يسير وخط القطار . دهمه القطار واحتك به ورماه بعيداً فسقط مغشياً عليه . سارع الشرطي الى نجدته وعندما افاق وعاد من الموت دفع غرامة لأنه كان يسير في مكان محظور على المشاة ... حمداً لله ان البوليس لم يكن موجوداً أمام شلال مونمورنسي .

جزيرة اورليان :

عبرنا جسراً فوق سان لوران اوصلنا الى جزيرة « اورليان » . من هذا الجسر ألقيت نظرة على « جسر كيبك » الرئيسي فبان لي ضخماً ثقيلاً لا فن فيه ولا جمـــال وربما هو نفسه كان مقتنعاً من ذلك إذ سقط مرتين قبل أن يصرف عليه ٢٢ مليون دولار في المرة الثالثة . فی ١٩٧١ اقيم جسر جبـــار جميل على مدخل كيبك دعي بإسم « بيير لابورت » وهو الوزير الذي قتله الخاطفون المتطرفون. جزيرة « اورليان » عائمة في « سان لوران » مساحتها ٢٦٤ كم مربع وفيها ست قرى تحمل اسمـــاء قديسين . رأينا اشجار التفاح

والمزروعات التي ندعوها صيفية: فراوله وكوسا وبطاطس وباذنجان وفصوليا الخ .. السكان فلاحون يعملون بأيديهم بالآلات التقليدية البسيطة ويعكس منظرهم ملامح الفلاحين القدامى . البيوت والشوارع والكنائس لا تخلو من مسحة التأخر مما يضفي على الجزيرة جاذبية فطرية .

سانت آن دى بوبريه :

عدنا من الجزيرة وتابعنا طريقنا الى مزار « سانت آن دى بوپريه » على بعـــد ٣٤ كم من كيبك . إذا كانت « نوتردام دى كاب » المزار الشعبي فهنا المزار القومي منذ سنة ١٦٥٨ إذ لجأ بحارة فرنسيون يطاردهم الهنود واسسوا البلدة والمعبد ووضع « لاڤال » ذخيرة من القديسة حنة ام العذراء. مع مرور الزمن قامت هنا انشاءات عديدة زرنا منها : الكنيسة الجديدة وطولها ٨٧ متراً وعرضها ٦٠ ، وغرفـة الكنز المحتوية على الوف النذورات و « ينبوع القديسة حنة » الذي يشفي احياناً بمائه، و « السلم المقدس » ومراحل درب الصليب في سفح الأكمة ودير للراهبات الفرنسيسكانيات وديراً للآباء الفدائيين وديراً للراهبات الفدائيات ومعرضاً عن الأماكن المقدسة مصغرة عن الاماكن الحقيقية في فلسطين، ومتحف الشمع الذي يروي تاريخ المعبد.

بحيرة بوبور :

قرب كيبك بحيرات كثيرة اخترنا منها بحيرة بوپور لقضاء ساعات من الراحة . يعتبرها الكيبيكيون اجمل بحيرة حول مدينتهم ويجتمع على شاطئها المتنزهون لا سيما يومي السبت والاحد في الشتاء للتزلج على الجليد وفي الصيف للتزلج على الماء وللاستجمام في « فيلات » ضائعة بين الاشجار . ان البحيرات الصغيرة تجذب اكثر من الكبيرة فكأنها عيون تتطلع منها الارض الى الجمال المنثور من شواطئها وكأن المرء يمتلكها بأكملها بنظرة واحـدة فلا يتحسر على شيء يفلت منه .

١٩

اوتاوا

على ثلاثة أنهر :

تقع اوتاوا على ملتقى ثلاثة انهر هى «اوتاواOTTAWA» و « جاتينو – GATINEAU » و «ريدو – RIDEAU » . انها قليلة السكان (ثلث مليون) كبيرة المساحة . أسست كمدينة سنة ١٨٠٠ وأصبحت بمرسوم من الملكة فكتوريا عاصمة الاتحاد بعد ان كانت العاصمة قد تنقلت من كنجستون إلى تورنتو الى مونتريال إلى كيبك . وبصفتها عاصمة تحتفظ بذكريات يعدُّها الكنديون تاريخية لأنها ترتقي إلى قرن ونصف ...

تبديل الحرس :

أقلّتني السيارة إلى فندق «شاتو لوربيه– CHATEAU LAURIER » ومن هناك بدأت الجولة السياحية بمشاهدة كتيبة الحرس بزيهم الأحمروقبعتهم العالية السوداء قادمين من قصر الحا كم نائب الملكة إلى ساحة البرلمان ، وهذا المشهد يتكرر صباح كل يوم الساعة العاشرة . ثم تبعتهم فرقة موسيقية بالزي الاسكتلندي القصير ينفخ افرادها في قرب من جلد . كان في انتظارهم نحو

خمسة آلاف متفرج في ساحة البرلمان ليروا حفلة استبدال الحرس الواحد والأربعين . بعد تفتيش رمزي للأسلحة وللثياب اجراه القائد ، تبادلت الكتيبتان التحية ، ثم ألقت الكتيبة الراحلة سلاماً للعلم واتخذ أعضاء الكتيبة القادمة مكانها . نبهنا الدليل ان زي الحرس هو نفس الزي الذي كان يلبسه جنود « حملة النيل » سنة ١٨٨٤ .

البرلمان :

صَمَّمَ البرلمان حسب الطراز الغوطي وهو بشكله وبرجه وساعته وحرسه يشبه برلمان « لندن » ، فيه ٤٩٠ غرفة في ستة طوابق تتضمن ، قاعة مجلس الشيوخ وقاعة مجلس النواب ومكاتب أعضاء المجلسين والموظفين ، ومتحفاً ومكتبة ومطعما ومقهى .

قاعة مجلس الشيوخ تعرف بالقاعة الحمراء من اللون السائد فيها . يتصدر فيها «العرش» المخصص للحاكم نائب الملكة ، وتجاه العرش ثلاثة مقاعد لرئيس مجلس الشيوخ وعن يمينه لرئيس الحزب الحاكم وعن يساره لرئيس حزب المعارضة . الشيوخ هم ١٠٢ : لولاية انتاريو ٢٤ شيخاً ولولاية كيبك ٢٤ ولولاية البرتا ٦ الخ ... حسب عدد السكان وحسب الاتفاق القديم . في قاعة مجلس النواب يتصدر مقعد رئيس المجلس ، والمقعد نسخة طبق الاصل من مثيله في مجلس العموم البريطاني . عدد النواب ٢٦٥ . في الجهة اليمنى يجلس أعضاء الحزب الحاكم ، وفي الجهة اليسرى أعضاء حزب « المعارضة الشريفة لحكومة صاحبة الجلالة » . وفي المكتبة ينتصب تمثال الملكة فكتوريا وعلى قدميه المحبرة والريشة اللتان استخدمتهما لتوقيع وثيقة انشاء الإتحاد الفدرالي الكندي . .

وكذلك نبذة عن تاريخ العَلَم وعن العلَمَ الحالي الذي اقرته الملكة اليزابيث الثانية في ١٥ فبراير ١٩٦٥ : أحمر – أبيض – أحمر وفي وسط الأبيض ورقة الجومشق (الدلب) . إنه كالعَلَم اللبناني مع فارق شجرة الأرز .

برج السلام :

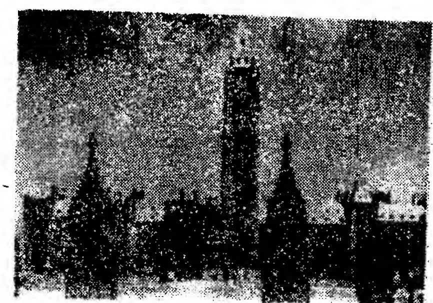
« برج السلام » يعلو رتاج البرلمان ، ودعي هكذا لذكرى ٦٦٦٥٠ جندياً لاقوا حتفهم في حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ . من أعلى البرج تبين أوتاوا حديقة جميلة نظيفة قليلة البيوت كثيرة المياه والأشجار . في البرج ٥٣ جرساً اثقلها يزن ١١ طناً واخفها يزن ٣ كيلو . في تمام الساعة الواحـــدة تغنّي جوقة الأجراس برنامجاً موسيقياً يتنوع كل أسبوع . ساعة البرج تشبه ساعة « بيج بن » . طول عقرب الساعات ١٥٣سم وطول عقرب الدقائق ٢٥٥سم . غنّت أجراس برج الســـلام لأول مرة في أول تموز سنة ١٩٢٧ احتفالاً بالذكرى الستين لمولد الاتحاد الكندي . من أعلى البرج يقع النظر على نصب ذكرى جنود الحرب العالمية الأولى وهو قوس نصر تحته تماثيل برونزية للمشاة والمدفعية والقوات البحرية والأطباء والممرضات ، وفوقه تمثالان مجنحان رمز السلام والحرية .

في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً يدوي في أوتاوا قصف مدفع ينطلق من مركز فرقة المدفعية ليعلن الظهر وهذا تقليد لا تريد المدفعية أن تتخلى عنه .

إلتقينا بتلاميذ مدرسة كلهم هنود ، وكانوا نحو ٦٠ ولداً وبنتاً بشكلهم « اللذيذ » في اطار اوتاوا . أوقفنا الدليل عندهم قليلاً ، وذكر لنا أن « اوتاوا » اسم قبيلة هندية كانت تسكن هذه البقة واطلق اسمها على النهر والمدينة والمنطقة .

فسحة في النهر :

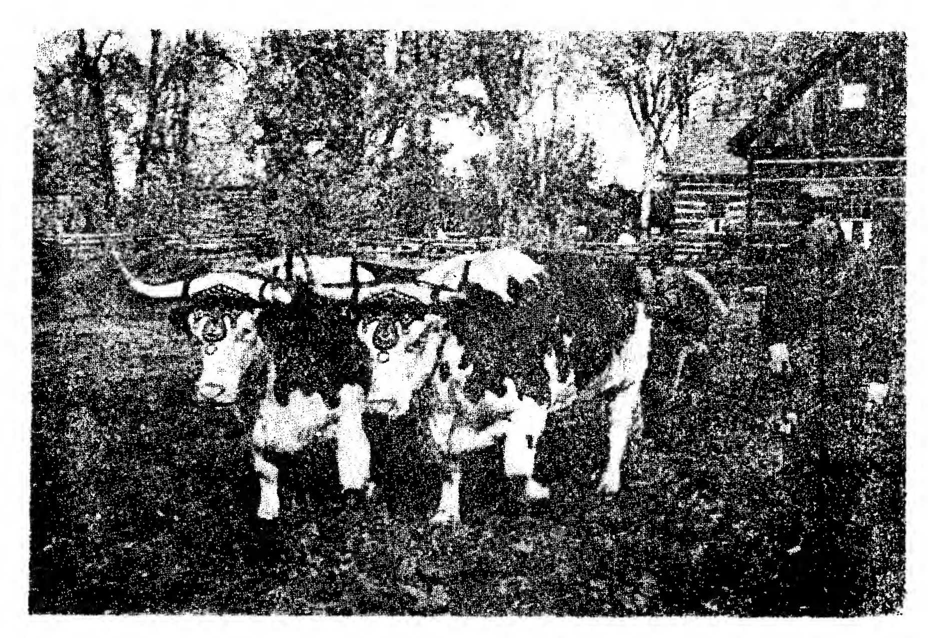
بعد الجولة في المدينة أخـذنا الدليل لجولة بالباخرة في النهر استغرقت ساعتين ونصف . تعب العنق من التلفّت يُمنة ويُسرة مع عيني الدليل ويديه . عن يسارنا العاصمة اوتاوا في ولاية انتاريو وعن يميننا مدينة « هيل



برلمان اوتاوا



الخشب المسافر



القديم وسط الجديد

– HMLL » في ولاية كيبك يفصلهما النهر وتربطهما الجسور . كل ما هو جدير بالذكر في اوتاوا يُشاهد من المركب : حيّ السفارات وحديقة الولايات الكندية وشلالات نهر « ريدو » تصب في نهر « اوتاوا » على شكل ستار والمكان الذي مات فيه قائد بريطاني اذ أصابه « الكَلَب » من عضة كَلْبٍ مسعور ، والقنال الذي يفضي إلى بحيرة « انتاريو » ، ومنها إلى مجمع البحيرات الكبرى الخمس وبناية المتحف التي كانت سنة ١٨٢٦ أكبر «صندوق خزينة » في العالم لأنها حفظت أربعة ملايين من الجنيهات الإسترلينية مكدسة فيها لتنفق على حفر القناة . في ركن على الضفة حديقة زهور تتباهى بها اوتاوا ، وقال عنها الدليل انها تنبت ستمائة ألف زهرة « توليب » من مائتي نوع قادمة من هولندا . في وسط النهر رأيت لاول مرة « الخشب المسافر » ويبدو جزيرة عائمة من الأخشاب على دائرتها جذوع ضخمة مربوطة بحبال لتمنعها من التفكك ، وهذه الجزيرة تسافر وحدها ألوف الأميال مع مجرى النهر وينتظرها أصحاب الخشب ليستلموه في أكبر مصنع لعجين الورق هنا .

قبل أن أغادر اوتاوا عرفت هـذا الحادث الطريف « سنة ١٨٧٨ سُمِع مسجل الصوت لأول مرة في اوتاوا» . أول فكرة خطرت لهم هي أن يسجلوا اسطوانة تصفيق وهتافات للملكة فكتوريا ويرسلوها إليها . وهكذا كان ! ويسأل بعضهم : هل اشترك الفرنسيون في الهتاف والتصفيق ؟ .

فرقة رضا في كندا :

في شهر أيلول ١٩٧٢ قدّمت فرقة رضا المصرية حفلات في كندا وأميركا لاول مرة ونالت نجاحاً وإعجاباً . حضرت حفلتها في « أوبرا » اوتاوا ولست أدري لماذا تذوقتها في كندا أكثر مما في مصر فكم كان جميلا الرقص الفولكلوري المنتقل من ضفاف النيل إلى صالة الأوبرا الجديدة في اوتاوا .. وكم وكم من اخواني المهاجرين دمعت عيونهم وهم يسمعون « بحّة » الناي . .

ليتنا نكثر من هـــذه البعثات والجولات الفنية والثقافية فهي خير رسول وسفير لبلادنا .

« آبير كندا فيلاج » :

على بعد ساعتين من اوتاوا زرت «قرية كندا العليا UPPER CANADA-VILLAGE». كانت كندا العليا مقاطعة «انتاريو» الانجليزية وشارتها التاج، وكندا السفلى مقاطعة « كيبك » الفرنسية وشارتها الزنبق زهرة الأسرة المالكة الفرنسية .

قبل أن تغرق ثماني قرى عنـــد إنشاء خط سان لوران الملاحي انقذت حكومة « انتاريو » سنة ١٩٥٧ بعض المنازل القروية وأعادت بناءَها في « آبير كندا فيلاج » . دفعتها إلى ذلك نزعة أثرية لـكي يرى الأحفاد كيف كان يعيش الأجداد وعاطفة قومية أيضاً . فعندما أعلن استقلال أميركا فضّل بعض الموالين للتاج أن يبقوا انجليزاً ونزحوا من أميركا واستوطنوا تلك القرى. وسنة ١٨١٢ كانت المنطقة ساحة قتـال بين الأمريكيين والإنجليز فأقيم هنا نصب تذكاري « للشهداء الموالين » .

القرية كلها متحف حيّ بشوارعها وابنيتها التي تتجاوز الأربعين . سرنا في شوارعها غير المرصوفة وعلى بعض أرصفتها الخشبية وركبنا عربات قديمة تجرها الثيران ورأينا كيف كانت بيوت المزارع والمدرّس والـكاهن والطبيب، وسمعنا شرحاً عنها من سيدات فيها يلبسن الزّي القديم . ورأينا محـلات الحـدادة والصـوف والخبز والحلوى والجبن وكلها تشتغل الآن . والاستراحة حيث كان ينزل المسافرون ويبدّلون خيولهم من اصطبل القرية . وثلاث كنائس لأن الأجداد كانوا يتـفقون في كل شيء ويتعاونون ويتشاركون إلافي الـكنائس فكل حسب مذهبه الانجليـكاني أو اللوثرى أو الـكاثوليـكي . ومعرضاً لما كانوا يستعملون من آلات للزراعة وللتنظيف وللكوي ولصيد الفئران وللانزلاق على الثلج . الخ . . »

في بيت الطبيب « عـدّة » خفيفة لعلاج الأسنان وخلعها وشفرات البضع للاستئصال أو فقط للفصد ، والمشروبات التي كانت تخدّر ، وشيء عن طريقة تركيب الأدوية ومنافسة « الأطباء الهنود » بوصف أدوية من الأعشاب . .
أما المدرّس فـكان يقبض من التلميـــذ نحو جنيهين بالسنة نقداً أو بضاعة وخدمات . كان يتعلم فقط الولد الفاشل الذى لاينفع للشغل في الزراعة أوفي الحرف . كان فنّ صنع الأثاث متقدما اذ تتحول بعض المقاعد في بيت المدرس إلى سرير .

انها حقاً زيارة فريدة إلى تلك القرية الأثرية النموذجية وبالأخص عندما تعقب الزيارة ساعات على شواطيء البحيرات وسان لوران . .



في القرية القديمة

٢٠

تورنتو

اقليم البحيرات :

ان هنود قبيلة « هيرون » الذين كانوا في البقعة دعوها « تورنتو – TORONTO » أي « مكان الاجتماع » . تورنتو هي عاصمة ولاية انتاريو وثاني مدينة كندية بالسكان (مليون ونصف) والاولى في الصناعة والتجارة والمال . شعارها المطبوع على علمها : الصناعة والذكاء والاستقامة . في اقليم انتاريو ٧٥٠،٠٠٠ بحيرة ولا تفكر ان عامل المطبعة اخطأ فزاد صفرين أو ثلاثة : سبعمائة وخمسون الف بحيرة . هكذا قرأت في الدليل الذي بين يديّ فصدّق أو لا تصدّق ...

قصر البلدية :

اغرب ما في تورنتو قصر البلدية أو « صالة المدينة » كما يدعونه وقد ذكّرني بهندسة ابنية « برازيليا » . كلّف مع ارضه ٢٧ مليون دولاراً . تحت الارض ثلاثة طوابق هي مرآب لـ ٢٤٠٠ سيارة وفوق الأرض طابق واسع دائري فيه مطعم . الى اليمين تقوم بناية مقوسة من ٢٧ دوراً والى

اليسار بناية مقوسة أخرى من عشرين دوراً ، من السطح تبين تورنتو كلها . إنها بموقعها على شاطىء بحيرة انتاريو وشوارعها الواسعة وحدائقها الكثيرة أجمل مدينة في كندا . يسيطر مبنى «صالة المدينة» على ميدان «ناثان فيلبس» وهو الميدان الرئيسي تزينه بركة كبيرة يسقط فيها كل دقيقة ١٢ ألف جالوناً من الماء . عرضت سلطات تورنتو مسابقة مفتوحة لجميع مهندسي العالم فتجمع لديها ٥٢٠ تصميماً فاز منها مشروع المهندس الهولندي « فيلجو ريفيلب - VILJO REVELB » الذي توفي قبل انجاز البناء بسنة .

كاسالوما : قصر الأكمة.

اضخم ما في تورنتو « كاسالوما » أي « قصر الأكمة » والاسم كصاحبه من أصل اسباني . كان مالكه الاول وبانيه جندياً فصناعياً فتاجراً فهاوي بناء . شيّده بين ١٩١١ و ١٩١٤ . قضى سنين عديدة يزور ويدرس قصوراً في اوروبا ليجمع منها ما هو الأفضل. استورد مواد البناء من اوروبا واميركا وآسيا . ارادت سخرية القدر ان يهجره صاحبه ويخلفه للحكومة لأنه عجز عن دفع الضرائب وعن تكاليف الصيانة . احتارت الحكومة التي استولت عليه في أي غرض تستخدمه فجربته كقصر ضيافة ثم كفندق ثم كنـــادٍ واستقر الرأي أخيراً لن يكون متحفاً مع بقاء جزء منه كنـاد . انه حقاً عجيب بغرفه الثماني والتسعين وحماماته الاربعة عشر وأروقته السرية ودهاليزه واسطبله ومخزن الخمور الخ . فلم يسبق ان شيد رجل فرد مثله . انتهت الزيارة بأن وزعت علينا الدليلة صورتها مع صورة القصر وذلك بعد ان وضعت طبقاً على الطاولة لنلقي فيه « البقشيش » وافهمتنا بصراحة - دون وقاحة - انها تدفع مصاريف الجامعة من هذا البقشيش ...

جولة في الشوارع :

اطول شـــارع في تورنتو هو شارع « يونج - YONGE » يخترقها من الشمال الى الجنوب وتتفرع باقي الشوارع عن شرقيه وغربيه . واجمل شارع هو شارع « سانت كلير » . ابنية الجامعة والكنائس مجللة بلون اسود تراكم

عليها مع تعاقب السنين. أنفاق المترو نظيفة بيضاء براقة كأنها جدران غرفة حمام . بعض أجزاء منـــه تمرّ في الهواء الطلق على جسور يكثر عندها الانتحار . نزلت في أحد المواقف وإذا بمخرجها يفضي الى محلات « ايتونز ـ EATON'S » وهي حسب قول الدليل أكبر محلات بيع في كندا بل في كل أقطار الكومنولث وتحتل مباني عديدة في قلب تورنتو التجاري .

مررنا بمجموعة من الشوارع يتميز كل واحد منها بطراز هندسي خاص لكل بيوته . شواطىء بحيرة انتاريو تزيّن تورنتو ، لكن مياه البحيرة لاتسمح بالاستحمام إذ أنها باردة جداً صيفاً وشتاء . فاليوم فيشهر آب درجة الحرارة في المدينة ٢٦ ودرجة حرارة مياه المدينة ١٢ .

« مدافن الجبل الفاتن » تنبسط في حديقـة بدون بنايات ولا هياكل ولا معابد ولا تماثيل بل فقط لوحات رخامية نقش عليها اسم الدفين . الموت غال في كندا كافي أميركا يكلّف المأتم العادي ألف دولار ، فيضطر الكنديون الى إدخال نفقات المأتم في التأمين . تقسيط في الحياة الى ما بعد الممات فكل شيء هنا بالتقسيط .

زرنا أيضاً أضخم معمل آجرّ في كندا ينتج ملايين القطع يومياً لانه منع في المدينة البناء بالخشب درءاً لانتشار الحرائق .

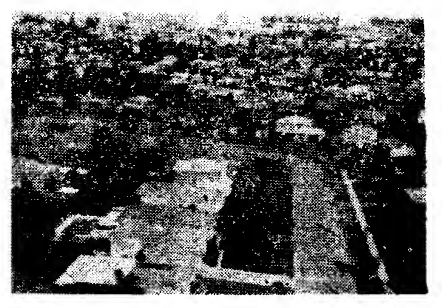
حدائق تورنتو :

قلت إن تورنتو بانت لي أكبر مدينة كندية زرتها والفضل الأكبر في ذلك لحدائقها الكثيرة الواسعـة المنسقة ذات اللون الأخضر الزاهي . زرت منها حدائق كوينز ـ QUEENS وكريك ـ CREEK وادوارد ـ EDWARD وهاي بارك ـ HIGH PARK » رأيت ستة عرسان جـــدد بثياب الزفاف يلتقطون الصور بجانب علم كندي زرعـــه البستاني زهوراً حمراء بشكل الكفّ وهي ورقة الدلب . خلال إقامتي في تورنتو قضيت كثيراً من وقتي الحـُرّ في هـــذه الرياض كما طويت نصف يوم في « الجزيرة الوسطى ـ

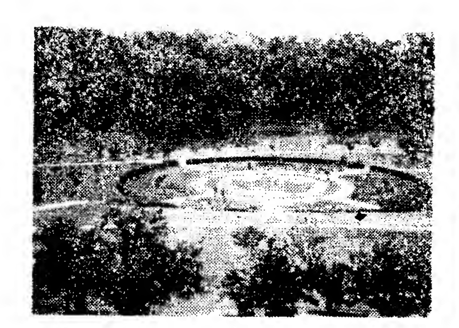



قصر البلدية

كاسالوما



تورنتو الفاتنة



العلم الكندي في الحديقة

CENTRE ISLAND » العائمة في بحيرة انتاريو وهي المنتزه المفضل لدى سكان تورنتو تتوفر فيهـــا أنواع الملاهي والرياضة حتى قوارب التجديف والقطار المصغّر والهليوكوبتر ... وهنالك أحياء تبين بأكملها جنائن خلابة مثل « روز دايل » و « فورست هيل » .

قال لي المهاجرون : ان وجه مونتريال ضاحك مرح ووجه تورنتو جدّي عابس ربما بسبب الأصلين الفرنسي والإنجليزي . اكتفي برد هذا المثل : من الساعة الحادية عشرة ليلاً يوم السبت الى صباح يوم الاثنين ممنوع تقديم أي نوع من الخمرة في تورنتو . وقانوناً لا تباع الخمور إلا للأشخاص البالغين وهؤلاء عندما يستلمونها يوقعون على الكميـة التي اشتروها من كل صنف ولا تبيعها إلا المحلات المرخص لها بذلك . لم تعـد تورنتو « مدينة انجلو سكسونية » صرفاً فلقد غزاها المهاجرون وطلاب أجانب في جامعاتها وبعض الزنوج .

حي الهيبيين :

يلقى ذلك الوجه التقليدي ثورة من المراهقين والشباب ويكفي للتثبُّت من ذلـــك التعرف الى حي « يورك ڤيل – YORK VILLE » الملقب « بالقرية – VILLAGE » . تجولت فيه مع أصدقائي مـــدة ساعة ونصف دون أن نبارح السيارة وكان السبت مساء . مئات من المراهقين والمراهقات والشبان والشابات بملابس مستهجنة متحرّرة . بعض الفتيان كالفتيات والعكس بالعكس . وجوديون وخنافس وهيبيز بشعور طويلة مهملة وثياب مزركشة يتدافعون كالأمواج والبوليس على كل خطوة يسهر على النظام في هذه الفوضى . والنظام لا يسمح لهم بالتوقف لا في الشارع ولا على الرصيف . على جانبي الشارع مقاصف وملاهٍ ليلية يترددون عليهـا . سمعت وقرأت عنهم والآن رأيتهم بعيني وبقيت أفكر طويلاً في أولى ساعات الليل بالأسباب التي تدفعهم الى هذا السلوك .

لابد أن هــذه الشبيبة تدين بأفكار جديدة تبين أحياناً سابقة لعصرها

مثل : الحرية الشخصية الكاملة في التصرف والسلوك ولو صـــدمت العقلية الحالية . الدعوه الى التمتع بالحب الحر، استقلال البالغين عن السلطة الوالدية . التخلص من ازدواج الشخصية بحيث لا يكون المرء شخصية « نظيفة » علناً و « قـــذرة » سراً . رفض الأوضاع التي تفسح فرص التوظيف والإثراء للكهول وتحرم منهـــا الشباب الصاعد . رفض التجند لأنهم ينادون بالإخاء الإنساني الشامل ولأن الشبيبة هي التي تموت في الحروب ، فأصبح شعارهم الحب والسلام ، حرية الفكر التامة ، هدم بعض التقاليد التي يحترمها الكثيرون ظاهرياً ولا يقتنعون بها باطنياً . الميل الى البطالة والكسل وإهمـــال المظهر الخارجي الخ ... ان في مبادئهم الغث والسمين والمفهوم وغير المفهوم . ولكن هل كلهم مقتنعون مما يفعلون أم تجرفهم الموجة الجديدة و « التقاليع » فينجرفون معها على غير هدى ؟ هل هم طلائع الأجيال القادمة أم قِلة تـُمثـّل دوراً عابراً ؟ ...

متحف تورنتو :

في متحف تورنتو معروضات عن شعوب مختلف القارات . فمن أوروبا عن بريطانيا وفرنسا في القرون الثلاثة الماضية وعن آثار اليونانيين واللاتينيين منذ ٢٥٠٠ سنة . ومن آسيا عن اليابان والهند وكوريا والصين قديمها وحديثها . ومن أفريقيا عن سكن « الإنسان الأول » وعن مصر ، وأكبر جناح آثار في المتحف هو المصري . كما توجـد غرفة عن الفن القبطي وغرفتان عن الفن الإسلامي .

في الجناح المصرى توابيت عديدة ومومياء من القرن السابع قبل المسيح لـ « ان تجوبن انج هور » ونقوش حائط من معبد « حتشبسوت » من القرن السادس عشر ق. م. وفي غرفة الفن القبطي فخار وقلل وزهر النرد (الطاولة) ونسيج مطرّز وهلال يحيط بصليب وصلبان قديمة والمصابيح التي كانت تشعل في الكنائس .

في قسم طبقات الأرض والمعادن وظهور الحياة قرأت عن « داروين » أن

الانسان تطور من نوع الرامابيتيكي الى الاوسترالوبيتيكي الى الحيوان الذي يقف على رجلين الى الحيوان العاقل . فهل توافقه على هـــذا ؟ وهل توافق قراءة أخرى ان الجمــل هو حيوان اميركي انتقل من اميركا الى اوروبا ثم الى آسيا ؟ وان الافعى لا تسمع البتة وبالتـــالي لا تطرب الموسيقى ؟ وقرأت أن آخر حمامة من الحمام الزاجل ماتت سنة ١٩١٤ ، وأن قرود «الشمبنزي» تعيش جماعات تحت إمرة سيد ومعدل عمرها ٢٥ سنة وفي اجسامها أمراض تشبه أمراض جسم الإنسان وهي ليست مهدّدة بالانقراض « كالغوريلا » . إذا زرت متحف تورنتو فتوقف عند القطعة رقم ٣٨-٩٦٢: قارب الرجولة. طوله نحو ثلاثة أمتار ونصف وعليه سلحفاة ورخّ برأس إنسان . كان يقضي فيه المراهق الهندي ثلاثة أيام وثلاث ليـال استعداداً لحفلة إدخاله في مجتمع الرجال .

مركز انتاريو العلمي :

لفتت نظري مراراً وأنا في الاوتوبيس ثلاث بنايات جميلة غريبة الهندسة تنطلق أمامها عشرات النافورات ولا ينقطع عنها سيــل الزائرين . قصدتها فإذا هي معرض مبتكر للعلوم يحبه الكبير والصغير ، لأن الحقائق العلمية والاختبارات والاختراعات معروضة بطريقة سهلة ، فيمكن للزائر ان يجرب بنفسه بضغط أزرار و « بألعاب علمية » . هذه هي هدية حكومة « انتاريو » بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لقيام الاتحاد الكندي . أهم مواضيع هـــذا « المتحف ـ المعرض ـ المـدرسة » هي الفضاء ، كوكب الارض ، للنواة ، الذّرة ، المواصلات ، سر وتطور الحياة ، أشعة «لايزر» ، العقل الالكتروني ، طبيعة كندا ومنتوجاتها ... تعطى فيه محاضرات وتعرض افلام علمية وتقام حفلات موسيقية فيسوده جو مرح مشوّق. اذكر منه بنوع خاص كبسولات رحلات الفضـاء ، ونموذجاً كاملاً المركبة « ابوللو ٨ » ، ونموذجـاً مصغراً للصاروخ (ساتيرن) ، وتجربة (حـائط الفوسفور) إذ تبقى عليه ظلال

متتابعة من الجسم الذي مر أمامه وابتعد عنه ، وتجربة تثبت أن سرعة جسم على خط اهليلجي تفوق سرعته على خط مستقيم الخ...

معرض تورنتو :

(المعرض الكندي القومي) يقام منذ ٣٨ عاماً كل صيف في اواخر آب واوائل ايلول يزوره سنوياً نحو ثلاثة ملايين وكنت منهم في آب ١٩٧٢ . مساحة أرضه مليون ونصف متر مربع عليها عشرات الأبنية وملعب بثلاثة وثلاثين الف مقعد ومدينة ملاهي . ليس المعرض فقط للانتاج الزراعي والصناعي بل أيضاً للترفيه وللفرق الموسيقية وللرياضة وللأزياء وللزهور والنافورات . أذكر منه أن ملكة الفرق الموسيقية في معرض ١٩٧٢ كانت الاسكتلندية ، وأضخم بناية كانت للصين الشعبية ، وأجمل قسم كان (البيت الكهربائي) فيه مئات ومئات الادوات المنزلية . وحلقات متسلسلة من المطاعم (القومية) من مآكل الصين الى الفيلبين الى اليونان الى فرنسا فايطاليا فالنمسا الخ ...

رأيت من برامج المعرض نصف ساعة رياضة مائية تبارى فيها ابطال قدموا من بلدان عديدة . انتزع (الإنسان الطائر) هتاف وتصفيق الجماهير إذ كان يرتفع الى علو شاهق جداً في الجو بينما يسرع المركب الذي يجره ثم يقفز هو في الماء كمن يقع من طائرة . هذا عدا (العاب بهلوانية) قام بها ثلاثة على ارتفاع نحو ٢٠٠ متر فوق البحيرة .

ميدان انتاريو

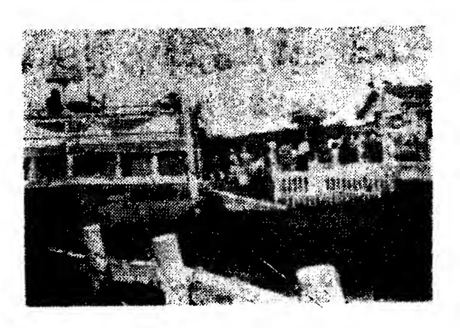
هذا أيضاً من مستحدثات حكومة انتاريو للترفيه وللعلم ولجذب السياح . على شاطىء بحيرة انتاريو وعلى جزر صناعية انشئت فيها تقوم سلالم حلزونية فوق الماء وبنايات من حديدتروي المعروضات فيها تاريخ ولاية انتاريو بالصورة والصوت والضوء . ومنه منطلق كل انواع الرياضات وداخل دائرته شاطىء استحمام ومطاعم ومتاجر هدايا وذكريات ومطاعم وبنك وبريد ومسرح

مفتوح فيه ٨٠٠٠ مقعد الخ . ان كل شيء في تورنتو (كبير انيق جميل) . اجمل ما في ميدان انتاريو بنـاية كالكرة في داخلها سينما دائرية ٣٦٠ درجة تشبه ما رأيته في معرض (مونتريال). اخذنا الفيلم الى اقصى شمال كندا واوهمنا اننا نحن مسافرون فكانت سيارتنا أو سفينتنا أو طـائرتنا تتنقل في موطن الثلوج والهنود والاسكيمو .

في بحيرة ميسكوكا :

في ولاية انتاريو تتوالى الوف البحيرات وأكـبرها وأشهرها بحـيرة (ميسكوكا – MUSKOKA) على بعد ٢٧٠ كم من تورنتو. على متن الباخرة السياحية (السيدة ميسكوكا) قضيت اربع ساعات فسحة في تلك البحيرة حيث تطفو ٣٦٠ جزيرة تمر بها الطيور البيضاء وحيث تتعرج ألسنة المـاء بين الروابي الخضراء وحيث تستريح على الشواطىء بيوت انيقة ملونة تحتها (جراجات) في الماء لليخوت أو للسيارات المائية السريعة .

بعد هذه الفسحة ادركت لماذا سمّى الهنود هذه المقاطعة (انتاريو) أي الماء الأزرق الجميل . !



فسحة في بحيرة ميسكوكا

٢١

شلالات نياجرا

طوينا المسافة بين تورنتو ونياجرا [١] في ساعة ونصف . « ان شلالات ايجواسو » [٢] تفوق نياجرا روعـــة وتنوعاً إلا ان منظر تساقط شلالات نياجرا لن يُمحى من عيني على مدى الحياة وكأنني اسمع هديرها كلما تذكرتها

من بحيرة « ايريه ـ ERIE » يخرج نهر نياجرا وينحـــدر الى بحيرة « اونتاريو » في مجرى يبلغ طوله ٥٦ كم وإنحداره الكلي ٩٨ متراً من منبعه الى مصبه . على يمين المجرى من الشرق الولايات المتحدة الاميركية وعلى شماله من الغرب كندا. المنطقة كلها حدائق ومنتزهات وفنادق ومطاعم وهي أكبر نقطة سياحية في العالم . بعد ان يمر النهر حول «الجزيرة الكبرى» و «جزيرة البحرية » يندفع الى الشلال الاميركي والشلال الكندي .

ارتفاع الشلال الاميركي ٥٥ متراً ويصب ثلاثة ملايين جالون في الدقيقة الواحدة (الجالون = ٤٫٥٤٣) لتر . أما الشلال الكندي واسمه « حدوة

---

(١) كلمة « نياجرا » هندية ومعناها : حيث الارض مشقوقة الى شطرين .

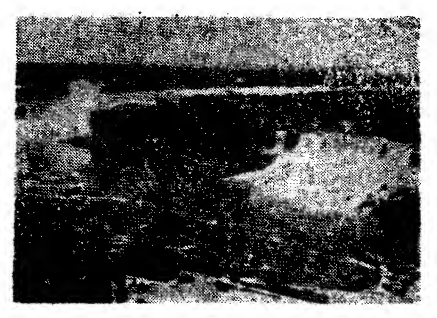
(٢) انظر فصل ٦

الحصان » ـ متخذ من شكله ـ فعرْضه ٦٦٠ متراً وارتفاعه ٥٣ متراً وكمية مياهه ٣٤ مليون جالون في الدقيقة الواحدة . رأس الشلال اخضر وجسمه ابيض وقدمه اخضرعلى ازرق. من عندموطىء الشلال الى مصبه في بحيرة اونتاريو يمتد وادٍ أو بالأحرى مضيق نهر نياجرا وعمقـه ١٠٥ أمتار يقـدّر علماء طبقات الارض ان المياه تحفر فيها منذ نحو ٧٥ الف سنة . فوق النهر بعد الشلالات ثلاثة جسور تربط الضفة الكندية بالضفة الاميركية أشهرها جسر « قوس قزح » ولا بـد انه اكتسب اسمـه من قوس قزح حقيقي يرى دوماً عنـدما يكون الجو شامساً . سنة ١٩٥١ وُقّعت « معاهـدة نياجرا » بين الدولتين المتجاورتين لاقتسام الطاقة الكهربائية المتولدة من الشلالات .

الشلالات رهيبة في النهار وساحرة في الليل . قضينا بجانبها من الرابعة الى الحـــادية عشرة مساءً . لبسنا قبعة ومعطفاً وجزمة تقي كلها من التبلل ونزلنا في مصعد محفور في قلب الجبل الصخري ثم سرنا على الاقدام في الانفاق الى ان وقفنا عند قدم الشلال . شعرت بدُوار وانا أُتابعه بنظري . الصوت البشري لا يُسمع على بعد مترين إذ يغطي عليه هدير الشلال . انشأوا هنا للسياح ثلاثة انواع من الفسحة : مراكب مائية تذهب وتجيء بـين الضفتين يرفرف عليها العلم الاميركي والعلم الكندي، ومراكب هوائية معلقة تصـــل بين تخوم البلدين ، وهليكوبتر يحلق فوق المنطقة بأكملها . سنة ١٨٥٩ قطع « البهلوان » الفرنسي « بلوندين » فوق الشلالات بثمانية واربعين متراً ماشياً على حبل طوله ٣٣٥ متراً وحاملاً زميله على كتفيه !

تنقلنا في الضفة الغربية بين المطاعم والمخازن والجنائن وكلما مرت فترة عدنا للتمتع بمنظر الشلال فربما لن يُتاح لنا ان نراه مرة اخرى . في التجوال لمحت سيارة كبيرة المانية كُتب عليها : « فندق متجول في اوروبا وافريقيا واميركا وآسيا » . انه يناسبني لولا انه بطيء ...

زرت معرض جواهر التاج البريطاني . ترى كيف ولماذا نُقلت الى هذا


منطقة شلالات نياجرا


شلالات نياجرا

المكان القاصي غير الآمن ؟ يزول العجب عندما تعرف انها ليست الجواهر الأصلية الصحيحة بل هي « تقليد » يستمتع برؤيتها من لا يتسنى له ان يرى الأصل في « لندن ». اروع ما بينها نسخة طبق الاصل لأكبر ماسة في العالم اهدتها « شركة الهند الشرقية البريطانية » الى الملكة فكتوريا .

في مخازن بيع الهدايا يتفننون برسم الشلالات على المحافظ والأطباق والصواني والمناديل وحمّالات المفاتيح والأقمشة والأقداح الخ ... اكتفيت بالقليل مما خفّ وحلا لأن أمامي سفراً طويلاً ومعي حقيبة واحدة .

عندما اسودّ الليل سُلّطت على الشلالات انوار جبارة من كشافات بعيدة فكان لونها يتغير من البنفسجي الى الأصفر الى الاخضر الى الاحمر الى الأبيض، والى الأسود عندما تُطفأ الانوار. انه اجمل عرض «للصوت والضوء» الصوت من صنع الطبيعة والضوء من صنع الانسان وهكذا كل تقدُّم في الأرض هو مشترك بينهما . بما ان عرض الشلال ٦٦٠ متراً تتجاور فيه الوان عديدة بوقت واحد . على الصعب ان يحدد المشاهد أي لون هو الأفضل ولكن تهيأ لي انه اللون الأحمر إذ يجعل الشلالات كأنها من دم !

٢٢

الهجرة والمهاجرون الى كندا

كانت سهرة الوداع تبادل أحاديث مع بعض المهاجرين [١] عن حياتهم الجديدة في كندا . رغم المصاعب التي يصادفها بعضهم لا أغالي إذا أكـّدت أن ٩٥٪ منهم سعداء في كندا وهم مقدّرون محبوبون يقرأون ويسمعون الثناء من الحكومة والصحافة والتلفزيون وأرباب العمل ...

المصاعب الأولى :

كان مستوى مهاجرينا الثقافي والاجتماعي والمالي فوق المتوسط في موطنهم السابق فلا عجب إذا مـــا وجدوا مفاجآت في باديء الأمر . ينصحهم المتقدمون أن لا يقبلوا عملا بأجر زهيد عند وصولهم لأن هذا يؤثر على مرتـّبهم عندما ينتقلون الى عمل آخر . ذوو المهن الحرة كالأطباء والمحامين والمهندسين وباقي حملة الشهادات الجامعية قــد يكافحون سنتين ليجدوا العمل الذي يتناسب ومهنتهم . يضاف الى هـــذا أن قوانين كل ولاية تختلف عن

---

(١) انظر أيضاً فصل ٦٥ للمقارنة مع المهاجرين الى استراليا .

الأخرى حول الاعتراف بشهاداتهم وحول الترخيص لهم بممارسة مهنتهم . وبعض الولايات تشترط الجنسية الكندية للمهن الحرة . يفضّل بعض أرباب العمل الحائزين على الجنسية الكندية وذوي المؤهلات ويتطلبون « خبرة كندية » فيغضب مهاجرونا ويردون عليهم : نحن مهاجرون جدد وطالبو خبرة ! لكن هـذه كلها مصاعب عابرة لا تعتّم أن تزول وينفتح لهم الطريق واسعاً .

المعيشة رخيصة بالنسبة للايراد ولو أن الاسعـار زادت من ١٩٦٢ الى ١٩٧٢ ٤٧٫٥ ٪ . معـدل الإيراد العادي ١١٠ دولار في الاسبوع وغالب مهاجرينا يكسبون أكثر من ذلك ، وإذا اشتغل اثنان من البيت يُوفّران مبالغ لابأس بها . يصرف ربع الماهية لإيجار مسكن وضع فيه المالك المصابيح الكهربائية والبوتاجاز وأدوات الطبخ والغسالة الكهربائية . لا يعـانون من أزمة المساكن إنما تعترضهم مشكلة غريبة إذ يرفض أصحاب الملك التأجير لعائلة ذات أطفال خوفاً من إزعاج الجيران . وإذا أصرّ طالب الاستئجار فقد يرفعون سعر الإيجـار ويقيدونه بشروط عاقبتها الطرد إذا تكرر الازعاج . إنمـا لا يمنع أنهم يعبدون الاطفال . تصرف الدولة لكل ولد ٦ دولارات أسبوعيا وعندما يصير حدثاً ١٠ دولارات وحين يدخل الجامعة تقرضه كل سنة ألف دولار على أن يردها بعد تخرجه وبدئه بالشغل . يقبض العاطل عن العمل تأمين البطالة الى أن يجد عملاً ، ويقبض العجوز معاشاً من الدولة . المأكل والملبس والتنقلات ليست غالية .

المناخ :

البلاد جميلة بأرضها وطبيعتها وشعبها . المناخ الذي كان مهاجرونا يخافون منه ويحسبون له ألف حساب لايضايقهم كثيراً لان وسائل التدفئة تعم البيوت والسيارات والمكاتب عـدا أن المناخ البارد أفضل لجسم الانسان ولنشاطه ولمعنوياته . ومونتريال ترى الشمس غالب أيام السنة ...

التطلع الى الوراء :

يشكو مهاجرونا من أمور قد اعتادوها في بلادهم الاولى وحرموا منها في كندا . منها ما يدعونه « الهناء والراحة » فلقد اعتادوا أن يستريحوا ٣ ساعات في وسط النهار بينما هنا العمل متواصل الى الخامسة بعد الظهر مع فترة ربع ساعة للشاي وساعة الغداء . ترى هل هذه عقبة إذا ما تذكروا أن أسبوع عملهم من ٣٥ الى ٤٠ ساعة فقط ؟ يشكون من الانفراد وانعدام الحياة الاجتماعية فالمسافات شاسعة ويصعب الاختلاط والتصادق مع الكنديين فكل منهم وشأنه ومعيشته الفردية حتى لايعرف من هو جاره . ان مهاجرينا على حق في هذا وليتهم يبثون في المجتمع الجديد روحاً شرقية من العاطفة والانسانية فيكونون بذلك (خميرة) تبدّل المجتمع في هذه الناحية الانسانية . أخبرني أفراد عائلة أن والدهم المتقدم في السن قدم من مصر لزيارتهم . تعرفت عليه إحدى جاراتهم ورحبت به وجلست معه مراراً وبعد مضيّ وقت توفي الوالد . وإذا بالجارة بعد ١٤ يوماً من وفاته تسأل عنه أين هو فلم تره منذ أيام !

ينصح السابقون اللاحقين أن يهاجر الاب وحده ثم يستدعي زوجته وأطفاله ولو بعد ستة أشهر . تهتم إدارة الهجرة بالمهاجر لدى وصوله وتصرف عليه إلى أن يجد عملاً ، رغم ذلك فالاطفال عبء ثقيل في البدء ويمنعون أمهم عن العمل . ووجود مهاجرين مسنين هو عبء على أبنائهم بل على أنفسهم فمن الصعب أن يتأقلموا .

ان مهاجرينا متفائلون في نظرتهم الى الحياة وينعمون (براحة البال) ويشعرون بالاستقرار . لا تساورهم هموم مستقبلهم ومستقبل أولادهم . وبعد خمس سنين اقامة في كندا يكتسبون الجنسية الكندية .

ساعات العمل والأجور :

مجموع ساعات العمل في الاسبوع من ٣٥ الى ٤٠ ساعة والسبت والاحد

عطلة . العطلة السنوية أسبوعان او ثلاثة . أجر ساعة عمل اضافية هو ٥٠٪ أكثر وإذا كانت يوم أحـد او عطلة فيضاعف . في ثمان ولايات الاجرة هي ذاتها للرجل والمرأة حين يقومان بالعمل نفسه .

التأمينات :

في فترة التعطل يقبض العـامل (بدل التعطل) من صندوق يساهم في تغذيته العمال أنفسهم وأرباب العمل والحكومة . تعـالج الدولة مجاناً المهاجرين إذا مرضوا خلال سفرهم الى كندا وبعـد وصولهم قبل أن يجدوا عملا ويحسن بهم بعدئذ أن يدخلوا في التأمين الصحي . العجّز[1] الذين بلغوا ٦٥ سنة وأقاموا في كندا أقله عشر سنين يقبضون ٧٥ دولاراً في الشهر من الحكومة وإذا كانوا معوزين يقبضون أكثر . هذا عدا معاش نهـاية الخدمة أحياناً الذي يقبضه الموظف او العـامل من المرجع الذي كان يشتغل فيه . تدفع الحكومة إعانات ومعاشات اضـافية متفاوته تعطى من سن ١٨ الى سن ٧٠ في الحالات الآتية : معاش للعامل ولأولاده إذا أصبح عاجزاً عن العمل . معاش للأرملة . اعانة للأولاد في حالة وفاة والدهم . معاش للأرمل العاجز . مبلغ معين للورثة فيحالة وفاة العامل . معاش نهاية الخدمة يساوي ٢٥ ٪ من معـدل الاجر السنوي . وتمنح الحكومة اعانة للأم المعوزة لتعول أولادها ، وإعانة للمحتاجين .

مما أعجبني في كندا :

ومما أعجبني في كندا أن الحوامل يتبعن دروساًمجانية فيالمستشفيات لمعرفة التصرف في فترة الحمل وفي طفولة الوليد . وأن المهاجرين الذين لا يتقنون الفرنسية والانجليزية يعطون مالاً ليحضروا دروساً مجانية . وتوجد جمعيات لمساعدة المنفصلات والمطلقات حتىلاتهدر حقوقهن في المجتمع. وإذا طلبساكن

---

(١) معدل العمر في كندا ٦٨ سنة للرجال و٧٣ للنساء .

جديد تليفوناً يسمع الجواب : من أي نوع تريـــد الآلة ومن أي لون و تليفون وأيّة ساعة نأتي لليوم او غداً ... والشركات تساعد موظفيها لمتابعا دروس وأبحاث حتى لا يتخلفوا عن الذين تعلموا أكثر منهم ففي كندا وأميركا الوصول الى مركز أسهل من البقاء فيه لأن العلم في تقدم مستمر. ولقد رأيت في مكتب شركة توظيف أموال آلة تعطي بنقرة الاصابع عليهانتيجة التعامل « في هذه اللحظة » فيبورصة نيويورك او تورنتو او مونتريال او فانكوفر...

تيارات متعاكسة :

تتنازع كندا تيارات متعاكسة منها التباعد الروحي والثقافيبينالكنديين الفرنسيين والكنديين الانجليز وقد يبلغ حد التعصب والمطالبة بالانفصال مع أنهم على مركب واحد كما يقول عقلاؤهم . ومنها الاحتفاظ بالطابع الكندي ازاء الجاذبية الاميركية ، فجغرافياً الولايات المتحـــدة هي الجارة الوحيدة . ثلث صادرات كندا تذهب الى أميركا وثلثا وارداتها تأتي منها . ٢٣ مليار دولار أميركي مستثمرة فيهـــا وتسيطر رؤوس الأموال الاميركية على ٧٠ ٪ من بترول كندا وعلى ٦٠ ٪ من مناجمها وصناعاتها . وتقـــدم أميركا مُغرٍ فيجذب الكنديين أنفسهم للهجرة اليها . وعندما يهبط الدولار الأميركي يجرّ معه الدولار الكندي .

يقول الكنديون : جـــار الولايات المتحدة كمن ينام مع الفيل في فراش واحد فيتأثر حتى من تحركه وحتى من شخيره وتنفسه ! ويقولون إذا أصيبت واشنطن بالزكام عطست كندا !

في مطار تورنتو أنزلتني السيارة في الدور الخامس من الجراج ذي السبعة أدوار . في المصعد قبل أن أضغط باصبعي على الزر أضاء ونزل المصعد وأنا أبقيت اصبعي ممدوداً وفمي مفتوحاً ! ضحك مرافقي وقال لي ان الكهرباء التي في جسم الإنسان تكفي لإضاءة الزر والسهم الذي يدل على الاتجاه .أقلعت

الطائرة من تورنتو وحطت في « وندسور » ومنهـا ركبت السيارة وولجت في نفق تحت نهر ونزلت بعد دقائق في « ديترويت ». حالاً يلاحظ المسافر الفرق بين الحدود الأميركية والكندية إذ يبهره في أميركا النظام والغنى والفخامة واتساع الشوارع وناطحات السحاب لا سيما إذا كانت على الحدود مدينة مثل ديترويت التي هي من أغنى مدن العالم . إنما تتفوق كندا على أميركا بالنظافة وعدم تلوث الجو والهدوء وهناء المعيشة وعـــدم (التخبط) في مشاكل لا حصر لها ...

●

٢٣

الولايات المتحدة الاميركية

نيويورك

لمحة عن أميركا :

تبلغ مساحة الولايات المتحدة الأمريكية (ولنَقُل أميركا للاختصار) ٧٨٢٧٠٠٠ كم ٢ . لو وضعت خريطتها على خريطة أوروبا لامتدّت من ليشبونة إلى ستالنجراد ومن بالرمو الى هلسنكي . ولاية تكساس وحدها هي أكبر من فرنسا وأكبر من اليابان . تمتد بين خطـّي العرض ٤٩ و ٢٥ فمناخها معتدل متنوع . فيها كل انواع الأراضي من سهول وجبال وبراكين وأودية وصحارى وتبـدو لوحتهـا منبسطة في الوسط جبلية في شرقيها وغربيها . تربتها صالحة لكل أنواع المزروعات وثلثاها مزروع . في جوف أرضها البترول وكل أنواع المعادن . اضاف الإنسان الى ذلك الكفاح والتنظيم والتكنولوجيا فأصبحت تمتلك وحدها ٤٨ ٪ من ثروة العالم ، والمـال يثمر المال . . . ينقصها فقط المطـاط الطبيعي فتستورده وتنتج المطاط الصناعي من البترول .

أمريكا مقسمة الى ٥٠ ولاية لكل واحدة منها حاكم ومجلس شيوخ ومجلس

نواب وقوانينها المحلية . في السلطة المركزية بواشنطن اعضاء مجلس الشيوخ ١٠٠ اى ٢ عن كل ولاية ومدة العضوية ٦ سنين . واعضاء مجلس النواب٤٣٥ ومدة العضوية أربع سنين . الشيوخ هم متفوقون جداً على النواب عكس بريطانيا وباقي بلدان أوروبا . الوزراء احد عشر فقط ويدعون سكرتيريين.

أميركا هي فسيفساء بشرية اندمجت فيها معظم شعوب الأرض و «تأمركت» حتي فقدت الكثير من طابعها الاصلي ما عدا الزنوج والصينيين . وفيها بقايا من الهنود الحمر والاسكيمو يبلغون ٣٣٥ ألفاً ويعيشون منعزلين . عدد سكانها الحالي يقارب ٢٠٠ مليون وقد كانوا مليونين ونصف فقط سنة ١٧٧٦ اذ فازت باستقلالها .

ان تاريخها حديث جداً ، بدأ عقب تاريخ باقي بلدان أميركا اللاتينية . في اواخر القرن ١٥ وأوائل القرن ١٦ احتل منها الاسبان كاليفورنيا ، والفرنسيون مناطق المسيسبي وبعض الولايات الوسطى الشمالية ، والهولنديون نيويورك ، والفنلنديون والسويديون أقاليم الوسط الغربي .

سنة ١٦٢٠ نزل الانجليز في « نيوانجلاند » وما عتموا ان استعمروا أقاليم عديدة ودمغوها بالطابع الانجليزي . كان البروتسطنت المتزمتون من طائفة ال « بيوريتنز – PURITANS » يريدون ارضاً مستقلة لممارسة دينهم بحرية، وكان الرأسماليون يريدون أرضاً آمنة لتشغيل أموالهم وحمايتها من مطامع العرش والضرائب ، وكان اقطاعيو الأراضي يريدون بقاعاً واسعة في مأمن من جشع الأمراء وحسد الشعب ، وكان كل من اضطُهِد في انجلترا يحلم بوطن حرية فردية كاملة ... هؤلاء كلهم هاجروا من بريطانيا واستوطنوا في أميركا يبغون امتداد « انجليزيتهم » وليس التجديد لكن تطور العالم الجديد كان اقوى منهم ، ودوماً الجديد يغلب القديم ...

في ١٧٧٥ قاد جورج واشنطن حرب التحرير ضد بريطانيا وفي ٤ تموز

١٧٧٦ أعلن الاستقلال وفي ١٧٨٧ الدستور . في ١٧٨٩ نصب واشنطن اول رئيس وكان الاتحاد مكوناً من ١٣ ولاية . من ١٨٦١ الى ١٨٦٥ كانت الحرب الأهلية لتحرير العبيد في عهد ابراهام لنكولن . في ١٩١٢ اصبحت ولاياتها ٤٨ ثم انضمت الاسكا وهاواي .

كان ثمنها ٢٤ دولاراً :

نيويورك هي اهم مركز مالي وثقافي وصحفي وفنّي و « معماري » في اميركا وربما في العالم أجمع . معنى اسمها (يورك الجديدة) ودعيت به لذكرى وتكريم (دوق يورك) في بريطانيا .

نيويورك مكونة من خمس مدن واحدة منها وهي « برونكس — BRONX » متصلة بالقارة والأربع الباقية جزر وهي: « مانهاتن ، وبروكلن وكوينز و ريتشموند — MANHATTAN - BROOKLYN - QUEENS - RICHMOND » . مساحتها ٩٣٤ كم ٢ تطوقها مياه الأطلنطي وانهر ثلاثة هي « هدسون وإيست و هارليم — HARLEM و EAST و HUDSON ». عدد سكانها في تقهقر فكانوا مثلاً ٧٨٩١٩٥٧ سنة ١٩٥٧ ثم ٧٧١٠٧٤٦ سنة ١٩٦٠ وذلك لأن كثيرين يؤثرون السكنى في الولايات المتاخمة وفي المدن الصغيرة من ولاية نيويورك نفسها التي تصل حدودها الى شلالات (نياجرا). فيها ٨ ملايين شجرة كعدد سكانها تقريباً .

في سنة ١٦٢٤ اكتشفها الهولنديون وبعد سنتين اشتروا جزيرة (مانهاتن) من زعيم للهنود الحمر ببضائع قيمتها ٢٤ دولاراً . مع ذلك كانت صفقة خاسرة ، اذ تبين لهم أن البائع قد خدعهم وباعهم جزيرة لا يملكها، فاستولوا عليها عنوة وطردوا منها قبيلة (مانهاتن) التي كانت تسكنها والآن هي اغنى جزيرة في العالم . في ١٨٩٨ تجمعت الأحياء الخمسة وكونت مدينة نيويورك الحالية . .

في مطار كندي :

أول مكان وطئته قدمي في اميركا كان مطار كندي الدولي وهو مجموعة من المطارات فلكل شركة بنايتها ومدرج طائراتها . مساحته ٢٠ كم ٢ ويمر به سنويا ٢٢ مليون مسافر .

الإجراءات سريعة ومنتظمة جداً . يفتح كشاف الجمرك حقائب جميع المسافرين . سقت بنفسي عربة وضعت عليها حقيبتي من الجمرك الى السيارة فلا يوجد حمالون . واعتقد انه لو عمل حمال في مطار كندي لكسب في النهار الواحد نحو مائة دولار !

غريب وسط غرائب :

شعرت بدوار من الذهول والاستغراب وانا اتطلع الى اركان ابنية المطار وحركة الطائرات . والتقطت انفاسي عندما كان صديقي الذي استقبلني يقود سيارته (لنكولن) العريضة في شوارع فسيحة منظمة جميلة ويعبر جسوراً جبارة ويمر بي في « الطريق العلوي - UP WAY » الممتد على أعمدة فوق الشوارع ثم في نفق ابيض محفور تحت قاع المـاء يربط بروكلين بما حولها . وعندما اطلت السيارة على الجراج انفتح بابه من نفسه بالرادار . من الجراج صعدنا بدرج داخلي الى المنزل وتناولنا طعـام العشاء ثم رصفنا الأطباق في مغسل آلي يضغط فيه على زر فتتقلب الصحون وتغسل « اوتوماتيكياً » . ولا داعي لإلقاء بواقي الخضر وغيرها في سلة او في برميل النفايات لأنه توجد في « البالوعة » آلة تطحنها وتجرفها مع الماء الى المجاري . ثم صعدنا الى البهو المكيف الهواء لأن نيويورك حارة جداً في الصيف . فتح التلفزيون الملون وفي يده مفتاح « لاسلكي » لتغيير القنوات وللتحكم بالصوت دون ان يقترب هو من التلفزيون . عندما أويت الى سريري كنت فعلا أشعر بدوار مما رأيت في هذه الساعات الثلاث وأحببت ان اتصفح جريدة «نيويورك تايمز»

فإذا بها ٧٢ صفحة كبيرة لا تكفي ليال بأ كملها لمطالعتها[١] فرميتها وقلت كفى هذا المساء ...

في المترو :

مع صباح اليوم التالي حفظت على قدر إمكاني خريطة الأحياء أو المدن الخمس وطرق المواصلات الرئيسية ونزلت إلى محطة القطار تحت الارض « المترو – SUB WAY فإذا بي أمام أبواب عديدة تفضي إلى ثلاثة أدوار من الانفاق محفورة بعضها فوق بعض تمرّ تحت شوارع نيويورك وتحت قاع بحرها وأنهارها. يقولون هنا «داون تاون –DOWN TOWN» للمناطق التجارية في المدينة و«آب‌تاون – UP TOWN » للمناطق السكنية الأقلّ حركة (فينزل الى المدينة و (يصعد منها) . قبل ان اركب (المترو) أخذت امتحن مهارتي في (أكشاك) وخزائن الازرار بـِ ١٠ سنت أو ١٥ أو٢٠ أو ٢٥ لفتح آلة الهاتف أو لإسقاط قطعة شوكولاتة أو علبة دخان . وفاجأني سقوط كوب من كرتون انفتحت فوقه حنفية السفن آب (السفن آب بـِ ٢٠ سنتاً والكوكاكولا بـِ ١٥ سنتاً) وعندما امتلأ الكوب انقفلت الحنفية .

حينما يقف القطار في محطة تنفتح كل أبوابه مرّة واحدة وبعد أقل من دقيقة يكون قد خرج مَنْ خرج ودخل مَنْ دخل فتنقفل من تلقاء ذاتها وينطلق ينهب الانفاق .

في مجمع الطيران :

نزلت من المترو تحت شارع ٤٢ ثم صعدت بالدرج الكهربائي الى محاذاة الشارع أمام (مكتب استقبال زائري نيويورك) . استعلمت من المكتب

---

(١) تطبع يومياً في أميركا ١٧٤٥ صحيفة ب ٥٧٫٣٧٠٫٠٠٠ نسخة . أغلى ثمن اعلانات بالعالم في مجلة « THIS WEEK ـ هذا الأسبوع » : ١٤ مليون نسخة يوم الأحد . في مايو ١٩٥٩ دفعت شركة فورد الى « ريدرز دايجست » ٨٧٧ ألف دولار عن ٣٢ صفحة اعلانات ! .

عن بعض الأمور واخذت بعض النشرات وارشدت الى شركة (جراى لاين – GRAY LINE) السياحية لتزوّرني نيويورك وما حولها . انهم هادئون مؤدبون في المكاتب والأعمال ولكن أدب جاف قليلاً فكان يجب عليّ ان افهم من اول جواب وأن لا اطرح اسئلة كثيرة . اعتذرت لكثرة استعلاماتي وقلت للموظفة انه يومي الأول في اميريكا فأجابتني وعيناها في أوراقها و(البار كر) في يمناها ويسراها تدير قرص التليفون: (اوكي اوكي O. K., O. K. اهلاً بك في نيويورك) .

توجهت من هناك الى (مجمّع) شركات الطيران لأحجز مواعيد اسفاري الخارجية واذا بي تحت قبة واسعة وسط دائرة اصطفت حولها مكاتب كبريات شركات الطيران فتقدمتُ الى احد شبابيك الـ (بان أمريكان) واذا بالموظفة تومي اليّ بيدها فلم أفهم هل معنى ذلك ان اتقدم ام ان انتظر ام ان اعود. فقصدت شبا كا آخر ولا قيت نفس المصير فزاد (دواري) . ثم ادركت خطإي اذا كان عليّ ان آخذ نمرة من الحاجب . اسمّيه هكذا اصطلاحاً ولو انه ببدلته الكحلية وياقته الحمراء وشعره اللامع يبدو كأحد كبار الموظفين . قطع لي الحاجب نمرة وانتظرت الى ان نادوا نمرتي فتقدمت وفهمت ان النمرة المجهولة اهم من الفرد والاسم في أميركا ، ولاعجب فالأرقام هي أفضل طريقة للتنظيم ... استقبلتني الموظفة بابتسامة آلية وبادرتني بالسؤال المعهود : (بماذا يمكنني ان أساعدك ؟) فأجبتها ساعديني أولا بصبرك عليّ لأني سأبقى امامك أكثر من ساعة وابرزت لها مجلّد تذاكر سفري – ٨٥ ألف كم حول العالم – فانفرجت أساريرها وتكرمت عليّ باستعجاب قائلة لم أرَ مثل هذا بعد ! وبقيت امامها ساعتين وعشرة دقائق وهي تخدمني بلطف ودقة وهدوء وتحجز لي الفنادق ومواعيد الطيران مع الشركات المختلفة وتكتبها على الصفحات المخصصة في (كتاب تذاكري) ولم يبدُ عليها اى تبرُّم بل كانت تجيبني : (لا بأس لا بأس نحن في خدمة الزبائن انت أو غيرك فالعمل يسير) .

تاكسيات نيويورك :

غادرت مجمّع شركات الطيران (واوقفت سائق تاكسي ليقودني الى مكتب السفر الياباني في ساحة (روكفلر) فأشار اليّ ان انتظر على الرصيف المقابل واركب تاكسي متجهاً نحو الناحية الأخرى فقلت له اركب معك وانت تدور بسيارتك . فأجاب كلا هـــذا ممنوع وتابع طريقه . نزلت عن الرصيف الى الشارع لأعبره فأشار اليّ الشرطي ان أقف ولاحظ انني غريب (ضائع) فأفهمني ان العبور يكون فقط من أماكن معينة في الشارع هي للمشاة ومعلّمة بخطوط بيضاء فتوجهت إليها وأمري لله فكل خطواتي هنا تبـدأ خطأ ولكن تنتهي موفقة ... عـبرت وركبت تاكسي نيويورك لأول مرة فإذا بالسائق يتحدث باللاسلـكي إلى شركته ويقول لها انه يتجه بي الى ساحة روكفلر . امام عينيّ بطاقته الشخصية بإسمه وصـورته وعنوانه وعنوان شركته ورقم السيارة حتى اذا حدث شيء مفاجيء في هذه المدينة الضخمة يعرف الراكب الى من يلتجيء . كل تكسيات نيويورك مكيّفة الهـواء ونوافذها الزجاجية مقفلة فلاتُسمَع جلبة من الخارج . ورأيت ان كل شوارع مانهاتن مستقيمة تتقاطع بمسافات متقاربة جداً وعندكل تقاطع انوار كهربائية معلّقة في الجوّ لإرشاد السائقين . كان بودي أن أسأل السائق عمّا أرى لأول مرة لكني لم أفعل فربما يصدمني بصمت أو باستغراب . لا اسهل من التنقل في مانهاتن فمن الشمال الى الجنوب الجادات (AVENUES) ومن الشرق الى الغرب الشوارع (STREETS) بأرقام لا بأسماء . من اشهر جـادة وهي الخامسة (FIFTH AVENUE) تتفرع كل الشوارع بحيث تبدأ برقم واحـد الى الشرق ثم رقم ٢ الى الغرب وهكذا ... في اية نقطة من مانهاتن يكفي ان يعرف المرء رقم الشارع الذي هو فيه فيسهل عليه التوجه الى اي مكان . نزلت امام البناية رقم ١ في ساحة روكفلر ودفعت حسب عداد التاكسي مضيفاً ١٥ ٪ بقشيش .

في مكتب السياحة الياباني :

لم أدرِ أنِي في أعظم نقطة بمانهاتن ـ ساحة روكفلر ـ لأني كنت متجهاً إلى مكتب معيَّن فبهذا انا أمريكي : كل شيء في وقته ! جلست نصف ساعة مع موظف « مكتب السياحة اليابانى » ندرس كل تفاصيل رحلتي في اليابان بحيث يستقبلني الدليل في مطار « طوكيو » ويودّعني في مطار (اوساكا) ولا اتجوّل بتاتاً وحدي . بينما كان غارقاً في الأرقام والنشرات تطلّعت إلى الخارج من وراء الزجاج وقلت في نفسي : كم كنت مخطئاً في تصـــوري نيويورك صاخبة مضنية ذات مبانٍ سوداء ويملأ سماءَها الدخان (تذكرتُ لندن وباريس) فهذا غير صحيح . كل المـكاتب مكيّفة الهواء ممـا يجعل الانسان يتمتع بالسكون وبالانتعاش والارتياح . أنسِتُ في الموظف الياباني شيئاً من (العطف) غير الواعي على هذا الغريب الذي امامه . فسألته : الساعة الآن الثانية والنصف بعد الظهر فمن اين أبدأ بزيارة نيويورك . نصحني ان اذهب الى الميناء واصعد متن المركب السياحي الفخم (الخط الدائري ـ CIRCLE LINE) وادور حول مانهاتن فهذا استطلاع أوليٌّ لابدَّ منه للقادم الى نيويورك .

ـ ولـكني سأضيع في الميناء ؟

ـ لا تخف فلا أسهل من ذلك ، قل للتاكسي ان ينزلك عند رصيف ٨٣

ـ والى اي مطعم ترشدني لتناول الغداء ؟

ـ السياح هنا لا يأكلون في المطاعم بل يتناولون سندوتشات وعلى كل حال في الباخرة مقصف .

« الخط الدائري » :

بعد عشر دقائق وجدت نفسي في اكبر ميناء بالعالم وحالاً شعرت ان المرء قد يضيع في ميناء بيروت ولا يضيع هنا . في هذه المجموعـة من الموانيء

طراز قديم من الأرصفة التي تدخل كاصبع في البحر وطراز جديد بأن يكون الرصيف مربعاً ترسو حوله سفن عديدة . في وسطه سطح لوقوف السيارات وسطح آخر المستقبلين والمودعين . وهنا ايضاً كما في المطار لكل شركة بواخر مرفأها .

عَظُمَ ميناء نيويورك منذ ١٨٣٥ اذ أنجز قنال « ايريـــه ـ ERIE » الذي ربطه بالبحيرات الكبرى الخمس . دارت بنا باخرة (الخط الدائري) ثلاث ساعات حول مانهاتن . حقاً انها جولة رائعة (ساحقة) فلا تقع العين على منظر مدهش في العالم كهذا المنظر من صنع يد الإنسان . تطلّع واسمع معي الى الدليل الذي يدوي صوته في الميكروفون ويرافق شرحه بالفكاهات. عرفت من هذه الفسحة اشياء عديدة وطريفة عن نيويورك ورأيت ما كنت سمعت أو قرأت عنها : أعظم جسور في العالم ـ هيئة الأمم المتحدة ـ تمثال الحرية ـ الامبايرستايت وعشرات بل مئات ناطحات السحاب غـيرها ـ الشوارع المعلّقة الخ ... الخ ...

الجسور الجبارة :

من الجسور التي مررنا بهـا أو رأيناها جسر (واشنطن) الذي يربط مانهاتن بـِ (نيوجرسي) وفيه طابقان للسير يتسع عرضهما لِ ١٤ سيارة ويمرُّ عليه كل يوم نحو ٢٠٠ ألف سيارة فهو أعظم طريق سيارات في العالم يربط جزر نيويورك بالقارة . بلغت تكاليفه ٢٥٨ مليون دولار . مع ذلك كان صـفقة رابحة فكل سيارة تدفع دولاراً رسم مرور فيجبي مليوناً كل خمسة أيام !

« جسر فيراتزانو ـ VERAZZANO » :

كما اعطى هنري هدسون اسمـه للنهر الذي اكتشف مصبّه هنا ، اطلقوا على هذا الجسر اسم الرحّالة الايطالي (جوفاني دافيراتزانو) الذي اكتشف

ميناء نيويورك سنة ١٥٢٤ . انه ارقُّ جسر معلّق في العالم . يبلغ طوله الاجمالي ٤٨٠٠ متراً ووسطه المعلّق بدون عواميد يبلغ ١٢٨٠ متراً .

جسر بوابة جهنم HELL GATE :

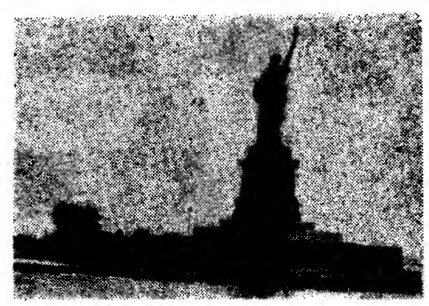
يربط النهر الشرقي بمضيق (لونج ايلاند ساوند – LONG ISLAND SOUND) . دُعي (بوابة جهنم) لتياراته العنيفة ولشواطئه الصخرية الخطيرة . يروى أن سفينة انجليزية كانت تحمل قطعاً من الذهب هي أجور الجنود غرقت في المضيق وجرت محاولات للبحث عن الكنز المفقود ولكن دون جدوى فلقد ابتلعته جهنم وشياطينها ...

جسر الشيطان SPUYTEN DUYVIL :

وهو تحريف لجملة (INSPITE OF DEVIL – بالرغم عن الشيطان) . يربط نهر هدسون بنهر هارليم . ولهذه التسمية أسطورة طريفة . أرسل الحاكم الهولندي مع نافخ بوق رسالة هامة من جزيرة الى أخرى. لم يجد الرسول مركباً ينقله فرمى بنفسه في النهر العاصف وأقسم أن يصل الى الضفة الثانية (رغم أنف الشيطان) . قبل الشيطان التحدّي وأهاج الماء وابتلعه . وإلى الآن في الليالي الظلمة الموحشة العاصفة يُسمع أنين بوق يسبح فوق سطح الماء ! ..

تمثال الحرية :

نزلتُ من الباخرة لزيارة جزيرة الحرية ومتحفها وتمثالها . المتحف هو عن الهجرة والمهاجرين الى أميركا الشمالية لا سيما عن طريق مرفأ نيويورك . تمثال الحرية هو هدية من الشعب الفرنسي الى الشعب الأميركي تخليداً للمبادىء الديموقراطية والحرية في العالم وتخليداً للمساعدة التي قدمتها فرنسا لأميركا في حرب تحريرها ضد بريطانيا . نحته (فردريك أوجست برتولدي) ودشنه الرئيس الأميركي (كليفلاند) في ٢٨ تشرين الأول سنة ١٨٨٦ ومما قاله في



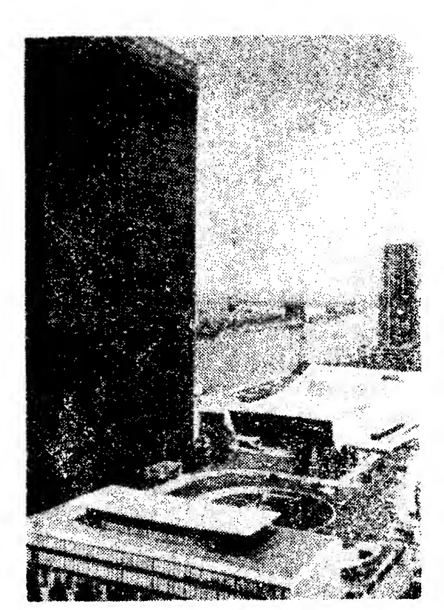
تمثال الحرية



بناية امباير ستيت



نيويورك في بناية امباير ستيت



هيئة الأمم المتحدة

خطاب التدشين : ان الحرية اختارت أن يكون بيتها هنا ولن يُهمَل المذبح الذي اختارته . التمثال هو أول ما يراه القادم من المحيط الأطلسي . ارتفاعه ٤٥,٣ متراً وارتفاع قاعدته ٤٥,٦ متراً، يمسك في يده اليمنى مشعل الحرية وفي اليد اليسرى وثيقة اعلان استقلال أميركا .

ناطحات السحاب :

تسيطر على سماء مانهاتن ناطحات السحاب ، فيها ١٠٢ بناية ارتفاع كل منها يتجاوز مائة متر وفي باقي الأحياء الأربعة ٩ بنايات فقط تتجاوز المائة متر ، وفيها مئات أخرى من ناطحات السحاب دون ١٠٠ متر ؛ من أعلى بناياتها :

امپاير ستايت	:	١٠٢ دوراً = ٣٨١ متراً ومع برجها ٤٤٨ متراً
كريزلر	:	٧٧ دوراً = ٣١٣,٨ متراً
برج ٦٠ وول ستريت	:	٦٦ دوراً = ٢٨٥ متراً
بنك مانهاتن	:	٧١ دوراً = ٢٧٧ متراً
راديو سيتي (روكفلر)	:	٧٠ دوراً = ٢٥٥ متراً
وولورث	:	٦٠ دوراً = ٢٣٧ متراً

(المركز التجاري العالمي) هو بنايتان توأمتان كل واحدة منها ١١٠ أدوار يبلغ ارتفاعها ٤١٠ أمتار وحُفِرَ أساسها ٢٠ متراً تحت قاع البحر وكلّفت ٦٠٠ مليون دولار ؛ فولاذهـا أصلب ثلاث مرات من فولاذ الامپاير ستايت . فيها ٢٠٨ مصاعد . في كل بناية ٢١٨٠٠ شباكاً زجاجها أصلب ثمان مرات من الزجاج العادي ليصمد للعواصف . عشرات البنوك ومئات الشركات تستأجر من الآن حتى عام ٢٠٧٠ ؛ إنها ليست رشيقة جميلة كالامپاير ستايت بل تبدو كعلبتي كبريت .

مرت بنا الباخرة بجانب جامعة كولومبيا ومرت بجانب مجموعة من

١٩ بناية فيها جامعة روكفلر وأكبر مركز للأبحاث الطبية في العالم فاز عدد من علمائه بجوائز (نوبل) .

لفت الدليل نظرنا الى هليكوبتر ينقل المسافرين من مطار كندي الى سطح بناية (بان أميركان) في ٧ دقائق بأجر ٧ دولارات ، الدقيقة بدولار فالوقت ثمين أغنى وأثمن جزيرة بالعالم !

وَدَّعْنَا الميناء بأن شاهدنا مراكب صغيرة عديدة ترتفع منها الى علو شاهق نافورات مياه مرحبة بباخرة داخلة الى الميناء وكانت الساعة السادسة ، فرسا مركب (سركل لاين) على رصيف ٨٣ بعد أن قطع بنا ٥٦ كيلو متراً حول جزيرة مانهاتن .

سكان نيويورك :

في سنة ١٦٤٣ مرّ بنيويورك رسول كندا الأب اليسوعي (ايزاك جوك – ISAAC JOQUES) وكتب ما يلي : (فيها ٤٠٠ او ٥٠٠ ساكن من بلدان شتى يتكلمون ١٨ لغة) . أصبح اليوم الخمسمائة ثمانية ملايين يتكلمون عشرات اللغات ليس فقط لأن جميع اللغات تسمع هنا في (هيئة الأمم المتحدة) بل لأن سكان نيويورك مزيج من جميع بلدان العالم كما يتضح من الإحصائية الآتية :

نمساويون	٣٢٥ر٠٠٠	دنمركيون	١٦ر٠٠٠	كنديون	٧٢ر٠٠٠
انجليز	١٥٠ر٠٠٠	صينيون	٣٠ر٠٠٠	هولنديون	١٧ر٠٠٠
تشيكوسلوفاكيون	٥٨ر٠٠٠	فرنسيون	٤٠ر٠٠٠	مجريون	١٢٥ر٠٠٠
ألمانيون	٤٩٥ر٠٠٠	ايرلنديون	٤٧٥ر٠٠٠	يونانيون	٥٥ر٠٠٠
نرويجيون	٥٣ر٠٠٠	بولنديون	٤١٠ر٠٠٠	ايطاليون	١ر٠٠٠ر٠٠٠
رومانيون	٨٥ر٠٠٠	اسكتلنديون	٦٥ر٠٠٠	روس	٩٥٠ر٠٠٠
اسبانيون	٢٥ر٠٠٠	سويسريون	١٥ر٠٠٠	سويديون	٥٥ر٠٠٠
أتراك	٣٢ر٠٠٠	عرب	١٨ر٠٠٠	هنود	٢٥ر٠٠٠

عدد الزنوج ٨٠٠و٠٠٠ وعدد اليهود ٢و٥٠٠و٠٠٠ .

لهذه الفئات من الشعوب إذاعاتها وصحفها ونواديهاو كنائسها وجمعياتها. من الصحف العربية : السمير ـ مرآة الغرب ـ البيان ـ الهدى ـ الاصلاح ـ السائح ـ كروان . أفـلا يحق للأميركيين أن يقولوا : نيويورك هي أقل (أمركة) من جميع مدن أميركا ؟ إنما بالأسف شوارعها قديمة محفـّرة قذرة مزدحمة فلا يحلو العيش فيها ...

امباير ستيت :

انها ثامن عجائب الدنيا بـل ثانيتها لأن العجائب السبع قد اندثرت كلها ما عدا الاهرام ! انجز بناؤها سنة ١٩٣٥ عند تقاطع جادة ٥ مع شارع ٣٤ في قلب جزيرة مانهاتن . يزورها يومياً ٣٥ الفـاً وثمن تذكرة الزيارة دولار ونصف . عمق أساسها مع دورين تحت الارض ستة عشر متراً وفوقها آلات تكييف الهواء تبدّل هواء المبنى كل ٦ ساعات . تقوم بتنظيفها من الداخل مئتا امرأة . يعمل فيها ١٦,٠٠٠ شخصاً .

فيها ٦٠,٠٠٠ طن من الـصلب . ٩٦ كيلو متر من مواسير المياه . ١٨٦٠ درجة . ٥٦٠٠ كيلو متر طول اسلاك التليفون والتلغراف . ٦٥٠٠ شبـاك تُغسَل مرتين بالشهر. ٧٢ مصعداً سرعتها من ١٨٠ متر الى ٣٦٠ متر بالدقيقة. يبلغ ارتفاعها ٣٨١ متراً ويضاف اليها ٦٧ متراً ارتفاع ايريال التلفزيون .

في الدور ٨٦ على ارتفاع ٣٢٠ متراً وفي الدور ١٠٢ على ارتفاع ٣٨١متراً يوجد مرقب للزوار يشرفون منـه على نيويورك وشاطىء المحيط الاطلسي والولايات المحيطة بنيويورك . صدمتها طائرة ـ إحدى القلاع الطائرة ـ في ٢٧ تموز ١٩٤٥ وسطضباب كثيفعند الدور ٧٩ فتحطمت الطائرة ولم تصب البناية بضرر لأنها من صلب . منذ الغسق الى نصف الليـل تسلـّط الانوار بقوة ١٢٥ مليون شمعة على جزئها الاعلى فيضيء وسط سماء نيويورك .

صعدتُ اليها الساعة العاشرة صباحاً وكان الجو صاحياً . ان المنظر من

اعلاها يفوق أي وصف يخطر على أي بال وخيـال وفي الصحو يمتد البصر إلى ١٢٨ كم . لا تشبع العين من النظر الى الجسور الجبارة والشوارع المعلقة وعشرات الحدائق والجنائن التي تزين كل انحـاء المدينة . تبين باقي البنايات رغم علوها كالأقزام ويكاد النظر يتبين الوف السيارات الزاحفة في الشوارع كالسلاحف . الهواء عليل خفيف منعش والجو ساكن لا تصعد اليـه جلبة المدينة .

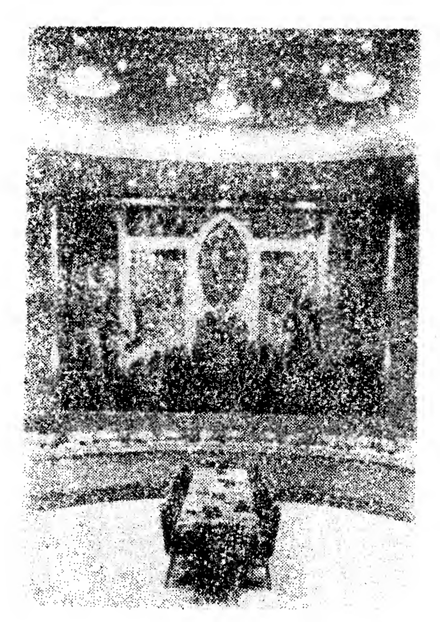
هيئة الامم المتحدة :

بين الجـادة رقم ١ و (النهر الشرقي) على مساحة تبلغ ٧٣ الف متر مربع وتشغل ستة مربعات بـين شارعي ٤٢ و ٤٨ تقوم مباني هيئة الامم المتحدة . اشترى روكفلر [١] ارضها من بلدية نيويورك بمبلغ $\frac{1}{2}$ ٨ مليون دولار وتبرع بها. معظم المجالس واللجان والجمعيات التابعة لهيئة الامم المتحدة تعقد اجتماعاتها فيما عدا اجتماعات قليلة تعقد في قصر عصبة الامم في جنيف وفي محكمة العـدل الدولية في لاهاي . البناية العالية بأدوارها الـ ٣٩ والتي نعرفها من الصور والتلفزيون هي السكرتيرية العامة. ثم مباني الجمعية العمومية والمجالس واللجان والمكتبة . تحت الارض موقف لـ ١٥٠٠ سيارة . اعلام ١٣٢ [٢] دولة تخفق في فناء واسع فخم . توجد مرشدات بخمس لغات وهي اللغات الرسميـه الالزامية في هيئـة الامم المتحدة : الانجليزية والفرنسية والاسبانية والروسية والصينية . اول ما رأينا مجسماً لكل المباني (ماكيت) ثم مصلوباً من رسم (ج . روولت – G. ROUAULT) اهداه قداسـة البابا بولس السادس بمناسبة زيارته في ١٩٧٢/١٠/٤ . ثم دخلنا بهو السكرتيرية العامة وهي مبنية من الومينيوم وزجاج اخضر وازرق عازل للحرارة. تتفتح

---

(١) روكفلر (١٨٣٩ – ١٩٣٧) كان يقبض اجره اليومي ربع دولار وهو صبي يعمل في مزرعة والده ولما شب لم يجد معه مصروفاً ليدخل مدرسة ثانوية !

(٢) ترتيب الاعلام والمقاعد بحسب الاحرف الابجدية : اولها افغانستان وآخرها زامبيا .



قاعة مجلس الأمن



هاراكريشنا ـ هاراكريشنا

على البهو سبع بوابات اهدتها كندا . تحت الدور الارضي زرنا مخزناً لبيع كتب ومنشورات الهيئة ومخازن هدايا وبقربها مطاعم وبارات .

رأيت (باجودا) هدية من اليابان ولوحة عن اللاجئين ومعروضات عن منظمة الطفولة اذ انها تعيَّد في ١٩٧٢ يوبيلها الفضي . ووزّعت علينا شرعة حقوق الولد التي اقرتها الجمعية العمومية وهي من عشرة بنود ينص احدها (التاسع) « عن حق الولد على حمايته من الاهمال » . انما الاهتمام الدولي منصبٌّ الآن على خطر تلوث الأرض وأولوية اتقائه .

طول قاعة الجمعية العمومية ٥٠ متراً وعرضها ٣٥ وارتفاعها ٢٣ . ينحرف اليها النور من قبة بلورية قطرها ١٢٠ سنتيمتراً . مقاعدها الزرقاء من معدن وأدراجها البيضاء من خشب . في افتتاح كل دورة يُسحب بالقرعة اسم البلاد التي تحتل المقعد الاول في الصف الاول وتتبع باقي الوفود بحسب ترتيب الحروف الابجدية الانجليزية . في الصدر ثلاثة مقاعد لرئيس الجمعية العمومية الذي ينتخب في بدء كل دورة وللسكرتير ولنائبه. الجدران مغطاة بشرائح من خشب ملوّنة بلون الذهب . على جانبي القاعة مقاعد للمستشارين وللضيوف الرسميين فوقها صفان من غرف زجاجية للمترجمين والصحفيين والمذيعين والسينمائيين والتلفزيونيين بحيث تتصل هذه القاعة بالعالم أجمع . بجانب كل مقعد خمسة أزرار وسمّاعة للاستماع الى الخطب بإحدى اللغات الخمس الرسمية ويكفي ضبط الزر لسماع ترجمة فورية . يلتزم الزوار بالصمت الكامل وعدم التصفيق .

بين بناية الجمعية العمومية والسكرتيرية العامة تمتد ثلاث قاعات متساوية: الطول ٣٠،٥ متر والعرض ٢١،٦ متر والعلو ٧،٢ متر . يجتمع فيها مجلس الأمن والمجلس الاقتصادي والاجتماعي ومجلس الوصاية . وفي كل واحدة منها عدا مقاعد المجتمعين أركان المترجمين والمذيعين والسينمائيين والصحفيين . تحت هذه القاعات الثلاث توجد ثلاث صالات فسيحة وبجانبها غرف أصغر تجتمع

فيها اللجان المتفرعة من الجمعية العمومية . أشرف على تزيين قاعة مجلس الأمن نرويجيون وتبرعت النرويج بأثاثها . جدرانهـا من مرمر يُزينه سجاد أزرق وذهبي وأبوابها من خشب مطعّم . وزيّن قاعة المجلس الاقتصادي والاجتماعي فنانون من السويد وأثاثها سويدي . وزيّن قاعـة مجلس الوصاية فنانون دنمركيون وأثاثها دنمركي . في الحديقة الانيقة تمثال أهدته روسيا سنة ١٩٥٩: عامـل يلوي السيف ويضربه بالمطرقة أي يريد العالم العمل لا الحرب . لن أتحدث عن أعمال هيئة الأمم المتحدة فليس مجالها هنا إنما أذكر للقراء أسرتها:

أسرة هيئة الأمم المتحدة :

صندوق الاطفال UNICEF

مفوضية اللاجئين UNHCR

وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين UNRWA

برنامج التنمية UNDP

وكالة الطاقة الذرية IAEA

منظمة العمل الدولية ILO

منظمة الزراعة والأغذية FAO

منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة UNESCO

منظمة الصحة العالمية WHO

البنك الدولي للتنمية IBRO

جمعية التنمية الدولية IDA

الهيئة المالية الدولية IFC

صندوق النقد الدولي FUND

منظمة الطيران المدني الدولية ICAO

اتحاد المواصلات الدولي ITU

اتحاد البريد العالمي UPU

منظمة الارصاد الجوية العالمية WMO

المنظمة الاستشارية البحرية الدولية IMCO

●

بين ساحات وأحياء نيويورك :

في جولة بعد الظهر مع « جراي لاين » زرنا وول ستريت وساحة بنك مانهاتن وحي باوري وحي هارليم والمدينة الصينية . أمامي في الاوتوبيس على كتف المقعد أربعة أزرار لأربع لغات . أضع السماعة على أذنيّ وأضغط على زر اللغة التي اختارها .

(وول ستريت) اي شارع الحائط دُعي هكذا لأن الهولنديين المستعمرين الأوائل لمانهاتن كانوا قد بنوا سنة ١٦٥٣ سوراً مرتفعاً يحميهم من غزوات هنود قبيلة (مانهاتا) . والآن هو أعظم شارع مالي في العالم يكاد نور الشمس لا ينفذ إليه لتقارب ابنيته وارتفاعها .

تسيطر على ساحة بنك مانهاتن بناية بنك (تشيس مانهاتن بنك) بأدوارها الواحـــد والسبعين وارتفاعها ٢٧٧ متراً . انه ثاني بنك في العالم بنشاطه وفروعه بعـد (بنك اوف اميركا) الذي مركزه الرئيسي في سان فرنسيسكو . البناء من ألومنيوم وزجاج فقط أُنجز سنة ١٩٦١ وكلّـف ١٣٨ مليون دولاراً . يفاخر البنك بأنه يملك اوسع قبة عقد في العالم واول ساعة ذرّية .

حيّ « باوري » :

هذا افقر حي في مانهاتن يعجّ بالمتسولين والمتشردين والذين لا مأوى لهم ولا عائلات تحتضنهم . رأينا الكثيرين منهم متمددين على الأرصفة وتساءلت لماذا وُضع هذا الحي في البرنامج السياحي !

حيّ هارليم :

اشتق اسمه من نهر هارليم . يبتديء بقرب (سنترال بارك) حيث تنتهي الجادة الشهيرة رقم ٥ . في اقل من كيلو مترين مربعين ينحشر نحو سبعمائة ألف ساكن يفضّلون ان يعيشوا وينامو في العراء في شهور الصيف . هناك ثلاثـــة هارليم : الاسباني والايطالي والزنجي . يعيش في الهارليم الاسباني او بالأحرى هارليم (بورتوريكو) النازحون من بورتوريكو بعد أن أخذتهـــا أميركا من اسبانيا . في هذا الحي معدل الوفيات هو ثلاثة أضعاف معدلها في نيويورك ومعدل الجرائم سبعة أضعاف. وفي نظر الاميركي الاسمر البورتوريكي هو ابن عم الزنجي . الهارليم الايطالي أشبه بأزقة نابولي ومجي (البوكا) في بونس ايرس يسكنه الفقراء من بـين المليون ايطالي الموجودين في نيويورك . الأهم والأشهر هو (هارليم الزنوج) وهو أقل فقراً من السابقين بل فيه بعض المليونيرين والذائعي الصيت من بينهم (دوق النجتون) نابغة الجاز، واعظم فريق كرة سلة في العــالم ، وابطال الملاكمة السود وفيه أيضاً تجار يهود . في ١٩٠١ حدثت أزمة اقتصادية في نيويورك تركت الكثير من مبانيها خالية . اقنع (فيليب مايتون) المالكين بـــأن يؤجروا للزنوج ففعلوا فهجر البيض والسمر والبنيون الحي بأكمـــله وفي سنة ١٩١٠ غادره آخر ساكن أبيض . يحدث مثل هذا في غالب المدن الاميركية فعندما يبدأ السود بالاستئجار في شارع ينزح البيض وتسقط اسعار البيوت والأرض في ذلــك الشارع . يمكن للرجل الابيض ان يتجوّل في حيّ هارليم نهاراً واقصى ما يتعرض له رَمْي الاوساخ عليه وسماع بعض الشتائم المغمغمة . لم يحدث لي شيء من هــذا لأن زيي ّعصمني، اذ يعرف الزنوج ان رجال الدين داخل امريكا وخارجها يعطفون على قضيتهم ويطالبون لهم بحياة افضل ولا يفرّقونهم عن البيض في الكنائس والمدارس وفي كل المعاملات . بعد غروب الشمس لا يدخله رجل ابيض ولا يقبل سائق تاكسي ابيض ان ينقل إليه ركاباً . أكثَرَهُ المكروهين هناك هم

رجال الأمن لأنهم يتعقبون الزنوج بسبب انتشار الجرائم في حي هارليم من عربدة وسرقات وقتل ...

في حيّ هارليم الزواج بين زنجي وبيضاء اكثر منه بين زنجية وابيض . ولكن نادراً ما تستطيع البيضاء أن تتابع الحياة في حي هارليم فتهجره وتهجر زوجها .

المدينة الصينية :

يسكنها نحو ٣٠ ألف صيني . في كل مدينة أمريكية كبيرة ينعزل حي للزنوج وحي للصينيين فربما شكلهم ولونهم وعقليتهم لا تسمح لهم بأن (يتأمركوا) كباقي الوافدين . في هذه المدينة كل شيء صيني ما عدا رجال الأمن احياناً : طراز الابنية – الاشكال البشرية – اللغة العمودية – اكشاك التليفون – انواع الأكل – البارات والمقاهي – محلات البقالة وبيع الاعشاب الطبية – محتويات المخازن من اثاث وثياب وألوان مزركشة – الأفلام والمكتبات والمسارح – البيوت والابواب الخ .

ادخلنا الدليل الى (المعرض الصيني) الذي يبيع من كل شيء تقريباً . تجولنا في اركانه ثم دخلنا غرفة مظلمة حيث عرض علينا فيلم مدة عشرين دقيقة عن كنفوشيوس وعن زراعة الرز . رافقت العرض موسيقى صينية كلها صراخ حاد . رأينا في هذا المخزن تمثالاً للتنين الامبراطوري الصيني وهو حيوان خرافي يفترس كل ما يصادفه ويزرع الويل والدمار حيثما يمر . هنا في عيدهم القومي يطوفون بتمثال (التنين) في الشوارع ليطرد سوء الطالع وليجلب الحظ السعيد !

حيّ برودواي :

حيّ (برودواي) (هو على التحديد) ميدان جريدة التايمز – TIMES SQUARE) أو (ملتقى طرق العالم) أو (الطريق العظيم

الابيض) كما يدعوه الامريكيون الذين يحبون التعظيم والتفخيم . انه شعلة بالانوار الساطعة – ثابتة او متراقصة – تتوهج من كل جهة كأنما في بحر النهار. قرأنا آخر الاخبار بالـكلمات الكهربائية المتحركة . تبهر العيون واجهات السينمات والمسارح فهمنا (مجمّعها) اذ يتجاوز عددها ٣٠ مسرحاً . وهنا مقر (نيويورك تايمز) أكبر جريدة في العالم . فصفحاتها يومياً ٧٢ ويوم الاحـد ١٤٠. ويرتفع في الميدان بناء (الشركة الكيماوية – ALLIED CHEMICAL TOWER) ابيض رشيقاً .

روكفلر سنتر :

(روكفلر سنتر) هو كناية عن ١٧ بناية قائمة على مساحة تبلغ ٦٨٧٨٢ مترا مربعاً وتمتـد بين البنايات اروقة تحت الأرض تأوي عشرات المخـازن الفخمة . في الساحة نافورات مياه ملونة وجنائن ومطعم واركسترا في الهواء الطلق . ملـكة الميدان هي (راديو سيتي) بأدوارها السبعين وفي اسفلها المسرح الشهير (راديو سيتي) . كل هذا ملك وعمل شخص واحد من اغنى اغنياء العالم هو روكفلر . صعدنا الى شرفة الزوار على علو ٢٥٥ مترا تمتعنا مدة ربع ساعة بمشاهدة نيويورك في الليل ، واجمل مايلفت النظر انوار الجسور وناطحات السحاب وملكتها الـ (امباير ستايت) .

المخازن الراقية :

ارقى مخازن في نيورك هو (ساكس – SAXS) ولا اظن ان اي مخزن في العالم يبيع بغلائه . مثلاً (البالطو الرجالي) بـ ٨٥٠ دولار و (الجا كيت) بـ ٥٥٠ دولار وقس على ذلك . اعمل مثلي : تطلـّع ولا تشترِ ولا تحرق محفظتك فيه . واكبر مخزن في نيويورك – بل في العالم كما هو مكتوب عليه – هو (محلات ما يسز – MAYC'S : ١٤ طابقاً فيها كل مايمكن ان يُشترى. اذا تجوّلتَ فيه ٨ ساعات تكون قد شاهدت فقط ثُمن معروضاته . . .

خارج وسط المدن الأمريكية توجد (مجمّعات) تبيع كل شيء وفيهـا

جناح خاص المأكولات . رأيت في احداها اكياس صعتر ـ ويدعونه (اوريجـــانو ـ OREGANO) ـ مستورد من ايطاليا ، وقرون خرّوب ، وجوزاً امريكياً كالبلوط ، وباذنجاناً مجففاً كل خمسة منه بثلاثين سنتاً : يفرغونه من اللب ويملـّحونه ويجفـّفونه ويكبسونه كورق العنب ، وقبل ان يطبخوه ينقعونه ساعات بالماء . الليمون الحامض من بلاستيك بداخله عصير الليمون . ومعلـّبات من مصر ولبنان : قها وادفينا وبودرة الفـــلافل (الطعمية) وقمر الدين فهنا لا ينقصهم شيء .

متحف متروبوليتان :

في نيويورك عشرات المتاحف اخـــترت ان ازور منها اثنين هما متحف التاريخ الطبيعي ومتحف متروبوليتان . متحف متروبوليتان هو عن تاريخ الشعوب وعن فنّ النحت والرسم . في الدور الأرضي غرفة مطالعة ومعرض الأزياء حسب حقب التاريخ ومصغّر جميل لبناء الـ (برثينون ـ PARTHENON) الآثيني .

في الدور الأرضي : قاعات اواني الفخار على ممـــر العصور ، والمرايا والأدوات المعدنية وآلات الموسيقى .

في الدور الأول : الجناح اليوناني والروماني والجناح المصري وجناح بلدان الشرق الأدنى القـديمة ومعرض الأسلحة وفنّ النهضة وفنّ العصور الوسطى ، والفنون الانجليزية والفنون الفرنسية ، وجناح اميركي يحتوي على آثار من بيرو والمـكسيك . هذا عدا مكتبة ومطعم ومخزن للبيع وصالة عرض وقاعة محاضرات .

في الدور الثاني : اوان يونانية ولاتينية وتماثيل من (رودين ـ RODIN) وبعض النحـّاتين الفرنسيين وآثار من الشرق الأقصى الصين واليابان ولا سيما الهند ، وجناح الرسامين والنحـّاتين المعاصرين اوروبيين وامريكيين . كما فيـه الـكثير من (جويا ـ GOYA) و (رمبراندت ـ REMBRANDT) .

بعد ان تجولت في المتحف ثلاث ساعات اشتريت بعض التذكارات وقدموا لي ورقة عضوية المتحف : هل اريد ان اكون عضوا اتمتع بمزايا ونشاطات عـــديدة فيه وادفع سنوياً ١٥ دولارا ؟ اعتذرت لأني عابر سبيل ولكني اعجبت بهذه الطريقة المساهمة في تمويل المتحف . واذكر على سبيل المثال ان لوحة واحدة فيه من رمبراندت (ارسطو يتأمل برأس هوميروس) اشتراها المتحف بمليونين ونصف مليون دولار !

سنترال بارك :

(سنترال بارك) هو اكبر حديقة في نيويورك تبلغ مساحتها ٣٫٣٩٨٫٦٤٠ متر مربع بين الجادّة الخامسة وجادّة (البارك) من الشارع ٥٩ الى شارع ١١٠ . فيها بحيرة صناعية وقنوات وآكام خضراء وجنائن وحديقة حيوان صغيرة ومدرج انزلاق و (اركسترا) في العراء وحلبات مصارعة وملاعب تنس وبيسبول وكرة قدم و (حناطير) للفسحة . اجمل ايامها هي في كانون الاول اذ تـُزيّن لعيد الميلاد .

حديقة الحيوان :

حديقة الحيوان في برونـكس واسعة جدا ، وفيها ٣٠٠٠ عصفور وطائر و ١٢٠٠ من الحيوانات والزواحف . لم يسمح لي الوقت بالتجول فيها كلها فاكتفيت بساعتين سيرًا على الاقدام وركوباً في عربات الحديقة المفتوحة . يركب الامريكيون هنا الفيل أو الجمل أو الحمـــار بعد ان يدفعوا ٢٥ سنتاً تلفت النظر (طريقة العرض) اذ تبقى الحيوانات المفترسة طليقة يفصلها عن الزائرين خندق واسع يابس او مملوء ماءً . هنا ايضاً يمكن ان يصبح المرء عضوا في جمعية حديقة الحيوان مقابل دفع ١٥ دولار سنوياً . ولكن – مع الاسف – انا لا احب الحيوانات وخصوصاً الكلاب والقطط ...

مسمكة كوني ايلاند :

بقرب مدينة الملاهي (جزيرة كوني) زرت لأول مرة مسمكة كبيرة

(اكواريوم) وهي غنية جدا بأنواع الأسماك وسكان البحار ، وتسنّى لي بعدئذ زيارة أمثالها في بوسطن وشيكاجو وسان دييجو وسيدني . . . هنا اغرب حيوانات بحرية هي الحيتان البيض يزن الواحد منها نحو ٢٢٠٠ كيلو ولا لون فيه إلاّ الأبيض .

سهرة في راديو سيتي :

راديو سيتي هي اكبر قاعة مسرح وسينما في العالم تسع ٦٢٠٠ مشاهد يجلسون في صالة واربع شرفات وهي في روكفلر سنتر في بناية راديو سيتي . ليست فقط ملتقى لعلية القوم والمثقفين وذوي الحاسّة الفنية بل ايضاً هي قاعة شعبية . ثمن تذكرة الدخول رخيص و (الجاكيت والياقة) غير الزاميتين ، ويجوز فيها الأكل والشرب ولكن لا يجوز التصوير حتى لا تزعج انوار (الفلاش) الممثلين والموسيقيين وعيون الساهرين .

بدأت الحفلة بعزف على الارغن ثم غار الارغن والعازف كأنما في هوة سحرية ،وصعد من هوة اخرى ٦٢ موسيقياً وتعاقبت (الديكورات) النازلة من سقف المسرح امام خلفية افق ازرق سماوي ، وعندما انتهوا داروا كأنما في دوّامة وتواروا في لحظة واحدة . ثم قدّم ٤٢ ممثلا يحيطون بمغنية زنجية حفلة تخرج جامعي عقبها (الباليه الملكي) من ٧٠ راقصة . ومرة اخرى رأيت استعراضاً رائعاً مستوحى من فولكلور جزر هاواي وكانت المناظر تبدو وكأنها تحت سطح الماء . عقب ذلك ألعاب بهلوانية ، فغناء زنجي وإيطالي ، فبهلوان على دراجة بعجلة واحدة يحمل على كتفيه زميلا . وفي النهاية نمرة (فاتنات النهر) قامت برقصاتها (الروكتز — ROKETTES) وهنّ ٨٠ فتاة من طول واحد وبلبس واحد وعندما يقول الأميركي (راديو سيتي) فهو يعني قبل اي شيء آخر (طقم الروكيتز) . بعد فترة راحة أكل فيها المشاهدون وشربوا في الصالة عُرض فيلم .

ينفق الأميركيون بسخاء على مسارحهم وأفلامهم وصالاتهم ليس للفخفخة والتعالي كما قديتبادر إلي ذهن الأجنبي، بل يصرفون كثيرا ليكسبوا اكثر اذ يعرضون الأجمل والأكمل . لا يمكنني ان أنسى السرعة في تغيير المناظر وتعاقب الانوار المدهشة وحركة الستائر الفخمة التي تجعل اربعة مسارح على مسرح واحد وظهور واختفاء الممثلين كلمح البصر .

بعد هذا العرض يخرج المشاهد ويوالي تذوّق الجمال في ميدان روكفلر فجماله في الليل هادىء انيق ارقى من (ميدان التايمز) .

هاراكريشنا ـ هاراكريشنا :

في الجادّة ٥ امام اكبر مكتبة عامة في نيويورك يتجمع الناس حول فتيان وفتيات بزي الرهبنة البوذية حليقي الرؤوس الا من خصلة طويلة تنبع من اليأفوخ ومخططي الوجوه والأعناق بطلاء ابيض وهم يرقصون على قرع الطبول والصنوج ويقولون هاراكريشنا هاراكريشنا . مثل هذا (الزار) شائع في غالب المدن لا سيما في لوس انجلوس . انهم اتباع طائفة هندية (تعمل ضجة كبيرة) لِتُعرف . كريشنا[1] هو إلههم و (هارا) هي نعمته التي تحب الكل وتجذب الكل . أسسّهم سنة ١٩٤٤ (صاحب القداسة بها كشيفدنتا سوامي برابهوبادا) . يعتقدون بالتقمّص و بِ ٨٫٤٠٠٫٠٠٠ درجة من الحياة ، وبالحياة في كوكب غير الأرض . يقولون انهم يمتنعون عن ممارسة الجنس وعن أكل اللحم وعن المخدرات والقمار . والدعاء المتواصل هاراكريشنا هو طريق الخلاص والاتحـــاد بالله . يستوحون مبادىء البوذية الفلسفية ويمارسون اليوجا .

خارج نيويورك :

لأول مرة تأخر الدليل وزاد تململ الاثنين واربعين سائحاً اذ رأوه رجلاً

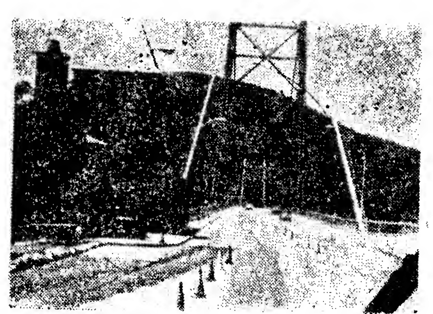
---

(١) انظر صفحة ٦٤٩ عن كريشنا .

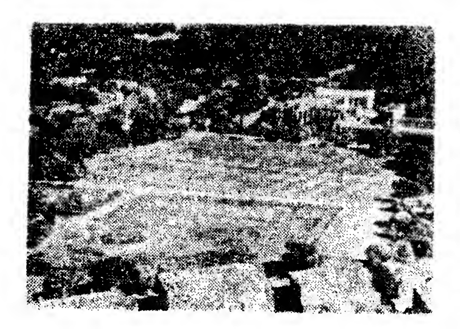
يناهز الخامسة والخمسين ذا وجه متعب معكّر وصوت أجشّ وغليونه في فمه رغم منع التدخين في هذه السيارة . فقلت في نفسي : نهاري هذا لا يبشّر بالخير ! ولكن بعد أن عرّفنا بنفسه وتعرّف علينا انقشعت الغمامة قليلا . تحركنا من (المحطة النهائية ـ TERMINAL) في آخر شارع ٤٢ وقطعنا مانهاتن والدليل يشرح لنا ما نمرّ به ثم خرجنا من نيويورك نحو الجبال . مداخل ومخارج نيويورك ذات تخطيط (متحرك) . رصيف في الوسط واتجاه الدخول الى المدينة في الصباح ذو مسالك لأربع سيارات مع شريط ضيّق للتوقف الاضطراري واتجاه الخروج من المدينة ذو مسلكين فقط . عند المساء تنقل اوتاد الرصيف نحو اليمين فيصبح المخرج اربعة مسالك والمدخل مسلكان .

متعة الطرق والقيادة :

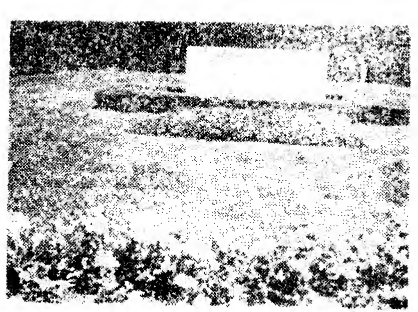
جانبا الطريق مزروعان بالإعلانات التجارية وبالإرشادات للسائقين . السرعة من ٤٠ إلى ٥٠ ميلا أو على الأكثر ٦٥ ميلا والويل لمن لا يتقيّد بهذه الحدود فهنالك لوحة تنبّهه : (السرعة مراقبة بالرادار) فلا تحاول أن تخالف. لا ازال اجيب الى الآن ان اعظم ما انطبع في ذاكرتي من أميركا هي طرقات السيارات فهي حقاً ساحرة ! مـيزة الطرقات السريعة (FREEWAY , EXPRESSWAY) ان الطرق الفرعية لا تقطعها فيمكن الذهاب من نيويورك الى سان فرنسيسكو دون تقاطع ! وهذا لايعني حرية السرعة فبينما في اوروبا السرعة غير مقيدة بحد اقصى على الطرق السريعة فهي لا تزيد في اميركا عن ١٠٥ كم . الذي يخطىء في اتباع الارشادات المعلّقة فوق الطرق وعن يمينها يضيع وقتاً كثيراً للاهتداء . ليست هذه الطرق العظيمة كلها من عمـل الحـكومة – وزارة الأشغال مثلاً – بل بعضها من عمل شركات تتقاضى رسوماً من السائقين . فمن مسافة الى أخرى او على المفارق الرئيسية او على مدخل الجسر توجد بوابات تَقِف او تُبطىء عندها السيارات ويرمي السائق



جسر على نهر هدسون



اكاديمية وست بوينت



قبر روزفلت



اعشاش احلام

الرسم (TOLL) ٢٥ أو ٤٠ أو ٥٠ سنتاً أو دولاراً . واحياناً يجاوبه الصندوق بظهور كلمة (شكرا) ! .

لم استفد من رخصة القيادة الدولية في اميركا لأن التنظيم الدقيق للسير سواء في المدن او خارجها يبين صعباً معقّداً للقادمين الجدد وعندما يلمّون به يرونه معقولا وسهلا .

الحدائق القومية :

قمنا بفسحة في وادي نهر (هدسون) وفي الجبال حولها . كل الاراضي التي قطعناها خضراء جميلة جدّا بأشجارها وأعشابها وتنسيقها كأنها جنينة منزل . فوق مجرى (هدسون) جسور عديدة تربط بين الجبلين عن يمينه ويساره فلا تتعرّج الطريق مع الوادي او السفح الى معبر واحد كما في طرق جبال لبنان .

وقفنا في (بيكسكيل – PEAKSKILL) للاستراحة وهنا ايضاً طالعني الجديد : بدل التنشيف بمنشفة قماش او ورق يضغط على زر في آلة مثبتة بجانب المغسلة فيخرج منها هواء فاتر ينشّف اليدين . ويقول لك الاميركيون ليس هذا مغالاة او (دلعا) بل لتفادي ميكروبات مناشف القماش والورق ! ترى ماذا يعمل هؤلاء الاميركيون عندما يسيحون خارج بلادهم ؟ . . . تجولنا في أكاديمية (وست بوينت – WEST POINT) وهي اكبر اكاديمية عسكرية في اميركا وقد تخرج منها ايزنهاور . عدا الساحات ومباني الاكاديمية توجد كنيستان كاثوليكية وبروتستنتينية للخدمة الروحية للجنود فحتى هنا يوجد تقسّم طائفي . وقفنا امام تمثال جورج واشنطن ممتطياً متن جواد وقال لنا الدليل : اشتهر واشنطن بصدقه فلم تخرج من فمه كذبة واحدة طوال عمره . فأجابه سائح انجليزي : بالطبع لأنه مثل كل الأميركان كان يتكلم من أنفه ! فانفجر الجميع بضحكة لهذا الجواب الذكي اللاذع . تناولنا طعام الغداء في (نزل جبل الدب – BEAR MOUNTAIN INN) على ضفة

بحـــيرة (هسيان – HESSIAN) . على مدخله تمثالا دبّين اسودين وهو قائم في سفح اخضر وامامه موقف لمئات السيارات اذ انه من اماكن الفسحة لا سيا في عطلة نهاية الاسبوع . كان الغداء فيه مشبعاً ولو غير لذيذ . يعترف الأميركيون انهم مقصّرون جـداً عن اوروبا في فنّ الطهي وأ كلهم هو هو : شريحة لحم وسلطة خضار ومعها القهوة باللبن بعد كل وجبة . وشربهم المفضل الويسكي المستخرج من البصـل او الذرة او القمح . ويُغرقون البوظة بالصـــودا . على كل أكل بارد يضعون المايونيز وعلى كل أكل ساخن صلصة دقيق .

في البحيرة قوارب شراعية للفسحة وقوارب بمحركات للسرعة وللانزلاق على الماء . في كل ركن وعلى كل خطوة حيثما تقع العين كل شيء جميـل نظيف جذاب . معظم الأشجار من الارز ومن الفصيلة الصنوبرية . هـذه البقعة هي احدى (الحدائق القومية) المنتشرة في كل انحاء الولايات . من كل عشرين أوروبياً يزورون اميركا تسعة عشر يودون زيارتهـا ثانية وثالثة خصوصاً للاستمتاع بالحدائق القومية وبطرق السيارات .

السنجاب الزارع :

اظرف وألطف ساكن في الغابات هو السنجاب . يحبّه الاميركيون ويحافظون عليه ويلاعبونه ويعتبرونه زارعاً . له بعض الفضل في نموّ الغابات لأنه يدفن الجوز والبلوط والكستناء والبندق وغيرها لتخزينها لأيام البرد والثلج ثم ينساها او يرحل او يموت فتنبت أشجارا جديدة . وقد يخزن منها عشرة آلاف في بقعة واحـدة ! يأكل كل شيء حتى قشر الشجر وبيض الاعشاش واسـلاك الهاتف . ينمو ناباه باستمرار وبمـا انه يقضم بهما يوميًّا فيظل حجمهما عاديا . وهو قويّ السمع قويّ البصر رشيق الحركة . طول ذيله يزيد عن ٢٠سم . يستعمله كمظلة عندما يقفز وكشمسية في المطر وكغطاء في البرد وكدرع في القتال . يولد صغاره ثلاثة او خمسة معاً بدون شـــعر

وبدون بصر . يبقون في العش سبعة اسابيع يرضعون ثم يخرجون في طلب الرزق . وبعد ستة اشهر تهاجر الام وتبني عشـًا آخر من ورق الشجر .

حديقة روزفلت :

بعـــد الغداء أخَذَنَا الدليل الى حديقة (هايدبارك — HIDE PARK) . كانت الحديقة — وفيها برك وزهور وغابات ومروج واسعة — ملكاً للرئيس المقعد روزفلت أُهديت فيا بعد الى الأمة . زرنا ضريحه وقصره والمكتبة ومخزن بيع التذكارات والهدايا . من الرســوم المعروضة في المتحف العائلي رأس روزفلت بشكل أبي الهول لأنه بعد ان انتُخب ثلاث مرات للرئاسة لم يفصح هل يريد انـ يرشـح نفسه للمرة الرابعة فرسموه كأبي الهول بصمته الخالد ! .

في ولايات خضراء :

في اليوم التالي — وكان أحـدًا — قطعنا في سيارة شيفروليه ٤٤٠ كم في ولايات نيوجرسي و كنكتيكيت وبنسلفانيا وكلها خضراءجميلة . توقفنا لزيارة بعض الأقارب والأصدقاء . بعد عبور جسر (واشنطن) دخلنا في نيوجرسي الملقبة بِ (الولاية الحديقة — GARDEN STATE) لأنهـــا بجملتها حدائق متوالية ولا شبر يابس فيها . كم كانت المنازل الملونة جميلة منمنمة بين الاشجار والمروج ! توقفنا في محطة غاز (هكذا يسمون البنزين هنا أما البنزين فاسمه كيروسين) . واخذنا خرائط الولايات الثلاث التى سنمر بها لأن الطرق التي سنسلكها توجد كلها — مهما صغرت — في الخريطة بأرقامها وبجميع فروعها. كانت مهمتي — عدا التمتع بالمشاهد حول الطريق — أن ارشد قبل الوصول الى المفارق .

شعب متديّن :

رأيت أمام الكنائس مئات السيارات في مواقفها الرحبة حول الكنيسة .

الاميركيون هم مؤمنون متعبدون والحرية الدينية هي من أقدس حرياتهم في الدستور وفي حياتهم العامـة والخاصة . في مدنهم مئات الكنائس اغنياؤهم هم اسخياء جداً لبيوت الله ولأعمال الخير ليس فقط لأنهم كرماء بل لأن القانون يشجعهم على ذلك ولو بنوع غير مباشر إذ ان ما يتبرعون به يُخصم من الضرائب . بينما في بلدان اميركا اللاتينية الكاثوليكية لكل ثمـانية أو عشرة آلاف نفس كاهن واحـد يخدمهم فهنا لكل ٨٥٠ نفس كاهن . في نيويورك يوم الاحد لا تفتح البارات قبل الساعة الواحدة بعد الظهر. بقرب بعض الكنائس « القاعـة الجنائزية ـ FUNERAL HOME » التي يحفظون فيها جثمان المتوفى نصف اسبوع قبل المأتم والدفن وسيارات الكاديلاك السوداء الطويلة التي يضعون فيها النعش . بعـد الوفاة يستلم الحانوتي الجثة ويسحب منها كل ما هو سائل من دم وماء وغير ذلك ويدخل فيها سائل الـ«فورمالين» فيورّد الجسم ويعطيه لوناً نضرا . توجد في اميركا « جمعية تأمين الجثث » فيدفع فيها بعض كبـار الاغنياء مئات الوف الدولارات لحفظ جثمانهم في ثلاجة الى نحو مائة سنة ! لماذا ؟ لأنهم يزعمون ان العِلم قـد ينجح يوماً في اعادة الحياة الى الاجسام المائتة فتكون اجسامهم جاهزة مستعدة ! اموال كثيرة يحارون كيف ينفقونها !

في الحديث مع صديقي الذي هو هنـا منـذ اربع سنوات رأيت انني معذور إذا ما شعرت بدوار في الايام الاربعة الاولى فهو « دائخ » حتى الآن مما يراه كل يوم !

حديقة ايزنهاور :

بجوار منزل اصدقائي الذين اضافوني في « لونج ايلاند » بنيويورك تمتد حديقة ايزنهاور واسعة جداً وجميلة جداً . فيها بحيرات ونافورات وملعب (كريكيت) ومسرح انزلاق وغابات وجنائن ومروج ينعم المرء بالسير أو

بالاسترخاء عليها وألعاب رياضية عديدة وطاولات ومقاعد حول مشاوي اللحمة (باربيكيو) . انها البرية الهادئة يهرب إليها المتعب من صخب وعناء وقيود المدينة . لا يرى إلا الخضرة والمـــاء واللاعبين ولا يسمع إلا زقزقة العصافير وغناء الهواء بين الأغصان ويشعر ان الحياة تسير ببطء هنيء . ترى أليس البشر هم الذين فرضوا على ذواتهم نمط حياة قاس مرهق ؟ مسكين ابن آدم فهو مضطر الى ان يبدأ التعب والعمل منذ سنته الثالثة اذ يصحو با كرا ويتأبط كتبه ودفاتره للذهاب الى المدرسة ولا يفتأ يشتغل ويشتغل ويتعب ويتعب طوال حياته .



مقبرة سيارات

٢٤

فيلادلفيا

مهد الأمة الاميركية :

في مدينة فيلادلفيا – اكبر مدن ولاية بنسلفانيا – وُلدت الأمة الاميركية. تنقلت بين قصر البلدية وقاعات اعلان الاستقلال والدستور وأول كونجرس وأول محكمة عليا وأول حكومة الخ .

قصر البلدية :

انه أعلى بناية في فيلادلفيا وأكبر من كابيتول واشنطن بُني من رخام أبيض وعلى طراز هندسة النهضة الفرنسي إبقاء لذكرى فرنسا التي ساعدت هنا الاميركان في حرب الاستقلال. بدأ البناء سنة ١٨٧٢ وانتهى سنة ١٩٠٢ وكلّف ٢٤ مليون دولاراً وهو مزيّن بالأقواس والتماثيل والنقوش وفي قمته على ارتفاع ١٦٥ متراً ينتصب تمثال « وليم پين – PENN » من نحاس أصفر وزنه ٢٦ طناً وعلوّه ١١ متراً . أجمل ما رأيت فيه قاعة اجتماعات مجلس البلدية والقاعة التي يستقبل فيها عمدة فيلادلفيا . أما باقي مئات الغرف فيه فيشغلها الموظفون . من قمته تنفتح آفاق فيلادلفيا بأجمعها فتبين مدينة

نهرين وجسور عديدة وتغلب عليها مسحة القدم مـــا عدا وسط المدينة (پين سنتر — PENN CENTER) فهو حديث وشاهق الابنية .

قاعة الاستقلال :

رأيت فيها صوراً فوتوغرافية تباع بربع دولار لمخطوط اعلان الاستقلال الذي وقّع وأعلن في هـذه القاعة يوم ٤ / ٧ / ١٧٧٦ . في ٥ / ٩ / ١٧٧٤ اجتمع فيها أول (كونجرس) وأرسل الى ملك بريطانيا احتجاجاً على طغيان المستعمرين الانجليز والتماساً لإعادة حقوق المواطنين ومساواتهم بالانجليز . وإذ لم يلقَ أذناً صاغية دعـا الى مقاطعة البضائع الانجليزية . ثم قرّر الكونجرس الثاني الذي انعقد في ولاية (ماساشوسيتس) المقاومة المسلّحة مطالبـاً بالاستقلال . دامت حرب الاستقلال ثمانية أعوام وكان الكونجرس يـدير الحرب وينظم الحكم من قاعة الاستقلال هذه . وفي ٢٥ / ٥ / ١٧٨٧ اجتمع فيهـا مندوبو ١٣ ولاية وصاغوا نص الدستور وأعلنوه في ١٧ / ٩ / ١٧٨٧ وبقي الكونجرس ينعقد فيها الى سنة ١٨٠٠ حين انتقل الى واشنطن .

جرس الحرية :

في سنة ١٧٥١ طلب مجلس بنسلفانيا ان يصنع في بريطانيا جرس لمقر الحكومة وذلك بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على (شرعة الامتيازات) او الدستور الديموقراطي الذي كان أعلنه (وليم پين) . وظل (جرس الحرية) يقرع في المناسبات الرسمية حتى سنة ١٨٣٥ إذ حدث فيـه شرخ فعرض هنا بجوار قاعة الاستقلال . إنه رمز الحرية للشعب الاميركي يتغنى به الشعراء والخطباء والسياسيون وتصنع منه هدايا وتذكارات شتى .

حديقة الاستقلال :

أنشأهـا الكونجرس في ١٩٤٨ للحفاظ على الأبنية التاريخية التي رافقت حرب الاستقلال ومنها: أول بنك، وبيت بنيامين فرنكلين رئيس بنسلفانيا،

ومبنى البلدية القديم ، وقاعة أول محكمة عليا ، وقاعة النجارين القديمة حيث انعقد أول كونجرس وقاعـــة النجارين الجديدة التي كانت أول مقر لوزارة الحربية الخ .. لم يكن ما يثير اهتمامي في كل هذا ولكن عندما كنت استمع المرشد السياحي وهو يتحدث عن تلـك الأمور وأرى الاميركيين كيف يتابعونه كنت أشعر ان (شيئاً عظيماً) يكمن هنا . ولـكي أريح رأسي من كل هـــذه المعلومات والمشاهد التاريخية طفت في حديقة (فيرماونت — FAIR MOUNT) أتمتع برؤية زهورهـــا وأشجارها ورياضاتها من تنس وسباحة وتجذيف و (باولينج) وركوب خيـــل وصيد سمك وجولف وكريكت .. زرت أيضاً (متحف الشمع) الذي يحتوي اكثر من مائـــة تمثال بالحجم الطبيعي عن تاريخ اميركا من واشنطن الى كندي . والجديد فيه أنه عندما يصل الزائر أمام كل مشهد يستمتع بعرض (صوت وضوء) عنه

ڤالي فورج :

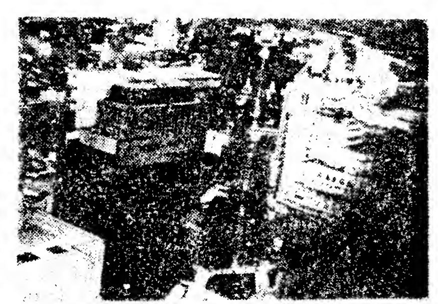
يقولون عنه انـه تلال وأودية حربية وتاريخية ولكني رأيت أنـه مكان فسحة وهروب من زحام فيلادلفيا. فيه قوس نصر لذكرى واشنطن وجنوده وتماثيل لمشاهير ابطاله والكنيسة التي كانوا يصلون فيها والبيت الذي كان مقر هيئة أركان حرب واشنطن زاره فيه حليفه القائـــد الفرنسي (لافاييت) وأكواخ خشبية كان ينحشر في الواحد منها تسعة جنود ينامون على ثلاثـة أدوار من خشب ومتحف عن الآثار التي تركت في (ڤالي فورج) بعد الحرب. هنا أشتى واشنطن مع ١١ ألف جندي مـــات منهم ٣ آلاف من البرد والأمراض قبـــل أن يخوضوا المعركة حتى كتب واشنطن للكونجرس في فيلادلفيا : (ان اصدار أوامر من بيت دافىء هنيء أسهل من الإشتاء في تلال يغمرها الثلج وفي اكواخ وبدون ثياب وأغطية كافية. انني أشفق على جنودي العراة والمرضى وأعجز عن تخفيف آلامهم) . لكنها ضريبة التحرر والنصر



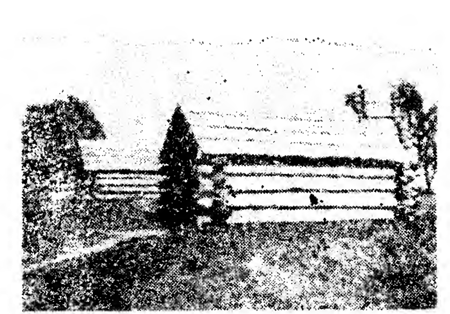
قصر البلدية في فيلادلفيا



جرس الحرية



فيلادلفيا



كوخ جنود واشنطن

فهنا كانت نقطة تحول في حياة الأمـــة الجديدة إذ انتصر واشنطن على الانجليز . من برج مراقبة حيث يمتد النظر الى بعد ٨٠ كم شرح لنـا الدليل سير تلك المعركة .

جنائن لونجوود :

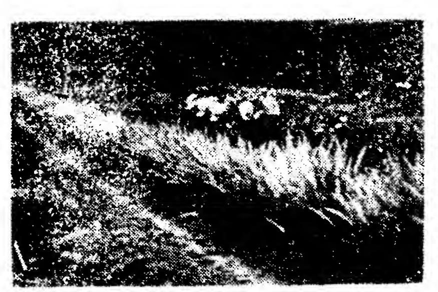
على بعـــد ساعة من فيلادلفيا ، في (كينيت سكواير – KENNETT SQUARE) بولاية بنسلفانيا ، توجد أوسع وأجمـل جنائن في اميركا وهي جنائن (لونجوود – LONGWOOD) تتجاوز مساحتها ٤ مـلايين متر مربـع . ليس من الممكن وصفها بالتفصيل فهي مجموعة من غابات وبحيرات ومروج ونافورات تنبت فيها زهور طوال السنة في بيوت زجاج مقفلة لحفظ الحرارة وتنبت في الهواء الطلق الزهور الموسمية حسب الأشهر . وبجانب كل زهرة وشجرة اسمها العلمي اللاتيني واسمها الانجليزي . ترعاها وتصرف عليها شركة (ديبون – DU PONT) منذ ١٩٠٦ حـــين اشتراها بيير ديبون وأراد أن تكون أشبه بملكية عامة يستمتع بهـا الزائرون . شركة ديبون هي اكبر منتج للكيماويات وللبلاستيك بلغت مبيعاتها في ١٩٧١ ٢ مليار دولار. إن هذا الإنفاق عمل إنساني وخيري كالإحسان لأنه تبرع لتذوّق الجمال .

مقاطعة « الداتش » الفولكلورية :

تـدعى هكذا مجموعة من القرى في بنسلفانيا – أهمها (لانكستر) – سكانها من أصل سويسري والماني وهولندي احتفظوا بعقائد وتقاليد وطرق معيشة الأجداد . أذاع (وليم پين) نداءً للفئات المضطهدة في اوروبا كي تأتي الى بنسلفانيا وتعيش بحـرية دينية واجتماعية فاستجاب بعضها وهاجروا الى هنـا منذ نحو ٢٥٠ سنة . رأيت الرجالَ منهم بقبعة عالية وذقون وقمصان مقفولة الى العنق . والنساء بفساتين طويـلة (الى الأرض) والرأس مغطّـى فـلا تبين منه شعرة واحدة . يفضّلون التنقل بعربات تجرها الخيل وبعضهم



جنائن لونجوود



زيّ الدانش



الآميش يصلون

لا يدخلون الكهرباء الى بيوتهم لأنها نور من الانسان لا من الله .

م الاميركيون (الشعب البسيط) من بساطة زيهم وهم يـدعون
ب (الشعب المزوق) لأنهم يلبسون ليس لستر الجسم بـل لتزيينه .
ب جماعات فيهم هم (المانونيت والآميش والدنكارز) .

أسس (المانونيت) في سويسرا كاهن كاثوليكي اسمه (مانو – MENNO) خرج على الكنيسة الكاثوليكية في ١٥٣٦ ولم ينضم الى البروتسطنت اللوثريين لأنهم يعمدون الصغار وكان مبدأه : (لا تعمد طفلاً لأنه لا يدرك ما تعمل له عمد فقط من يؤمن). ليس عندهم كنائس بالمعنى المعروف بل (بيوت اجتماع) ولا يجوز للمرأة أن تكون حاسرة الرأس ويجب غسل الأقـدام قبل تناول الخبز المقدس .

أسس (الآميش) سنة ١٦٩٣ قسّ كان من طائفة (المانونيت) وخرج عليها لأنها لم تحافظ على تزمت (مانو) وأخذت تعامل برفق (المحرومين) مكتفية بأن تمنع عليهم تناول الخبز المقدس . أما أتباع طائفة (الآميش) فإلى الآن يعاملون المحروم كمنبوذ : لا يتحدثون معـه ولا يسلمون عليه ولا يبيعون منه او له ولا يؤاكلونه . وهم لا يؤمنون بيوتهم ضد الحريق إذ يرون في ذلك تحدياً لإرادة الله ولكن إذا احترق بيت يسرع منهم مائتان واكثر (للمساعدة الجانبية الأخوية) في بناء بيت جديد .

كذلك (الدانكارز) – أي المغطّسون – أسسهم سنة ١٧٠٨ رجل دين الماني خرج على (المانونيت) لأنهم يعمدون برش الماء وهو يعمد بالتغطيس . كان جد الرئيس ايزنهاور قساً في هذه الطائفة التي تعد الآن فقط ١٢ الفاً .

يعيش اتباع هـذه الجماعات في (مقاطعة الداتش) حياة هنيئة هادئة ويرغبون من الاميركان شيئاً واحداً : أن يدعوهم وشأنهم. ويرغب الاميركان

منهم أن يتابعوا هـذه الحياة البدائية ويبقوا طوائف (فولكلورية) تزين الجديـد بالقديم وتجذب السياح ليشاهدوا الحيـاة البسيطة فيسر الكبار – وبالأكثر الصغار – برؤيتهم . يربون في البيوت المـاعز والغنم والبط والخنازير والأرانب والدجـاج والبقر والخيل كما كان يفعل أجدادهم منذ ٢٥٠ سنة .

اتلانتيك سيتي :

تبعد هذه المدينة نحو ثلاث ساعات بالسيارة عن فيلادلفيا . قبل الوصول اليها مررنا بمدينة (سميثفيل) التي احتفظت بلونهـا الارلندي في هندسة مبانيها وفي عادات سكانها وفي مبيعاتها وفي خط اعلانات متاجرها وفنادقها. انها تعتبر (مدينة تاريخية) فهي من أواخر القرن الثامن عشر .. الكم تندرنا على الاميركيين (المهووسين بالانتيكات) فهم معقدون لأنه ليس لهم تاريخ عريق !

(اتلانتيك سيتي) هي أشهر مصيف على الشواطىء الشرقية بعد (ميامي) وفيها اعلانات كثيرة باللغة الفرنسية لأن ألوف الكنديين من ولاية (كيبك) يقضون عطلتهم الصيفية فيها . سرنا نحو ساعتين في شارع اسمه (بوردووك) جزء كبير منه خشبي . من جهـة شواطىء الاستحمام ، ومن الثانية الملاهي والمتاجر والفنادق ، ومنها الفندق الذي تنتخب فيه كل صيف ملكة جمـال اميركا . لا بـد لكل مصطاف أن يذرعه يومياً وأن يقضي بعض الوقت في ملاهيه المتنوعة فهي تشبه (ديزنيلاند) و (راديو سيتي) وقليلاً (لاس فيجاس) إنما بألعاب الحظ الشعبية .

معجزة جورج حامد اللبناني :

أشهر ملهى يدعى (ستيل بير – STEEL PIER) . يدفع المرء ثلاثـة دولارات ويمكنه أن يقضي فيه ١٤ ساعة فيحضر فيلمين ومسرحية واستعراضاً

راقصاً وترفيهيّاً وأغاني ويلعب شتى الألعاب ويرى مغامراً على ظهر حصان وهما يقفزان من علو شاهق ويغطسان في الماء . وعندما يخرج منه تعباً يجلس على كرسي كهربائي يسحب التعب من القدمين .. بقي ان تعرف ان مؤسس (ستيل بير) هو لبناني اسمه جورج حامد وقصة حياتـه معلقة على مدخل الملهى . تيتم في لبنان وهو طفل . كان عمره ست سنوات فقط حين التحق ب (سيرك بافـــالو) الاميركي بأجر يومي قدره ٢٥ سنتاً . وصل بمهارته وكفاحه الى انشاء هذا الملهى وعندما توفي خلفه ابنه .

●

٢٥

واشنطن

لبناني واردني :

ابرزت جواز سفري لموظف الاستقبال في فندق « انا بوليس » بواشنطن فابتسم وقال لي باللغة العربية اهلاً وسهلاً انت لبنـاني ؟ وكان هو اردنياً . تبددت للحال مخاوفي من النزول في فندق اميركي للمرة الاولى فكم من جديد مر عليّ في العالم الجديد ! اعطاني غرفة تكلف ٩ دولارات للنوم فقط وفيها تلفزيون وتليفون وتكييف هواء لأن واشنطن حارّة في الصيف وتقرأ درجة الحرارة في الشوارع ٩٨ درجة فهرنهايت أي ٣٧ درجة مئوية . وسألته عن عن أفضل طريقة لزيارة واشنطن فأجابني : مع شركة « جراي لاين » التي تنظم كل يوم ثلاث رحلات قبل الظهر وبعـد الظهر وفي المساء وتأخذك من هذا الفندق .

تصميم واشنطن :

كانت جولتي استطلاعية غطت العاصمـة كلها . ذكرتني صورتها العامة بروما وآثينا وباريس إذ أن الابنية العـامة والاضرحة والبيوت المنخفضة

ذات الادوار القليلة كلها على طراز ليس فقط اوروبياً بل أيضاً يوناني وروماني. ولكن في واشنطن اتساع ونظام وفخامة تفوق العواصم القديمة رغم أن ٦٣٪ من سكانها زنوج .

رسم تصميم واشنطن المهندس « بيير شـارل لانفان – PIERRE CHARLES L'ENFANT » . اختار ربوة « الكابيتول » نقطة مركزية تتفرع منها الشوارع بشكل عجلة (دولاب) تكثر فيها والزهور . بدّلوا اسم « كولومبيا » بواشنطن رغم احتجاج جورج واشنطن « العظيم والمتواضع » كما حفظ عنه التاريخ . بوشر بالعمل في سنة ١٧٩١ وانتقلت اليها الحكومة في سنة ١٨٠٠ وكان واشنطن قد توفي منذ عام واحد . التوجه في واشنطن سهل جداً فقليل من الجادّات الرئيسية اطلقت عليها اسماء الولايات ولكن معظم الشوارع تعرف بالحروف الابجـدية والارقام . عنوان فندقي مثلاً هو شارع « هـ – ١١١١ » .

ضريح لنكولن :

كان الموقف الاول عند ضريح « لنكولن » في قلب العاصمة . تمتد امامه بركة مستطيلة وحديقة من الزهور وشجر الكرز . الى شماليها «الكابيتول» والى جنوبيها « مسلّة واشنطن » وازاءها ضريح الرئيس « جفرسون » .

اقيم الضريح لتخليد قيم الحرية والاستقامة والكفاح التي امتاز بها ابراهام لنكولن . في هندسته مزيج من المعـابد والقصور والقبور . في ٢٩ اذار ١٨٦٧ أقرّ الكونجرس إنشاء لجنة لتشييد الضريح ولكن لم ينجز إلا بعـد الحرب العـالمية الأولى ودُشن في ٣٠ ايار ١٩٢٢ . الضريح من رخام أبيض ناصع وهندسته منقولة عن معبد « بارثينون – PARTHENON » في آثينا. اعمـدته الخارجية من الطراز « الدوريكي – DORIC » والداخلية من الطراز « الايونيكي – IONIC » وارتفاعها ١٣ مـتراً . نقشت على اعمدته

الستة والثلاثين أسماء الولايات المتحدة التي كان عددها ٣٦ حين وفاة لنكولن، وعلى الجدران اسمـاء الـ ٤٨ ولاية حين تدشين الضريح . كتبت على الحيطان نصوص من خطابين للنكولن . الرسوم الرمزية تمثل ملاك الحقيقة يحرّر عبداً والعدالة والخلود والإخـاء والمحبة واتحـــاد الشمال والجنوب . نحت التمثال الاخوان الايطاليان (بتشيريلي – PICCIRILLI) . ارتفاعه ٥٫٧٠ متراً ولنكولن جالس على كرسي الرئاســـة يوحي بالاستغراق والتأمل والتأهب والعزيمة .

قصة ذقن لنكولن .

وجه لنكولن يحمل اللحية التي نعرفه بها والتي أصبحت علامته المميّزة مع انه أرخاها فقط ٤ سنوات في آخر حياته . في ١٥ تشرين الاول ١٨٦٠ كتبت اليه طفلة عمرها ١١ سنة ما يلي : (وجهك ناحل جداً فما رأيك لو ملأت فراغه بذقن ؟ أظن انهـــا ستكسب لك اصواتاً أكثر في الانتخابات وحينئذ سأقنع اقاربي أن يعطوك اصواتهم ...) تساءل امينا السر هـــل يوصلان هذه الرسالة الى لنكولن وفيما همـــا يتجادلان دخل لنكولن وعرف فابتسم وتطلع الى المرآة وقال (الحق بيدها) واجاب بالايجاب على الرسالة. في ١٦ شباط ١٨٦١ مرّ قطاره الرئاسي في بـــلدة الطفلة – واسم البـلدة (وستفيلد – WESTFIELD) في ولاية نيويورك – ووقف في المحطـة وطلب أن يرى تلك الطفلة فقدمت اليه فعانقها و (شوّك) وجهها الناعم بشعر لحيته. والى الآن يوجد بين مخلفات لنكولن رسالة تبدأ بهذه الكلمات: (انني بنت صغيرة عمري ١١ سنة ...) .

ضريح جفرسون :

من شرفة ضريح لنكولن تبين قبة بيضاء جميلة : انه ضريح (جفرسون) الرئيس الثـــالث للولايات المتحدة والفيلسوف والمهندس والفنـان والمخترع

والموسيقي والزارع والسياسي ... الانطباع الذي يبقى في النفس بعد زيارة ضريحه لا يقل عن تأثير ضريح لنكولن ولو أنه من نوع آخر .

(اني أقسمت على مذبح الله عداوة أبدية لأي نوع كان من الاستبداد) . كلمات جفرسون هذه منقوشة على ضريحه . ان له الفضل الأكبر على الروح التي انطبعت بهـا السياسة والقوانين والمعاملات الاميركية . أمر أن يكتب على ضريحه هذا النص : (هنـا يستريح توماس جفرسون مؤلف اعلان الاستقلال الاميركي ودستور فرجينيا للحرية الدينية وأبو جامعة فرجينيا). ولم يكتب الباقي : حاكم فرجينيا وسفير باريس ووزير الخـارجية ورئيس الجمهورية . لماذا ؟ لقد شرح ذلك لابنته : (ما لم اكتبه للوحة ضريحي هو ما فعـله لي الشعب . وما كتبته هو ما فعلته أنا للشعب) . وأراد الشعب أن يخلّـد معاني الحرية والديمقراطية والنزاهة التي عاش لأجلها في هذا الضريح الذي هو من معالم واشنطن الكبرى . كان في حيـاته معجباً بقبة البانتيون الروماني فوضعوا مثلها فوق تمثاله وهو الذي أثّر على المهندسين ليُدخلوا في اميركا الطراز الكلاسيكي .

على مدخل الضريح نقوش تمثله وهو يتلو على لجنـة الكونجرس إعلان الاستقلال . وعلى الجدران اربع لوحات تتضمن نصوصاً منه عن الاستقلال والحرية المادية والروحية وإلغـاء الرق وضرورة تطور القوانين في البـلاد الديمقراطية لتجاري تقدمها وتتلاءم مع الاجيال القادمة . تحت القبـة في وسط القاعـة الرئيسية ينتصب تمثال جفرسون المرتفع ٥٫٧٠ مترا . نحته من البرونز الفنان « رودلف ايفانز – EVANS » ووضعه على قاعـدة من « جرانيت » اسود . للضريح اربعة مداخـل تزينها الاعمدة . يقع التمثال وسط حقل من ٦٠٠ شجرة كرز مزروعة حول بركة «تيدال – TIDAL ». يحب الواشنطيون هـذه الاشجار ويقيمون مهرجاناً شعبياً في اوائل نيسان حين تزهر . انها هدية من مدينة طوكيو الى مدينة واشنطن .

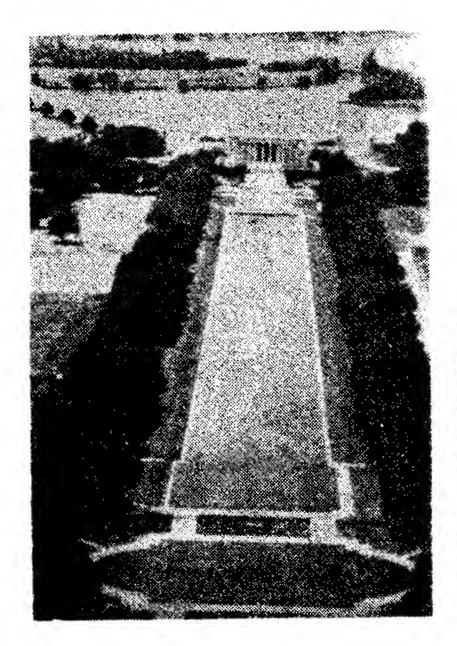
ذكرى جفرسون حية مخاطة بهالة من التقدير حتى ان « جون كندي » قال مرة وهو يستقبل اساطين العلم والفن والثقافة : « لا أظن ان هــــذا القدر من المواهب والمعارف التقت في البيت الابيض إلا عندما كان الرئيس جفرسون يتناول العشاء وحده ... »

مسلّة جورج واشنطون :

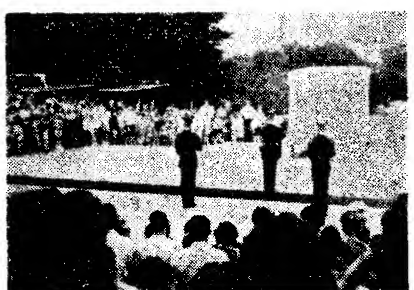
عامود رخــامي ابيض علوّه ١٦٨،٧٢ مترا ووزنه ٩٠٨٥٤ طناً يرتفع في سماء واشنطن بين الأعلام واشجار الكرز لتخليد ذكرى (أبي الولايات المتحدة الاميركية) . وقفت في الطابور سـاعة وربع الساعة حتى وصلت الى باب المصعد والانتظار أفضل من ارتقـاء ٨٩٨ درجة الى رأس المسلّة . في تجويف المسلّة الداخلي حجارة ونقوش أثرية قدّمتها بلدان ومدن وشركات وأفراد من مختلف انحاء العالم اذكر منها قرطاجة والبرازيل واليابان واليونان وتركيا ... كما قدّمت كل ولاية اميركية حجرا تذكارياً . بلغت التكاليف ١،١٨٧،٧١٠ دولارات و ٣١ سنت ! الاميركان يحبون الدقة وأنا كذلك! من قمة المسلـّة يحتوي البصر جمـال واشنطن فهي حقاً مدينة ساحرة بمبانيها البيضاء الفخمة وشوارعها المستقيمة العريضة وغاباتها وحدائقها ومياهها فالمرء فيها هو في الحضر وفي البرية معاً .

مدافن أرلنجتون :

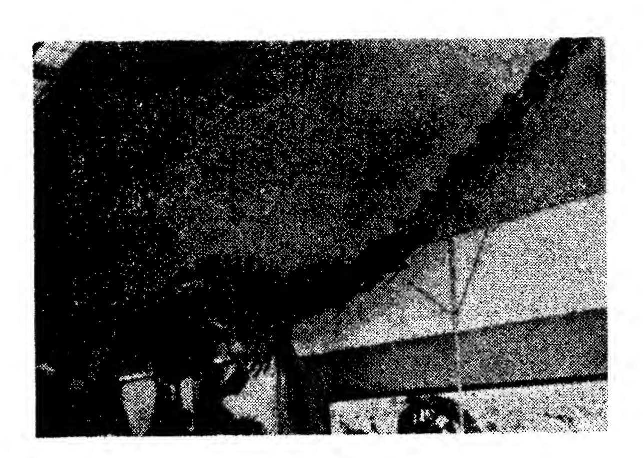
ارلنجتون رابية قليلة الارتفاع تشرف على العاصمة شجراء خضراء زرعت فيها آلاف اللوحات البيضاء تحمل اسماء وأعمار الجنود الاميركيين المدفونين تحتها. انها غابة خاشعة مؤثرة للموت فيها جلاله ورهبته ولكن بدون حزن. كل ساعة تجري مراسيم حفلة استبدال الحرس أمام ضريح الجندي المجهول . الحرس القادم يخطو خطوات عسكرية جيئة وذهاباً ويرفع البندقية ويخفضها مرارا ويلقي التحية على الحرس الذاهب . اشتركتُ مع الالوف في التطواف حول القبر المؤقت لـ (جون كندي) .



من قمة مسلة واشنطن



ضريح جفرسون



مدافن ارلنجتون

امام قبر كندي :

هنا تحت بساط من العشب تسوّره الاخشاب وتحت الشعلة الدائمة بين قبعات الجندي والضابط والبحّار يستريح مَنْ لا يزال ذكره حياً في ملايين القلوب . لا تمر دقيقة دون أن تذرف دموع وترتفع صلوات حول هذا القبر الذي يحتوي جثمان (أحب) رئيس اميركي . وأنا أيضاً جثوت وصليت وذرفت دمعة بل دمعات احملها في نفسي منذ مصرع كندي . حدّقت طويلاً الى هذه الشعلة فهي رمز لروح (كندي) المشتعلة التي لن تخبو ولن تموت . قلّما تهزني الاحداث ولكن مصرع كندي أثر جدا في حياتي لأسباب أعجز أنا عن سبرها وتحديدها . اجتمع له الشباب والجمال والغنى والعظمة والنشاط والثقافة والفصاحة والحرية والجاذبية فعبده القريب والبعيد الأميركي والأجنبي . كل هذا مر بذاكرتي وأنا أحدّق بالشعلة واستعيد آخر صورة له وهو ينزل من الطائرة في (دالاّس ـ DALLAS) ثم وهو يهوي في سيارته وينقل على المحفة . حتى بعد أن تتوارى العيون التي اعجبت به سيُخلّد ذكره هنا مع الرؤساء واشنطن ولنكولن وجفرسون .

غزو الاعلانات :

مساءً فتحت في غرفتي جهاز التلفزيون الملوّن تغذيه محطات عديدة وبرامج متنوعة وخصوصاً الاعلانات . اميركا هي بلاد طرق السيارات وبلاد الاعلانات يملأون منها التلفزيون والراديو والصحف والمجلات والجدران وجوانب الطرق فتغزو حياة الفرد حيثما كان وتضطره الى فتح حافظة نقوده شاء أم أبى . لقد صدق القول (الحاجة ام الاختراع) فمجتمع الاستهلاك الاميركي يعيش في اغراء اعلاني لا ينقطع ويعرض اختراعات ابوها العلم وأمها الرفاهية .

البيت الابيض :

اسمه على لونه . كل بنايات واشنطن الحكومية هي بيضاء فلِمَ لا يكون

كذلك البيت الأول للمواطن الأول ؟ سكن فيـــه كل الرؤساء الاميركيين ما عدا الرئيس الأول جورج واشنطن . دشن مع العاصمة وأحرقه البريطانيون في حرب سنة ١٨١٤ .

هندسته الخارجيـة من طراز عصر النهضة . خلال الحرب العالمية الثانية أضـاف تحته الرئيس روزفلت مخبأ جدرانه من اسمنت بكثافة ثلاثة أمتار وأبوابه مزدوجة من صلب وفيـــه تلفزيون وراديو وتكييف هواء وأزرار وازرار قد تتحكـّم بمصير العالم .

عندما سكنه جفرسون كان مؤلفاً فقط من ست غرف ومع ذلـك قال عنه (انه ضخم جدا يسع امبراطورين والبابا والدالاي لاما) . ترى مـاذا كان قال لو رآه اليوم بغرفـــه الـ ١٠٧ ؟ الجناح الشرقي مفتوح للزائرين . انتظرت ساعتين في طابور طويل جدا . طفنا في إحدى عشرة غرفـة منها صالات الاستقبال الحمراء والزرقاء والخضراء وكلنا نتحرك في مجرى واحـد بين حبلين يحددان خط سيرنا .

البيت الابيض هو دماغ الحكومة والقوات المسلحة الاميركية . فيــه ازرار السلام والحرب وأزرار الاتصال النووي بموسكو ولندن وباريس وطوكيو وغيرها . يعمل فيـه للاتصالات السلكية واللاسلكية ١٢ ضابطاً و٢٠٠ جندي يمكنهم استقبال ٦ آلاف برقية باليوم الواحـد وتشغيل ٣٥٩ جهاز هاتف . في شهر حزيران سنة ١٩٦١ كان الرئيس كندي في سيارته في أحد شوارع باريس . طلبه أحد وزرائه من البيت الابيض على بعد ٥٨٠٠ كم وبعد دقيقة ونصف تحدث معه ! طلب أحـــدهم المتحدث الصحفي للرئيس كندي (سالنجر – SALINGER) فأجابت عامـــلة الهاتف : تفضل وتحدث معه . من فضلك هـــل أنتَ في مكتبك اني بحاجة الى مقابلتك . فأجابـه سالنجر : أعذرني فـأنا الآن في الطائرة أنزل في مطار (اورلي) بباريس .. إذا كان الرئيس يلعب الجولف تتنقل معـه سماعة التليفون في

صندوق خـاص . وإذا كان يخطب في أي مكان مـا من العالم تبقى بجانبه السماعة التي توصله بالبيت الابيض وبالبنتاجون . لا بد من هذه السرعة لأمن الولايات المتحدة فللرئيس وحده حق إصدار الأمر بانطلاق الاسلحة الذرية . إذا ما حدث هجوم مفاجيء علىاميركا فخلال دقائق معدودة يكون الرئيس قد استلم الخبر وأصدر أوامره . يذكرني هذا بواقعة حدثت لرئيس اميركي غضب على سفيره في (مدريد) لأنـه لم يبعث اليه برسالة منذ سنتين فأبلغه أنه سيبعث اليه انذارا في السنة الثالثة وان تلكأ سيعزله في السنة الرابعة !

الكابيتول :

يشرف على العاصمـة من الرابية التي تحمل اسمه ويـذكر بكابيتول روما الشهير مقر حكم الامبراطورية الرومانية . ترتفع قبته ٨٧ مترا وتسلط عليها الأنوار في الليل وهي رمز العاصمة قبـل البيت الابيض . أهم مـا فيه مجلس الشيوخ ومجلس النواب وجناح الرئيس وقاعـة التماثيل المستديرة . اختار له هذا المكان جورج واشنطن والمهندس (لانفان) جاعلين منه النقطة المركزية للعاصمة . طرح مشروع بنائه في مباراة مفتوحة بين المهندسين . فاز (وليم ثورنتون) ونال وساماً وقطعة أرض في واشنطن و٥٠٠ دولار فقط . انتهى بنـاؤه سنة ١٨١٢ وبعد عامـين احتل الاميرال الانجليزي (كوكبرن ــ COCKBURN) واشنطن (العروس الجديدة) وأعمل الهـدم والحرق . جلس على مقعـد رئيس مجلس الشيوخ وسأل جنوده الصاخبين المعربـدين : (وماذا نعمل بالكابيتول) ؟ فصرخوا (نحرقه) . وأحرقوه فلم يبقَ منه سوى الجدران الخارجية . ثم سرعان مـا أُعيد بناؤه وأُدخلت عليه بعض لمسات هندسية اميركية مثل تيجان العواميد منورق التبغ وسنبلة الذرة قبته ــ او بالأحرى قبتاه المتداخلتان في واحـدة ــ هي من معـدن ينكمش او يتمدد حسب الطقس . تظلل القبة القاعـدة المستديرة حيث يسجى جثمان الرئيس المتوفى ليودعه الشعب .

في الكابيتول ٥٤٠ غرفة و٢١٦ شرطياً وألف موظف وعامل . بما ان المكتبة بنيت على الجانب الآخر من الشارع فتصل الكتب الى الكابيتول من تحت الأرض على بساط متحرك . من قمة درَجِه يلقي رئيس الجمهورية خطابه الأول في شهر كانون الثاني حين يقسم اليمين ويستلم الحكم . ويوم ٢٢ شباط يجتمع فيه المجلسان معاً لسماع نص الخطاب الذيألقاه جورج واشنطن بمناسبة انتهاء مدة رئاسته . في برلمان الكابيتول يجتمع المائة شيخ اميركي والـ ٤٣٠ نائباً . لا يعتبر قانون نافذا إلا بعد أن يصادق عليه المجلسان ويوقع عليه الرئيس . يبدو لنا نحن المتأثرين بالديموقراطية الأوروبية ان الاميركيين يعتبرون مسألة الانتخابات والمناقشات السياسية كلعبة على مستوى عالٍ . ولكن نتائج (تلك اللعبة) تهم العالم أجمع .

في خدمة الكابيتول والبيت الابيض والحكومة اكبر مطبعة بالعالم فيها ٦٧٥٠ عاملاً و٣٧٨ آلة والعمل فيها ٢٤ ساعة باليوم .

مكتبة الكونجرس :

هي أضخم مكتبة في العالم تحتوي على ٣٦ مليون كتاب ومخطوط عدا ٣٠٠ صحيفة و ١٥٠٠ مجلة ونشرة . طول رفوفها ٤٠٠ كم . فيها قاعة لسماع الموسيقى قال لنا الدليل ونحن نزورها انها اكمل قاعة لهذا الغرض . لست ادري هل أصدقه فهؤلاء الدليلون الاميركيون ربّما يُغالون في الأرقام والمقارنة فكل شيء عندهم : اكبر وأعظم وأسرع وأجمل ... في مكتبة الكونجرس اول كتاب طبعه (جوتنبرج) سنة ١٤٥٥ في (ماينز) وهو الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعروفة بِ (فولجاتا – VULGATA) . في كل صفحة عمودان من ٤٢ سطراً . اشتراها الكونجرس من دير بندكتي في النمسا سنة ١٩٣٠ بمبلغ ١٫٤٠٠٫٠٠٠ دولار . وفي المكتبة مخطوط (ما ينز) الذي رأى الوجود مع الكتاب السابق وهو بمجلدين من ٤٥٩ ورقة . بدىء العمل به في ٤ نيسان ١٤٥٢ وانتهى في ٩ تموز سنة ١٩٥٣ :

فقط خمسمائة سنة وسنة ! اشتراه اميركي وقدّمه الى المكتبة سنة ١٩٥٤ .

في الجزء الموسيقيّ من المكتبة اسطوانات وشرائط سجلت فيها أصوات كبار الشعراء والأدباء والفنانين ورجال السياسة ويمكن شراؤها . وهنالك بعض اوراق بخط واشنطن ولنكولن وجفرسون وغيرهم . كان الأوروبيون يتهمون الأميريكيين بفقر النشاط الثقافي . ربما كانت هذه التهمة صحيحة في الماضي . اما الآن فجامعات اميركا ومكتباتها ومدارسها ومطابعها تُغرق الارض بمنتوجاتها .

اروع ما تحفظه العين من واشنطن صورة ليلية منوّرة تشمل المكتبة والكابيتول والمسلة وضريحي لنكولن وجفرسون وبحيرة (تيدال) .

البنتاجون :

(كلمة بنتاجون –PENTAGON) تعني (مخمّس الأضلاع) وقد دُعي هكذا من شكله الهندسي . انه وزارة الدفاع الأميركية واضخم بناء من نوعه في العالم . فيه ٣٥٠٠٠ موظف ثلثهم فقط عسكريون و ٤٤٠٠٠ جهاز تليفون و ٢٢٠ عامل تليفون . كل جهة من جهاته الخمس (ا – ب – ج – د – ه) تمتد ٣٠٠ متر . في ادواره السبعة – ٥ فوق الارض و ٢ تحت الارض – ٧٣٧٠ شباكا وراءَها كل الغرف مكيّفة الهواء . يتخصص ٤ عمّال في تغيير نحو ٦٠٠ مصباح كهربائي تتعطل يومياً . كما يتخصص ٤ مصلحي ساعات لمراقبة ومتابعة ٤٠٠ ساعة حائط لأن الاميركي يحسب وقته بالثانية وليس فقط بالدقيقة ! في البنتاجون قاعة سرية (مصفّحة) تستقبل نبأ ايّ هجوم وتبلّغه الى الرئيس وتتلقى منه الرد في ثوانٍ . اخطر وقت مرت به هذه الغرفة كان في أزمة كوبا بين كندي وخروشوف ... إذا كان البيت الأبيض دماغ الجهاز السياسي فالبنتاجون دماغ الجهاز العسكري يوزع الأوامر على أعصابه المنتشرة في كل العالم .

من نوادر الاميركيين عن البنتاجون أن موزع البرقيات دخله يوم الاثنين

فخرج منه يوم الجمعة وهو برتبة « عقيد » ! وأن سيدة حانت ساعة مخاضها فسألت أحد الحراس عن باب الخروج فأجابها : يا سيدتي العزيزة لماذا أتيت الى هنا وأنتِ في هذه الحالة ؟ فردت : لم أكن هكذا حين وصولي الى هنا منذ ٨ أيام ...

جولة السفارات والكنائس :

واشنطن هي مدينة « الدنيا » ومدينة « الدين » فيها مجموعة من أجمل كنائس اميركا حتى ان شركة « جراي لاين » خصصت جولة دعتها « جولة السفارات والكنائس » . حي السفارات منطقة شجراء خضراء كأنها ريف هادىء .

كاتدرائية بطرس وبولس :

انها الكنيسة الرئيسية للطائفة البروتسطانية الاسقفية والكنيسة القومية لا الحكومية لأن الدولة والدين في اميركا منفصلان يتعايشان باحترام وتعاون بدون تداخل. بدأت سنة ١٩٠٧ ولما تنجز وتقدّر التكاليف المتبقية بعشرين مليون دولار . هندستها الداخلية والخارجية من الطراز « القوطي » وعندما تنتهي ستكون بمساحتها سادس كنيسة في العالم . في برجها الحالي «اركسترا» من ٥٣ جرساً . تقام فيها حفلات رسمية للحكومة وللقوات المسلحة ولهيئة الأمم المتحدة وللماسونية فالماسونية في اميركا ليست لا دينية كما في بعض بلدان اوروبا .

في ظل الكاتبدرائية تقوم ثلاث مدارس ومعهد تخريج الوعّاظ ومعهد الموسيقى الدينية. تحيط بها حديقة يحميها سور عالٍ كأسوار القرون الوسطى يتواءم مع طراز هندستها .

دير الفرنسيسكان :

يُدعى أيضاً « الاماكن المقدسة في واشنطن » جمع الرهبان الفرنسيسكان

هنا على (رابية القبر المقدس) كنيسة فخمة وديراً ونسخاً طبق الأصل من الأماكن المقدسة في فلسطين وغيرها . لدى الدخول من الرتاج الرئيسي يقابل الزائر (حصن) دعوه حصن المسبحة الوردية وعلى جدرانه الصلاة الربية والسلام الملائكي بمختلف اللغات . ثم (معبد سيدة الملائكة) نسخة عن أول كنيسة فرنسيسكانية في مدينة (أسّيزي) الإيطاليـة حيث أسس القديس فرنسوا رهبنته . بقرب تمثاله تمثـال القديس (كرستوف) شفيع المسافرين وقادة السيارات يتعبّد له الأميركيون لأنهم كلهم مسافرون وقادة سيارات ...

الهدف الرسولي لهذا الدير هو المساهمة في صيانة الأماكن المقدسـة في فلسطين وإعانة كنائس وإرساليات ومدارس في الشرق الأدنى . في الحديقة مراحل درب الصليب بتماثيلها ذات الحجم الطبيعي ، والقبر المقدس ، ومعبد جبل طابور ، والحجر الذي حُنّط عليه جسد المسيح ، ومذبح الجلجلة ، وكهف جسماني ، ومهد بيت لحم وبيت الناصرة ، وقبر العذراء ، ومعبد الصعود ، وكنيسة القديسة حنة . وأضيفت نسخ عن الأماكن المقدسة في لورد وفاطمة ومصغـّر عن دياميس روما الشهيرة يخرج الزائر وكأنه حج إلى فلسطين وإلى أهم المزارات المسيحية في أوروبا وهذا ما يناسب طبع السائح أو المسافر الأميركي : نظرة إجمالية خاطفة ! .

مزار العذراء الطاهرة :

هو أكبر مزار من نوعه في اميركا . يتضمّن مجموعة من الكنائس والمعابد وقاعات الاجتماعات الدينية والخيرية . جمع في هندسته من كنيسة القديس بطرس في روما ، ومن كنيسة القديس مرقس في البندقية ومن (آجيا صوفيا) في القسطنطينية . طول كنيسته الكبرى ١٣٨ مترا وارتفاع برجه ١٠٠ متر . تستوقف الزائر اكبر لوحة فسيفساء في العالم تمثل المسيح الملك مساحتها ٣٫٣٥٣٫٦٩٠سم مربع . طول رأس المسيح ٢٤٠ سم وعرضه ١٥٠ سم وبسطة ذراعية ١٠٫٥٠ مترا . فياللوحة ٤ آلاف لون منها ٣٠٠ نوع من اللون الأحمر وحده .

صوت مع الفلسطينيين :

في كاتدرائية واشنطن يوزّع الى الآن نص خطاب رسمي ألقاه فيها مطران يوم أحد الشعانين - ٢٦ اذار ١٩٧٢ - وقد اعطوني نسخة منه . انه دفاع عن قضية الفلسطينيين وعرض لمظالم الصهيونيين لاسيما في (تهويدهم) مدينة القدس . اكتفي بترجمة هذه الأسطر منه : (يزعم اليهود انهم كانوا مظلومين فهوذا هم الظالمون الآن . انهم يطردون الفلسطينيين ويسجنونهم دون محاكمة بل دون اسباب ويغتصبون اراضيهم وبيوتهم ويفرّقون افراد العائلة الواحدة) .

متاحف سميثسون :

هي مجموعة من المتاحف الأثرية عن شعوب اميركا وأوروبا وآسيا وافريقيا وعن متاحف الفن والتقدم العلمي والفضاء والنبات والحيوان والمعادن والحجارة الكريمة . لا تكفي ايام بل شهور للاطلاع على كل ما فيه . وعلى سبيل المثال فيه ٤٨ مليون قطعة بمتحف التاريخ الطبيعي وحده .

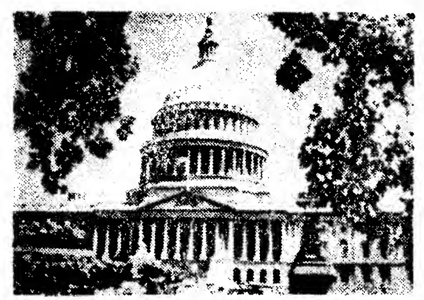
تأسس المتحف سنة ١٨٤٦ من الميراث الذي تركه (جيمس سميثسون) لتُنشىء به الحكومة الأميركية (معهداً لتقدم المعارف ولنشرها بين البشر). وكبر المعهد فأصبح ايضاً مركزا للأبحاث ومتاحف متعدّدة تتكون هيئة ادارتها من نائب الرئيس الاميركي ورئيس المحكمة العليا وثلاثة شيوخ وثلاثة نواب وستة مواطنين .

اكتفي بأن اذكر للقارىء بعض الامور الطريفة من جناحي الهنود [١] والاسكيمو [٢] .

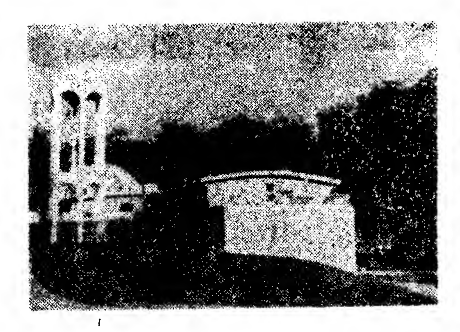
---

(١) وانظر فصل ١٦

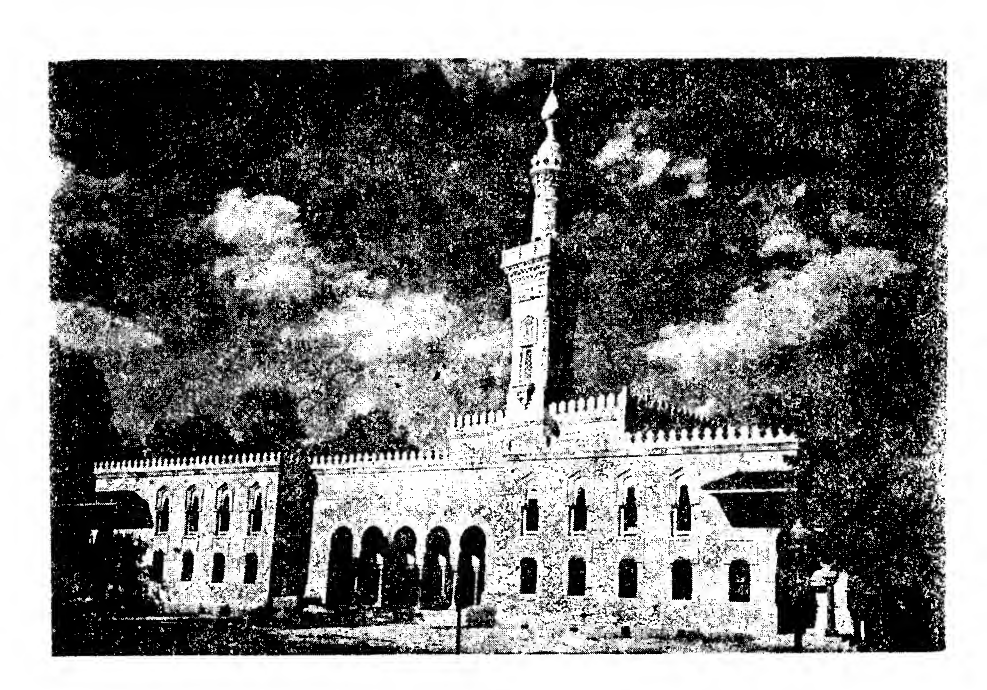
(٢) وانظر فصل ٣٨



الـكابيتول



الهيكل العظمي لديناصور



جامع واشنطن

في متحف الهنود :

كان الهنود قبائل شتّى تختلف ديانهم وعاداتهم وطرق معيشتهم من اقصى شمال القارة الاميركية (الاسكا) الى اقصى جنوبها في (باتاجونيا) . في ١٦ تشرين الاول ١٤٩٢ نزل كريستوفورو كولومبو في (سان سلفادور) وظن انه بلغ الهند عن طريق البحر فسمّى سكان المكان هنودا . رأى الهنود يعملون في الحقل امام منزل زعيمهم الذي ظهر وعلى ذراعيه وساقيه ربط من نسيج القطن وعصاً في يمينه والنساء يطبخن في العراء وولداً يحمل قضيباً على رأسه ببغاء وبعض انفار يقودون قارباً الى الشاطىء . هكذا كانت اول لقيا للانسان الاوروبي مع الهندي الاميركي . ثم رأى كولومبو ورفاقه أموراً شائعة عند الهنود وغير معروفة في اوروبا : الذرة – التبغ – الفستق – البطاطا الحلوة – الاناناس ... وبدأت الحضارة الاوروبية تغزو وتمتد وامام مدها يتراجع الهنود ويندثرون .

اذا ظهر للهندي في الحلم حيوان او طائر يستمدّ منه قوة للانتصار في الحرب وللتوفيق في الصيد وللشفاء من الامراض . وقد يطيل الهندي في صلاته على امل ان تظهر له رؤيا حيوان او طائر . السنجاب يمتاز بالخفة والذكاء والشجاعة فيتمنون ان يظهر لهم ليكتسبوا هذه الصفات . في مطلع الصيف يقيمون رقصة الشمس لتحرسهم من الاعداء وتكثر لهم الجواميس وتوفّقهم في اصطيادها . افضل طريقة لصيدها ولاقتناص الافراس البرية هي دفع القطيع الى (شفير) فالذي يهوي يأكلون لحمه ويأسرون الباقي . عند احدى قبائلهم رأس إله الحرب هو رأس الطائر المعروف بمالك الحزين ومزيّن بريش أحمر . عند انقطاع المطر يقيمون (رقصة الافاعي) : يصلّون ٩ ايام وعند غروب اليوم التاسع يمسك بعض الكهنة أفاعي في افواههم ويرقصون ثم يحمّلونها ادعيتهم ويُطلقونها بعيداً عن ارضهم فتحمل صلاتهم الى الارواح الصالحة لكي تبعث المطر . يعبدون الأب (السماء) الذي يُخصب الأم

(الارض) . عندهم نوع من ثالوث غريب يعبد معاً هو أم الآلهة واسمها (كوالتيكوي – COALTICUE) والارض والمطر . في بيت الطبيب تعاويز لطلب الشفاء ورسوم على التراب والرمل يمحوها عند الغروب .

اذا وضع قرب طفل سلحفاة او حردون يعصمانه من المرض ويعمّر . رأس الغزال يُساعد للفوز بقلب فتاة الاحلام فيحمله العشاق . ادوات الاستعمال اليومي هي من عظم وجلد وقش وريش وما اشبه . الجرن والمدقة والصحون وادوات تحريك الطعام كانت من خشب . كانوا يرسمون على بعض جلود الجاموس رسوماً حربية . عرفوا التطريز والعملة من صدف او من فضة ومعادن اخرى . كانوا يصنعون عقودا من العملة وعقوداً من اسنان الدب ومن اصابع الأعداء : كلما كان الطائر نادراً كلما كان التزيّن بشيء منه علامة النُبل والغِنَى كريش النسر مثلاً وقد يتدلّى الريش من الرأس الى القدمين كذيل العروس .

لصيد النسرُ يقيم الهندي كوخاً على رأس اكمة ويضع فريسة وينتظر فعندما ينزل النسر يمسكه بقدميه ويقتنصه . كانت عندهم احذية طويلة جداً كأنما للانزلاق وهي من جلد وخشب طولها نحو ١٣٠ سم وعرضها ٤٠ سم ينتعلونها للسير على الثلج . كانوا يسمّدون الحقول ببقايا الأسماك .

اعتقدوا (بالجن) كأرواح تهيم في الهواء والغابات وتأوي احياناً الى البحر ، و (بشبح الهواء) « كالغول » وهو عملاق يفترس البشر في ايام الصقيع .

الأقنعة من خشب او قش او ريش وهي تجسد وجوه آلهة الخير يلبسونها في الحفلات ويطوفون بها الحقول والبيوت لطرد الارواح الشريرة . في قناع النسر تيمُّن بالنصر في الغزوات .

من اسلحتهم الفأس والحربة وعصا خشبية في رأسها اصبع حادّ . الدرع من خشب مغطى بقماش كثيف . تبادُل الاحزمة دليل على انهاء القتال

وحسن الجوار . في غزواتهم يفتكون بالرجال ويقتادون النساء والاولاد عبيدا . عرف الهنود استخراج الكوكايين من ورقة (الكوكا) واكتشفوا منافع (الكينا) واستعملوا المطاط والخروع والارزّ وانواعاً من الفطر .

في متحف الاسكيمو :

مشكلة الاسكيمو هي الثلج . صنعوا جرّافات من خشب حدها الجارف من عظم صلب . للتخفيف من البرد حفروا نفقاً في الثلج يمرّ فيه الهواء قبل ان يصل الى البيت المفروش بجلود . كان بناء ملجأ الصيد يستغرق اقل من ساعة : واحد يقطع الجليد حجارةً وآخر يرصّها ويعلّيها . اما البيوت العادية فتبنى من خشب .

كانوا يأكلون اللحم بوضع قطعة كبيرة بين الاسنان يمسكونها باليسرى ، ويقطعونها بآلة حادة باليمنى . من قواربهم نوع اسمه (هاياك — HAYAK) لشخص واحد وهو من خشب مكسوّ بجلد ومحروس بتعويذة . غذاؤُهم من البحر وإذا ما تكاثف الجليد يثقبونه ويدلون سنارة تعود بصيدها . يصيدون الحيوانات بالاقواس والسهام او بحراب يطلقونها من بعيد اذا كان الحيوان مفترساً كالدب القطبي او يطعنونه بها من قريب اذا لم يكن مفترساً والكلاب تساعدهم . في الصيف بعد ذوبان الثلوج في بعض المناطق تأتيهم الطيور تعبة من طيران طويل وهم ينصبون لها الشباك فتصطدم بها وتصرع[١] . تتبرج النساء بوشم على الخدود ويتحلّى الرجال والصبيان بخرز أو بحجر كريم يتدلّى من الشفة السفلى ...

منزل جورج واشنطن :

ركبت من واشنطون باخرة سياحية سارت في نهر (بوتوماك) متجهة

---

(١) حتى الآن يستعمل المصريون والايطاليون هذه الطريقة في موسم هجرة الطيور اذ تصل متعبة بعد عبور جنوب البحر المتوسط .

إلى جبـل (فرنون ـ VERNON) حيث منزل ومزرعة جورج واشنطون دعا شقيق جورج هـذه الأرض جبل (فرنون) باسم الاميرال الانجليزي رئيسه في الاسطول الذي كان مرابطاً في البحر الـكاريبي . هنا تزوج جورج من الأرملة الثريّة (مارتا كوستيس ـ MARTHA CUSTIS) وبعد ان ترك رئاسة الجمهورية قضى باقي حياته في (فرنون) في الخلوة والزراعة واجراء اختبارات على النبات . مات ودُفن هنا سنة ١٧٩٩ في ضريح من مرمر ابيض ثم دُفنت بجانبه زوجته التي توفيت سنة ١٨٠٢ . تهتم (جمعية سيدات جبل فرنون) بالحفاظ على هذا التراث القومي . البيت واثاثه صورة امينة لمزارع الجنوب الاميركي في القرن الثامن عشر وحوله الفلاحون والحرفيون . وهنالك بستان الزهور وحـديقة النبات واهراء الغـلال والاصطبل وغرفة التدخين وغرفة حفظ الثلج وغرفة الحياكة وما الى ذلك ... يحب الاميركيون هـذه كلها لأنها عاصرت تأسيس جمهوريتهم ولأنها ذخائر من (ابي وطنهم) .

مات جورج واشنطون عن ٦٧ عاماً . بدأ العمل في سن السادسة عشرة مزارعاً في ارض اللورد (فيرفاكس) وظلّ طوال عمره يحب الزراعة . بدأ حياته العسكرية يحارب مع قائد انجليزي ضد الفرنسيين في (اوهايو) وعندما قاد ثورة التحرير ضـد البريطانيين ساعده الفرنسيون بقيادة (لافاييت ـ LA FAYETTE) الذي كتب عنه (ان اعجابي بـــه يزداد كل يوم لنبل طباعه وروحه) . كان هادئاً ناعماً يحب الرقص والصيد . ألم واحد لم يفارقه في حياته هو ألم الأسنان ولـكن لم يجعل منه عصبياً !

قضيت آخر سهرة في واشنطن في حديقة (روك كريك) في مسرح (كارتر) بالهواء الطلق حيث حضرت اوبرا (بوتشيني) : (لا بوهيم) . انها اكبر حديقة في واشنطن وهي متنوعة الجمال من نافورات المياه الى البرك والجداول الى الصخور النادرة التي اعطتها اسمها الى بسط العشب والغابات . وفيها حديقة حيوان وضروب من الرياضة اهمها ركوب الخيـــل والجولف ورياضة الخلوة والاسترخاء كأنما في حقل .

٢٦

بوسطن

لبناني يعرف سبع لغات :

في بوسطن وحولها تجمّع كبير للشرقيين اذ بدأت هجرتهم إليها ثم إلى ديترويت والآن الى كاليفورنيا . يتناقل المهاجرون فـكاهة قديمة عن ذكاء لبناني لم يلاقِ عمـلاً بعد ان حطّ الركاب في بوسطن فأعلن في الصحف انه يكتب ويترجم سبع لغات : لبنانية وسورية ومصرية وعراقية وفلسطينية واردنية ومغربية . اعجب هذا الاعلان الطريف احد اثرياء المغتربين اللبنانيين فأخذه للعمل عنده . .

أول وثيقة ديمقراطية :

تدعى هذه البقعة (انجلترا الجديدة – NEW ENGLAND) لأن الانجليز عمّروها واطلقوا عليها اسماءَ مدنهم من الوطن الامّ (بوسطن هو اسم مدينة في بريطانيا) وحافظوا فيها على تقاليدهم . اشتهر في التاريخ الفوج الأول الذي قـــدم على السفينة (زهرة مايو – MAY FLOWER). كانوا ١٠٢ انجليزيا من الفلاحـــين والبائعين وصغار المهنيين من المتزمتين (بيوريتانز – PURITANS) . هربوا اولا من انجلترا الى مدينة (لايـــد) في هولندا

لينعموا بالحرية الدينية . ثم غادرت سفينتهم انجلترا في ٦ ايلول ووصلت في ٩ تشرين الثاني ١٦٢٠ الى (رأس كود – CAPE CODE) حيث تقوم الآن مدينة (بروفنستاون – PROVINCE TOWN) واستقروا في (بلايموث).
قبل النزول الى الارض وقّعوا على متن سفينتهم هذه الوثيقة : (نحن الموقعين ادناه ، رعايا امناء لصاحب الجلالة جيمس الاول ، بنعمته تعالى ملك انجلترا وسكوتلاندا وفرنسا وايرلندا ، حامي الايمان ... قمنا بهذا السفر لنُنشِىء اول مستعمرة في شمالي فرجينيا . نتعهد بهذه الوثيقة امام الله وامام كل واحد منا ان نتجمع في هيئة سياسية ومدنية واحـدة لصالحنا كلنا والمحافظة على ذواتنا وان نتبع قوانين مستمدة من روح العـدالة والمساواة والخير العـام .
ترى ألـم تكن تلك أول (نفخة) في الروح الامريكية (الديمقراطية) ؟

أول معاهدة مع الهنود الحمر :

بعد هذا (الاتفاق الداخلي) انشأوا معاهدة حسن جوار ودفاع مشترك مع الهنود الحمر بشخص زعيمهم (ماسا سويت – MASSA SOïT) . وهذا فحواها : (اذا دخل الهنود ارض البيض فيكونون عُزّلاً من الاقواس والسهام وكذلك حين يدخل البيض حدود الهنود فبدون سلاح . اذا اعتدى اغراب على الهنود يهبّ البيض لنجدتهـم واذا اعتـُدِي على البيض فالهنـــود يعاونونهم) .

أصل يوم الشكر :

تذكـّر حاكمهم (برادفورد) المهرجان الذي كان يقيمه والده بعد القطاف والحصاد وتذكروا جميعاً يوم الشكر الذي كان يحتفل به سكان (لايد) في ذكرى تحررهم من الاسبانيين ففعلوا هكذا في العالم الجديد ودعوا الى الحفـلة الزعيم (ماساسويت) فإذا به يقدم مع ٩٠ محارباً . تهامس الانجليز قائلين : لا يكفي هؤلاء مخزون سنة ! فطن الزعيم الهندي لحيرتهـم فأرسل رجاله للصيد في الغابات فرجعوا بغزلان وارسل (برادفورد) صيادين انجليز أتوا

بعدد كبير من الديوك الروميــة أو ديوك الحبش وهكذا انقذ الموقف . يقال ان هذا هو الاصل التاريخي (ليوم الشكر) الذي يقيمه الاميركيون في يوم الخميس الرابع من تشرين الثاني من كل سنة ويأكلون فيه ديك الحبش . ولأول مرة رأى الاوروبيون الهنود يشوون سنابل الذرة (سموه ايضاً القمح الهندي) في اوانٍ من طين مجفف تتفرقع وتبيضّ وتتمدّد وهـــذا هو اصل الأكلة الشعبية الـ (بوب كورن – POPCORN) التي يحبها الاميركيون .

صورة لبوسطن :

عدد سكان بوسطن نحو مليون ومساحتها نحو ١٠٩ كم ٢ . رغم ارتباطها المتين بالام انجلترا عرفت في تاريخها حركات تحرر ومنها اندلعت ثورة الاستقلال فهي مدينة (تفاخر بتاريخها) اذا ما قورنت بباقي المدن الاميركية المستجدة .

من رأس بناية (برودنشال – PRUDENTIAL) وهي اعلى بناية فيهـا ترتفع ٥٢ دوراً يمكن للبصر ان يحتوي بوسطن بأجمعهـا . الميناء والبحيرة ونهر (تشارلز) ونهر (مستيك) والمدينة القديمة الضيّقة بمبانيها الصغيرة السوداء المتقاربة والأحياء الجـديدة الواسعة يغلب عليها اللون الأحمر وقلبها التجاري تحت (برودنشال) مباشرة في الضواحي الخضراء وحول بوسطن جبال ولايتي ماساشوسيتس ونيو هامشير وطرق عريضة رائعة للسيارات منها ثلاثة احزمة حول المدينة .

بيت بول ريفير :

الأحياء القديمــة شوارع ضيّقة وازقّة وبيوت تراكم عليها اللون الاغبر والاسود وحفر وازدحام ومخازن متراصّة إلخ ... في بوسطن القديمة زرتُ بيت الوطني الشهير (بول ريفير – PAUL REVERE) . عمر هـذا البيت نحو ٣٠٠ سنة وهو بأكمله من خشب وكذلك اثاثه . وفيه نماذج ممّـا كان

ينتجه (بول) من اشغال النحاس والحديد . في احـدى ميادين بوسطن أُقيم له تمثال وهو راكب على حصانه تخليداً لعمـــل بطولي قام به ابـّان الثورة سأذكره فيما بعد .

سفينة الدستور :

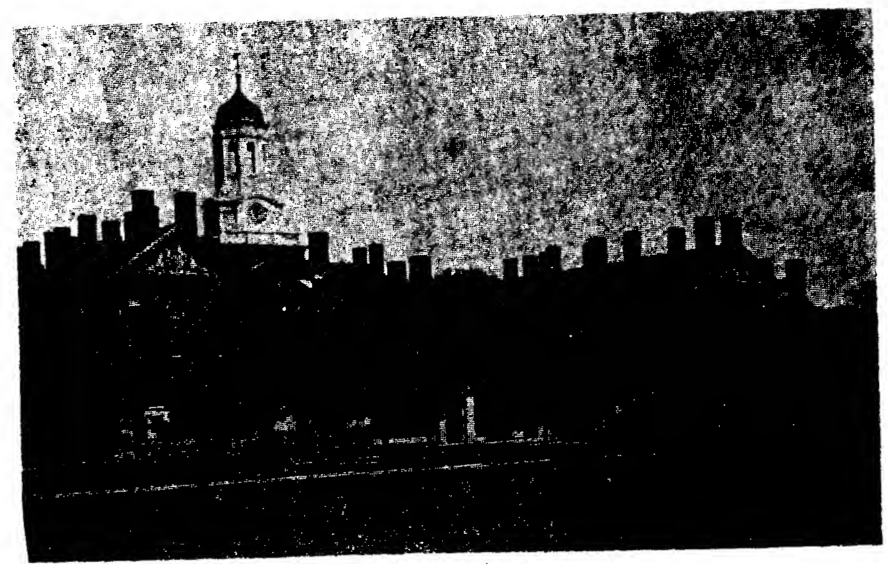
وفي الميناء زرتُ السفينة (الدستور – CONSTITUTION) التي منذ نزلت الى البحر في ١٧٩٧ الى ان (احيلت للراحة) انتصرت في كل معاركها . انها ذخر وطني يغار عليه البوسطونيون . احسن ما فيها جرسها من صنع بول ريفير ومتحف لِما كان يُستعمل فيها .

الكرة البلورية :

من معالم بوسطن السياحية كنيسة ودار نشر (المعرفة المسيحية – CHRISTIAN SCIENCE) وقبة كنيستها هي اعلى قبة في المدينة. تصدر الدار جريدة (مونيتور – MONITOR) واربع مجلات مـا عدا نشرات متفرقة وفيها كرة ارضية مكونة من ٦٠٨ قطع بلور ويبلغ قطرها ٩ امتار دخلنا فيها ودهشنا من جمـالها وألوانها ودقتها العلمية . فيها ثلاثمائة مصباح كهربائي وخطوط من ألوان شتى تميّز فيها تضاريس القشرة الارضية بحيث تظهر السهول منبسطة والجبال عالية والبحار عميقة . وبلحظة واحدة يعرف المرء الساعة في اي مكان من العالم اذ تبين خطوط الطول كلها .

زهور زجاجية في جامعة هارفارد :

بوسطن هي مدينة العِلم فيها ٦ جامعات زرنا منها (هارفارد – HARVARD) التي تأسست سنة ١٦٣٦ وتخرّج منهـــا خمسة من رؤساء جمهورية اميركا آخرهم كندي . ان مبانيها حمراء اللون وقائمة وسط الأشجار وتحمل شوارعها اسماء جامعات شهيرة في العالم . بعدما ان تجولنا فيها استمتعنا بمتحف فريد من نوعه هو (متحف الزهور الزجاجية) فيه ثلاثة آلاف قطعة


جامعة هارفارد


زهور زجاجية في جامعة هارفارد

تمثل زهوراً كاملة او اجزاء منها . صنعها من ١٨٨٧ الى ١٩٣٦ الألماني (ليوبولد ــ بلاشكا ــ LEOPOLD PLASCHKA) وابنه (رودولف) وكانت تشحن من (درسد ــ DRESDE) بألمانيا الى جامعة هارفارد وهي هبة من السيدة (واير ــ WARE) وابنتها لذكرى الدكتور (واير) . اجزاء الزهور ملتصقة بعضها ببعض بمهارة دون صهر او التحام . كان الزجاج يُسَخَّن حتى يصبح طرياً فيتلاعب به الفنانان لصوغ الزهور والاوراق . والألوان هي في الزجاج نفسه فليست مضافة إليه بالطلاء . لقد دقّقا جدا في صنعها ونقلها بأمانة من الزهور الطبيعية فلم تقع إلا اخطاء بسيطة واصبح هذا المتحف افضل طريقة لدرس الزهور بحجمها ولونها الطبيعيين وبأبعادها الثلاثة ...

غداء في اقدم نزل امريكي :

من آثار بوسطن ايضاً بيت الكاتب (لونجفلو ــ LONGFELLOW) الذي كان في ١٧٧٥ و ١٧٧٦ مقرّ قيادة جورج واشنطن . ولونجلفوهومؤلف كتاب يعشقه الاميركيون اسمه (حكايات من النَزْل القائم على جنب الطريق ــ TALES OF WAYSIDE NN) . من بيته اقلّتنا السيارة السياحية لتناول طعام الغداء في ذلك النزل وفي (سودبوري ــ SUDBURY) على بعد ٣٦ كم غربي بوسطن . يعود هذا النَزْل الى ٣٠٠ سنة فهو اقدم فندق اميركي واحتفظ بسحته العريقة الجذابة في غرفه وموائده وبهوه وجدرانه الخشبية . كان اسمه (نَزْل الحصان الأحمر) ثم أخذ اسمه الجديد بعد ان انتشر كتاب (لونجفلو) . في عام ١٩٤٤ اشتراه هنري فورد ليجعل منه مأثرة قومية وتوالي (مؤسسة فورد) صيانته . تناولنا فيه الغداء وقامت بخدمتنا مضيفات بالزي (النيوانجلاندي) القديم الفضفاض الزاهي الالوان .

طريق بول ريفير :

في العودة تبعنا الطريق الذي سلكه (بول ريفير) ليلة ١٨ ــ ١٩ سنة

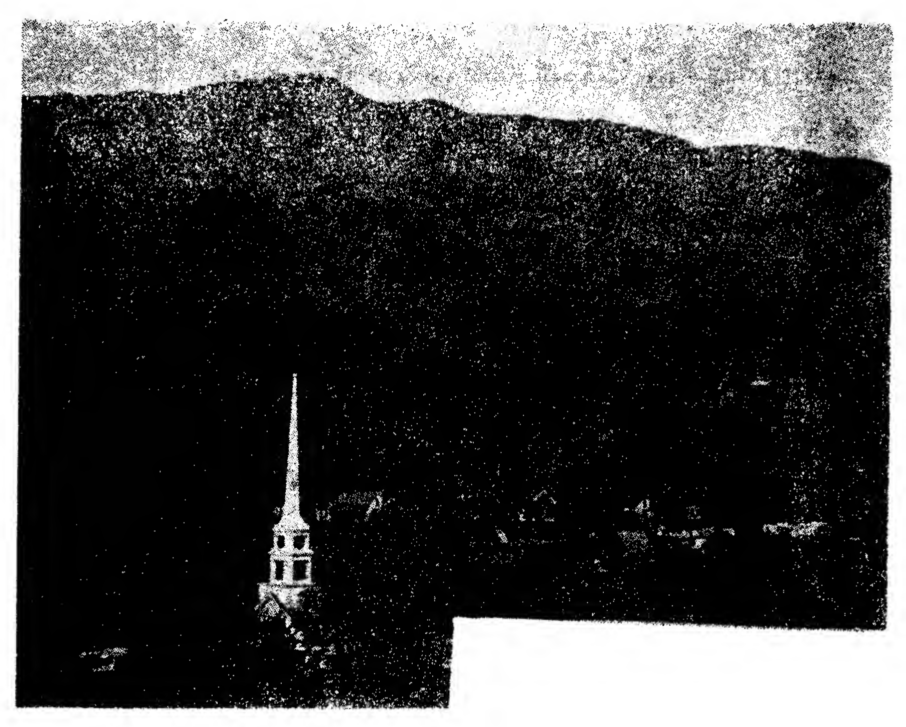
١٧٧٥ وكان عمره انذاك ٤١ سنة . ذهب من بوسطن على متن حصانه الى مدينتي (لكسنجتون و كونكورد) لينبّه قائدي الثوّار (صامويل ادامز و جون هنكوك) ان فريقاً من الجنود الانجليز ينقلون في مراكب بنهر (كمبريدج) لمهاجمتهم . كان ريفير اسرع خيّال في عصره وكان وطنياً شجاعاً فقبل تلك المهمّة الخطرة وتخطّى كائن العدوّ وابلغ الرسالة ووقع اسيراً في عودته ثم أُطلق سراحه اذ لم يثبتوا عليه اي سبب للاعتقال . اصبح هذا الحادث فيما بعد موضوع ملاحم وملهماً للكتّاب والشعراء وخلّده (لونجفلو) نفسه . بعد الاستقلال عاد بول ريفير الى مهنته : العمل في الفضة والذهب والنحاس . وهو الذي غطّى بقشر النحاس اجزاء من سفينة الدستور التي ذكرتها وصبّ افضل اجراس الكنائس اميركا وحتى الآن ٧٧ جرساً في كنائس نيو انجلاند هي من صنع يده . منذ صباه كان يحلم بالاستقلال لبلاده الجديدة (والده فرنسي) وانخرط في جمعية (ابناء الحرية) المجاهدة للاستقلال واشترك في حرب التحرير .

سمك كالجرّة :

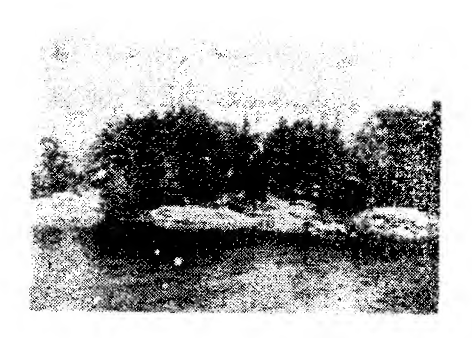
يحبّ سكان بوسطن الاستجمام وصيد السمك حول (جزيرة القلعة ـ CASTLE ISLAND) ولا ينزعجون من الطائرات التي تهبط او تقلع كل دقيقتين تقريباً . اسوار القلعة من حجر وحولها جسور من خشب يصطف عليها المصطادون وهم مغرمون جداً بهذه الرياضة الهادئة والمفيدة . اسماك غرب الاطلسي متنوّعة جدا وقد رأيت في مسمكة بوسطن سمكاً يعيش داخل صدفته المستديرة كجرّة كبيرة يُخرج منها رأسه احياناً كما تفعل السلحفاة وكان الهنود يستعملونها كجرار لحفظ الماء والحبوب .

يوم في الجبل الأبيض :

قمة جمال ولاية (نيوهامشير) هي في مناطق (الجبل الأبيض) التي تبعد نحو ساعتين عن بوسطن . اوهايو و بنسلفانيا و نيوجرسي و ميتشجان وغيرها



في ولاية نيوهامشير



على شاطىء بحيرة ويذبيسوكي

جميلة خضراء ولكن معظمها سهول ، بينما نيوهامشير اودية وجبال تكسوها الغابات وانهر وبحيرات و (فردوس لقضاء العطلات) . فيها ٦٨ ملعب جولف و ٥٢ منطقة تزلج على الثلج وأكثر من ٦٥ حديقة شعبية وعشرات الاماكن (للعربات ـ المنازل) وهي قاطرات مجهّزة بسرير وحمام ومطبخ تُجَرّ وراء السيارة كبيت كامل متنقّل يقف حيث يشاء صاحبها . اضف الى هذا مئات البحيرات للفسحة ولكل انواع الرياضات المائية . قضينا ٣ ساعات في اكبر بحيراتها وهي (وينيبيسوكي ـ WINNIPESAUKEE) التي تحتضن ٣٦٢ جزيرة شجراء ويبلغ طولها ٤١ كم ويتراوح عرضها بين كيلو متر واحد و ٨ كم . لقد رأيت مراراً بحيرات سويسرا وايطاليا فليست بهذه الروعة ولا يُزيّنها هذا العدد الكبير من الجزر . بينها جزيرة صغيرة جداً كبرميل عليها شجرة واحدة وقد اشتريت بدولار واحد . على الشواطيء بين الشجر تقوم (بيوت احلام) امام الكثير منها (يخوت) .

في الاياب رأينا بعض العائدين من عطلتهم وقد حملوا في قاطراتهم مراكب واحصنة فكم يتفنن هؤلاء الاميركيون في التمتع بإجازاتهم . عطلة نهاية الاسبوع هي (اقدس شيء) في حياتهم ومعرفة حالة الجوّ يوم الجمعة مساء هي اهم من كل الأخبار . . .

حفلتا ميلاد و زواج :

حضرت عيد ميلاد بنت من أصل لبناني بلغت سن الحادية عشرة . والجديد الذي رأيته هو انها قبيْل ختام السهرة وقفت بجانب الهدايا وفتحتها واحدة واحدة وعرضتها على الحاضرين محييّة وشاكرة الشخص الذي قدّمها. بينما نحن في الشرق نعطي الهدية او نستلمها (مكسوفين) ونُخفيها عن العيان. ألا تنقصنا في هذه وفي غيرها الصراحة والبساطة والحرية ؟ عندما يقول اميركي لآخر اهلا بك فأنت في بيتك يعمل الضيف بذلك ولا يسمع تكراراً وإلحاحاً (للعزومة) ويقوم بغسل الصحون مع مضيفه ...

في حفلة الزواج وقف خمس شبان ببدلات بيضاء امام هيكل الكنيسة. ثم دخلت إحدى وصيفات الشرف تنقل قدمها اليمين ثم تتوقف فقدمها الشمال وتتوقف ايضاً (نقلة نقلة) إلى ان بلغت الهيكل حيث تأبط ذراعها الوصيف الاول وهكذا حتى الرابعة . اما الشاب الخامس فكان العريس . دخلت العروس ووصيفتها تفرش امام خطاها سجادة بيضاء . في ختام الصلاة نبّه الكاهن الحضور ان لا يرموا زهوراً ورزّاً فلقد هجّروا معهم بعض عاداتهم. ثم نزل المدعوون الى قاعة الاجتماعات تحت الكنيسة فجلس على المنصّة العروسان ووالدهما والكهنة والأوصفاء والوصيفات وتوزّع الباقون في أرض القاعة . كان في أحد الأركان (جبل) من الهدايا حملت الى بيت الزوجية الجديد . بين المدعوين (شريف) في القاعة للتدخّل لحفظ النظام اذا لزم الأمر و (شريف) آخر في الفناء حيث موقف السيارات . كان منظر الشريف كما نراه في الأفلام ببرنيطته المميزة وزيّه شبه الكشافي . بعد الرقص العصري الاميركي رقصوا (الدبكة) في ثلاث حلقات كبيرة متداخلة وغنّوا اغاني لبنانية فكان (جوّاً شرقياً) ممتعاً تنقصه جرحة (الجوز) .

●

٢٧

ديترويت

مدينة الأعلام الثلاثة :

يقول الاميركيون عن ديترويت انها « مدينة الاعلام الثلاثة » فمن ١٧٠١ الى ١٧٦٠ خفق في سمائها العلم الفرنسي ومن ١٧٦٠ الى ١٧٩٦ العلم الانجليزي ومن ١٧٩٦ الى ما يشاء الله العلم الاميركي المرصع بالنجوم . ولا تزال هـــذه الاعلام مجتمعة في « كنيسة البحّارة » الأثرية .

في ٢٤ تموز ١٧٠١ احتـــل بقعتها بإسم ملك فرنسا لويس الرابع عشر القائد « كاديلاك – CADILLAG » ومعه مائة فرنسي ومائة هنـــدي معادين للبريطانيين . أسس هناك عنـــد باب البحيرات الكبرى الخمس قلعة لحماية تجار الفراء الفرنسيين مِنْ تعرُّض الأنجليز لهم ودعاها قلعة « داتروا – D'ETROIT » على اسم وزير المستعمرات الفرنسي آنئذٍ ونطق بالانجليزية « ديترويت » .

اشتهرت من بناتها (انجليك بوبيان – ANGELIQUE BEAUBIEN) في حقبة غزوات الهنود بقيادة زعيمهم (بونتياك – PONTIAC) الذي

حطم في طريقه الحصون الانجليزية وتعرّف بانجليك وعشقها . وهي عرفت منه عزمه على مهاجمة قلعة (داترو ا) فحذّرت حاميتها وُهزم بونتياك .

تعاقبت عليها غزوات القبائل الهنـدية حتى اوائل القرن التاسع عشر . أتت عليها حريقة شاملة لم تنل من عزيمة سكانها فاتخذوا لهم شعاراً (سنبعث من الحطام مستقبلاً مشرقاً) وخططوا مدينة جديـــدة مستوحين من تصميم العاصمة واشنطن . في سنة ١٨٢٥ انجز قنال (ابريه — ERIE) فأصبحت ميناء ُيعد الآن الثاني بعد نيويورك .

قلب ديترويت :

انها مجموعة مباني على ضفة (نهر ديترويت) من احدث ما توصلت اليه الهندسة الحديثة. فيها أماكن المرياضة (انزلاق على الجليد الصناعي — هوكي — ملاكمة — مصارعة — كرة السلة) ومسرح وأربع صـالات المعارض ومبنى حكومة الولاية وبناية المحاربين القدامى وقاعة فورد الموسيقية وقاعة (كوبو) المستديرة التي هي أكبر صالة اجتماعات في العالم وقد كلفت ٤٥ مليون دولار. فيها ١١٥٦١ مقعداً وعدد بواباتها ٢٤ فلا يطيق الاميركيون الانتظار وضياع الوقت للدخول والخروج . وحولها ٤٠ قاعة متوسطة تنعقد فيها اللجان في فترة المؤتمرات .

روح ديترويت :

على إحدى جدران بنايةحكومة الولاية نقش الفنان (مارشال فردريكس) لوحة أسماها (روح ديترويت) وكتب تحتها : (حيث روح الرب فهنالك روح الحرية) ونحت تمثالاً من نحـاس أصفر جالساً القرفصاء ويمسك بيمينه أفراد عائلته وبيساره كرة تنطلق منها أشعة هي رمز الالوهة فكأن سكان ديترويت العظماء يشاركون الله في عمله ويستمدون منه قدرتهم على الابداع والاختراعات



کوبوهول



روح دیترویت

يندهش السائح من عظمة وروعة الطرق في داخل ديترويت حيث شبكة (الطرق الحرة السريعة) تبلغ خمسمئة كيلومتر ويسمح بالتنقل عليها بسرعة ١٠٥ كم بالساعة. والتوجه في المدينة سهل إذ يخترقها شارعها الرئيسي (وودوارد – WOODWARD) من الشمال الى الجنوب ومنه تتفرع باقي الشوارع شرقاً وغرباً .

حديقة الجزيرة الجميلة :

على بعد عشر دقائق فقط من قلب المدينة تنبسط حديقة « الجزيرة الجميلة – BELLE ISLE » يطوّقها « نهر ديترويت » ومساحتها أربعة ملايين وستة وأربعين الف متر مربع . فيها « اركسترا » بالهواء الطلق وملاعب لمختلف أنواع الرياضة ومعرض للزهور تتغيّر زهوره حسب فصول السنة : الاوركيديا في الشتاء والكريزانتيم في الخريف والجلايول في الربيع وأنواع عديدة جداً في الصيف رأيت منها معرض الداليا . وفيها مسمكة وحديقة حيوان صغيرة للأطفال واستعراض لألعاب سبع البحر . تبين منها على الضفة الثانية مدينة « وندزور » الكندية يربطها بديترويت جسر « امباسادور » ونفق محفور تحت قعر الماء .

محلات هدسون :

محلات « هدسون » ترتفع ٢٠ دوراً وتبيع كل شيء وهي الثانية في العالم بعد محلات « مايسز » في نيويورك . يوم عيد العَلَم الاميركي ينشرون هنا عَلَماً طوله ٧٢ متراً يحمله ٥٥ رجلاً ويُغطي ٧ أدوار من البناية .

وسط مدينة ديترويت قذر كبعض شوارع « مانهاتن » فيأسف المرء أن تشوه أمثال هذه المدن العظيمة! على أحد أطراف المدينة بقرب الميناء أحياء الزنوج وهي قديمة قذرة وعلى الطرف الآخر منطقة الاغنياء اسمها «جروس بوينت – GROSSE POINTE » تمتد على شاطىء البحيرة كجنينة

أنيقة وكلها قصور بين الأشجار والمروج . اعلانات كثيرة معلقة في شوارعها منهـا : السرعة ٥٠ كم . غرامة ١٠٠ دولار لمن يلقي أي شيء في الشارع . السرعة مراقبة بالرادار . ممنوع التجمع والصيد والأكل على العشب الخ .

متحف تاريخ ديترويت :

يتتبع نمو المدينة منذ تأسيسها الى أيامنا هـــذه . لأول مرة رأيت آلة الانتخابات الاميركية وهي آلة تفرز الأصوات المقترعة معاً للرئيس وللشيوخ وللنواب وللقضاة. أجرى الموظف الواقف بجانبها تجربة على الطبيعة فانقسم السياح الى حزبـين ديموقراطي وجمهوري وأعطى النتيجة على الفور . سألني لماذا لا اشترك فأجبته لأني لست اميركياً فـلا يحق لي الانتخاب . وخفتُ أن أقول له أن الانتخابات في بلادي لبنان — مع أنه من أصغر دول العالم — لا تجري في يوم واحد بل في أربعة آحاد .

في المتحف رسم يبين معدل العمر بين سكان ديترويت : ففي سنة ١٩٠٠ كان ٢٧ عاماً وفي سنة ١٩٢٠ ٣٠ عاماً وفي سنة ١٩٦٠ ٦٠ عامـاً وفي سنة ١٩٧٠ ٦٧ عاماً . ولوحــة عن انتاج شركة « جنرال موتورز » للأسلحة في الحرب العالمية الثانية: ١٣,٠٠٠ طائرة مقاتلة كاملة و٢٠٦,٠٠٠ محرك طائرة الخ .. ولوحــة أخرى عن نتائج مصانع (فورد) في الحرب العالمية الثانية أيضاً : ٨,٦٠٠ طائرة مقاتلة و٥٧,٠٠٠ محرك طائرة و٢٧،٠٠٠ محرك دبابة و١٢,٣١٤ مصفحة و٢,٧٢٨ دبابـــة و٦٥,٨٩٣ سيارة حربية و١٣,٠٠٠ (جيب) برمائي . هذا عدا ملايين القنابل وما أشبه .

جزيرة بوبلو :

من قرب (كوبوهول) ركبنا باخرة سياحية يرفرف عليهـــا العلَـمان الاميركي والكندي وتقـل السياح الى جزيرة (بوبـــلو — BOB - LO) في كندا . عـن يميننا ديترويت بناطحات السحاب وألوف المراكب واليخوت

ومداخن المصانع وعـن شمالنا (وندزور) ببيوتها الوادعة بـين الخضرة ومستودعات القمح . عندما اطلت الباخرة على الجزيرة رأينا العَلَم الكندي مرسوماً باقحوان على الارض وعن جانبيه اسم (كندا) واسم (بوب لو). الجزيرة بأكملها هي مدينة ملاهي تعج بالسياح وجوها صاخب مرح .

مدينة السيارات :

في الوقت الحـاضر تنتج ديترويت وحدها ربع سيارات امـيركا وفي الطليعة جنرال موتورز ففورد فكريزلر. بجانب الإنتاج توجد مختبرات لتقدم الإنسانية في كل الميادين، فجنرال موتورز متبرعة بالصرف على الابحاث وعلى ١٨ الف عالم ، وفورد على ١٢ الف عالم . في ١٩٦٧ انتجت جنرال موتورز سيارتها رقم ١٠٠ مليون وكانت من ماركة شيفروليه . في ٢٩ / ٧ / ١٩٧٢ نشرت إحـدى الصحف الأرقام التالية : في الستة الأشهر الاولى من ١٩٧٢ كسبت جنرال موتورز ملياراً و٣٠٠ مليون دولار وفورد ٥٣٤ مليون دولار وكريزلر ١٠٤ مليون دولار .

رالف نادر وتحسين الانتاج :

عرفت جنرال موتورز خصماً عنيداً في المحـامي الشهير (رالف نادر) الذي هو من أب لبناني . ألـّف كتاب (هـــذه السيارات القاتلة) انتقد فيـــه بنوع خاص سيارة (كورفير CORVAIR) من انتاج جنرال موتورز فسقط رقم مبيعاتها وتخلت عـن متابعة انتاجها . وتحت ضغط رالف نادر طالب فورد في سنة ١٩٦٩ الحكومة بالاهتمام بتنقية الهواء ودرء التلوث ولو اقتضى ذلك انفاق الملايين في الابحاث وأزالت مصانع فورد ٨٠٪ من التلوث بسياراتها .

(رالف نادر) هو محامي القضايا العامة في امـيركا فليس هو في خدمة (زبائن) يدفعون له بل هو (متطوع) لتنبيه المستهلكين الى أضرار الإنتاج

وهو دوماً الفائز . رأى ذبابة في صحن السلطة بمطعم فى واشنطن فانطلق في تحقيق عن نظافة المآكل في اميركا. وبسببه أزيل (جلوتامات الصوديوم) من أطعمة الأطفال لأنه يضر بالدماغ وخففت المواد الدهنية في السجق الذي هو المأكل الشعبي الأول في اميركا وسحبت بعض ماركات التلفزيون من السوق لأنها تؤذي العين الخ.. لا يحبه الرأسماليون لأنه يضيع عليهم مكاسب باهظة ، ولا يحبه الشيوعيون لأنه لا يريد هدم النظام الرأسمالي بل فقط إصلاحه ، ولا يحبه السائقون فهو سبب الإلزام بربط (حزام الأمان) .. يكفيه انه معبود المستهلكين .

كريزلر :

بدأ (كريزلر) حياة العمل ببيع الحلب وقبض سنت واحد عمولة عن كل ليتر . ثم عمل ساعياً عند بقال يعطيه ١٠ دولارات بالشهر . سنة ١٩٠٨ رأى لأول مرة سيارة في معرض شيكاغو فحامَ حولها أربعة أيام يدرسها من خارجها ويقرأ ثمنها ٥٠٠٠ دولار ويعد ما معه فلا يتجاوز ٧٠٠ دولار ! اشتراها بمعونة صديق ثري وفكها قطعة قطعة وقتلها تمحيصاً واختباراً ثم أعاد تركيبها وأقلع بها دون أن يتعلم القيادة فارتطم بشجرة وسقط في حفرة ولكن لم ييأس. رفض معرض نيويورك للسيارات ان يعرض (ماركة كريزلر) لأنه غير معروف فاستأجر كريزلر صالة فندق (كومودور) وعرضها فيها . كسب في العام التالي أربعة ملايين دولار وبدأ يصعد سلم الإنتاج والثروة والشهرة .

باب البحيرات الكبرى :

الطريق من ديترويت الى مضيق وجسر وجزيرة (ماكيناك) نحو ٥٠٠كم في سهل أخضر تزينه مئات البحيرات فيحق لولاية ميتشجان أن تكتب على لوحات سياراتها (بلاد المـاء والشتاء والبهاء — WATER , WINTER , WONDERLAND) . في مضيق ماكيناك تلتقي البحيرتان (ميتشجان

و هيورون) ويفصل المضيق بين ميتشجان السفلى وميتشجان العليا . كانت المنطقة مطمعاً للهنود ثم للفرنسيين وللانجليز وللاميركان لأنها باب البحيرات الكبرى ومعبر بين الشمال والجنوب ومركز تجارة الفراء .

مدينة « ماكينو » :

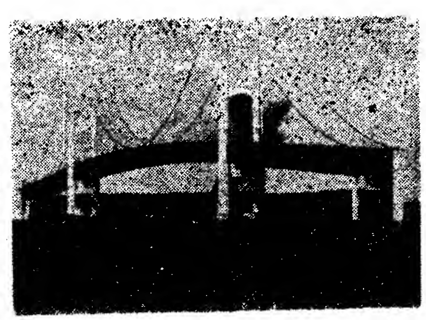
في مدينة ماكينو قلعة (ميشيلي ماكيناك) التي بناها الفرنسيون سنة ١٧١٥ وقد تعاقب فيها الفرنسيون فالانجليز فالهنود فالانجليز فالاميركان . اعيد بناؤها حسب التصميم الأصلي بحجر من أسفل وبخشب من فوق فيه فتحات مرامي للسلاح. عندما استاءَ الهنود من حكم الانجليز لجأوا الى خدعة بقيادة زعيمهم (بونتياك) : قاموا بألعاب هندية أمام القلعة فخرج الانجليز لمشاهدتها فاستلّ الهنود خناجر اخفوها تحت ارديتهم وفاجأوا الانجليز فهزموهم .

مدينة « سانت اينياس » :

في ١٦٧١ أسس هنا الأب (ماركيت) اليسوعي مدينة (القديس اينياس — ST. IGNACE) في عيد العمل الذي يقع الاثنين الأول من شهر ايلول يُحيي السكان هذه الذكرى بزرع (شجرة الثوب الأسود) فهكذا دعا الهنود الصليب ألذي غرسه الأب (ماركيت) في مركز التبشير .

جسر «ماكيناك» :

بين مدينة (ماكينو) ومدينة (سانت اينياس) يمتد فوق المضيق جسر ماكيناك الذي افتتح في ١٩٥٧/١١/١ . انه من أروع الجسور في اميركا ومن أجمل ما صنعت يد الإنسان . طوله ٨٠٣٨ متراً منها ١٤٠٠ متر الجزء المعلّق بين البرجين اللذين يبلغ ارتفاع كل واحد منها ١٦٥٦ متراً . طول حبال صلب الجسر ٦٧٥٧٨ كيلو متراً ... يوم عيد العمل يعبر عليه المشاة الوفاً والوفاً في مسيرة ترفيهية وتذكارية فيبقى للسيارات فقط مسلكان .



جسر ماكيناك



جزيرة ماكيناك



الصخرة القوس

جزيرة « ماكيناك » :

من (سانت اينياس) ركبنا الباخرة الى جزيرة (ماكيناك) وكأننا في بحر عظيم وليس في بحيرة، فبالفعل نحن في قلب منطقة البحيرات الخمس[1] الكبرى . هذا الماء الذي نراه اليوم أزرق جميلاً ونستمتع به في جو شامس منعش يجلّد في الشتاء ويوحش وتكسر فيه كاسحات الجليد .

مررنا بجزر عديدة قبل أن ترسو باخرتنا عند (ماكيناك) أشهر جزيرة في البحيرات الخمس وعاصمة ميتشجان الصيفية. السيارات محرّمة فيها فالتنقل في عربات تجرها الأحصنة أو على ظهر الخيل أو بالدراجة لأنها جزيرة الهدوء والعزلة والاسترخاء وفنادقها أكثر من منازلها . من شارعها الرئيسي ركبنا عربة طـافت بنا في الجزيرة . مررنا بال (جرانت اوتيل) الفخم حيث يكلف المبيت ٤٢ دولاراً . وصعـدت بنا العربة في السفوح يحيينا البوليس المتجول على الخيل ونحيي هواة المشي ولاعبي الجولف ونتغلغل وسط غابات كأننا في برية نائية لا يسكنها بشر. من مناظر الجزيرة التي لا تنسى (الصخرة القوس) المرتفعة ٤٤٧ متراً أمام الشاطىء وفتحتها ١٥٢ متراً . كان الهنود يعتقدون ان نفوسهم تعـبرها لتتحـد بـ (جيتشي مانيتو) الروح الأعظم زعيم كل الهنود الذي يسكن داخـل صخرة (رغيف السكر) القائمة في الجزيرة غـير البعيدة عن (الصخرة القوس) . ختمنا الجولة بزيارة (قلعة ماكيناك) الـتي بناها الانجليز لحمايتهم من الاميركان الذين أعلنوا الاستقلال وهي الآن أثر تاريخي وسياحي .

---

(١) سوبريور ومساحتها ٣١٨٢٠ ميل مربع. هيورون: ٢٣٠١٠ ميل مربع. ميتشيجان: ٢٢٤٠٠ ميل مربع . ايريه : ٩٩٤٠ ميل مربع . اونتاريو : ٧٥٤٠ ميل مربع . ومجموع مساحة الخمس : ١٨٧٠٠٠ كم٢ وفيها ثلاثة ارباع المياه العذبة على الارض لكن شواطئها ملوثة.

٢٨

جامعة ميتشيجان في آن اربور

مدينة جامعية :

اختارت جامعة ميتشيجان ان تكون في (آن اربور — ANN ARBOR) وهي مدينة صغيرة لطيفة خضراء تقــع على بعد ٥٦ كم غربي ديترويت . سكانها ١٠٠ الف ٤٠ ٪ منهم طلاب . ربمـا هي المدينة الوحيدة في اميركا حيث وسيلة التنقل هي الدراجة اكثر من السيارة . سررت بزيارة الجامعة التي تعدُّ بين العشر جامعات الاولى في البلاد. الطالب المستجد يتعرف عليها بإرشاد طالب قديم يرافقه كدليل مدة ثلاثة أيام وأنا تعرفت عليها بإرشاد سيدة عربية مهاجرة تعمل في مكتبتها. أود ان اطيل في سرد (احصائياتها) لسنة ١٩٧٢ لكي يأخذ قارئي فكرة عن جامعات اميركا. الارقام هي جافة ولكنها فصيحة مقنعة فعذرا .

احصائيات :

ميزانيتها ٣٣٢ ٧٢٠ ٢٨٥ دولارا ترد من المصادر الآتية: ٢٨٪ من حكومة ولاية ميتشيجان ٢٧ ٪ من نشاطاتها ، ٢٠ ٪ من الحكومة الاتحـادية ، ١٤ ٪

من رسوم يدفعها الطلاب ، ٦ ٪ من الهبات ٥ ٪ من ابواب مختلفة . وتصرف كالآتي : ٣٢ ٪ للتعليم ٢٧ ٪ للنشاطات ١٨ ٪ للأبحـاث ١٤ ٪ المصروفات العامة ٧ ٪ لاعانات الطلبة ٢ ٪ المكتبات .

فيها ٣٩٩٨٦ طالباً و ١٣٨٦٠ موظفاً منهم ٢٥٧٥ للتعليم . معدل الرسم السنوي للذين من ولاية ميتشجان بـين ٦٦٠ و ٩٠٠ دولار حسب الكليات وللذين من غير ولاية ميتشجان بين ٢١٤٠ و ٢٣٠٠ دولار. أما الذين يعيشون منهم في آن اربور فيتكلفون للرسم والمعيشة نحو ٢٧٠٠ دولار إذا كانوا من ولاية ميتشجان ونحو ٤٢٠٠ دولار إذا كانوا من خارجها .

إذا عجز طالب عن الدفع تقدم له الجامعة مساعدة مالية على ثلاثة أنواع: اما منحة مجانية ، وأما قرضاً بدون فائدة ، وأما إعطاء فرصة ليؤدي فيها



جامعة ميتشيجان في آن اربور

عملاً من ١٥ الى ٤٠ ساعة في الاسبوع حسب حـــالته . وتعطى الأفضلية بتقديم المساعدات لسكان ولاية ميتشجان .

تبلغ مجموعة ممتلكاتها ٢٩٥ ٧٥٤ ٤٨٦ دولاراً . وفيها ١٨ كلية وللسكن ٤ بنايات كبيرة للطالبات وواحدة للطلاب و ١١ مختلط و ١٣٢٤ منزلاً حتى يمكن اعتبار « آن اربور » ذاتها كمدينة جامعية .

فيها متاحف عديـــدة منها للتاريخ الطبيعي وللآثار من العصور القديمة والوسطى وللفنون ومتاحف انثروبولوجيا وبلانتولوجيا وزوولوجيا وحديقة نبات. وفيها مختبرات كثيرة لأنها في الطليعة للأبحاث في الذرّة والالكترونات.

مستشفى الجامعة :

للجامعة أكبر مستشفى جامعي بأميركا فيه ١٥٠٠ سرير و ١٥٠٠ عامل. وهو مشهور لأعصى الحالات المستعصية . ولئلا يضيع الزائر تمتــد خطوط صفراء وحمراء وزرقاء الخ ... من مكاتب الاستقبال الى كل المستشفى فيُقال مثلاً للزائر في المرة الاولى : إذهب الى الغرفة رقم كذا واتبع الخط الأزرق ... أما للمرات التابعة فلا يحتاج للمرور بالمكتب بـــل يتجه رأساً فهنالك بعض ما قد نظنه نوعاً من التغاضي في نظام الزيارات إنما لا يسمح الاميركي لنفسه بالدخول وبالزيارة خارج فترة المواعيد . يكلّف اليوم في المستشفى نحو ٩٠ دولاراً أما إذا كانت الحالة المرضية جديـــدة وبالتالي موضوع بحثٍ واختبار فلا يدفع المريض شيئاً لأنه يساهم في تقدُّم الطب ولو مرغماً ...

مكتبات الجامعة :

مكتبتها بل بالأحرى شبكة مكتباتها هي الثالثـــة في البلاد : مكتبة رئيسية و ٣٥ مكتبة في الكليات . تفتّش حقائب الخارجين منها ومع ذلك تفقد بعض الكتب القيّمة ... تشمل المكتبة عدا المخطوطات والمطبوعات تسجيلات جامعيــة وموسيقية ومسرحية وخطابية وألوف « الميكرو فيلم » ومجلات وجرائد من كل أنحاء العـــالم رأيت بينها من لبنان النهار ومن مصر

الاهرام والاخبار . من الطريف جـــداً رؤية من يقرأ الميكرو فيلم كيف يمر أمامه مكبراً على شاشة عرض . في صفحات المستعيرين توجـد ألوف النقط وكل نقطة توضع تحت المكـّبر فتظهر صفحة كامـلة . توجد في ركن آلات كاتبة مفتاحها ٢٥ سنت وآلات لتصوير الصفحات مفتاحها ٥ سنت. وهنالك غرف للعميان يسمعون فيها بـــدل أن يقرأوا وغرف لدرس انفرادي هي معزولة تماماً وغرف لدرس جماعي صامت وغرف للمناقشة . أضف الى ذلك جواً مكيف الهواء هادئاً كل الهدوء واثاثاً مريحاً كل الراحة .

معرض شعبي ومهرجان الفنون :

خلال إقامتي في آن اربور استمتعت بمعرضها الشعبي من ١٩ الى ٢٢ تموز ١٩٧٢ وهو يقام فيها منذ ١٣ سنة برعاية الجـامعة وجمعيات الفنون وغرفة التجارة وبالوقت نفسه يقام مهرجان الفنون وبالطبع أبطال المهرجان والمعرض هم الطلاب . وأجمل وأغرب من الاثنين استعراض الطلاب والطالبات أنفسهم في الشوارع فترى العـين ٩٠٪ منهم خنافس وهيبيز بذقون وشعر مسترسل ونصف عري وثياب قديمة مهلهلة . حقاً « رب صدفة خير من ميعاد » فلم اتوقع أن يتاح لي مثل هذا المشهد ! من يظن انهم غير جادّين فيما يعملون يكن واهمـــاً . يمنـع مرور السيارات في منطقة المعرض والمهرجان حيث تتوالى مئات بل ألوف الأكشاك في الشوارع وعلى الأرصفة لبيـع ما يدعونه قطعاً فنية أو أثرية. وليتها كذلك فما نرميه نحن في الفضلات — أو الروبابيكا كما ينادى في مصر — هو معروضهنا بأسعار خيالية «لأنه أثري»! ما كنت أظنه بربع دولار يكون بخمسة دولارات ومـــا لا اشتريه بخمسة دولارات يشترى هنا بثلاثين وأربعين لأنه « انتيكا » فعمره ٢٠ أو ٢٥ سنة ! حقـاً لم افهمهم فيهذا... ولكني فهمت قليلاً ما كانوا يمثلون أو يغنون أو يرقصون وتذوّقت جمال بعض رسوماتهم . لم أشترِ شيئاً فكل شيء هنـــا غالٍ على محفظةنقودي وأخشى ان اظهره في الشرق لئلا يعتبروني مثل أولئك العارضين ويقولوا لي : ولكن هذا للرمي !

٢٩

مملكة فورد

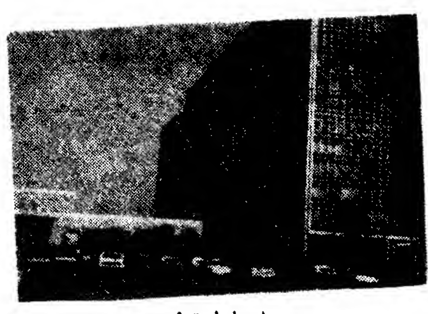
منشأة النهر الأحمر :

اسم « ديترويت » مرتبط باسم « فورد » . ومجموعة مصانعه التي تسمّى « منشأة النهر الاحمر – RIVER ROUGE PLANT » تقع في مدينة « دير بورن – DEARBORN » بضواحي ديترويت .

بدأنا الزيارة عند مدخل بناية « إدارة فورد » التي يلتقي فيها فورد الثاني حفيد هنري فورد الاول مع مجلس الادارة وممثلي العمال وكبار المشرفين على مصانعه في ديترويت وأميركا وشتى أنحاء العالم . بعد أن وزّعوا علينا منشورات عديدة عن « مملكة فورد » طفنا ثلاث ساعات بأقسام المصانع .

مساحة المصانع خمسة ملايين متر مربع . فيها ٢٢٠ فرن فحم حجري و٥ أفران عالية دائمة الاشتعال . تنتج كل قطع السيارة ما عدا إطارات المطاط . لها محطات لتوليد كهرباء تكفي مدينة من مليون نسمة وتصرف يومياً ٤٢٥ مليون جالون ماء وطاقات حرارية تكفي لمدينة يسكنها ٣٣٠ الفاً . وتمتد داخل حدود المصانع سكة حديد خاصة طول خطوطها ١٧٠ كم.

وتذهب بواخرها وتجيء بين « النهر الاحمر » والبحيرات الكبرى . تنتج طائرات ودبابات ومصفحات وسكك حديد ومختلف أنواع المحركات وماركات السيارات المشتقة من فورد مثل ميركوري ولنكولن وثندربرد وكوميت وجالاكسي وفايرلاين ومستانج وپينتو وتورينو وماڤريك الخ .



بناية ادارة فورد

كيف تولد السيارة :

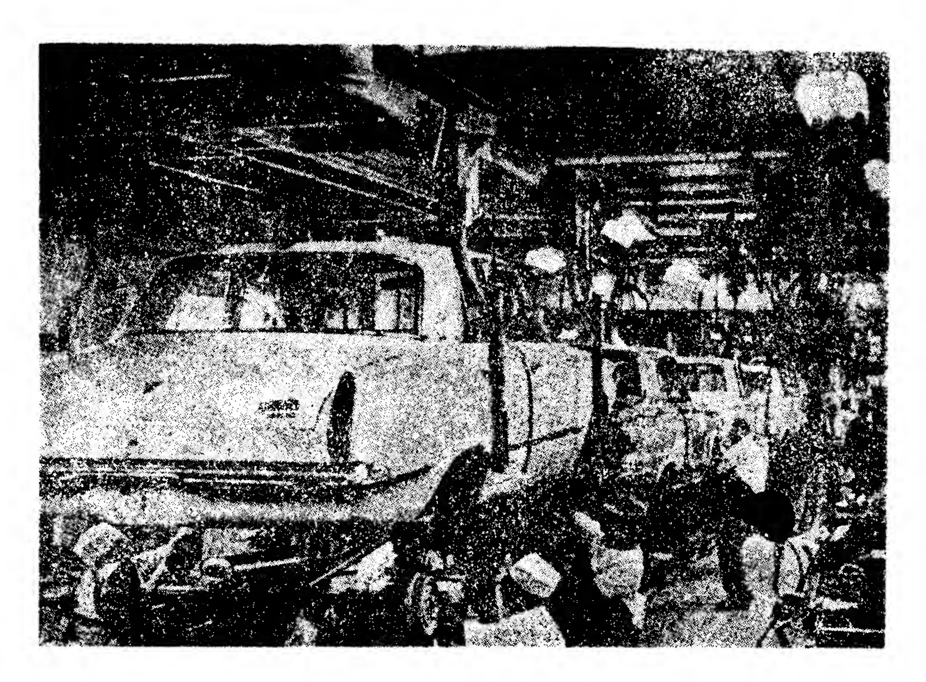
كان آخر المطاف في قاعة التجميع حيث تلتحم القطع فتخرج سيارة جاهزة للبيع . بدأنا من لا شيء وتابعنا سير العملية من البداية الى النهاية . مدة التجميع (او المخاض) هي ٤٩ دقيقة ولكن بما ان أجسام السيارات تتوالى على خط التجميع فكل دقيقة كانت تنجز سيارة وتخرج مجهّزة حتى بالبنزين والكهرباء فيقودها عامل الى الخارج . يقف العمال على جانبي الخط وفي خندق تحته وتنزل القطع آليّاً من السقف الى مكانها المحدد في جسم السيارة المتقدم على الخط وما على العمال إلا أن يثبتوها ويشدّوها . ويتبع جسم سيارة ثانية وثالثة ورابعة بعد المائة وخامسة بعد الالف وهكذا .. يوم زرت المصنع في ٢٧ / ٧ / ١٩٧٢ كانت تتوالى على خط التجميع خمس ماركات ومن المدهش حقاً ان القطع القادمة آليّاً هي المختصة بالماركة وباللون! ويزيد اندهاشي واندهاشك عندما نعرف أن في السيارة نحو ١٥ الف قطعة!

هنا يدرك المشاهد على الطبيعة كيف ان عمل الآلة قد يعدم التفكير والإبداع في العامل ولكن حاجة المجتمع تقتضي ذلك . ومن افضال فورد على صناعة السيارات هو اختراع طريقة الانتاج المتسلسل .

ان مصانع فورد وغيرها تنتج أقـــل من طاقتها كيلا تكسد السيارات ويهبط سعرها فتحدّد مسبقاً كمية الإنتاج . حسب المنشور الذي وزّع علينا كانت الاسعار سنة ١٩٧٢ كما يلي : ماڤريك من ٢١٤٠ الى ٢٣٠٩ دولارات. بينتو من ١٩٦٠ الى ٢٢٦٥ دولاراً . تورينو من ٢٦٧٣ الى ٣٠٩٤ دولاراً . مستانج من ٢٦٧٩ الى ٣٠٠٣ دولارات الخ .. أغلى سيارة كانت ثندربرد : ٥٢٩٣ دولاراً .

انتاج الاطارات :

قلتُ إن مصانع فورد تنتج كل قطع السيارات ما عدا الإطارات . فأين تنتج هـــذه ؟ في مدينة « اكرون » عاصمة المطاط في العالم وهي في ولاية



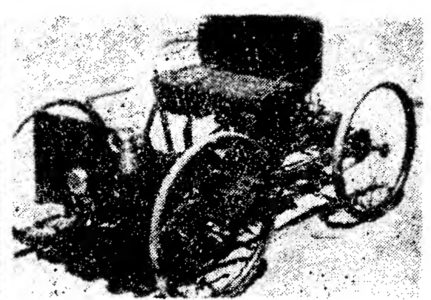
انتاج السيارات

اوهايو . لقد زرت مرتين اكرون ورأيت اكبر مصنع فيها وهو مصنع « جوديير » حيث طفت ثلاث ساعات متتبعاً مع الدليل عملية « ولادة الإطار » . يستخرج سائل من جذع شجرة المطاط ويمزج بمواد كياوية غالبها مشتق من النفط ويعجن ويطبخ ثم يُقطع شرائح تنتهي بمختلف مصنوعات الكاوتشوك وأهمها الإطارات التي تخرج من هذا المصنع بـ ٢٥٠٠ شكل .

في سنة ١٩٧١ بلغت مبيعات شركة « جوديير » ٣،٦٠١،٥٦٥،٠٠٠ دولاراً دفعت منها للعاملين ١،٠١٤،٤٤٨،٠٠٠ وللضرائب ٥٣٧،٥٠٨،٠٠٠ وبقي لها مكسباً صافياً بعد كل المدفوعات ١٧٠،٢٢٣،٠٠٠ دولاراً . بعد ان اكتشف « شارل جوديير » سرّ المطاط سنة ١٨٣٤ أفلس وُسجن مراراً ومات فقيراً ولكن في خلال حياته رأى تقدم صناعة المطاط وفوائدها وعزّى نفسه بهذا الكلام الجميل : « لا احزن لأنني زرعت وغيري جنى فيحق للانسان أن يحزن إذا زرع ولم يجنِ بعده أحد » .

متحف فورد :

بقرب المصانع يوجد متحف فورد الذي دُشّن سنة ١٩٢٩ بحضور رئيس الولايات المتحدة والمخترع اديسون بمناسبة اليوبيل الفضي لمصنع فورد . مباني مدخله نسخة عن القاعات الاولى للاستقلال وللبرلمان وللبلدية في فيلادلفيا .



أول سيارة فورد من ١٨٩٦



من الطائرات الاولى

المتحف ثلاثة أقسام: الفنون الاميركية والآلات الميكانيكية والمخازن الأثرية. يعرض قسم الميكانيكا التطور في آلات الفلاحـــة والمهن اليدوية والماكينات (نسيج ونجارة ومـا أشبه) والطاقة الكهربائية والبصريات والنقل الخ .. من بين آلات الفلاحة محراث مصري يعود الى ألفي سنة قبل المسيح وهو من خشب ومغرزه من معدن . مطاحن القمح من « الجرن والمدقـة » عند هنود اميركا الى المطاحن الحديثة. بين آلات النسيج والخياطة توجد أول آلة ماركة « سنجر » والنول الذي كان يستعمله سكان « كشمير » .

أروع قسم هو قسم « النقل » يعرض جميع أنواع النقل منعربات أحصنة الى دراجات (منها دراجة طويـــلة بعشرة مقاعد) ومراكب وطائرات وقطارات وسيارات منذ عربة توت عنخ آمون بعجلتين الىالعربات الرومانية الى الآلات المتحركة بالبنزين او البخار او الطاقة الكهربائية والمحاولات الاولى لتسيير سيارات في اوروبا إذ إن فرنسا والمانيا حاولتا قبل اميركا في هـذا المضمار . بين المئتي سيارة المعروضة توجـد سيارة فورد من ماركة لنكولن ركبهـــا ملك بريطانيا جورج السادس والملكة اليزابيث عندمازارا مصانع فورد ، وأول إطار مطاط ، وأول « كاديـــلاك » من ١٩٠٦ وأول سيارة فورد من ١٨٩٦ .

في قسم الطائرات طائرة ذات سطح واحـد كالتي طار بها « بلاريو — BLERIOT » فوق بحر المانش بـين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٩ . وطائرة من مصانع فورد مزوّدة بقدمين مستطيلين للانزلاق حطّ بها الاميرال «بيرد ـ BYRD » في القطب الجنوبي .

قرية « جرينفيلد » :

كان اسمالقرية التي وُلد فيها فورد بضواحي ديترويت «قرية جرينفيلد ـ GREENFIELD VILLAGE » أي المرج الأخضر فأطلقه على القرية التي أنشئت بجوار مصنعه وتعدّ نحو مئـــة بيت . يزورها سنوياً نحو مليون

ونصف ليروا كيف كان يعيش الاميركيون في القرون الثلاثة الماضية. البيوت التي فيها هي منقولة من مواقعها الاصلية ومزروعة هنـــا . ومنها : البيت الذي وُلد فيه هنري فورد والمخزن الذي اخترع فيـــه سيارته الاولى وبيت اديسون ومكتب لنكولن ودكان الاخوين «رايت» مخترعي الطائرة ومطحنة قمح ومعمل حرير طبيعي ودكان منجّد وفرن حداد ومطحنة هوائية ومعامل سكر وقطن وفخّار وعصير تفاح وكنيسة مرتا ومريم ودعاها فورد هكذا على اسمي أمه وحماته ويصلي فيها كل صباح طلاب مدرسة جرينفيلد .

في «جرينفيلد فيلاج» مختبر اديسون الذي اخترع فيه المصباح الكهربائي في ٢١ تشرين الاول ١٨٧٩ وذكرت فيه بعض اختراعات اديسون : مسجل الصوت ، واصلاحات إضافية في التلغراف ، والتلغراف الاوتوماتيكي، والآلة الكاتبة ، والميكروفون ، وجهاز الارسال التلفوني من الكربون الذي أصبح شقيق جهاز «بيل» ، ومحطة نقل التيار الكهربائي سواء للاضاءة أو للتدفئة أو لاستعمال الطاقة ، والدينامو ، وأول محرك بالكهرباء ، وأول قطار يسير بالكهرباء، وطريقةخاصة للاسلكي أفادت ماركوني في اختراع الراديو الخ... هكذا يكون اديسون أعظم مخترع على الاطلاق وكان فورد معجباً به فدعاه اكـــثر من مرة لزيارة مصنعه . وحفظ أثر قدميه على الاسمنت في المصنع . وعرض في المتحف القطـــار الذي ركبـــه اديسون والرئيس هوفر وفورد وزوجاتهم للتجوّل في « جرينفيلد » . وقدّم تكريماً لأديسون غداءً كلّفه مليون دولار إذ دعا اليه الرئيس الاميركي و ٥٠٠ من عظماء البلاد .

لمحة عن فورد :

بدأ هنري فورد حياته ميكانيكياً فمصلح آلات زراعية فعاملاً في منشرة ثم في محطة توليد كهرباء ديترويت . كان عمره ١٣ سنة حين رأى أول آلة تتحرك من ذاتها فظلّ يحلم بها الى ان اخترع أفضل منها . ليـلة عيد الميلاد

سنه ١٨٩٣ حمل الى البيت اول محرّك أنجزه وكان يعمل بالبترول وبسيلندر واحد .

في ٤ تموز ١٨٩٦ اخترع أول سيـــارة وسيرها في ديترويت . ليس المخترع الوحيـــد للسيارة ولكنه أول من استطاع انتاجها وتعميمها وبيعها وأول من أنشأ « سلســلة التجميع » . بين ١٩١٧ و ١٩٢٧ كان ينتج نصف سيارات اميركا .

دعاه مرة الرئيس فرنكلين روزفلت الى البيت الابيض لتناول العشاء مع ملك وملكة بريطانيا فاعتذر بحجّة ان نادي «البستنة – GARDINAGE» الذي ترأسه زوجته كلارا سيجتمع في تلك الليــلة ولا بدّ من حضوره معها .

مات في ١٩٤٧ عن ٨٣ سنة وكان ابنه « ادسل – EDSEL »[1] قد توفي بالسرطان سنة ١٩٤٣ . عندما مــات « ادسل » رأت ارملته وأولاده ان ضريبة نقل الارث وحدها هي ٣٠٠ مليون دولار فبدل ان يبيعوا من اسهمهم في فورد ليدفعوها حُوّل المبلغ لانشاء « مؤسسة فورد » المعفاة من الضرائب لأنها خيرية ... سنة ١٩٥٠ بلغت حصة المؤسسة من الأرباح ٨٦٫٥ مليون دولار . وفي ١٢ كانون الاول ١٩٥٥ وزّعت خمسمئة مليون دولار على ٤١٥٧ معهداً ثقافياً ومؤسسة خيرية وما اشبه .

---

(١) هو الذي انشأ المتحف وقرية جرينفيلد .

٣٠

شيكاجو

مع رجل أعمال انجليزي :

في طائرة « اميركان آير لاينز » من ديترويت الى شيكاجو كنت بجانب رجل أعمـال انجليزي هاجر من انجلترا منـذ ثماني سنين وتوفق في أعماله بين ديترويت وشيكاجو . وعلى عكس غالب الانجليز هو معجب بأميركا وبإمكانيات العمل فيها وبسعة آفاقها . قبيل ان ننزل في المطار دعاني للركوب في سيارته ليوصلني الى وسط المدينة . بان مطار « متروبوليتان » واسعاً جداً من الطائرة ومليئاً بالحركة وقال لي جاري لا تتعجب فهذا واحد من ثلاثة مطارات هنا ففي شيكاجو اقوى حركة طيران داخل الولايات المتحـدة وبين مطاراتهـا الثلاثة ينقل الهليكوبتر المسافرين في فترة ١١ دقيقة .

كانت مفاجأة عند الخروج من المطار فلم يجـد الانجليزي في جيبه مفتـاح سيارته فابتسم وقال لي : بالامس جئت بسيارتي الى المطار ولا بد ان المفتاح بقي فيها . وهكذا كان ومع ذلك بقيت السيارة في مكانها ولم يفقد منها شيء. ألوف وألوف السيارات واقفة حول المطار ولئلا ينسى صاحب السيارة اين وضعها فالمنطقة مقسّمة الى أجزاء تحمل ارقاماً وحروفاً ابجدية وفي كل قسم

١٠٠ سيارة . شبكة طرق السيارات الداخلة الى شيكاجو والخارجة منها من مختلف جهاتها هي رائعة جبارة وقد صوّرت جزءاً منها يلتقي فيه ١٤ طريقاً دون تقاطع بينها ! .

انتظرتني مفاجأة في فندق « هيلتون » اذ كتب لي موظف الاستقبالات على استمارتي ١٠ دولارات فقلت له : لقد قلت لي ١٨ دولاراً منذ نصف ساعة حين تكلمت من المطار فأجابني : لم نكن نعلم انك رجل دين ! عندما كنت بعد في القاهرة أُعِدُّ برنامج رحلتي قصدت ان انزل في « هيلتون » شيكاجو اكبر فندق في العالم . فيه ٣٠٠٠ غرفة و ٢٠٠٠ موظف منهم ٧٠ للهاتف و ٧٢ للمصاعد .

من تاريخ شيكاجو :

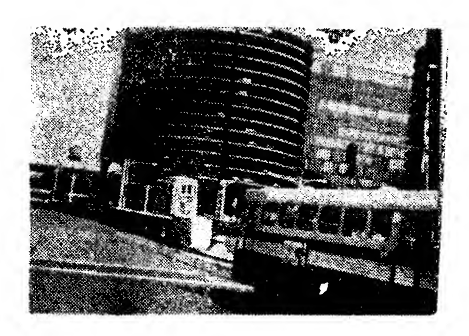
شيكاجو هي ثاني مدينة في اميركا بعد نيويورك . يبلغ عدد سكانها نحو اربعة ملايين ومع الضواحي ستة ملايين ونصف . احتفظت باسمها الهندي القديم . أول من وطىء ارضها من الاوروبيّين ـ سنة ١٦٧٣ ـ كان الفرنسيان الاب « مركيت ـ MARQUETTE » و « لويس جوليه ـ LOUIS JOLIET » . سنة ١٦٨٢ احتل المقاطعة القائد الفرنسي « لاسال » باسم الملك لويس الرابع عشر ودعاها « لويزيانا » . عاشت في حرب متواصلة مع الهنود الى ان كسر شوكتهم الجنرال « واين ـ WAYNE » في ١٧٩٥ . سنة ١٨٠٣ اشترت الولايات المتحدة من فرنسا ولاية لويزيانا . سنة ١٨٧١ وقع حريق شيكاجو الشهير اذ ركلت بقرة مصباحاً زيتياً اشعل الاصطبل وانتشرت النار مدة ٢٧ ساعة واتت على ١٨ ألف بناية في ٨ كم مربع وقتلت ٢٥٠ شخصاً واتلفت ما قيمته مائتا مليون دولار ! انبعثت شيكاجو من رمادها مدينة عملاقة واصبحت « عجوزة » اميركا الاولى في تجارة اللحوم لا سيا المعلّبة واعظم مركز للسكك الحديدية ومركزا مصرفيا نشيطاً ووكر المجرمين . في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٩٣ اكتشف البوليس صدفةً ان حريقاً



شيكاجو



صورة من الطائرة لأحد مداخل شيكاجو



١٤ طابقاً للسيارات

«غير بريء» اشتغل في قصر الشاب الثري «هـ. هـ. هولمس - H. H. HOLMES »
في شارع رقم ٦٣ وبالتحرّيات اكتشفوا ان صاحبه قتل واخفى في
دهاليز القصر ١٥٠ جثة امرأة واصطنع هذا الحريق ليزيل آثارها فشنق
وله من العمر ٣٦ سنة . انما في شيكاجو امهر واسرع بوليس للقبض على
المجرمين. تذكر شيكاجو باعجاب عمل قائد البوليس الشهير « ORLANDO
WILSON » الذي ترأس البوليس في ١٩٦٠ وطهّره بعد ان علم ان بعض
رجال الأمن كانوا يقومون بسرقات ثم يعيّنون هم للتحقيق فيها . . . ألغى
١٧ قسم بوليس وابقى فقط ٢١ وادخل بينهم مدنيين ونساء واستعمل
آلات حديثة جداً للسرعة في الانقضاض . يكفي ان يُدار قرص التليفون
للتنبيه الى وقوع سرقة او قتل وهو حالا من مركز القيادة يتصل بالبوليس
المتجوّل بسياراته في كل احياء المدينة فيصل الى الموقع في اقل من دقيقة .
يسمح للزائرين ان يقوموا بجولات في دائرة البوليس وفي المختبر الجنائي وفي
قسم تحاليل الجرائم .

جولة في شيكاجو :

من اقدم مافي المدينة منطقة الحلقة « لوب - LOOP » وقد دعيت هكذا
لأن فيها قلب المدينة التجاري محاطاً بحلقة من اعمدة يمتد عليها الترام المعلّق.
شارعها الرئيسي « ستايت ستريت - STATE ST. » هو في الليل شعلة من
النار وفي النهار اكبر منطقة ازدحام بالمدينة .

بناية «مارينا سيتي - MARINA CITY » او بالأحرى بنايتاها التوأمان
هما برجان من المكاتب والشقق الدائرية في ٦٠ دوراً واصبحت اغرب بنيان
في شيكاجو بشكلها العجيب . والاغرب ان الادوار الاولى الـ ١٤ هي مرآب
للسيارات تصعد إليها في طريق حلزونية وتطلّ من فتحاتها كأنها طيور في
اعشاشها . شارع « مديسون - MADISON » يخترقها من الشرق الى الغرب
وشارع « ستايت - STATE » من الشمال الى الجنوب ومنهما تتفرع باقي



مارينا سيتي

الشوارع بحيث تحمل من الشرق الى الغرب ارقاماً (شارع رقم ١ و ٢ ...)
ومن الشمال الى الجنوب اسماء .

« بناية بالموليف » :

فوق دورها الاعلى وهو السادس والثلاثون تدور منارة جوية تراها العين من مختلف احياء شيكاجو . وهي كرة منيرة قطرها ١٥٢ سم ونورها يوازي ٢ مليار شمعة . تظهر كالبدر اللامع ويمكن للطائرات ان تراها من ارتفاع ١٢ كم حتى على بعد ٨٠٠ كم وهي قادمة الى شيكاجو . وبناية بالموليف نفسها ساطعة اذ يُسلّط عليها في الليل ٤٠٠ كشاف كهربائي .

بناية « مرشند ازمارت – MERCHANDISE MART » .

هي اضخم بناية تجارية في العالم يُعرَض في ادوارها الخمسة والعشرين مليون ونصف مليون صنف .

بناية « برودنشال – PRUDENTIAL » :

ترتفع ٤٠ دورا (١٨٢ مترا) وهي لشركة التأمين «برودنشال» وفيها عدا المكاتب مطاعم وندوات وقاعة للعرض والموسيقى . جدران دورها الأرضي من جرانيت وردي مقتطع من جبال اللورنتيد في كندا . تبين من أعلاها بحيرة ميتشجان واربع ولايات امريكية هي ميتشجان و انديانا و ايلينوي و ويسكانسن .

بناية « ويرجلي – WIRGLEY » :

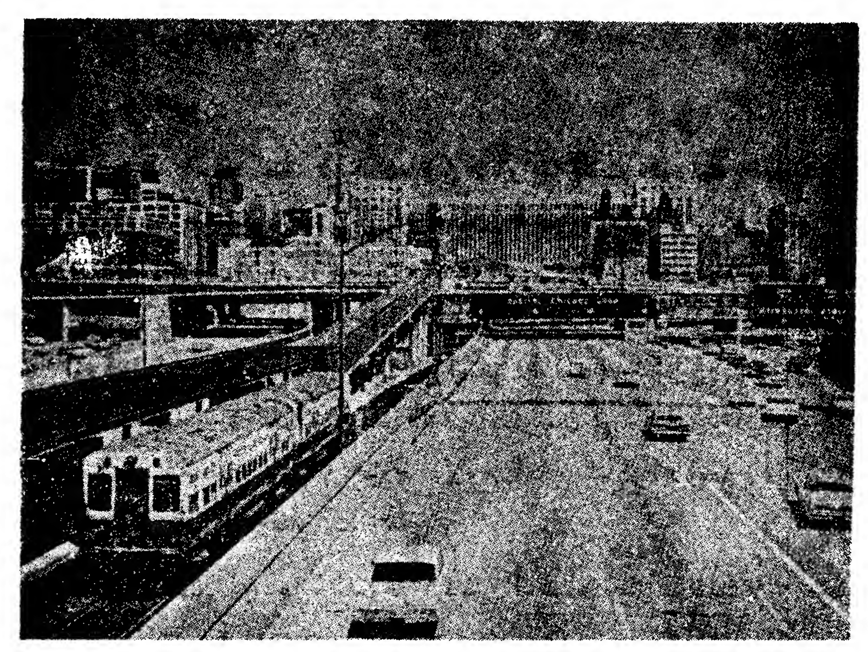
هي من آجر ابيض . في رأس برجها ساعة ضخمة يشغل اطارها مساحة دورين وقطر كل اطار من اطاراتها الأربعة ٦ امتار وتسمع دقّتها رغم صخب الشوارع .

يتفنّن المهندسون في شيكاجو باستعمال مواد بناء غريبة مستجدة فالطريقة الآن هي الاستغناء عن الحجارة والأسمنت والآجرّ والخشب وما الى

ذلك . يرفعون عواميد من صلب والمسافات التي بينها تكون من زجاج وألومنيوم أو نحاس . يعطون للصلب ألواناً متعددة أجملها الاسود فتبدو البنايات كأنها من رخام أسود . تحت بناية البريد المعتبرة اضخم بريد في العالم تعبر طريق مزدوجة من الطرق السريعة الحرة . يمرّ بهذا البريد يومياً ٣٥ مليون رسالة .

ميتشجان افنيو :

ارقى شارع في شيكاغو هو « ميتشجان افنيو » ويُلقّب بـ « الميــل الفاتن » . فيه اكبر الفنادق ومكاتب شركات الطيران وبعض افخم بنايات المدينة وجريدة شيكاغو الكبرى « تريبيون – TRIBUNE » التي تطبع اكبر عدد نسخ بـــين جرائد العالم و « ساحة بلدان اميركا » حيث تخفق اعلام كل الدول الاميركية ما عدا كوبا. ومتحف الفنون وجامعتان والمنارة الجوية التي تحدثت عنها الخ ...



طريق تحت مركز البريد

رأيت الأدوار الأولى من اعلى ناطحة سحاب في شيكاجو « جون هنكوك سنتر – JOHN HANCKOK CENTER » وسيكون ارتفاعها ٣٣٥ متراً بمائة دور من الصلب الاسود والزجاج . لقد فكر المهندسون ان تعلو اكثر من ١٠٢ دور لتفوق « امباير ستيت » في نيويورك ولكن مصلحة الطيران منعتهم . في قلب شيكاغو اغلى ثمن المتر المربع في العالم إذ يبلغ أحد عشر الف دولار .

امتع شارع لقيادة السيارة هو المحاذي لبحيرة ميتشجان : اربع سيارات من هنا واربع من هناك وعلى يمينه شاطىء اخضر امامه ألوف المراكب الشراعية وذات المحركات وعلى يساره أغلى شقق سكنية . طوله ٣٢ كيلو متراً تريح النظر والأعصاب وترسم خطوطاً من الجمال لا تنسى . طول شواطىء البحيرة ٤٩٤ كم وهي البحيرة الأميركية الوحيدة الصرف من بين البحيرات الخمس الكبرى .

شيكاجو في الليل :

في جولة المساء مع « جراي لاين » رأينا ثلاث نافورات منها نافورة « بكنجهام » وهي من رخام وحولها ٤ فئات احصنة تمثل الولايات الأميركية الأربع المحيطة بالبحيرة . سعتها ١,٥٠٠,٠٠٠ جالون ماء وتندفع المياه من ١٣٣ نافورة . كانت رائعة في الليل اذ تتعاقب عليها ألوان أنوار الكشافات من أزرق الى بنفسجي الى أحمر الى أصفر بقوة ٤٥ مليون شمعة فكان استعراضاً شيقاً . كل ليلة يشاهدها ألوف المتفرجين في جيئة وذهاب بالميادين الفسيحة المحيطة بها . ورأينا نافورة « روح البحيرات الكبرى » وهي ترسم اشكالاً مائية لخرائط البحيرات الخمس .

مرّ بنا الدليل في حيّ شيكاجو الشعبي المدعو « ويلز – WELLS » حيث يوجد نحو مئتي ملهى ليلي عدا البارات والمطاعم والمقاهي . الى سنين

قليلة خلت كان هذا الحيّ مبعث إلهام للكتّاب والموسيقيين والرسامين واحترمت بلدية شيكاجو حرمته فلم يطله التجديد بل فقط بعض الترميم لئلا يندثر. تجولنا بعد ذلك ونحن لم نزل في السيارة في « شارع راش — RUSH STREET » اي « شارع الازدحام » وهو ايضاً شارع ملاهي والأسماء المكتوبة على لوحاته توحي بأنه يجمع من مختلف الشعوب القاطنة في شيكاجو فمنها اليوناني والإيطالي والأسباني والصيني الخ ...

ان اهل شيكاجو النشيطين في الأعمال هم نشيطون ايضاً في طلب المتعة والرياضة والفسحة . عندهم الرياضات المائية في البحيرة وخمس ميادين لسباق الخيل واكثر من ٤٠ حديقة عامة . وفي ضواحيها غابات لفسحات عطلة نهاية الأسبوع ولركوب الخيل والدرجات وألعاب الهوكي والجولف . أعظم حديقة في المدينة هي « لنكولن بارك » وفيها جمعية جغرافية ومتحف عن ابراهام لنكولن وأكاديمية علوم وحديقة حيوان ومزرعة دواجن نموذجية وجنينة زهور مقفلة بالزجاج — اكبر واحدة في العالم من نوعها — ونادي للرماية وقنوات للتجذيف الخ . . . من يراها يصعب عليه ان يصدّق الشائعات الأوروبية عن الأميركيين انهم لايعرفون الراحة والمتعة بل يعيشون في دوامة العمل والسرعة ...

شيكاجو هي ايضاً مدينة العلم فيها ٧ جامعات و ٢٠ معهداً عالياً معادلاً للكليات ونحو ٢٠٠ معهد فني وصناعي وتربوي ومهني الخ ...

حيّ واحد لا يعجب الزائرين هو حيّ الزنوج المدعو « برونزوفيل — BRONZVILLE » ربّما من لون بشرتهم البرونزي . انه فقير وقذر ويعكس تناقضاً صارخاً مع أحياء المدينة .

لا بد لكل زائر لشيكاجو من ان يركب الباخرة السياحية ويقوم بجولة في نهرها وفي بحيرة ميتشجان . في ساعة معينة بعد الظهر تنشق من الوسط كل الجسور الممتدة فوق النهر ويرتفع شطراها ويقفان فوق النهر لعبور

المراكب والبواخر وهو منظر عجيب . قبيل الدخول الى البحيرة بسبب اختلاف ارتفاع سطحها عن ضفة النهر وقفت باخرتنا بجانب الحائط واقفلت الأهوسة حتى ارتفع منسوب المياه ثم فتحت ودخلنا البحيرة .

متحف العلم والصناعة :

قرأت داخل قبته « العلم يكتشف قوانين الطبيعة والصناعة تستخدمها لحاجات الإنسان » .

رأيت فيه العقل الالكتروني « I. B. M. 7090 » يستعمل لحل معضلات الصواريخ وسفن الفضاء . ويمكنه ان يقرأ على الشريط المغناطيسي ما يعادل ستة كتب ثم يعيد كتابتها على الشريط في ثانية واحدة !

في « قاعة العناصر » عرض عن الـ ١٠٣ عناصر المعروفة حتى الآن والتي تتكوّن منها الأجسام وتبين على كرة تمثل الكرة الارضية امّ تلك العناصر. قال قدماء اليونانيين بأربعة عناصر او اسطقسات هي الأرض والهواء والنار والماء وفي داخلها ذرات غير قابلة للتجزئة . اما الآن فيقول العلماء ان في الذرّة اكثر من عشرين جسما صغيرا من تواجدها وتفاعلها تختلف العناصر . أهم ما فيها النواة ثم حبيبات ايجابية تسمّى « بروتون » وسلبية « الكترون » ومحايدة تسمى « نيوترون » . يحدد نوع تركيب الذرة تفاعلها مع غيرها وهذا هو عمل العلم والصناعة . الـ « أرجون » مثلا هو عنصر عجيب متوحّد لا يختلط مع غيره فيُستعمل كغاز عازل . والكلسيوم بامتزاجه بالماء ينتج الاسيتيلين الذي يستعمل للتدفئة ولانتاج البلاستيك والبويات والأسمدة وبعض الأدوية . توجد بعض اسئلة يحاول الزائر الاجابة عليها لاختبار معلوماته ثم يضغط على زر كهربائي فتظهر الإجابة الصحيحة .

الاوكسجين هو اكثر وانشط العناصر وجوداً في الأرض وهو بدون لون ولا رائحة ولا طعم اذا امتزج مع الاسيتيلين انتج طاقة حرارية تصل الى ٦٠٠٠ درجة فهرنهايت فيستعملونه لصهر المعادن ولقطعها وللحامها والآن

شاع استعماله في اميركا في صناعة الصلب وفي الافران العالية الدائمة الاشتعال ولدفع المراكب الفضائية وفي منتجات البلاستيك والأدوية . السيليكون هو بعد الاوكسجين اكثر انتشاراً في الأرض . الاورانيوم هو اثقل عنصر ويستعمل في توليد الطاقة الذرية وهو وقود المفاعل الذرية وينتج الحرارة والاشعاع وتقاس به القوة الاشعاعية في باقي العناصر ويستخدم في الطب والصناعة وادارة المحركات ولتوليد الكهرباء وفي الغواصات الذرية وفي مراكب الفضاء . ان الطاقة الاشعاعية تملأ الكون وفضاء النجوم والأفلاك وما بين اجزاء الذرة . . . توجد اكثر من سبعين مجموعة اشعاعات لا تقوى العين المجردة الا على رؤية واحدة منها .

الكربون هو اكثر العناصر تنوعاً فمنه الماس والعطور والحرارة والنور والمفاعل الذرية والبطاريات والمحركات الخ ... وهو عنصر لا بد من وجوده في كل كائن حيّ . بتفاعل الهيدروكربون مع الاكسجين والنتروجين والكلورين تُنتج ملايين من المركبات المفيدة في الأغذية والبناء والنقليات والأدوية .

توجد خريطة تبين خطوط الغاز المنتشرة تحت ارض مدن اميركا وشبكة شيكاجو التي تبلغ ١١ ألف كم . . . وفي « قاعة العناصر » يوجد مُفاعل ذرّي يمكن تتبّع عمله من الألف الى الياء . وجناح واسع عن صناعة « البلاستيك » الصلب او الشفاف او المرن ...

من اطرف المعروضات « روح اميركا » وهي اسرع سيارة في العالم بشكل صاروخ قطع بها « كريج بريدلوف » في ١٩٦٤ ٨٤٢ كم بالساعة . انحرفت به مرة وجمحت على شاطىء ثم اندفعت الى بحيرة و « جاءت سليمة » فلم يُصب بالأضرار ولحق السيارة بعض التلف . قد ساهمت اكبر الشركات في انتاج محركها النفاث وقطعها حسب مواصفات علمية معينة لتحمّل السرعة والحرارة والاحتكاك والضغط الخ . . . اذا اتيح لنا الحظ سنركب يوما

سيارات بسرعة طائرات اليوم . . . وهكذا يخطو التقدم العلمي متغلباً على عقبات الزمان والمكان .

في قاعة الهاتف نسخة طبق الأصل لأول هاتف اخترعه «بيل- BELL » ونموذج من الهاتف التلفزيوني . فيمكن من هنا الاتصال بـ « ديزنيلاند » في كاليفورنيا على بعد ٣٢٠٠ كم بالتليفون ورؤية المتحدّث . كما يمكن بهذه الآلة الاتصال من البيت بمخزن والاشارة باليد الى الغرض المطلوب شراؤه . وتوجد تليفونات بحجم الترانزستور توضع في الجيب .

في قاعة الكهرباء نسخة من محطة شركة اديسون في « درسدن » قرب شيكاجو حيث تتولّد الكهرباء بالطاقة الذرية وتوزع على قسم من شيكاجو . و « مسرح الكهرباء » حيث تعرض بعض الغرائب المتولدة من الطاقة الكهربائية . ومزرعة نموذجية فيها دواجن حقيقية واحدث ما كينات الحراثة والحصاد والرش . ومنجم فحم حقيقي تحت الارض يشرح فيه موظفون متخصصون كيف يستخرج الفحم . وبجانبه معلومات عن آبار البترول والمناطق الجيولوجية التي توجد عادة فيها .

يكفي الضغط على بعض ازرار ليشتغل مصنع صلب وحديد بأ كمله من الصهر في الفرن المشتعل الى السكب الى التبريد الى القطع والصقل بأسلوب الاكسجين الجديد .

تأثير الاغذية على الصحة وطول العمر يشرح هنا على حيوانات أليفة حيّة .

في قسم المواصلات غواصة المانية كسبها الاميركيون سنة ١٩٤٤ في حرب افريقيا وهي الغواصة الوحيدة السليمة لأن قواد الغواصات الالمانية كانوا يغرقونها ولا يسلمونها . وهنالك نسخة لمراكب مصرية ولمراكب فينيقية من القرن التاسع قبل المسيح . ويعلن هذا القسم ان الفينيقيين كانوا أول واشجع

بحارة في العالم وطافوا بمثل هذا المركب جميع شواطىء افريقيا . شركة كوداك تقدم تطوّر التصوير واستعماله في الابحاث ورحلات الفضاء وتعرض الصور التي اخذت للقمر .

قسم الكتابة يبدأ من الهيروغليفية وينتهي بأحـدث آلة طباعة في دار جريدة « تريبيون » .

اقامت لجنة الطاقة الذرية الاميركية قسماً خاصاً لتعمّم على الشعب بعض المعلومات الذرية وعرضت نموذجاً لما حدث في جامعة شيكاغو يوم ٢ كانون الاول سنة ١٩٤٢ إذ تمت اول تجربة لسلسلة من التفاعلات الذرية .

بعد قسم عالم « الصغائر » أي الميكروبات والخلايا والبكتيريات يأتي : « قسم الانسان » وهو جذاب بطريقة عرضه . يرى الجنين في مراحل نموه : عندما يكون عمره ٤ اسابيع طوله ٣ مليمتر . عندما يبلغ ٨٦ يوماً يظهر هل هو طفل أم طفلة . في الاسبوع ٢٢ : ١٩٢ مليمتر وفي الاسبوع ٣٦ : ٣٣٠ مليمتر . . . وترى بعض نماذج لمواليد مشوهين مع شرح أسباب تشويهم .

في خليّة مكبرة مليون مرة تسع ٤٠ انساناً تابعت عملية نمو الخـــلايا وانقسامها . ورأيت « انساناً شفافاً » مناراً بالكهرباء يظهر فيـــه تكوين العظام والاعصاب والشرايين ومخّاً بتجاعيده ومراكز العمل فيه وقلباً يجري فيه الدم وتسمع دقاته . وقرأت ان قلب الفـــأر يخفق ٧٠٠ خفقة بالدقيقة والفيل ٢٥ والبقرة ٦٥ والانسان الطفل ١٥٠ والكهل ٧٢ . وكيف تخضع شخصية الانسان لتركيبه « البيولوجي » ولمؤثرات الورانة والبيئة والحوادث وليس فقط لطبعه وجهده وظروفه الخاصة .

في قسم الفضاء نماذج من مراكب الفضاء وصور الرواد وملابسهم ويمكن لأي زائر ان يدخـل في الكبسولة والسفينة وان يذهب في رحلة وهميـــة حول الارض . . .

في قسم الادوات المنزلية تدرّج من عظـــام الحيوانات التي كان يستعملها الافريقيون الى ادوات البيت الاميركي الحديث مع هـذا الشعار : « أصناف أكثر لمستهلكين أكثر لهناء أوفر » . إذا نجحت في اختراع ما يمكنك أن تعرضه وتحاضر عنه هنا فهيّا ...

متحف التاريخ الطبيعي :

الغاية منه جمع وحفظ وتنسيق ما يختص بعالم الانسان والحيوان والنبات والكرة الارضية (الجيولوجيا) وهو بالتـــالي اربعة أقسام في ٤٧ غرفة . لا تزال ادارة المتحف تطبع كتباً ونشرات وترسل علماء وباحثين الى مختلف اقطار العالم لتوسيع آفاق المعرفة عن هذه الفروع الأربعة .

الذي معــه عصا أو قضيب أو شمسية يجب ان يستودعها في قسم حفظ الودائع لئلا تمس بغير انتباه اغطية الزجاج والمعروضات ... وإذا اراد مُقعد أن يزور المتحف يقدّم له كرسي متحرك ... وإذا رغب زائر في استئجار دليل آلي يدفع نصف دولار ويستلم آلة مسجلة تحدّثه او تسكت « بحسب مزاجه » ..

قسم الانسان :

يشمل الاجناس والآثار التي خلفها البشر على وجــه الأرض وحضارات القارات الخمس وأساليب التعبير وأهمها اللغات . في قاعة الأجناس البشرية تماثيل بالحجم الطبيعي عن كل نوع بشري وجد عبر التاريخ مع طرق تمييزه من تكوين الجمجمة واللون وقالب اليـد والقدم . ثم آثار قبائل الهنود الحمر في اميركا قبل وصول كولومبو. وآثار من العهدين الحجريين في اوروبا. فجناح الصين من العصر الحجري القديم الى العصر الحجري الجديد نحو ١٥٠٠ ق.م. الى القرن التـــاسع عشر ب.م. فأركان شعوب الفيلبين وميلانيزيا وبولينيزيا وميكرونيزيا واندونيزيا والملايو وابوريجين استراليا . وشعوب شرق افريقيا وجزيرة مدغشقر ...

من أجمل الأقسام الجناح المصري منذ ٣٠٠٠ سنة ق.م. الى القرن الرابع

ب.م. وفيه مومياءات بشر وطيور وحيوانات صغيرة وأنسجة ومخطوطات وتماثيل ومراكب واواني فخار وذهب وزجاج وادوات زينة ومصطبتان اصليتان منقولتان من منطقة اهرام سقارة . يظهر بجلاء هنا ان الحضارة المصرية كانت من ارقى الحضارات التي عاصرتها .

قسم الحيوان :

من نحو خمسين ألف نوع من الحيوانات والاسماك والطيور والحشرات الموجودة في العالم لا يمكن لمتحف ان يعرض إلا نزراً يسيراً فعرضه متحف شيكاجو بطريقة علمية نوعيــة واضعاً الحيوانات في بيئتها الطبيعية وعرض هياكل حيوانات منقرضة وركناً طريفاً عن هجرة الطيور وعن تكييفها مع المناخ . وعالم الأسماك في بحر صناعي وفي أعماق بحيرة « ميتشجان » .

قسم النبات :

يعرض المتحف علاقة النبات بعالم الانسان وكيف يستعمله للغذاء وللبناء وللدواء وللّبس... ومن بين المعروضات حبوب قمح من اهرام مصر وحبوب ذرة من هنود اميركا والنبات الذي اخذته اوروبا عنهم والنبات الذي لا يوجد في القارة الاميركية والأنواع المتدرجة من البكتيريا الى الطحالب الى النبات ذي الزهر . بما ان النبات لا يمكن ان يحفظ زمناً طويلاً فكثير من النماذج مصنوع من بلاستيك .

قسم علم الأرض :

يعرض عن المعـادن والصخور والطبقات وقشرة الارض وتأثير الرياح والمياه كما يعرض للبراكين والزلازل ولعمل الثلوج . في كل طبقة آثار الحيوان والنبـات المطمورة فيها ويرتقى أقدمها الى ستمائة مليون سنة . وفي المتحف مجموعة من ١٧٠٠ نيزك .

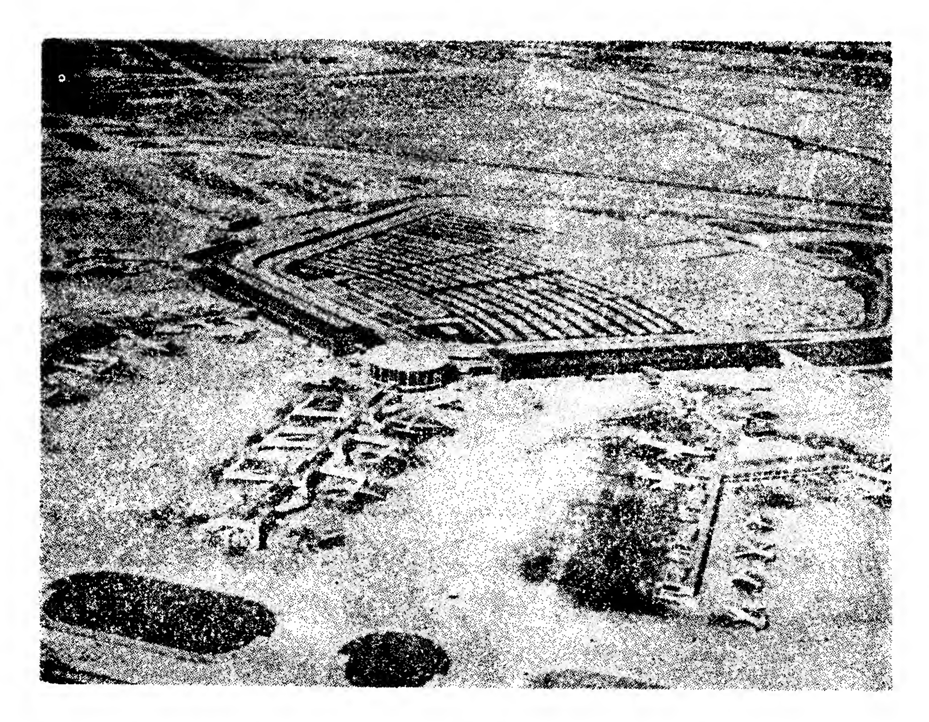
●

المسمكة :

فيها ١٣٠ حوضاً لعشرة آلاف نوع من الأسماك. انها اكمل واكبر مسمكة في العالم . كنت اعرف ان للأسماك مئات الاشكال الغريبة ولكن لم اكن لأتصور هذا التنوع في الألوان . ان شيكاغو ارادت ان يخرج كل ما فيها متقناً رائعاً ولقد نجحت في ذلك .

القبة السماوية :

انها تحمل اسم المتبرع بها « ماكس ادلر – MAX ADLER » . في الداخل يوجد متحف سماوي ومكتبة وقاعة محاضرات وعرض سينمائي ومدرج تحت القبة لرؤية السماوات .



مطار شيكاغو

في المتحف مجموعة من ٨٠٠ آلة تستخدم في علم الفلك والملاحة والرياضيات منذ اربعة آلاف سنة الى الآن. ووصف لعلاقة الشعوب بالكواكب واساطيرها وارتباط الأديان بهـا . و٦٠ اصطرلاباً وهي الآلة التي كان يستعملها العرب وغير العرب لقياس ارتفاع الكواكب بواسطة مثلث تكون زواياه في نقطة الاوج السماوي ونقطة القطب السماوي ونقطة الكوكب المطلوب معرفـة ارتفاعـه . من بينها الاصطرلاب الانجليزي الشهير الذي يعود الى القرن السادس عشر واسمه «الجوهرة الرياضية» . قسم النيازك يتحدث عن طريقة تكوينها : قطعة تنفصل عن أي كوكب وتهيم في الافلاك الى ان تدخل في فضاء الارض مضيئة كالشهب فتهوي على سطحها بقوة الجاذبية الارضية .

بعد نظرة الى هذه المعروضات دخلت تحت « القبـة السماوية » لرؤية السماوات وسماع شرح عنها .

بدأت عدسات « زايس » الـ ١٦٠ تنشر نور الغسق ثم حـل الظلام الكامل ثم طلع القمر وبانت لنا سماء مرصعة بالنجوم واخذت تدور كما تفعل طوال ساعات الليـل والنهار وُترى التسعة آلاف نجمة التي تتبينها العين المجردة . وأرانا المحاضر شمس نصف الليل في أقصى الاسكا وصليب الجنوب والمجرّة وكيف يتعاقب الليـل والنهار من دوران الأرض على نفسها وكيف تتعاقب الفصول من دوران الارض حـول الشمس ومن ميـل واهتزاز محور الارض وتأثير ذلـك على خريطة النجوم الـتي نراها ... كما أرانا الكسوف والخسوف والنجم المذنب والهالة ... وامتع ما رأيت أيام القمر فلماذا يكبر ثم يصغر ثم يختفي .

ختم المحاضر قائلاً: نأمل ان نعرض لكم بعد سنين قليلة افلاماً يصورها رواد الفضاء في رحلاتهم عبر النجوم ...

٣١

لوس انجلوس

كاليفورنيا الفاتنة :

قدمت الى لوس انجلوس المرة الاولى من مكسيكو والمرة الثانية من تاهيتي وحفظت في نفسي ان الولايات المتحدة كلها جميلة وأجمل ولاية فيها كاليفورنيا.

كاليفورنيا هي اكثر الولايات سكاناً وهي أول ولاية بالسياحة والزراعة وثالث ولاية بالمساحة بعد الاسكا وتكساس ويقارب طولها على شاطىء الباسيفيك نحو ١٥٠٠ كم . كانت جزءاً من الامبراطورية الاسبانية ثم من المكسيك وهذه تخلّت عنها لأميركا بعد حرب ١٨٤٨. أسّس الأب «سيرّا ـ SIERRA » الاسباني مع الرهبان الفرنسيسكان بمساعدة ٢٩ الفاً من الهنود المسيحيين نحو ثلاثين مركزاً للتبشير اصبحت فيما بعد المدن الحالية المحتفظة بأسماء اسبانية ومنها لوس انجلوس وسان فرنسيسكو وسان دييجو وسانتا برباره الخ .

مدينة الملائكة :

كان اسم لوس انجلوس « قرية سيدتنا العذراء ملكة الملائكة » فاحتفظ



قصر البلدية

الاميركيون بالاسم الأخير فقط كما تختزل الشعوب ألفاظها ولغاتها .. تعد ٣ ملايين ومع ضواحيها سبعة ملايين . تفصلها عن شاطىء الباسيفيك تلال تتعرّج على أقدامها شواطىء الاستحمام . تبعد عن نيويورك ٤٦٠٠ كم تقطع في ٨٢ ساعة بالقطار وفي٥ ساعات بالطائرة. وهي تشبه نيويورك بتعدد الجنسيات القاطنة فيها وبالتالي بتعدّد اللغات والصحف والاذاعات و« الالوان المحلية » التي تصبغ لوس انجلوس بصبغات جذابة . طقسها معتدل على مدار السنة فإذا بلغت درجة الحرارة ٢٧ يقول سكانها انه حر شديد ويرتدون الملابس الخفيفة والرياضية حتى خارج بيوتهم ويتعشون ويسهرون في العراء . غالب منازلها « فيلات » منفردة أمامها عشب وورراءها فناء عائلي كثيراً ما



شبكة الطرق في قلب لوس انجلوس



مدخل مقبرة فورست لون

يكون فيه حمام سباحة . فيها ناطحات سحاب قليلة جـداً فتفضل الامتداد الافقي حتى اصبحت من اوسع مدن العالم ويمتدّ بعض شوارعها ٧٠ كم . كان كل من يصطحبني بسيارته يُخرج مجـلداً ضخماً يحتوي خرائط لكل أحياء وشوارع المدينة فلا يمكن السير بدون ذلك الكتاب الدليل . والذي يخطىء في الدخول الى الطريق السريع يضيع طويلاً للعودة الى طريقه الصحيح .

بـدأت الجولة السياحية بقصر البـلدية الذي يرتفع ٢٨ دوراً . ثم الحي الياباني فـالحي الاسباني حيث البيوت مبنية حسب الطراز الاسباني ينفرد بينها قصر « آدوب – ADOB » ومخـازن سوق « اولفيرا – OLVIRA » التي هي اكشاك في الهواء الطلق بـين اشجار النخيل والجنوليا تبيع أصنافاً اسبانية من الثياب والمآكل واللعب والأثاث .

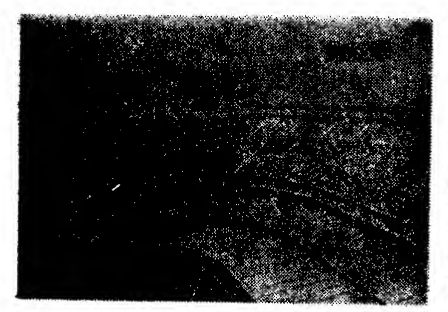
كنا ننتقل من طريق سريع الى آخر والمرشد يحدثنا عن عددها وفخامة هندستها ونتطلع الى سيارات فوقنا وسيارات تحتنا ونحن على طريق ممتـد فوق أعمدة منصوبة على أرصفة الشوارع . في قلب المدينة نفسه خمس طرق « حرة سريعة – FREEWAYS » الواحدة فوق الاخرى .

مقبرة فورست لون :

في لوس انجلوس اربع مقابر تـدعى « فورست لون » أشهرها مقـبرة « جلانديل – GLANDILE » وهي تفوق أية مقبرة في اميركا حتى ارلنجتون في واشنطن . انهـا جبل من بسط العشب والحدائق ونافورات المياه والمعابد وآيات النحت والرسم والهندسة وكأنـه بأجمعه معبد خاشع ساكن « لراحة الاموات الأبدية » ولبعث التقوى والتأمل في الاحياء . تطوف السيارات في شوارعه صامتة كالآدميين فلا سرعة ولا تزمير ولا مذياع. عند المدخل يوجد مكتب شركة « فورست لون » لإجراءات الدفن . يحمل الجثمان الى هنا ويعرض في قاعـة جنائزية ثم يتوافد المعزون وبعد ثلاثة او اربعة أيام يصلى عليه في إحدى كنائس « فورست لون » ويشيع الى مثواه الأخير البسيط .



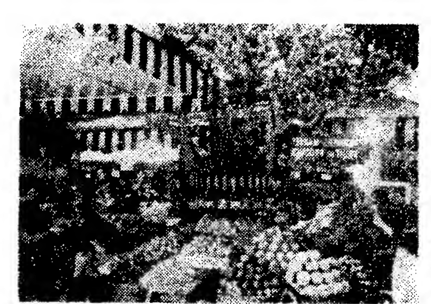
المدافن في « فورست لون »



ملعب البسبول



أحد شوارع لوس انجلوس



في سوق المزارع

بقدر مـا هذه الاكمة هي فخمة انيقة بقدر مـا المدافن هي عادية بسيطة : أبواب من حديد متتابعة بين بسط من العشب لا يميزها شيء فـلا ضريح ولا تمثال لأفراد او لعائـلات . وهكذا لا مواكب في المدينة ولا اجتماع في بيت الميت ولا مسيرة الى الكنيسة او المقبرة فكل شيء يتم في مكان واحد .

تحمل أقسام الأكمة أسماء شعرية ورمزية مثل : منحنى الغروب — سفح الرجـاء — ركن التأمل — سلام السماء — الحرية — الانتصار — الايمـان — الغد المشرق .. وفي مدينة الأموات هذه تتجلى الحرية الدينية التي عرفت بها اميركا فتتجاور مدافن بروتسطنتية وكاثوليكية ويهودية وماسونية وعلمانية. ويجتمع الفن المسيحي مع الاغريقي الوثني فالجبل مزين بتماثيل ابولون ودافنه ونجاة موسى من المياه ونسخة طبق الاصل مزالتمثال الذي نحته «ميكيلانج» لداود الشاب حامل المقلاع وقد اصبح العلامة المميزة لفورست لون فينشراتها ودعايتها . ومن أعمـال الفن المعاصر توجد عشرات التماثيل وثلاثمائـة رسم بالزجاج الملون على الجدران . و « مجموعة الحرية » وفيها مشهد توقيع اعلان الاستقلال الامـيركي وتمثال لجورج واشنطن وتمثال رمزي للجمهوريـة . و « مجموعـة سر الحياة » مكونة من ١٨ تمثالاً من صنع الفنان الايطالي « جاتزيري — GAZZIRI » .

عدا اعمال النحت هـــذه يوجد في « فورست لون » ثلاث لوحات ذات شهرة عالمية وهي العشاء الاخير والصلب والقيامة . لوحة العشاء الاخير هي نسخة عن تحفة « ليوناردو دافينتشي » مصنوعة من الزجاج الملون . ولوحة الصلب مرسومة بريشة الفنان « جان ستيكا — JAN STYKA » البولندي وهي اكبر لوحة في العـــالم : ٥٩,٣٠ × ١٣,٦٠ متر . كانت محجوبة عن اعيننا بستار من مخمل انفتح رويداً رويداً بينما كان محاضر يشرح لنا محتويات اللوحـة وفنها وعشرات الاشخاص المرسومين فيها وهم الذين ذكرهم الانجيل في وصف آلام المسيح . أمـــا لوحة القيامة فتمثل المسيح صاعداً من القبر وملاك القيامة اللامع ومدينة القدس تصحو مع الفجر .

مدينة « السموج » :

من رابية المدافن الى رابية الرياضة حيث ملعب « البسبول » ويصل فيه أحياناً دخل الحفـــلة الى نصف مليون دولار . سفوحه كلها مخصصة فقط لوقوف السيارات ، فلوس انجلوس هي نسبياً المدينـة الاولى في العـالم بعدد السيارات . تنتج عن هـــذا ظاهرة غريبة تعاني منها المدينة وهي الضباب الخارق « سموج – SMOG » وقد رأينـــاه من الملعب يلف المدينة وشعرنا به يحرق عيوننا قليلا .

مرصد « جريفيث » :

على رابية أخرى يشرف مرصـــد « جريفيث – GRIFFITH » . انتظرت ثمـانين دقيقة في الطابور لكي أقف دقيقة واحـــدة أمام مرصاد « زايس » وأرى كوكب المشتري الذي بان كالبـدر . في اميركا عشرات المراصد والقباب السماوية وقد تحدثت فيما سبق عما رأيته منها في شيكاغو . مرصد «جريفيث» هذا اشبه بمعهد فلكي يعطي محاضرات وحلقات دروس ويصدر نشرات وكتباً عن عـــلم الفلك . البرنامج الذي وزع علينا يتضمن محاضرات وعروضاً سماوية عن الحياة في الكواكب والاطباق الطائرة ورحلة «مارينر ٩» الى المريخ والمجرات، والسفر عبر الافلاك والنيازك ، وشرحاً عن « نجم الميلاد » حسب التقديرات الفلكية . ومما قرأت هذه الجملة : « يبدو مستغرباً ان تكون ارضنا الكوكب الوحيد المتمتع بالحياة في الكون العظيم ».

سوق المزارع :

«سوق المزارع – FARMER'S MARKET » هو اشهر سوق للفاكهة وللخضار ولا عجب ،فكاليفورنيا تموّن الولايات كلها وكندا، وتصدّر المعلبات الى العالم. يدهش المرء لضخامة حجم البطاطس والطماطم (بندورة) والبطيخ والتين والعنب فهي ثلاثة أضعاف الحجم الذي في بلادنا ، ويصل طول قرن

الفصوليا الى ٦٠ سم ! « البسيلا » هي الخضار المفضّل عند الاميركان وتباع على انواع شتى . ملكتا سوق الزهور هما الوردة والاركيديا .

الخدمات في السيارة :

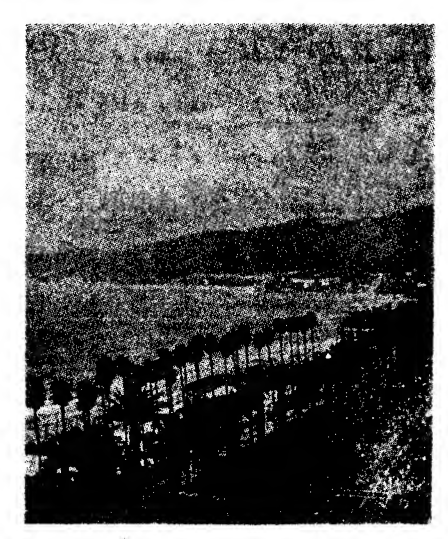
في المساء اصطحبني احـــد اصدقائي لحضور فيلم « ونحن في السيارة — DRIVE IN ». في ميدان رحب، بقرب كل سيارة اربع سماعات مثبتة في عامود تسحب الى داخل السيارة لسماع الموسيقى وحوار الممثلين بينما العيون تشاهـد الشاشة من وراء الزجاج الامامي للسيارة فهي سينما في الهواء الطلق إنما على الطريقة الاميركية . وتوجد مطاعم وبارات وبنوك « درايف ان » تخدمك وانت في سيارتك وهـذا تسهيل رائع لا سيما في اوقات الازدحام والبرد والمطر والثلج .

●

٣٢

حول لوس انجلوس

لونج بيتش :


شاطىء سانتامونيكا

على بعد ٤٠ كم جنوبي لوس انجلوس زرت « لونج ـ بيتش LONG BEACH » كانت فيما مضى مراعي للبقر ثم اكتشف فيها البترول سنة ١٩٢٠. يقارب عدد سكانها ٣٠٠ الف وهم اناس سعداء ، وتعتبر مدينتهم مقر استراحة واجازة طوال شهور السنة . وشاطىء لونج بيتش الابيض الممتد في خليج « سان بدرو » يستحق شهرته . بقربه ميناء بحري صنعته بأكمله يد الانسان وغالب مراكبه هي للصيد وللاستمتاع. افراد كثيرون من المستحمين

يتغلغلون في البحر على لوح خشب واليدان تعملان كمجدافين ويتبارون في هذه الرياضة .

سانتا مونيكا :

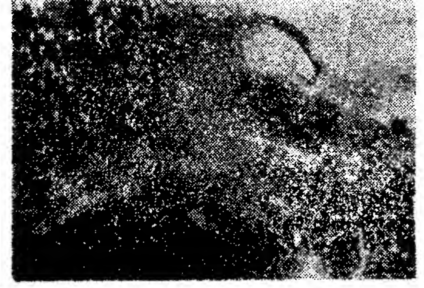
تبعد « سانتا مونيكا » ربع ساعة فقط عن لوس انجلوس وشاطئها يمتد ١٣ كلم على المحيط . ان العين لا تنسى هـذا اللقاء الفاتن بين زرقـة البحر وبياض رمال الشاطىء وخضرة الروابي وأناقة البيوت وجمال الشوارع الواسعة تقف على حافتيها اشجار النخيل . يقول الاميركيون ان اجمل غروب شمس في اميركا تتمتع به هذه القرى السعيدة المنثورة أمام الباسيفيك .

سانتا برباره :

على بعد ١٤٨ كلم شمالي لوس انجلوس زرت اصدقاء مهاجرين مصريين في مدينـة « سانتا برباره » . في الطريق رأيت كثـيراً من محطات استخراج البترول وبعضها في قلب اليـم لسحبه من تحت قاع البحر . « سانتا برباره » مدينة صغيرة تعدّ ٨٠ الفاً . إذا صدقت الدليـل المكتوب الذي بين يدي فهو يقول عنها « الطف والذّ بقعة في كاليفورنيا » . تتدرج « سانتا برباره » على جبل قليل الانحناء تتطلع الى البحر والى مينائها الصناعي الصغير وحدائق النخيل والزهور على اقدامها وبيوتها الصغيرة الأنيقة « غارقة » بين الجنائن مما جعل كثيرين من الكاليفورنيين المتقدمين في السن يختارونها للاقامة فيها صيفاً وشتاء في اجازتهم الاخيرة الطويلة ...

مارينلاند :

في الطريق الى « بالوس فرديس – PALOS VERDES » على بعـد ٤٠ كلم من لوس انجلوس توقفت العائلة التي كنت معها لشراء حلوى لولدها وإذا بصاحبة المحل تأتي الى السيارة وتقدم لي هدية علبة شوكولاته وترفقها بتحية وبقولها : اني احب القسس كثيراً ولهم فضل علينا . فاعتذرت لهـا



السمك يلعب في مارينلاند



البطربق في حديقة سان دييجو

وقلت إني غريب ولم اشترِ شيئاً لأستحق هذه الهدية لكنها صممت على تقديمها لي . وتبعت ذلك مفاجأة اخرى فتذكرة الدخول الى «مارينلاند» بدولارين ونصف ولي كرجل دين بنصف الثمن فقط . ينعم رجـــال الدين في اميركا بالمعاملة الحسنة و « بالخصم » في غالب ما يشترون .

« مارينلاند » هي مجموعة من الاحواض نصف الطبيعية ونصف الصناعية انشئت على شاطىء بالوس فرديس » لتقـدم فيها حيوانات البحر استعراضاً فكاهياً ورياضياً جذاباً. فيهامسارح مائية امامها مدرجات للزائرين ليشاهدوا منها الحوت والدرفيل والفقمة (فوك) وبعض الاسماك المتوسطة الحجم . وقد علـمها المدربون العاباً وحركات قد يعجز عنها الادميون . فهي تلبس المشمع وتلعب كرة الســـلة وتجيب على الميكروفون وتلعب « البولنج » وترمي الاطواق وترقص الباليه . ويثب الحوت الضخم الى ارتفاع شـــاهق ليطال سمكة صغيرة متدلـّية من فم مدرّبه ثم يهوي كالجبل في الحوض «ويطرطش» الميـــاه حوله على المدرج ويثير بذلك موجات من الضحك . الفقمة يمرّ بخفة وسط طوق مشتعل كأنه فقير هندي ، وسمكة «المرسوين – MARSOUIN » تقفز في الجو فوق قضيب وضع على ارتفاع متر فأعلى فأعلى حتى ستة أمتار وكل مرة كانت تلك الاسمـاك تثب من فوقه وتتخطـّاه . عندما كنا نصفق

للحيتان كانت ترفع زعانفهافوق الماء لتشكرنا، أما اسماك «المرسوين» والفقمة فتقلب على سطح الماء وترقص في الجو لتحيّينا .

سان دييجو :

تعلـّمت ولو متأخراً ان لا اندهش كثيراً في اميركا لأن « عالم البحر — SEA WORLD » في « سان دييجو » يفوق « مارينلاند » تُقدِّم مسارحه المائية عشرين عرضاً تتضمن كل مـا رأيته في مارينلاند وما عدا ذلك سفر المدرب على ظهر حوت وانزلاق البطريق على الجليد وقيـادة القرد لمركب وغطس اليابانيات لالتقاط قواقع اللؤلؤ ورقصات لمئـات نافورات المياه على انغام الجاز وغير ذلك ...

تشتهر « سان دييجو » أيضاً بأكبر حديقة حيوانات في اميركا . يعيش فيها ٥٥٠٠ نوع من الحيوانات المستوردة من كل انحاء العـالم وتوضع كأنما في بيئتها الطبيعية دون اقفاص وحواجز وسجون . طفت فيها بأوتوبيس الحديقة لأن السير على الاقدام قـد يستغرق اياماً . اجمـل مجموعة فيها هي لطيور « الفلامينجوس » الحمراء والوردية وتشبه قليلاً النعام .

الجبل المسحور :

ان جو كاليفورنيا المعتدل الصاحي تقريباً طوال السنة يسمح لها بإقامة حدائق ملاهي في الهواء الطلق . زرت منها « بوش جاردنز » بـين لوس انجلوس وهوليوود واغرب مـا شـاهدت فيها مسرحية لعبتها طيور بيضاء مثلت خطف اميرة الى قلعة واقتحام الحمامات للقلعة وإنقاذ الاميرة. وكانت احدى تلك الحمامات « نابغة » إذ تقرع جرساً صغيراً خمس مرات أو سبع أو اكثر حسبما يطلب منها الحاضرون وهذه الطيور تقود دراجة صغيرة على الارض وعلى حبل معلـّق . يكثر المترددون على « بوش جاردنز » ليزوروا بجوارها أيضاً مصنعاً كبيراً للبيرة وليشربوا البيرة مجاناً بعـد السير والتعب ساعات بين الملاهي .

على بعد ثلاثة ارباع الساعة من لوس انجلوس ملاهي « الجبل المسحور — MAGIC MOUNTAIN » يقصده الالوف كل يومي سبت وأحـــد وهو متخصص بملاهي العنف والرعب والسرعة في القطارات والمراكب والسيارات والطائرات والنواعير . وبالوقت نفسه هو منعزل بين الجبال لمن يروم عطلة هادئة . والكبير « ينسى هنا نفسه » ويعود صغيراً ...

سمعت من المهاجرين :

ان العرب العائشين في لوس انجلوس معجبون بمناخها وجمالها وتوفر الاشغال فيها وبآفاق التفتح الفردي والاجتماعي وبالنظام والنظافة وتسهيلات الحياة الى اقصى حد . إنما لم يعتادوا بعد يوم العمل المتواصل من ٨،٣٠ الى ٤،٣٠ ولم « يهضموا » العقلية والاخلاق الاميركية . سمعت منهم ان مراهقة عربية عمرها ١٥ سنة دخلت ذات صبــاح مدرستها ورأتها المديرة منتفخة الوجه فسألتها وسمعت منها ان والدها ضربهــا . استدعت البوليس وهـــذا بدوره استدعى الوالد وذكّره ان القانون الاميركي يمنع ذلك وانذره ان ابنته ستؤخذ منـــه إذا ضربها مرة اخرى . اصابت الوالد المسكين « جلطة في القلب » الزمته السرير ستة اسابيع... ان رعاية الاولاد واجب مقدس عند الاميركيين حتى انه لا يجوز ترك ولد دون الثانية عشرة وحده ولو في بيته . ولكن بعد ذلك قد يشذّ المراهقون ويستقلون عن والديهم ويتعاطون المخدرات ...

وسمعت من أحـــد اصدقائي انه كان واقفاً بجوار سيارته في محطة بنزين وإذا بسيارة اخرى تحرّكت فجأة وضغطت ساقه بين السيارتين فلزم السرير ثلاثة أشهر . كلف هذا الحادث شركة تأمين الطرف الآخر نحو تسعة آلاف دولار حسبت هكذا : المستشفى والعلاج والاجرة الشهرية التي كانـــ يحصل عليها وماهية زوجته التي تركت العمـــل لتخدمه ومبلغاً مقابل « التوجع والألم » فحق هذا يُعوّض بمال .

وبحقّ يصدم مهاجرونا عندما يرون حرية الشبيبة ويسمعون ان البكارة

لا قيمة لهـــا في اعتبار الفتى وفي اعتبار الفتاة على السواء وان الإقدام على الزواج بدون خبرة جنسية هو سذاجة وان الحق على الحب والمعاشرة هو من صميم الحرية الشخصية . ويقرأون على مؤخرة السيارات : « ابتسم للحياة وتفتح للحب » و « النساء المسنّات هن أيضاً بحاجة الى الحب » وما يشبه ذلك . على كل عنـد النساء والفتيات المهاجرات تفتح للحياة وسعادة أكثر مما عند المهاجرين لأن حـــالة المرأة ليست كما في الشرق ، وارتفاع مستوى المرأة هو من مقاييس تقدم الشعوب .

●

٣٣

هوليوود

على طريق « هالي وود » :

هوليوود – الفظها مثـل الاميركان « هالي وود » – هي متصلة بلوس انجلوس واشتهرت بأنها مدينة السينما ولكن مدينةالسينما الحقيقية هي بجوارها وتدعى « يونيفرسال سيتي – UNIVERSAL CITY » أي المدينـــة العالمية . انني لم أرَ تجمعات للسياح كما رأيت فيها وفي ديزنيلاند . ولا عجب فمنها تخرج الافلام الاميركية التي تغزو صالات العرض في العالم وتجعل الناس يحبون اميركا من افلامها حتى قبل ان يزوروها .

تسير يومياً على طريق هوليوود ٢٥٠ الف سيـارة ! ان الناظر اليهـا يستطيع ان يكوّن لنفسه فكرة عن سرعة الحياة في اميركا وتنظيمها وفي الوقت نفسه عن اخطارها وقلقها و « عصبيتها » حتى ان بعض اصـدقائي هنا يقودون السيارة منذ ثماني سنين إنمـا يخافون ان يقودوا على « هاواي هوليوود » . لا يجوز التوقف لأي سبب ولا يعذر عطل طارىء في السيارة فمن المفروض ان السيارة التي تندفع على « الهاواي » هي صالحة تماماً للسفر

وإذا ما تعطلت فجأة سبّبت مآسي لعشرات السيارات وراءها . والغرامة خمسمائة دولار لمن يرمي أي شيء على هذه « الهايواي » .

في يونيفرسال سيتي :

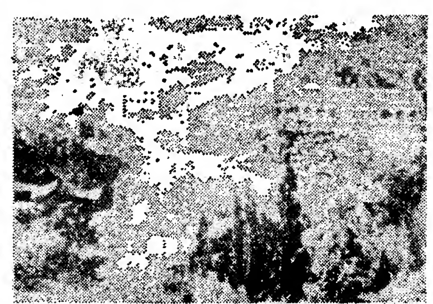
تقع « يونيفرسال سيتي » في منخفض بين الآكام وتشملها العين بنظرة واحدة من علٍ . طفنا فيها بقطار احمر مرح استقلمناه على انغام الجاز . رافقنا مرشد ومرشدة وصّيانا بأن ثلاثة امور هي ممنوعة : التجوال الفردي والتدخين، ولمس أي شيء. ركبنا القطار من قمة الرابية واخذنا ننحدر رويداً رويداً وحولنا مناظر كأنها طبيعية اصطنعها السينمائيون للإخراج في اعظم بقعة «اصطناعية» بالعالم. نزلنا من القطار مراراً للطواف في اركان الاخراج.

رأينا مصغّرات لمدن عديدة كانت منها اسطمبول وتبدو كما على ضفة البوسفور . وشوارع من روما وبودابست وباريس ولندن ونيويورك. ومدينة صينية وقرية مكسيكية وضفة الميسيسبي وغابة الهنود و «الجران كانيون»[١] وبحيرة صناعية . وصالون طائرة يوحي لنا اننا في طائرة حقيقية، وخرائب مدينة نمساوية في زمن الحرب ... كل هذا من الخشب والكرتون والبلاستيك يُضفي عليه فنّ المخرج مسحة الواقع . إنما حظينا بمصادفة اربعة ممثلين على الخيول كما نعهدهم في التلفزيون وافلام رعاة البقر بالقبعة العريضة والبنطلون الضيق والجزمة العالية والمسدس على الجنب ... كما رأينا سيارات قديمة وعربات خيول تستعمل في افلام « الغرب الأقصى » . وزرنا قاعات الملابس على مرّ العصور من البدء الى عصر الفضاء .

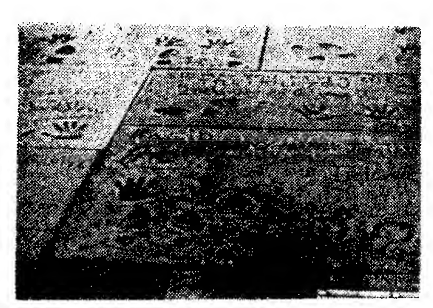
ضغط مرشدنا على زر ففجّر شلالاً وعلى زر آخر فثارت عاصفة ثلجية . وادخل البعض منا وجههم في رأس مفتوح لـ شارلي شابلن ولـ شيرلي ماكلين وتصوّروا بهذا الوضع .

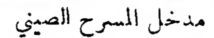
---

(١) انظر فصل ٣٥



مدينة السينما





مدخل المسرح الصيني

كيف يخرج الفيلم :

استمعنا الى حديث عن احد « اللقطات » السينمائية برافقه التقاط مشاهد على المسرح . يشرف على تصوير اللقطات المخرج ومساعدوه هنـا أو في أية بقعة من العالم ثم تجمع في شريط واحـد يعرض سراً على المنتجين والمخرجين والناقدين لإجراء تعديلات فيـه . وعندما يقررون صلاحيته يطبعون عليه الموسيقى المرافقة وتعتبر هذه المرحلة من ادق الأعمال الفنية في إخراج الفيلم. يوجد في هوليوود ٤٤ ستوديو « لهندسة » صوت الفيلم . كل هـــذا محاط بالسرية التامـة ولا يسمح لغير أصحاب الشأن بالدخول الى الاستوديوهات فاكتفينا برؤية ستوديوهات مترو جولدوين ماير وكولمبيا وغيرهما من الخارج . حتى النوافذ لا وجود لها وذلك لعزل الاستوديو عن كل المؤثرات الخارجية . هذه البقعة قليلة الامطار ولا تعرف الحر والبرد الشديدين اللذين يؤثران على تصوير الافلام .

في شوارع هوليوود :

لكي تكون زيارتنا كاملة قمنا بجولة في هوليوود الحقيقية وعرجت بنا السيارة في سفح «بفرلي هيلز» حيث توجد قصور نجوم السينما وسط الحدائق الغناء المزهرة طول السنة . هنا المنـازل لألمع الاسماء في العالم ومؤمّن عليها

بملايين الدولارات، ويلفت النظر تعدد الالوان وغرابتها، فينثر الاميركان الالوان ولا يؤمنون بتزاوجها. ومن اجمل شوارع هوليوود شارع «غروب الشمس ـ SUN SET» الذي يمتد ۵۱ كلم. دعي هكذا لأنه موجـه الى الغرب ويتيح لساكنيه ان يتمتعوا برؤية الشمس الغاربة في الباسيفيك. أما «بوليفار هوليوود» فهو شارعها «الشعبي» على رصيفه رسوم نجوم كتبت عليها اسماء الممثلين والممثلات. وتتجاور فيـه السينمات والمطاعم والبارات والملاهي الليلية وترى العين على الطبيعة ـ لا سيما في السهرة ـ مـا تشاهده في الافلام عن الحياة الاميركية. في هـذا البوليفار زرت المسرح الصيني الشهير حيث يطبع الممثلون آثار اقدامهم على الاسمنت ومعها اسمهم والتاريخ وليس لذلك أهمية الآن سوى الدعاية لهذا المسرح.

●

٣٤

ديزنيلاند

مدينة المائة مليون نسمة :

اذا قال لك احد ان هيوليوود هي أكبر مدينة « وهمية » فلا تصدّقه . وإذا قلتُ لك في الفصـــل السابق ان يونيفرسال سيتي هي أعظم بقعة اصطناعية في العالم فلا تصدقني ايضاً لأني اعتقدت ذلك قبل ان أرى « ديزنيلاند - DISNEYLAND » التي خلقتها عبقرية « والت ديزني - WALT DISNEY » .

يشبه مدخلها حصناً تخفق فوقه أعلام ومكتوب عليه : « اسعد مدينة في العالم . عدد سكانها مائة مليون . » اي يزورها في السنة مائة مليون ! .

مدينة لعبة أم مدينة ألعاب :

رغم اتساعها والزحام فيها لا يضلّ زوارها ربّما بسبب غريزة النظــام عند الاميركيين . في بدئها « ميدان المدينة » وفي نهايتها الـ « بلازا » اي الساحة وبينهما الشارع الرئيسي « ماين ستريت » وعلى جانبيه الأكشاك والمتاجر والمطاعم وقاعة بلدية « ديزنيلاند » وناصية « الخالي من الهمّ » .

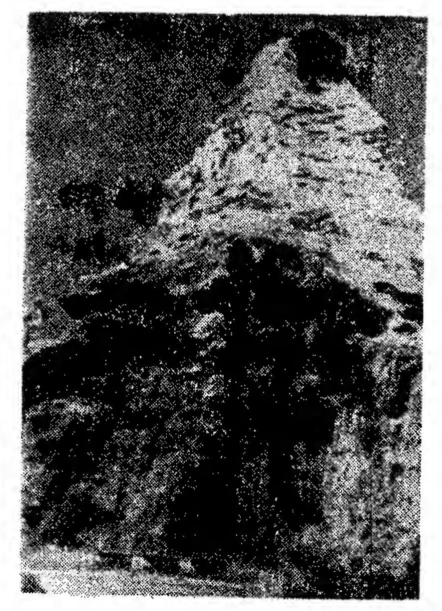
الترام والأوتوبيس وعربة الخيل كل هذه « مصغـّرات » يحار الزائر هل يسميها ألعاباً أم لا . . . ثم الخدمات من مراكز بوليس واسعاف وبنك وتأمين ومستودع الحقائب لئلا تزعج المتجوّل، وقاعة سينما تعرض بعض انتاج « والت ديزني » ، وملتقى الأولاد الضائعين تصطحبهم إليه المضيفات . وقالت لنا مضيفتنا المرشدة : كثر الاولاد الضائعون بعد انتشار موضة الفساتين القصيرة الـ « ميني جيب » لأنهم لا يطالون أهداب فستان أمهاتهم وأخواتهم ليتعلـّقوا بها ... ولأنها أحياناً من ورق قد يتمزّق بين ايديهم اذ توجد فساتين ورق جميلة ورخيصة تستعمل مرة واحدة ولا خوف من حفيفها فهي ناعمة كالحرير ولا خوف عليها من السيجارة فهي مطليّة بمادة تمنع الاشتعال ...

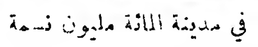
ديزنيلاند سوق لشراء الهدايا والتذكارات والتحف والطرائف من كل ما يتصوره المرء في محلات « بساط الريح » أو « واحد من كل صنف » أو « عرائس العالم » وغيرها وغيرها . لا تنقطع الاستعراضات من شارعها : فريق جاز يقوده « ما يسترو » بشكل قرد . دب (آدمي طبعاً) يسلـّم على الناس ويتصوّر معهم ، مواكب اعلان لزيارة هذا الملهى او ذاك ...

في بلدان الملاهي :

عند نهاية الشارع الرئيسي تتوزّع « بلدان الملاهي » كالمروحة وهي أربعة : بلاد المغامرات ـ بلاد الحدود ـ بلاد الأطياف ـ بلاد الغد . اذا اراد المرء ان يرى كل ما فيها فلا تكفيه ثلاثة ايام بلياليها لأن الليل في ديزنيلاند ساحر بفن الاضواء والألوان وخصوصاً بالصواريخ المشتعلة في سماء اكبر مدينة ملاهي بالعالم . يصرف الزائر الكثير من وقته في الانتظار اذ يقف في طابور هو دوماً طويل جداً الى ان يحين دوره ، والطابور نظام مقدّس عند الأميركان خلـّفه لهم الإنجليز ولا بدّ من احترامه فهو دلالة المساواة واحترام الغير والأدب والصبر ... قضيتُ فيها نهارين وسهرة وأصف لقارئي بعض ما رأيت .

« انه عالم صغير » ، هي مغناة تعرض رقصات وأغاني وألعاب وعرائس وأزياء من مختلف دول العالم .



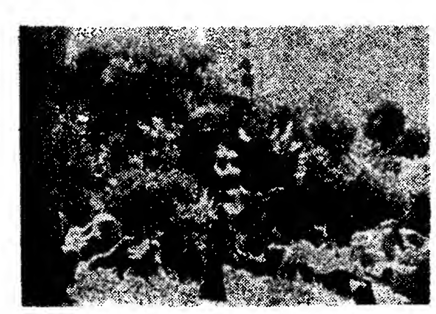


في مدينة المائة مليون نسمة

المدينة اللعبة



انه عالم صغير



بين غابات الهنود

انزلتنا الغواصة « سكيب جـاك — SKIP JACK » تحت سطح المـاء حيث رأينا حيوانات البحر واسمـاكه ومرجانه ومروج الاعشاب في قعره وبينها عروسة البحر الخرافية .

الرحلة النهرية مرّت عبر غابات الهنود والغابات البكر حيث كانت تطالعنا الوحوش المفترسة ويدوي صوتهـا فيخيفنا ويضحكنا معاً ، والقرود تتسلّق الأشجار ، وفرس الماء والتمساح يبرزان من الماء ويكادان يصطدمان بسفينتنا . كل هـذه الأجسـام من بلاستيك ومطاط لـكن الأولاد يظنونها حقيقية .

رحلة القطار مرّت في « جران كانيون »[1] حيث رأينا الافاعي تتقلّب وتصفر ، وبعض العصافير تزقزق في ذرى موحشة . ثم انتقلنا الى ما قبل التاريخ مع الحيوانات المنقرضة ورجال الكهوف .

في « قاعة تيكي » ٢٢٠ طائراً من بغبغانات وطيور الباسيفيك كانت تصيح كل طير بصوته الخاص به وتتحرك بين الاقنعة والرياش فَخَرَجْتُ منها مصاباً بدوار .

كانت اروع مناظر الرعب في « قرصان البحر الكاريبي » اذ ابحر مركبنا في مضايق تعرّض فيها لهجماتهم ولنيرانهـم ولحرب بين عصابتين منهم . ثم « البيت المسكون » حيث جلسنا على مقاعد ضلّت بنا في دهاليز مظلمـة طالعتنا منها اشباح الموتى ومزّق آذاننا صراخ المستغيثين وكانت المرايا تتحرّك وقِطَعُ الاثاث تهتزّ وتقع بالقرب منا .

العلامة المميّزة لديزنيلاند هي جبل مكلّل بالثلوج تنحدر منه شلالات ويُرى من الآفاق الأربع البعيدة . والعجب ان في هذا الجبل اكثر الألعاب إثارة ، اذ ان قطاراً سريعاً جداً يضيع في انفاقه ويهوي في جوفه فيصرخ اللاعبون من الهلع والعدوى .

---

(١) انظر فصل ٣٥ .

استمتعنا بفيلم « اميركا الجميلة » ، والجديد فيه ان الشاشة هي دائرة كاملة ٣٦٠ درجة ونحن في وسطها . وبدل أن تمرّ المناظر امامنا كان يخيَّل إلينا اننا نحن في لوس انجلوس و سان فرنسيسكو وهاواى والبحيرات الكبرى في سيارة او مركب او قطار او طائرة ونشعر كأنّ المركب يهتزّ وكأنّ الطائرة تميل . يُعتبر هذا التجديد من امتع ما ابدعه فن والت ديزني ولقد لامه بعض الاميركيين لأنه بدأه في معرض مونتريال قبل ديزنيلاند ...

في « الرحلة الى القمر » جلسنا على مسند من « بلاستيك » واذ انطلقت بنا سفينة الفضاء شعرنا ان المساند تنتفخ تحتنا فنصعد ونصعد وفي وسط دائرة العرض كنا نرى الأرض تصغر . ثم اوهمونا اننا نرى نجوماً كثيرة ، وعرضوا صور القمر التي التقطها الروّاد كأننا سنهبط نحن على سطح القمر وبالفعل شعرنا بأننا ننزل وننزل لأن المساند تحتنا كانت « تنفّس » وهبطنا وتجوّلنا على القمر ولكن بالفعل مع لقطات الروّاد .

المعبود « ميكي » :

كل يوم يُعطى عرض سينمائي عن معبود ديزني « ميكي ماوس » . والت ديزني انطلق من رأس مال سحري هو الفأر « ميكي » . منذ صغره وهو فى مزرعة والده كان يحب الفأر ويرسمه . وُلد ميكي من خيال ديزني سنة ١٩٢٧ واختارت زوجته اسم هذا البطل الذى كسب الملايين على الشاشة ، وكتبت عنه الموسوعة البريطانية ، وُعرض تمثاله في « مدام تيسّو » متحف الشمع الشهير في لندن ، وكان الكنية السرّية لحملة « دنكرك » في ١٩٤٤/٦/٦ . « ميكي هو صورة عن والت » هكذا قال « روي » شقيقه . بعد عرض « ميكي » رأينا مشاهد قصيرة من بعض أفلام ديزني : « الجمال النائم » ، و « ماري بوبينز » و « أليس في بلاد العجائب » و « سنووايت مع الأقزام السبعة » . وتوجد في المدينة لعبتان خاصتان عن أليس وسنووايت فيدخل المرء الى كهف « أليس » في قلب الأرض والى منجم الالماس حيث الاقزام السبعة ...

ولم ينسَ ديزني لعبة الاطباق الطائرة وطيراناً شراعياً الى بلاد دعـــاها « البلاد التي لاتوجد » وفيلاً من البلاستيك يطير . ولم يهمل الألعاب التقليدية التي نراها في مهرجاناتنا كالرماية وألعاب الحظ .

لماذا مُنع خروشوف :

عندما زار خروشوف أميركا طلب ان يذهب الى ديزنيلاند فلم تستجب رغبته ، اذ قيل له انه لا يمكن لمئات من رجال الأمن ان يسهروا على حمايته وسط ربع مليون من الناس ولا يمكن أن تفتح ديزنيلاند له وحده ...

من هو والت ديزني :

ولد ديزني سنة ١٩٠١ . عندما بلغ التاسعة عمل مع أخيه « روي » في توزيع الصحف وكان يصل متعباً الى المدرسة لأنه بقي خمس سنين يوزّع الصحف من ٣،٣٠ الى ٧،٣٠ صباحاً . واشتغل في مخزن مقاول دفن ثم موزع حليب وبائع مرطبات في القطار . وفي الحرب الأولى كان سائق عربات في فرنسا . بعد الحرب عمل رسّاماً في شركة إعلانات بأجر قدره خمسون دولاراً في الشهر . وسنة ١٩٢٠ وجد عمله المناسب كرسّام في « شركة كنساس السينمائية » . بدأ بـ « الأرنب أوزوالد » ثم الفأر « ميكي » ثم البط « دونالد » ، ثم اخرج « أليس» و «سنووايت» ، ومن ايرادهما بنى ستوديوهاته في سان فرناندو بكاليفورنيا ، وانطلق في عالم السينما حتى اصبح أعظم مخرج عرفه العالم الى الآن .

بعد الحرب العالمية الثانية تحوّل من رسومات الكرتون الى تصـــوير الحيوانات ، فأرسل فرقاً الى الاسكا والقطب الجنوبي وأدغال افريقيا والبرازيل ليصوّروا الحيوانات في بيئتها . كان بعض المصـــوّرين ينتظرون ستة أشهر ليحظوا باللقطة المطلوبة . عاشت عائلة « ميلوت » ثلاث سنوات في سيارة للرحلات وسط الوحوش في افريقيا . لبس احد مصوّريه جلد وقرون جاموس كالهنود الحمر واقترب من الجواميس وصوّرها . ونجح آخر في تصوير

فيلة تولّد وكان وزن وليدها ٩٠ كيلوجراما . كان يستخدم لأفـلامه ثلث الصور ويترك الثلثين الباقيين لأنه يختار فقط « أفضل الأفضل » .

كان يقول : « ان الانسان نوع من الحيوان لكنه تعلم ان يفتح مظلة يتقي بها المطر » . وفي فيلم « ماري بوبينز » هذا الكلام : « البشر هم كالحيوانات ولكن على قدر اقلّ من الحكمة » . ومن أقواله : « كل إنسان يشبه حيواناً ما وأنا اشبه النحلة اذ انتقل من زهرة الى زهرة باحثاً عن طعامي الذي هو الافـكار الجديدة » نال على « افـكاره الجديدة » نحو تسعمائة جائزة ـ عـدا جوائز « الاوسكار » ـ والدكتوراه الفخرية من جامعات عديدة بينها جامعة « هارفرد » .

اشتغل في مطلع حياته السينمائية مع « شارلي شابلن » وكان معجبا به وحفظ منه هذه النصيحة : « يا والت انظر الى الصغار ككبار والى الكبار كصغار وتكلم واعمـل بحيث تفهمك الفئتان . أضحكهم واترك لهم الوقت ليتنفسوا . أبكِهم واترك لهم الوقت لينفرجوا . » حسب الاحصائيات ٨٠٪ من زوار ديزنيلاند هم من الكبار . كان ديزني يملّ وهو يرافق الأطفال الى الملاهي فحقّق بعبقريته « الحلم المثلث » ان يرى المتلهّي ويسمع ويلمس فيعيش هو الملهاة كأحد ابطالها .

لقد باع والت ديزني بوليسة التأمين على حياته واشترى بثمنها في «انهايم ـ ANHEIM » على بعـد ٦٤ كم جنوبي لوس انجلوس أرضاً أقـام عليها « ديزنيلاند » افتتحها في تموز سنة ١٩٥٥ ودشّنتها زوجته . وجد في زوجته شريكا مشجعاً . تزوجها وعمره ٢٥ سنة وبقي أميناً لها طول حياته . وهي كانت تتباهى بأساور ٢٢ جائزة « اوسكار » فاز بها زوجها ! .

كلّف انشاء ديزنيلاند في البدء ١٠ ملايين دولار . لـكن الملايين تصرف عليها سنويا لتظل متجددة جذابة ، وكان ديزني يقول : « ان المال في يدي

هو ثمن الخيال انفقه لأصنع احلاماً يتمتع بها الجميع » . اما الاستوديوهات التي تخرج افلام ديزني فليست هنا بل في وادي « سان فرنندو » ويعمل فيها ١٥٠٠ عامل وعاملة كانوا يعشقون ديزني وهو لم يطرد احدا ولم يغضب على احد الا مرة واحدة حين سمع عاملا يشتم معبوده « ميكي » .

عدا الاستوديوهات وديزنيلاند اشترى مقرّاً في جبال « السيكويا » بكاليفورنيا العليا ، ومقرّاً آخر في « فلوريدا » للملاهي مثل ديزنيلاند .

●

٣٥

جران كانيون

قالوا عنه :

« أية قوة صنعت هذه الآية من الرهبة ؟

أية أيادٍ بعثرت بوفرة هذه الغرائب ؟

أيها النهر اللامع في وهدة خانقة من الحزن والظلام .

تشق واديك الى الطبقات السفلى .

يا « كولورادو » الضاري أنت أسير عنائك .

ولا تزال توالي عملك الى أن تبلغ البحر .

المياه المتجمّعة من الثلوج والينابيع

وسط جبال « اوتاه — UTAH » .

حفرت طريق المجد هذا الى خليج كاليفورنيا » .

(هنري فان دايك)

« لا تفعلوا شيئاً يشوّه عظمته . حافظوا عليه
لأولادكم وللأحفاد ولكل من سيأتي بعدكم لأنه
أروع منظر ، على كل اميركي أن يشاهده ».

(الرئيس تيودور روزفلت)

« لا يمكن للانسان أن يرى هذه الجلاميد الموحشة دون
أن يشعر بلمسة روحانية غريبة وعميقة . لو رآها غير
مؤمن لارتدّ عنها مؤمناً بأن خالقاً ترك عمله هنا » .

(وليم دوجلاس)

في اللعبة الهوائية :

في مطار « لاس فيجاس — LAS VEGAS » مئات من الطائرات الصغيرة يدعونها « تكسي جوّي » تتسع لأربعة ركاب. دفعتُ تسعة وثلاثين دولاراً ونصف لرحلة يوم عبر الجران كانيون . عقب التحليق مباشرة رأينا مدينة « لاس فيجاس » ممتدة وسط الرمال وركّبنا السماعات وفتح الطيار آلة التسجيل تُسمعنا شرحه عن هذه الرحلة . هو يبتسم لنا وعيناه تتنقل من الركاب الى جبال الرمال وسدّ « بولدر » وبحيرته . بدأ حديثه بتشجيعنا إذ رآنا صامتين في « اللعبة الجوية » فقال ان هذا هو طيرانه الثامن عشر بعد السبعمائة ولم يحدث له أي ضرر . وهو يطلب منا شيئاً واحداً أن لا نتحرك لئلا يختل توازن اللعبة الهوائية . مازحه أحد الركاب قائلاً : ولنفترض أن المحرّك الوحيد تعطّل في هذه اللعبة فماذا تفعل ؟ أجاب على الفور : أهوي وسط الوهاد وأحاول أن أصلحه .. إذا بقي منه ومنا شيء .. مررنا فوق جبال رملية ثم أودية عميقة والساعة ٨,٤٥ حطّت الطائرة في مطار بلدة « جران كانيون » في ولاية «اريزونا» وركبنا سيارة أخذتنا الى شفير الوهاد.

صورة من الشفير الجنوبي :

بقينا ثماني ساعات كاملة نتنقل مع الدليل على الشفير الجنوبي من الجران كانيون نستطلع مناظره وشاهدنا فيلماً عن تكوينه وعن الأحوال التي يمرّ بها في مختلف فصول السنة وزرنا متحفين عن آثاره .

من ارتفاع ٢٣٠٠ متر عن سطح البحر و١٦٠٠ متر عن مجرى نهر « كولورادو » يضيع النظر في عالم مهيب موحش من الوِهاد والأخاديد والسفوح والأبراج والأهرام .. وفي القعر نهر « كولورادو » الجبّار ويبدو من بعيد جدولاً وادعاً شق طريقه بعناء نحو الجنوب الغربي الى خليج كاليفورنيا . يشبهونه بالأفعى بتلوّيه وهدوئه من بعيد . القمم والسفوح ملساء من فعل الرياح والعواصف والأمطار . من تحت أقدامنا ينحدر طريق الى مقر الوهدة حيث يربط جسر السفح الشمالي بالسفح الجنوبي. يمكن للسياح أن يزوروا هذه البقاع على الأقدام او على متن البغال او بالطيران المنخفض البطيء كما فعلتُ أنا اليوم .

أسماء دينية :

انتقلنا مع الدليل والرفاق الثلاثة الى تسعة مراكز مراقبة متباعدة عن بعضها للاستمتاع بأكبر قدر ممكن من هذه الأودية . اسماء الأخاديد والأبراج والقمم التي أمامنا جمعت من عدة ديانات : شيفا — فشنو — كريشنا — راما من الديانة الهندية . اوزيريس — ايزيس — راع — حوريس من الديانة المصرية القديمة . بوذا — براهما — زرادشت — ديانا — ابولو — زفس الخ .

أخدود الملاك اللامع :

أعظم أخدود هو « أخدود الملاك اللامع — BRIGHT ANGEL CANYON » يعبره طريق من سطح الشفير الجنوبي الى سطح الشفير الشمالي ماراً بالجسر . كان هنود قبيلة «هوبي HOPI » القاطنون حتى الآن في الجران كانيون يعتقدون ان السكان الأول هنا طلعوا من قلب الارض من هذا الاخدود وبعد موت

الجسم تغور الروح فيه وتنزل الى العـالم الأسفل فهو طريق الحياة والموت . ان المناظر الرائعة والمروّعة المحيطة به تضفي على الاسطورة ألواناً وألواناً .

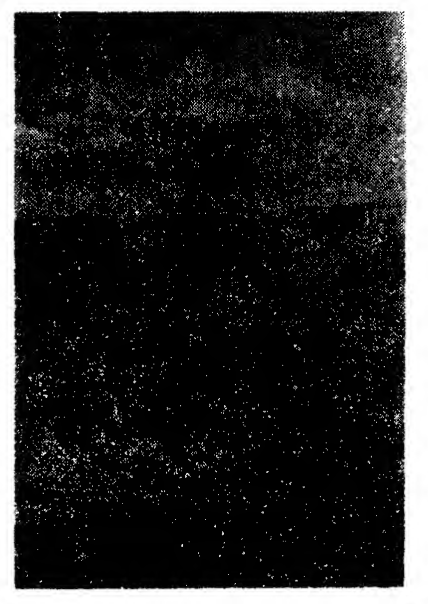
طبقات الصخور :

من مجرى النهر الى القمة ثمـان طبقات متميزة بخطوطها وألوانها . يقرأ العلماء عمرها في سطورها الافقية وفي كثافتها وفي الآثار المطمورة والمتحجرة فيها . تاريخياً العليا هي أحدث من التي تحتها . رغم غرابـة اسمائها أود أن أذكرها بادئـاً من عند مجرى « كولورادو » : ١ ـ طبقة من جرانيت تبلغ كثافتها عمودياً ١٨٣ مـتراً . ٢ ـ طبقة « انكار » . ٣ ـ طبقة « شوار » وكثافتهما معاً ٣٦٠ متراً . ٤ ـ طبقة « تونتو » = ٢٤٠ متراً . ٥ ـ طبقة «رد وول» = ١٦٥ متراً . ٦ ـ طبقة « سوباي » = ٣٣٦ متراً . ٧ ـ طبقة « كوكونينو » = ٩٣ متراً . ٨ ـ طبقة « كايباب » = ٢٠٣ متراً. فيكون مجموع كثافـة الطبقات ١٥٨٠ متراً هو بالفعل عمق الجران كانيون من الشفير الى مجرى النهر . بالعين المجرّدة ترى الطبقات ولو مـــع بعض الغموض . وبمكبّر النظر تُرى واضحة بعضها فوق بعض وألوانها مختلفة يغلب فيهـــا البرتقالي والرمادي والأسود . قد توجد هذه الطبقة او تلك هناك او هنالك في بعض البلدان ولكن لا توجــد مجتمعة إلا هنا ولذا قيل ان جران كانيون هو مدرسة على الطبيعة للجيولوجيا .

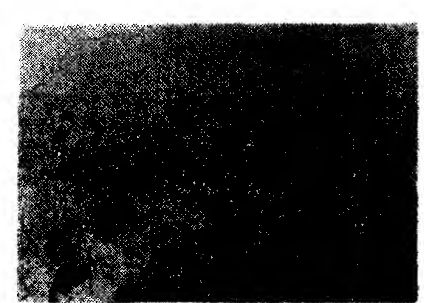
من تاريخ الجران كانيون :

طول الجران كانيون ٣٥٣ كلم وعمقه ١٦٠٠ مترا وعرضه يتراوح بين ١٣ و٣٢ كلم ومساحته نحو ٤٤٨٠ كلم^{2} .

نهر «كولورادو» الذي يمرّ فيه طوله ٣٢٠٠ كلم وعرضه من ٦٠ الى ١٨٠ مترا وعمقه من ٤ أمتار الى ١٢ مترا وقـــد يبلغ ٣٠ مترا إذ يتضخم زمن السيول . معــدل انحدار النهر في الكانيون هو متران وربع في الكيلو متر الواحد ويحمل الى البحر كل ٢٤ ساعة نحو خمسمائة الف طن من الرمـــل



جران كانيون ونهر كولورادو



جران كانيون



قاعة المؤتمرات في لاس فيجاس

والوحل والحصى . الغريب جدا ان مدخل نهر كولورادو الى هضبة الجران كانيون ومخرجه منه هما أقل ارتفاعاً الى حـد كبير من سطح هضبة الجران كانيون نفسها فالنهر لم يكن في البـدء يسير على سطح الهضبة ثم حفر مجراه كما يحدث عادة لباقي الانهار. هذا الواقع قاد العلماء الى معرفة كيفية تكوين الجران كانيون . في حقبة متغلغلة في القدم ـ ويقال منذ نحو ٢ مليار سنة ـ حدث صعود الارض [١] في هـذه الهضبة عن جانبي النهر فترك انكسارات والتواءات هي سبب « تفتيت » الهضبة الى الوف القمم والابراج والاخاديد والوهاد . بعد هـذا المولد العنيف للجران كانيون توالى بروزه فوق سطح الارض او بالأحرى تعميقه في جوف الارض بالوسائل العادية وهي : الرياح والسيول وتعاقب البرد والحر الشديد (من تحت الصفر الى ٥١ درجة مئوية فوق الصفر) فكانت الطبقات تنكمش او تتمدد فتتكسر وتنهار قشرتها . هذا وكولورادو يتابع الحفر في مجراه الى ان يبلغ يوماً سطح خليج كاليفورنيا. ويساعده في الحفر النصف مليون طن من الجوامد التي يجرفها معه يومياً وهي تقصّ من الحافتّين وتعطي للنهر لوناً قاتماً على مدار السنة .

توجد في المتحف قطع من مختلف طبقات الجران كانيون عليها آثار الحياة وهي من فوق الى تحت :

في طبقة « كايباب » : اصداف ومرجان واسفنج .

في طبقة « كوكونينو » : زحافات وحيوانات برمائية .

في طبقة «سوباي» في الحقبة الاولى نبات يحمل كروزا، خنشار أو نبات السرخس ، اجنحة حشرات . أوحال متحجّرة مشققة . وفي الحقبة الثانية آثار حيوانات برية .

---

(١) الارتفاع والانخفاض عاملان مستمران في بعض المناطق . فالجزء الشمالي من سكنديناڤيا يرتفع والجنوبي ينخفض . هولندا تنخفض ٢ سنتيمتراً كل ١٠٠ سنة . الشواطىء الغربية في الولايات المتحدة ترتفع والشرقية تنخفض .

في طبقة « ريدوول » : اصداف ومرجان ونبـات مائي وتجعدات في الحجارة .

في طبقة الجرانيت السفلى : لا أثر للحياة .

الجران كانيون وسفر التكوين :

قارن أحدهم بين النتائج التي توصل اليها العلماء في درس طبقات الارض وعمر الصخور وآثار الحياة هنا وبين ما ورد فيالفصل الأول منسفر التكوين وسمي الاول الكتاب المقدس في الطبيعة والثاني الكتاب المقدس في الوحي. ففي البدء « كانت الارض خربة وخالية وعلى وجـه الغمر ظلام وروح الله يرفّ على وجه الميـــاه » . وهنا كان البحر يغمر كل هضبة الجران كانيون وتوجد آثار حتى في طبقتها العليا على وجه الارض . لا شك ان سنّة التطور هي العظمى في نظام الكون والحياة ولكنها بدأت بقدرة خلاّقة دفعتها في منطلق الوجود .

حافظوا على النظام :

يحافظ الاميركيون على الجران كانيون بتعليمات وأنظمة صارمة فلا يجوز ان تتجاوز احياناً سرعة ٤ كلم . وممنوع مس أي حجر أو نقله . وممنوع إدخال الكلاب والقطط وممنوع الصيد . حتى وزن الراكب على البغل محدّد لا يجوز ان يكون اكثر من ٩٠ كيلو غراماً. ولا يجوز للذين تحت سن الـ ١٢ ان يزوروه وحدهم او ان يركبوا البغال . والأولوية فيه للبغال فعلى الانسان ان يفسح لها المجال الخ ... الخفراء منتشرون فيـه للمحافظة عليه ولإرشاد السياح ولتنبيههم للأنظمة إذا اخلّوا بها .

هنود في الجران كانيون :

ليس الانسان غريباً عن هـــذا العالم إذ تعيش في الجران كانيون ثلاث قبائـل هندية هي : « هافاسوباي — HAVASUPAI » في الغرب و « نافاجو —

NAVAJO » و « هوبي – HOPI » في الشرق . عـــدد الهافاسوباي ٢٠٠ فقط في واحة مساحتها ٤ كلم٢ . وعدد النافاجو ٩٠ الفاً ومساحة عزلتهم ٨٠ الف كلم٢ . بعضهم رحّل وبعضهم حضر ويعيشون من الغـــنم والماعز والتجارة بالأغطية والحلى . عـــدد الهوبي ٤ آلاف مأكلهم الأساسي الذرة ويشاهد السياح عندهم « رقصة الافعى » لاستنزال المطر .

الهنود الحمر يطالبون بأراضيهم :

يعاني الأميركيون ليس فقط من مشكلة الزنوج بل أيضاً من مشكلة الهنود الذين يقولون ان البيض اغتصبوا أرضهم أو دفعوا اثماناً بخسة . منـــذ سنة ١٨٨١ لا تنقطع مطالباتهم حتى شكّل الكونجرس لجنـــة وحدّد لهم فترة خمسة اعوام للتقدّم بمطالبهم من ١٣ آب ١٩٤٦ الى ١٢ آب ١٩٥١ . فتقدّم محامون ومستشارون قانونيون لمساعدتهم . وعلى سبيل المثـال طالبت قبيلة الـ « سيو – SIOW » بخمسة عشر مليون دولار تعويضاً عـن الحيوانات التي اصطادها البيض في أرضهم بـين ١٨٦٥ و ١٨٨٠ . وطالب الـ « ميامي – MIAMI » بثلاثة مـــلايين هكتار في انـديانا . وطالب هنود « كنت – KENT » بثمن « مانهاتن » مدّعين ان اجـدادهم لم يبيعوها بأربعة وعشرين دولاراً بل اجّروها لتسعة وتسعين عاما . وطالب الـ « اوتاوا – OTTAWA » بشيكاغو ... حتى سنة ١٩٥١ طالبوا بثلاثة ارباع البـلاد ، فهنود كاليفورنيا وحدهم طالبوا بأربعين مليون هكتار . قـدّم الهنود ٨٢٥ عريضة وطالبوا بعشرة مليارات دولار ! كسبوا كثيراً من دعاويهم فمثلاً قبيلة « اوتيس – UTES » حصلت على حكم لها بـ ٣١,٩٣٨,٤٧٣ دولاراً وقبيلتا MISSOURI و OTOS حصلتا على تعويض ١,١٥٦,٠٣٣ دولاراً . وعـــادة للمحامين ١٠ ٪ ... اضف الى هـذا ان ٣٦ ولاية من الولايات المتحدة الـ ٥٠ تحمل اسماء هندية وكذلك بعض المدن والانهر والبحيرات والجبـــال مثل : اركنساس – اوهـــايو – ويسكنسن – مسيسبي – ميسوري – ملووكي – بوتوماك ...

رعب في العودة :

كان الاياب اجمل من الذهاب بعد كل ما عرفنا عن الجران كانيون. نزلتْ بنا الطائرة مراراً الى فتحات الوادي بين السفحين وشاهدنا مناطق لم يطأها بشر ولا طير ولا يمكن ان تراها العين إلا من فوق . ولكن بمرور عقارب الساعة تصبح المناظر متشابهة . لم استمتع بها استمتاعاً كافياً لأنني شعرت بالخوف في هذه اللعبة الهوائية المتقلبة في قلب الوادي والتي تكاد ترتطم بالذرى الشاهقة المسننة فكانت آخر ساعة من الرحلة مزيجاً من « الدهشة والرعب » . حلق بنا الطيار مرتين فوق قرية هنود هافاسوباي . وأرانا سد « بولدر » الذي يبلغ ارتفاعه ٢١٠ امتار ووراءه بحيرة « ميد ـ MEAD » ويبلغ طولها ١٧٦ كلم . فما اروع عمل الانسان هذا بعد ما شاهدنا اليوم من عمل الله !

في لاس فيجاس :

يقصد لاس فيجاس سنوياً نحو ١٠ ملايين سائح وطالب حظ . فهي لا تنام ولا تقفل ابواب فنادقها لحظة واحدة فربما يقفل معها باب الحظ . في المطار وفي اركان الشوارع والبارات والمطاعم وقاعات الانتظار وفي كل الفنادق العاب « جرّب حظك » لتكسب وانت عادة الخاسر ... إلعب وكن حذراً فرجال الأمن مبثوثون في كل مكان .

في لاس فيجاس مع اغراء الحظ جاذبية الدفء إذ ترى الشمس ٣٢٠ يوماً في السنة. تغلّبتْ على الحرارة بتكييف الهواء وبأحواض السباحة وبالحدائق ونافورات المياه .

وهي أيضاً مدينة « الطلاق » لأن اجراءته فيها أسهل واسرع مما في أية ولاية اخرى .

وهي مدينة الفن المعماري لعب فيها خيال المهندسين وطليت بألوان فاقعة

يغلب عليها الاصفر لون رمـال صحرائها ولون الذهب ... تفنّنوا فيها بالاعلانات الكهربائية فحذاء جبار يدور على سطح بناية ومصباح علاء الدين يدور فوق فندق علاء الدين وقاعة سينما شكلها كروي . ومركز مؤتمرات فيه ١٧ قاعة للجان وصالة عامة فيها ٨٥٠٠ مقعداً . وفندق «سيزار بلاس» تكلف ٢٥ مليون دولاراً .

إذا زرت لاس فيجاس فاذكر انهـا من اغلى مـدن اميركا إنما اشترِ فيها من محلات اسمها « ٥ ــ ١٠ ــ ٢٥ » فعلى رفوفها أصناف البضاعة من ٥ سنت فما فوق ...

تكوين الارض وعمرها :

بمناسبة كتابتي عن الجران كانيون اودّ ان أوجز مقالاً من مجلة « لايف » عن تكوين ارضنا وعمرها .

متى تكونت الارض ؟

في القرن التاسع عشر اكتشف عِلـْم طبقات الارض (الجيولوجيا) في الجبـال طبقات تعلو بعضها بعضاً وفي كل طبقة بقايا وآثار حيوان ونبات فيها . فكيف يفسّر وجود عظام حوت على رؤوس الجبال وانطباع اسماك في السهول والسفوح وبقايا نخيل في انجلترا وآثار جليد في البرازيل ؟ ارجع عِلـْم المطمورات تكوين الارض الى ملايين السنين .

سنـة ١٩٠٠ اكتشف عِلـْم الاشعـــاع العناصر المشعّة وهي الراديوم والاورانيوم والتوريوم. وهذه العناصر تنحل تلقائياً وتدريجياً موّلدة عناصر غـــيرها تلقى المصير ذاته وآخر عنصر متولّد منها هو نوع من الرصاص . وحقب تطورها متشابهة ومتساوية فإذا ما حـــدد عمر الرصاص بالنسبة الى الاورانيوم يمكن تحديد عمر هذا الاخير . من تحليل الصخور المشعّة في شتّى انحاء العالم استخلص العلماء ان القشرة الارضية تجمدت وثبتت منـــذ ٣ مليارات سنة .

ويعرض المؤلف لطريقة اخرى فيقول : كانت مياه البحر في البدء عذبة ومياه الانهار هي التي تحمل اليها الملوحة مما تمرّ به وتجرفه . إذا ما اعتبرت كمية المياه العذبة التي تصب اليوم في البحار فأية حقبة من الزمن انقضت لكي تصل درجة الملوحة الى الحد الذي هي عليه الآن ؟ يجيب العلم بين ٢ مليار و ٤ مليارات سنة .

كيف تكونت الارض :

ينطلق العلماء من حالتها الراهنة ويرجعون متغلغلين في القدم ليحاولوا الاجابة على هذا السؤال . حتى الآن اعمق نقطة وصل اليها الحفر هي بئر بترول على عمق ٦١٥٦ متراً اي نحو $\frac{١}{١٠٠٠}$ من نصف قطر الارض . بعد كل ٣٣ متراً من التغلغل في جوف الارض تزيد الحرارة بمعدل درجة واحدة سنتجراد . على عمق ٣٠٠٠٠ متر تبلغ الحرارة ١٠٠ درجة وعلى عمق ٤٨ كلم ذوبان الصخور بين ٧٠٠ و ١٧٠٠ درجة . وعند هذا المستوى تولد الحِمَم التي تقذفها البراكين . في وسط الارض تقدّر الحرارة بـ ٥٥٣٧ درجة .

يقول العلماء ان الارض مكوّنة من ثلاث كرات متداخلة: الاولى الجوفية في قلب الارض وسمكها ٦٤٣٦ كلم وهي مشتعلة . والثانية الوسطى سمكها ٣٢٠٠ كلم وهي سائلة فرخوة نحو الجوف وجامدة نحو السطح لكنها ساخنة جداً . والثالثة السطحية يتراوح سمكها بين ٣٠ و ١٥ كلم وهي طبقات القشرة الارضية اسفلها صخر بازلت اسود .

في سنة ١٩٥١ قال عالم فلكي من جامعة شيكاغو اسمه «جيرارد كويبر ـ GERARD KUIPER » بنظرية تعتبر الفضلى حتى الآن . في البدء كان الكون كتلة واحدة من غيوم غازات وغبار تهيم في الفضاء اللامحدود. اخذت هذه الكتلة الاولى تتفكك بسبب الحركة وصراع الجاذبية الى كتل اصغر هي الـ « جالاكسي – GALAXIES » (ومنها المجرّة) . وهذه الكتل

تتفكك بدورها الى اصغر منها وهكذا ... الى ان ظهرت النجوم . وهذه بدورانها حول محورها انشطرت الى اثنتين فغالب النجوم في الافلاك هي توائم. ويوجدنجوم انشطرت الى ٣ ونجمتا الدب القطبي الى ٥ ولا تزال النجوم تتفكك ... ولكن في بعض حالات نادرة جداً ـ واحدة من مائة ـ كانت السحابة الكونية بدل ان تتفكك تسلخ عنها نواة عملاقة تنقذف في الفضاء وهذا ما حدث لمجموعتنا الشمسية . وهذه النواة الاخيرة بدورانها على نفسها انتثرت الكواكب حول الشمس وبقيت تدور في فلكها . والقمر انسلخ عن أمه الارض .

كانت الارض في بدء وجودها كرة غير معينة الشكل . عناصرها الثقيلة ترسّبت في جوفها والخفيفة بقيت على السطح ورويداً رويداً بردت قشرتها . ُوجدت القارّات الاولى بين الدخان واللهب كأنها وسط بركان شامل . وبمرور الزمنأخذت صخور البازلت والجرانيتتصلد بينما أبخرة الماء وحامض الكربون تكوّن جوّ الارض وتحجب عنها نور الشمس الى ان جاءت فترة بقيت فيها مياه الامطار على الكرة الارضية فلم تتبخر كفيضان دام مئات السنين. ثم انقشعت الغيوم وأطلّت الشمس على ذلك الغمر. وأخذت الارض تبرد وتنكمش قشرتها فتتكوّن الاودية والجبال كقشرة تفاحة تذبل . أما الانسان فظهر على وجه الارض منذ نحو ٢٠ مليون سنة في شرق افريقيا .

نهاية الارض :

حياة الارض هي مرحلة قصيرة من الأبدية. وعالم الانسان مرحلة قصيرة جداً في حياة الارض . ربما ستعيش الارض بقدر ما تعيش الشمس التي هي نجم فتي شاب سيعيش مليارات السنين .. ولكن بعد نحو ١٠ مليار سنة سينفذ الايدروجين الذي في الشمس وتحدث تفاعلات عظيمة تجعل الشمس اكثر لمعاناً وأشد حرارة فتسخن الارض جداً حتى يذوب جليدها وتتبخر

مياهها ويموت فيها كل حيّ . وبعد الانفجار الاخير في الشمس يحترق كل ما في الارض بل تحترق الارض ذاتها . ويرتئي البعض ان الارض ستنتهي بحدث عنيف إذ يرتطم بها نيزك عملاق هائم او يصطدم نجمان ومن احتراقهما تحترق الارض . او ستنتهي بموت طبيعي من البرد إذ انـــه بمرور الزمن تضوءل حرارة الشمس وتزداد كثافة القشرة الارضية . ولكن عندما يحدث هـــذا يكون قسم من البشرية استوطن في كوكبٍ آخر .

●

٣٦

سان فرنسيسكو

المدينة المترفة :

يقول الاميركيون عن سان فرنسيسكو انهـا مدينة البوابة الذهبية والضباب والاناقة والأكل الشهي .

« البوابة الذهبية » هو اسم الخليج الذي يفتح لهـا باب المحيط الهادي واسم الجسر الذي يمتـد فوق الخليج واسم خط السير الاصفر في الشوارع المؤدية الى الجسر. ثم اطلق ذلك الاسم على حدائق ومخازن ومسارح ومطاعم بعد ان اصبح اللقب المميّز لـ « سان فرنسيسكو » .

وهي مدينة الضباب كثيفاً في الشتاء شفافاً في الصيف ولا تخلو منه يوماً واحداً . كانت زيارتي لها في شهر آب وتمتّعت بالضباب الشفاف إذ أنه فعلاً لطيف منعش يداعب الرأس والخدين برذاذ ناعم كالنسائم ثم يتبدد مع شمس الضحى. وهذا الضباب – مع وقوعها في كاليفورنيا العليا واحتوائها بالمياه – يجعل مناخها معتدلاً طوال السنة فلا تعرف الحر ولا البرد: ١٠ – ١٥ درجة مئوية في فصل الشتاء و١٥ – ٢٠ درجة مئوية في فصل الصيف .

وهي مدينة الاناقة فــلا يخرج الرجال إلا بالجاكيت والياقة والبرنيطة والمشمع او الشمسية ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً. ولا تخرج النساء بملابس رياضية او خفيفة بــل دوماً بأثواب كاملة جميلة وبحذاء اسود . وقد « يتغلّفن » بغلاف نايلون خفيف من أعلى الرأس الى كعب الكعب العالي .

وهي مدينة فن الطبخ يقرّ لها بذلك الاميركيون والاوروبيون بما فيهم الفرنسيون وتمتاز « بثمار البحر » .

أضف الى ذلك انهــا مدينة صغيرة نسبياً و « ملمومة » فيحلو العيش والتنقل فيها وان روابيها العديدة خضراء على مــدار السنة وحدائقها كثيرة وجميلة جداً .

مئتا سنة :

في سنة ١٧٦٩ تعرّف اسبان المكسيك على خليج المدينة وأسّسوا مركزاً تبشيرياً دعوه « دولوريس – DOLORES » ودعوا البــلدة « العشبة الصالحة – YERBA BUENA » . اسم المدينة « سان فرنسيسكو » هو على اسم القديس فرنسيس الاسيزي مؤسس الرهبــان الفرنسيسكان الذين بشروها بالدين المسيحي .

في عــام ١٨٦٠ كانت آخر مركز في الغرب لشركة « بوني اكسبريس » وهي الشركة التي تعهدت نقــل البريد بواسطة خيالين ماهرين يمتطون ظهور المهر والحصان ويتسلمون البريــد بعضهم من بعض من نيويورك الى سان فرنسيسكو وكانوا شجعاناً ومدرّبين على القتال للتصدّي لهجمات الهنود عبر هــذا الطريق الممتد نحو خمسة آلاف كلم . ازدادت أهميتها سنة ١٨٦٩ إذ أصبحت النقطة النهائية لسكة الحديد . في ١٨ ابريل ١٩٠٦ عانت من زلزال رهيب نجا منه بأعجوبة مغني الاوبرا « كاروزو » . يرى الاميركيون فــألا سيئاً في يوم الجمعة فيوم جمعة اغتيل لنكولن وكندي ويوم جمعة وقع زلزال سان فرنسيسكو وزلزال الاسكا .

الترام الاثري :

بـــدأت جولتي في سان فرنسيسكو من « ميدان الاتحاد ـ UNION SQUARE » وهو النقطة المركزية في المدينة تتفرع منـه الشوارع الرئيسية وتتركز حوله مكاتب شركات الطيران والفنادق الفخمة . يرتفـــع في وسطه تمثـال الاميرال « ديوي ـ DEWEY » لتخليد ذكرى انتصاره على الاسبان في « مانيلا » وحوله في الجنينة اسراب من الحمام يتلهّى المارة بإطعامها . في أحد أركانـــه منطلق الترام الشعبي وهو في نظر سكان سان فرنسيسكو من أطرف معالم مدينتهم. عرباته بعيدة كل البعد عن الفخامة الاميركية . يجلس الركاب على مقاعـد خشبية ضيقة ويقفون على « الرفرف » كأنهم في ملاهي



الترام الأثري

«ديزنيلاند» . هذا الترام بطيء يعرّج في روابي المدينة وتتراكم فيه ذكريات ما يقارب مائة سنة ويعتبر حتى من الوجهة القانونية « أثراً قومياً » .

جولة في المدينة :

مررنا بجانب المركز الرئيسي لأكبر بنك في العالم « بنك اوف اميركا » ثم أنزلنا الدليل وتجولنا في « المركز المــدني – CIVIC CENTER » وهو مجموعة من الابنية بينها مجلس البلدية من الجرانيت حسب طراز فرنسي نهضوي تعــلوه قبة يبلغ ارتفاعها ٩٠ متراً وصالة المؤتمرات وبناية الولاية ومكاتب الحكومة والمكتبة العامة ومركز الصحة ومتحف الفنون ودار الاوبرا حيث وقّع ميثاق هيئة الامم المتحدة .

في ساحة « بورتسموث » ولدت سان فرنسيسكو ونصبت اول مشنقة . من هذه الساحة تبدأ «المدينة الصينية» وهي أكبر تجمع صيني خارج الصين . سوقها أول مـا يفتح وآخر ما يقفل وفيه أرخص الاثمان لأن البضاعة من هونغ كونغ والصين .

قطعت بنا السيارة الاحيــاء السكنية والشاطىء ونزلنا لزيارة « كليف هاوس – CLIFF HOUSE » وهو اقـدم مطعم في سان فرنسيسكو بُني سنة ١٨٥٨ على مرتفع يتطلّع الى المحيط وأمامه جزيرة « سباع البحر » . من شرفة هذا المطعم يُرى الشاطىء وكأنه صفوف متلاحقة من التلال تغطس اقدامها في البحر .

صعدنا في السفح مخترقين « اكمة نوب – NOB HILL » حيث يقيم اثرياء القوم ورأينــا الترام التاريخي وكأنه معلّق يسير ببطء . ووقفنا فترة في « القمتين التوأمتين – TWIN PEAKS » المرتفعتين ٢٧٠ متراً فيشمل منهما المنظر المدينة بأجمعها . وشمالاً جسر البوابة الذهبية ومعسكر الجيش السادس ثم القناة التي تربط بين المحيط الهادي وخليج سان فرنسيسكو و « رأس البر – LAND'S END » الداخل في البحر يقوم عليه برج ومنارة . وغرباً شاطىء

المحيط الهادىء بروابيه وطرقه السريعة وحديقة « جولدن جايت ». وجنوباً بحيرة « مرسد ـ MERCED» . وشرقاً أرصفـــة الميناء والخليج وجسر الخليج الممتد ١٣ كيلو متراً فوقه رابطاً سان فرنسيسكو بأوكلاند . ان هذا المنظر جعلني ادرك لمــاذا يعتبر الأميركيون والسياح سان فرنسيسكو من اجمل المدن الأميركية بموقعها .

نزلنا من « التوأمين » وتجولنا بالسيارة ثم على الأقدام في « حديقة جولدن جايت ـ GOLDEN GATE PARK » . مساحتها تربو على ٤ ملايين متر مربع ويخترقها ٤٧ شارعاً ويعتبرها الفرنسيسكيون ـ ويقول عنهـا دليلنا الحي الناطق ودليلنا المكتوب ـ انها من اجمل حدائق البـلاد . فيها جميع انواع الملاهي وسبع بحيرات وكهوف وخمائل وعشب وزهور ومبنى زجاجي للنباتات الاستوائية وأحواض لكافة انواع الأسماك وقبـــة سماوية ومتحف وجنينة يابانية وملعب يتسع لستين الف متفرج واركسترا في الهواء الطلق... كل ركن فيها فريد جذاب .

في « ميناء الصياد ـ FISHERMAN'S WHARF » مطاعم بأسماء من مختلف البلدان واللغـــات وهي تقدم كل انواع السمك . « ابو جلمبو » أو سرطان البحر يُغلى في براميل على ابواب المطاعم و « يعزمز » بـه العابرون لا سيما الأجانب . يحظر على الصيادين أن يبيعوا السرطان الصغير أو الانثى بل يجب ارجاعها الى البحر وإلا يعاقبهم القانون .

من هذا الميناء تخرج مراكب الصيد مع الشفق وتعود بعد الظهر من المحيط تبيع صيدها في سوق السمك بالميناء . واعجب مــا في السوق طريقة عرض الأسماك وتغليفها بأكياس النايلون والارض برّاقة نظيفة عكس ما يتصوّر الانسان في أي سوق سمك .

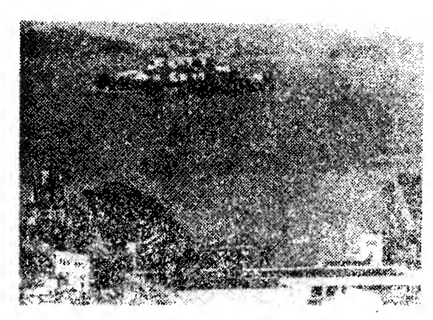
زرنا كنيسة « دولوريس » التي بناها الرهبان الفرنسيسكان سنة ١٧٧٦ وبقيت مزاراً يُجلّه ويحبه أهل المدينة وبجانب الكنيسة « حصن رهباني »



الورد في سان فرنسيسكو



لقاء الجبل بالبحر



الـكتراز



جسر جولدن جايت



الشارع المتعرج

ومقبرة في جنينة الدير لبعض كبار المرسلين والسكان الأُول هنا. ثم اخترقنا نفق « شمس المغيب » في حديقة « المنظر الجميـــل – BUENA VISTA » وذهبنا الى بحيرة « مرسيد » حيث تمتعنا بمشاهـدة اكبر حوض للعوم طوله ٣٠٠ متر .

في طريق العودة اوقفنا الدليل عند اقدام ربوة صغيرة جداً يعرّج فيها « أعوج شارع – CROCODEST STREET » في العـالم ولا يخلو منظره من طرافة وجاذبية فليس فيـه متر واحد مستقيم ويتلوّى بلونه الأحمر بين الزهور وهو ضيق ولا يمكن ان تسلكه إلا سيارة واحدة وبتأنٍ وحذر .

جسر جولدن جايت :

يعتبر من أشهر جسور العالم وكان اول جسر معلـّق طويل الى ان نافسته جسور نيويورك . يمتــد قوساً جميلاً احمر بين سان فرنسيسكو و « مارين كاونتي – MARIN COUNTY » . بُرجاه هما اعلى ابراج جسور في العـالم ارتفاع كل واحد منهما ٢٢٧,٣٨ متراً كناطحة سحاب من ٧٠ طابقاً . وبين البرجين القوس المعلـّق بدون عواميد ويبلغ طول القوس ١٢٦٠ متراً. الصلب الذي استعمل فيه ينيف عن مـائة الف طن . انجز سنة ١٩٣٧ وكلف ٣٥ مليون دولار . عرضه ١٨ متراً يتسع لست سيارات ورصيفان المشاة عرض كل واحد منهما ٣ امتار ونصف . سطح الماء تحته على عمق ٧٢,٥٤ متراً . بين ١٨٤٨ و ١٨٥٠ كانت السفن تذهب من المينـــاء متوجهة الى كاليفورنيا الجنوبية للبحث عن الذهب لذلك دُعي « البوابة الذهبية » .

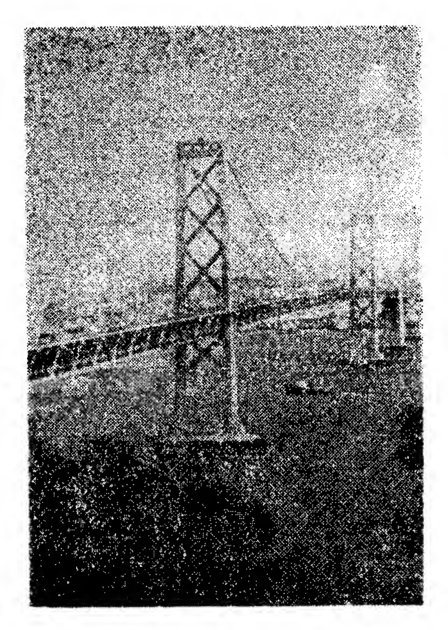
الكتراز :

تبين من «جولدين جايت» بوضوح جزيرة « الكتراز – ALCATRAZ » الجرداء وذات الصخور الحادة . كان فيها ارهب سجن يدخله المحكوم عليهم بالمؤبد وبالاعدام . لا يمكن الهرب منه لأن السجين الهارب يقع فريسة اسماك القرش التي تقضمه . كان من مشاهير سجنائه « وليم ادواركوك » حكم عليه في ٢١ آذار ١٩٥١ بثلاثمائة سنة إذ خطف خمسة اشخاص لكنه اعدم في ١٢ كانون الاول ١٩٥٢ لثبوت جريمة قتل ارتكبها .

جسر سان فرنسيسكو – اوكلاند :

انه اضخم جسر في العالم يبلغ طوله ١٣ كلم وهو جزءان : الجزء الغربي يربط بـين سان فرنسيسكو وجزيرة « ياربا بوونا – YERBA BUENA » التي اضيفت اليها جزيرة صناعية « جزيرة الكنز– TREASURE ISLAND » ثم نفق في قلب الجزيرتين والجزء الشرقي يمتد بين الجزيرتين واوكلاند . يقف

هذا الجسر العملاق على عواميد يتخيّلها الناظر من بعيد كأنها سيقان تخطو . يبلغ ارتفاع ابراجه ٢١٠ امتار تتدلى منها حبال الصلب التي ترفع الجسر . وهو بطابقين الأعلى لستّ سيارات والأسفل لخمس . ترتفع على مدخـــله ٣٤ بوابة تمر بها السيارات متجاورة وتدفع رسم العبور . ان اسلاك الصلب التي فيه تكفي لتطويق الكرة الارضية ثلاث مرات .



جسر سان فرنسيسكو ـ اوكلاند

٣٧

حول سان فرنسيسكو

غابات السيكويا :

« السيكويا » هو أقدم شجر على سطح الارض وبالتالي اقدم كائن حيّ . عمر البعض منه ٤٥٠٠ سنة وأعلى شجرة تبلغ حالياً ١١١ متراً . يتباهى الكاليفورنيون به حتى انشأوا « نادي السيكويا » للحفاظ عليه . وقفت عند جذع مقطوع وقرأت ان عمر الشجر يُعرف من دوائر جذعه وليس من طوله وضخامته وان عمر هذا الجذع ١٠٢١ سنة يقابلها ١٠٢١ خطاً دائريا فيه ومن اراد ان يعدّها فليفعل ...

يتفنن الأميركيون في عرض الغرائب فلقد قطعوا جذعاً عملوا منه منزلاً مكوناً من ثلاث غرف وشرفة . وخرقوا جذع شجرة لتمر فيه طريق السيارات كقوس نصر عمره آلاف السنين والشجرة المرتفعة فوقه علوها ٩٥ متراً ودائرتها ١٩ متراً [١] .

يشبه شجر السيكويا الصنوبر البرّي . تقارُبُ الاشجار يضطرّها الى

---

(١) سقطت هذه الشجرة سنة ١٩٦٩ .

الارتفاع طلباً للنور وللهواء . ومن الطريف جداً اننا كنا نرى باقي انواع الشجر في الغابة تنمو افقياً فهي لا تكاد ترتفع متراً عن وجه الارض حتى تعوقها السيكويا عن الصعود فتمتد أفقياً وتعوق السير في الغابة مما اضطر مصلحة الغابات الى تخطيط طرق للسير يلتزم المشاة ان يتبعوها .

جامعة بروكلي :

عبرت جسر «اوكلاند» الى جامعة كاليفورنيا في«بركلي– BERKELEY» حيث رأيت الجامعيين والجامعيات كأنهم في شارع نوادي ليلية بجلساتهم وتدخينهم وشعورهم واقدامهم الحافية والملابس ذات الألوان الفاقعة . على « نشرات الحائط » يعلّقون رسوماً كاريكاتورية ونقداً للسياسيين والأساتذة ولكل مالا يعجبهم في الجامعة . كل هذا لا يمنع من أنهم بنوع عادي جادون وناجحون في دروسهم فلكل شيء وقت وكل شيء في وقته ...

بقرب الجامعة زرت « جنينة الورد » . ان الكاليفورنيين مغرمون به فأنشأوا « جمعية الورد » لتنشيط زراعته وتطويره وتوزيع جوائز قيّمة لمن يكتشف صنفاً جديدا منه . وتوصلوا الى انتاج صنف ورقه ازرق وصنف آخر ذي ورقة واحدة .

في وادي السلطة :

اخذت سيارتنا « الطريق الملكي » الذي كان يسلكه المرسلون الاسبان لخدمة مراكز التبشير في كاليفورنيا وقطعنا وادي « سانتا كلارا » ثم « لوس جاتوس » واخذنا نصعد سفوح جبال عالية مشجرة ثم انحدرنا الى سهول فيها كروم عنب وفاكهة فتذكرت بلادي وانا ارى المشمش والدراقن والتفاح والجوز ... ومررنا بحقول على مد النظر من الهندباء والخس والملفوف وقرأنا على لوحة : « كاستروفيل المركز العالمي للخرشوف » وكانت النافورات الدوّارة ترش حقول الخرشوف . هذه البقعة جزء مما يدعونه في كاليفورنيا « وادي السلطة » الذي يبلغ طوله ٣٢٠ كيلو مترا وعرضه ٣٢ كم تنبت فيه المزروعات طوال السنة .

شاطيء الـ ١٧ ميلا :

قال عنه احد الشعراء « انه أجمل لقاء وعناق بين البر والبحر في أميركا». فهو أحياناً مرج وبساط من العشب والزهر وأحياناً صخور مسنّنة ملساء تغسل اقدامهـا في زبد الأمواج . تارة رؤوس نافذة الى قلب البحر وتارة أشجار كبيرة السن صـــغيرة الحجم تطل على الخليج حيث ملتقى الطيور ومنتزه لسباع البحر تتمدد على صخوره لحمّام شمسي .

أن أصحاب الملايين في أميركا أقاموا منازل استجمام وراحة في هذا المكان رأينا منها منزلاً للمغنّي « بنج كروسبي » . ولكثرة ما يتردّد عليه السياح المواطنون والأجانب قسّمته بلدية « مونتيراي » الى محطات تحمل اسماءً لطيفة مثل : كهف الماء الصافي — رأس الصياد — شجرة الساحرة شروشها في الماء وجذعها كأنه معلّق — شجرة الشبح وهي عارية من الورق ومعوجة — والشجرة الوحيدة وهي منتصبة على صخر في البحر — الغابة الرهيبة شجرها سرو قصير معقد الغصون هزيل الجذوع مائل الى جهة السفح بسبب الرياح التي تضربه من جهة الشاطىء ــ شاطيء الاصداف ــ وشاطىء الطحالب ــ صخور الطيور و سباع البحر ــ رأس الصنوبر ... حقاً من زار كاليفورنيا وفاته شاطىء الـ ١٧ ميلاً فلقد فاته الكثير .

دير الكرمل :

كان أشهر ارسالية بين مرا كز التبشير في كاليفورنيا وحفظ ذكريات مبشّرها الاب الاسباني « سيّرا ــ SIERRA » . فهنا سوط من حبـــل ذي عقد كان يجلد به جسمه والسرير الخشبي الذي كان ينام عليه بدون فراش. عمّد في هذا المركز اربعة آلاف هندي وانطلق منه لانشاء مراكز في كاليفورنيا العليا . في كنيسة الدير تكرم « سيدة بيت لحم » التي نقل تمثالها الى هنا في القرن الخامس عشر واصبحت شفيعة كاليفورنيا وشفيعة البحّارة الذين قدّموا لها نذوراً عديدة معروضة بجانب التمثال .

في طريق العودة الى سان فرنسيسكو توقفنا في معمل نبيذ قائم وسط الكروم وقدموا لنا النبيذ مجاناً . على مداخل ومخارج القرى يبيعون في العراء منتوجات زراعية . رأس التوم الكاليفورني يكبر ثلاث مرات رأس التوم المصري . بعد ان اشترينا أضافونا عصير التفاح . لاحظت ان الاسعار رخيصة ، فالبطيخة الكبيرة بعشرة سنت فقط . وقيل لي ان المعيشة في ولاية كاليفورنيا أرخص مما في باقي الولايات . لهذا السبب ولمناخها أصبحت مطمع عموم الأميركيين ، وفيها اكبر تجمّع من المهاجرين المصريين لا سيما في لوس انجلوس .



في غابات السيكويا

من شاطىء الـ ١٧ ميلا

٣٨

الاسكا

في مدينة البوينج :

في طريقي من سان فرنسيسكو الى الاسكا توقفت يوما في « سياتيل — SEATTLE » بولاية واشنطن . « سياتيل » كان اسم زعيم هنـــدي من دعاة التعايش السلمي مع البيض وأقامت له مدينته تمثالا . يبلغ عدد ســكان « سياتيل » نحو ستمائة ألف ومساحتها ٢٣٠ كم ٢ جزء منها بحيرات تغطي سطحها قوارب النزهة والاستمتاع ويدعوها الامير كيون «عاصمة التجذيف » . علامتها المميّزة « برج الإبرة » الذي شيّد لمعرضها العالمي سنة ١٩٦٢ . في « سياتيل » مصانع طائرات « البوينج » وقال لي دليلي ان لدى شركة « بوينج » عقوداً تمتد الى ٣٥ سنة فقلت له ولـكن الطيران يتقدم سنة عن سنة فأجابني والشركة ايضاً تتقدّم بل هي التي تطوّره .

ما هي الاسكا :

في الساعة ٧,٣٠ صباحاً اقلعت الطائرة من سياتيل الى الاسكا . دخلنا في جواء كندا الغربية وطرنا فوق مقاطعة « فانكوفر — VANCOUVER»

وجزر الملكة « شارلوت – CHARLOTTE » وخليج الاسكا وكانت على يميننا مئات القمم الشاهقة متوجّة بالثلوج . قبل ان ننزل في مطار « انكوراج – ANCHORAGE » اخترقت الطائرة ثلاث طبقات من الغيوم ولم نَرَ الارض سوى نصف دقيقة فقط قبل رسوّ عجلات الطائرة على المدرج . كانت الساعة ١٠٫٣٠ حسب ساعتنا و ٧٫٣٠ حسب توقيت « انكوراج » فكأننا لم نخسر من الوقت دقيقة واحدة ! .

معنى كلمة الاسكا « الارض الواسعة البيضاء في الشرق » . تبلغ مساحتها ١٫٥٢٠٫٠٠٠ كم ٢ وعدد سكانها ٢٣٠ ألفاً منهم ١٤٨٫٠٠٠ مدنيون اميركيون بيض و ٤٧٫٠٠٠ عسكريون و ٣٥٫٠٠٠ من الهنود والاسكيمو . كانت الاسكا لروسيا اشترتها منها اميركا سنة ١٨٦٧ بمبلغ ٧٫٢٠٠٫٠٠٠ دولاراً اي كل ٢١١٠ متر مربع ثمنها سنت واحد . انها أعظم وأرخص صفقة في التاريخ ! هذا ولا تزال تحتفظ ببعض أسماء روسية مثل جزر اندريانوف وجزيرة فيكولسكي الخ . . . في ٣ كانون الثاني ١٩٥٩ أصبحت الولاية الاميركية التاسعة والاربعين وذات مجلس تشريعي خاص مكوّن من ٢٠ شيخاً و ٤٠ نائباً . انها ممتدة جدا بحيث ان الفرق في الوقت اربع ساعات بين أولها وآخرها .

تمرّ حدود الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بين جزيرتي « ديوميد – DIOMEDE » في مضيق « بـيرنج – BERING » . ديوميد الصغرى هي اميركية وديوميد الكبرى هي روسية والمسافة بينهما نصف ساعة سير على الجليد . بين الجزيرتين يمرّ خط التاريخ الدولي حيث يلتقي آخر الغرب بأول الشرق بحيث انه في ديوميد الصغرى تكون الساعة ١٢ظهراً يوم السبت وفي ديوميد الكبرى المقابلة الساعة ١٢ ظهراً يوم الأحد . كان للاسكيمو الاميركيين أقارب في ديوميد الكبرى رحلوا الى سيبيريا بعد تخطيط الحدود وانقطعت اخبارهم . حسب المؤرّخين القبائل الاميركية الهندية الاصل عبرت

من آسيا هذا المكان ثم انتشرت في القارة الاميركية ولذلك الاسكيمو والهنود كالاسيويين لونهم اسمر ووجهم مفلطح وانفهم افطس .

انكوراج

المعطف الاسكيمي :

حالما هبطنا في مطار انكوراج سلّمتنا شركة الطيران معطفاً داخله جلد وخارجه قماش لا ينفذه المطر وفي أعلاه قبعة لتغطية الرأس . يدعوه الاميركيون « باركه — PARKA » والاسكيمو « انجنوك ـ ANGNUK » اي المرأة . لبسناه حالا وكل يضحك من ومع الآخرين وقد اصبحنا رفقاء في فريق سياحي واحد وسنقضي معاً ٦ أيام في الاسكا .

مفتاح القطب الشمالى :

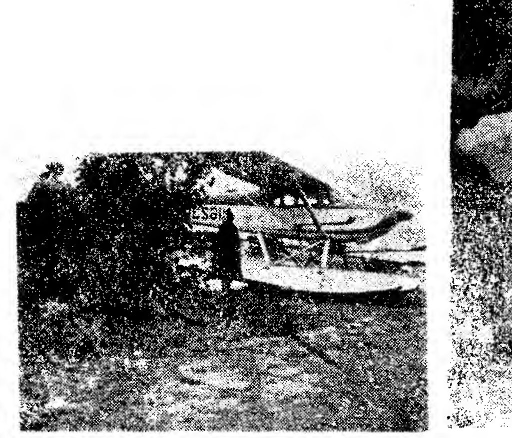
انكوراج هي اكبر مدينة في الاسكا عدد سكانها ٥٠ ألفاً . ولُدت في ١٤ اذار ١٩١٤ عندما وقّع الرئيس « ويلسون » قانون تأسيس سكة حديد الاسكا . كانت ايضاً مركزا لاستخراج الفحم الحجري ثم مقرّ تجمّع لمئتي عائلة اميركية رحلت من الولايات المتحدة لتعمير وادي « ماتانوسكا » . عظم شأنها منذ الحرب العالمية الثانية اذ اصبحت مفتاح القطب الشمالي ومنطلقاً للاستراتيجية الاميركية الجديدة فيه . واصبح مطارها هاماً بعد ان قررّت بعض الشركات انشاء الخط القطبي بين الشرق الاقصى والغرب، فبدل ان تعبر الطائرات بالغرب الاميركي وجزر هاواي تمرّ بانكوراج وتتابع فوق القطب الى موسكو او طوكيو او مانيلا او كوبنهاج او باريس وغيرها وبذلك تختصر ألوف الكيلو مترات .

جولة في انكوراج :

كان الجو بارداً والسماء غائمة والسيارة مدفأة ونحن مدفأون «بالباركه»



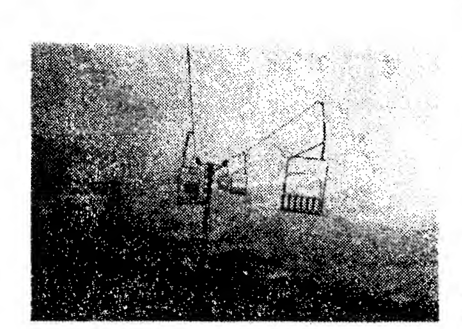
سكان الثلوج



طائرات جومائية



من زلزال ١٩٦٤



جبل الياسكا

لم نــرَ سيارة واحدة نظيفة فــكلها ملطخة بالوحل ولون التربة مائل الى الاسود . لـفـتَ نظرنا وجود زهور كثيرة من الاقحوان والشقائق والدليا والورد والجلايول في حديقة تقع وسط المدينة كانت فيما مضى مطارا ثم احتواه تمدّد المدينة . هنا الآن فترة الحرّ من منتصف تموز الى آخر آب ، والحرارة ٢ فوق الصفر . . . قرب المطار الدولي مررنا بمطار مائي في بحيرة تهبط فيه الطائرات الصغيرة . كثير من هذه الطائرات مزوّد بزحافتين لتهبط بهما وتنزلق على الجليد فالسفر بالجو هو الوحيد الممكن والآمن على مدار السنة . وبدل عربات الــكلاب يستخدمون هذه الطائرات للبريد والإسعاف ولتنقل القضاة والشرطة ...

تبين انكوراج كمدينة متجددة وذلك لأن زلزالاً رهيباً كان قد دمر اجزاء منها يوم ٢٧ اذار ١٩٦٤ ولا تزال بعض آثاره باقية . في ضواحيها غابات الأرز والشوح والشربين ممــا جعلها مركزاً لصناعة الخشب لــكن تلك الاشجار تبين قزمة بالنسبة الى انواعها التي نعرفها .

أعلى وأبعد جامعة :

شعرنا في « جامعة الاسكا الميتوديستية » كأننا في جامعات شيكاجو وبوسطن فلا ينقصها شيء تقريباً . توجد في انكوراج جامعة الدولة ومع ذلك انشأت طائفة الميتوديست البروتسطانتية جامعة باسمها رأيت فيها للمرة الأولى « السيزموجراف » الذي يقيس الزلازل وحركة الأرض . ان هــذا السيزموجراف واحد من مئات منتشرة حول الكرة الارضية ويوجد مثله أربعة في الاسكا . داخل قبة توجد ثلاث آلات للقياس واحدة عمودية حسب اتجاه الأرض في حركتها حول محورها واثنتان افقيتان حسب الحركة الأفقية (شرق بغرب وشمال بجنوب) . آلة القياس مكونة من سلك ملتف حول رقّاص يذهب ويجيء بين القطبين والجاذبية المغناطيسية هي التي تنظّم حركاته . ينبثق من أية حركة من الأرض تيار يتناسب مع سرعة تلك

الحركة . يخرج هـذا التيار من آلات القياس الثلاث ويمرّ بمكبر ثم ينطبع خطوطاً على صفحة الـ « سيزموجرام » اي تخطيط حركات الارض مقواة خمسة عشر ألف مرة . الصفحة ـ الشاشة التي تدور تحت الآلة العمودية تقوم بدورة كاملة كل ١٥ دقيقة والتي تدور تحت الآلتين الافقيتين تقوم بدورة كاملة كل ٣٠ دقيقة وتغير كل ٢٤ ساعة لالتقاط تخطيطات جديدة .

في العودة عاكس السواق فتاة" فتارة" كان يفاجئها بالسيارة وتارة كان يُخلي لها الطريق وهما يضحكان ويتراسلان القبلات المرحة والسياح يهتفون له . واذ به يقول لنا : انها زوجتي وهذا هو بيتنا وانا طالب في الجامعة . هذا الوضع عادي ومنتشر جداً في اميركا اذ يتزوّج الجامعي الفتى والزوجة هي التي تشتغل وتكسب اكثر منه وتساعده في مصاريف الجامعة .

جبل الياسكا :

بعد الغداء قمنا برحلة الى احـــد مواطن الثلوج والانزلاق في جبل « الياسكا ـ ALYESKA » حيث يستعد الطامحون الى ميداليات في المباريات الدولية وفي الألعاب الأولمبية . في ٢٠ دقيقة قطعنا ألفي متر « بالكرسي الـكهربائي الطائر » . ارتقاء" بطيء هادىء وسط طبيعة خلابة فالسفح تحت أقدامنا تـكسوه الأعشاب وتغني فيه الشلالات والمجاري الوادعة وكلما ارتفعنا اكتشفنا قمماً وأودية جديدة . الأودية سوداء والسفوح خضراء تغشاها بعض الغيوم الهائمة والقمم بيضاء تتوجها الثلوج وسكون شامل يلف هـذه البقعة وبرد مُنعش يزيد في الاستمتاع بها . عند نقطة الوصول العليا يقوم برج عالٍ جداً وهو نزل للمتزلجين يعلو حوله الثلج في فصل الشتاء ٧ امتار واسمه « جسر الشمس » وهو باعتبار السائحين أجمل مكان في الاسكا . رأينا منه ٨ مثالج منتثرة على القمم المجاورة ومسالك الانزلاق وذراعاً من البحر كخليج في طرف الوادي ووادي « جرد وود ـ GIRD WOOD » تتسابق الى قعره مجاري المياه وهو موطن لحيوانات الاسكية عديدة كالفهد والدب

والذئب والأغنام البرية : وقرية « الباسكا » التي تستقبل على مـــدار السنة عشاق الثلج والطبيعة القاسية .

في الاياب توقفنا عند «مثلجة بورتاج– PORTAGE GLACIER» ورأينا بعض الطائرات التي تنقل السياح الى المثالج العالية حيث لا طريق للسيارات.

عند الاسكيمو

أصبح عضواً في النادي القطبي :

في الاسكا ثلاثة تجمعات كبـيرة للاسكيمو يقصدها السياح هي « نوم – NOME و كتزبيو – KOTZEBUE وبارّو – BARROW » زرتُ منهـا الاولى والثانية . طرنا ٨ صباحاً من انكوراج متجهين الى الشمال الشرقي وقال لنا الدليـــل اننا نطير فوق مناطق بترول اكتشفت تحت البحر في خليج « كوك » فحتى هنا في بـلاد الجليد والصقيع عثر الأميركيون على النفط . لحسن حظنا كان الجو صحواً والشمس مشرقة فتمتعنا بمشاهدة جزء كبير من أرض الاســكا كان اروعها منظر قمم « ماكنلي – MC KINLEY » أعلى جبل في اميركا الشمالية تبلغ ذروته ٦١٧٧ متراً . وطرنا فوق جبال عديدة سمراء السفوح بيضــاء الرؤوس وكان اول هبوط في مطار « مكجرات – MC GRATH » وثاني هبوط في مطار «اونالاكليت – UNALAKLEET » حيث التقيت لأول مرة ببعض العائلات الاسكيمية وتصوّرت معها .

كانت هــذه العائلات متجهة الى « كاتزبيو » ومنها بزحافة الكلاب الى قرية نائية . توقفنا قليلاً في مطار «نوم» ثم طرنا فوق شبه جزيرة «سيورد – SEWARD » والارض الروسية بعيدة عنا الى الغرب ٩٦ كلم فقط. واخترقنا الدائرة القطبية فأصبحنا اعضاء في «نادي الدائرة القطبية الشمالية» واستلمنا شهادة بذلك :

« هذه شهادة بأن جوزيف رعد يتمتع على مدى الحياة بكافة حقوق العضوية في نادي الدائرة القطبية الشمالية وقـــد عبر الدائرة القطبية في ولاية الاسكا عند خط العرض الشمالي ٦٦٫٣٠ وخط الطول الغربي ١٦٣ متجهاً من نوم الى كاتزبيو على متن طائرة خطوط الاسكا الجوية ـ الطيران الذهبي وذلك في ٢٧ آب ١٩٦٦ .

توقيع الرئيس والمدير العام : **شارل ويليس**
توقيع قائد الطائرة : **ر . لينج »** .

كاتزبيو :

مطار « كاتزبيو » بدائي من حصى وتراب وتقع البلدة في رأس ذراع من الارض يستحم في مضيق «بيرنج» وقد اتخذت اسمها من اسم القائد البحري الروسي « اوتوفون كاتزبيو ـ OTTO VON KOTZEBUE» الذي اكتشفها سنة ١٨١٦ . كاتزبيو بـــلدة فقيرة جداً وبيوت الاسكيمو فيها لا تعرف التسهيلات الاميركية الحديثة. بعض بيوتها من جلد كالخيام والبعض من خشب وبداخلها جلود الدب والذئب والجاموس. الانارة والتدفئة بالمازوت أو بشحم الحوت . على كل خطوة تنبح الكلاب. يعيش هؤلاء القوم من حيوانات البحر والبر فلا يعرفون الخضرة والحبوب . يصيدون الدب بأنواعه القطبي والابرش والاسمر والأسود ، والجاموس و « الفيزون ـ VISON » والوعل والاغنام البرية والماعز البري والذئب والارنب البري ... ويصيدون من المـاء الحوت والفقمة وسبع البحر وأنواعاً من السمك أهمها « السلمون » . يجففون اللحوم والاسمـاك في العراء ويحفظونها لأشهُر الصقيع . ارضهم تجلِدُ عشرة اشهر في السنة. لا اشجار حول البلدة بل فقط بعض العشب القصير والزهور البرية الصغيرة جداً ودون رائحة .

زرنا أيضاً الكوخ الثلجي المدعو « ايجلو ـ IGLOO » وهو على نوعين : الكوخ المبني من خشب تكسوه الثلوج والكوخ الجليدي احجاره من جليـد

مقطّع ولا يسكنونه إلا في زمن الصيد . تلتحم فيه احجار الجليد ولا يخلو سقفه من فن بدائي يجعله يبدو كالعَقد .

نوم :

بعد هذه الجولة في كاتزبيو عدنا بالطائرة الى « نوم » . يبلغ عدد سكان « نوم » ٢٣٠٠ كلهم تقريباً من الاسكيمو . أمام الفندق الذي نزلت فيه قرأت هذا الاعلان : سيبيريا ٢٦٢ كلم موسكو ٦٦٤٠ كلم باريس ٦٣٨٤ كلم طوكيو ٤٤٨٢ كلم نيويورك ٥٨٥٦ كلم ميامي ٧٧٤٤ كلم هونولولو ٥٥٥٢ كلم الدائرة القطبية ٢٣٣ كلم. اهتز الرصيف تحت قدمي وانا اتمعّن بهذه الارقام فأرصفة نوم هي من خشب وشوارعها من تراب وهي موحلة مدة شهرين ومجلّدة مدة عشرة أشهر .

كيف اصبح الاسكيمو مسيحيين :

ذهبت الى الكنيسة وقضيت السهرة مع كاهن الرعية وهو يسوعي وعلمت منه الكثير عن نوم والأسكيمو . عنده في رعيته هنا ٤٠٠ كاثوليكي ويذهب زميل له كل يوم أحد بالطائرة الى « تيلـّر » حيث يوجد ٣٠ كاثوليكياً والى « ديوميد » حيث يوجد ١٢ كاثوليكياً يصلي معهم ثم يقفل عائداً الى نوم .

الاسكيمو هم مسيحيون الآن ويعود ذلك الى سنة ١٩٢٦ إذ كان مدرّس كاثوليكي متزوجاً اسكيمية ولديه بعض الالمام في الطب فقاومه طبيب اسكيمي مشعوذ اسمه « اوتوكتاك » استدعت المدرّس اسكيمية مدنفة على الموت وطلبت العماد فعمّدها وحين ماتت سُجّيت على نعش واجتمعت حولها بعض الندّابات وتأهب المدرس المبشر لإقامة الصلاة وإذا بالمشعوذ ظهر فجأة واطلق كلمات سحرية فهرب الجميع واخذوا الجثة ودفنوها في الجبل كعادة اجدادهم . قال المشعوذ : « ريح الجنوب الشرقي غيّرت اتجاهها » وهذا انذار من الأرواح ان الصيد لن يكون موفقاً وبالتالي المجاعة تهدّد فخاف

الاسكيميون ... إنما فاز المدرس المبشر حين شفى طفلة محروقة بالشحم المشتعل فشنق الساحر نفسه في اليوم التالي معلقاً بعظمة حوت .

الصقيع والجليد :

اليوم ـ ٢٨ آب ـ درجة الحرارة هنا ٢ فوق الصفر وفي الشتاء قد تتجاوز ٤٠ تحت الصفر . قد يصل الفرق بين درجة الحرارة في الداخل والخارج الى ٥٦ درجة مئوية . يضعون المأكولات في الثلاجة الكهربائية حتى لا تجلد خارجها فالثلاجة عندهم هي نسبياً نوع من التدفئة ... وكذلك المراوح في السقف ليست للتبريد بل للتدفئة إذ تُشيع الهواء الحائم حول الموقدة حيث يشتعل شحم الحوت والفقمة أو حيث يحرق الفحم والمازوت فهم قلما يعتمدون على الكهرباء للتدفئة إذ ان العواصف تقطع الاسلاك والجليد يمنع وصول المازوت ومياه الحنفيات تجلد فيسخنون الثلج ليسيل . بعد ذوبان الجليد يتغير شكل الاكواخ والبيوت الخشبية إذ تغوص أو ترتفع أي تلتوي وأبوابها وشبابيكها لا تنضبط . في الشتاء لكي يعرفوا هل الجو صقيع في الخارج يرمون من الشباك ماءً فإذا جلد في الهواء قبل وصوله الى الأرض لا يخرجون من منازلهم ... قطعة الخشب تجمد وتصبح رنانة ولذا أرصفة «نوم» تبعث أصواتاً موسيقية « جليدية » في الشتاء .

بعض عادات الاسكيمو :

جنس الاسكيمو موجود في سيبيريا والاسكا وكندا ولبرادور وجرونلاند. ومجموع الاسكيمو في هذه البقاع ٣٨ الفاً فقط . ليس عندهم اسم عائلة بل الاسم الشخصي فتضيع القرابة بسرعة. من اسمائهم : الثعلب الصغير والذئب والابهام .. من عاداتهم اتخاذ زوجة واحدة إلا في حالات غير عادية مثلاً : إذا ماتت الخطيبة أو الزوجة الشابة يشتري له اهله طفلة عمرها ٣ سنوات ولكن الى ان تبلغ يزوّجونه ارملة تكبره سناً. وعندما تبلغ الصغيرة يكون له زوجتان : أكبر منه جداً وأصغر منه جداً ... إذا مات الزوج وترك



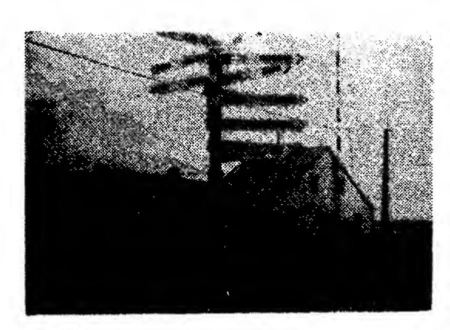
بلاد الصقيع



مآكلهم من البحر



الأطفال المدللون



من نوم الى . . .

ارملة وأولاداً يجتمع مجلس العائلة ويقرر ان «فلاناً» يتخذ له الارملة والعائلة حتى لو كان متزوجاً .

الاسكيمو مولعون بالقمار وقد يخسرون فيه كلابهم وعرباتهم وجزمهم... ومولعون بالمشروبات الكحولية والتبغ فيهجر الطفل ثدي امه الى الغليون...

لا يعرفون الكذب ولا العنف وتخلو لغتهم من الشتائم فحتى اسماء الحيوانات التي يتشاتم بها «العالم المتمدن» يطلقونها على ابنائهم... كيف يمكن للاسكيمو ان يشتم احداً بقوله «كلب» والكلب هو عنده احب ما في الوجود ؟ السرقة نادرة جداً عندهم عقابها الأعظم احتقار الجميع للسارق .

الأولاد محبوبون مدللون ويلتزمون بطاعة الوالدين ما داما على قيد الحياة وبإعالتهما حتى الموت . تحمل الأم أطفالها في كيس على ظهرها . يخطب الاهل لإبنهم ولبنتهم منذ الصغر ويذكرانهم دوماً بذلك: انتَ لفلانة وانتِ لفلان . هذان الموعودان يتخاطبان بتودد: زوجي الصغير و زوجتي الصغيرة. هو يجلب لها هدايا من لحم جاموس وعظم حوت وسجاير وهي تخيط له الثياب والجزم .

انهم يعيشون ـ حسب اعتقادهم ـ حياة هنيئة هادئة ويرثون لحال الرجل الأبيض ـ الذي يدعونه «كابلونا ـ KABLOONA »ـ كيف يعيش طموحاً قلقاً مضطرباً ...

ألذّ ما كلهم دود الارض ثم لحم الفقمة . عندما يبنون اكواخ الجليد للصيد يجعلونها قريبة الى الثقوب التي يتنفس منها الفقمة لأنه يطفو كل ٢٥ دقيقة «ليأخذ نفساً» . ولكن الكلاب تشم رائحته وتنبّه فيهرع الاسكيمي ويضربه بالحربة فيصرعه ويجره الى خارج الماء .

ليلة تطول أربعة أشهر :

في ٦ نيسان سنة ١٩٠٩ بعد سير ٣٧ يوماً على الجليد وصل أول انسان

الى القطب الشمالي وهو البحار «روبرت ا . بيري – ROBERTE PEARY»
ومعه زميل وأربعة اسكيمو . سافروا في الصيف فلم تغِب عنهم الشمس
ذهاباً واياباً . في القطب الشمالي نهار متواصل من ٤ اشهر وليل متواصل من
٤ اشهر . في « نوم » مثلاً ليلهم في الشتاء ٢٢ ساعة فتشرق الشمس نحو
الساعة ٢ بعدالظهر وتغرب بعد ساعتين. يتندر اميركيو الاسكا بهذه النكتة :
سأل محقق متهماً اسكيمياً أين كنت ليلة الجريمة من ٢٠ تشرين الثاني الى ٢٠
آذار ؟ ...

القطبان :

قبل ان أنام قرأت مقالاً يقارن بين القطبين الشمالي والجنوبي . الشمالي
بحر مجلّد تحوطه اراضٍ من آسيا واميركا واوروبا. والجنوبي ارض مساحتها
ضعفامساحة الولايات المتحدة الاميركية وهي دوماً مجلدة وتصل فيها الحرارة
الى ٨٨ تحت الصفر . يوجد في القارة القطبية الجنوبية ٩٠٪ من جليد الأرض
تصل كثافته الى ٦٠٠ متر . إذا ذاب ارتفع سطح البحار ٧٥ متراً وأغرق
الشواطىء . يطوّق تلك القارة حزام من الجليد يمتد حولها من ١١٢ كلم الى
٤٨٠ كلم ويتكسر قليلاً في شهر كانون الاول .

في سنة ١٩٤٧ عثر الاميرال «بيرد – BYRD» على علب لحمة وبسكويت
تركها هناك منذ ٣٥ سنة القبطان « سكوت – SCOTT » . وجدها بيرد
سليمة وأكلها . فلا عجب إذا ما اقترح البعض ان تكون تلك القارة ثلاجة
طبيعية لحفظ المأكولات من حبوب وبطاطس ولحوم وغيرها لتنقذ الانسانية
من مجاعة مفاجئة ...

سنة ١٩٦١ وقّعت ١٢ دولة معاهدة لمدة ٣٠ سنة بأن تكون تلك القارة
للأبحاث العلمية فقط فلا تستخدمها أية دولة لغاية أخرى .

من الطريف جداً ان طائر « السنونو القطبي » يرحل سنوياً بين القطبين
فيغادر الشمالي في الشتاء متجهاً الى الجنوبي ويقطع ١٧٫٧٠٠ كلم في ستة

اسابيع بمعدل ١٧٫٥ كلم بالساعة . عندما يبدأ فصل الشتاء الجنوبي يبدأ رحلة العودة الى القطب الشمالي . يحار العلماء في تفسير حاسة الاتجاه عنده فكيف لا يضل في طريقه الطويل ويشرحها بعضهم باتباع السنونو للشمس .

في عربة الكلاب :

كان النهار التالي حافلاً بالطريف والجديد أيضاً في « نوم » وضواحيها . أول مغامرة هي الركوب في عربة الكلاب بنوعيها : عربة مرتفعة على عجلات من مطاط وعربة زحافة كزحافات الانزلاق . فريق الكلاب نشيط مرح يذهب ويجيء قبل أن يعتلي الراكب العربة . يختلف عدد الكلاب الجارة من ستة الى اثني عشر حسب حجم العربة ووزنها وكانت عربتنا بثمانية كلاب الكلب القائد او الزعيم يجرّ في المقدمة وباقي الكلاب عن جانبيه كالمروحة وهي مترابطة بالحبال التي يصنعها الاسكيمو من جلد الحوت والفقمة . يبلغ معدل سرعتها ١٢ كلم بالساعة . للكلب القائد سطوته ومكانته وتأتمر باقي الكلاب بأمره . لا يتحرك للعمل إذا جيء بكلب جديد ولم يقدم اليه . انه ينظم السير والاستراحة والمسالك . يشعر بالخطر قبل غيره ويحسّ إذا كانت كثافة الجليد كافية للمرور عليه . « يتدلع » حتى على اصدقائه المسافرين معه فلا يطيق أن يصيحوا او يهزجوا خلال السفر المضني وإلا يقف مع فريقه ولا يستأنف السير إلا إذا سكتوا . لأول مرة في حياتي احنو واعطف على الكلاب فهي هنا في خدمة الانسان وليس فقط للدلع او للأذى . وهي تداعب الجميع وتلاعبهم ولكن بالأسف أقدامها موسخة بالوحل . لا بأس فالمعطف « الپاركه » ليس لي .. انها امينة وحارسة وقادرة على التحمل في جو الاسكا القتال وعبر التاريخ كانت الوسيلة الوحيدة للتنقل فيها . حدث مرة ان فريقاً من اثني عشر كلباً قطع مع بوليس النجدة ألفي كيلومتر في الثلوج مدة ٨٥ يوماً وفي الايام العشرة الأخيرة لم تأكل الكلاب شيئاً .

يستخدم الاسكيمو ثلاثة أنواع من الكلاب أهمها وأعمها من فصيلة

الـ « هوسكي » . معدل طول الكلب ١١٠ سم وارتفاعه ٦٠ سم ووزنه بين ٣٠ و٥٠ كيلو . عضلاته قوية جـــداً . قدماه مكسوّتان بغطاء كثيف من الشحم والصوف فلا يتأذى من الجليد ومن الصخور المسننة . على جلده طبقة شعر من ١٠ الى ١٥ سم وتحتها غشاء صوف ناعم من ٥ الى ٨ سم ممـــا يجعله يتحمل الـــبرد في درجة ٤٠ تحت الصفر . شكله كالذئب ولو أنهما خصمان لدودان الى درجة ان الهوسكي يأنف من أكل لحم الذئب .

في منجم ذهب :

تربـــة ألاسكا مختلطة بكميات لا تقدّر من الذهب . رأينا طرقاً عديدة لاستخراجه من التربـة بالآلات الكهربائية وخراطيم المياه والمناخل . المبدأ الأساسي هو التوصل الى فرز قشرة الذهب عـن التراب . زرنا منجم اسرة « انجسترومز – ENGSTROMS » التي تعمل هنا منذ ٢٧ عاماً . اشتركنا كلنا في عملية تدوم ١٠ دقائق : مياه قوية مندفعة من الخرطوم تفتت التربة على ضفة نهر « نوم » وتمتزج التربة المفتتة بالماء ونرجها في حلة واسعة ونرمي منهـــا الى أن تبقى قشرات الذهب وحدها . ان اجرة اليد العاملة التي تستخرج اليوم كيلو الذهب تفوق ثمن كيلو الذهب ووجود هـذه العائلة هنا منذ ٢٧ عاماً دليل على ذلـــك فأعضاؤها يعيشون وحدهم في أقصى الدنيا محرومين من متع المدنية ومعرّضين لتقلبات جوية رهيبة ولم يحصلوا بعـد على ثروة من ذهبهم ! وضعوا لكل واحـد منا ذرّات الذهب التي استخرجها في قمقم حملناه معنا تذكاراً .

في العودة مررنا ببقعة « انفيل – ANVIL » التي كانت فـيما مضى اكبر منجم للذهب. سنة ١٨٩٨ نزل فيها ثلاثة اسكندينافيين ونجحوا في استخراج اول كمية ذهب وبعد سنة واحدة قدم اكثر من ٤٠٠ باحث عن الذهب ومعهم الف عامل. وسنة ١٩٠٠ بلغ عدد البيض في نوم ١٥ الفاً جذبهم بريق الذهب. ويقال انه في الوقت الحاضر يوجد في هـذه البقعة ذهب يساوي ٦ مليارات دولار ولكن من يستخرجه !

قارب من جلد الحوت :

كانت المغامرة الثالثة فسحة بقارب اسكيمي « اومياك » في مضيق « بيرنج » . اطراف القارب هي من خشب وجسم القارب من جلد الحوت . قاده اسكيمي وابنه ولكن لم تكن الفسحة ممتعة بسبب الجو المكفهر والمطر الخفيف المتساقط علينا وعلى سطح بحر كحلي هائج . فقلنا للدليل ان « يقصر » فسحتنا .

ماذا يبيع الاسكيمو :

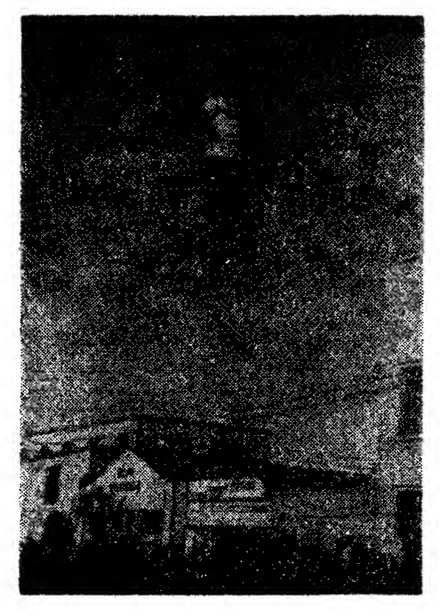
البضاعة المحلية المعروضة في متاجر « نوم » هي من الجلود والفراء وعظم الحوت ويدعونه عاج الحوت . حتى الحذاء واسمه « موكلوك » هو من جلد الحوت او من جلد الفقمة . يقدمون في مطاعمهم زيتاً وشحماً من حيوانات البحر ولحم الوعل وهو الصنف المفضل عندهم وبوظة مصنوعة من مواد غريبة : شحم الوعل وشحم الجاموس وثلج طبيعي وزيت الفقمة ومسحوق من حبوب برية . ذقتها ولم استسغها . إذا زرت الاسكا فاطلب طبق « موكتوك » : انه شحم الحوت مغمس بزيت الفقمة وُكل ولا تسأل .

عرض سينمائي :

حين تناولنا الشاي في مطعم اميركي على شاطىء البحر قدم لنا الدليل عرضاً سينمائياً عن الاسكا وطرق معيشة الاسكيمو وقد رأينا الكثير منها أمس واليوم . أرانا كيف يصيدون الجواميس بدفعها الى الماء او الى شفير هاوية وكيف يثقبون ويدخلون السنارة والطعم لالتقاط السمك وكيف ينتظرون مع كلابهم قدوم الفقمة ليتنفس فيصرعونه . وعرض لنا مقارنة بين حياة اسكيمو الاسكا واسكيمو سيبيريا فهؤلاء لا يعرفون الصيد في البحار وأكلهم وكسوتهم وخيامهم من قطعان الوعل الهائمة في براري سيبيريا ويستخدمونها كالحمير للتنقل ولحمل الاثقال ويشربون لبنها . ومما رأينا جزراً لتربية الفقمة يعيش فيها وحولها نحو أربعة ملايين من الفقمة وسبع البحر



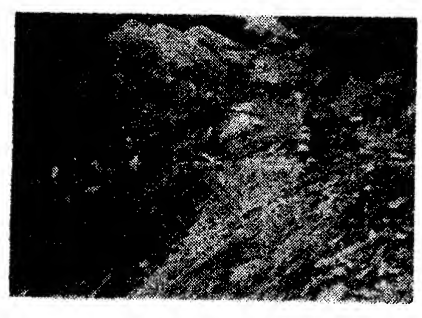
في قارب من جلد الحوت



الوثب في الجو



كلب الـ هوسكي



استخراج الذهب

ومـــا شابهها . وهنالك تولد وترعى صغارهـــا ويقصدها الاميركيون والاسكيميون لصناعة الفرو من جلودهم . يتخذ الذكر مسكناً يدافع عنـه ثم تلحق به زوجاته العديدات . لا يغادر المكان حتى ولو للبحث عن الأكل بل يتغذى من شحمه المختزن في جسمه الى ان يقوى الصغار .

سهرة مع الاسكيمو

الوثب في الجو :

بعد العشاء قضينا سهرة مع الاسكيمو الذين قدموا لنا عرضاً من غنائهم ورقصهم ومصنوعات أيديهم . افتتحوا الحفلة في العراء بأهم نوع من الرياضة الاسكيمية : رقصة الـ « نالاكاتوك — NALAKATUK » . وقف ثمانيـة أشخاص في دائرة شادين جلد حوت يقفز عليه اسكيمي ارجحوه ثم قذفوا به في الفضاء . راقص الاسكا الاول هو الذي يحطم الرقم القياسي في هذه الوثبة العمودية .

ثم دخلنا بيتاً من خشب وجلسنا على مقاعد أمام مسرح بدائي . حيونا بقولهم « ايلاليلوك — EELALELOOK » أي مرحباً فأجبنا بعـد الدليل : « كنوائتبن — KNO - O - O - IT - PEN » أي كيف حـــالكم . استعذر زعيمهم عن عـــدم اهدائنا كلمات الأغاني التي سنسمعها لأن لغة الاسكيمو تلفظ ولا تكتب فليس لها أبجدية .

في رقصاتهم يحرّكون الأيدي اكثر من الأرجل . وغناؤهم صراخ متقطع وآلتهم الموسيقية الوحيدة هي الطبلة المصنوعة من معـدة الحوت يمسكونها بيسراهم بذراع من عظم او من خشب فتبدو كمروحة . انهـــم لا يعرفون آلات النفخ والأوتار . قبل البدء بالغناء تناولوا بأصابعهم من المـاء الموضوع

بجانبهم وبللوا الطبلة ليزداد رنينها ولتحفظ من التشقق . ثم رافقوا المغني بنقر المضرب على الطبلة رويداً رويداً وأخذت جلبتها تتضخم وتتصاعد مع صوت المغ نيوعند بلوغ الذروة قطع كل شيء فجأة .

اسطورة اصل الطبلة :

الرقصة الاولى قدّمها النساء والرجال معاً وهي تحكي قصة صياد قتل نسراً ثم سلخه واحتفظ بجلده . وبعد أيام انقضّ عليه نسر وأخذ ينقره فسحب السهم من جعبته فتوقف النسر عن مهاجمته وقال له : « لا تقتلني كما قتلت اخي » . وتآخيا فأخذه النسر وحلق به في الفضاء ووضعه في أرض غريبة وقال له انصت . فسمع الصياد أنيناً سأل عن مصدره فأجابه النسر انه خفقان قلب أمي من يوم قتلت أخي . قال هذا ثم هوى به وأعاده الى كوخه وطلب اليه أن يخترع شيئاً يشبه خفقان قلب أمه فاخترع الاسكيمي الطبلة .

رقصة الحوت :

في الربيع يخرج الرجال في قواربهم لصيد الحوت . يستطلع أحدهم البقعة وينصت علّه يرى ويسمع صوتاً . ويعتقد الاسكيمي ان دويّ صوت الحوت يصل الى مسافة سفر يوم (٣٥ كلم) . يلمح قطيعاً من الحيتان على الجليد فيجري ويلحق به باقي الرجال وعلى وجوههم أقنعة بشكل وجه الحوت ورقصهم كحركاته . ان الاسكيمو مدينون له بالكثير في حياتهم فلا عجب إذا كانوا يصلّون قبل وبعد الأكل : « نشكرك يا روح الحوت » !

رقصة السِحر :

يقوم بها طبيبان كلّ يفاخر بنبوغه وهي تحكي قصة روح الشر وروح الخير العائشين في الغيوم . تحمل الروح الصالحة قناعاً مثبتاً في شفتها العليا وتحمله الروح الشريرة مثبتاً في شفتها السفلى وتأخذان في الجدال والصراع .

تنتصر روح الشر وتقتل روح الخير . وإذ تراهـا صريعة تحزن عليها وتغني أغنية طويـــلة وترقص وتدعوها للعودة الى الحياة فتعود وتتصافحان وتتواعدان أن تعيشا كأختين متصادقتين . لا بد ان في هذه الرواية شيئاً من أساطيرهم الدينية فقبل ان يعتنقوا المسيحية كانوا يعتقدون بالتقمص وربمـا العودة الى الحياة هي تعبير عنه .

رقصة الفقمة :

يقدمها الرجال والنساء . يخرج صياد الى عرض البحر بقاربـــه الجلدي وعلى وجهه قناع فقمة . يتطلع يُمنة ويُسرة ويشعر بحركة ثم يرى الفقمة في غوصه ووثبه فيتناول الحربة ويصرعه بها .

رقصة الأرنب الشارد :

ينتظر صيادان بقناع أرنب الفريسة المرتقبة . وإذا بـأرنب بري يقفز بقربهما ويسابق الريح. يتابعانه دون جدوى لأنه يشرد ويهرب منهما فيعودان « بخفي حنين » .

دعوة الى الرقص :

قدّموا رقصات بدائية أخرى منها رقصة جرف الثلج ورقصة الأطفال وهم يلعبون ورقصـــة صبايا يكنسن البيت ورقصة الغراب والوعل الخ ... قبل انتهاء الحفلة كانت « رقصة الدعوة الى الرقص » وهي لطيفة لا بأس بها. على المسرح ثلاثة اسكيميين وثلاث اسكيميات دعوا عدداً مماثلاً من الحضور للصعود الى المسرح والوقوف بازائهم . كان على المدعوين ان يقلدوا كل حركة وصوت من الاسكيمو فمرّت دقائق من القهقهة المرحـــة التي يعشقها السياح الاميركيون ...

رقصة الذئب :

اختتمت السهرة برقصة الذئب وهي تختلف جـداً عن كل باقي الرقصات



أسطورة أصل الطبلة



باقة زهر عظم في فيربانكس



فى نهر تشينيا



مصنوعات يدوية

بمحركاتها واصواتها ورنين الطبول . وهي تعني ان كل شيء قد انتهى وعلى كل امرىء ان يعود الى كوخه ...

ودّعنا هؤلاء الاسكيمو الظرفاء واشترينا منهم بعض مصنوعات ايديهم وعدنا نحن ايضاً الى « كوخنا » الدافىء بعد ان تبادلنا معهم تحية الوداع وهي « اليانأموك – ALIANAMUK » أي شكراً و « كيني كلينجي بين – KINI KLINGHI PIN » أي الى اللقاء !

فيربانكس

مع مضيفة اسكيمية :

كانت الطائرة التي قطعتُ بها اربع ساعات من « نوم » الى «فيربانكس» اقدم وافقر طائرة صادفتها في جولاتي حول العالم . ارضيتها من خشب عادي قديم لا يخلو من التكسير وطلاء جدرانها مشقق وهدير محركاتها كهدير سيارة بلغت سن الاحالة على المعاش . ولكن ما دام الطيار يثق بهـــا وما دامت حياته بالنسبة له اغلى من حيـاتي فلا داعي للخوف ... المضيفة أيضاً كانت « ذات لون محلّي » : ابوها اميركي من اصـل ايطالي وامها اسكيمية وهي خرجت منها بعينين منفوختين ولون هندي اسمر .

« فيربانكس – FAIRBANKS » هي ثاني مدينة في الاسكا بعـــدد سكانها الاربعين الفاً . فيربانكس هو اسم أحـــد شيوخ ولاية انديانا ونائب رئيس جمهورية اميركا اطلق اسمه على هذه المدينة في مطلع القرن العشرين إذ أقام اول بناء في البقعة سنة ١٩٦١ وكان مركز تجارة مع الاسكيمو الذين يشترون مآكل وآلات صيد ويبيعون الفرو وعاج الحوت .

جولة في فيربانكس :

استغرقت الجولة السياحية في المدينة ثلاث ساعات . ومن أهم ما رأينا فيها مخازن بيع الفراء واستخراج الذهب منجبل داكن بطريقة تشبه التي وصفتها إذ كان العمال يسلطون عليه خراطيم المياه القوية فيتفكك منه التراب وينزل الى الحضيض فينقلونه لتصفيته ولاستخراج الذهب منه .

في الجامعة مزرعة للاختبارات وللبحوث العلمية عن ارض هذا الشمال الأقصى ومناخه وجماده ونباته وحيوانه . وفيها متحف عن هنود الاسكا والاسكيمو اضفت منه بعض الشيء الى معلوماتي عن الاسكيمو وعن بلادهم. عظام ارجل الجاموس تُستعمل كأقدام طاولة ، جلد الثعلب يكون أبيض في الصيف واغبر في الشتاء، الـ « مورس – MORSE » اضخم الحيتان يعيش فقط في مناطقهم ، الحيوانات البحرية ذات الثدي (الحوت والفقمة وسبع البحر) تحوّلت ارجلها الى زعانف لتعيش في الماء ولها تحت الجلد مباشرة طبقة كثيفة من الشحم تساعدها على احتمال الصقيع. حيوانات الاسكا بالعموم هي قصيرة الأرجل والذيل والاذنين إلا بعض الطيور فأجنحتها جبارة تتيح لها الطيران مسافات شاسعة . الفئران هي بالملايين وتحمل الفأرة ٦ مرات بالسنة وفي كل حمل تلد ٥ أو ٦ وهي طعام لباقي الحيوانات لا سيا البومة والذئب والثعلب . يتزاور الاسكيميون في الربيع وقد تطول الزيارة سنة الى الربيع القادم حين تسمح الظروف الجوية بالسفر ولا عجب فقد يقطعون ٢٨٠٠ ليصلوا الى من يريدون ولذا يبنون كوخاً مؤقتاً بجانب كوخ من يزورونهم .

وفي المتحف رأينا الطريق الذي سلكته الغواصة الذرية «نوتيلوس» تحت طبقات الجليد في القطب ومصغّر لجزيرة من الجليد طافية في المحيط المتجمد الشمالي مساحتها ٤٥ كلم٢ تستخدمها البحرية الاميركية للبحوث العلمية وقرأنا معلومات عن الـ « ايسبرج » التي هي جبال جليد من المياه العذبة وعن الـ « فلوبرج » التي هي جبال جليد من المياه المالحة .

فسحة في نهر « تشنيا » :

ودّعنا الاسكا بفسحة طويلة بعد الظهر ـ ولا عجب فأيام الصيف هنـــا طويلة ـ في نهر « تشنيا » وعلى سفينة سياحية بقيـادة بحّار عجوز لطيف ظريف أبيض الشعر أحمر الخدين عريض الابتسامة كبير الفم ليدخل فيـه غليونه الضخم ... بنى سفينته هذه بيديه بعد ان احيل على المعاش وجعل هوايته قيادة رحلات يكسب منها الوفير إذ يقبض من كل سائح عشرة دولارات. كانت مرشدتنا نصف اميركية ونصف اسكيمية تشرح لنا كل ما نرى على ضفتي النهر . على مـــتن السفينة معرض لبيت اسكيمي كل ما فيه من جلد وعظم : الثياب والكفوف والحذاء والملعقة والسكينة وحتى سرير الطفل . وشرحت لنا كيف يعملون الفراء ويكسبون منه واجمـــله هو فراء الذئب القطبي والدب الاسمر . في طريقنا المـائي رأينا مصيدة للسمك منصوبة على حافة النهر وهي ناعورة تدور في الماء وتلتقطه بأوعيتها وترمي به الى حافة النهر وإذا صدف ان وقعت سمكة في الوعاء ورميت فلا تقوى على الحراك خارج الماء ويمرّ الصياد فيأخذ هذه الاسماك المتجمعة .

نزلنا من السفينة لزيارة مخيم للهنود الشماليين في غابـــة وهم لا يختلطون بالاسكيمو بل بين الجنسين عداوة وامتهان . انهم اطول قامة من الاسكيمو ولونهم أشد سمرة ولا يعرفون حياة البحر بل يعيشون من الصيد البري ومن محصولات الارض .

زرنا أيضاً في نقطة بعيدة على الضفة الثانية من النهر مخيم اسكيمو عدد كلابه أكثر من عدد ساكنيه. الجلود معرّضة للشمس والسمك مقدّد ومنشور ليجف وغرفة يُدخن فيها السمك قبـل تجفيفه وقرب الخيام زحافات الثلج التي تجرها الكلاب وداخـل الخيمة جلود فوق جلود صوفها كثيف وطويل تحجز عنهم لسع البرد مهما كان قارساً .

٣٩

هاواي

فوق المحيط الهادي :

ركبت طائرة (بانام) من فيربانكس متجها إلى هاواي . لم تكن الساعات مملّة في الطائرة اذ فتحت أجهزة التلفزيون . اخذت الطائرة ركاباً من (سياتل — SEATTLE » ومن (بورتلاند — PORTLAND) ثم حلقت فوق المحيط الهادىء . الطريق البحري تحتنا تمخره السفن المتجهة إلى ومن هاواي وتاهيتي وجزر فيجي واستراليا ونيوزيلاند والشرق الأقصى وتسلكه ايضاً قوارب ويخوت السباق الرياضي بين هونولولو وكاليفورنيا ويبقى المتسابقون في اليمّ من ثمانية ايام الى خمسة عشر يوماً (وهم وحظّهم) . هذا المحيط الذي نطير فوقه يحتل ٤٧٫٢١ ٪ من بحار الكرة الأرضية وتبلغ مساحته ١٧١٫٠٨٠٫٠٠٠ كم مربعاً .

اضحك من الطيران :

طالعت في مجلة الـ (مجنون ـ MAD) التي أمامي هجواً ظريفاً عن الطيران في اميركا فهل تقاسمني (خفة دمه) ؟ .

١ ـ الاقلاع :

انظر الى المطار المكتظ . الطائرة الجميلة كالعروس تغادر من جانب قاعة الركاب في موعدها المقرر الساعة ٩ صباحاً . انها تقف متأهبة للتحليق لكنها تنتظر وتنتظر فبعد ساعتين يحين دورها . انها تعطيك وقتاً لتتأمل بجمال المطار . ولتتعرف على من حولك ولتتقبل البسمات الباردة من المضيفة ولتصلّي . . .

٢ ـ الهبوط :

ما اجملها وهي تحلق فوق المطار . انها قادمة من واشنطن عاصمة السياسة الى نيويورك عاصمة المال. انها تدور فوق مطار كندي فبعد ٣ ساعات سيؤذن لها بالهبوط . ما ألذّ وأسرع السفر بالطائرات انه احياناً سريع كالسفر بالسيارة . . .

٣ ـ الجلوس :

انظر إليه . انه مسافر انيق انحشر في مقعده . لا يمكنه وضع قدميه على ارضية الطائرة فهناك حقائب يده . لا يمكنه وضع الحقائب على الرف فالنظام يمنعه . لا يمكنه جذب المسند إليه لأن رأسه لا يستطيع الحركة . لا يمكنه ارجاع الكرسي إلى الوراء لئلا يصدم ساق الجالس وراءه . انظر إليه كم هو سعيد في مقعده والمضيفة تحوم حوله ذهاباً وإيابا لا تحدّثه بل تنتظر ان يهوّم فتوقظه وتقول له : من فضلك اربط الحزام . انها كالممرضة التي توقظ المريض من نومه ليتناول القرص المنوم في الميعاد ...

٤ ـ التنبيهات :

المضيفة تشرح طريقة استعمال حزام النجاة . تقول لك اين تجده وكيف تفتحه وتلبسه وتنفخه و ... ثم تضيف : هل لأحد سؤال ؟ بحقك لا تسألها ولا تقل لها : عندما تتحطم الطائرات في البحار والجبال والسهول وفي

تصادم احداها بالأخرى ولا يبقى مخبر اين يكون هذا الحزام السحري وكيف يُنجّي ؟ ...

٥ ـ الزوجة الحزينة :

انها قلقة جداً . انها عصبيّة جـداً . تجلس فتمشي فتتحرك فترتعش . لـاذا ؟ لأن زوجها في طائرة انقطع الاتصال بها . تهرع الى التليفون فتسمع الاجابة : الطائرة تتأرجح وسط عاصفة . الرؤية صعبة ... الضباب كثيف ... الرؤية تكاد تنعدم ... يارب ! يا رب ! ثم يرنّ جرس الهاتف وتبشّرها الشركة ان الطائرة هبطت بسلام . يا حسرة ويا (فرحة ما تمّت) . لقد خسرت قيمة التأمين مبلغ مائتي ألف دولار لأن زوجها لم يخسر حياته ...

٦ ـ البيت المحظوظ :

انه بيت جميل وعش احلام . العائلة الساكنة فيه سعيدة هانئة . لكن أفرادها يضعون الآن رؤوسهم بين ايديهم. النوافذ تقرقع ـ الزجاج يتهشّم ـ الأبواب تصطك ـ الصحون تتكسّر ـ البيت كله يهتز ويرقص . ماذا ؟ زلزال ؟ ـ كلا ! انه بيت سعيد الحظ لأنه قريب الى المطار وتمرّ فوقه الطائرات النفاثة ! آه ما اجمل السكنى بجوار المطار والاستيقاظ على موسيقى النفاثات ! ...

في هذا الجو اللطيف الضاحك وصلت الى جزر هاواي الضاحكة اللطيفة (اجمل سفن ألقت مراسيها في عرض الباسيفيك) كما وصفها (مارك توين) .

جزر الفردوس :

اذا كان لله جنّة في أرضه فالجنّة هي (هاوائي) هكذا يقول الاميركيون . يعيشون في جوّ ربيعي دائم من الغناء والاستحمام والاستجمام والهدوء في حضن طبيعة خلابة فهي بعيدة بآفاقها الأربعة عن العالم

ومشاكله . انهـا جزر الخضرة الدائمة والزهور المتفتحة على مدار السنة وملكتها الاركيديا ، وجزر الاناناس وقصب السكر وجوز الهند والقهوة ، والفراشات ، وجزر رقصات الـ (هولا) ومرح الـ (الوها) ، وجزر البراكين والثلوج والشواطىء السوداء والحمراء والصفراء والبيضاء ، وجـزر الوهاد الرهيبة والكهوف والجداول والشلالات ... اذا قال المثل الايطالي : (رؤية نابولي فالموت) يجيبه الأميركي : (رؤية هاوائي فالحياة) .

لمحة عامة :

في ١٨ اذار ١٩٥٩ أصبحت هاواي النجمة الخمسين في العَلَـم الأميركي ، وقد سبقتها الاسكا بشهرين ونصف فقط . تبلغ مساحة جزرها الثماني ١٦٫٠٠٠ كم مربع وتحتل جزيرة هاواي وحدها ١٠٫٠٠٠ كم مربع . الجزر هي من الغرب الى الشرق : هاواي ـ ماوي ـ كاهولاوي ـ مولوكاي ـ لاناي ـ واهو ـ كاواي ـ نيهاو . انها متباعدة بعضها عن الآخر مئات الكيلومترات ولا توجد خطوط ملاحية بحرية بينهما فالسفر بالطائرات من الضخمة الى التاكسي الجوي الى الهليكوبتر .

الطقس فيها معتدل مثالي فهو ٢٥ درجة مئوية في الصيف و ٢٢ في الشتاء ويحفظ التاريخ ان هاواي (بردت) في كانون الثاني ١٩٠٢ اذ بلغت الحرارة ١٥ درجة فوق الصفر ! فماذا اقول انا القادم من الاسكا اليوم ؟ .

سكان هاواي :

يقارب عـــدد سكان هاواي نصف مليون وهم من أجناس مختلفة : ١٨٩٫٠٠٠ من اصل ياباني ـ ٧٧٫٠٠٠ مزيج من البوليزنيين ـ ٦٩٫٠٠٠ من أصل قوقازي ـ ٦٣٫٠٠٠ من الفيليبينيين ـ ٣٢٫٠٠٠ من الصينيين ـ ١٣٫٠٠٠ من الهاوائيين الاصليين ـ ١٠٫٠٠٠ من بورتوريكو ـ ٧٫٠٠٠ من كوريا ـ ٥٫٠٠٠ مختلفين . يضاف الجنود الأميركيون مع عائلاتهـم والسياح الموجودون دوماً بالألوف فدخل هاواي من السياحة يتجاوز نصف

مليار دولار في السنة . تتعايش هذه الأجناس بسلام وترفض فقط الزنوج . الهاوائيون الأصليون فخورون بجنسهم وباقي الاجناس تتباهى بأن تصاهرهم.

اجناس عديدة وبالتالي اذاعات وصحف كثيرة وأعياد مختلفة مقتبسة من الوطن الاول فلا يمرُّ اسبوع دون عيد . ٤ محطات تلفزيون و ٨ محطات راديو وذلك لارضاء الجميع . ان القانون الاميركي لا يعطي الجنسية الاميركية للذين لا يعرفون اللغة الانجليزية إلا اذا كانوا اسكيمو وهنوداً حمراً او هاوائيين . اللغة الهاوائية سهلة جداً فأبجديتها ثلاثة عشر حرفاً فقط ، اصغر ابجدية في العالم . لكن هذا لا يعني ان اسماءهم صغيرة . في ١٩٥٨ تقدمت فتاة هاوائية للعمل في شركة حفظ الاناناس وكتبت اسمها فاحتلّ ثلاثة اسطر وكان مكوّناً من ثمانين حرفاً ومعناه : « عقد زهورحبّي الذي يبلغ السماء يبلـّل بعذوبته اوراق الغابة ويعطّر بشذاه الرقيق الطريق عبر الغيوم » . لم يستطع مدير الشركة مقاومة اغراء هذا الاسم الشعري فأعطاها وظيفة ...

هونولولو

من برج « ألوها » :

تقع العاصمة « هونولولو » في جزيرة « واهو » ويبلغ عدد سكانها نحو ٢٤٠ ألفاً . كل ما فيها بديع جذاب من هندسة وألوان منازلها وفنادقها الى شواطئها العامرة طوال السنة الى الاشجار والزهور التي تزيّن شوارعها وحدائقها الى تيّار محسوس وغير محسوس من الخفة ينعش جوها الطبيعي والبشري . هكذا تراءت لي من قمة برجها « ألوها » . والوها هي أكثر الكلمات استعمالاً هنا حتى عرفت هونولولو بعاصمة الـ « ألوها » . معناها متنوع غير محدد فهي تحية الاستقبال والوداع ولقاء الاصحاب والاحباب وهي سلام على المعارف وغير المعارف . تكتب بالزهور في الحدائق وتذاع

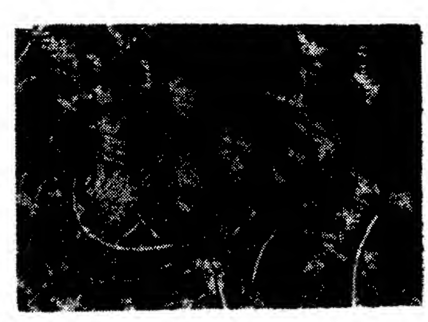
باستمرار بالراديو والتلفزيون . من برج «الوها» بان البحر الذي يطوق جزيرة « واهو » واقدام النخيل وجوز الهند تستحم في زبده والميناء الشهير «بيرل هاربور» وجبل الالماس المدعو «دايموند هيد» وقد دعاه المستكشفون الانجليز هكذا لأنهم رأوا بعض جوانبه تلمع من بعيد تحت أشعـة الشمس وتبرق كالالماس . انه اكمة سمراء جرداء مستطيلة ارتفاعها ٢٤٠ متراً وفيها فوهة بركان منطفىء وقد أصبحت – عن غير جدارة – من معالم هونولولو واطلق اسمها على فيلم وعلى أصناف تجارية عديدة .

رقصة الـ « هولا » :

اشهر شاطىء في هونولولو هو شـاطىء « وايكيكي – WAIKIKI » ومعناه المتوهج وبالفعل تلمع رمـاله البيضاء تحت أشعة الشمس . كان في الماضي مقر الأسرة الهاوايتية المالكة وأصبح الآن مكتظاً بالفنادق والمطاعم والملاهي . تعرض عليه كل يوم مجاناً رقصـة الـ « هولا » . تضع الراقصات أمامهن القرع وعلى رؤوسهن برانيط من ورق المـوز وحول أعناقهن عقود الزهور ويرتدين اغصان جوز الهند . وراء مسرح العشب اكواخ هاوائية من القش . رقصة الهولا هادئة خاشعة « تعبيرية » فهي للتعبير عن موضوع مـا وتغلب فيها حركات الأيدي على حركات الجسم والاقدام . الهاوائيون ذوو قامات قصيرة ولون اسمر جداً ووجه مفلطح . الهاوائيات مثلهم وفوق ذلك سمينات ومستوى الجمال هو تحت العادي. إنما ينسى المرء كل هذا وهو مأخوذ بايقاع وحركات « الهولا » والموسيقى الحالمة الناعمـة التي تنبعث من اوتار القيثارات المسماة « يوكوليلي » .

« بيرل هاربور » :

معناه ميناء اللؤلؤ لأنهم كانو يجدون في مياهـه قواقع يستخرجون منها اللؤلؤ الطبيعي . انه الآن ميناء عسكري وتجاري ورياضي . ذكـرنا الدليل بما حدث في هذا الميناء خلال الحرب العالمية الثانية . الساعة الثامنة إلا الربع



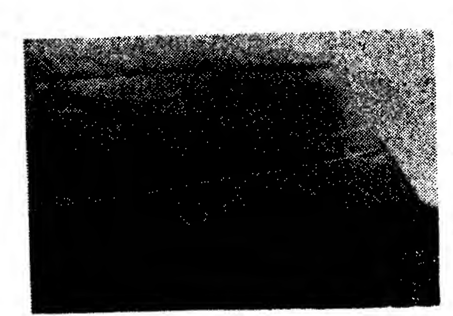
زهرة ريليوبلي



الـ « هولا » على الشاطىء



زهرة الاركيديا



حقول الاناناس

صباح يوم الأحـــد ٧ كانون الاول ١٩٤١ فاجأته غارتان يابانيتان الاولى من ١٨٣ طائرة والثانية من ١٧٠ طائرة دمرت فيـه ١٨ سفينة وقتلت ٢٤٠٣ بحارة اميركيين وحطمت ٦٤ طائرة في المطارات العسكرية ولم يخسر اليابانيون سوى ٥٣ طائرة . لم تكن اميركا مشتركة بعـد في الحرب فانقضّت عليها هذه الضربة غدرا وقررت بعدها الدخول في الحرب . كتبت صحف طوكيو بعد الغارة « ان قوات امبراطورية اليابان لا تُقهر » . بعد ستة اشهر اغرقت اميركا في يوم واحد اربع حاملات طائرات يابانية من التي اشتركت في الغارة على « بيرل هاربور » بينما كان اليابانيون متحسّرين لأنهم أخطأوا في حسابهم فلم يجدوا أية حامـــلة طائرات يوم اغارتهم . وفي ١٨ نيسان ١٩٤٣ فجّر الاميركيون في الجو طائرة القائد الياباني « ياماموتو » الذي قاد غارة « بيرل هاربور » إذ كانت المخابرات الاميركية قد عرفت بساعة سفره وبالمكان المتجه اليـــه وبالطائرة التي تقلّه . بقي اسم الطيار الاميركي الذي فجر طـائرة « ياماموتو » طي الكتمان الى ما بعد الحرب إذ ان شقيقه كان قد وقع اسيرا في قبضة اليابانيين . ومن الصدف ان « ياماموتو » كان فيما مضى طالبـــاً في جامعة « هارفرد » في بوسطن ثم ملحقاً بحرياً في السفارة اليابانية بواشنطن وحذّر حكومته مرارا من الدخول في حرب ضد اميركا التي يحبّها ويعتبرها « عملاقاً » . هذا وتعتبر الآن جزر هاواي خط الدفاع الأول من جهة آسيا وفيها اجهزة الانذار والمطارات والغواصات ...

متحف « بيشوب » :

موضوعه « مـــاذا تعرف عن الباسيفيك ؟ » . فيه مجموعات من طيور الباسيفيك وفراشاته واسماكه وحشراته وحيوانات صغيرة عادمة الفقار وفيه مخلفات عن طريقة معيشة الهاوائيين والشعوب البولينزية بنوع عـام فكانوا يستعملون القش وورق شجر الموز وجوز الهند والأناناس لكل شيء: للثياب والبرانيط والأحذية والأوعية وحقائب اليـــد والحبال ولبناء الأكواخ ... وفيه تمثال امرأة بالحجم الطبيعي تتحدث عن كل عضو في الجسم .

حديقة النبات :

اجمل حديقة في هونولولو هي «حديقة فوستر - FOSTER BOTANIC GARDEN » نباتها استوائي والوانه صارخة مشبعة وخضرته تكاد تكون برّاقة . فيها زهرة الاركيـديا بأنواعها والوانها المختلفة وهي اغلى زهرة في العالم ويذكر التاريخ ان زهرة اركيديا بيعت سنة ١٩٠٦ بـ ٣١٦٥ دولارا ! قلتُ في نفسي: ١٧٥ دولارا اكثر من ثمن تذكرتي حول العالم ! في كاليفورنيا عندهم جنون الورد وفي هاواي جنون الاركيديا .

في حديقة « الاموانا » شاهدت مصغرّا لقرية هاوايية اكواخها من قش. سوق السمك لا يخلو من جاذبية إذ ان اكشاكه بطراز صيني تشع منها الألوان الزاهية . الأرصفة هي مصانع ومعارض لألوف عقود الزهر ويدعونها «لاي - LEI » . يختلف رمز ومعنى العقد بحسب زهرته ولونه ولو ان غالب العقود هي صفراء من الزهرة التي يسمونها « الاماندا » وتشبه الياسمين الهنـدي . في المطار والميناء يستقبلون القادمين بلف هذه العقود حول أعناقهم .

في حقول الاناناس وجوز الهند :

خرج بنا الدليل من هونولولو على طريق « كاميهاميها » وهو اسم آخر ملك هاوايي لنزور حقول الأناناس وجوز الهند. حين رأى كولومبو الأناناس لأول مرة دعاه « صنوبر الهند » ثم دعاه الانجليز « تفـاح الصنوبر - PINE APPLE » ويدعوه الهاوائيون « هالوكاهيكي » ومعناه نبـات البلاد الأجنبية فلا بدّ ان اجدادهم حملوه الى هاواي التي تنتج الآن ٧٠٪ من اناناس العالم . قد يصل وزن الثمرة الى ٢و٥ كيلو جرام. طول شجرة الأناناس نحو١٢٥سم وهي بخيلة لا تعطي إلا عددا قليلا من الثمر طوال حياتها . بعد ٢٠ شهرا من زرعها تعطي ثمرة واحدة في رأسها ثم بعد ١٢ شهرا ثمرة ثانية وبعد سنة ثمرة ثالثة ثم على مـــدى اربع سنين تعطي كل سنة ٣ ثمرات واخيرا تقلع ويزرع غيرها . يغطون ارض المزارع بأوراق مثقوبة ويضعون في الثقوب « شتلة »

الأناناس بعـد تجفيفها في الشمس كيلا تعفن شروشها . بعد ١٦ شهرا يظهر في رأسها عنقود زهور تتجمع لتكوّن الثمرة . عنـد القطاف يلبسون ثياباً من جلد وكفوفاً . يقطفون في كل شهور السنة وخصوصاً في الصيف. اناناس هاواي هو بدون بزر ومن أسباب ذلك ان النحلة لا تستطيع بإبرتها الوصول الى جوف الزهرة لتضع « البولـّن ـ POLLEN » . فقط «عصفور الذباب » يستطيع بمنقاره ولذلك يمنع إدخاله الى هاواي .

أما شجرة « جوز الهند » فتعيش الى مائة سنة . في أية لحظة من عمر الشجرة يمكن اقتلاعها وغرسهـــا في تربة اخرى إذ ان شروشها سطحية . اشتريتُ منه ثمرة بنصف دولار ثقبَها البائع وادخل قصبة فشربتُ عصيرها الطبيعي ثم قشّرها لي واقتسمتُ مع الدليل لبها الأبيض . في هاواي فواكه اخرى كثيرة منها الموز والبلح والجوافة والمانجو والاباكاتي ...

سهرة في مسرح مائي :

في المساء اخذتنا السيارة السياحية الى « حديقـة حياة البحر ـ SEA LIFE PARK » حيث تناولنا العشاء في الهواء الطلق على انغام الـ «يوكوليلي» وقد نثرت الزهور حول الموائد وعليها ووضعت حتى في الاطباق . ثم زرنا احواضاً فيها أنواع الحيوانات البحرية التي تعيش قرب جزر هاواي. وقضينا سهرة في مسرح للاسماك يشبه مسرح « عـــالم البحر » الذي شـاهدته في « سان دييجو » .

رافقتْ استعراض الاسماك رقصات هاوائية ومغناة حكت قصة اكتشاف البولينيزيين لجزر هاواي . مُثِلت المغناة في قارب يذهب ويجيء بين البحر والمسرح المائي ويدفعه دولفين . كان الجو منعشاً مريحاً والقمر بدرا يُضفي من سحره على سحر هذه السهرة الهاوايية. ولا بد ان القمر في دورته اليومية حول الأرض لا ينعم بجمال كجمال هاواي ، وأشعته المتعبة الهائمـــة فوق الباسفيك اللامحدود تستريح في هذه الرحاب الفاتنة .

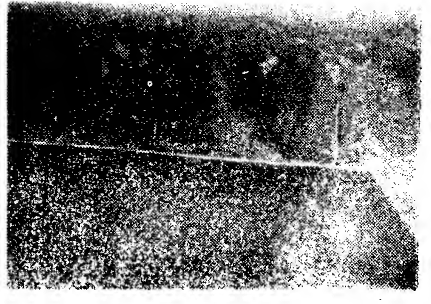
حياتهم هنا تسير الهوينا فلم تصبهم عدوى السرعة من القارة . يعملون من الثامنة الى الرابعة والنصف ثم يكملون نهارهم وسهرتهم في الهواء المطلق . يتزاور الجيران ويتعاونون واولادهم يتآخون . في الانتخابات يلعب عامل الجيرة دوراً أهم من الارتباط بالحزب الديمقراطي أو الجمهوري . هنا لا بأس إذا ما أجّلوا عمل اليوم الى الغد فمبدأهم ان الانسان يشتغل ليعيش ولا يعيش ليشتغل وإذا حدث بعض التأخير في المواعيد « معليش » فالنهار طويل ... لقد اخذوا من انعزال جزرهم السكون والتأني، ومن طبيعتها الجميلة واختلاف اجناسها فرحة الأعياد المتتابعة ولهذا يعتبر الأمير كيون هاواي أفضل مكان لقضاء عطلاتهم . هنا يتحررون من « عبودية » أنظمة المدينة الصارمة وعناء الشغل وهموم البيت ويعيشون احراراً كفراشات هاواي وطيورها .

بين الجزر

في طائرة بين الجزر :

تذكرة طائرة بثمانية وثمانين دولاراً وأربعين سنتاً و ١٤٠٠ كلم في ست ساعات طيران لرؤية جزر هاواي الثماني والتجول في خمس منها : هذه هي حصيلة آخر يوم لي في أميركا وآخر يوم من شهر آب وآخر يوم في الغرب الأقصى قبل العبور الى الشرق الأقصى . كنا أحد عشر سائحاً عدا الطيار والمرشد الذي علق اسماءنا على صدورنا. وأغرب سائحة كانت عجوزاً صبغت شعرها باللون (الليلكي) .

الساعة الثامنة صباحاً أقلعنا من مطار هونولولو وطائرتنا أشبه بسيارة فخمة ونوافذها الزجاجية واسعة لتتيح الرؤية والتصوير. حلّقنا على ارتفاع منخفض فوق جزيرة (لاناي) وهي جزيرة الأناناس وبانت بساتين منسّقة



في الطائرة بين جزر هاواي



فوق البراكين

كأنها حديقة منزلية . في اوائل هذا القرن بدأ هنا المغامر (جيمس دول ـ JAMES DOLE) زرع خمسة هكتارات وكان اول قطاف سنة ١٩٠٣ وأصبحت شركته الآن أكبر منتج للأناناس في العالم . سكان هذه الجزيرة عملهم الوحيد هو في (الشركة الهاوايية للأناناس) ورياضتهم المفضّلة صيد الغزلان .

جزيرة (كاهولاوي) هي صغرى الجزر الثمان لا سكن ولا عمل فيها بل هي مخصصة للبحرية الأميركية وللتدريبات العسكرية .

هيلو : جزيرة قصب السكر :

تابعنا الطيران الى ان نزلنا في (هيلو) وكان مطارها أشبه بجنينة يابانية منمنمة . انها متخصصة في زراعة قصب السكر . يُقطع القصب بعد ١٨ شهراً من زرعه وقبل قطعه يعملون النار في الحقول لتلتهم اوراقه اليابسة إذ تكون الحقول كغابة يصعب التنقل فيها . ثم يُعصر ويركّز العصير ويسخّن ويُنقل بالبواخر الى كاليفورنيا حيث يمر بالمصافي ويُنقى ويجهّز للتسويق . كل ١٠ طن قصب تعطي طن سكر .

مذابح النجاة :

عندما زرنا حديقة السجن قال لنا المرشد بدعابة ان هذا السجن محفوظ

للسياح فقط فلا نزلاء فيه ... في هذه الحديقة يقوم الى الآن (مذبح النجاة) المبني من الحِمَم. كانت التقاليد عند الهاوايين ان المجرم المُلاحق إذا احتمى بهذا المكان لا يحقّ لأحد ان يعاقبه فكان يحاول بكل قواه ان يبلغ المذبح ليتأكد من النجاة وبعدئذٍ يغادره حرّاً واعداً ان يكفّر عن ذنبه. في القديم كانت اوقات الحرب في هاواي أكثر من اوقات السلم لأن كل ملك من ملوكها الستة قد يغزو الممالك الخمس الأخرى فيلوذ غير المحاربين والمهزومين (بمذابح النجاة).

نُصب كوك :

دلّنا المرشد على مدفن القبطان (كوك) . سنة ١٧٧٨ نزل (كوك) مع رجاله في جزيرة (كاواي) وعاشوا يتنقلون بين الجزر . وإذ كانوا في خليج (كيالاكيكوا) قتله الهاوائيون .

من اخبار هاواي أيضاً انه في اول نيسان سنة ١٩٤٦ تكلم مجهول بالهاتف مع مدير مدرسة وانذره ان المدّ يعلو ويطغى على الشط وقد يهدد المدرسة فظن المدير انها (كذبة اول نيسان) . وإذا بالأمواج تطغى فعلاً وتغرق المدرسة بكل من فيها ما عدا مدرّسة واحدة انقذت وتزوجت فيما بعد مُنقذ حياتها وأضاف الدليل بمرح : ترى هل كان هذا عقاباً له أم ثواباً ؟ ...

فوق البراكين :

رجعنا الى الطائرة وحلقنا فوق مناطق كثيرة من جزيرة هاواي ورأينا اثنين من براكينها الخمسة . سنة ١٩٥٠ اشتعل (ماونالاوا) وسنة ١٩٦٤ اشتعل (كيلاويا) وهما يهددان بهيجان مفاجيء في أي وقت . كانت الحمم تخرج منهما وحرارتها الفا درجة مئوية وترتفع كنافورات من النار الى علو ٦٧٠ مترا ثم تسيل على جوانب الجبل . ان آثارها منتشرة في مساحات كبيرة ويلتقطون فيها حجرا ثميناً يدعى (اوليڤين) . عرض فوهة بركان

(كيلاويا) ١٨٠ مترا وعمقها ١٦٠٠ مترا ينزل اليها السياح على ظهور الخيل . حسب ميثولوجيا هاواي ان إلهة النار (بيلي - PELE) تهيم في الأرض تشعل البراكين ثم تأتي الى مقرها الأصلي هنا فكانوا يتعبّدون لها ويهابونها لئلا تحرق جزيرتهم . بعد هـذا المنظر الرهيب تمتعنا برؤية أكثر من أربعين شلالاً تنحدر على سفوح الجبال الواقعة على الشاطىء وكنا نقول للطيار ان يتأنى لنلتقط صورا لها . عاد بالطائرة في محاذاة الشلالات ليتسنى للجالسين في الجهة الثانية ان يلتقطوا صورا هم أيضاً .

غداء في اوتيل شيراتون :

عند الظهر نزلت الطائرة في مطار (كانابالي) حيث يفصل قصب السكر بين الممرات ، وهو مطـار جزيرة (ماوي) . إنهـا ثاني جزيرة بالمساحة وتتوجها فوهة بركان (كاليا كالا) على ارتفاع ٣٠٤٧ مترا . يعيش فيها نحو خمسة وأربعين الفاً يعملون في فنادقها العـديدة وفي الحقول ورعي البقر ذي اللون الكستنائي . حين جلب البيض البقر الى جزر هاواي منعوا قتلها مدة اربعين عاماً لكي تتناسل . تناولنا طعام الغداء في (شيراتون ماوي اوتيل) المستند الى سفح أكمة . الأكل فيه (على شبـع) فيطوف (الزبون) بنفسه على الموائد ويأخذ ما يريد وقدر مـا يريد . لقد احببت جـدا سلطات فواكه هاواي .

جزيرة البرص :

في جزيرة (مولوكاي) زرنا مستشفى الجذام . احتفظت هذه الجزيرة بطابع بدائي متأخر إذ كان يأنف الهاواثيون من السكن فيهـا . كانت في القرن الماضي ملجأ للبرص المنبوذين. عرف عنهم الأب(داميان- DAMIEN) البلجيكي فقدّم نفسه رسولاً اليهم وسكن معهم واعتنى بهم وبنى لهم كنيسة ومستشفى وصار ابرص مثلهم ولقـد ركعتُ اليوم وصليت أمام قبره في حديقة المستشفى . ومن لا يُكبر مثل هـذه التضحية والمحبة ! قمنا بزيارة

سريعة الى المستشفى وقبـــل بدئها وزعت علينا ورقة تتضمن التعليمات التي شرحها الدليـل : لا يجوز التصوير ، لا يجوز الدخول الى غرف المرضى بل يمكن التحدث معهم في البهو والممرات والحـديقة ، لا يجوز مصافحتهم أو استلام شيء منهم دون تعقيمه ، لا يجوز تسليمهم الهدايا مباشرة ، لا يجوز الدخول للذين تحت سن ١٦ لأنهم معرضون للعدوى الخ ...

جزيرة « كاواي » :

مولوكاي هي أقرب جزيرة الى جزيرة (واهو) حيث تقـــع هونولولو فطرنا فوق هذه ثانية متجهين الى الغرب وهبطنا في مطار (ليهوي) عاصمة جزيرة (كاواي) . هنا حطت رحالها اولى القبائل البولينيزية التي قدمت في القرن العاشر وعمرت جزر هاواي وهنـــا رست سفينة (كوك) قبل استكشاف باقي الجزر . تقول الاســاطير انه كان يعيش فيها قوم خرافيون يرون في الظلام ويصنعون في الليل تماثيل لكائنات ميثولوجية صغيرة تهـيم ليلاً في الغابات . وفي إحدى ذراها قذف زعيم بحربته فأحدث (ثقب الجبل) الذي أصبح مزارا بجوار قمة (الجبـــار النائم) . وفيها بقايا هيكل وثني قديم مع اصنامه وحجر ذبائحه ومسكن كهانه . وتبين إحدى الذرى كوجه الملكة فكتوريا وتبرز منها اصبع تدل على (ناويلي ويلي) الميناء الصغيرة في الجزيرة. بالطبع ليست هذه الخرافة الأخيرة من الهاوايين بل من الانجليز.. من البحر الى قلب الجزيرة يتدرج واد موحش اسمه (كانيون وايميا) يشبه الى حد بعيد (جران كانيون اريزونا) [1] حتى انهم يدعونه (جران كانيون الباسيفيك) ويوجد في الجزيرة وهاد عديدة غيره . تلقب (كاواي) أيضاً بـ (هوليوود هاواي) لأنهم يلتقطون فيها مناظر الافلام . يقول العلمـــاء الاميركيون ان جبل (وايالبالي) في كاواي هو اكثر بقعة في الأرض تهطا

(١) انظر فصل ٣٥ .


غروب الشمس في بحر هاواي

عليها الأمطار . تناولنا طعام العشاء على نور المشاعل في حديقة فندق (سرف - SURF) على الشاطىء . قدموا لنا حفلة قصيرة قام بها ممثلون هاوايون قادمون من عرض البحر واضرموا عشرات المشاعل وتناوبوا الغناء وقرع الطبول والعزف على القيثارة .

في العودة الى هونولولو مررنا فوق جزيرة (نينيهاو) - جزيرة المراعي - حيث يعيش عدد قليل من الهاوايين الأصليين الذي لا تجري في عروقهم نقطة دم غريبة . انهم في خدمة اسرة (روبنسون) البيضاء التي هي من أصل قوقازي ولكن أفرادها يعيشون في جزيرة (كاواي) .

في التاسعة مساء انتهت الرحلة في مطار هونولولو وعدت الى فندق (ريف) أكتب ذكرياتي عن هذه الأيام الممتعة .

٤٠

هذه هي اميركا

نظرتان :

تتضارب الآراء حول اميركا والمجتمع الاميركي وتختلف الزوايا التي يتطلّع منها الأجانب الى الولايات المتحدة ، وهي كالعملاق الواثق بنفسه تنظر الى باقي العالم من علُ . الطريق بين هاواي وطوكيو طويلة فأخذت ابلور مافي رأسي عمّا يعتبره البعض اغنى وأقوى وأجمل بلاد في العالم .

أغنى بلاد :

في اميركا ٤٨ ٪ من ثروة العالم . ميزانيتها ١٨٦ مليار دولار . دخلها القومي السنوي ٩٠٠ مليار دولار وهو على ازدياد مطرد وتوزع منه فقط ١/٤ ٪ معونات خارجية . اذا قورن انتاجها الصناعي بالانتاج العالمي كان ما يلي :

النـــوع	الولايات المتحدة	باقي العالم
الماكينات	٧٠ ٪	٣٠ ٪
السيارات	٧٦ ٪	٢٤ ٪
البترول وصناعاته	٧٣ ٪	٢٧ ٪
الأجهزة الالكترونية	٦٨ ٪	٣٢ ٪
الصناعات الكيماوية	٦٢ ٪	٣٨ ٪

يضاف الى هذا ان ٦٥ ٪ من سيارات العالم تسير على طرقها و ٦٨ ٪ من بنزين العالم يحرق فيها . دخل الفرد الاميركي سنوياً يفوق ١٥ مرة دخل الفرد في الدول النامية واذا سارت الأمور على ما هي عليه سيصبح ٣٠ مرة في نهاية القرن العشرين . تعتبر الحكومة الأسرة التي يقل دخلها السنوي عن ٣٠٠٠ دولار فقيرة وتمنحها اعانة . في عام ١٩٦٦ بلغت التبرعات الخيرية الخاصة ١٣ مليار دولار . يصرفون على اجازاتهم ٣٠ مليار دولار بالسنة وعلى الدعاية وحدها ١٤ مليار دولار . رأسمال شركة «جنرال موتورز» ٩ مليار دولار . رأسمال شركة « بيل- BELL » التليفونية ٢٨ مليار دولار . رأسمال شركة « لايف - LIFE » وهي اكبر شركة تأمين في العالم ١٨ مليار دولار ومجموع مبالغ تأمينها على الحياة ٩٤ مليار دولار .

أقوى دولة :

يوم نشبت الازمة بين واشنطن وموسكو حول الصواريخ الروسية في كوبا قدم المستشارون العسكريون الى كندي تقريراً يؤكد ان قوة اميركا العسكرية هي اربعة اضعاف قوة روسيا فأصدر كندي انذاره الشهير . ميزانية الدفاع ٨٠ مليار دولار . لا يخفي الاميركيون ما عندهم فيقول الروس ان لا حاجة إليهم الى جواسيس على اميركا فهي تذيع كل اسرارها . يُعرَف مثلا من وزارة الدفاع ان عندها : ١٠٠٠ صاروخ « مينيتمان » في

مخابىء تحت الأرض و ٤١ غواصة « بولاريس » تحمل ٦٥٦ صاروخاً مهيأة للانطلاق . و ٢٢٠٠ صاروخ قوة الواحد منها « ميجاتون » يكفي اطلاق ٨٠٠ منها لتدمير ثلثي الاتحاد السوفيتي . ومئات من القذائف بعيدة المدى . قاذفة القنابل « ستراتوجيت » تكلف ١٥ مليون دولار والصاروخ الواحد العابر القارات يكلف ١٠ ملايين دولار . في سنة ١٩٦٦ انفقت مجموعة دول المعسكرين الكبيرين على الاغراض العسكرية ١٣٨ مليار دولار . لو انفق بعض هذا على العمران والخدمات الانسانية لتغيَّر وجه العالم لا سيما ما يُدعى العالم الثالث .

تقدمها العلمي :

اميركا هي ايضاً بلاد التقدم العلمي في الطب والهندسة والكيمياء والطبيعة والزراعة والمواصلات وكل الاختراعات من الحاجات المنزلية الى مراكب الفضاء الى العقول الالكترونية . تنفق بغير حساب على الابحاث العلمية وتجمع فيها اكبر خبراء العالم وتعطي الاولوية في الهجرة للحائزين على شهادات جامعية وتغري افراد البعثات العلمية الأجنبية بحيث يبقى فيها نحو ٩٠ ٪ من الأجانب الذين يتلقون العلم فيها . من اسباب حنق اوروبا عليها انها « تخطف » علماءَها .

هذا المجال واسع جدّاً فأكتفي ببعض امثلة من الطب : بطاريات تساعد القلب المتعب الضعيف اذ تركّب بجانبه فيصبح عادياً قوياً . لمعالجة الضغط العالي توضع آلة كهربائية بحجم الساعة عند مؤخر الرقبة تحت الجلد فتخفّض الضغط . لمعالجة حصر البول تضغط آلة على المرارة فتعمل بنوع طبيعي . المصابين بالشلل صدمات كهربائية تجعلهم يمشون . في حالة صعوبة التنفس تعمل آلات على الاعصاب المتصلة بالحجاب البدني تحت الرئتين . بدل التبنيج الكلي أو الموضعي يغرزون إبرة تجمّد القطعة التي يريدون ان يستخرجوها من الجسم فيستأصلونها دون الشعور بألم إلخ ...

بلاد السرعة والارهاق :

يبلغ عدد قتلى حوادث السيارات نحو ألف في الاسبوع . سنة ١٩٦٦ بلغ ٥٢٥٠٠ بينما في السنة نفسها قتل فقط ٥٠٠٨ اميركي في فيتنام . وتكثر الوفيات بسبب أمراض القلب والدماغ اكثر مما في باقي أنحاء العالم وذلك بسبب الاجهاد وضغط العمل وحمّى السرعة . يصل أحياناً عدد المنتحرين في اليوم الواحد الى ٧٢ شخصاً خصوصاً في اذار ونيسان فترة الاقرارات الضريبية ... الذين يتعالجون عند أطباء الامراض العصبية والنفسية هم ضعف مرضى الجسد . . . الامريكيون رغم غناهم وتوفر اسباب الراحة والرفاهية لا يعرفون الحياة الناعمة الهنيئة . وتكفي نظرة الى طرق السيارات يوم الأحد بعد الظهر ليتصوّر المرء ماهي الحياة في اميركا . والاميركيون انفسهم يقرّون بأن المدن الاسترالية والكندية اكثر نظافة وأناقة وترتيباً من المدن الاميركية وان جوّ ومياه كندا واستراليا اقل تلوّثاً من جوّ ومياه اميركا .

مناخ الجريمة :

المناخ الاجتماعي في اميركا مشوّه بسحب الاجرام القاتمة . يقتل فيها يوميا نحو ستين . بين ١٩٦٠ و ١٩٦٦ ارتفعت نسبة الاجرام ٤٨٪ . في ١٩٦٦ انتحر ١٠٤٠٠ وقتل ١٠٩٢٠ منهم ٦٠ ٪ بالرصاص . في كل حروبها مات ٦٢٧ ألفاً ولـكن من ١٩٠٠ الى ١٩٦٦ قتل فيها ٧٥٠ ألفاً . في خلال ١٠٠ سنة ٧ رؤساء من ٢٠ ضربوا بالرصاص ومات منهم ٤ . وكل يوم تذاع اخبار الخطف والسطو والسرقات . ترى ما هي اهم اسباب انتشار الجريمة في أميركا ؟ .

الحرية المطلقة بما فيها حرية حمل السلاح فيشترونه كالسجاير . نقص في التربية بسبب تفكك العائلات « وطاعة الوالدين لأولادهم » كما كتب احد الصحفيين الفرنسيين وتساهل المربين في المدارس . تعاطي المخدرات منذ سن مبكرة حتى اصبحت المخدرات آفة الآفات في المجتمع الاميركي وحطمّت

به كثيراً في كل مجالات الحياة الصحية والنفسية والخلقية والرياضية والعلمية . الحياة الصاخبة وغير المستقرة . والتهافت على المتعة وبالتالي الحاجة الى المال. ازدحام المدن وأمل الإفلات من قبضة الشرطة . نشر أخبار الجريمة في وسائل الاعلام من تلفزيون واذاعة وصحافة وعدوى الجريمة تجتاح . ضآلة العقوبة « فالجريمة تفيد » في اميركا والسجن نوع من الفنادق . استقلال الشباب وتغطرسهم فأميركا بلاد فتية ٤٠٪ من سكانها ولدوا بعد سنة ١٩٤٥، عنف وراثي في الطبع الاميركي القلق للطموح المغامر اذ كانت الفئات الاولى من المهاجرين متعادية انعزالية قاسية نحو الوافدين الجدد متكلة على بطشها . وجود جمعيات متخصصة في ارتكاب الجرائم يحميها البوليس او يهابها او يستفيد منها او يعجز عن قمعها وأشهرها « المافيا » .

انتقلت عصابة « المافيا » مع المهاجرين الايطاليين من سيسيليا الى اميركا في أوائل القرن العشرين . من مبادئها : اذا أصبت بضرر أو ظلم فلا تشتكِ المحاكم بل خذ بالثأر . لا تساعد السلطات للعثور على مجرم . من يخالف نظام « المافيا » يموت هو أو واحد من عائلته . انتقلت هذه المبادىء بالعدوى الى فئات عديدة نشرت الجريمة في البلاد . تسرق المافيا بالملايين وتشنّع بذوي المناصب وتفسد رجال الحكم والأعمال وترشو الموظفين وتقتل وتتسرب الى مجالس البلديات والولايات وتنشر المخدرات فتكسب منها وحدها ٢٥ مليون دولار بالسنة . يبلغ حجم أعمالها ٣٠ مليار دولار بالسنة منها ٧ الى ١٠ مليار ربح صافٍ . فيها ٢٤ اسرة أو عصابة تضم نحو ٥ آلاف عضو ينضم إليهم ألوف من المستعدين للإجرام . أخرجت أفلام كثيرة عن « المافيا » أحدثها وأعظمها « العراب – THE GODFATHER » .

مشكلة الزنوج :

يقول الأميركي الأبيض ان الأسود هو غبيّ عنيف قذر كسول فقير يعيش من ضريبة اعانة البطالة التي يدفعها المشتغلون ومجتمعه مملوء بالسكر والافراط

الجنسي ، والخمول ، ويشوّه وجه اميركا ويسيء إليها كأنها ليست وطنه . ويقول الاسود إن البيض اضطهدوا السود وعزلوهم واستغلوهم منذ ٤٥٠ سنة ونيف . اذا تركنا هذه الاتهامات المتبادلة جانباً فماذا تقول الاحصائيات ؟.

الاسكان :

عدد الزنوج ٢٢ مليوناً . منذ سنة ١٩٥٠ إلى ١٩٦٦ تضاعف عدد الساكنين منهم في المدن الكبرى وأصبحوا في واشنطن ٦٣ ٪ . يمنع القانون كل تفرقة عنصرية ولكن بالفعل يسكنون في أحياء الزنوج فقط .

الدخـــل :

معدل دخل الأسرة البيضاء في السنة ٧١٧٠ دولاراً والأسرة الزنجية ٣٩٧١ دولاراً . لكن هذا لا يمنع ان ٦٠ ٪ من الأسر الزنجية يقل دخلها عن ٣٠٠٠ دولار . ٩ أسر من ١٠ تمتلك جهاز تلفزيون والثلثان غسالة كهربائية وأكثر من النصف سيارة .

التعليم :

من بين كل خمسة طلبة زنوج يفضّل أربعة الالتحاق بمدارس السود . ومن الغريب ان القضاء على التفرقة العنصرية بالمدارس يتقدم في ولايات الجنوب أكثر منه في ولايات الشمال . يوجد ٢٣٤ ألف طالب زنجي جامعي . عندما يصل الطالب إلى الصفوف الثانوية تنقص قدرته على التعلّم عشرين درجة عن معدّل الطالب الأبيض .

العمـــل :

من السهل أن يشغل الزنوج وظائف حكومية وان يتعاطوا مهناً حرّة ولكن من الصعب ان تشغّلهم محـلات وشركات البيض . واتحادات العمال تستبعدهم من أشغال البناء والطلاء والكهرباء والنجارة وما اشبه . انهـم يشغلون ٢٣ ٪ من الوظائف الحكومية في نيويورك و ٣٠ ٪ في كيفلاند

و ٤٠ ٪ في فيلادلفيا وكثيرون منهم اطباء ومحامون ومهندسون . كان عدد الموظفين منهم في ١٩٦٢ ٧,٧٤٧,٠٠٠ . رغم هذا ثلثهم عاطلون عن العمل في أحيائهم الفقيرة بالمدن الكبرى . على المستوى الفدرالي ١٣,٢ ٪ من الموظفين المدنيين هم زنوج . ومنهم ١٦ قاضياً فدرالياً و ١٣١٩ ضابطاً في الجيش من رتبة ملازم إلى رتبة عقيد . و ٦ سفراء و ٧ نواب .

أميركا في نظر أوروبا :

لقد كثر المقول والمكتوب عن اختلاف العقلية وعن نظرة الأوروبيين الى المجتمع الأميركي حتى ان « جان بول سارتر » قال : « قفزت اميركا من الهمجية إلى الانحلال دون ان تتوقف في مرحلة الحضارة . » وزاد الشق اتساعاً التركيز على أوجه الاختلاف دون اعتبار أوجه الشبه .

كان المفكرين والمثقفين في اوروبا دورهم في المجتمع والسياسة وكانوا طلائع الحضارة والتطور فرأوا في اميركا تهديداً لمركزهم هذا اذ انها بدّلت وجه العالم بالميكانيكا والتكنولوجيا وليس بالثقافة . انها في نظرهم بلاد « المعلّبات والمحفوظات » للأكل والشرب وللموسيقى وللأفكار تَزُجُّها في علبة أو في شريط مسجل او في عقل الكتروني فتعجز عن أن تقدم لأوروبا ما يرضي ذوقها . حتى الرأسمالية تختلف في أميركا فهي مؤسسة على التنافس وليس على الاحتكار كما كان الأمر في أوروبا .

وأميركا – عكس شعوب أوروبا – لم تُبْنَ على روابط القربى والدم والتقاليد والطبقات والفئات بل بُنيت على أفكار وأهداف وانصهر فيها المهاجرون بقالب اميركي متميّز في تطوّر وتجدّد مستمرين . في الدين تعتبر أوروبا أميركا « متأخرة » بالنسبة إليها فتزعم ان الاميركين يخلطون الدين في كل شيء ويفهمونه على طريقتهم ويكتبون على دولارهم المعدني : « نؤمن بالله » فيسألهم الساخرون : الله الحقيقي أم الله المال ؟ .

أمّا في السياسة فيقول عنهم الأوروبيون انهم حالمون مثاليون وضعهم التقدم العلمي والاقتصادي على رأس العالم المتمدن لكنهم « أولاد » تنقصهم الخبرة والحنكة و « اللؤم » العريق . قلوب كبيرة ولكن غير بصيرة . ويزيد في الطين بلّة انهم اذا اخطأوا تأثر العالم كله وراءهم . الناخبون الأميركيون هم ٥ ٪ من سكان العالم ولكن اصواتهم تقرر قسطاً كبيراً من مصير العالم ومع ذلك فالانتخابات عندهم تبدو « لعبة رياضية كبرى » . انهم بعيدون عن مرمى الأسلحة التقليدية وعن مناطق الحرب الساخنة فيختلف قرارهم وتقييمهم للأمور عن الأوروبيين .

الأميركي في نظر الأوروبي هو رجل مشبع متخم لا يهتمّ بشيء جدّياً ولم يتعلم بعد الذوق ورقة الشعور . وهو أحياناً فوضوي يقتل حتى بدون سبب وهمّه في الحياة صرف المـــال . ينقاد الرجل للمرأة فتعتبره بسيطاً وتستغل دفتر « شيكاته » وتعامله كولد كبير مدلّل ومع انها امرأة باردة وأنانية وغير رقيقة تمتلك ٦٠ ٪ من مال البلاد ! .

بعد ان تقدمت أوروبا الغربية في الخمسينات والستينات أصبحت تنظر إلى أميركا شزراً نافضة عنها مركب النقص الاقتصادي ورافضة ان تدور في فلك أميركا كتابعة . مسكينة اميركا الدول الغنية تحسدها والدول الفقيرة تشتمها وهي ماذا تفعل ؟ — تتطلّع من علُ ...

مَن عرف الاميركيين فقط عن طريق الجنود المرحين وأفلام هوليوود، وأخبار النجوم والمليونيريين ووحوش العصابات وأقلام الكتاب الاوروبيين الذين يقيسون ويزنون بمقاييس وأوزان أوروبية فهو لم يعرف الوجه الحقيقي الواقعي . هنا ايضاً « الحقيقة في الوسط » وحبذا لو تفاعلت وتمازجت الروح الاوروبية مع الاميركية لخير الانسانية جمعاء . وربما هذه « النـكتة الموسيقية » تبلور فـكرة فلقد قيل : ان أحسن اركسترا هي التي يؤلف

موسيقاها الألمـانيون ويغنيها الإيطاليون ويعزفها الفرنسيون ويسمعهـا البريطانيون ويدفعها الأمير كيون . . .

أما في نظر بعض السياح فقد جمع الأمير كيون من دقة ونظام الانجليز وجدّ وكدّ الألمان ومرح ولطف الإيطاليين وذوق وأناقة الباريسيين وأجمل ما بقي في نفوسهم بعد زيارة أميركا هم الأمير كيون ... كان الرئيس كندي ذلك المثـال الأعلى الجامع بين الشخصية الأميركية والشخصية الاوروبية ولكن صرع ورحل فهل يعني هذا انهما لن تلتقيا ؟ ...

●

٤١

تاهيتي

استقبال بعقود زهر :

غادرت « سيدني » يوم الاربعاء ١٢ / ٧ / ١٩٧٢ ووصلت الى « تاهيتي » يوم الثلاثاء ١١ / ٧ / ١٩٧٢ إذ كسبت يوماً حين عبرت خط التاريخ الدولي من أقصى الشرق الى أقصى الغرب . توقفت الطائرة في « نوميا » عاصمة « نيوكاليدونيا » ولست أدري لِمَ أوحى لي التوقف في تلك الجزر النائية بمشاعر غامضة وأنا في طريقي الى بلاد جمالٍ وأحلام وأسرار .

عندما نزل الركاب في مطار « فا FAAA » في « بابيت — PAPEETE » عاصمة تاهيتي قلّدتهم المضيفات الجويات التاهيتيات عقود زهور مع الترحيب بكلمة « أروها — AROHA » . بعد نصف ساعة كنت في فندق « ماتاڤاي » وهو على الطراز التاهيتي بيوته متعددة (٤٧) من خيزران وقش وأغصان .

أرض تاهيتي وشعبها :

تقع تاهيتي في قلب جنوب المحيط الهادىء على بعد ٦٠٠٠ كلم من استراليا و٦٥٠٠ كلم من كاليفورنيا و٤٥٠٠ كلم من هاواي و٥٥٠٠ كلم من سنتياغو

عاصمة شيلي . انهـــا جزيرة عالية من أصل بركاني ومساحتها ١١٠٠ كلم٢ وسكانها ١٢٠ الفاً . فصل الصيف والأمطار فيها من كانون الاول الى آذار ويكون معدل الحرارة بـين ٢٧ و٣٠ درجة ، وفصل الجفاف من نيسان الى تشرين الثاني ومعدل الحرارة بـــين ٢٤ و٢٧ درجة . تشبه طبيعتها هاواي بالتربـة الدكناء البركانية والتلال الخضراء والنبات الاستوائي ويشبه شعبها « الهاوائيين » و « الماوريين » الذين رأيتهم في نيوزيلاند .

ما هو أصل التاهيتيين ؟ يتساءَل علماء الاجناس هـــل هم من بقايا قارة انـــدثرت ؟ أم من نسل مسافرين استوطنوا بدافع الهجرة او رمتهم الرياح والأقـــدار ؟ أم من الهنود الحمر الاميركيين ؟ أم من الشعوب الآسيوية ؟ مهّد عِلم النبات للجواب على هـــذا السؤال . فعندما عرفها الاوروبيون لم يكن فيها من النبات الاميركي سوى البطاطس الحـــلوة والقطن بينما كان ٩٠ ٪ من نباتها البستاني – الذي يغرسه الإنسان – لا سيما جوز الهند وشجرة الخبز من أصل هندو – ماليزي فمال الباحثون الى الاصل الأخير . حالياً ٧٧ ٪ هم من أصل ماوري و٩ ٪ من آسيوي و١٤ ٪ من اوروبي .

متى سُكنت تاهيتي ؟ لم يعطِ تاريخها جواباً فهي جزيرة بدون تاريخ إنما قـــدّر علماء الآثار بطريقة كربون ١٤ انها استوطنت نحو سنة ١٠٠٠ بعد المسيح .

الاوروبيون في تاهيتي :

أول من اكتشف تاهيتي هو البحّار الانجليزي « والّيس » في ١٧٦٧ ثم « بو جنفيل » في ١٧٦٨ ثم القبطان « كوك » في ١٧٦٩ ثم «بلايج» في ١٧٨٨. كان هـــذا قائد السفينة الشهيرة « بونتي – BOUNTY » تمرّد عليه بحارته ووضعوه في قارب صغير مـــع انفار من انصاره فأبحر الى جزر « فيدجي » قاطعاً ٣٦٠٠ كلم : أطول تيهان في قارب نجاة !

في ١٨٨٠ أصبحت تاهيتي مستعمرة فرنسية وصارت مدينتها « بابيت »

عاصمة بولينيزيا الفرنسية التي تعـد الآن نحو ٢٠٠ الف منتشرين في خمس مجموعات من الجزر المتباعدة جداً . فالمسافة مثلاً بين « بابيت » وجزيرة « والـيس » سبع ساعات ونصف بالطائرة . في ١٩٥٧ اعتبرت « بولينيزيا » أرضاً ما وراء البحار ونالت استقلالاً داخلياً. فيها حاكم تعيّنه فرنسا ومجلس منتخب مكوّن من ٣٥ عضواً وهي تنتخب ممثلاً عنها فيمجلس الشيوخ وآخر في مجلس النواب في باريس .

العاصمة « بابيت » :

« بابيت » تعني سلـّة الماء . كان وراء قصر الملك نبع ماء يستقون منه بدلو موضوع في سلـّة وأطلق الاسم على المدينة . انتظرت سماع شرح الدليل قبل أن أسأله: كيف يستقون الماء بالسلة ؟. تاهيتي نفسها جزيرتان ملتصقتان بمعبر ضيق « تاهيتي اونو » الكبيرة و « تاهيتي ايتي » الصغيرة .

شوارع « بابيت » ضيقة تكاد لا ترى الشمس من تعانق الاشجار فوقها إلا الجادة المتلوية مع الشاطىء . على أحد جانبيها الميناء الذي أنشىء سنة ١٩٦٥ وفيه اليخوت وقوارب الصيد وسفن محمّلة بجوز الهند وعلى الجانب الآخر متاجر وأرصفة تعرض عليها عقود الصدف والعقيق وقطع المرجان والقيثارة التاهيتية وتماثيل الـ «تيكي» «وبرانيط قش وأقمشة الموضة التاهيتية» المطرزة برسومات زهور وأشجار الجزيرة. تعبر الجادة اوتوبيسات غريبة هي أشبه بشاحنات ذات بنوك تنقل الركاب بين بابيت والقرى . يفوح القتار من عربات هي مطاعم متنقلة تقدّم اللحم المشوي المشكوك في أسلاك لينة رفيعة والموز المشوي وثمرة شجرة الخبز مقلية وطعمها كالبطاطس وسمكاً نيئاً وصلصة سوداء غريبة اللونوالطعم والبيرة التاهيتية بنوعيها «هينانو ومانويا».

كانوا يقيمون على جانب « الكورنيش » مدرجات ومسارح وأقواساً استعداداً للاحتفال بعيد فرنسا القومي يوم ١٤ تموز . تدوم مهرجاناته واستعراضاته وسهراته اسبوعين في تاهيتي وينتخبون فيه ملك جمال وملكة

جمال ١٤ تموز . كما ينتخبون مرة بالسنة ملك وملكة جمال تاهيتي . ربما هنا البلاد الوحيدة التي ينتخبون فيها ملك جمال .

كل شيء صغير لطيف في « بابيت » من بيت الحاكم حيث يرفرف العلم الفرنسي ، الى مجلس النواب المستطيل كأنه مطعم ، الى البنوك حيث تُنهي المعاملات بدقائق . إنما لا تبدو منظمة غنية نظيفة مثل « هونولولو » وربما يحلو فيها هذا الطابع البدائي .

من معالم « بابيت » ضريح الملك « بوماري – POMARE » الخامس الذي مات سنة ١٨٩١ وكان آخر ملك في تاهيتي أسلم الجزيرة الى الفرنسيين سنة ١٨٨٠ بدون حرب . يشبه الضريح مخروطاً في رأسه جرّة لأن الملك كان يشرب منها – ككل التاهيتيين – الـ « بكتيكي » المستخرج من جوز الهند.

حاجز المرجان :

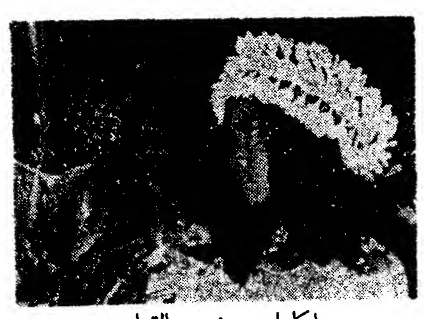
يقوم الضريح على أكمة ينفتح منها النظر على جبال تاهيتي وشواطئها . يبلغ ارتفاع جبل «اوروهينا» ٢٢٣٤ متراً وكانت تعتبر قمته مسكن الآلهة ، وجبل « اوراي » ٢٠٦٥ متراً . رمل الشواطىء أسود من الاصل البركاني للجزيرة ، عدا شاطىء واحد رمله أبيض ويمتد ١٥ كلم بجانب المطار . في عرض البحر يطوّق الجزيرة أكليل أبيض من الموج . عجبنا لهذا المنظر غير المألوف وسألنا الدليل فألقى علينا حديثاً شيقاً عنه .

يحيط بتاهيتي « إحاطة السوار بالمعصم » حاجز مرجاني يرتفع من قعر البحر الى فوق سطح الماء ويتكسر عليه الموج . من المعروف أن المرجان هو أسماك تلتف وتتلاصق وتموت وتتجمد فتبدو كأنها باقة متحجرة . ومرّت على السد ملايين السنين فتضخم وكثف وعلا . من أين تمر إذن المراكب ؟ من فجوة كبيرة طبيعية في السد يبلغ طولها ٤٠ كلم .

هناك مئات الجزر في الباسيفيك محاطة بحواجز المرجان . بل هناك جزر مرجانية يعيش عليها البولينيزيون . فحول تاهيتي نفسها توجد مثل هذه



حول تاهيتي





اكليل من زهور التياري

الجزر ويتنقل عليها التاهيتيون لجني النارجيل . يقضون مثلاً ثلاثة أشهر في الجهة الغربية فثلاثة أخرى في الجهة الشمالية ثم الشرقية فالجنوبية وبعد اثني عشر شهراً يبدأون من جديد .. حقاً انه عالم غريب !

للتمتع بعـــالم البحر اشتركتُ في رحلة بمركب ذي قاع بلوري . طفنا بقرب سد المرجان ورأينا جنائنه وباقاته وألوانـــه والأسماك تحتنا يغطس أمامنا صيادون ليصطادوا منها .

جولة دائرية حول تاهيتي :

بعـــد استطلاع بابيت قمنا بجولة دائرية على شواطىء تاهيتي الممتدة نحو ١٤٠ كلم . زرنا فندق « تاهارا » الغارق بين الزهور . بينه وبـــين شاطىء الاستحمام سفح بُنِيَت فيه غرف المستحمين فبدت كجنائن معلقة . تكلف الليلة الواحدة فيــه ثلاثين دولاراً وإذا رأيت ان ذلك قليل فيمكنك أن تحجز غرفة في فندق « مايبقا » بخمسة وأربعين دولاراً .. لا تعجب من الغلاء الفاحش في تاهيتي فتقريباً كل مـــا فيها مستورد . أفلا يحق لتاهيتي السياحية الخيالية أن تضع أسعاراً خيالية ؟ إنمـــا يأسف السائح لأن الخدمة ليست متناسبة مع الاسعار وهـــذا ما ينعاه الاميركيون على تاهيتي عندما يقارنونها بهاواي. على الأقل تاهيتي لا تعرف «البقشيش» ولا تضيف الى الحساب ١٥ ٪

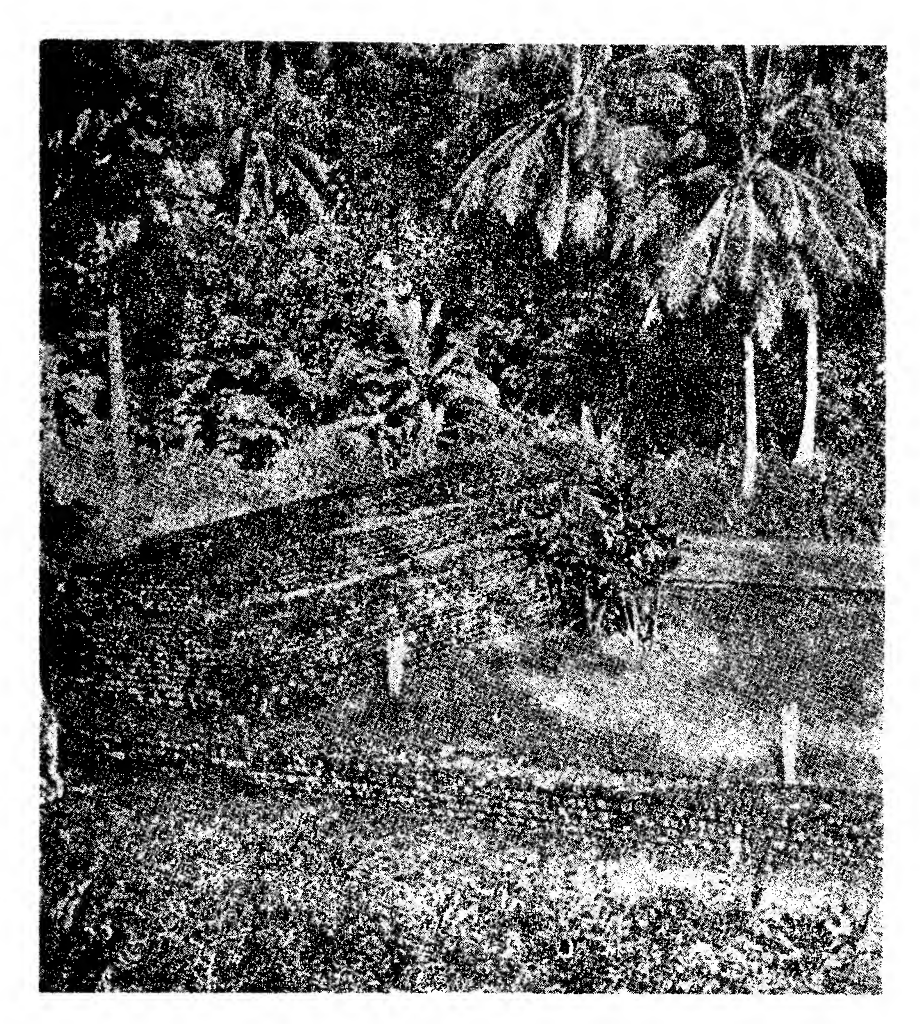
خدمة .. اشترى دليلنا سيارته الـ « بيجو » منذ ثلاث سنين بثلاثة آلاف دولار ويمكنه أن يبيعها بخمسة آلاف .

في « رأس ڤينوس » زرنا نصباً تذكارياً لمكتشفي تاهيتي : « والّيس وبوجنقيل وكوك » . ثم مررنا بقرى الفلاحين التاهيتيين فإذا بها فقيرة : بيوت بدائية من الخيزران والنخيل وجوز الهند ، الانارة بالغاز ، الأزقة غير معبدة .. يعيشون على الشواطىء ولا يصعد أحد الى الجبال إلا لصيد الخنزير البري والماعز الجبلي . يتعاطون الزراعة وخصوصاً « الفانيليا » فتاهيتي هي الاولى في العالم بانتاجها . يصعد نبات الفانيليا على عصا كالفاصوليا ويشذب كالعريش فينبت في موسمه القادم . يربطون جذوع أشجار جوز الهند بصفائح من ألومنيوم كيلا يتسلقها الجرذ ويقرضها .

بين صخور سوداء ملساء يسمع « ثقب المغني » زئيره . تتدافع الأمواج الى فغرة وتنحشر فيها ثم تخرج منها بضغط شديد فتعلو وتتساقط كالمطر وتدوي كأغنية منبعثة من قلب الارض . كان هذا المكان ملتقى السحرة والعشاق .

تاهيتي كلها حديقة ومع ذلك أقاموا فيها على بعد ٥٥ كلم من (بابيت) حديقة نبات واسعة ولا بدّ لكل سائح ان (يتمشى) فيها ويشبع نظره من النباتات الاستوائية ذات الاوراق العريضة والجذوع المسحوبة والالوان الزاهية . وهنا ملكة النبات هي الـ (تياري — TIARE) زهرة تاهيتي ويقيمون لها عيداً قومياً فلم تكن تنبت إلا في جزيرة تاهيتي !

بعد نظرة سريعة في متحف (جوجين — GAUGUIN) مررنا بشلالات وتوقفنا عند مغارة (باروا — PAROA) التي ذكرتني بمغارة (افقا) في لبنان، وينبع من جوفها نهر فيستحم فيها التاهيتيون . لمحت العين وهادا وأخاديد كما في هاواي . وأشار الدليل الى منزل (مارلون براندو) وأضاف ان هذا الممثل اشترى جزيرة على بعد ٣٥ كلم من الشاطىء .



معبد اراهوراهو

كان آخر موقف عند المعبد الوحيد الباقي من الديانة التاهيتية الوثنية في مكان يدعى « أراهوراهو » . لقد أزيلت كل المعابد الأصلية فجمعت حجارة من الجزيرة أُقيم بها هذا المعبد كنموذج ليشاهده السياح . خطوط عريضة من حصى مرصوف تشكل مستطيلاً في داخله أرضية المعبد وال «آهو – AHU» مقرّ الإله وبعض حجارة كانت مقاعـد للزعماء والمتقدمين . كان لكل قرية في تاهيتي زعيمها ومعبدها ولا يجوز للغريب تجـاوز تخومها . عندما يشغر « عرش الزعامة » يتقدم له كثيرون ويتبارزون فيفوز به المنتصر ويبايعونه في المعبد لأنـه يصبح الزعيم الديني والمدني . وإذا قامت حرب بين قبيلة وأخرى او قرية وأخرى فالمهزومون يُرحّلون عن الجزيرة ويصطحبون معهم كل ما كان في معبدهم ويكون مصيرهم الغرق او بلوغ هاواي او فيدجي بعد أشهر من الإبحار .

سهرة تاهيتية :

تناولنا العشاء في مطعم فنـدق « ماتاڤاي » تحت سقف من الاغصان . أكلنـا الـ « تامارا – TAMAARAA » وهو صنف من لحم الخنزير وثمرة شجرة الخبز ، ومآكل أخرى لم أعرف ما هي طبخت في فرن «أهيما – AHIMAA » تحت الارض . تناولتُ أقـل قدر ممكن لئلا « أعكـّر معدتي » وأعكـّر معها رحلتي حول العالم .

كان زي اعضاء فريق الموسيقى مئزراً فقط وعقود زهور وصدف وهم حفـاة . عزفوا بالقيثارة و « المندولين » والناي . موسيقاهم لا هي حزينة ولا هي مرحة بل ناعمة حالمة تشيع في النفس الهدوء وكأنها أصوات قادمة من بعيد . تُرى متى تخترع المطابع صفحات كتبٍ تُسمِع الموسيقى ؟

حين دخل ٦ راقصات و٦ راقصين بمئزر من أغصان جوز الهند أصبحت الموسيقى صاخبة بقرع الطبول إلا عندما يغنون . عرضوا وعرضن رقصات تاهيتية عديدة وهي تشبه كثيراً مـا رأيته في هاواي وحركات الأيدي فيها

أكثر من حركات الأرجل. قبيل ختام السهرة دعا كل راقص فتاة من الحضور ودعت كل راقصة فتىً ووقف الاربعة والعشرون في الحلبة وكان على المدعوين والمدعوات أن يقلّدوا الراقصين فكانت فترة من القهقهة والانطلاق وقـــد رأيت مثل هذا في سهرة الاسكيمو كما ذكرت .

بعض نبات تاهيتي :

حاول التاهيتيون في عزلتهم تطوير واستغلال كل نبات مفيد . سأخصّ كلمة بثلاثة أنواع منها .

شجرة الخبز :

اسمها التاهيتي « اورو – URU » واسمها العلمي اللاتيني « ARTOCARPUS ATILIS » وهي من فصيلة التوت والتين والجمّيز . تقول الاسطورة ان رجـلا رأى أولاده مهدّدين بالموت جوعاً فدفن ذاتــه حياً باسطاً ذراعيه الى السماء فحوّلته الآلهة الى شجرة الخبز ! ويقول التاريخ ان اصلها هندو – ماليزي . تنتج بعـــد ٧ سنين من زرعها من ٧٥ الى ١٥٠ ثمرة تشبه بطيخة صغيرة ولا نواة فيها . من داخلها تشبه البطاطس . كتب عنها القبطان كوك : « إذا زرع أحد التاهيتيين عشرة أشجار خبز في حياته يعتبر نفسه انه أتمّ رسالته نحو بنيه وأحفاده » !

شجرة جوز الهند :

هي أهم شيء لحياتهم يستعملونها لـــلأكل والمشروب والزيت وللعطور ولـلأدوية وللألياف وللحبال وللثياب وللبناء ولصنع أدوات منزلية . تنتج بعد زرعها بخمس او سبع سنوات وتعيش نحو مائة سنة إنمـــا بعد الستين يقل حملها .

البهار المخدّر :

هو نوع من البهار اسمه « آڤا – AVA » تمضغ شروشه او تُسحق بحجارة



مدفن الملكة ماراو



ثمرة شجرة الخبز



من رقصات تاهيتي

ثم تُعجَن وتُنقع وتُصفّى وتقــدّم شراباً كانت ترافقه في الماضي طقوس دينية . من الجرعات الاولى يفقد اللسان والحلق الإحساس ثم يشعر الشارب كأنه مخدّر .

الفن التاهيتي :

اهتم التاهيتيون بالسياسة والحرب والديانةوكفاح المعيشة اكثر مما بالفنون فكانوا أقل الشعوب البولينزية فناً. عند قدوم الاوروبيين لم يكونوا يعرفون استعمال المعدن ولا الكتابة. كانت أغانيهم جميلة مؤثرة ولكن لم يكن عندهم من الآلات الموسيقية سوى الطبل وناي القصب بثقوب او بــدون ثقوب . أعظم فن برعوا فيه هو الرقص .

صنعوا النسيج « تابا — TAPA » من قشور الشجر إذ كانوا ينقعونهـا ثم يمدّونهــا ويضربونها بالعصا لتتداخل الألياف المبلّلة . وصبغوها بألوان من ورق الشجر او ثمره او قشره او شرشه . عرفوا قليـلاً فن رسم النبات على الـ « تابا » ورسم السلحفاة لأغراض سحرية . وصنعوا الأدوات المنزليـة من خشب وريش وعظم وصدف وشعر .

في نحت الحجر او الخشب اهتموا فقط بالشكل العــام دون التفاصيل والاطراف فلا بأس إذا كانت الأجسام بدون أرجل وأيدي. وكان المنحوت يبقى بلونه الاصلي الواحد .

كان الوشم فناً ومهنة ويقوم بطبع رسم نبات او حيوان او بعض خطوط . يمكن أن يوشم كل جسم الرجل اما من جسم المرأة فاليد والساق والعقب . يُغطّس الواشم عظمة ذات ثلاث او خمس أسنان في سائل أزرق وينقلها على الرسم الذي يكون صوّره على الجلد فتترك لوناً وآثاراً لا تُمحى. للوشم وللشيء المقدس المحظور « تابو » اسم واحد في لغة التاهيتيين «تاهو — TAHU » فهل من علاقة بينهما ؟

الديانة التاهيتية :

عندما استوطن الاوروبي تاهيتي اعتنق كل التاهيتيين الديانـــة المسيحية وأزالوا معابدهم وأصنامهم واحتقروا تقاليدهم وعاداتهم فلم يتمكن الباحثون في الأديان من التوصل الى ما يشفي غليلهم .

كانت ديانتهم تدور حول المعبد « ماراثي – MARAE » حيث يدعون آلهتهم وأرواح الأجداد . كان التاهيتي يعتقد ان حياتــه وأملاكه ومحصوله ومصيره متعلقة بطاقاتٍ كونية مسيطرة وغـــير منظورة ويتحتم عليه استرضاؤها في المعبد الذي هو مقرّها .

البناء الوحيد الذي كان من حجر هو المعبد : فناء مكشوف مسوّر فـلا حيطان عاليـــة ولا سقف . وفي الفناء حجارة موضوعة بعضها فوق بعض بشكل مائدة : هذا هو الـ « آهو – AHU » مقرّ الإله .

المعبد الدولي :

كان أعظم معبد للشعوب البولينزية في جزيرة « رایاتا » يأتيه كهّانهم من كل الباسيفيك ويعقدون فيه مؤتمرات ومجامع دوماً سرية فكل مـــا يتعلق بالألوهية هو محظور على العامة « تابو » .

المعابد الخاصة :

احتار « كوك » في الجواب عندما سأله زعيم تاهيتي عـن معبده فلفظ كوك اسم كنيسة رعيته في انجلترا واعادته بعده مئات الخناجر .. لا بـدّ لكل زعيم من معبد وكان المعبد هو علامة الشأن الرفيع لِمَن يملكه ولِمَن له فيه مقعد حجر . كان لكل عشيرة معبدها يحمل اسم جدّها الأكبر. تنصب فيه حجارة مكرّسة للآلهة ولأرواح الأجداد ويُسجّى عليها جثمان الميت قبل دفنـــه . بقرب المعبد حفرة مقدسة يلقون فيها أدوات العبادة المستهلكة والأظافر والشعور المقصوصة وحبل صرة الوليد فكل هذه تصبح خطرة إذا

مـا وقعت في يد غريب يستعملها لسحر يجلب الويـل على العشيرة . يرأس الصلاة عميد الاسرة . يستدعى الكاهن في حـالات الولادة والختان والزواج والدفن ويقدم ذبيحة تكون خنزيراً او دجاجة ، وتكفي سمكة إذا كان المولود انثى .

كان للطبيب معبده يصلي فيـه أمام حجر سحري لكي تشفى العاهات الكمينة في المريض . وكان للمقسّم معبده ليُبعد ضرراً عن الفرد او الجماعة . وكان للساحر معبده في خـلوة حيث يحفظ تماثيل شياطينه . وكانت معابد لجمعيات الصيادين والبنّائين وصانعي الاسلحة وغيرهم لكي تضع الآلهة بركتها وقوتها في كل ما يعملون .

المعابد العامة :

كانت للزعماء وكانت تقـام على الذرى بعيداً عن المساكن وتقدم عليها ذبائح بشرية رآهـا القبطان « كوك » . قبل أن يقـام المعبد يُبعد النساء والاطفال والعجّز ومعهم الكلاب والخنازير والدجاج حـتى لا يسمع صوت حيّ . ترصف الحجارة الملساء التي جمعت من الانهار او من البحر بحيث تكوّن تخم حرم المعبد . في ليـلة البدر تقرع الطبول ويرش الكهّان المـاءَ المبارك ويُقتل رجل يعيّنه الملك او الزعيم وتدفن جثته في حفرة ويوضع عليها الحجر الاول . ثم تقـام مباني ملحقة منها : بيت الإله الاعظم « اورو » ويكون مقرّ هذا الإله عصاة تنصب على جثة آدمية وفي بيته ثياب الكهّان والحزام المقدس « مارو — MARO » وهو من ريش اصفر وأحمر يعتبر كالعلم ويخفى عن الاعداء لا سيما إذا انتصروا ، وتماثيل آلهـــة صغار ، وطبول الطقوس المقدسة ، وتمثال إله المعبد وعصى رؤوسها كالعصافير رسل الآلهة الى البشر . ثم خيمة تظلل مركب الآلهـة والكهّان . في يوم التدشين يعود الذين نزحوا وتزرع حول المعبـــد عصي برؤوس آدمية او حيوانية ويزين المكان بالريش والقماش والزهور . يجري تطواف حول حرم المعبد ثم يدخل الزعيم فنـــاء

المعبد ويصعد على الـ « آهو » معلنا ان الـ « مارائي » هو ملكه . منذ تلك اللحظة لا يجوز للنساء دخوله ، ويجب على كل رجل يقربه ان يـلزم الصمت وأن يحني رأسه، والخنزير او الـكلب [1] او الدجاجة التي تدخل الحرم تصبح ملكاً للزعيم . وتختم حفلة التدشين بوليمة ورقص وألعاب .

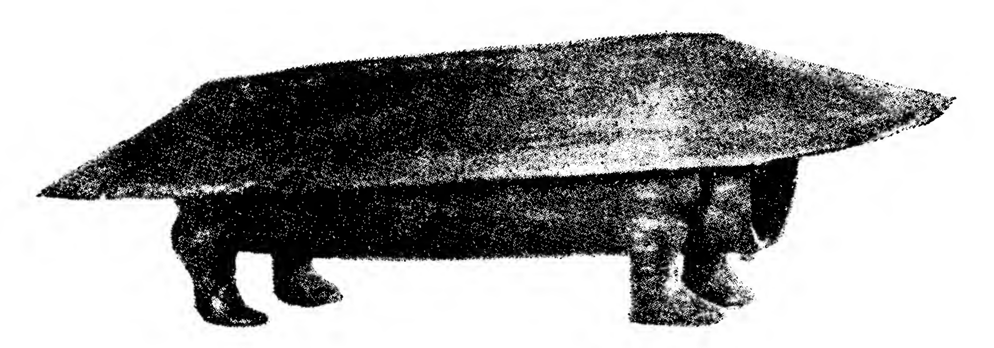
كانوا يقيمون حفلات دينية في المناسبات الهامـــة مثل تتويج او قرار حرب او تزوج او حلول كارثة وفي مطلع المواسم ولبدء صيد السمك ولتقديم بواكير الجني . قبــل الحفلة يُعرّى تمثال إله « المارائي » ثم يُعرَض على الـ « آهو » . وبعد الحفلة يلبسونه ثيابــاً جديدة ويعيدونه الى صندوقه . تدوم حفلة اعلان الحرب ثلاثة ايام. في اليوم الاول « توقظ » الآلهة ويعرض الحزام – العلم على الـ «آهو» وتقدم ذبيحة بشرية تعطى عيناها للزعيم وتعلق الجثة في شجرة . في اليوم الثاني يقـدم للإله خنزير تستطلع احشاؤه لمعرفة الغيب . في اليوم الثالث ترفع أدعية للنصر وتوضع تماثيل الآلهـة في مركب يحيط بها الكهّان ويشجعون المحاربين بالخطب وبالنفخ فيقصب او في أصداف كبيرة. إذا اسفرت الحرب عن صلح يُطهّر المعبد من تدنيس قد يكون لحقه من الاعـداء وتوضع دُمى في مركب ليهيم ويغرق إذ تحمل تلك الدمى آثام الشعب التي كانت سبب عـدم انتصاره . وإذا اسفرت الحرب عـن انتصار فيهدم الظافرون معابـد المنهزمين ويأخذون آلهتهم ويحملون غنائم الى معبد الزعيم المنتصر وتقـام صلاة الشكر وتقـدم ذبائح بشرية من الأسرى تعرض حولها جثث وجماجم الاعداء . لهذا السبب عثر الاوروبيون على عظام بشرية كثيرة بجوار المعابد وكان التاهيتيون يهابون لمسها لئلا تنزل بهم لعنة الآلهة .

الـ « تيكي » :

تمتلىء أرصفة « بابيت » ومتاجرها بال « تيكي » ولا بدّ لكل سائح من

---

(١) كانوا يربون الكلاب ليأكلوها :



صندوق لأدوات المعبد



فندق افاي الذي نزلت فيه

أن يحمله معه تذكاراً من تاهيتي . التيكي هو تمثال بشري صغير جـداً ُيصنع غالباً من خشب ونادراً من حجر وُيلبّس احياناً قماشاً. فنياً ودينياً هو اكمل اثر وصل الينا من تاهيتي القديمة ولو انـه لم يتطور كثيراً لأن صانعه كان ملتزماً بقواعد تقليدية تناقلها عن السلف .

رأسه منخفض ومتصل بكتفين عريضين كأنه بدون عنق . وجهه مثلث ينتهي بذقن دقيقة . عيناه مقفلتان . انفه وفمه غير واضحين . جسمه ربع. ذراعاه ملتصقتان بالجسم ويداه – إذا وجدتاه – تستريحان على بطنه. ساقاه إذا وجدتا قصيرتان جداً كأنه راكع . يرى الناظر اليه انـه كائن ناقص . وعندما كان يرمز احياناً الى الإلهات وإلى الخصب كانت تغلب فيه علامات الانثى على علامات الذكر .

كان في الاصل رمزاً للآلهة وللأجداد المؤلهين . إنمـا في زمن اكتشاف تاهيتي – فياواخر القرن الثامن عشر – كان لمزاولة اعمال سحرية ولاستطلاع الغيب فكان للساحر مجموعة من الـ تيكي يعزو اليها نشاطاً خفياً. وفيالتطواف حول المعابد كان السحرة يسيرون في المؤخرة رافعين التيكي . وإلى الآن إذا عثر التاهيتي على تيكي من زمن الأجداد يخاف منه .

كانت توضع تماثيل الـ « تيكي » حول المعابد لتبعد عنها الأرواح المعادية، وعلى التخوم لتحديد الملكية ولمنع الضرر ، وحول بعض أماكن للدلالة على أنها محرّمة مؤقتاً او دوماً فـلا يجوز الصيد فيها ولا قطف ثمارها وزهورها وإلا فالـ « تيكي » يهدّد بالانتقام .

سر جاذبية تاهيتي :

ألا تسأل نفسك احياناً عن السر الذي يجعلك تحب هـذا الشيء او ذاك المكان او ذلك الشخص او تلك الأغنية او القصيدة ؟ من الأسماء ما يجذب ويسحر لأنـه محاط بهالات من الذكريات ومن احـلام التقدير او الدعاية او

الجمال او الحب او التوهم او الغموض .. ومن لا ينجذب لاسم تاهيتي عروس الباسيفيك الجنوبي !

تُرى كيف كنتَ تتخيلها قبل مطالعة هـذا الفصل ؟ أمـا أنا فكنتُ أتصورها جبلاً أخضر زاهراً ، طافياً على سطح بحر أزرق ، وفتى تاهيتي بني اللون يرتدي الاغصان ويعزف على الناي تحت شجرة جوز الهندو التاهيتية فارعة سمراء ذات شعر مسترسل مزين بزهرة « اركيديا » تجذف قارباً في ضوء البدر .. آدم وحواء كل زمان في فردوس احـلام مفقود ومنشود .. وهذه الصورة ليست من خيالي بل من نشرات الدعاية عن تاهيتي .

تاهيتي جذابة لأنها كالحلم توهم الإنسان انه يعيش في عالم آخر وتعيده الى حضن طبيعة طليقة فطرية وتنسيه مآسي ومخاوف وهموم عــالم الإنسان وإنسان هذا العالم .

ينـام في بيت من القش والأغصان تغفو حوله العصافير الآمنة . يصحو قبل الشمس او بعدها فلا موعد عمل شاق ينتظره ولا «جرس منبّه» يصرعه.

يستحم اثني عشر شهراً في البحر او في بركة العوم . لا يلسعه برد ولا يذبله حر فالحرارة معتدلة ٣٦٥ يوماً .

يلبس أقل ما يمكن فلا يؤسر ربطة عنق ولا يجرح قدميه بحـذاء ضيق ولا يرزح تحت ثياب ثقيلة فتاهيتي لا تعرف البروتوكول .

يرافقه دومـــاً شعور مصطافٍ على الشاطىء فهو منتعش مسترخٍ صافي الذهن .

يسير الهوينا فلا يجلده سوط الساعة و « لا يدق قلبه » ولا يعرق لأنــه ربمــا سيصل متأخراً . لا يصطدم بمارة مسرعين ولا توقفه أنوار حمراء ولا يقرأ « ممنوع الدخول او ممنوع الوقوف » .

تطرب أذنه للأمواج ولأغاني الهواء في الشجر ولا يصمها زئير الطائرات و « تزمير » السيارات ولا يمزّقها نداء الباعة وصوت المذياع .

حيثما يتنقل يستمتع بالشجر والزهر والبحر دون أن يحرم من اختراعات المدنية الحديثة .

لا يتحرك في جو معكر موبوء ملوّث بل في جو معطر سليم مشرق .

لا يعود من السهرة بجسم متعب وأعصاب مشدودة ورأس مترنح بـــل يعود ناعساً متهادي الخطى بعد سهرة في العراء حيث شاهد رقصاً لطيفاً هادئاً وسمع انغاماً عاطفية دافئة تعلمها التاهيتيون من ألغاز القمر واسرار البحار .

لا يهتم بالقيل والقال فلا يراقبه احد ولا يغتابه احد وربما لا يعرفه احد . لا يقتل وقته « بالقيام بواجبات اجتماعية » ولا يستأسر لزائرين ثقلاء .

يشعر انه حرّ في طبيعة جميلة حرّة لذلك يحب تاهيتي .

•

٤٢

اليابان

نبذة جغرافية عن اليابان

اليوم المفقود :

اقلعت من « هونولولو » طائرة « بان اميركان » الملقبة بـ «نجمة الصبح» وطيرانها هو رقم ١ حول العالم بين المضيفات يابانية بيضاء جداً بالكيمونو وهاوائية سمراء جدا . اعلنت المذيعة ان الرحلة الى طوكيو ستستغرق سبع ساعات ونصف بدون توقف نقطع فيها ٦١٩٠ كلم .

حلقت « نجمة الصبح » دقائق معدودة فوق « هونولولو » مودعة « جزر الفردوس » ثم طارت فوق المحيط الهادىء والجو صاف وصفحة اليم هادئة كأنها مرج اخضر ازرق ترعى فيه قطعان غيوم صغيرة متناثرة . عبرنا «خط التاريخ الدولي » وهو خط الطول الجغرافي ١٨٠ حيث يلتقي آخر الغرب بأول الشرق . كانت الساعة من هنا ٢ بعد ظهر الخميس ومن هناك ٢ بعد ظهر الجمعة .

المضيفة اليابانية تتقدم الى المسافر وتضم راحتيها وتحني رأسها وتسأل : هل تريد الشاي عادياً أم أخضر على الطريقة اليابانية ؟ طلبت الأخضر فأتت

به في غلاف اغرقته في فنجان ماء ساخن بدون سكر . عند المذاق الاول لا طعم له .

قضيت الرحلة الطويلة أطالع في دليل اليابان وفي النشرات السياحية التي زوّدني بها « مكتب السياحة الياباني » في نيويورك . وأود ان انقـل منها الكثير لقرائي فربما هم مثلي بشوقٍ الى معرفة وفيرة عن اليابان .

اسماء واساطير :

تبلغ مساحة اليابان ٣٦٨٥٨٩ كلم مربعاً ٨٥٪ منها جبال . عدد سكانها ثمانية وثمانون مليوناً فهي من أكثر بلدان العـالم كثافة بشرية لا سيما وان اليابانيين متجمعون في جزيرة « كيوشو » .

عُرفت عبر التـاريخ بأربعين اسمـاً منها : نيپون — نيهون — ياماتو — اوياشيما — شيكيشيما الخ ... أمـــا اسمها الرسمي الذي أطلقه عليها المجلس التشريعي سنة ١٩٤٥ فهو «نيپون» ومعناه الشمس المشرقة أو مطلع النهار . علمها بقعة حمراء (الشمس) في وسط رقعـــة بيضاء ترمز الى نقاء وسناء الأمة اليابانية .

حسب الاساطير اليابانية وقف الامير « ايزاناجي » مع زوجته الاميرة « ايزانامي » على « جسر السماء » (قوس قزح) وطعنا البحر بحربة . عند انتزاعها تحدّرت منها ثماني نقط عملاقة تجـمّدت واصبحت «اوياشيما» ومعناها ثمان جزر كبيرة أسست فيها « اماتيراسو » بـلاد اليونان . اماتيراسو هي المعبودة العظمى في ديانة اليابان « الشنتو » وهي إلهة الشمس واباطرة اليابان هم من سلالتها فلذا كانوا يعتبرون من اصل إلهي ويلقبون بأبناء الشمس .

يُحكى ان شقيق « اماتيراسو » قتـل تنيناً ذا ثمانية رؤوس ووجد في ذيلهسيفاً اهداه الى اماتيراسو وهذه سلـّمته لإبنها نينيجي وتوارثه الاباطرة. لم يكن يُعتَرف بالامبراطور إلا إذا صـــارت في حوزته مقوّمات العرش الثلاث : السيف والمرآة وعقـــد الجواهر . أمـا المرآة فموجودة في معبد

« ايزي » [١] وأما عقد الجواهر ففي القصر الامبراطوري في طوكيو ومعه نسخة من المرآة ونسخة من السيف .

البلاد الترانزستور :

اليابان هي بلاد الجمال الصغير «المنمنم» فيدعوها شعبها «اليابان الجنينة» . الاشجار المصغّرة «بونساي» حول بيوتها . البحر يتغلغل في شواطىء جزرها ـ التي تتجاوز ثلاثة آلاف جزيرة صغيرة ـ مكوّناً خلجاناً ضيقة وادعة . انهارها قصيرة المجرى وفيها فقط ثلاثة انهر يزيد طولها عن ٣٠٠ كلم. مئات البحيرات المنبسطة بين جبالها الشجراء تحتويها العين بنظرة واحدة واربع منها فقط تزيد مساحتها عن ١٢٥ كلم مربعاً . الاشغال الفنية من نحت ورسم وخط هي من طراز « المنمنات ـ MINIATURES » : حتى قامات سكانها قصيرة ولو أنها زادت قليلاً بعد الحرب لأسباب عديدة أهمها الرياضة . بعد هذا لا عجب إذا ما كانت اليابان بلاد « الترانزستور » :

احصاء السكان :

في الماضي ساد الاعتقاد بأن الأولاد هم « كنز العائلة » فأكثروا من الانجاب وكان لا بد من التكاثر للدفاع فالصين وروسيا جارتا اليابان وعدوّتاها كثيرتا العدد ، يوم كان يهدّد العدد البشري لا تقدم التكنولوجيا .

السنة	عدد السكان
١٩٢٥	٥٩,١٧٩,٢٠٠
١٩٤٠	٧٢,٥٣٩,٧٢٩
١٩٤٥	٧١,٩٩٨,١٠٤
١٩٥٥	٨٩,٢٧٥,٥٢٩
١٩٦٠	٩٣,٤١٨,٥٠١
١٩٦٦	٩٨,٠٠٠,٠٠٠

(١) انظر صفحة ٣٨٩ .

اقتصادياتها :

تعدّ اليابان رابع دولة صناعية بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والمانيا الغربية . تقدمت جداً في معظم الصناعات لا سيما في بناء السفن (هي الاولى في العالم) وفي الحديد والصلب (الثانية في العالم) وفي الكهرباء والالكترونات والكيماويات والقطارات والنسيج والمطاط والنايلون وأجهزة الراديو والتلفزيون والتصوير والعدسات وادوات النقل (٣٢٪ من صادراتها) ودخلت ميدان الذرّة للأغراض السلمية . تنقصها المواد الخام فتستوردها ثم تصدّرها مصنّعة . تشتري ٩٢٪ من بترولها و ٨٢٪ من الحديد و ٢٠٪ من الاغذية . كما تشتري القطن والمطاط والنيكل والقصدير والفوسفات . برعت في صناعة البلاستيك فانخفض استعمال الخشب والجلد والصوف والقطن . سنة ١٩٦٤ كانت نسبة زيادة الانتاج الصناعي في اوروبا ٦٪ وفي اليابان ١٥٪ .

بعد الحرب العالمية الثانية طرحت اليابان عنها أفكار السيطرة العسكرية واتجهت الى الاقتصاد وانتشر في العالم خبراؤها وتجارها وسماسرتها ورؤوس اموالها فنجحت نجاحاً مدهشاً ، هي المنبعثة من هزيمة مروّعة ومن دمار شامل . وهدّد الـ « ينّ » الدولار ثم تفوق عليه .

من دستورها :

في ٣ مايو ١٩٤٧ أعلن الدستور الديمقراطي وهو يتضمن مقدمة و ١٠٣ مواد . مجلس النواب مؤلف من ٤٦٧ عضواً لمدة اربع سنوات . مجلس المستشارين (الشيوخ) مؤلف من ٢٥٠ عضواً لمدة ست سنوات إنما كل ثلاث سنوات يغير نصف الاعضاء. ينتخب اعضاء المجلسين رئيس الوزراء ويكتفي الامبراطور بالتصديق. يحكم مجلس القضاء الاعلى في دستورية القوانين والقرارات ورئيسه يعيّنه رئيس الوزراء . اعضاء الإدارة المحلية في المحافظات الاثنتين والاربعين وفي المدن والقرى يختارون بالانتخاب .

حين زرتها كان الوضع السياسي للأحزاب كما يلي: الحزب الحاكم هو حزب الديمقراطيين الاحرار والمعارض هو الحزب الاشتراكي . ويوجد حزب صغير ديمقراطي اشتراكي . واخيراً الحزب الشيوعي كأنه معدوم الوجود .

أمة ليس فيها أميّة :

التعليم إلزامي ومجاني مدة تسع سنوات من الصف الثاني عشر الى الصف الثالث وهو مختلط في كل مراحله . منهجه هو ٦ سنين ابتدائي و ٣ سنين إعدادي أو تكميلي (الى هنا إلزامي) و ٣ سنين ثانوي . ثم المعاهد العليا والجامعات وعددها معاً نحو ٢٥٠ عدا كليات صغرى مدتها سنتان وعددها نحو ٣٠٠ . اليابان لا تعرف الأمية فمئة بالمئة فيها متعلمون وتتمتع بأعلى مستوى في آسيا . البطالة نادرة جداً . متوسط سن الزواج للرجل بين ٢٧ و ٣٠ وللمرأة بين ٢٣ و ٢٥ عكس باقي البلدان الاسيوية حيث الزواج مبكر.

٤٣

نبذة تاريخية عن اليابان

ما قبل التاريخ :

في اوائـل العصر الحجري قدمت الى اليابان قبائل مغولية عبرت الصين وكوريا وقدم بولينيزيون عن طريق اندونيسيا والفيلبين . وقبل مقدمهم كان في جزيرة « هوكايدو » شعب بدائي اعتصم بعضه في الجبـال وامتزج بعضه بالغزاة وتعلم منهم الأبجدية الصينية والديانة البوذية والزراعة بعد ان كان يعيش من الصيد ومن جنى الارض .

يقسم المؤرخون تاريخ اليابان الى حقب .

« حقبة ياماتو » :

تشمل كلّ ما قبل سنة ٥٥٢ب.م. ياماتو هو الاقليم الذي توجد فيه « كيوطو ». تتبع اليابان التقويم الميلادي وتقويمها الخاص الذي يبدأ سنة ٦٦٠ ق.م. حين اعتلى العرش الامبراطور الأول « جيمو » مؤسس السلالة التي لا تزال تملك في اليابان الى الآن . الامبراطور الحـالي « هيروهيتو » هو سليله الـ ١٢٤ . عرفت اليابان اسميّاً ١٢ امرأة امبراطورة وفعلياً عشر فقط لأن اثنتين منهن

توجتـــا مرتين فدعيتا باسمين مختلفين مثـــلا كوجيوكو رقم ٣٥ هي نفس الامبراطورة سايماي رقم ٣٧ .

استطال ظل اساطير ما قبل التاريخ على الحقب التاريخية أيضاً . فيروى عن أصل « جيمو » ان الامير « هواكاري » حفيد « اماتيراسو » كان صياد برّ وأخاه «هوسوسيري» صياد بحر . تبادلا عملهما ذات يوم وأضاع هواكاري سنارة شقيقه فغطس الى أعماق البحر بحثاً عنها ووجد نفسه في بلاد التنانين وأحب تنينة عثرت على السنارة في فم سمكة وعادت معه الى اليابان وانجبت له والد الامبراطور « جيمو » .

كما يروى عن جيمّو انه حارب زعيماً اقطاعياً إسمه « ناجازونيهيكو » فهزم . فقال في نفسه : اني ابن الإلهة الشمس ُهزمت لأني حاربت ووجهي متجه اليها . حارب والشمس من ورائه فانتصر .

تحكي الاساطير أيضاً ان الامبراطورة « جنغو » (في اواخر القرن الثاني بعد المسيح) غزت « كوريا » وهي حامل . وحان موعد الولادة فصلّت لكي ُتؤجّل ولادة طفلها الى حين عودتها وكان لها ما طلبت فولدت الامبراطور « اوجين » في اليابان بعد حمل دام اربعة عشر شهراً. بعد مئات السنين ألّهه البوذيون ودعوه « هاشيا » إله الحرب .

سنة ٢٩ ق.م. منع الامبراطور الحادي عشر « سوينين » حرق الخدم مع حرق جثمان سيدهم وبدّل ذلك بحرق ُدمى (وهذا ما يفعله المتظاهرون في أيامنا إذ ُيحرقون ُدمى المغضوب عليهم ...)

تزوج الامير « كارا » شقيقته فعاقبه والده الامبراطور «انجيو» بحرمانه من العرش فانتحرت زوجته شقيقته. وحدث احياناً ان تزوج الأشقاء وانصاف الاشقاء كما كان يجري في الأسر الفرعونية بمصر .

سنة ٤٠٥ قدم الى اليابان علمـــاء حملوا معهم الأبجدية الصينية ومن ذلك الوقت امكن التثبت من صحة التواريخ .

حقبة اشوكا (٦٥٢ – ٦٤٥ ب٠م٠) :

دخلت البوذية اليابان على عهد اشوكا مع بعض الرهبان الصينيين. اعتنقها اشوكا وأصدر إعلاناً اخلاقياً من ٢٤ بنداً. وكذلك ابنه «شوتوكو» – المعتبر من الذين تجسد فيهم بوذا – اصدر سنة ٦٠٤ اعلاناً من ١٧ بنداً لرجال الحاشية والعسكريين لنشر روح العدالة والسلام والأخوّة في البلاد ويُنشر هذان الاعلانان كملحق لتعاليم بوذا . سنة ٦٠٣ انشأ « شوكوتو » الرتب الفخرية في البلاط وهي: الشجاعة والانسانية والوقار والأمانة والعدل والمحبة. وشيّد معابد بوذية كثيرة أهمها أقدم معبد في اليـــابان حتى الآن من سنة ٦٠٧ في « نارا » [1] . واوفد الاباطرةُ الى الصين بعض أعيان البلاد .

حقبة نارا (٦٤٥ – ٧٩٤ ب٠م٠) :

سنة ٧٠١ أصدر الامبراطور « مومو » قانون « تايهو » قسّم به البـلاد الى حكومة مركزية وحكومات محليـة . وسنة ٧١٠ انشأت الامبراطورة « جيمو » أول عاصمـــة ثابتة هي « نارا » ازدهرت فيها البوذية والتقاليد والفنون الصينية مثل صناعة الخزف والتطريز والرسم والعملة النحاسية .

في تلك الفترة كتبت اولى الكتب اليابانية : سنة ٧١٢ « كوجيكي » وهي مجموعة تقاليد وأســـاطير يابانية وسنة ٧١٣ « فودوكي » عن جغرافية اليابان وثقافتها و « نيهونجي » عن حوادث تاريخية منذ عهـد الإمبراطورة « جيتو » التي حكمت في اواخر القرن السابع . في اواخر القرن الثامن ظهر كتاب « مانيوشو » وهو مجموعة من ٤٥٠٠ قصيدة أُلـّفت خلال ١٣٠ سنة في القرنين السابع والثامن .

حقبة هاين (٧٩٤ – ١١٨٥ ب٠م٠) :

حاول راهبـان بوذيان في « نارا » خلع الإمبراطور ليستوليا على العرش

---

(١) انظر فصل ٤٨ .

لكنهما فشلا . وبسبب سيطرة الرهبان هناك نُقلت العاصمة الى « كيوطو » سنة ٧٩٤ وفُصل بين الدين والسياسة . نمت البوذية في هذا العهد وتفرعت منها شيع عديدة لا سيما بعد عودة رهبان من الصين . وتقدم الأدب والشعر وألـّفت الشاعرة « موراساكي شيكيبو » كتاب « احاديث جنجي » المعتبر من اجمل ما ألـّفته المرأة اليابانية . واخترع نوعان من الحروف والشكلات اليابانية اسمها « هيراجانا » و «كاتاكانا» أضيفا الى الحروف الصينية فأصبحت لليابان لغتها المستقلة . نشأت في هـذه الحقبة طبقة المحاربين الشهيرين باسم « ساموراي » .

كان الاباطرة يتركون الحكم لعائلات مسيطرة وحدث ان عائلة«فوجيوارا» الحاكمة افقرت الشعب بالضرائب الفادحة وعمّ السطو وفُقد الأمن فتألـّب الفلاحون في الاقاليم واقاموا عليهم زعمـاء من كبار ملاكي الأراضي دُعوا « ساموراي » مهمتهم ان يكونوا دوماً متأهبين لردّ غزوات المغـامرين واللصوص . دالت دولة الحكم الارستقراطي الى الحكم الاقطاعي وانحجبت أسرة « فوجيوارا » إذ طردها ساموراي « تايرا » من كيوطو .

حقبة كاماكورا (١١٨٥ – ١٣٣٦ ب.م.) :

عند سقوط « تايرا » في كيوطو نقلت العاصمـة الى « كاماكورا » [١] وبدأ حكم جديد اشتهر في تاريخ اليابان باسم حكم الـ «شوجون» وهو كرئيس الوزراء أو الحاكم الفعلي في البلاد. طلب أول شوجون – وإسمه يوريتومو – ان يعيش رجال الحكم ببساطة وتقشف حتى تميزت بهـذا فئة الساموراي . ولا عجب إذا ما اعتنق بعدئذ غالب الساموراي الـ « زان – ZEN » اقسى نوع من البوذية .

---

(١) راجع صفحة ٤٥٧ .

أصبح تاريخ اليابان يعرف سلالتين : سلالة الأباطرة وسلالة الشوجون . كان ابطال الساموراي يؤيدون هذا الشوجون او ذاك ويحدثون انقلابات ومن ورائهم ٢٦٠ عشيرة تدين بالولاء لزعمائها فأصبحت سلطة الامبراطور اسمية .

حقبة نمبوكو (١٣٣٦ – ١٣٩٢ ب.م.) :

لفظ نمبوكو يعني الشمال والجنوب إذ اصبح لليابان عرشان في يوشينو وفي كيوطو . ثم توحّد العرش من جديد بتنازل امبراطور يوشينو لإمبراطور كيوطو .

حقبة ميروماشي (١٣٩٢ – ١٥٧٣ ب.م.) :

ازدهرت فيها هندسة القصور والمعابد البوذية . ونشأ المسرح المعروف باسم « نوه » [١] . كما ازدهرت تقاليد يابانية خاصة مثل حفلة شرب الشاي وتنسيق الزهور والجنينة اليابانية . وتقدمت الزراعة واتسعت التجارة الخارجية خصوصاً مع الصين . في سنة ١٤٦٧ نشبت ثورة الفلاحين ودامت إحدى عشرة سنة وهدمت كيوطو وانفسح المجال للمنازعات بين عائلات الساموراي بحيث يفرض الغالب على الإمبراطور ان يعينه «شوجون» . سنة ١٥٤٣ وصل بعض البحارة البرتغاليين الى اليابان ومعهم أسلحة نارية أعجب بها الساموراي وأخذوا ينتجون مثلها في اوساكا . سنة ١٥٤٩ وصل المبشّر القديس فرنسوا كزافيه ودخل معه الدين المسيحي الى « كاجوشيما » جنوبي اليابان .

حقبة ازوشي – موموياما (١٥٧٣ – ١٦١٥ ب. م.) :

في بدء هذه الحقبة شجّع الشوجون « نوبوناجا » الديانة المسيحية وأوفد الى الفاتيكان ثلاثة أحداث. استتب السلام في البلاد إذ أجبر الجميع على تسليم الاسلحة الى الحكومة. من بعده حظر الشوجون «هيديوشي» الدين المسيحي.

---

(١) راجع صفحة ٤٣٠ .

حقبة ايدو – (١٦١٥ – ١٨٦٨ ب. م.) :

ايـدو هي طوكيو القديمة . جعلها الشوجون مركز الحكم وألزم الاسياد الاقطاعيين أن يُسكنوا عائلاتهم فيها أما هم فعليهم أن يسكنوا في « ايدو » سنة كاملة من كل سنتين . بدأت التجارة مع بحارة هولنديين في « ناجازاكي » ومخرت السفن اليابانية بحار الشرق الاقصى . رفع الشوجون « ياسو » الحظر عن المسيحية وبلغ عدد المسيحيين في الربـع الاول من القرن السابع عشر نحو سبعمائة الف. لكن المنافسة بين البروتسطنت الهولنديين والكاثوليك الاسبانيين والبرتغاليين ثم ثورة الفلاحين الكاثوليك سنة ١٦٣٧ جعلت الشوجون يحظر المسيحية تماماً ويُقفل الموانىء اليابانية في وجه الأجانب . وسنة ١٦٣٨ أُعلن هذا القرار : « منذ الآن فصاعداً وما دامت الشمس تنير العالم لا يجوز لأي اجنبي ان يطأ أرض اليابان حتى بصفة سفير . ومن يخالف هـذا الأمر موتاً يموت » .

تبلورت في اليابان أربـع طبقات اجتماعية هي الساموراي فالفلاحون فالحرفيون فالتجار وعاشت البلاد في عزلة تامة .

المعاهدة الاولى مع اميركا :

سنة ١٨٥٣ أبرمت أول معاهدة بين اليابان وأميركا عن يـد الاميرال « بيري – PERRY » تبعتها معاهدات مع بريطانيا وروسيا وهولندا . ان ان قدوم بيري حدث هام وطريف يستحق التوقف عنده قليلاً .

كان الاجنبي الذي يدخل اليابان يواجه حكم الاعدام . وإذا غرقت سفينة ونجا ركاب منها على الشاطىء الياباني يُرسلون أسرى الى ميناء « ناجازاكي » على متن سفينة هولندية لهـا حق الدخول الى « ناجازاكي » مرة واحدة في السنة ومصير هؤلاء الناجين القتل او السجن او الترحيل . أما بحارة السفينة الهولندية فعندما يطأون أرض اليابان يركعون ويضمون الأيـدي ساجدين للحاكم ويقدّمون هدايا الى الأعيان .

سنة ١٨٥٢ َقدِمَ « بيري » ومعـه هدايا الى « الميكادو » (ولي العهد) منها قطار مصغّر وجهاز تلغراف ومجهر . كان «بيري» عبقرياً عرف تقاليد اليابان وأهمها الالقاب الفخرية وانعزال العظماء وترفعهم عن العامة . دخـل خليج « ايـدو » فرمى اليابانيون حبالاً على سفينته وعلى باقي سفنه ليصعدوا اليها فردّهم على أعقابهم . طلب اليابانيون التحدث مع القائد فقيل لهم ان القائد هو سيد السر الرهيب ولا يتحدث إلا مـع مَن هو من مستواه ، مع اشرف اشراف اليابان . فقالوا ان أعظم ياباني في ايـدو الآن هو نائب الشوجون فصعد هـذا الى سفينة « بيري » ومعه المترجم فقيل لهما ان مع القائـد سنية شخصية لولي العهد . في اليوم التالي صعد الشوجون نفسه فسمع الجواب ذاتـه ولكنه أصر على اتباع القانون وهو تسليم الرسالة والهدية الى تجارة هولنديين في « ناجازاكي » فرفض « بيري » وأراه صندوقاً مقفلاً ثميناً جداً . يوم الاحد أراد بعض الاعيان الصعود الى السفينة فقيل لهم ان هـذا يوم الرب ولا تجوز فيه مخاطبة غيره فانحنوا بأدب جمّ ونزلوا ثم عادوا يوم الاثنين وعلى رأسهم الأمير ولي العهد . وقف معـه على الشاطىء خمسة آلاف جندي ببزات مزركشة ونزل الاميركيون الى الشاطىء فاندهش اليابانيون من قاماتهم الفارعة ومن اسلحتهم ومن أنغـام الموسيقى المرافقة لمسيرهم . واستلم ولي العهد الهدية .

انقضت ستة أشهر على هذا الحادث فعاد « بيري » مرة ثانية الى «ايدو» وسمع ان الكهّان والرهبان قالوا ان الله أمات الشوجون لأنه سمح للأميركيين الأجانب المتوحشين بأن يدنسوا أرض اليابان الطاهرة . وحاول اليابانيون بشتى الوسائل إبعاده للبقاء في عزلتهم لكنه هـدّد وأصر على عقد معاهدة وقـدّم لهم نسخة من معاهدة اميركية صينية ليستوحوا منها . سألوا عن الهدايا فقدّمها لهم ومنها أدوات فلاحة وبذور خضراوات وفواكه ومدافع ومسدسات وكتب وساعات وعطور َفبُهِـر بهـا اليابانيون وكتبوا بعض

المعلومات على قشر التوت . وقدّم الشوجون هدايا من حرير وقيشاني وعلب وصواني وكلاب وأرز وسمك مجفف .. طالت المفاوضات الى ان توصلوا الى الاتفاق على مساعدة المناجين على شواطىء اليابان وعلى إنشاء قنصليات اميركية في بعض الموانىء . وُقّعت تلك المعاهدة الشهيرة في ٣١ آذار ١٨٥٤ وذُكر فيها بدء عهد صداقة بين اميركا واليابان. أراد « بيري » أن ينزل في «ايدو» ليتجول واقترب بسفينته الى الشاطىء وهمّ بالنزول فاستلّ الاعيان خناجرهم واستعدوا للانتحار على طريقة « الهاراكيري » بفتح البطن فتأثر من سلوكهم وعدل عن عزمه لكنه اخرج اليابان من عزلتها .

حقبة طوكيو – (١٨٦٨ – ٠٠٠) :

عهد ميجي :

حكم الامبراطور « ميجي » البلاد من ١٨٦٨ الى ١٩١٢ . نقل العاصمة من كيوطو الى طوكيو. في ١٤ آذار ١٨٦٨ أعلن ميثاقاً جديداً وقوانين الاصلاح « الميجي » .. أرسى خمسة مبادىء كأساس للدستور وهي :

١ – سياسة الدولة تستنير بالرأي العام وبالاجتماعات الكثيرة (نوع من القيادة الجماعية) .

٢ – تعاون المجلسين في شؤون الدولة .

٣ – انسجام بين السياسيين والعسكريين وعمل مشترك لانتشار الاخلاق العالية في الشعب .

٤ – إلغاء العادات الغريبة المستهجنة .

٥ – انتشار العلم والحكمة واحترام القانون الامبراطوري في كل البلاد .

في عهده انفتحت اليابان على العالم وقفزت خطوات جبارة في الحضارة المعاصرة والصناعة والتجارة وكسبت حرباً ضد الصين (١٨٩٤ – ١٨٩٥) وحرباً ضد روسيا (١٩٠٤ – ١٩٠٥) وزال حكم الشوجون وتوحّدت السلطة مع التاج وأُلغيت الطبقات الاجتماعية وعمّ التعليم .

في ١٢ ايلول ١٨٧٢ افتتح الخط الحديدي الاول بين طوكيو ويوكوهاما، وإذ وصل الى يوكوهاما نزل رجال الحكومة ومشوا حفاة لأنهم كانوا قد خلعوا القباقيب الخشبية على رصيف محطة طوكيو كما يفعلون في بيوتهم .

تعتبر اليابان ان «ميجي» هو أعظم امبراطور في تاريخها فهو الذي جعلها بلاداً عصرية متحضرة مع الاحتفاظ بالطابع التقليدي وبتراث الأجداد دينياً واجتماعياً وثقافياً . دام حداد البلاد عليه سنة كاملة .

من ١٩١٢ الى ١٩٢٦ عهد الامبراطور « تايشو » بن ميجي . في الحرب العالمية الاولى حاربت اليابان مع الحلفاء وبعد الحرب كانت إحدى الدول الكبرى الخمس في العالم .

عهد الامبراطور هيروهيتو :

سنة ١٩٢٦ بدأ عهد الامبراطور « هيروهيتو » . دخلت اليابان الحرب مع محور برلين وروما وهُزمت . في ١٥ آب ١٩٤٥ تكلم الامبراطور الإله من الراديو معلناً الاستسلام «واحتمال ما لا يُحتمل» وكان وزير الحربية انتحر في اليوم السابق بعد ان قال : « لتصمد بلاد الآلهة » . وفي أول كانون الثاني ١٩٤٦ تنازل هيروهيتو عن ألوهيته قائلاً بالمذياع : « ان الروابط بيني وبين شعبي مؤسسة على الثقة والمحبة لا على أساطير ولا على الاعتقاد الزائف بأن الامبراطور هو إله وبأن الشعب الياباني هو أرقى الشعوب ومدعو ليسيطر على العالم » ! فقدت اليابان كل ممتلكاتها خارج حدودها. غرقت تسعة أعشار سفنها . تهدمت مدنها ودُمّر من « طوكيو » ٦٠ ٪ . تعطلت كل تجارتها الخارجية . لكنها بعد سنين معدودات انتفضت من رمادها وأصبحت دولة صناعية وتجارية وسياحية عظيمة . « تأمرك » الشعب الياباني وتحرر من ربقة التقاليد ومن اغلال الماضي واندفعت البلاد الى الامام متخلية عن مطامعها التوسعية والحربية مكرسة جهودها للازدهار الداخلي ولعلاقات طيبة مع العالم . ولمع رجالها الاذكياء في الاقتصاد والاختراعات ولم يقلوا مغامرة

ونجاحاً عن كبـــار المنتجين الاميركيين وساهمت الحكومة إذ كانت تنشىء مشاريـع ثم تبيعها للأفراد . وخلعت المرأة اليابانية الكيمونو لترتـدي الزي الغربي المتحرر وفتحت العش العائلي الى المدرسة والعمل . وحـلّ الاسمنت والحديد والالومنيوم بدل الخشب لبناء البيوت ، وأحذية الجلد بدل الصنادل وقباقيب الخشب . وغزت حضارة الغرب عقول الشباب الياباني فانـــدفع وراءها نهماً حتى كاد يتجاهل حضارته السابقة المنعزلة . واتجه سكان القرى والريف الى المدن فخلقوا أزمات السكن والعمل واهمال الارض .

•

٤٤

طوكيو

فسيفساء :

بعد نزولي في مطار « هانيدا » شعرت بارتياح وفضول واستغراب . أما الارتياح فلأنني في بلاد الشمس المشرقة التي طالما حلمت بزيارتها ولأن دليلا سيرافقني طوال رحلتي فيها فلن أكون ضائعاً منفرداً « كأطرش أخرس » . وأما الفضول فلأنني أودّ أن أعرف أقصى ما تتسنى لي معرفته عن هذه البلاد اللغز الجذاب فسأفتح عيني وذهني وقلبي للاستيعاب منجديدها وقديمها. وأما الاستغراب فلأنني فعلاً غريب قادم من اقصى غرب آسيا المطل على البحر المتوسط والمتطلع الى الغرب الأوروبي ولأن الغرائب بدأت تستقبلني: تقديم ساعتي ١٩ ساعة . الكتابة التيأراها رسوم ورموز لا حروف وتنحدر في خطوط عمودية . الياباني حنطي اللون قصير القامة مفلطح الوجه أفطس الأنف غائر العينين صغيرها . اليابانية قصيرة القامة بيضاء ضائعة العينين اللوزيتين في وجه منتفخ . يخرج من المطار قطار ذو خط حديدي واحد — أليس هذا أيضاً غريباً ؟ — يسير على جسر فوق البحر ثم على طريق أعلى من سطوح المنازل .

عند سلم الطائرة سمعت منادياً : «مستر رعد ؟» فإذا به مندوب مكتب السفر الياباني الذي قدّم لي ذاته : « آبي ـ ABE» فهنّأت نفسي لسهولة اسمه الطويل جداً أصلاً والمصغّر من أجلي ... « أهلاً بك في اليـــابان » هكذا استقبلني كشّاف الجمرك ختم جواز سفري بختم «رسومات الكلمات اليابانية» فأضيفت بذلك غرابة الى جواز سفري الذي يطوف العـالم . سائق السيارة واقف باحترام عند بابها المفتوح يقول لكل راكب : « انتبه لرأسك ! » . في أميركا كان السائق يقول : « انتبه لقدمك » لئلا تزلّ وتقع . وهنا في اليابان : « انتبه لرأسك » لأن كل شيء صغير ضيّق حتى ابواب السيارات . الأميركيون طوال القامة كيفما تحركوا قد يصطدم رأسهم .. وانتبه لرأسك لأن طوكيو تسبب لك الصداع والدوار ...

حاذينا القطار ذا الخط الحديدي المفرد وبدأ دليلي يشرح لي : افتتح في أيلول ١٩٦٤ بمناسبة دورة الالعاب الأولمبية في طوكيو . كلـّف ٥٤ مليون دولاراً . طوله ١٣ كم يقطعها في ١٥ دقيقة. كل سبع دقائق يقوم قطار يتسع لـ ٤٨٠ راكباً . ثم سرنا على «هايواي» طريق سريع عال على الطراز الاميركي قائم على اعمدة ومشرف على ضواحي العاصمة .

بانت لي طوكيو صاخبة ترتفع المداخن في سمائها، وشوارعها ضيقة مزدحمة. السير فيها الى الشمال والسائقون كأنهم طيّارون ربما يبذّون سائقي لبنان .. والكثير من الناس «بالقفطان» و «القبقاب» أمام الابواب. ولوحات الإعلانات وأسماء المحلات رأسية بألوان يغلب عليهـا الاصفر . وضباب رطب شفاف يلفّ المدينة ويُشيع في الجسم الشعور بضيق التنفس .

كلماتي اليابانية الأولى :

بعد ٢٥ دقيقة كنت في فندق «جنزا» الواقع في حي جنزا بقلب طوكيو. غرفتي كل ما فيها صغير كأنها « كابينة » في باخرة وزاد في شعوري بصغرها أنني قادم من فندق رحب في هونولولو . قدمت للخادم ١٠٠ ينّ فضم يديه

وانحنى وابتسم وقال : عذراً ! عذراً ! فشرح لي مستر « آبي» أن لا بقشيش في اليابان في أي مكان ولأي عمل . وهـذا ايضاً أمر غريب أتساءل هل له مثيل في العالم ... ضممت يديّ مثـله وحنيت رأسي وابتسمت وقلت : « اليجاتو » أي شكراً . هذه إحدى كلمات خمس علمني إياها « مستر آبي » في طريقي من المطار . دوزو : من فضلك. اوهايو : صباح الخير. كومبانيا : مساء الخير . موشي موشي : هالو هالو (على التليفون) . وكنت أعرف كلمة سايونارا أي الى اللقاء من الفيلم المشهور .

جلس الدليل معي ساعة يشرح لي برنامج جولتي في اليابان . بدا لي انه صارم رزين واليابانيون هم رسميون في العمل والمعاملة وبالوقت نفسه مؤدبون لطفاء . ومن الأدب أن لا يرفع الياباني نظره الى محدّثه وأن لا يظهر عاطفة وشعوراً وأن يبقى وجهه لوحاً بارداً .

شوارع دون أسماء وأرقام :

قبيل الغروب سألت عن عنوان أحد محلات « كوداك » لتظهير أفلام ملونة فقال لي موظف الاستقبال : هنا الشوارع الصغيرة لا تحمل أسماء والمحلات والبنايات بدون أرقام . يا المصيبة فكيف اهتدي ؟ رسم لي خريطة الشوارع التي يجب أن أمرّ بها « وادوخ » لأصل الى « كوداك » فاسترشدت بها نصف ساعة الى أن عثرت على مطلبي . في عودتي الى الفنـدق رأيت « أكشاك » فاكهة فاشتريت اجاصة واحدة ودراقتين وعنقود عنب وخمس خوخات فإذا بثمنها باهظ جداً: ٦٢٠ ينّ أي نحو دولارين ! كل شيء تقريباً غال هنا عكس ما كنت أسمع عن اليابان: تنظيف البدلة بالبخار ٢/١ ٢ دولار. قص الشعر ٢/١ ١ دولار . وفي كافتيريا الفندق ثمن البيضة الواحدة ٦٠ سنتاً وزجاجة الكوكاكولا ١٩ سنتاً . أعطيت البائع ورقة الألف ينّ فأمسك بلوحة عليهـا كور صغيرة خشبية مصفـّفة – كاللعبة التي تعلـّق في سرير الأطفال – أخذ يحسب عليها ثم ردّ لي الباقي ... تعلمت ألا أُحاول التحدث

بالإنجليزية مع العامة والبائعين فلا يعرفون منها إلا كلمة واحدة : نعم . وكل جواب في اليابان هو نعم لأن الأدب يمنع التلفظ بكلمة لا ! فإذا سألت يابانياً: انت لا تعرف هذا ؟ او لا تأتي الساعة الخامسة ؟ يجيبك : نعم . أي : نعم لا أعرف ولا آتي وأيضاً نعم أعرف وآتي ... وإذا ما قال لك الياباني العادي انه فهم منك فافهم انه لم يفهم شيئاً ... غرابة اخرى: يحمل الصغار لوحة عليها اسمهم وعنوانهم والبرج الذي وُلدوا فيه حتى إذا تاهوا في طوكيو – ومن لا يتوه فيها ! – يسهل إحضارهم الى منازلهم . أما لماذا برج تاريخ ميلادهم (القوس او الحوت او الدلو مثلاً) وليس عمرهم فيجيبك الذكاء الياباني أن عمر الولد يكبر باستمرار – وإذن يتغير – أما برج ولادته فلا يتغير ![1] في وسائل النقل يعطى المقعد للولد قبل المتقدم في السن .

حي جنزا :

حي «جنزا» هو «برودواي» طوكيو وليلا تتوهج فيه الأنوار والإعلانات. وفيه دور السينما والملاهي والمطاعم وهو صورة مصغرة لطوكيو بازدحامها وتراكم كل شيء فيها بعضه فوق بعض لكن العين لا تتعب من هذه الفوضى الجذابة . لا تخلو الارصفة من الحواة وقراء الكف وقد انضم إليهم ماسحو الاحذية بعد الحرب فقبل الحرب كانت احذيتهم من خشب وقش . وعموماً يغلب منظر الفقر على الغنى في طوكيو . لفت نظري « الشقبان » على ظهور النساء فتذكرت « النـَوَر » .

لقائي الأول مع البوذية :

قبل أن أنام وجدت في الدرج كتاب تعاليم بوذا . في أميركا يضعون الكتاب المقدس وهنا يضعون معه تعاليم بوذا . ومما قرأت فيه هذه الليلة أن هنالك سبعة مبادىء لنجاح أمة منهـا : « على الشعب أن يحترم العادات

(١) أسماء الأبراج اليابانية هي : الفأر . الثور . النمر . الأرنب . التنين . الأفعى . الحصان . الخروف . القرد . الديك . الكلب . الخنزير .

العريقة ولا يبدّلها وأن يحافظ على الشعائر الطقسية وآداب المعـاملة . وأن يكون دوماً في جهة العدالة » . وحسب تقاليد اليابانيين على كل إنسان أن يحافظ خارجياً على اربعة مبادىء مستوحاة من التعاليم السابقة وهي :

١ – الجلد ورباطة الجأش في مواجهة المصاعب والمشاكل .

٢ – القيام بالواجب دون التأثر بالعاطفة .

٣ – الاستقامة والأمانة نحو اليابان والإمبراطور والرئيس المباشر .

٤ – الأدب في معاملة الغير باحترام ووداعة وتواضع .

أشهد لهم أنهم كذلك فعلاً ! .

بدأت الجولة السياحية في طوكيو بأن قدمت المرشدة نفسها باسم طويل اختصرته لنا بـ « طوشي» . وكل واحد منا ذكر اسمه وبلاده وكان غالبنا أميركيين . تأهلت بنا واعتذرت عن رطنتها اليابانية وقالت : « اننا نحب اللغة الإنجليزية لأنها تفتح بلادنا على العالم ونحب الاميركيين الذين علمونا إياها وفي حياتنا نحن الآن نقتدي بهم كثيراً » .

طوكيو يابان مصغرة :

طوكيو معناها العاصمة الشرقية . بنيت أربع مرات : بعد زلزال ١٦٥٧ وزلزال ١٩٢٣ وبعد دمار حرب ١٩٤٥[1] . تبلغ مساحتها ٢٠٥٠ كم مربعاً بدون جمال ولا نظام ولا تخطيط وتضمّ ٢٣ حيّاً . تلتقي فيها جميع عائلات اليابان تقريباً و ٦٠٪ من سكانها شباب قدموا للعمل وللحياة في العاصمة . هي أكبر مدينة في العالم تعد ١١ مليون نسمة . تحمـل إليها وسائل النقل يومياً ثلاثة ملايين راكب ويزيد سكانها بمعدل ثلاثمائة ألف سنوياً . من جراء ذلك مرافق المواصلات والسكن والمياه وكل الخدمات العامة غير كافية والأسعار فيتصاعد مستمر. الإجرام منتشر رغم ان عدد افراد البوليس فيها أكثر منه في لندن ونيويورك معاً يسير فيها يومياً نحو مليون ونصف مليون محرّك .

(١) في الحرب مات ٤ ملايين من سكانها وتهدّم ٦٠٪ من مبانيها .

من يريد أن يشتري سيارة عليه أن يخطر مأمور قسم البوليس اين سيضعها فيعاين شرطيّ مكانها ويأذن بعدئذ بشرائها . فيها ٢١٥ حديقة معظمها صغيرة و ٥٧٢٤ جسراً . يوجد الآن مشروع جبار بأن تمتد كالأخطبوط حتى « اوساكا » المدينة الثانية في اليابان فتتصل الابنية على طول خط القطار الممتدّ بينهما ٥٠٦ كم .

جلس بقربي في الاوتوبيس السياحي هندي واخذ يكتب عنواناً على ظرف واحتل العنوان سبعة أسطر . عند رؤيته قالت لنا الدليـــلة انهم في اليابان يكتبون العناوين بطريقة معكوسة :

اليابان ـ حي جنزا ـ أوتيل جنزا ـ وأخيرا السيد فلان ... ويذكر اسم العائلة قبل اسم الفرد .

اللغة اليابانية :

أعطتنا المرشدة فكرة عن اللغة اليابانية . خلال قرون الإقطاع (١١٩٢ ـ ١٨٦٨) كان في لليابان نحو ٢٦٠ عشيرة لكل منها لهجتها ولغتها الشعبية . ألغاها « ميجي » ووحّد اللغة . رغم ذلك اللغة المحكية هي غـير اللغة المكتوبة الرسمية (مثل العربي) . حروف اللغة اليابانية أو بالاحرى مقاطعها ٢٥ ألفا تستعمــل منها المطابع ٨ آلاف ويعرف منها القارىء العادي ٦ آلاف وُبسطت للصغار فيتعلمون منها ١٨٥٠ في الصفوف الابتدائية ... بعد هـذا لا عجب اذا ما كان كثيرون من الاولاد اليابانيين يستعملون النظارات ! ليس فيها اداة تعريف وحروف جرّ وما شابهها . الضمائر الشخصية لا تستعمل . قد يكون لحرف أو لمقطع واحد ١٤ لفظاً كلهاسليمة . وهي لغة الأدب والاحترام فإذا تكلم المرء عن نفسه مثلا قال « رأيت » ، واذا عنك قال « ألقيتَ نظرة كريمة » واذا عن زوجته «التي في البيت»وإذا عن زوجة غيره « الشريفة المصونة» ... ويقولون « سان ـ SAN » المخاطبة باحترام سواء للكبار وللصغار . وللخادم في المطعم : «سيدي الجرسون » !

برج طوكيو :

رُفع في ١٩٥٨ وهو أعلى برج في العالم يبلغ ارتفاعه ٣٣٣ متراً (١٣ متراً أعلى من برج «ايفل») . بانت طوكيو من البرج ممتدة جداً ومزدحمة وبيوتها صغيرة وشوارعها ضيقة وهي ملفوفة بغشاء من الرطوبة والدخان . عندما يكون الجو صافياً يمتد النظر من البرج الى بعد ٩٠ كم ولكنه يصطدم بالجبال الناتئة حول سهل « كانتو » الذي يحتضن العاصمة . ترسل منه إذاعات سبع شركات تلفزيون وعشرات أمواج الراديو ومنها إذاعة وزارة المواصلات والبوليس والأرصاد الجوية . البرج مطلي باللونين البرتقالي والابيض المستعملين في أميركا الملاحة الجوية ويمكن رؤيتهما حتى إذا كان الجو متلبداً . صمّمه المهندسون بحيث يصمد للزلازل وللرياح، فمثلاً حين عصف أعصار « أسوان ـ ISEWAN » وكانت سرعة الرياح ١٨٧ كم في الساعة ترنّحت ذروة البرج فقط ٨٢ سنتيمتراً بينما يتيح له تصميمه ان يهتز رأسه الى ثلاثة أمتار ونصف دون أن يتهدّم . مواد بنائه هي من الصلب والأسمنت . بينما استُخدِم لبرج ايفل سبعة آلاف طن صلب اكتُفي هنا بأربعة آلاف فلقد تقدمت الهندسة منذئذٍ . في كل ركن من اركانه الاربعة نُصبت ثمانية أعمدة تصل أقدامها الى مستوى سطح مياه خليج طوكيو .

تحت سطح أرضه خمسة أدوار فيها قاعة اذاعة راديو وقاعة المواصلات السلكية واللاسلكية ومعروضات انتاج احدى عشرة شركة يابانية كبيرة ـ منها « توشيبا » ـ تقدم نماذج لمحطة فضاء ولمركبة فضاء ولمرصد جوي . وفيها نموذج « لمدينة المستقبل » تُستخدم فيها نحو أربعة آلاف آلة كهربائية لحاجات المدينة المتطورة .

بعد البرج مررنا بجوار ابنية جامعة « كايو » التي هي أقدم جامعة خاصة في اليابان ثم بأحياء سكنية للطبقات الغنيّة . وتوقفنا في حديقة « هابوان » للاستمتاع بحفلة شرب الشاي على الطريقة اليابانية .

حفلة شرب الشاي : « شانويو – CHA - NO - YOU » :

دخلنا جنينة يابانية فيها أشجار مصغّرة « بونساي »[1] ومصابيح وبرك ماء وسبل مرصوفة بالحصى الأملس . البيت والأثاث من خشب . استقبلتنا مضيفة في خريف العمر تعاونها فتاتان في ربيعه . غسلنا الايـدي و«تمضمضنا» لندخل مطهّرين الى الحفلة. خلعنا أحذيتنا ووضعناها رأسها الى الخارج وكعبها الى الداخل : هكذا يتطلب الادب والحظ الحسن ! حنينا الرأس تحية لمضيفاتنا وخوفاً من الاصطدام بالعتبة العليا فالباب ضيّق ومنخفض . جلسنا على مقاعد خشبية وتحت أقدامنا حصير من القش وأخذنا نُبدي اعجابنا بأثاث البيت وبكل ما تقع عليه العين فهكذا يقتضي الأدب الياباني ! وزّعن علينا حلوى من الأرزّ والسكر والفاصوليا فحملناها حالاً إلى فمنا واذا بالمضيفة أشارت بالتريُّث للانتهاء من توزيع الحلوى على الجميع ثم أكلناها معاً بحركة جماعية « مؤدّبة » ...

خرجنا الى الحديقة في نزهة انفرادية صامتة دامت عشر دقائق . تأملنا بالطبيعة واستوحينا منها الهدوء وحب الجمال وكان « يشنّف » آذاننا جرس صغير جدّاً يلاعبه الهواء فتنبعث منه أنّات ناعمة خاشعة تُضفي على الحديقة والمنزل جوّ صلاة .

عند عودتنا الى البيت احضرت المضيفة أواني شرب الشاي : إناء ماء عادي وإناء ماء ساخن وجرناً وملعقة ووعاء الشاي . وضعت ثلاث ملاعق من الشاي الأخضر في إناء فارغ وحرّكته كأنها تسحقه ثم صبّت عليه ماء ساخناً وحرّكته من جديد . وزعت علينا الفناجين أو بالأحرى «الطاسات» بعد أن غسلتها أمامنا بفرشاة كفرشاة الحلاقة . ثم أدارت الفنجان في يديها وانحنت وقدمته لكل واحد منا فانحنينا وايدينا على رُكبنا . ثم صبت لنا

---

(١) أنظر صفحة ٤٤٤ .



مع فريق السياح أمام الصور والقصر



برج طوكيو



مطار هانيدا والقطار

الشاي ورفعنا الفنجان باليد اليمنى الى محاذاة الجبين ثم باليد اليسرى وأدرناه مرتين بالإبهام والسبّابة وأخيراً رشفنا جرعة من الشاي بشفطة عالية علامة استحسان لهذا الشاي « التافه » فلا هو مرّ ولا هو حلو وكأنّه لاطعم له..
عند الانتهاء من شفط الشاي رفعنا الفنجان من جديد الى الجبين وأدرناه مرتين ووضعناه على الأرض فأتت وانحنت وأخـــذته ونحن ننحني لها . ثم نظفت الفناجين ووزعتها ثانية لتناول شاي أخفّ ... وانتهت الحفلة بأن ركعت المضيفة على ساقيها وحنت رأسها واضـــعة يديها على ركبتيها ونحن حذونا حذوها ... كل هذا تمّ في جو صامت خاشع فحفلة شرب الشاي هي نوع من الصلاة وقد تعصّبت لها منذ القدم طائفة الـ « زان ـ ZEN » .

دخلت هذه العادة من الصين وأصبحت من أهم تقاليد اليابان . ويقال ان الرهبان البوذيين كانوا يكثرون من تناول الشاي ليتغلبوا على النعاس والتعب خلال تأملاتهم الطويلة . في البدء كانت حفلة شرب الشاي مقصورة على المجتمع الراقي ثم عمّت . قبل غزو الصخب الامريكي أثّرت في الطباع اليابانية لا سيما لدى النساء بقواعدها الاجتماعية الأربع : الانسجام والاحترام والنظافة والصفاء . وفعلاً يخرج المرء منها بنفس هادئة صافية .

بعد الانتهاء من شرب الشاي عرضت لنا المضيفة شيئاً عن فن لف وتقطيع الورق (فن الـ اوريجايم ORIGAIM) بحيث يُعطِي أشكالاً متنوعة ارتنا منها زهرة نرجس وعصفوراً . كما عرضت لنا فناً تقليدياً آخر يدعى «سوميه ـ SUMI - E » وهو اشبه بالكاريكاتير الراقي فمن بعض خطوط تخرج رسومات . بأربع دقائق رسمت لوحة غابة خيزران اشتراها اميركي بخمسمائة ينّ . يترك الرسم الياباني هوامش واسعة في اللوحة ليلعب فيها خيال المتفرج. كانت اليابانيات يتعلمن هذه الفنون وغيرها كتنسيق الزهور ليكنَّ زوجات صالحات .

مدينة الألعاب الأولمبية :

سنة ١٩٦٤ أقيمت دورة الألعاب الأولمبية في طوكيو . زرنا مدينة الألمبياد ، وقد ابدع المهندس « تانج » في إخراجها لاسيا الجمنازيوم وحوض السباحة المقفول المثلوّي الذي فاز فيه فريق أميركا بتسع وعشرين ميدالية ذهبية . وذكرت لنا المرشدة ان العَدّاء « كوروبباس – COROEBAS » فاز بسباق أول اولمبياد ذكرها التاريخ في ٢٢ تموز سنة ٧٧٦ ق . م .

قطعنا حديقة « ميجي » ذات المائة ألف شجرة التي قدمتها مختلف أقاليم اليابان . في هذه الغابة معبد لتكريم الامبراطور « ميجي » يقصده المواطنون والسياح ، ويؤمّه مئات الألوف يوم أول كانون الثاني .

مررنا بفندق « اوتاني » وهو أعلى بناية في طوكيو ثم بقصر مجلس النواب ومجلس الأعيان ودور الحكومة وكلها متجمعة في مكان واحد في حـــديقة « هيبيا » غير بعيدة عن القصر الامبراطوري . عندما تتلى رسالة من الامبراطور يكون النواب والأعيان وقوفاً والرأس منحنٍ . وحتى سنة١٩٤٥ كانت التقاليد تمنع التلفظ باسم الامبراطور فيذكر فقط أحد ألقابه .

الحيّ التجاري :

بدأت الجولة الثانية بزيارة فندق جنزا حيث كنت ساكناً . « جنزا » تعني الفضة و « كنزا » الذهب . من حي جنزا عبرنا الى حي « مورونوشي » القلب المالي والتجاري في طوكيو . زرنا فيه محلات « ميتسوكوشي » التي تبيع كل شيء . في داخلها درج كهربائي يُصعد الى الادوار السبعة وعنـد قدم ورأس كل درج تقف فتاة نحيفة خجولة ببذلة زرقاء وكفوف بيضاء لاتتطلع الى أحد وعملها هو مسح جلد الدرج حيث يكون الزائر وضع كفتّه وهو يصعد او ينزل . تحت البناية تمر شبكة الخطوط الخمسة لـ « مترو » طوكيو فيخرج الركاب من انفاق المترو الى « ميتسوكوشي » . يتردد عليها يومياً نحو مائة ألف « زبون » وسائح .

حكايات رجال الأعمال هنا تشبه مثيلاتها في أميركا . هم الذين يلمعون الآن فى اليابان أكثر من رجال السياسة والادب والجندية . يروى مثلاً عن رجال السياسة والأدب والجندية . يروى عـن « متسوشيتا » مؤسس شركة الصناعات الكهربائية « ناسيونال » انه في سن السابعة بدأ يشتغل صبياً في ميدان سباق الخيل . وفي سن السادسة عشر كان عاملاً في شركة توزيع كهرباء « اوساكا » . ثم فتح مخزناً لبيع المصابيح الكهربائية وأفلس وباع حتى كيمونو زوجته . انما كان عصامياً مكافحاً حتى انه في مطلع الحرب العالمية الثانية كان لديه عشرة آلاف عامل . وهو الآن يملك ٨٩ مصنعاً يعمل فيها ٤٩ ألف عامل . يبيع سنوياً بمليار دولار في العالم . يعيش الآن في كيوطو في « معهد السلام والسعادة عن طريق التقدم » وقد انشأه هو . بقي أن تعرف ان معنى « متسوشيتا » هو : « الذي عنده حظ تحت الصنوبر »...

القصر المحجوب :

في حي « شيودا » يقع القصر الامبراطوري . يمتد سوره الحجري الأسود ستة عشر كلم ومطوّقاً القصر وملحقاته وحديقة مساحتها ١٫٠١١٫٥٠٠ متراً مربعاً . حول السور خندق تمتد فوق مائه بين مسافة وأخرى جسور تفضي الى الداخل . يمكن لليابانيين ان يزوروا الحديقة مرتين في السنة . هذه الهالة السوداء لم تعد كما كانت قديماً سور الجنة المسحورة مقر الامبراطور ـ الإله .

الشارع الوحيد الفسيح في طوكيو يحاذي سور القصر وقد شقّ في أرض أخذت من الحديقة . تزيّن أحـد ميادينه نافورة رائعة قدّمها الشعب لولي العهد بمناسبة زواجه من احـدى بنات الشعب لأول مرة في تاريخ الأسرة المالكة . وفي هذا الميدان يقوم تمثـال البطل القومي « كيومارو واكي » . أوحى إليه الراهب البوذي « دوكيو » ان يستصدر وحياً من المعبـد يقول ان العرش هو لـ « دوكيو » . فقصد « واكي » المعبد وعاد منه وقال ان الآلهة تعلن ان لا يعتلي العرش الا عضو من الأسرة المالكة .

معبد سنسوجي :

هو أشهر معبد في طوكيو لإلهة الرحمة « كانون » . يحكى أن صيّادين عثرا على تمثال « كانون » في نهر « سوميدا » سنة ٦٢٨ ب . م . فوضعاه في هذا المعبد في حي « أساكوسا » . يزوره كل شهر نحو مليون شخص – حسب قول دليلنا البوذي اليوم – طالبين بركات إلهة الرحمة ذات الوجه الحنون العطوف . انها تخلّص المتعبد لها من الآلام والهموم وتمنحه نور الحكمة ليتوصل الى معرفة الحقيقة وتطهره من آثامه . وحسب « السوترا » التي هي نصوص البوذية اذا رفع إليها الإنسان صلاة صادقة فلا يمكن للنار ان تحرقه ولا للمياه ان تغرقه . واذا التجأ إليها المنازع تخلّصه من جهنم .

هذا المعبد – ككل معابد اليابان – من خشب ويتجدد مع مرور الزمن محتفظاً بهندسته التقليدية . انما القاعة الرئيسية هنا بُنيت سنة ١٩٥٨ من أسمنت . يُطِلُّ من الواجهة تمثال « نوجين » إله الريح و « راجين » إله الرعد . في وسط القاعة صندوق مذهّب فيه تمثال « كانون » وعن يمينه تمثالا إلهي العدل والقوة وعن يساره تمثالا إلهي الحب والصحة وفي السقف صورة « التنين » وبعض رسوم مجنّحة . في قاعة أخرى تمثال بوذا تحيط به تماثيل آلهة تحرسه وبجوارها معبد صغير دفن فيه الصيادان ومعلمهما .

في حرم المعبد قاعة لاستقبال الضيوف ومسكن رئيس الرهبان البوذيين وحديقة يابانية مسالكها دائرية وبيت لحفلة شرب الشاي . قامت حديثاً في ظل المعبد بعض مؤسسات اجتماعية : مستشفى ومدرسة حضانة لخمسمائة طفل ومكتبة ومركز للمطالعة وللمحاضرات ولإرشاد المتزوجين والمربّين . تجري في هذا المعبد حفلات تقليدية شعبية يُحييها اليابانيون مثل نثرحبوب الفاصوليا في ٣ شباط ، ورش الماء المبارك في ١٨ حزيران بغصن صفصاف ، ومهرجان المصابيح في ١٥ آب ، وعيد الاطفال في ١٥ تشرين الثاني ، ورقصة التنين الذهبي في ١٨ اذار و ١٨ تشرين الاول ...

معبد الانتحار :

في «سنكاكوجي» أو معبد الانتحار رفات «رونين» أي رجال الامواج . سنة ١٧٠٧ كان امير « آكاو » يتلقى دروساً في « الاتيكيت » استعداداً لمقابلة موفد من « الميكادو » . سمع كلمة قاسية من استاذه « كيوا » فجرحه بالسيف في وجهه وحدث هذا في القصر فحُكم عليه ان ينتحر بفتح بطنه بالسيف وُحكم على رجاله ان يتبددوا « كأمواج البحر » . لكن عميدهم جمع منهم ٤٦ واقتحموا مقر « كيوا » وقطعوا رأسه ووضعوه على قبر أمير « آكاو » فحكم عليهم بالانتحار الجماعي . هذا المعبد اقيم لتكريمهم. الانتحار أمر شائع في تاريخ اليابان و كثيراً ما يرافق موت شخص عظيم . في «نككو»[1] تكرم رفات خمسة أبطال انتحروا عندما توفي الشوجون«يامتسوتو كوجاوا». سنة ١٩١٢ عند وفاة الإمبراطور « ميجي » انتحر ومعه زوجته الجنرال « مرسوكي نوجي » قاهر روسيا في حرب ١٩٠٤/١٩٠٥ [2] . وأحياناً كان الخدم يدفنون مع سيدهم لخدمته في العالم الآخر وقد منع ذلك الإمبراطور « سوينين » كما رأينا وأمر ان يستعاض بدُمى من طين أو صلصال . وكان الانتحار كثيراً بين العشاق إذ كان خروج البنت محظوراً والحب ممنوعاً يزوجها اهلها بمن يقرّرون .

الجودو :

اخذنا الدليل لمشاهدة قاعة «كودوجان» وهي أكبر وأشهر قاعة للجودو في اليابان . لقد سررت جداً برؤية اللاعبين في موطنهم الأصلي من مختلف

---

(١) راجع فصل ٤٥ .

(٢) يروى ان « اوجين » الامبراطور رقم ١٥ كان يؤثر ابنه الثاني على البكر فوصى له بالعرش لكن الابن الثاني لم يعتل العرش بعد وفاة ابيه وتمنع البكر وبقيت اليابان ثلاث سنين بدون امبراطور فانتحر الابن الثاني . وفي اليابان ثلاث موميات من القرن الثاني عشر لثلاثة انتحروا من اسرة فوجيوارا: كيوهيرا (+١١٢٨) هيدهيرا(+١١٨٧) ياسوهيرا(+١١٨٩).

الأعمار والرتب. قال لنا الدليل ان الاسم الياباني للجودو هو «جيو - جيتسو» وهي طريقة قتال أجدادهم معروفة منذ قبل التقويم الميلادي. ولكن كرياضة منظمة وضعها «جيغوروكانو» سنة ١٨٨٢ في طوكيو . الجودو تلائم الضعيف ضد القوي والقصير ضد الطويل إذ يتلمس مواطن الضعف وينقضّ عليها . يحتاج الاشتباك فيها الى خفة ودقـــة وتعطي المتمرّن عليها الشجاعة والثقة بالنفس . وهي على نوعين : ١ - ٧ درجات القتال . ٨ - ١٠ درجات فخرية نادرة . أعلى درجـــة هي العاشرة وشارتها الحزام الأحمر فاز بهـــا الياباني « كيوزوميفوني » . رتبتا الحزام ١١ و ١٢ لم يتوصل اليهما أحد بعد . تقام دورة البطولة العالمية مرة كل ثلاث سنوات .

السومو :

الرياضة اليابانية الأولى ليست «الجودو» بل الـ«سومو» وهي المصارعة اليابانية الصرف وتقام لها مباريات عديدة في مختلف انحاء اليابان . يقف متصارعان ضخمان جـــداً وسط دائرة على منصّة ويحاول كل منهما ان يخرج الآخر من الدائرة أو يجعل أي جزء من جسمه - عـــدا القدمين طبعاً - يمسّ الأرض وبهذا ينتصر عليه. منظر لاعب السومو مخيف منفّر فكيف يقبل ان يكون سميناً مترهلاً « مستديراً » الى هذا الحد !

عشاء ياباني :

ينظم مكتب السياحة الياباني سهرات يابانية تكلّف كل سهرة ٥٤٠٠ ينّ. زرنا معه أماكن عديدة مشهورة في طوكيو. قبل الدخول الى مطعم «سوهيرو» خلعنا أحذيتنا ولم ننسَ ان نوجّه رأسها الى الخارج ... جلسنا على وسادات موضوعة على حصير أبيض حول طاولات مرتفعة عن الأرض ثلاثين سنتيمتراً. ذقت لأول مرة المشروب اليـــاباني الشعبي « ساكي » وهو مشروب كحولي (١٥٪ عادة) لا لون له يستخرج من الارزّ ويشرب دافئاً وصرفاً وطعمه كطعم « السبرتو » الابيض ! يشربه اليابانيون في كل المناسبات : بعد الصلاة

في المعابد وفي الحفلات والمهرجانات والاستقبالات وعند مولد طفل وفي حفلة الزواج « الشنتوية » . كما يتناولونه مع أي نوع من المآكل . ويوجد منه الخفيف والقوي .

أكلت أيضاً لأول مرة الصنف القومي « سوكياكي » . وُضِعت حلّة على النار أمامنا وحولها حصى أسود . بقربها قطع لحم نيّ تتناوله المضيفات بقضيبين ويضعنه في الحلة مع أشكال متعددة من الخضار ومع « المكرونة » اليابانية النحيفة جداً كأنها خيوط . استعملنا قضيبين وليس الملعقة والشوكة والسكينة وبدل الصحن «سلطانية» كسرت فيها بيضة نيئة . عندما استوى طبخ « السوكياكي » وضعت منه المضيفة في سلطانيتنا ومزجته مع البيضة النيئة وأخذنا نأكله بالقضيبين المسوكين بإبهام وسبّابة اليد اليمنى وقد تعلمنا هذه الطريقة بسهولة غير منتظرة. قد يكون القضيبان من خشب أو خيزران أو معدن أو عاج . الذي يشبع من «صبّة أو سكبة» واحدة يكون جاهلاً للاتيكيت الياباني فيحسن ان يأخذ مثنى وثلاث لكي تبتهج المضيفة أو ربّة البيت « والاكل على قدر المحبة » ... قال لنا الدليل انه من عاداتهم عندما يكونون مدعوين للعشاء ان يأخذوا شيئاً معهم الى بيوتهم دلالة على جودة الطهي ... لا يجوز ترك بقايا طعام في الصحن . ثم قُدّم لنا الشاي الأخضر فكان أقل تفاهة من شاي طائرة « بان اميركان » ربما لأنه هنا في جوّه الياباني ... بذور البطيخ صغيرة جداً جداً ككل شيء في اليابان . كان غالب الموجودين اميركيين وقد انشرحوا لهذا العشاء الياباني وحاولوا ان يتجاذبوا أطراف الحديث مع المضيفات الثماني ولكن عبثاً فلا واحدة منهنّ تعرف الانجليزية. يعرفن فقط الابتسامة الخجولة وقد اغرقن وجوههن ببودرة الرز البيضاء كالكلس بكمية كبيرة فبانت بشرتهن كالمرمر اللمّاع . حين قمنا عن العشاء أجرينا الانحناءات التقليدية ثم لبسنا احذيتنا وخرجنا .

المسرح الياباني :

توجد في طوكيو المسارح العصرية المسماة « شنجيكي » والمسرح التقليدي



أكل على الطريقة اليابانية



كاهن شنتوي



كاهنة شنتوية



شجيرات البونساي

وهو نوعـــان « كابوكي » و « نُوه » والمسرح المزيج من التقليدي والعصري واسمه « شمپا » وقد انتشر في عصر « ميجي » . اليابانيون هم عادة رسميون مسيطرون على ذواتهم حتى أمام الموت إنما في المسرح يُطلقون لانفعالاتهم العنان.

« مسرح كابوكي » :

في مطلع القرن السابع عشر جددت إحدى فتيات معابد « الشنتو » في فنّ الرقص بحيث يتذوّقه حتى الشعب البسيط . في القرن الثامن عشر أصبح الرجال وحدهم يمثلون « كابوكي » فيضطلعون حتى بأدوار النساء. في التمثيلية التي رأينـاها كانت الآلات الموسيقية المرافقـــة هي القيثارة المثلثة الاوتار « ساميسين » والرق والأجراس الناعمة . كان موضوع التمثيلية الآتي: وصل ممثل الى قمة الشهرة وأراد ان يقيم حفلة يبدّل فيها اسمه متخذاً اسم ممثـــل قديم شهير كما هي العادة . لكن تكاليف الحفلة باهظة . كان يحب « جِيشا » صغيرة ومن قبلها « جيشا » أكبر منها سنّاً . أشـارت الكبيرة على الصغيرة ان تقترض مالاً من صديق لها وتسلـّفه للممثل ففعلت . ولكن اصبح عليها ان تردّ الجميل بأن تتزوج الشاب الغني وإذ رفضته هجم عليها بخنجر ولكن هو الذي قُتـــل به . وبينما يقيم الممثل حفلته تنتحر الجيشا الصغيرة بغرس خنجر في صدرها ... من أشهر مسرحيات الـ « كابوكي » قصــة سوجاوارا ميشيزان (٨٤٥ — ٩٠٣) الذي كان رجل دولة ممتاز وشى به« توكيهيرا » فأبعد وتوعد ان ينتقم وهو يجود بروحه . وفعلاً توفي بعده بقليل توكيهيرا في ظروف غامضة وعمّ القحط فأمر الإمبراطور بتكريم روحــــه في معبد كيوطو وصار « كامي » [1] بإسم « تنجين — TENJIN » .

« مسرح نوه » :

بينما كان الـ « كابوكي » تمثيلاً شعبياً كان الـ «نوه» تمثيلاً ارستقراطياً صعباً.

---

(١) راجع فصل ٥٢ .

وفعلاً لم افهم موضوع التمثيلية . الغناء والرقص قديمـــان والممثلون يخفون وجوههم بالأقنعة وحركاتهم بطيئة . المسرح صغير كأنه رواق بين الحضور . الديكور رسم شجرة صنوبر تذكـّر ان الـ «نوه» كان يمثـّل في الهواء الطلق . كانت الآلات الناي ورقاً صغيراً .

مسرح العرائس :

يحب اليابانيون كثيراً مسرح العرائس « بوناراكو » وهو مجموعة من فنون ثلاثة : تحريك الدمى والالقاء مع الغناء والعزف . يلبس الممثلون ثياباً سوداء ويحصرون همهم في تحريك العرائس ويقف المغنون وعــازفو « الساميسين » عن يمينهم . القصة التي شاهدتهــا تحكي ان الساموراي « كجيكو » أحب الحسناء الجيشا « آكويا » لكن قبيلتها كانت قد هزمت قبيلته في حرب . استدعاها الحاكم ليعرف منها أين يوجد « كجيكو » فأنكرت انهــا تعرف مكانه . حـكم عليها ان تعزف على ثلاث آلات هي « الكوتو والساميسين والكوكيو » قائلاً في نفسه إذا كانت مضطربة أو خائفـــة فهي كاذبة ولن تُجيد العزف . لكنها عزفت بهدوء ومهارة فأخلى سبيلها . بهـــذه المناسبة اذكر أن الدمية أو العروسة هي رمز الصبر والهـــدوء في اليابان . أشهرها هي الـ « داروما » بدون يدين ورجلين تمثل راهباً هندياً جلس تسع سنوات في التأمل .

مسرح قروي :

الملهى الليلي الياباني الصرف الذي زرناه كان أشبه ببيت قروي في جبل لبنان حيث تقام سهرة العرس بجوها الريفي وصبغتها البريئة الجذابة . جلسنا القرفصاء على الحصر وعلى بعد خطوات منا مسرح بدائي مكشوف عليه رجل وست نساء . قدمن لنا رقصات فولكلورية رقيقة لطيفة لكنها بطيئة جداً . تبدو الواحـــدة منهنّ كالدمية بلون أبيض لامع وشعر فاحم غزير . غالب «تلال» الشعر التي على رؤوس اليابانيات في الصور هو شعر مستعار ويفرطنَ

في تزيينه . رأيت فيما بعد ان هذه الرقصات تشبه الى حد بعيد الرقصات التي تقوم بها فتيات معابد الشنتو .

في مسرح عصري جديدعلى انغام الاركسترا قدّم نحو ثمانين راقصاً وراقصة استعراضات جمعت بين اللونين الغربي والشرقي وكانت أجملها رقصة «مصارعة الثيران» .

الديانة الكاثوليكية في اليابان :

بدأت يوم الاحد بحضور القداس في الكاتدرائية الكاثوليكية اللاتينية . هندستها غريبة كأنها جناحا نسرٍ جبّار .

في طوكيو توجد جامعة كاثوليكية « الحكمة » بإدارة الآباء اليسوعيين . الديانة الكاثوليكية محترمة لدى علية القوم والمثقفين ولكن اتباعها قليلون : ٣٣٣,١٦٩ فقط . الى سنة ١٨٧٦ كانت في اليابان أبرشية واحـــدة لأن « الشوجونات » كانوا قد « نفوا » المسيحية من البلاد وقُتل نحو مائتي الف مسيحي . أما الآن فيوجد في اليابان ١٦ أبرشية كل مطارنتها مع الكردينال هم يابانيون و ٥٥٦ رعيـة يخدمها ١٩٠٠ كاهن منهم ٦٠٣ يابانيون و ١٢٧٠ اجانب . و ٤٤٣ راهباً منهم ٢٤٧ يابانيون و ١٩٦ أجانب. و ٥٦٤٤ راهبة منهن ٤٥٢٨ يابانيات و ١١٦ اجنبيات .

وللكنيسة الكاثوليكية يد طولى في الحقل الاجتماعي : ١١ جامعة و ٢٥ معهداً عالياً و ١١٢ مدرسة عالية ومتوسطة و ٥٥ مدرسة ابتدائية و ٣٤ مدرسة متخصصة و ٣٥٦ مدرسة حضانة و ٦٢١ مدرسة أحد للتعليم المسيحي. ولها ٣٥ مستشفى و ٢٢ مستوصفاً و ٢٠ ملجـــأ للعجزة و ٦٥ ميتماً و ٦ مآوى للأولاد المتأخرين و ١١٥ داراً للأطفال .

من الطريف أن رجال الدين الكاثوليك اصطدموا بعادة يابانية يصعب الإقلاع عنها وهي حرق جثث الموتى . حتى سنة ١٩٦٤ كان قانون الكنيسة الكاثوليكية يمنع ذلك فكان الكهنة اليابانيون يكتفون بأن يقيموا الصلاة

على الميت قبل حرق الجثة أو أمام رماد الجثة بعد حرقها . أما الآن وقد سمحت الكنيسة بحرق الموتى فيبحث الاكليروس الياباني في وضع صلاة مستجدة تقام ساعة حرق الجثة . كما يدرس تغيير بعض الحركات والعادات الطقسية في القداس بحيث يشترك فيه المؤمنون وهم جالسون على الحصير كما في بيوتهم . قال لنا الدليل ان اعتناق الدين المسيحي صعب ونادر لأن اليابانيين ينتمون الى الديانتين الرئيسيتين في البلاد وهما الشنتو واتباعها ٦٥ ٪ والبوذية واتباعها ٥٥ ٪ سألناه كيف ذلك اذ يصبح المجموع ١٢٠ ٪ فابتسم وقال : هنا لا بأس ان يكون الياباني في وقت واحد شنتوياً وبوذياً . بينما المسيحية لا تقبل الا ان يكون مسيحياً . وأضاف ان الاجيال الصاعدة تبتعد عن الاديان في اليابان .

جولة عجائب طوكيو السبع :

هكذا تدعوها النشرة السياحية فلا نحرمها من اسمها ...

١ ـ أكمة « أتاجوياما » :

تجولنا في الجنينة وفي ميدان فسيح مشرف على جزء كبير من طوكيو بينما كان الدليل يقص علينا انه في سنة ١٦٣٤ وقف الامبراطور على قمة الدرج هنا وطلب من حاكم الإقليم أن يركب الحصان وان يتسلق الحصان الدرج رأسه الى أسفل وذيله الى أعلى . ففعل الحاكم وتفنّن فقطف زهوراً عن جانبي الدرج قدّمها باقة الى الامبراطور .

٢ ـ معبد « راكانجي » البوذي :

من بعيد يستطلع الزائر الفرق بين معبد بوذي ومعبد شنتوي : برج من خمسة ادوار « باجودا » يرتفع أمام المعبد البوذي وبوابة من عمودين يمتدعليهما جسر تقوم أمام المعبد الشنتوي . في جوار هذا المعبد مسكن لراهبات بوذيات . قرعت الدليلة الجرس أو بالاحرى ضربت بمطرقة حديدية على طبق نحاس فخرجت راهبة بوذية في خريف عمرها مكشوفة الرأس تلبس ثوباً

بنفسجياً وفوقه رداء أبيض وفي قدميها صندل من قش . دخلت المعبـــد وبيدها شمعة موقدة وعود بخور مدخـّن . خرّت ساجدة سجدة طويلة ثم أخذت ترنـّم وتضرب على طبلة وهي جالسة الأربعاء امام تمثال بوذا تتلو من « السوترا » . قبل الولوج « تطهّرنا » من صنبور ماءٍ بغسل اليدين والفم وألقينا بعض النقود في حفرة أمام الباب ثم خلعنا احذيتنا وتجولنا في المعبد الخشبي حيث يوجد تمثال بوذا وتماثيل آلهة وحرّاس سماويين .

٣ ـ مطعم « فوروساتو » :

دخلنا في زقاق ثم ولجنا الى بيت كله من خشب . خلعنا الاحذية وانتعلنا شباشب من قش الرز . جلسنا على حصر من قش الرز حول المواقد وأنزلنا أقدامنا في حفرةٍ قليلة العمق وأسندنا ظهورنا الى مخدات . جلسنا علىالطريقة اليابانية بطيّ الساقين الى الوراء . رافق الغذاء غناء بطيء وعزف على « الساميسين » . البيت الياباني لا كراسي فيه ولا « كنبايات » ولا « فوتيات » . يُطوى الفراش ويوضع مع الحائط ويُبسَط ساعة النوم . على الحيطان اطباق من القش المزركش . السقف من جذوع الشجر . بين الاصناف المقدمة كان السمك النيّ واسمه « سوشي » و « ساشيمي » .

٤ ـ متحف الحرف اليابانية :

فيه نحو ٢٠ ألف قطعة من صنع اليد . اليابانيون بارعون جداً في الرسم والنحت . ولا عجب فمنذ طفولتهم يرسمون أشكال مقاطع أبجديتهم المعقـّدة أغلب ما رأينا في هذا المتحف « الفولكلوري » أعمال النسيج لاسيما من الحرير وأنواع الكيمونو وطريقة صنعه وأواني قيشاني وخزف وأغراض كثيرة من قش الرز ومن الخشب يستعملها الياباني في بيته .

٥ ـ معبد « جيزو » : ٨٤ ألف تمثال :

طافت بنا السيارة في حديقة « وينو ـ UENO » وهي من أكبر حدائق طوكيو . وقفنا فيها عند معبد « جيزو » أو معبد « جوميوين » البوذي



من رقصات الصلاة

حيث تمتد غابة من ٨٤ ألف تمثال نصفي من حجر أسود لـ « جيزو – JIZO » إله الأطفال المائتين . عندما يموت طفل تقيم أمه تمثالاً لـ جيزو ليرعاه في العالم الآخر . جيزو هو أيضاً ملاك الموت يُنصب له تمثال حيث يقع حادث مميت . واذا قدّم أحد المارة حصىً لمعبده على حافة طريق يشفع به جيزو أمام المحكمة السماوية لتسمح له بعبور نهر « ستيكس – STYX » الى أرض بوذا .

في بعض التماثيل يحمل بوذا طفلاً وفي بعضها الآخر يقدّم بيده « الخيار » الذي – حسب زعمهم – يفيد الصحة ويشفي من بعض الأمراض كالربو . رأيت سيدات كثيرات يحملن أطفالهن ويحرقن أعواد البخور . أحياناً رأس بوذا بوجهين وهذا الوضع يجلب تقادم أوفر حسب شرح دليلنا الذي ذكر لنا مثلاً يابانياً : اذا حكم على إنسان بالذهاب الى جهنم وأعطى حارسها نقوداً يرسله الى الفردوس ! .

بقرب المعبد مطاعم وبارات شعبية . يجلس الزبائن على مقاعد من خشب لاثنين أو لأربعة بين الاشجار . هنا رأينا بختنا : بعشرة ين تخرج ورقة عليها أحـــد حيوانات الأبراج الفلكية الاثني عشر . قرأت على ورقتي : زواجك الثاني سيكون سعيدا ! مازحت الدليل وقلت له انني رجل دين كاثوليكي غير متزوج فهزّ برأسه وقال : مثل الرهبان البوذيين !

٦ ـ معبد « تيوزوا يناري » الشنتوي ورقصات الصلاة :

جلسنا على أرض المعبد الخشبية ومن فوقنا تتدلّى حبال ورق أبيض رمز الطهارة . على طاولة أمامنا شيء أشبه بالشعاع (رمز الشمس) على جانبيه مصباحان فيهما غصن « سا كا كي » الشجرة البوذية المباركة . وجمجمة حيوان ذات أسنان ضخمة . دخل الـكاهن الشنتوي مرتديا ملابس فضفاضة وعلى رأسه طربوش أسود وبيده قضيب متصل بلوحة خشبية . صفّق مرتين وحنى رأسه وأخذ يترنم امام الطاولة ثم صعد الدرجات السبع

وفتح الباب المذهّب المثبت بالحائط فبانت وراءه رموز وطلاسم شرح لنا الدليل انهـا ترمز الى الطبيعة التي يؤلهها الشنتويون ثم يجلس كهّان آخرون بعضهم يقرعون الطبول بخفة وبعضهم يعزفون بزمارات لهـا ١٨ أصبعاً من الخيزران . ثم تناولت كاهنة قيثارة وعزفت عليها بينما تقدمت كاهنتان بثياب بيضاء وحمراء أدّتا رقصة شنتوية مشهورة اسمها « كاجورا » وعلى الرأس تاج وباليد اليمنى مروحة وعلى الظهر تتدلّى غديرتان طويلتان جداً. في ختام الصــــلاة سقانا الكاهن « الساكي » ثم ألقى كلمة شرح فيها أصل الشنتو وحثّ على المحبّة والسلام لأن البشر هم أخوة أبناء « إله الطبيعة » . سألناه عن اللوحة التي يمسكها فضحك وأجاب : قديماً كان الكاهن يكتب عليها ماذا يجب ان يرنّم ويقول ! [١] .

٧ - معبد « توشوجو » الشنتوي :

يقولون عنه « نككو في طوكيو »[٢] يمتاز بزخرفة سخية وبألوان فاقعة يبرز بينها الأحمر وهو من حجر وعمره ٣٠٠ سنة . كفاني وكفى قارئي وصفاً للمعابد ! ...

جولة صناعية في طوكيو

اليابان بلاد صغيرة جـداً بالنسبة الى سكانها . حلّت مشكلة توفّر اليد العاملة بانتشار الصناعة بكل أنواعها . اختارت لنا الهيئة المشرفة على جولاتنا زيارة أربعة اوجه صناعية نموذجية هي : «سوني» للراديو ـ «كانون» للتصوير ـ صناعة الحرير ـ « سنتوري » المشروبات .

---

(١) انظر فصل ٢ ٥ عن ديانة الشنتو .

(٢) انظر فصل ٥ ٤ عن « نككو » .

« سوني » :

يوجد مصنع « سوني » الرئيسي في احدى ضواحي طوكيو وله مصانع اخرى منتشرة في اليابان وخارجها. طفنا في أقسام المصنع الصناعية والاجتماعية ورأينا طريقة تركيب الترانزستور «بانتاج السلسلة» إذ تقف العاملات بالصف وتتابعن تركيب القطع الى ان يخرج الراديو معداً للبيع . رأينا كيف ينتج الراديو والتلفزيون العادي والملوّن وشرائط التسجيل الخ ... ثم زرنا نادي العاملين والعاملات ومطعمهم والمدرسة الداخلية للعاملات . وسمعنا محاضرة عن تاريخ شركة « سوني » . اسم « سوني » هو لاتيني معناه « الاصوات » وحسب شرح المحاضرة مفرده « SONUS » وجمعه « SONI » ويكتبونها « SONY » كيلا تلفظ بالانجليزية « سوناي » .

يمكن للسائح ان يشتري ما يريد من المصنع معفىً من الرسوم أي بتخفيض ٢٠٪ . ارخص ترانزستور رأيناه ثمنه ١٣ دولاراً وللسائح ١٠ دولارات ونصف. قلت للدليل ولكن هذا هو ثمنه في بيروت ؟ فابتسم وقال: لا عجب من هذا! وفي هونغ كونغ أسعار المنتجات اليابانية أرخص مما في طوكيو !

رأينا ثمانية أنواع من اجهزة التلفزيون أرخصها ثمنه مائة دولار ، ولكن أصغرها ثمنه ١٤٥ دولاراً وقياس شاشته ٨×٨ سم وموديله ت.ف. ٤ ـ ٢٠٣ ووزنه كيلو جرامان ونصف . انتهت الزيارة بأن قدّموا لكل واحد منا هدية : مسطرة عليها أهم عملات العالم ويكفي ضبط خط أحمر في أي موقع منها ليرى المرء بلمحة واحدة قيمة الدولار وما يعادلها من باقي العملات . ولكن ما العمل عندما تتدهور العملات ؟ ...

أسس « سوني » سنة ١٩٤٦ الشريكان « ايبوكا » و « موريتا » . الآن صاحبها الوحيد هو « ايبوكا » . بدأت برأسمال قدره ٥٢٧ دولاراً ورأسمالها الحالي ٧,٥٠٠,٠٠٠ دولاراً . تبيع سنوياً بواحد وثمانين مليون دولار لأكثر من ١٠٠ بلد . نشأت الفكرة بأن جلب « موريتا » من اميركا آلة تسجيل

واشترك معه « ايبوكا » في صنع آلات تشابهها . طافا على المدارس والمقاهي ومراكز البوليس وغيرها يعرضان انتاجها . في فترة وجيزة ٢٧ الف مدرسة من مدارس اليابان الاربعين الفاً اشترت الآلة !

سنة ١٩٥٤ انتجت « سوني » الراديو الترانزستور المتوسط الحجم وسنة ١٩٥٧ الصغير الحجم كمقياس علبة سجائر . وسنة ١٩٦٠ انتجت التلفزيون الترانزستور بحجم ٢٠ سم ولا تزال تصغّر الشاشة كما رأينا . تنتج الآن يومياً نحو الف تلفزيون ترانزستور . أحدث ما اخترعت آلة بحجم الزر اسمها « النفق » تؤدي خدمات الترانزستور بطريقة أسرع وأفضل .

في « سوني » ٦٥٠٠ عامل وموظف اكثر من ثلثهم فتيات . منهن الف عاملة بين ١٦ و٢١ سنة يعشن بالمصنع داخليات يدفعن فقط ١٠ دولارات شهرياً للنوم وللأكل. وألحق بالمصنع معهد يُعطي شهادات ويعلّم الانجليزية . يوم العمل ٨ ساعات وفي باقي وقت الفراغ تدرس العاملات ٣ ساعات . شعار « سوني » « البحث ينتج التقدم » وهي تخصص ٦ ٪ من ايراداتها للابحاث .

كانون :

كل من يهوى التصوير والسينما وأجهزة التصوير العلمية والطبية يعرف ماركة « كانون – CANON » فهي لا تقل شهرة عن « كوداك » . زرنا مصنعاً واحداً من مصانع كانون الأربعة حيث يعمل ٧٥٠٠ عامل. هنا أيضاً « انتاج السلسلة » للآلات وللعدسات ولأجهزة أشعة « اكس » الخ .

بدأت الزيارة في صالة الاستقبال حيث رأينا على الطاولة اعلاماً مختلفة فأدركنا لماذا طلبت منا الدليلة في بدء الجولة جنسيتنا. جلس كل سائح أمام علم بلاده وجلست وحدي أمام علم « الارزة » . سمعنا حديثاً عن مصانع « كانون » الاربعة ثم طفنا بأقسام المصنع .

في الدور الاول : مخزن للقطع التي تستخدم في تركيب الأجهزة والآلات كقطع العدسات المعدنية وقطع آلات التصوير . **في الدور الثاني :** ما يعدّ

في الدور الاول يصعد الى هنا ويتابع العمل فيه: الترقيق والشفافية وإصلاح الاخطاء وخصوصاً خرق الثقوب والفتحات اللازمة في مختلف قطع آلات التصوير . القطع القادمة للتركيب تتدلى وتتابع خط سيرها . **في الدور الثالث** : انتاج العدسات وذلك على مرحلتين : في الاولى ضغط البلورة في قالب العدسة لتأخذ الشكل المطلوب وفي الثانية صقلها ثم دهنها . بعدئذ توضع العدسة في آلة دقيقة جداً لتحدّد النقطة المركزية فيها ثم تشذّب لكي تصبح مستديرة تماماً . ثم تدهن العدسة بالمنجنيز لتكتسب شفافية أعلى ولتتمكن من التقاط الالوان الطبيعية . **في الدور الرابع** : كل القطع اللازمة لتركيب آلة التصوير تصل الى هذا الدور حيث يتم « تجميعها » لتخرج آلة كاملة معدّة للبيع. « الكاميرا » التي هي كعلبة بين أيدينا مكوّنة من مئات القطع . مثلاً آلة تصوير كانون « ٧ س » او « ف ت » فيها ١٥٠٠ قطعة . تكتب شركة « كانون » في دعايتها – ولا بدّ انها صادقة – ان صنع آلاتها لا يحتمل خطأ « واحد من عشرة آلاف من المليمتر » . **في الدور الخامس** : مقصف ومطعم وشرفة وبهو للاستراحة. هنا يمكن للعامل أن يتناول وجبته بتسعة « سنت » والشركة تدفع عنه الباقي .

ليست آلات « كانون » رخيصة كما يمكن أن يتصور الاجنبي . فثمن آلة سينما ١٦ ملم هي للسائح بـ ٨٠٠ دولار ولغير السائح بـ ٨٧٠ دولاراً .

معرض الحرير :

تناولنا الغداء في جنينة يابانية وعلى بعد امتار منا منزل «الميكادو» الذي فضّل أن يسكن فيه مع زوجته هرباً من « رسميات » القصر الامبراطوري. وزوجته هي الرئيسة الفخرية لجمعية طريق الحرير التي نزور معرضها الآن .

اليابان هي أكبر بلاد منتجة للحرير الطبيعي . يقطفون فيها ثلاثة مواسم « قزّ » في السنة : في الربيع والصيف والخريف . في بعض أنحائها يُربّى الدود على الشجر في العراء . شجرة التوت في جبل لبنان جذع تتفرع منه

أغصان أما في اليابان فهي باقة قضبان عالية تنبت كلها رأساً من التربة .

رأينا في هذا المعرض المراحل من البزرة الى الفيلجة (الشرنقة) الى الخيط ثم بعض أنسجة وثياب حريرية منها كيمونو ومراوح وشمسيات وياقـات ومحافظ الخ .. حزنت على مصير التوت والحرير في بـلادي لبنان وتحسّرت – كما يتحسّر مزارعوه الآن – على قطع التوت لزرع التفاح الذي أصبح لنا بلاء وعلينا وبالاً !

حدثتنا المشرفـة على المعرض عن « طريق الحرير » بكلام منمّق رفيع مزجت فيـه الثقافة والسياسة والتاريخ والفن ومما قالته لنا : ان خيوط الحرير الشرقية ربطت الغرب بالشرق منذ الفي سنة . ١٣ قرنـاً قبل قدوم « ماركوبولو » الى الشرق الاقصى كانت خيوط وأنسجة الحرير تخرج من هنا الى العالم الروماني حول البحر المتوسط . كان الحرير علامة الاناقة والرقي في اليابان قبل أن تعرفه اوروبا. حسب أساطير اليابان ان آلهة الشمس «اماتيراسو» كانت تحيط بالحرير في غرفتها لابنها . وفي القصائد القديمة أشعار تتحدث عن اليابانيات اللواتي يشتغلن الحرير في «مهرجان الحائك» ويملأن به حياتهن حباً وعملاً . وفي بعض المعابد توجد رسومات عن طريقة صنع الحرير. قديماً كتب « بلينيوس » المؤرخ الروماني ان الحرير يـأتي من « آخر الدنيا » في الشرق لتتحلى به نبيلات روما . وبالطبع كان هذا الحرير يترك آثاره عـبر الطريق الطويل من أقصى الشرق الى روما ماراً بالهند وبآسيا الوسطى وبهضبة بامـير وايران وما بين النهرين وسوريا ثم شواطىء البحر المتوسط .

كانت المحاضرة مؤثرة في إلقاء هذا الكلام الجميل وتغيّرت نبرتها إذ تحدثت عن عهد الانحطاط حين لم تعد العلاقة بين الشرق والغرب « خيوط حرير » بل حروباً ومعاداة . إنمـا في القرن العشرين أعطت بيوت أزياء « ديور » ومثيلاتها نهضة للحرير الطبيعي الذي هو « مزيج من عمل الانسان والطبيعة من الفن والصناعة بل من المادة والروح » .

سنتوري :

« سنتوري – SUNTORY » هي أشهر ماركة ويسكي وبيرة في اليابان ولها مصانع عديدة . زرنا منها مصنع طوكيو حيث تابعنا مراحل التعبئة في الزجاجات . ينطبع منظرها في الذاكرة كلوحـــة راقصة إذ تذهب ألوف الزجاجات وتجيء وتصعد وتنزل في كل الجهات كأنهـا فوضى فنية . تنتهي جميعها جاهزة مصففة في الصناديق للتسويق . شرح لنـا دليل المصنع كيف يصنعون الويسكي من القمح ومن الشعير ومن عصير العنب الذي يخزّنونه أحياناً ثلاثين سنة . وذكر لنا ان بيرة « سنتوري » فازت في سنوات ١٩٦٤ و٦٥ و٦٦ بالمدالية الذهبية في معرض «بروكسل» متفوقة على اكثر من مائة صنف بما فيها البيرة الالمانية . اضافونا من ويسكي وبيرة « سنتوري » ولكني أعجز عن ابداء رأيي فلست متذوق مشروبات .

في الجولة الأخيرة بطوكيو اطـّلعنا على بعض العادات اليابانية التي تدخل في التراث القومي : خياطة الكيمونو وتنسيق الزهور وتربيـــة الشجيرات وحفلة شرب الشاي .

الكيمونو :

« كلْ ما يُعجبك والبس مـا يُعجب الناس » وهنا يعجبهم الكيمونو . لا بـدّ منه في كل مناسبة ولو انه لا يُعين على الحركة السريعة فطول قماشه ١١ متراً بعرض ٦٠ سم. ولماذا السرعة فالمرأة اليابانية بطيئة في كل شيء .. يختلف نوع القماش وطراز الخياطة حسب فصول البرد والحر . أحسن قماش له هو الحرير ولكن العادي هو من القطن لأنـه أرخص . تطبع عليه زهور وطيور ورسومات ورموز ومناظر طبيعية وتقاليد العائلة والروح الدينية . تختلف نقوشه وألوانه وأشكاله حسب ثقافـة وطبقة من تلبسه . لدى ربـة البيت مجموعـة من الكيمونو لهـا ولبناتها ومجموعـة من « الشباشب » المسماة « زوري » لأقدامهن النحيفة تتناسب مـع نوع الكيمونو وتكون من لبّاد

او حرير او جلد . وهنالك نوع من الكيمونو للرجال يـدعى « دوتيرا — DOTERA » .

تنسيق الزهور :

زرنا مدرسة لتنسيق الزهور تشرف عليهـا مدرّسة طاعنة في السن . لا بـدّ لكل فتاة يابانية من تعلّم هذا الفن مدة ثلاثة أشهر على الأقـل . لقد أعجبنا بشرح المعلمة وبباقات الزهور التي صنعتها أمامنا مع بعض من تلميذاتها واشتريت كتابـاً من تأليفها عن هـذا الفن مهرته بتوقيعها وهي « مؤسسة مذهب » إذ توجد مدارس او مذاهب متنوعة لتنسيق الزهور . عـادةً في باقـة الزهور اليابانية تكون زهرة واحدة او زهرات قلـّة شامخـة وباقي الزهرات مترامية من حولها ومتفاوتة الارتفاع. الشامخة ترمز الى السماء والتي علىارتفاع متوسط ترمز الى الانسان والأقل ارتفاعاً ترمز الى الارض وتكون متباعدة عن وسط الاناء . والمسـافة هي نسبياً بعيدة بـين أوطإ زهرة مستندة الى حافة الاناء وأعلى زهرة شامخة . ولـكي لا تتحرك الزهرة في الاناء يربط ضلعها . الزهرة المتفتحة ترمز الى الماضي والنصف متفتحة الى الحاضر والبراعم ترمز الى المستقبل . في الصيف تنسيق كثيف وفي الخريف خفيف وفي الشتاء صارم وفي الربيع مزدهٍ ...

عرضت لنـا فناً آخر مشابهاً ففي ربع ساعة صنعت في صحن جبـلاً من الملح والـكلس لونه وحل بركاني وفيه شلالات وغابة وطيور .

تبدع اليابانيات في هذه الفنون المنمّقة المصغّرة التي لا تخلو من روحانية لأن ممارستها تقربهن من «الإله الطبيعة» وتدربهن على الوداعة وتذوق الجمال . ولست أدري هـل نصدق تلك المعلمة حين قالت لنا : ان اليابانية في قـديم الزمان كانت تغيّر الزهور وتنسّقها ثلاث مرات فيالليلة الواحدة فترى ماذا كان يتبقى للنوم ؟

حسب البعض عندما تقدم الزهور لبوذا وللآلهة تنثر على طبيعتها بـدون

تنسيق او تنسّق بطريقة « دينية » تختلف عن التنسيق « المذهبي » . على كل حال يجب أن تكون الزهور قليلة وفي اناء واطٍ . الياباني مغرم بالزهور ما عدا « الكاميليا » لأنهـا تسقط وتموت زهرة زهرة وليس ورقة ورقة فيرى في ذلك صورة لقطع الرأس .

« بونساي » او تربية الشجيرات :

أخذنا الدليل الى جنينة «بونساي – BONSAY » قرب بيت عادي يحتوي على نحو مائتي شجيرة عمرها ثمانون سنة وما فوق . انها غابة مصغّرة لا تزيد مساحتها على ٩٠ متراً مربعاً وشجيراتها في قصاري . كان الدليل رغم قصر قامته أعلى من الشجيرات التي يحدثنا عنها .

تزرع البذرة او الفرعة قرب حافة الإناء وليس في وسطه. في الإناء تراب قليل ورمل وحصى . تحتاج الى ماء كثير وشمس قليلة وإلى الحماية من الرياح. عندما تنبت ينقصون تربتها ويقرصون براعمهـا ويكبسون النبتة ويشذبون الاغصان ويربطونها بـأسلاك بحيث تظهر مصغراً للشجرة الكبيرة العادية . يتعهدها الزارع كل يوم ويرعاها بحنان وصبر . لا يطلق عليها اسم «بونساي» إلا بعد ٤٠ سنة من ظهورها في الاناء . يوجد منها في اليابان شجيرات عمرها ٥٠٠ سنة وهي تراث من الاجداد الى الابناء والاحفاد ويتجسد فيهـا حب أرواح الاجداد. إذا تعدت المائة سنة قد يبلغ ثمنها ١٨٠٠ دولار . من الصعب معرفة عمرها حتى لدى العارفين فالطريقة الوحيدة الخالية من الخطأ هي قطع الجذع وعـد خطوطه الدائرية فكل دائرة بسنة . يحفظ التاريخ ان إحدى تلـك الشجيرات العجيبة بيعت بـ ١٧ الف دولار . يوجـد في اليابان بعض « البونساي » الطبيعية المختفية في اوكار بالجبال يتبارون في الوصول اليهـا لاقتلاعهـا ولغرسها في جنائن منازلهم ولا تمرُّ سنة إلا ويموت بعض الهواة المتسلقين « شهداء البونساي » .

أرانا الدليل شجرة « الپاولينا » وهي أهم شجرة في نظر الياباني وبعدها

السرو والارز . خشبها مناسب جداً لبناء البيوت . حسب تقاليدهم عندما تولد طفلة يزرع والدها « پاولينا » في جنينة البيت وحين تتزوج ابنته يقطع الشجرة ويصنع منها أثاث بيتها .

المرأة اليابانية :

لا يسعني قبل إنهاء الكتابة عن طوكيو إلا ان اذكر شيئاً عن المرأة اليابانية التي « ليست كباقي نساء العالم » وكانت تضفي أشعة ولمحات من النعومة والنضارة على كل مكان زرناه .

كان دليلنا رجلاً في الخمسين من عمره عالماً بكل كبيرة وصغيرة عن اليابان. ومما قال لنا : « قد نهضم اموراً كثيرة استوردناها من الغرب ولكن هنالك مبدأ لا يمكننا ان نعترف به وهو السيدات اولاً . ففي اليابان الرجال أولاً ونأمل ان تبقى الأمور هكذا . » تسمعه مرشدتنا السياحية « طوشي » وتسألنا مبتسمة : هل توافقونه ؟

قبل ١٩٤٥ كانت مهمة المرأة اليابانية خدمة الرجل وتربية أولاد كثيرين. تفرح العائلة لولادة طفل وتحزن لولادة طفلة . منذ صغرها يفهمونها انها في حياتها « خادمة الرجل » سواء كان والدها أم أخاها أم زوجها أم حماها . وتبقى قاصراً تحت سلطة رجل طول عمرها . للرجل كل الحقوق وعليها واجبات فقط . لا حق لها بالإرث بل ما تأخذه يكون بالوصية . لا تخرج من البيت وحدها أبداً وإذا خرجت فمع زوجها الذي لا يصطحبها عادة معه. لا تحضر اجتماعاً عاماً . لا تشتغل خارج البيت . لا حق لها بطلب الطلاق ولو تزوج عليها رجلها أما هو فيمكنه ان يطلقها في اية لحظة ويحتفظ بالأولاد . بعد وفاة رجلها تقص شعرها وتحرقه مع جثمانه وإذا تجرأت وعقدت زواجاً ثانياً تعتبر كمنبوذة . إذا اتصل زوجها بغيرها فهي تعاقب نفسها وتقول انها ليست صالحة او انها اغضبته أو لم تهتم به . وإذا أقام علاقة متصلة مع غيرها قد تنتحر لتفسح له المجال. وبسبب منع التعارف والاختلاط

عرفت اليابان الخاطب والخاطبـــة وتناقلت نصيحتها العريقة : الحب يأتي بعد الزواج . احياناً كان الزوج هو الذي يحمل اسم عائـــلة زوجته وذلك عندما تأخذه هي زوجاً لها لتحافظ على اسم عائلتها .

ان عدم ظهور المرأة في المجتمع كان من أهم أسباب انتشار « الجيشا » . في اوائل القرن السابع عشر اوقع المفكرون اليابانيون بلادهم في أغلال نظام رجعي وتقاليد إقطاعية صـــارمة فزاد وضع المرأة سوءاً . المصلح العظيم « ميجي » نفسه كان ضد المرأة وأصدر قانوناً سنة ١٨٨٩ يمنع ان تكون في المستقبل امبراطورة على عرش اليابان .

بعد ١٩٤٥ سقط الإمبراطور عن عرش الألوهة وتحرّرت اليابانيات وتغير المجتمع الياباني تغييراً شاملاً وجذرياً . أصبح تعليم البنات إلزامياً وعادةً في مدارس مختلطة . وفي وقت قصير شغلت المرأة ٤١٪ من الوظائف . طرحت عنها الكيمونو في الحياة العامة وارتدت الزي الأميركي . أكثر من ٧٥٪ الآن يخترن ازواجهنّ . سنة ١٩٥٦ من ٦٢١ الف حالة طلاق ٧١٪ كانت عن طلب المرأة . حكم لهن بـ ٧٥٪ من قضايا حضانة الأولاد . يمكن للمطلقات وللأرامل ان يتزوجن . اعطيت المرأة حق الانتخاب . أصبح بعضهن أعضاء في مجلس النواب وفي مجلس المستشارين . فلا عجب إذا ما أحبت نساء اليابان اميركا التي حررتهن !

٤٥

نككو

من طوكيو الى نككو :

« لا تقل نككو (أي جميل) إلا بعد رؤية نككو » . هكذا يقول المثل الشعبي الياباني معتبراً نككو قمة الجمال وفتنة الدنيا .

الساعة ٧,٤٠ صباحاً ركبنا من محطة « اساكوسا » في طوكيو قطاراً جرى في السهول الخضراء وعبر جسوراً عديدة فوق الجداول ثم أخذ يُصعِد بين الآكام. عن يمنا وشمالنا البيوت اليابانية وهي خشبية وصغيرة سطوحها بشكل ٨ . الأراضي مزروعة ارزاً ومزروعات صيفية من بصل وثوم وبطاطس وباذنجان وكوسا وذرة ... وقع نظري على الجدار (شبح الحقول) المنتصب لبعث الروع في الحيوانات ولإبعادها حتى لا تُتلف المزروعات فهكذا نفعل في بلادنا ... بعض الرز محصود وقد رُبط حِزماً معلّقة لتجفّ في الشمس والهواء ويشبه منظره الشعير . أشجار التفاح ضخمة متباعدة الفروع عكس ما نراه في لبنان . السماء غائمة تُتيح انقشاعاً مظلّلاً فكأنه يوم من ايام الخريف . بعد ان قطعنا ١٣٥ كلم الى شمال طوكيو نزلنا في محطة « نككو » . توجد في اليابان احدى وعشرون حديقة قومية ترعاها الدولة

واروعها هي نككو بجبالها الخضراء وبحيراتها وشلالاتها وأنهرها وبخار سفوحها وينابيعها المعدنية الفاترة وبما اضافته يد الانسان من قصور ومعابد ومصايف وبما يحوم حولها من روايات دينية وعاطفية .

شوارع الارز :

بدأنا التجوال فيها بالسير على الأقدام في « شوارع الأرز » . ترتفع على جوانبها ١٣ الف شجرة أرز زرع جزءاً منها منذ ثلاثمائة سنة ونيّف « الساموراي متسودايرا » تقدمة منه لمعبد « توشوجو » . ولا تزال توجد من قبلها الوف الأشجار يرتقي بعضها الى ٩٠٠ سنة. في هذه الجادّات الفخمة مرّت عبر الأجيال مئات المواكب ترافق الساموارئيين والزعماء الاقطاعيين والأمراء ورؤساء الكهّان لدى وصولهم الى « نككو » ويتضح ذلك من الرسومات المنقوشة على لوحات خشبية حسب عادة اليابانيين في رسمهم . رأينا طلاباً وطالبات بالزيّ المدرسي الرسمي . وقد افتتحت المدارس منذ أيام قليلة في أول ايلول . زي الصبيان بنطلون اسود وقميص أبيض مقفول الى العنق وقبعة أشبه بخوذة عسكرية . وزي البنات « تنّورة - جيب » كحلية وقميص أبيض مقفول و « بيريه » سوداء . وجوه الكبار كوجوه الصغار في نعومتها ونضارتها . فوق رؤوسهم غابة من الشمسيّات إذ أخذ الرذاذ يتساقط . سمعناهم ينشدون النشيد الوطني في ساحة المعبد ومنه هذا الكلام :

« ليدُم ملكك السعيد آلاف السنين . املك يا سيدي
الى ان يجمع الزمن الحصى ويكبّرها ويكوّن منها صخوراً
عظيمة تكسو الأشنة (الأعشاب) جنباتها الاثيلة . »

يتغنى اليابانيون بالطبيعة في شعرهم . « ميجي » كان شاعراً ألف نحو ستين الف بيتاً ذات ٣١ مقطعاً . العروض الياباني نوعان فقط : أبيات من ١٧ مقطعاً أو من ٣١ مقطعاً . ومن « ميجي » هذه الكلمات عن الإخاء

الانساني : (بحار الآفاق الأربعة هي اخوة وأخوات فلماذا تتحارب دوماً الرياح وتثير الأمواج ؟) .

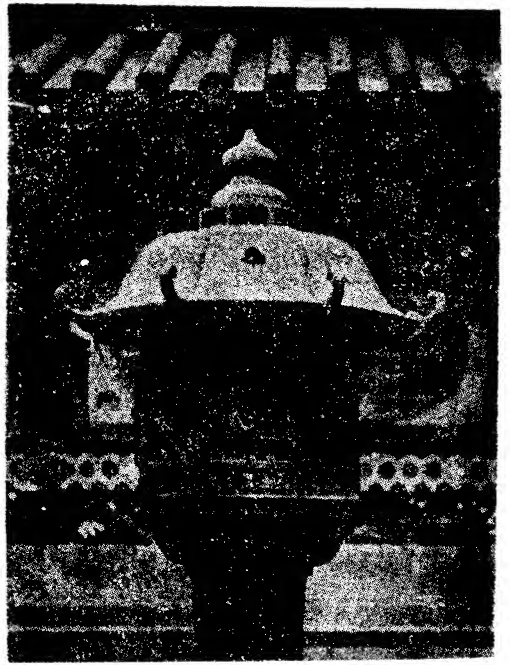
جسر الافاعي :

وقفنا عند جسر (شنكو) او جسر الافاعي الممتد بشكل هلال فوق نهر (دايا) وهو من حجر بركاني اسود وحاجزاه بالأحمر والأزرق . منذ ١٢٠٠ سنة وقف هنا الكاهن (شودو) مؤسس مدينة نككو ورأى جبل (نانتاي) يدخّن فاعتقد ان إله الجبل يناديه ولكنه لم يستطع عبور النهر الهادر فجثا وتضرّع وإذا بـ (جاو كنجن ـ JAO CONGEN) إله الأفاعي (كانت الأفعى من الحيوانات المقدسة عند اليابانيين) يسرع لنجدته مرسلاً أفعى حمراء وأخرى زرقاء تمدّدتا فوق النهر فعبر على « جسر الأفاعي » . قدّس التقليد هذا الجسر وكلما تهدّم أُعيد بناؤه في الموضع ذاته .

معابد نككو :

على الضفة المقابلة تقوم المعابد والقصور والأضرحة في عزلة خاشعة تحوّطها أسوار الأرز الشامخة وتشيع فيها الرهبة والسكون . بُني « معبد توشوجو » سنة ١٦٣٦ لتكريم «الشوجون طوكوجاوا يياسو» مؤسس اسرة طوكوجاوا الاقطاعية التي حكمت اليابان من سنة ١٦٠٣ الى سنة ١٨٦٧ . أسس هذه المعابد حفيده الشوجون الثالث « يامتسو » . توجد هنا ٢٢ بناية من خشب هي معابد شنتوية وبوذية ومساكن للكهّان والرهبان والراهبات وسائر السدنة . استدعي النجارون والفنانون من سائر أنحاء اليابان ليُخرجوا هذه التحف في أغنى معابد قائمة حتى الآن في اليابان . مدوا ٢٫٤٨٩٫٩٠٠ ورقة ذهب تكفي لتغطية ٢٤٢٧٦ متراً مربعاً وإذا وضعت في خط مستقيم بلغ طولها ٥٣٠ كيلومتراً . اشتغل فيه ١٥ الف رجل سنتين كاملتين . تلفت النظر « الباجودا » ذات الادوار الخمسة وهي من طراز صيني لونها أزرق . يوجد ١٢١ مصباحاً من حجر او حديد او نحاس تُضفي على المكان مسحة

تقوية عميقة تُشعل فيها السرج والشموع في ليـــالي الحفلات الدينية .



من مصابيح المعبد

الرتاج الرئيسي لونــه أحمر وهو قائم على قمــة درج وراء « الباجودا » . بعد الولوج منه يرى الزائر ثلاثـــة هياكل وبجوارها اسطبل الخيول المقدسة التي يقدمها المحاربون الى المعابد علامة تكريم وتعبُّد ويغلب ان تكون بيضاء اللون . حتى الآن تقام في مهرجانات المعبد مباريات رمي السهام عن مـــتن الخيل يدعونهــا « يا بوسام » . عنـد لاسطبل توجد رسومات ثلاثة قرود الواحد يسد أذنيه والثاني يقفل فمه والثالث يغمض عينيه ومغزى ذلك ان على المرء ان لا يسمع الشر ولا يتلفظ بـه ولا يراه . ومغزاه أيضاً « سر السعادة » أي ان لا يتأثر الانسان بما يسمع ويرى وان لا يتكلم كثيراً فـــلا يسمح للعالم الخارجي ان يغزو عالمه الداخلي عن طريق الحواس . ويوجد رسم قط نائم مهمته ان يُبعد الأرواح الشريرة عن ضريح (طوكوجاوا) . انــه نائم كي لا يهرب فإذا هرب حدثت كارثة حسب اعتقادهم.. يَحكي اليابانيون ان الباخرة (توسامارو) التي أقلعت من (ليفرپول) الى اليابان في أول تشرين الاول ١٩١٨ غرقت لأن القط الاسود الذي كان مع طاقمها اختفى فجأة.

الهياكل الثلاثة مبنية على طراز أقـدم هيكل في اليابان موجود الآن في

(نارا) منذ القرن الثامن الميلادي . فيها معروضات مما يُستعمل في المهرجانات التي تقام هنا لا سيما في مطلع الخريف والربيع . على احدها رسمان لفيلين لا يشبهان الفيل الحقيقي وذلك – كما شرح علماء الآثار – لأن الفيل لم يكن أُدخل بعد الى البلاد. أمام أحد الهياكل تنسكب مياه الينبوع المقدس يطهّر بها المصلون أيديهم وأفواههم قبل الصلاة ويتباركون بالشرب منها . وتقول الخرافة الشعبية انها مياه سماوية يشربها آلهة الجبال بينما يقول التاريخ انها من عمل هندسي إذ أُجرت من جوف الجبل منذ ٣٥٠ سنة . ازاء الينبوع المقدس تقوم بوابتان تدعيان (كارامون ويوميمون) استخدم في تزيينهما الفن الصيني الصرف وتجنب الفنانون عمداً ما هو ياباني حتى في الألوان فاستعملوا الابيض والاسود الذهبي بينما يغلب عند المزخرفين اليابانيين الازرق والاحمر . في البوابتين لا يوجد مغرز إبرة إلا وقد غُطي بالرسوم ومنها التنين والافعى والعنقاء والأسد. ثم طيور وأطفال صينيون ومشاهد من حياة أولياء صينيين. وراء بوابة (يوميمون) يوجد ما يشبه (المقدس) إذ لم يكن يسمح بالدخول إليه إلا لرجال الدين والأمراء وأفراد اسرة الشوجون .

زرنا ضريح (يامتسو) مؤسس هذا المزار وقد بُني سنة ١٦٥٢ على طراز معبد (توشوجو) إنما في ركنٍ منعزل يخيّم عليه السكون ويدعو الى التأمل وهو بسيط لأنه مستوحى من الهندسة البوذية الصرف التي تتسم بالرزانة والتقشف . يحرس الضريح ملاكان بوذيان هما (كوموكوتين) الذي يطرد الأرواح الشريرة (الجن) من الافلاك الغربية و (جيكوكوتين) الذي يطردها من الافلاك الشرقية .

صلاة مع الغناء والرقص :

من أجمل ما رأينا في معبد (فوتاراسان) المكرس لعبادة إله جبل (نانتاي) الصلاة والرقصات المقدسة قامت بها كاهنتان ترتديان فستاناً أحمر وفوقه شملة بيضاء . ضفائر طويلة معقودة تتدلى على الظهر وتاج مزين بالزهور وأقدام

عـارية . باليد جرس صغير ثم سيف . كانتا تخطوان خطوات بطيئة خاشعة على أنين الناي وقرع الطبول الخافت ورنـين الصنوج وترنيم الكهان الجالسين في صدر المعبد تحت باب مذهب مقفل يحجب في الجدار رمز إله الجبل وهو علامة وجوده هنا . كانت (كاجورا) في الاصل رقصة دراميّة تطورت مع العصور وتنوعت . تفرعت منها رقصة (ميكوكاجورا) ومعنى كلمة (ميكو) فتاة في خدمة الآلهة . الهدف من هـذه الرقصة هو طرد الجن وبعث الرضى والارتياح في الإله الطبيعة . استعانت الكاهنة بجرس ذي رنات ناعمـة رافق عزف الكمان ثم وضعته جانبـاً وتناولت سيفاً فاشترك صليل السيفين في الموسيقى المقدسة .

من سقف المعبد تتدلى حبال اوراق بيضاء رمز الطهارة . وأمـام المعبد كومة من التمائم يربطها المصلون في اغصان الشجر وجرار من (الساكي) قدمت لنا منه الكاهنتان فشربناه بعد الصلاة وأهدانا الكاهن الفنجان الاحمر الذي شربنا به .

أجمل شلالات في اليابان :

اجتزنا مدينة نككو التي يبلغ عـدد سكانها ٣٢ الفاً ثم حاذينا النهر في الوادي وصعدنا في جبال مكسوة بالغابات الخضراء ومن وقت الى آخر يبدو البخار المتصاعد من الينابيع الساخنة ومن جوف الجبال. استمتعنا برؤية شلال (كيجون – KEGON) ومعناه (الكريم) الذي يعتبره اليابانيون أجمل شلال في بلادهم ويبلغ ارتفاعه ٩٧ متراً وعرضه تسعة أمتار وتتولد منه بعد انصبابه شلالات صغيرة عديدة . نزلـنا في مصعد حُفِر نفقه في قلب الجبل الصخري ووقفنا عند قدم الشلال وإذا بالجبل من ورائه كجدار متعدد الألوان والطبقات ويخـال للناظر ان احجاراً نُحتت ورُكّبت بعضها فوق بعض تكسوها الاشنة المتولدة من الرطوبة . هـذا موقع انتحار شهير في اليابان تستغله السينما . تابعنا السير الى ان بلغنا بحـيرة (شوزنجي) التي ينبع منها



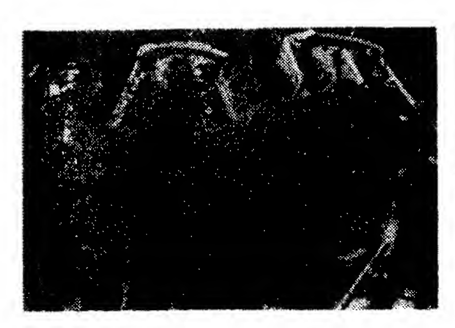
جسر الأفاعي



الماء المبارك في نككو



صلاة وغناء ورقص في المعبد



الطريق المعرج

شلال ونهر (دايا) . علوها عن سطح البحر ١٢٧١ متراً ومساحتها ١١ كلم٢. لونها اخضر غامق وموقعها بين الرُبى الشجراء وعند أقدام جبل (نانتاي) . في طوافنا حولهـــا رأينا مصايف بعض البعثات الدبلوماسية وبعض المعابد وتمثالاً جباراً لآلهة الرحمة (كانون) ومواقع التزلج ومسمكة فيها نحو ١٣٠ بركة لمختلف أنواع أسماك المياه العذبة اجملها بركة السمك الاصفر ثم الازرق. مررنا أيضاً بشلالي (روزو) ومعناه رأس التنين و (يوداكي) . دعي الاول هكذا لأنــه متشعب متناثر كرأس التنين ويتساقط على جبل صخري أسود متيحاً للزوار ان يقفزوا بين المياه على الصخور الناتئة. والثاني علوه ٤٥ متراً وعريض جداً يشبهه اليابانيون بشاشة محبحبة إذ ان المياه المتدافعة فيه تُعطي منظر (شعرية) . قطعنا هضبة (سنجوجاهارا) التي كانت قديماً بحـــيرة جفت مـــع مرور الزمن وخلفت سهلاً موحلاً استخدم للزراعة وتنبت فيه زهور متنوعة غالبها صفراء . تروي اسطورة ان افعى خرجت من بركان جبل (نانتاي) وبرز لهـا عملاق ذو مائة قدم من جبل (اكاجي) المجاور وتبارزا في هضبة (سنجوجاهارا) فهُزم العملاق وتدفقت منه الدماء فكوّنت مستنقع (اكانوما) . في الهضبة مروج (كوتوكو) تسكنها العصافير والزهور ويسرح ويمرح فيها السياح ربيعاً وصيفاً وقـد ذكرني منظرها بجبال ومروج (دولوميتي) في شمال ايطاليا . يغني في المرج الفاتن نهر (ساكاسا) وحيداً حالمـــاً . استرحنا في نزل (يوموتو) حيث يوجد نبع معدني غني بالمواد الكبريتية . وهنا مركز تزلج في الشتاء ومصيف راقٍ تمنيت لو أطوي فيـه اسبوعاً للتأمل .

الطريق المعرج :

بدأنا في طريق العودة فوقف الاوتوبيس تحت (شجرة الفرامل) وتُدعى هكذا لأن كل سائق يتحقق عندها من قوة فرامل سيارته قبـــل أن يباشر الانحدار الرهيب الى وادي نككو على طريق (ايروهازاكو) . في ٢٠ دقيقة

عرّجت سيارتنا على ٤٨ منحنى ومسافـة الطريق هنا منمرة بعدد المنحنيات وليس بالأمتار . لست أغالي إذا ما قلت انه اكثر الطرق تعريجاً في العالم[١] فليس فيـه متر واحد مستقيم ! يقول عنه اليابانيون ان السير عليـه يُوقف شعر الرأس كإبر الصنوبر . إنمـا في ثلث الساعة لا متسع للرعب إذ تُؤخذ العين بالسحر المنبسط حولها على مد النظر .

●

---

(١) إذا مـا استثنينا « كروكوديست ستريت » الشارع الصغير المتلوي في سان فرنسيسكو (راجع الفصل ٣٦) .

٤٦

يوكوهاما - كاماكورا - هاكوني

ودّعنا طوكيو التي لم احبّها كثيراً كمدينة ولو انني سررت جداً بما زرته فيها ٠ كانت السماء تمطر قليلاً ففي اليابان فصل الصيف ليس صحوا وموسم الأمطار هو شهرا حزيران وتموز . مررنا بـ «كواساكي» اعظم منطقة صناعية في البلاد . كان أول موقف في «يوكوهاما» على بعد ٢٥ كلم جنوبي طوكيو .

يوكوهاما :

يوكو = جانب و هاما = الشاطىء فمعنى اسم المدينة «جارة الشاطىء» . عدد سكانها ١،٨٠٠،٠٠٠ . ظلت قروناً عديدة قرية صيادي أسماك الى ان انفتحت اليابان على العالم الخارجي بمعاهدات ١٨٥٩ وما بعدها وخصوصاً بانتقال العاصمة الى طوكيو في ١٨٦٨ . كبرت « يوكوهاما » وأصبحت أكبر ميناء في اليابان ومركز اكبر حوض في العالم لبناء السفن . اعيد بناؤها بعد زلزال أول ايلول سنة ١٩٢٣ الذيقتل ١٤٢،٨٠٧ وهدم طوكيو ويوكوهاما. انها منتشرة على مرتفعات خضراء وقد زرنا فيها قاعة الحكماء الثمانية ذات الهندسة المثمنة الزوايا واسمها « هاسيدن – HASSEIDEN » فيها تماثيل بوذا وكنفوشيوس وسقراط والمسيح والأمير شوتوكو وثلاثة رهبان بوذيين .

في « يوكوهاما » حدائق عديدة أشهرها حديقة « سنكين » الواقعة وسط دائرة من الروابي تزينها برك ومروج وملاهي واثنتا عشرة بنــاية خشبية نُقلت اليها من شتى أنحاء اليابان ويرتقى بعضها الى خمسمائة سنة .

بوذا كاماكورا :



بوذا كاماكورا

كان الموقف الثـاني في (كاماكورا) على بعد ٢٨ كلم من (يوكوهاما) . كاماكورا هي مدينة صغيرة عدد سكانها مائة الف تقع على خليج (ساجامي). اشتهرت بالمعابد ولا سيا بتمثال بوذا الذي صنع سنــة ١٢٥٢ .
يتربع هــذا التمثال البرونزي في غابــة ويدعو منظره الى الخشوع والسلام النفسي. انه ثاني تمثال بالضخامة بعد تمثال (نارا) لكن تمثال نارا اصلح ثلاث مرات بينما هــذا هو الاصلي . سنة ١٤٩٥ تهدمت حوله المعابد بزلزال لكن التمثال ظل صامداً على قاعدته وزنــه ١٣٧ طن . وقياساته هي بالأمتار : ارتفاعه ١٣٫٣٧ – دائرته عند القاعدة ٢٩٫٤٨ – وجهه ٢٫٣٤ – عينه ١ – اذنه ٢ – فمه ٠٫٨٥ – دائرة ابهامه ٠٫٨٥ – من الركبة الى الركبة ٩٫٢١ .

في رأسه عدسة نافرة علامــة الحكمة وفي جبينه عدســة اخرى علامة الاستنارة و (بوذا) معناه المستنير . ابهــاماه متلاقيان علامــة الاستغراق في التأمل وهو جالس الأُربُعاء جلسة اليوجا الشهيرة التي تعلـّم الجلد والتحمل وتكسب النفس الصفاء . داخله مجوّف وفيه سلـّم الى سقف رأسه .

منظر بوذا هذا لا يمحى من الذاكرة وهو ينقل الانسان الى جوّ غير جوّ العالم الذي يعيش فيه فكأن (المعلم الأول في الشرق) يلقي هنــا في صمته عظة بليغة .

أمام التمثال ميدان فسيح حوله معابد منها معبد الآلهة (كانون) ولها تمثال ارتفاعه ٩٫٤٥ متراً صنع من جذع شجرة كافور . ودير كبير للرهبان البوذيين أسس في القرن الثالث عشر بجوار كهوف في الجبل كانوا ينسكون فيها. في الدير جرس ضخم شهير يرتقي الى سنة ١٣٠١ ارتفاعه متران ونصف وقطره متر وثلث .

حكماء كاماكورا :

وكأن (بوذا كاماكورا) اوحى بالحكمة الى رجالها فيحكون عنها هنا . وقعت من (اوتو) حاكم كاماكورا خمس قطع نقود في النهر. دفع لغطاس عشرة نقود فانتشلها له . سُئل كيف تخسر ١٠ لتستعيد ٥ ؟ أجاب : إذا بقيت الخمسة في قاع النهر لا يستفيد منها أحد أمـــا إذا عادت الى التداول تصبح قيمتها الوف المرات أكثر من عشر قطع ...

سرقت نقود. جمع القاضي (اوكا) الناس وقال لهم : كانت النقود في اناء خلّ فسأشمّ ايديكم وأعرف اليد التي سرقت . وإذا بأحدهم يشمّ يده فعرف القاضي انه هو السارق ...

نقل موظف بالات قطن وفي الطريق استراح عند تمثال ونام وحين استيقظ لم يجـد القطن . أمر (اوكا) بالقبض على (التمثال المتهم) وإحضاره الى المحكمة فهرع الشعب ليرى ما سيحدث . اقفل عليهم الأبواب فخافوا وقالوا نحن ابرياء واتينا فقط (للفرجة) . فأجابهم لا بأس ولكن ستتعاونون لكي يعود القطن الى صاحبه فإذهبوا وليأت كل واحد ببـالة . عاد واحد فقط يحمل بالة فعرف انه هو السارق ...

كان (هاناوا) (١٧٤٨ ـ ١٨٢١) الأعمى استاذاً ومؤلفاً . ذات مساء اطفأت الريح السراج فقال له تلاميذه انتظر لكي نشعله . فقال لهم : (ألا تستطيعون ان تدرسوا في الظلام ؟ حقاً انها لتعاسة ان يكون المرء مفتّح

العينين) . وهنالك مثل شائع في اليابان : (العين المفتوحة تتعلـم الطريق من العين المغمضة) .

جزيرة الحظ :

في الخليـج القريب (جزيرة التصوير) دعيت هكذا لأنها أكثر جزر اليابان ظهوراً في الأفلام وتدعى ايضاً (جزيرة الاحصنة) لوجود تماثيل ثلاثة احصنة على مدخلها و (جزيرة الحظ) لوجود معبد شنتوي يغسل اليابانيون نقودهم بمائه لتكثر بين ايديهم . يطلق على الشاطىء هنـا اسم (شاطىء اعذرني) لازدحام المستحمين فعلى كلخطوة قد يصطدم الواحدبالآخر فيقول(اعذرني). مررنا بفندق (الباسيفيك) الذي ساهم في بنائه كبار نجوم السينما ولهم هنا فيلات فخمة .

سار اوتوبيسنا فترة على طريق طوكيو ـ اوساكا وهي اوتوستراد رقم ١ في اليابان يمرّ عليها ٦٠٪ من سيارات البلاد لكنها ضيقة جداً لا يمكن ان تمرّ عليها إلا سيارة ذاهبـــة واخرى قادمة . هنا علامة الخطر هي صليب ازرق ومعناه احترس لئلا تصـــل الى الصليب الأحمر علامة وجود مركـز اسعاف . اخترقنا مدينة (يومايين) حيث أكبر المعمّرين في اليابان إذ فيها معدل عمر الرجل ٦٨ سنة والمرأة ٧٣ .

جبل فوجي واساطيره :

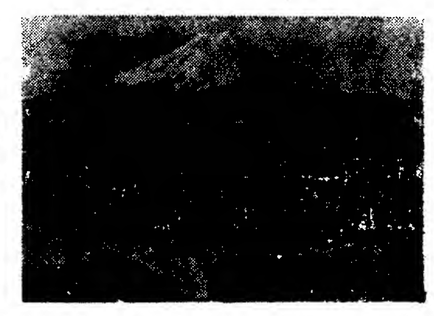
تناولنا الغداء في فندق على شاطىء بحيرة (هاكوني) . من هنا ترى قمة جبل (فوجي) ـ اولمب اليابان ـ الذي يعتبرونه اجمـل وأقدس جبل في بلادهم واسمعتنا المرشدة إحدى الاغاني عنه . تعتبر « هاكوني » أقدس بحيرة لأن « فوجي » ينعكس فيها كا في مرآة . يلقبونه « الآنسة فوجي » لأنه خجول يتحجب بالسحاب غالب أيام السنة ... عنـدما يتحدث الياباني عن « فوجي » يتملكه نوع من الانخطاف والتصوف . والويـــل للأجنبي الذي يتجاسر ويقول : لكن فوجي جبـل كباقي جبال الأرض ! انه أعلى جبل

في اليابان (٣٧٢٠ متراً) ومقر آلهتها العظام وقمتـــه اكثر القمم استدارة وهو جبل الثلج والنار والماء : الثلج يكلـّل هامته على مـدار السنة والنار تنبعث من جوفه لأن في داخـله بركاناً وحوله خمس بحيرات . يتسلقه سنوياً ما لا يقل عن ٥٠ الف متعبّد . عدد البراكين في العالم ٤٨٥ على سطح الأرض و ٨٠ تحت البحر وفي اليابان عدد كبير منها وملكها فوجي !

يلذّ لي ذكر بعض اساطير طريفة تعيش هنـا . حسد عملاق « فوجي » على ارتفاعه الشـاهق وصمّم ان يخفض من رأسه فسرق ليـــلاً قفتّين من ترابه رماهما في البحر فولدت منهما جزيرة . وسرق قفتّين في الليلة التالية وعندما وصل الى «هاكوني» صاح الديك فلعنه وهرب وترك القفـتّين فصارتا « فوتاجوياما » أي الجبلين التوأمين !

تفاخر جبل « تاتياما » وجبل « هاكوسان » ايهما أعلى فقالا لننقـّط ماء ونزلت النقـاط على « هاكوسان » فاقتنع ان خصمه أعلى . لذلك يحمل المتسلـّقون الى جبـــل « هاكوسان » حصىً ليساعدوه على ازدياد ارتفاعه و « كامي » الجبل لا تسمع إلا صلاة المتسلـّق الذي يحمل معه حصىً .

في « هاكوني » بقعة جميلة اسمها « جهنم الكبرى » . أراد (ميجي) ان يزورهـا سنة ١٨٧٣ فاعترض السكان قائلين : كيف يدخـل الإمبراطور الإله جهنم وغـيّروا اسمها بـ (وادي اللهب) وهكذا استطاع ميجي ان يزورها . بقربها معبـــد (الشيطان التنين) ذي التسعة رؤوس الذي كان يفتك بالناس وبالمواشي ولم يكفّ إلا بعد ان أقاموا له هذا المعبد .



جبل فوجي اولب اليابان



نبات الشاي

في رأس السنة يزيّن اليابانيون بيوتهم بشجرة الصنوبر إلا هنا في(هاكوني) وذلك لأن ابرة الصنوبر جرحت عين اميرة فقالت لهـــا : (لن تنبتي ولن تعيشي هنا) . ومنذ تلك (اللعنة) اختفى الصنوبر من منطقة هاكوني .

قال لنا الدليل ان آخر اشتعال لبركان (فوجي) حدث سنة ١٧٠٧ . فردّ عليه اميركي : اليابان بلاد البراكين فنريد ان نرى بركاناً حياً . أجابه الدليل بخبث ومرح : اليابان بلاد الزلازل فهلاّ تريد ان ترى زلزالاً !

هاكوني :

استمتعنا بفسحة في المركب عبر بحيرة (هاكوني) المرتفعـة عن سطح البحر ٧٢٠ متراً ودائرتها ٢٠ كـلم . تنتشر على ضفافها المصايف وتطوّقها جبـــال خضراء ملتحفة بسحاب ابيض متقطع إما من السماء وإما من الابخرة السفوح من جوف الارض الحارّ وفي الجوّ تشيع رائحة الكبريت . رغم هذا يشعر المرء بالانتعاش . وتوجد هنا ينابيع مياه معدنية للشرب وللاستحمام منها ينبوعان توأمان اسمها (جيكوجو) أي جهنّم ومياههما تصعد عاليـاً في الجوّ وحول نافورتيهما البخار الساخن .

زرنا قرية (الاونسكو) حيث يرفرف ٢٤ علـماً من دول مختلفة وتقوم نماذج لمنازل مشاهير الرجال لا ازال أذكر منها منزلي شكسبير وواشنطن. من (الاونسكو) ينقـل مصعد كهربائي (تلفريك) طوله اربع كيلو مترات الى قمة الجبل حيث يشمل النظر البحيرة مع كل ما يحيط بها .

قصر احلام :

عند الاصيل عدنا الى فندقنا (فوجيا) في ضاحية راقية اسمها(ميانوشيتا) على ضفة (هاكوني) . فندق (فوجيا) قصر من قصور الاحلام . طفت في جنينته المتدرجة على السفح وفيها أركان منمنمة من جـــداول وشلالات وصخور وحصى مرصوف على مسالكها واشجار مشذبة مهندسة بشتى الاشكال

ومشاتل زهور ومروج من الاعشاب في الغـابة . كانت ترن في اذني كلمات جبران وصوت فيروز فأدندن :

« هل تخذت الغاب مثلي   مسكناً دون القصور »
« وتتبعت السواقي   وتسلقت الصخور »
« هل تحممت بعطر   وتنشفت بنور »
« وشربت الفجر خمراً   في كؤوس من اثـير »

ترى ألا يحلم كثيرون بمنزل في الغابة هو منعزل وغـــير منعزل ويتمنون مع جبران :

(العيش في الغاب والايام لو نُظمت   في قبضتي لغدت في الغاب تنتثر)

عند المساء شعرت بجو خريفي إذ أخذ المطر يتساقط خفيفاً ناعماً وينقر زجاج النافذة فتذكرت أيام طفولتي إذ كنت أحب مثل هـــذه الاويقات والجلسات في الجبل .

في هـــذه الربوع الساحرة الهادئة يدرك المرء لماذا ألَّه اليابانيون الطبيعة وعشقوها . ألسنا جزءاً منها ؟ أليست أمنا الكبرى الشاملة التي تحنو علينا ونحبها ونود أن نضيع فيها ؟ قد يكون ما يصنعه الانسان غير جميل ولكن هـل يوجد في الطبيعة شيء غير جميل وغـير موحٍ ؟ عندما أعيش بذاكرتي جولاتي حول العالم وأصل الى (هاكوني) أغمض العين على صورتها .

صحوت باكراً وقمت بنزهة خلوية في تلك الطبيعة الفاتنة ومشيت في سوق البلدة. ما اعرفه من فواكه وخضار لبنان رأيته كله هنا . الناس – وغالبهم فلاحون – يغدون الى عملهم بهدوء وكأن السعادة تغمر هـذه القرية الجبلية الوادعة . قلت في نفسي : ترى لو بقي البشر عائشين في الهدوء والقناعة أما كانوا أكثر سعادةً ؟ هل الضوضاء الحضارية هي أفضل ؟ ان بريقها وصخبها عكرا صفاء الماضي السعيد ماضي الأجداد فمن جهة لم يعد يتاح للمرء أن يعيش مثلهم ومن جهة أخرى يعجز عن لحاق كل جديد .. من هنا السرعة الجنونية

والتكالب على المال وأمراض الارهاق وضغط العمل وفساد النفوس وتفكك العائلات وتطلع المرأة الى عمل الرجل وغلاء المعيشة وحسد الآخرين والنقمة عليهم والكد والكدح دون الوصول الى القوت الكافي .. أليس هـذا وغيره من أمراض مدنيتنا التي نفاخر بها ؟ كلما بعُد الانسان عن الطبيعة كلما بعُد عن السعادة الحقة . راودتني هـذه الأفكار ربما لأنني في حضن الطبيعة بعد صخب طوكيو وازدحامها .

في القطار الى كيوطو :

ايقظتني منهذه التأملات صفارة الاوتوبيس تنادي للرحيل الى (كيوطو) كان القطار الابيض الازرق ينهب الارض بسرعة ٢٠٨ كلم بالساعة وعندما يمر على خطيه أقفل عيني وأشيح بوجهي خوفاً من ذلك السهم المارق. محطات القطار نظيفة ومنظمة . على الرصيف بابعـــاد متساوية تقريباً يرسم سهم ويكتب رقم القاطرة . على تذكرة الراكب أيضاً يكتب رقم القاطرة نفسه فيهتدي الراكب إليه على الرصيف دون أن يسأل او أن يضيع .

عندما تحرك القطار وزعت المضيفة مناشف مـــاء دافىء لغسل اليدين والوجـه بينما وجهها هي يحجبه الحياء فلا ترفع البصر الى أحـد . ثم تقدم المفتش وحيّى برفع قبعته وحنى رأسه وطاف بالركاب يخرم التذاكر ويقول عبارة لم أفهمها فأجبته بابتسامة مستعيضاً بهـا عن الكلام ، والابتسامة هي أجمل اللغات .

في الطريق الطويـل اجتاز القطار عشرات الانفاق كأن خطه سلسلة من الانفاق تتخللها بعض الفجوات المفتوحة على السماء فهو يخرج من جوف جبل ليدخل في آخر. ان ٧٥ ٪ من أرض اليابان جبال. على جانبي الطريق غابات الخيزران ومزارع التوت وحقول الارز والشاي الذي يبـدو كنبات الآس . البيوت ضيقة ومتلاحقة فالياباني لا يحب البيوت الواسعة .

توقفنا تباعاً في: اتامي – شيزووكا – هاماتسو – تويرهاشي – ناجويا– ماي بارا – وأخيراً نزلنا في كيوطو .

٤٧

كيوطو

من اغاني الجيشا :

١ ـ في الربيع :

القمر محتجب فوق الجبل الشرقي
نار السهرة تتوهج في قلب الظلام
بين زهور الكرز الخجولة تتهادى احلام نيسانية
والجيشا تُخفي حبها في كمها الفضفاض
انني احنّ الى الفساتين المتمايلة حول فتيات الجيشا .

٢ ـ في الصيف :

انها تتنسم الهواء العليل على حافة نهر (كامو)
عنقها الابيض رقيق بضّ شامخ
تحاول ان تُخفي دموعها وراء مصباح من الورق
نيران الابتهاج تتراقص على سفح الجبل وهي تحترق لوعة
انني احنّ الى الفساتين المتمايلة حول فتيات الجيشا .

٣ ـ في الخريف :

شحّ الماء في مجرى نهر (كامو)
خرير المياه ورنين اجراس المعابد يتعانقان في الهواء
ريح الخريف تعبث ليلاً بأشجار الصفصاف الباكي العاري الغصون
انني احنّ الى الفساتين حول فتيات الجيشا .

٤ ـ في الشتاء :

من النافذة امتّع العين بالثلج المتساقط وأتأمل
أكلما سعدنا بلقيا شعرنا بحنين الى لقيا ؟
نور النهار يتضاءل بعد اصيل بارد
وسواد الليل يلف الربوع
وقبل ان استسلم الى الكرى
اصغي الى طيور الماء تغني للنهر والليل
انني اذوب شوقاً الى اهداب الفساتين المتموجة حول فتيات الجيشا.

هكذا غنّت الجيشا في سهرة فولكلورية بكيوطو .

القديم والجديد :

اسم كيوطو (ومعناها المدينة العاصمة) يبعث في نفوس اليابانيين ذكريات الماضي ويجعلهم يستجلون لمحات ولمسات الروح اليابانية على طبيعتها ويحلمون بالمعابد وزهور الكرز وفتيات الجيشا وروعة الربى الخضراء والشعر والفنون اليابانية التقليدية فهذه كلها كانت ولا تزال في كيوطو .

بقيت كيوطو كما رأينا عاصمة اليابان من ٧٩٤ ب.م. الى ١٨٦٨ إذ نقل « ميجي » العاصمة الى طوكيو . يبلغ عدد سكانها نحو مليونين . عندها بريق الجديد وسحر وجاذبية القديم . تتجاوز فيها المحلات التي تبيع « كل شيء » والحوانيت المتخصصة في الكيمونو والعرائس والخزف والخشب وخصوصاً الحرير . عدا الفنادق الحديثة من الطراز الاميركي توجد الفنادق اليابانية

المدعوة « ريوكان » . نزلت في واحد منها يوماً للاختبار ومعي سائح استرالي وآخر سعودي فلم اجرؤ على مثل هذه « المغامرة » وحدي .

الفندق الياباني « ريوكان » :

هو اشبه بمنزل عائلي كبير تجري الحياة فيه على النمط الياباني . البنـــاء والاثاث من خشب. الارضية مغطاة بحصر من قش الارزّ. استقبلنا المضيفون والمضيفات بكلمة « ايراسهاي = اهلاً وسهلاً » فأجبنا بالمثل كا لقننا الدليل ورددنا على الانحنـــاءات المتواترة بمثلها . خلعنا احذيتنـا ولبسنا الكيمونو وقدموا لنا حالاً الشاي الاخضر وحلوى الرز . ثم توجهنا الى الحمام محتذين القبقاب العالي الرنـّان . الحمام ليس في المغطس ولا تحت الدش بل يُنظـَف الجسم بالصابون ثم يشطف بالماء. الأكل على انفراد كل فيغرفته ونحن جالسون على الأرض طاوين الساقين بينما المضيفةتخدم وتنتظر الى النهايةبتواضع وأدب. الطاولة منخفضة جداً . نمسك صحناً باليد اليسرى ونمسك بإبهام وسبابة اليد اليمنى قضيبين نأخذ بهما الأكل من الحـــلة ونضعه في صحننا . المشروب هو « ساكي » وعصير التفاح . النوم على الأرض إذ يسحب الفراش من مخدعه في الحائط ويمدّد على الحصير والوسادة منخفضة . توجد أفرشة طويلة للأجانب وقصيرة لليابانيين .

زيارة عائلة يابانية :

تنظم شركة السياحة زيارات قصيرة لعائلات يابانية . كان حظي عنـد عائلة مكونة من الوالدين وثلاث بنات وصبيين . لم يقرع الدليـل جرساً بل صفـّق وقال « عذراً » ودخلنا . انحنيت معه أمام هيكلين ثم جلسنا ازاءَهما وأفراد العائلة عن جانبينا . في الهيكل الشنتوي يعبدون روح «اماتيراسو» وأرواح الطبيعة (كامي) وفي الهيكل البوذي يعبدون أرواح الأجـــداد ويقدمون لها ـ بين ما يقدمون ـ صحن ارزّ كل صبـــاح . حكوا لنا من اساطير كيوطو ان امرأة كانت تغسل ثيـاباً في نهر « كامو » فرأت درّاقة

تطفو على وجه الماء . أخذتها وقدمتها لأرواح الاجداد في الهيكل المنزلي . تفتحت وخرج منها طفل . عندما كبر قصد بلاد الغيلان وفي الطريق تقدم ثلاثة لمعاونته كلب وقرد وتدرج ساعدوه في حصار قلعة الغيلان حتى هدمها وفاز بكنوزها ... بعض الجنود قبل الذهاب الى الجبهة يضعون عند هيكل أرواح الاجـداد اظافر وخصل شعر منهم لتحرق بـدل جثمانهم إذا فقد في الحرب .

قدموا لنا الشاي الاخضردون ان يسألونا إذ عندمايزور الياباني لا يسألونه هل يريد الشاي أو القهوة او غيرهما فتسع مرات من عشر يقول « لا » ولاؤه هذه معناها نعم ! يعيد المهدى اليه جزءاً صغيراً من الهدية علامة الشكر . يغتسل أفراد العائلة في المـاء ذاته . في الجنينة الصغيرة وراء البيت ثمان « بونساي » وجرس صغير يلاعبه الهواء فيبعث رنات ناعمة . القباقيب خارج عتبة الباب المفتوح على الجنينة .

مدينة الألفي معبد :

بعد يوم في الـ (ريوكان) انتقلت الى فندق (مياكو) وهو رائع جداً ويشرف على كيوطو من قمة ربوة مشجرة من سطح (مياكو) تبين كيوطو بأكملها وهي ليست واسعة . أهم ما يوقف النظر فيها بوابات معابد الشنتو و (باجودات) المعابد البوذية فيها ١٦٠٠ معبد بوذي و ٣٠٠ معبد شنتوي. ثم الجسور الممتدة على نهر (كامو) والجنائن المنتشرة هنـا وهناك وأدراج تصعد الى معابد جاثمة على مشارف المدينـة . حول كيوطو دائرة من التلال الخضراء .

زهر الكرز :

تزين كيوطو اشجـار الكرز ويتغنى بزهره الشعراء والمغنون ويهـديه الاصدقاء والاحباب ويتأمل به الحالمون والمتعبدون . تقول إحدى اغانيهم : (إذا رمت الفوز بقلب يابانية فقدم لها في الصباح زهرة الكرز) . يعتبرونها

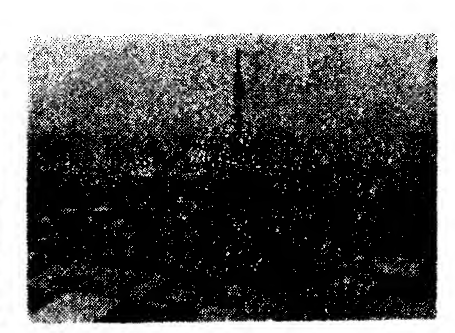
رمز الرقة والنقاء ورمز الجمال الزائل لأنها تذوي او تمقد بسرعة وهي في نظرهم ملكة جمال الطبيعة . ليست ديانة الشنتو وحدها تقدس الطبيعة بل البوذية ايضاً . يتفق ان مهرجان عيد مولد بوذا في ٨ نيسان يقع مع مهرجان ازهار الكرز فنيسان هو أهم شهر عنـــدهم . يقول المعلم (زان – ZEN) مؤسس المذهب البوذي الياباني : (عندما تدخل غـــابة لا تعبث قدماك بعُشبها وعندما تدخل في الماء لا تجعّده كثيراً). عند القطاف يترك الياباني ثمرة او بعض ثمرات في الشجرة كيلا يحرمها من كل (بناتها) وكي تجود عليه بالموسم القادم ... استمتعت بإقامة طويلة في كيوطو زرت خلالها أهم المعابد والجنائن والقصور .

معبد « هايان جنجو » الشنتوي :

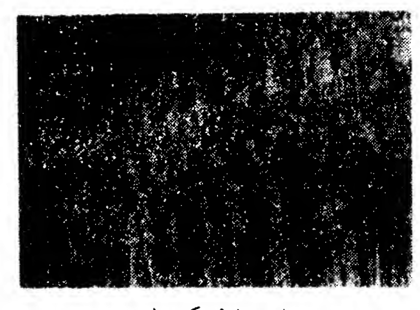
شيد سنة ١٨٩٥ بمناسبة مرور ١١٠٠ على تأسيس كيوطو وأقيم لعبادة أول امبراطور فيها (كامو) وآخر امبراطور (كوماي) كأنهما الإلهان حارسان لها . يوصل اليه اجمـل شارع في كيوطو ويعقبه رواق فسيح تحت البوابات المقدسة . تقوم في كنفه مباني مصالح عامـــة كالمتحف والمكتبة وقاعة البلدية وقاعـة الصناعات . الجناحان ــ الشرقي لـ (كامو) والغربي لـ (كوماي) ــ من خشب السرو يعلوهما سطح بشكل سفينة . القاعـــة الرئيسية على طراز بهو قصر امبراطوري وهي قائمـة على ٥٢ عاموداً أحمر وعن يمينها ركن (التنين الاخضر) وعن يسارها ركن (النمر الابيض) .

تقام في (قاعة الزواج) الحفلات الزواجية حسب مراسيم الشنتو. حول المعبد جنينة مساحتها ٣٠ الف متر مربع فيها صالة الشاي وأنواع كثيرة جداً من الزهور والاشجار كالكرز الذي يزهر في الربيع والنرجس الذي يزهر في الصيف والجرمشق الذي يصفـّر ويحمّر في الخريف . وفي الشتاء الثلج الزهر الابيض النازل من السماء .

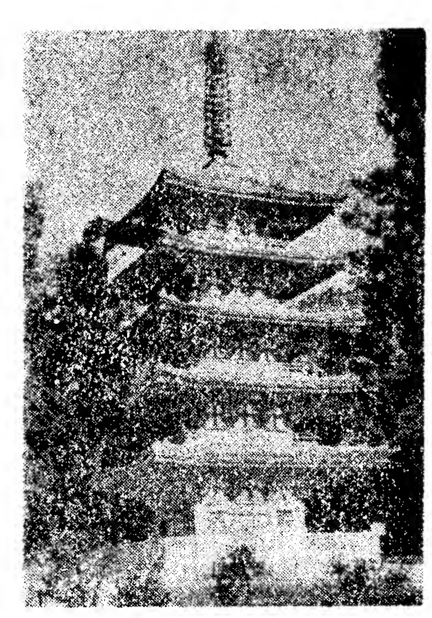
يحتوي معبد (هايان) ذخائر ــ إذا جـاز التعبير ــ من الامبراطورين



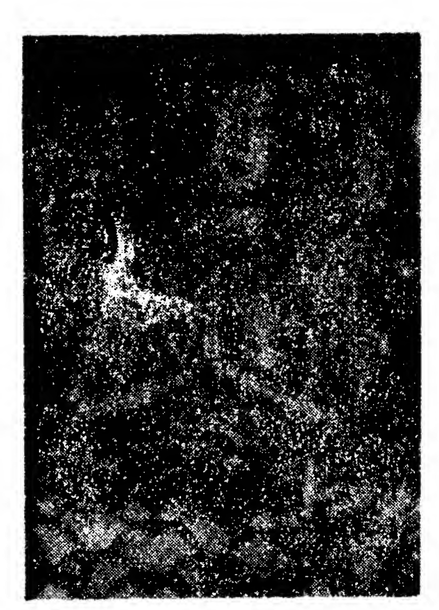
مدينة الألفي معبد



باجودا في كيوطو



كانون ذات الالف يد



الف تمثال في معبد كانون

المعبودين فيه. منها مراوح وغليون وثياب و كيمونو وسيوف وتيجان وصفحة بخط (ميجي) .

في ٢٢ تشرين الاول يقام هنا (مهرجان العصور) لذكرى نقل البلاط الامبراطوري الى كيوطو سنة ٧٩٤ ولذكرى افتتاح هذا المعبد سنة ١٨٩٥. يلبس ألفا رجل وامرأة ازياء مختلف العصور اليابانية ويطوفون شوارع المدينة وراء العربة الامبراطورية وينتهي المطاف عند معبد (هاين). انه استعراض لفنون كيوطو في النسيج والطبع على القماش والحياكة والتطريز في (عاصمة الحرير) كما هو اروع استعراض فولكلوري في اليابان .

الالهة ذات الألف يد :

معبد (سنزيو سانجندو) البوذي هو معبد (كانون) إلاهة الرحمة وهو شعبي جداً في كيوطو بل في كل اليابان .

اسم التمثال الأعظم في وسط المعبد (كانون) . انها جالسة الأربعاوي ـ الجلسة البوذية المعروفة باللوتس ـ وعدسة الحكمة نافرة من جبينها ويداها مضمومتان . حول رأسها ١١ وجهاً صغيراً و٤٠ ذراعاً تمثل الف يد وكل يد تخلص ٢٥ عالماً ! ارتفاع التمثال ثلاثة أمتار ونصف . يشع منه الصفاء والوداعة فيؤثر في من يتطلع اليه . نحته (تانكي) أشهر نحات في حقبة (كاماكورا) . نحته ـ وعمره ٨٢ سنة ـ بالطريقة الآتية : صنع قطعاً من خشب مجوف الصقها بعضها ببعض بحيث ظهرت مجموعتها بشكل بشري ثم طلا الاخشاب وغلفها بأوراق الذهب .

على جانبي التمثال الأعظم يقف الف تمثال لـ « كانون » ارتفاع كل واحد منها ١٧٠ سم صنعت بالطريقة ذاتها وغشيت بأوراق الذهب . لكل تمثال ٣٠ ذراعاً . صنعها ٧٠ فناناً على مدى نحو مائة سنة. هذه الايادي هي علامة النجدة والرحمة المغيثة .

حسب الاعتقاد البوذي « كانون بوديستاڤا » هي إحدى تجسدات بوذا

ولها ٣٣ وجهاً فيمكن للمؤمن أن يستجلي في الالف تمثال ٣٣٠٠٠ وجه !

أسس هذا المعبد سنة ١١٦٤ ب. م. بأمر الامبراطور « جوزيراكاوا ». واسم المعبد هو « سنزيو سانجندو » ومعناه « قاعة الثلاثة وثلاثين خليجاً ».

تحيط بالقاعة تماثيل أرواح آلهة صالحة ذات أشكال مرعبة لتخيف الأرواح الشريرة وتبعدها . إله الريح الذي يبعث الرياح ويشرّدها في العالم . إله الرعد الذي يهز السماوات والأرض بزئيره . وهذان هما إلهان عريقان عندما كانت الشعوب البدائية تؤله المظاهر الخارقة في الطبيعة . تمثالاهما من خشب بارتفاع ٢٧٥ سم . الروح المفترس الذي يلتهم المرض والشر . الروح المصارع الذي يحمي المترددين على هذا المعبد . «باسوسنين» — وكان في الاصل ناسكا — يُعتقد انه في سفر مستمر عبر المجاهل والفيافي مصطحباً معه ٩٢٠٠ مليون خاطىء وخاطئة نجّاهم من جهنم . انه إنسان فريد عاش يمارس التقشفات والشعائر الدينية سعياً الى كمال الحق والمحبة وأُلّه بعد موته . « جويوجو » رجل عملاق ذو قوة لا تُقهر ويُزيل كل العقبات. «ماوارانيو» امرأة تقية تضم يديها في صلاة رعاية . «ينزيوها تيبوسيو» ومعناها ٢٨ روحاً هي في خدمة « كانون » منها آلهة الجمال والحكمة والتقوى والمحبة والازدهار وطرد الشر . « دايبنكو دوكرتين » هي فتاة سماوية مرتدية ثوباً ارجوانياً يتموّج حولها .

ماء الآلهة :

زرت معبداً بوذياً آخر يرتقي الى سنة ٧٨٩ واسمه « كيوميزوديرا » ومعناه الماء الصافي. ينصب فيه منذ أزمان بعيدة ماء يعتبرونه منعند الآلهة. موقعه في الجبل الشرقي المتطلع الى كيوطو ومن شرفته الخشبية يهوي شفير . الغريب في هندسته ان (الباجودا) ذات ثلاثة أدوار بدل خمسة وسطحه بشكل سفينة . على جدرانه رسم يمثل عقد معاهدة بين اليابان وهولندا في مطلع القرن السابع عشر على متن السفينة (جوشوين سن) . يحتفظ أحد

معابد كيوطو برسم قصة طريفة حدثت في اواسط القرن السادس عشر . أخذ الحاكم (اودا) جنوده الى أحد المعابد وقال لهم : سأصلي لانتصارنا وسأرمي نقوداً أمام المعبد . إذا سقطت ووجهها الى فوق سننتصر وإذا وجهها الى الارض سننهزم . ورماها فإذا بأوجهها كلها الى فوق فحاربوا وانتصروا . اكتشف فيما بعد دهاء (اودا) إذ أنه ألصق كل قرشين معاً بحيث لا يظهر إلا الوجه كيفما استقرت النقود .

قصر فوشيمي — مومويامي :

فيه مدفن (ميجي) وزوجته. انه على شكل برج ذي تسعة أدوار وكل دور أصغر من الذي تحته بحيث يبدو القصر كشجرة أرز . يقوم على قمة رابية ومن سطح دوره السادس ينكشف منظر أخاذ على المدينة وما يحيط بها . بدأت زيارته من علي . سقف الدور السادس مزركش بألوان صارخة يغلب عليها الاحمر المخملي وسطحه مغطى بثمانية آلاف (قرميدة) مغشاة بلون الذهب مما يجعله أجمل برج في اليابان. فيالدور الخامس بقايا او (ذخائر) من (ميجي) وزوجته . في الرابع بقايا من قصر (فوشيمي) القديم ورسوم وآثار من البناء الذي تهدم وملابس (الساموراي) وأسلحتهم . في الثالث بقايا من مؤسسه (هيديوشي) . في الثاني شيء من عادات اليابانيين وطريقة معيشتهم على ممر العصور . في الاول تاريخ كيوطو وحقبة (مومويامي) .

جنائن كيوطو :

تنسيق الجنائن اليابانية هو نوع من العبادة للطبيعة الإله وصقل للذوق ورياضة لاكتساب صفاء الذهن ومظهر من مظاهر الرقي .

زرت جنينة (كتسورا) الامبراطورية ، من سنة ١٦٠٢ . وجنينة قصر (شوجاكوين) الامبراطوري ، من ١٦٥٤ . وجنينة معبدي (جنكاكوجي) او الركن الفضي و (كنكاكوجي) أي الركن الذهبي ، وكلتاهما من القرن الخامس عشر . يعتبر اليابانيون ان الجنائن ذات الطابع الياباني الصرف هي

في كيوطو ويجب أن يُحتذى بها. جمالها هادىء رزين عليه مسحة من الكآبة الشعرية الجذابة ومن الجمال المحجّب الموحي كأنه نابع من صوفية الشرق .

عندما يتجول المرء في الجنينة لا ينظر اليها ككل بـل يجب أن يتوقف عند الجزئيات : شجيرة (البونساي) هذه ذات الثمانين او مئة وأربعين عاماً ونيف . هـــذا الشلال الذي هو فقط خيط ماء منسكب . هذه الحجارة الموضوعة في الماء لتتنقل عليها الأقدام . هـــذه البركة الضيقة جداً (بحيرة مصغّرة) . هذه الأجراس يعبث بها الهواء ويخرج منها رنات ناعمة . هـــذه المقاعد من جذوع الشجر . في هـــذا الركن تزهر الأشجار بالربيع وفي ذاك تتفتح أزهار الصيف .. يخرج المرء من هذه الجنائن ويود لو يجلس وحـــده ويتأمل او .. يستسلم للنوم . وفعلاً بعـــد الجولة في الجنائن عدت لاستريح وأتأمل فيغرفتي وأفكر بما رأيتواستعد لسهرة اليوم (اليابانية الكيوطية).

من سهرات الجيشا :

كنا أحد عشر سائحاً ومعنا دليلنا . أخذنا الى بيت ياباني حيث شربنا (الساكي) وأكلنـا (السوكياكي) وكان الليلة من شرائح لحم بقري أضيف اليها فطر ولب البامبو وباسيلا وبصل وثوم وبعض خضراوات لم أعرفهـا . خلطت كلهـــا في القدر على النار أمامنا . حضرت فتاتان من فتيات الجيشا اسمها : (ايسوياكو وميكيامي) . واحـــدة رقصت والثانية غنت وعزفت على (الساميسن) . واشركتانا في ثلاث ألعاب اجتماعية مرت برهة قبل أن نفهمها ونستمزجها .

الجيشا معناها (بنت الفن) تتحرك وتبتسم وتتحدث ببطء وهـــدوء كأنها دمية . تكثر من مسحوق الرز بحيث يبدو لون بشرتها كالمرمر الناصع. يرزح رأسها تحت الشعر المستعار والمثقل بالحلي . قدماها حافيتان لأنها تخلع عنـد الباب (شبشب) القش العالي . فستانها من الحرير المطرز كاه عريضان وهو واسع جـداً ومتموّج حولها رغم ربطه في وسطه بالكيمونو . الجيشا



إله الرعب



الجيشا

محترمة في اليابان تعتبر من الطبقة الراقية ولا يطالها ما يطال فنانات الغرب من الانتقاد وهي تحافظ على سمعتها ووقـــارها . تحسدها الكثيرات فتحمل أحياناً (مطرةً) لتحفظها (من العين) والمطرة مصنوعة بنوع يُبقي فـاها الى أعلى كيفما تحركت الجيشا .. قبل أن ترتقي الى مستوى جيشا تمر بمرحلة (مايكو) عادة في سن المراهقة . كثيرات منهن يُتقنّ مراسيم حفلة الشاي وتنسيق الزهور وفن الخط والتصوير. غنّت لنا في هذه السهرة أغنية تتجسد فيهـــا الروح اليابانية بعشقها للطبيعة في كل فصول السنة ولزهور الكرز ولأجراس المعابد ولمصابيح الورق وللمهرجانات وبالحب العذري الشائع بـين كلماتها وبالحياء الذي يُغلفها وهي الأغنية التي كتبتها في مطلع هذا الفصل .

٤٨

نارا

مدينة الحرمين :

« نارا » هي على بعد ٤٨ كلم من كيوطو . كانت عاصمة البلاد من ٧١٠ الى ٧٨٤ ب.م. فيهـــا تفتحت فنون اليابان وحرفها ولغتها ودينها . لكن عوادي الزمن ـ لا سيما الحرائق والزلازل ـ نالت منها. كان دليلنا هذا النهار متعمقاً جداً في ديانتي الشنتو والبوذية وممـــا قاله لنا : ان رسم بوابة الشنتو يشبه كلمة يابانية معناها السماء . لاحظت ان المرشدين والمرشدات يعيدون دوماً كالصدى الكلمة الأخيرة في عباراتهم كأنهم يكلّمون ذواتهم... وروي لنا ان الامبراطور « جنشو » اصدر هـــذا الأمر سنة ٧١٩ : بما ان البرابرة يضعون جهـــة الثوب اليمنى فوق اليسرى فعلى اليابانيين ان يضعوا اليسرى فوق اليمنى مثل الصينيين . أما الجثة فتلبّس أبيض مع وضع الجهـــة اليمنى فوق اليسرى !

«نارا» هي مدينة المتاحف والمعابد والجناين . بعد ان طفناها بالاوتوبيس دخلنا « الجبـــل المقدس » وحرمين حول مجموعـــة من معابد وأديار الشنتو

والبوذية. قديماً كانوا يتخاصمون على الحدود ويقطعون أشجار جيرانهم فتدخل القاضي ورسم لهم تخماً واضحاً رأيناه اليوم .

ترتع هنا عشرات الغزلان في أكبر حديقة من نوعها باليابان حول المعابد. تُربّى الغزلان في كنف المعابد البوذية لأن بوذا نسك في حديقة الغزلان في « بناريس » [1] . تتنافس الأكشاك في بيع الهـدايا والتذكارات على جانبي « جادّة الاقتراب » المؤدية الى معبد « توداري » . من المعروضـات قطعة « آلهة الحظ السبعة » توضع تحت الوسادة في ليلة رأس السنة لتجلب الحظ ولتساعد في تفسير اول حلم في السنة لاستطلاع ما تخبأ ...

كان معبد « توداجي » المركز الرئيسي للبوذية في البـلاد . تعززت في ظله سلطة الرهبان حتى كان من أهم اسباب نقل العاصمة الى كيوطو التخلص من الوصاية الدينية على التاج وتحرير الامبراطور والبلاط من ربقة الكهان والرهبان في « نارا » .

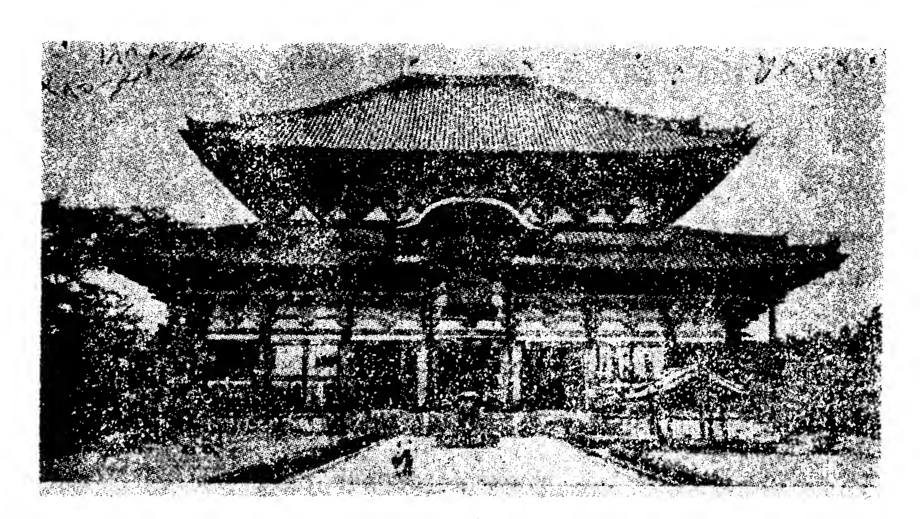
أراد الامبراطور « شومو » منذ اثني عشر قرناً ان يجعل هنا الفردوس البوذي على الأرض فأقام مباني فخمة وزرع غابات مستعيناً بثلاثة رهبان فأقيم له ولهم « معبد القديسين الأربعة » .

اكبر تمثال لبوذا في العالم :

هنا أكبر تمثال لبوذا في العالم يدعى « ديبتسو » . بوذا المقصود هنا هو « ڤايروشـانا بوذا » مؤسس مذهب « كيجون اي التنين » . حسب البوذية يتجسد بوذا الأصلي في بوذات عديدين . بوذا هـذا المعبد هو المخلّص الذي يُشعّ بالشمس ويحفظ العالم من الزوال ؟! ويدعى أيضاً « بوذا المبارِك » بينما في كاماكورا هو « بوذا المتأمّل » . التمثال من برونز وقياساته هي بالأمتار: الارتفاع ١٦٫٢١ – الوجه ٤٫٨٤ – العين ١٫١٨ الانف ٠٫٤٨ – الاذن ٢٫٥٧–

---

[1] راجع الفصل ٧٩ .



معبد تمثال ديبتسو



معبد ١٠٠٠٠ الف بوابة



أكبر تمثال لبوذا في العالم

الابهام ١٫٦٢ . وقاعته طولهـــا من الشرق الى الغرب ٥٧ متراً وعرضها من الجنوب الى الشمال ٥٠٫٤٨ متراً وارتفاعها ٤٨٫٦٦ متراً . اضخم جرس في اليابان هو في معبد « شيونين » في كيوطو من ١٦٣٦ والثاني هو هنا من سنة ٧٥٢ يزن ٤٨ طناً وقياساته بالأمتـار : الارتفاع ٤ ـ الدائرة ٨ ـ الكثافة ٠٫٢٥ .

على مدخـــل عرش « بوذا الحافظ والمخلّص والمبارِك » ترتفع سحائب البخور ويدخل الزائرون ايديهم فيها للبركة . حول التمثال تقوم أعمـــدة جبارة من خشب الارز وعن يمينه وشماله آلهة الرحمة « كانون » .

معبد « اوشيمي ايناري تايشا » و٢٠ الف بوابة :

هو بوذي وشنتوي معاً . الشنتوي عند اقدام الجبل والبوذي على ذروته وبينهما طريق يمتـــد اربعة كيلو مترات تظللها عشرة آلاف بوابة حمراء يمرّ المتعبدون تحتها وهم محتذون صنادل من قش وبيدهم عصى في حجّهم الى معبد القمة . بعض هذه البوابات ـ الأقواس تحمل اسم المتبرع بها والتاريخ. أمام المعبد الأسفل أجراس كثيرة ومستودعات ادنان«الساكس» يقدمها المتعبدون. وتماثيل أحصنة قدمها بعض « الساموراي » .

هذا المعبد مكرس لخمسة آلهة : اوكانو ميتاما ـ كامي . صادا هيكونو ـ كامي . اوميانومينو ـ كامي . شينو ـ كامي ثاناكانو ـ كامي . في الشهر القمري الثاني من سنة ٧١١ ب.م. نُقلت « ارواح » المعبودين من قمة جبل « ايناري » الى هذا المعبد حتى يسهل على الشعب الوصول اليها . وهي تعتبر اهم آلهة الأجداد وآلهة الحياة التي ترعى الانسان وتوفر له الملبس والغـذاء والسكن . منذ ١٨٧١ رفع الى مقـام معبد امبراطوري واجزل له التقادم الاباطرة والأمراء والمحاربون وعلية القوم واصبح عـــدد زائريه سنوياً نحو عشرة ملايين وله في البـــلاد ٣٢ ألف فرع . من مظاهر التعبد تقديم قوس أو بوابة وعـدا العشرة آلاف في السفح يوجد عشرة آلاف غيرها في كنف

المعبـــد . لفت نظري وجود تماثيل (ذئاب) إذ يُعتبر الذئب مرسلاً من آلهـة (ايناري) . ذيـله الاثيل علامـة ضخامة السنابل ووفرة الغلة . في فمـه حجر ثمين رمز لروح الإله المعبود ومفتـاح هو رمز لمفتاح اهراء الرز . وفي المعابـــد رسوم او



تقادم الساكي للمعبد

رموز حيوانات خرافية . وعندهم عدا التنين والغول الكلب السماوي (تنجو) انفه طويل جداً وجسمه هوائي ويداعب أرواح البشر . وولد الماء (كابا) طوله ٩٠ سم وهو شرير يضر بالنـاس . وعروسة البحر نصفها الأعلى امرأة والأسفل ذيل سمكة وهي لا تؤذي .

المهرجانات :

مهرجان رأس السنة في ١ و٢ و٣ كانون الثاني يشترك فيـــه هنا مليون وربع . في ٥ منه مراسيم سكب (الساكي) من سبعين اناء على الحجر المقدس في الجبل . في ١٢ منه حفلة رماية السهام لإبعاد الأرواح الشريرة والأمراض والمصائب . في ١٥ منه يزور المعبد المتزوجون جديداً . وفي مطلع هـــلال شباط مهرجان يوم الخيـل في ذكرى تأسيس المعبد . المهرجان الصناعي في أول سبت من نيسان يؤمه رجال الصناعة مـــع عينات من انتاجهم للتبرك ولطلب المزيد . في ١٦ حزيران مهرجان الرز ويتضمن صلوات لغلة وافرة .

في ٧ حزيران مهرجان لقـاء الأحباب السماويين (ثم الارضيين) : على الضفة الغربية من (نهر المجرّة) كانت امرأة تغزل . رآهـــا راعٍ فأحبها وتزوجها وانقطعت عن العمل . اغتاظ والداهـا وأعاداها الى البيت وسمحا لها أن تعبر (المجرة) لترى زوجها يوماً واحـداً في السنة هو ٧ حزيران .

إذا كان مطر تعبر على جسم بجعة . تجسدت روح المرأة في نجم (فيجا — VEGA) في مجموعة العود وروح زوجها في نجم (الطائر) في مجموعة النسر، وروح البجعة في أحد نجوم مجموعة البجعة .

الليلة الثامنة والثمانون بعد رأس السنة القمرية هي مهمة جداً عند الفلاح الياباني إذ يبذر الحب ويترقب تفقيس دودة القز . وتقام في البيوت والمعابد حفلة نثر الحبوب مع القول : (ادخل أيها الخير . اخرج أيها الشر) .

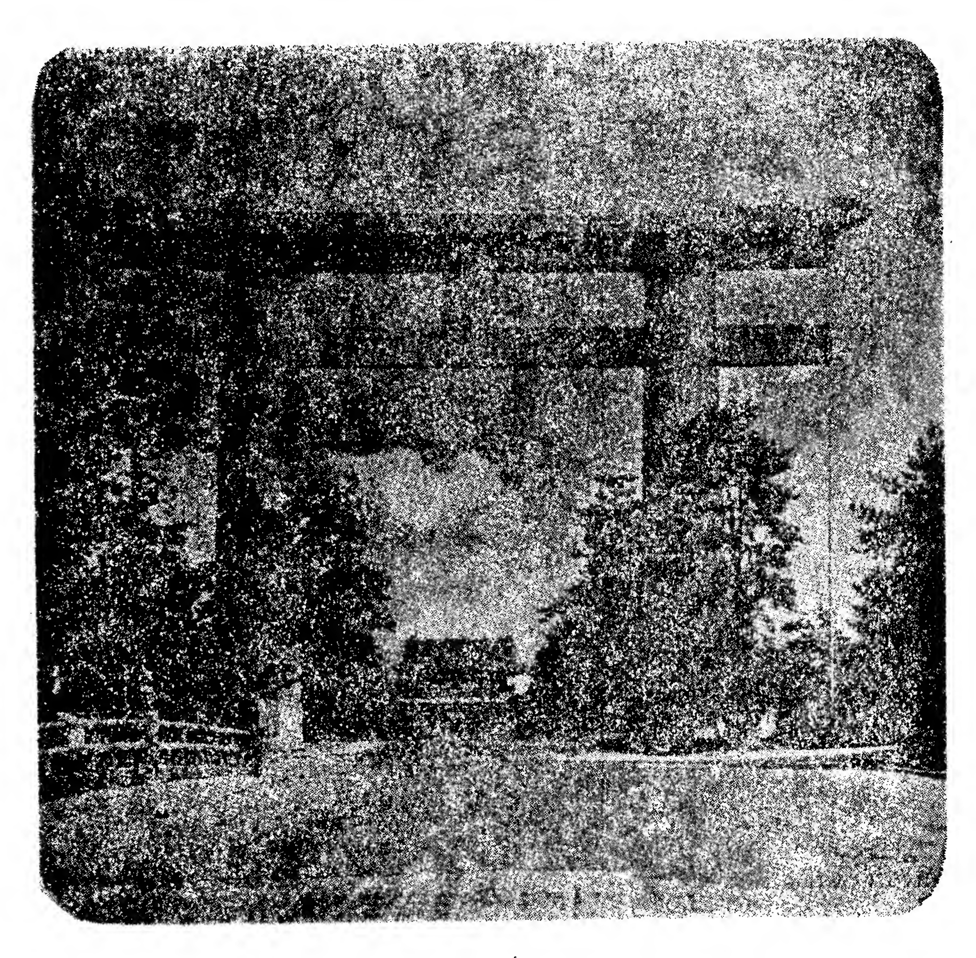
في ٢٣ تموز عيد أبناء (رعية) ايناري . في الليل توقد مصابيح المعبد العشرة آلاف المنتشرة حوله. في ٨ تشرين الثاني مهرجان اشعال النار للشكر على الغلال التي جُنيت . يحرق القش وتعزف الموسيقى ويدور الرقص .

بطولة راهب :

من حكايات هذه البقعة ان (كانو) كان محارباً شهيراً وغنياً . زهد بالدنيا وترك زوجته وولده وصار راهباً بوذياً في أعالي الجبل . بعد سنين عرفت زوجته وولده مقره فقصداه . وإذ كان محظوراً على النساء الصعود الى دير الرهبان صعد الابن وحده . لم يتعرف على ابيه بين الرهبان الكثيرين فعاد حزيناً ورأى ان أمه توفيت فجأة فارتقى ثانية الى القمة وترهب على يد الراهب (كاروكايا) وعاشا معاً في الدير الى حين وفاة (كاروكايا) الذي كان والده ولم يعرّفه بنفسه إذ كان على المترهب ان يدفن حياته السابقة ويعبّر عن ذلك باتخاذ اسم رهباني جديد .

معبد ايزي — معبد الأمة اليابانية :

أود ان اذكر هنا شيئاً عن (معبد ايزي) الذي زرته في (طوبا) بعد كيوطو . معبد (ايزي) — وهو (مكة الشنتو) — يقع في (ايزي شيما) إحدى الحدائق القومية . صعدت اليه السيارة في طريق رائع ثم سرنا على الأقدام في جو جبلي منعش على حافة نهر وبين اشجار تشبه كثيراً (السيكويا) وتظلل أقدم وأهم معبد . على (اقترابه) ترفرف اعلام البلاد والبوابة المدخلة



معبد الأمة اليابانية

اليـه هي من خشب الأرز عمرها ٧٠٠ سنة . هـذا المعبد هو امبراطوري لا يدخل قدس اقداسه إلا الامبراطور . تُعبد فيه إلهة الشمس (اماتيراسو) أم الشعب الياباني . في رأس السنة يزورونه طالبين الازدهار والعزة لليابان. حضرت فيه صلاة مرنمة وراقصة قام بهـا كهان وكاهنات الشنتو . الشعائر الدينية فيه ليست فقط تعبداً لـ (كامي الشمس) بل أيضاً تكريماً للأمبراطور ابن الشمس ولروح الأمة ولحضارتها ولتاريخها. رئيسه — حالياً هي امرأة — هو رئيس الاتحاد العـــام لجمعيات ومعابد الشنتو . طراز هندسته هو مثال يحتذى في بناء المعابد . التطهير قبل زيارته يكون بغسل الأنامل والفم بمـاء النهر الجاري أمامه .

تحفظ في معبد (ايزي) المرآة المقدسة أحد مقوّمات العرش الثلاثـــة سلمتها اماتيراسو الى حفيدها نينيجي مؤسس اليابان وأوصته: (كلما تطلعت اليها اذكر انك تتطلع اليّ . اعتبرها مقدسة . لتكن دوماً معك حتى وأنت في فراشك) .

٤٩

في جزيرة اللؤلؤ

خليج طوبا :

« القمر بـــدر . دموع ملكة الليل تتساقط من السماء على خيوط أشعة القمر. عندما تصل الى مياه «تاتوكو» الخضراء تتحوّل كل نقطة الى لؤلؤة». هذا ما ترويه الاسطورة التي أطالعها الآن في شرفة فندق « طوبا » .

« طوبا » هي مدينة صغيرة يبلغ عـــدد سكانها ثلاثين الفاً . كان خليج « طوبا » مغموراً منسياً فأصبح بين ليلة وضحاها قبلة الزائرين من كل انحاء العالم لأن عبقرياً زرع هنا لآلىء . طالما راودتني الفكرة لأرى بنفسي زراعة اللؤلؤ في أول مزرعة له واليوم تحقق الحلم فها أنذا انقـّل الطرْف في مزارع اللؤلؤ الطافية على صفحة البحر . فندق « طوبا » رابض على مرتفع وتحيط به أشجار الصنوبر والسرو من جهات ثلاث والجهة الرابعة تطلّ على الخليج . أمامي نحو عشرين جزيرة صغيرة وهي آكام خضراء من قممها الى اقدامها . توقف النظر جزيرة قريبة كتب على مدخلها : «ميكيموتو جزيرة اللؤلؤ» .

مراحل تكوين اللؤلؤة :

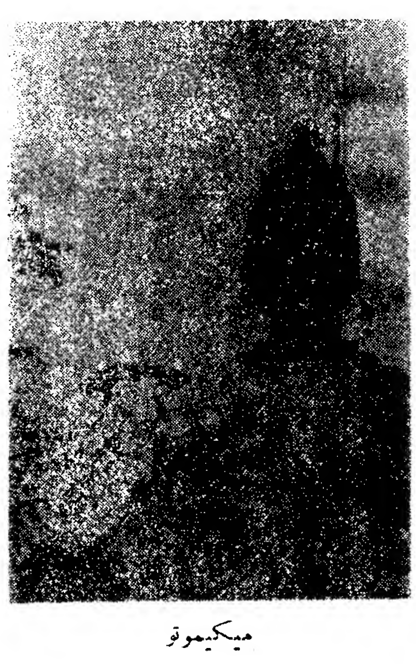
عبرت مع فريق السيّاح في قارب مدة ثلاث دقائق فقط ونزلنا في الجزيرة

وقمنا بجولة في « معمل » اللآلىء متابعين مراحل تكوين اللؤلؤة من بدايتها الى ان تعرض للبيع .

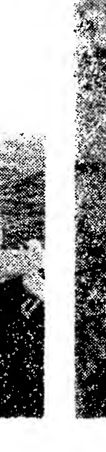
١ ـ من مركب ترمي فتاة ـ يدعونها « آما ـ AMA » أي بنت البحر ـ صندوقا خشبياً في البحر وتقود الصندوق بحبل في يدهـــا ثم تغطس ملتفة بقميص أبيض وعلى رأسها أيضاً منديل أبيض لأنه يُقـال ان اللون الأبيض يُخيف سمك القرش . تقفز وراء الصندوق وتغوص في الماء الى عمق ٧ أمتار أو أقلّ والمغاصات قريبة من الشاطىء . بعـــد دقيقة او أكثر قليلاً تصعد وبيدها قوقعة تضعها في الصندوق ثم توالي الخوض الى ان يأخذ منها التعب. مراكب عديدة تقفز منها الغائصات لا الغائصون فالرجال لا يغوصون لصيد القواقع . لاحظ المشرفون على زراعة اللؤلؤ ان نَفسَ المرأة أطول من نَفسَ الرجل وان جسمها يتحمّل البرد أكثر من جسم الرجـل . كان ميكيموتو يفضّل ان يكون سنّ الغائصات بين ٤٠ و ٥٩ وأضافت الدليلة ببسمة ماكرة: ربما لأن الانتحار في البحر شائع بين الفتيات ...

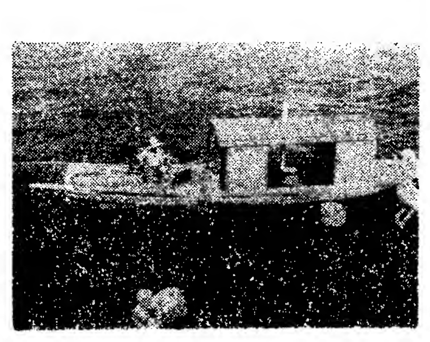
٢ ـ إذا كان عمر القوقعة أقلّ من سنتين يحتفظون بها الى ان تبلغ ثلاث سنين . وإذا كان عمرها أكثر من خمس سنوات يستغنون عنها لأنها تكون « عجّزت » فلا تصلح لإنتاج اللآلىء . ان القواقع الصالحة الفتيّة كثيراً ما تأكلها حيوانات البحر فما العمل للعثور عليها بوفرة ؟ في تموز يضعون في قاع البحر الواحاً معدنية عليها اسمنت وطين قاسٍ لزج. في تشرين الثاني يرفعونها فيكون سطحها قد امتلأ من الوف بويضات القواقع فتنقل الى اقفاص الى ان تبلغ ٣ سنوات .

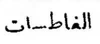
٣ ـ تفتح عاملة المحارة كفتحة شفتين ثم تدخل ابرة طويلة تجرح بهـــا السمكة الحيّـــة ـ لنسمّها هكذا ـ وتضع في الجرح جسماً كروياً يشبـه (الـكلّة قطره نحو مليمتر ونصف . وعلى هذه النواة طعم من لحم سمكة . ثم تقفل المحارة وتعاد الى البحر . هذه النواة مأخوذة من قواقع تعيش في نهر



ميكيموتو



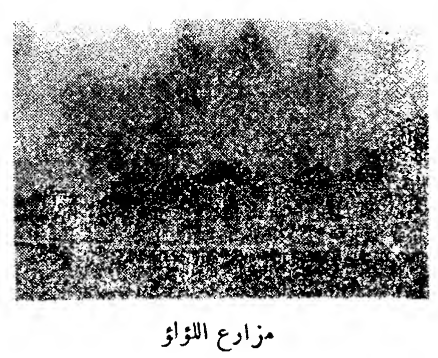




الغاطسات



تطعيم المحارة



مزارع اللؤلؤ

(المسيسبي) يستوردونها من هناك ثم يسحقونها ويصنعون منها هـذه النواة للتلقيح .

٤ ـ توضع القواقع الملقـّحة في أقفاص من أسلاك معدنية خفيفة تُعلـّق في كرة مطاط او بلاستيك او في الخشب وتُغطـّس في قلب الماء حيث تبقى معلقة على الأقل سنتين وعلى الأكثر خمس سنوات في بيئتها الطبيعية . توضع القواقع في اقفـاص لحمايتها من أعدائها فبعض حيوانات البحر تقتلها . وكل اربعة أشهر ينظفون الاقفاص وينقلونها الى ماء أقلّ برودة .

٥ ـ بعد سنتين يحين «القطاف» فيُخرجون القواقع ويفتحونها ويستخرجون منها اللآلىء. كلما طال مكوث القوقعة في الماء كلما كبر حجم اللؤلؤة. ولكن كيف تكون اللؤلؤة؟ ـ تشعر السمكة بوجود جسم غريب دخل فيها فتفرز سائلاً كالدمع لكي تطرده وفي الغالب لا تنجح في طرده فيتراكم السائل على النواة الغريبة المقحمة ويكسوها طبقات فوق طبقات برّاقة ويكوّن اللؤلؤة. في اللؤلؤة المزروعة هذه الطبقات اقلّ عدداً مما في اللؤلؤة الطبيعية والمزروعة هي لذلك أقلّ لمعاناً . ولا يمكن التمييز بينهما إلا بأشعة « إكس » . عنـد فتح القواقع إما لا يجـدون لؤلؤة لأن السمكة تكون قد ماتت أو أفلحت في طرد النواة من المحارة وإما يجدون لؤلؤة واحـدة وغالباً لؤلؤتين ونادراً ثلاثاً حسب عدد النوى . الغلـّة متعلقة بدرجة الحرارة والغيم والأمطار . الحرارة المعتدلة توافق المحارة والبرد يقتلها .

٦ ـ بعـــد إخراج اللآلىء تُفرز حسب قواعد أربع : حجمها وشكلها ولونها ولمعانها . الحجم يتراوح بين ٢ و ١٢ مليمتراً لقطر اللؤلؤة . الشكل هو عادة كروي إلا إذا وُجد تكسير أو التواء . الألوان هي ثلاثة عشر من الأبيض الى الفضي الى الذهبي الخ... ولا يمكن تصور روعتها إلا إذا وُضعت بعضها بجوار بعض . وأخيراً درجة اللمعان فهنالك الأبيض الساطع والأبيض الشفاف والابيض المنطفىء الخ... اللآلىء غير الصالحة للبيع تُطحن وتُستخرج

منها أدوية الكلسيوم إذ ان المادة الغالبة في تكوين اللؤلؤة هي كربونات الكلسيوم .

٧ ـ اللآلىء الصالحة للتجارة تباع لصنع الخواتم والعقود وغيرها ... أرخص لؤلؤة ثمنها دولار ونصف وأغلى لؤلؤة ثمنها ٢٨٠ دولاراً . في الوقت الحالي اللون المرغوب والغالي هو الزهري .

هكذا نكون قد بلغنا المرحلة النهائية ويبقى فتح حافظة النقود لنشتري إلا إذا فضّلنا ان ننتج اللؤلؤ ونحقق قول المتنبي « يغوص البحر من طلب اللآلي » . ولكن ليس كل من غاص بحرا اصطاد لؤلؤة !

مزارع اللؤلؤ :

كان شعار « ميكيموتو » : « أريد ان انتج لآلىء تكفي لتزيين أعناق جميع نساء العالم بالعقود » . سألوه يوماً هل صحيح ان اللآلىء ـ كأدوية الكلسيوم ـ تشفي من الامراض ؟ فأجاب : كلا ثم أضاف بلؤم : لكني لاحظت انه يخفّ مرض المرأة عندما تُقدّم اليها لؤلؤة ! في القديم كانت اللآلىء « الطبيعية » وقفاً للملكات وللأميرات فقلما توجد وقَلَّ من يصطادها من قعر البحار [1] . أما الآن فبفضل عبقرية ميكيموتو عمّت اللآلىء العالم . في اليابان ثمانمائة شركة تزرع اللؤلؤ . وهنا في طوبا أفراد كثيرون يزرعون

---

(١) الخليج العربي هو خير موقع لصيد اللؤلؤ الطبيعي . واللؤلؤة الطبيعية هي اغلى من اللؤلؤة المزروعة نحو ستة أضعاف . اكبر لؤلؤة في العالم استخرجها غائصون ايرانيون سنة ١٦٢٨ . اشتراها الامبراطور المغولي « شاه جهان » واهداها لزوجته التي اقام لها فيما بعد « تاج محل » في « أجرا » بالهند وأقام لها « جامع اللؤلؤة » وعرفت اللؤلؤة باسم « حلية آسيا » . سنة ١٧٩٩ وضعت في نعش الملك الصيني « كيين لونج ـ K'IEN LONG » وسرقت منه سنة ١٩٠٠ . بعد ١٨ سنة وجدت في سوق « هونغ كونغ » وأعطيت الى مبشر كاثوليكي كرهن عن قرض وإذ لم يوف القرض بيعت اللؤلؤة في باريس . قبل سنة ١٩٣٩ كان ثمنها ٥٠ الف دولار . وبعد الحرب اختفت من العالم فلا يعرف أين هي الآن .

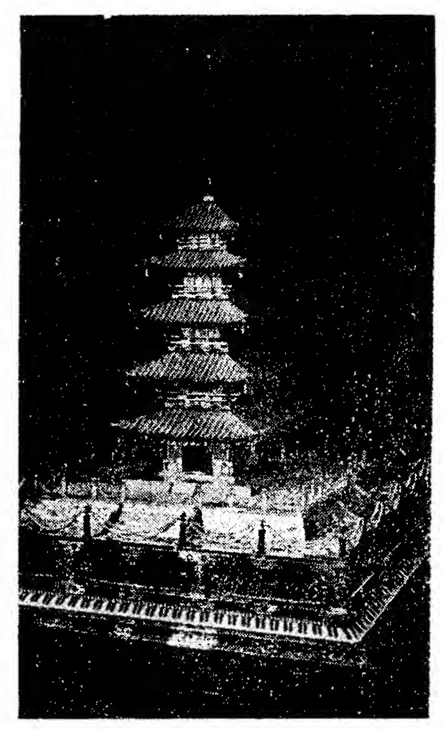
المحارات لحسابهم الخاص ثم يطوفون بها في الشوارع وهم يعرضونها للبيع . في بلادنا تزرع المفروح والسبول وهنا يزرعون البحر ثم يبيعون ثمره الغالي كأنه تفاح او برتقال .. في جزيرة ميكيموتو ذاتها وفي المعمل يمكنك أن تشتري أية قوقعة بدولار وربع ثم تفتحها لك العاملة (وأنت وحظك) فنادراً ما تكون فارغة . جرّبت حظي فأحرزت لؤلؤتين احترت مـــاذا أعمل بهما فأهديت واحدة الى الدليلة والثانية الى العاملة التي فتحت المحارة. وحتى الآن اسأل نفسي كم قيمتهما ؟

بعـد زيارة معمل اللؤلؤ تجوّلت في المتحف الذي بُني من أخشاب بيت ميكيموتو الفقير الذي ولد فيه .

عبقرية ميكيموتو :

في المتحف اطلعت على مراحل حياة ميكيموتو (مات وعمره ٩٦ سنة) وعلى مراحل حياة القواقع من اسبوعين الى عشر سنين ومراحل تكوين الجمان أي اللؤلؤة في داخلها. وعلى الآلات التي تُستعمل وكأنها أدوات طب اسنان. واشبعت النظر من جرس الحرية الذي عرضه ميكيموتو سنة ١٩٣٩ في معرض « نيويورك » وزيّنه بـ ١٢٢٥٠ لؤلؤة من انتاجه وقيمة هـذا الجرس مليون دولار . وكان ميكيموتو قـد عرض في « فيلادلفيا » سنة ١٩٢٦ قبة معبد ياباني « باجودا » من خمسة طوابق مزينة بلآلئه .

وُلد « كوكيشي ميكيموتو » في « طوبا » سنة ١٨٥٨ . لم يسعده الحظ لكي يتعلم كثيراً واضطر الى العمل لكسب الرزق وهو بعـد في سن الحادية عشرة . تنقل من شغل يدوي الى آخر ومارس طويـلاً انتاج وبيع نوع من الطعام اسمه « الإبر » يشبه المكرونة الايطالية الرفيعة ويأكله اليابانيون مع طبقهم القومي المفضّل « سوكياكي » . عندما كان عمره ٣٣ سنة زار معرضاً في « يوكوهاما » عن منتوجات البحر . دهش للأثمان الباهظة التي تُباع بهـا اللآلىء . تأمل بالمراحل المعروضة عن تكوين اللؤلؤة وبرق في دماغه هـــذا



اللآلىء ترى النور

باجودا من لآلىء



فرز اللآلىء

السؤال: لماذا لا أنتج اللآلىء ؟ وقاده الكفاح والنبوغ الى العثور على الجواب. أخذ يصطاد القواقع ويدخل فيها جسماً غريباً . بـــدأ في خليج « آجو » بتلقيح عشرة آلاف قوقعة جرحها ووضع في الجرح حبة رمـل وفتحها بعد أربعة أشهر : لا شيء ! وضع بـدل الرمل حصى او زجاجاً او قصديراً او نفتالين ومرت سنتان : لا شيء !

أخـــيراً في ١١ تموز ١٨٩٣ نجح في إخراج نصف لؤلؤة ثم أربعة لآلىء ولكن غير مستديرة . أهداها الى الآلهة في المعبد الصغير في بيته .. ولكن ماذا تنفع ؟ لم ييأس ولم يبال بأحاديث معاصريه وسجل اكتشافه هـــذا واحتكره وأخذ مع زوجته « أوما – UME » وأولاده الخمسة بالعمل في جزيرة « تاتوكو » ومعناها الفضائل العديدة . في نيسان سنة ١٩٠١ حضر الأمير « كوماتسو » تتويج الملك ادوار السابع في لندن وبهر المدعوين بهديته: لآلىء ميكيموتو! وسنة ١٩٠٥ بدأ الانتاج الواسع للآلىء كاملة كروية لامعة.

استقبله الامبراطور «ميجي» واستمع اليه عن حكايته العجيبة مع اللآلىء. ولم يكن بالقليل آنئذٍ ان يستقبله الامبراطور (ابن الإله الشمس) فخرج من القصر الى قبر زوجته يخبرها باكياً بهذا الشرف العظيم .

ظلّ في البدء أعواماً دون ان يدرك خطأه وهو انه كان يضع النواة بين الصدفة الغطاء وجلد السمكة . فكانت السمكة تعجز عن ان تُغطي النواة من سائر جهاتها بطريقة متساوية. فصار يُدخل النواة في جسم السمكة ذاته وعمرها ٣ سنوات. إذا وضعت النواة متغلغلة فيجسم السمكة تموت السمكة وإذا وضعت تحت انسجتها السطحية تطرد النواة ففطن لوجوب وضعهـا في وسط الجسم تقريباً .

بـدأ بعرض لآلئه في اوروبا بربع ثمن اللآلىء الطبيعية ولم يكن الخبراء يميزون بينها إلا بأشعة (إكس) . حمـلوا عليه في باريس وزعموا ان لآلئه صناعية لكن علماء الأحياء كذّبوهم فالفرق الوحيد ان النواة زرعتها يـــد

الانسان بدل أن تزرعها الطبيعة . فتح مخازن في نيويورك وباريس وبومباي وغيرها.. توصل الى ان ينتج ٧٥ ٪ من اللآلىء المعروضة في الاسواق العالمية. سنة ١٩٢١ انتهت فترة احتكاره فنافسه تلاميذه .

في ١٠ تموز ١٩٣٣ أحرق في أحـد شوارع مدينة (كوبى — KOBÉ) باليابان سبعمائة وخمسين الف لؤلؤة ليفهم العالم انه يبيع فقط البضاعة الجيدة.

خلال الحرب سأله بعض القادة أن يضع رأسماله فيصناعة حربية فرفض. فأرسل له أحدهم سيفاً لينتحر به فهزىء منه وسكت وتابع عمل نبوغه . انخفضت تجارته في الحرب ثم راجت جـداً بعد الحرب لا سيما لدى الجيوش الاميركية المحتلة .

اللؤلؤة والمرأة :

كان يقول : ان اللؤلؤة كجمال المرأة التي تتحلى بهـا : ينطفىء لمعانها مع مرور الزمن .. وكان يعطي هذه النصائح للسيدات لتبقى لؤلؤتهن (فتية لامعة) : فرك اللؤلؤة بلين بقماش ناعم مبلل (بالسبيرتو) والماء الساخن ثم بقماش مبلل بالماء فقط . حفظها من الرطوبة ومن أي سائل. عدم وضع عطر او مساحيق عليها . تنشيفها بعد استعمالها ووضعها في مكان جاف . عـــدم فركها بالبودرة فهذا يزيد من بريقها الزائف المؤقت إذ ان لمعانها الحقيقي هو من الداخل ويضيف : تماماً كالمرأة !

ودّعنا تمثال (ميكيموتو) الجبار المنتصب فيالجزيرة كأنه يوالي الاشراف على عمله. وغادرنا جزيرة اللؤلؤ وفي طريق العودة الى الفندق رأينا علىأرصفة الشوارع قواقع كثيرة تفتح بعنف وأخذنا نمعن النظر لنرى لؤلؤة . فتبسمت المرشدة وقالت لنا : لا لا، فهذه للأكل !

٥٠

هيروشيما

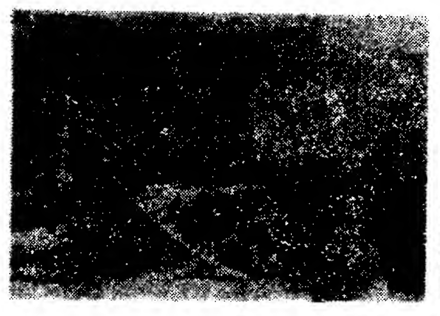
المدينة المنبعثة :

أتذكر اسطورة العنقاء الطائر الخرافي الذي ينبعث حياً من رماده ؟ هذا ما حدث لهيروشيما ! قدر لهيروشيما (هيرو = ابيض وشيما = جزيرة) أن تكون مدينة القنبلة الذرية ثم مدينة السلام . تبدو الآن كعروس جميلة رمزاً للبشرية السائرة دوماً الى الامام إذ انتفضت من انقاضها وتغلبت فيها الحياة على الموت وصارت اجدّ مدينة في العالم. كانت عادة اليابانيين ان يعيدوا بناء بيوتهم ومعابدهم في المكان ذاته وهكذا فعلوا هنا .

طرت اليها فوق (البحر الداخلي) المدعو هكذا لأن الاراضي اليابانية تطوقه من كل جهاته. موقع هيروشيما على ساحله جلب عليها الدمار لأنها كانت مركز تجمع الجيوش قبل الزجّ بها من هناك في مختلف الجبهات لذلك اختارها القادة الاميركيون كبش الضحية . انها في شرق جزيرة (كيوشو) بين الروابي الخضراء ينزل عليها من الجبال نهر (اوتاجاوا) الذي يتفرع بداخلها الى سبعة أنهر كأنها مروحة يمتد عليها ١٠٣ جسور. أمامها مزارع (القواقع) إذ أن ٦٠ ٪ من القواقع التي تؤكل في اليابان تربى هنا .



هيروشيما المنبعثة



جسر السلام

قمنا بجولة بالسيارة عبر شوارعها الواسعة المستقيمة فإذا بها أشبه بمدينة من مدن الريف الاميركي . زرنا اثنتين من جنائنها وصعدنا الى ذروة إحدى الربى حيث تملّيناها بنظرة شاملة .

حديقة الجمال :

أهم ما فيها متحف القنبلة الذرية وجنينة تدعى (شوكي ين) أي جنينة الجمال التي احترق كل نباتها بالقاء القنبلة وفتحت من جديد للشعب سنة ١٩٥١ . فيها بحيرة صغيرة انتثرت في حضنها عشر جزر (رمزية) تكفي الواحدة منها لشجيرة او اثنتين . وفيها كومات تعطي منظر آكام وجسور خشبية ضيقة فوق جداول وبعض كهوف وسبل مرصوفة بالحصى . صممت للسير على الاقدام وليس للجلوس وقد علق في ذاكرتي انها من ألطف الجنائن التي زرتها في اليابان .

أهم ما في جنينة السلام جسر السلام ونصب تذكاري للأطفال كناية عن قنطرة يمر تحتها الناس بصمت يوم ٦ آب من كل عام حداداً على الضحايا وحولها مصابيح كأنها تصلي بوهجها . بجوار الحديقة تقوم البناية الوحيدة الباقية بعد القاء القنبلة وتدعى الآن (قبة القنبلة الذرية) كانت اصلاً مبنى المعرض الصناعي .

متحف القنبلة الذرية :


البناية الوحيدة بعد القنبلة

(متحف القنبلة الذرية) يروي بالصور والارقام مفاعيلها وآثارها في الماء والجماد والنبات والحيوان والانسان . في ٦ آب ١٩٤٥ الساعة ٨,١٥ صباحاً مرت في سماء هيروشيما ثلاث مقاتلات اميركية من طراز (ب ـ ٢٩) واحدة تحمل القنبلة والثانية لمراقبة مفاعيلها والثالثة للتصوير . هبطت الاولى الى انوصلت على ارتفاع ٧٥٠ متراً وألقت القنبلة التي انفجرت بعد ان ابتعدت عنها الطائرة ستة عشر كيلومترًا . اندلعت النار في دائرة بلغت حرارة نواتها ٥٠ مليون درجة مئوية . ارتفعت سحابة بيضاء الى علو ٣٠٠٠ متر وذلك في ٤٨ ثانية ثم غطت سماء هيروشيما وأخذت تمطر عليها نقطاً سوداء . قتل في الحال نحو مائتي الف وأصيب ١٤٦ الفاً مات منهم بعدئذٍ نحو ٥٠ الفاً . لم يتضرر ٥٧ الفاً كانوا بعيدين عن مطال الطاقات الفتاكة . حالياً لا يزال مائتان من (مرضى القنبلة) في (مستشفى القنبلة الذرية). هدمت رقتلت حتى على بعد ٤٠٠٠ متر من نقطة سقوطها. اصبحت المدينة كتلة بيضاء من شدة الحرارة ثم تحولت الى اللون الفاحم قبل ان يدركوا ما حدث، ظنوا انها بوارق ورعود وصواعق ! الطاقات الفتاكة التي انتثرت منها عديدة : الضغط والحرارة والاشعاع والشظايا. أعمق آثارها في الجسم البشري كانت الحروق والشلل وفقر الدم وأنواع عديدة من السرطان وأمراض مجهولة منها دمامل غريبة تشوّه الجسم .



مظاهرة في هيروشيما لتحريم الاسلحة الذرية



جزيرة ماياجيما ومعبدها

احترق ٨٠ ٪ من المدينة وظن الناس ان ارضها ستبقى اكثر من ٦٠ سنة غير صالحة للحياة . إلا ان طبيباً قال لمرضاه مازحاً بعد سنتين (١٩٤٧) : سأزرع فجلاً حول المستشفى .. بعد عشرة ايام فقط من إلقاء البذرة هرع مريض الى الطبيب وهو يصيح: لقد نبت لقد نبت! ولكنه سيذوي ويموت! احاطوه بسور خيزران وكانوا يتفقدونه كل صباح . لم يمت ولكن من يجسر أن يأكل منه ؟ مرّت عمياء ومدّت يدها وقطعت منه وقضمت ورقة ولم تمت فهدأ الرعب

أعلنت فيما بعد هيروشيما مدينة السلام وشعارها « لن تتجدد مأساة هيروشيما في العالم ». وكل عام في ٦ آب تقام الصلوات على نية أرواح الضحايا وتجوب الشوارع مسيرة يشترك فيها أقاربهم . سنة ١٩٥٥ جمعت المنظمات النسائية ٣٠ مليون توقيعاً المطالبة بتحريم الاسلحة الذرية وبعد ذلك عقد أول مؤتمر في هيروشيما انبثق عنه المجلس الياباني لتحريمها .

هل ترمى القنبلة :

كانت الابحاث الاميركية لصنع القنبلة الذرية بدأت سنة ١٩٤١ وقد نُمي الى الاميركان ان الالمان آخذون في صنعها . في ١٦ تموز ١٩٤٥ أجريت أول تجربة في صحراء « آلاماجوردو » بولاية « نيومكسيكو » . كانت المانيا قد استسلمت في ايار ١٩٤٥ أما اليابان فظلت عنيدة ماضية في كفاح انتحاري . إذا نزل الحلفاء فيها سيفقدون نحو مليون جندي وسيموت من اليابانيين عدد اكبر . ففي ليلة ٩ آذار وحدها عام ١٩٤٥ هدمت الغارات الجوية الاميركية بقعة في طوكيو مساحتها ٥٠ كلم مربعاً وقتلت ٨٠ الفاً وشردت مليونا ونصفاً . شكّل الرئيس (ترومان) لجنة من عسكريين وعلماء ليجيبوه على السؤال : هل تلقي اميركا القنبلة الذرية أم لا ؟ اقترح بعضهم ان يستدعى مندوبون يابانيون ويحضروا تجربتها فربما يقتنعون وينهون الحرب . اعتبر هذا الاقتراح غير عملي . ٨٧ ٪ من العلماء وكل رؤساء هيئة أركان الحرب قالوا : لِتُرمَ . فرميت .

الجزيرة المحرمة :

لكي ننسى قليلا هذه الذكريات المريعة قمنا بفسحة عبر (البحر الداخلي) الى جزيرة (مياجيما) ومعبدها . مرت بنا السفينة عبر البوابة المقدسة المنتصبة في الماء وأطل الكاهن الشنتوي يبارك بورقة بيضاء حلزونية. يسكن هذه الجزيرة أربعة آلاف غالبهم بحارة وصيادون. انها كحرم واسع بدائرتها البالغة ٢٩ كلم وهي شبه محظورة إلا حول المعبد . شجرها لا يقطع والى وقت قريب كانت الولادة فيها ممنوعة! على مدخل المعبد رأينا حصاناً حقيقياً ابيض مهدى للمعبد . أعمدة المعبد الحمراء مغروسة في الشاطىء . مرتان في اليوم يصعد المدّ ثلاثة أمتار الى المعبد وكل يوم يتأخر موعده ٤٥ دقيقة . يتبع السكان هنا لتوقيتهم المدّ والجزر وأيام القمر .

●

٥١

اوساكا

مركز المال والأعمال :

« اوساكا » ـ ومعناها ربوة التجمّع ـ كان اسمها قديماً « نانيو » أي الموج السريع . وهي بالفعل أسرع مدينة يابانية في مضمار التقدم . عندما دخلت البوذية اليابان في القرن الخامس الميلادي كانت اوساكا أهم مركز للأعمال والمال وظلت كذلك على ممر العصور . الاوساكي يعبد الـ « ينّ » قبل كل شيء فليس بذلك يابانياً تقليدياً إذ ان قدماءَهم كانوا يحتقرون النقود ويؤثرون الدفع بالرزّ .

في ٣١٣ ب.م. اختارها الامبراطور (نينتوكو) مركزاً للحكم فلم تلمع كعاصمة سياسية وسرعان ما انتقل الحكم منها فقلما تنجح التجارة مع السياسة ! تعدّ الآن اوساكا ثلاثة ملايين فهي ثاني مدن اليابان . اوساكا واسعة نظيفة عكس طوكيو . أهم شارع تجاري فيها هو « شنسايباشي » . توقفت في « قصر اوساكا » الذي بناه على شكل قلعة سنة ١٥٨٤ « هيديوشي » باني قصر « فيوشيمي » في كيوطو كما رأينا. فيه الآن متحف عن تاريخ وجغرافية اوساكا ومنطقتها . زرت مسرح العرائس «ساهيرا» الذي يفوز دوماً بقصب

السبق في اليابان . وصعدت الى قمة برج « تسوتنكاكو » الذي يبلغ ارتفاعه ١٠٢ متراً وهو عادي إذا ما قورن ببرج طوكيو . يشمل النظر منه معظم احياء المدينة التي تبين عصرية جديدة تغلب عليها مظاهر المـــدن الأميركية كما في هيروشيما .

رافقني مندوب مكتب السياحة الى شركة الخطوط الجوية اليابانية «جال» في المطار وانحنى وشكرني على « زيارتي الكريمة » لليابان وانحنيت وشكرت جداً مكتب السياحة الذي لازمني طوال جولتي . والمبلغ الذي ظننته باهظاً عندما دفعته له في نيويورك أراه الآن معتدلاً عادلاً . حركة الطيران في اوساكا لا تهدأ فهو مطار البلاد الداخلي الرئيسي وهو المطار الذي يطلّ على بلدان آسيا في الشرق الاقصى .

يوم العجّز :

في الطائرة قرأت في صحيفة « جابان تايمز » ان اليوم هو عطلة رسمية فهو « يوم المسنّين » عنـــدهم ايضاً يوم الأولاد ويوم الشباب . في يوم العجّز يقيمون لهم حفلات ويقدمون لهم هدايا ويعلـّمون الصغار والشبان احترامهم ويتقبلون تظلماتهم ... ومما قرأت انه يوجد في اليابان ٢٥٢ تجاوز المائة ٤٦ منهم رجـال و ٢٠٦ نساء . ُقدّم لكل منهم أو منهنّ طقم فناجين فضّي هدية من رئيس الوزارة .

في اليابان تطول القامات وتطول الأعمـار . حسب التقديرات في ١٩٨٥ سيكون عدد الذين يتجاوز عمرهم ٦٥ سنة احد عشر مليوناً ونصف. يصادف الشيوخ معضلة كبرى إذ تهجر الشبيبة الريف الى المـــدن فيضطرون هم الى متابعة العمـــل في الحقول . وفي السنين الأخيرة زاد بينهم الانتحار . ففي ١٩٦٥ انتحر ممّن تجاوز الستين ٥٧ من كل مائة الف رجل و ٤٠ من كل مائة الف امرأة . في اليابان أعلى نسبة انتحار نسوي في العـــالم . تخصص الدولة للعجّز سنوياً أكثر من ٢٥ مليون دولار لإعانتهم .

الجزيرة الاميركية :

حطت طائرتنا في مطار « اوكيناوا » الجزيرة «العسكرية» الباقية تحت الإدارة الاميركية . ٩٠٪ من الطائرات التي كانت في المطار هي حربية عليها النجم الاميركي وكانت تقوم وتحط في دورات تدريبية . رغم حب اليابانيين للأميركيين تحثهم العزة القومية على المطالبة بالجلاء عن « اوكيناوا ». ليست مخطئة الفكرة القائلة ان هزيمة اليابان كانت نعمة لها دفعتها الى الأمام في الإقتصاد والتجارة والانفتاح والديمقراطية ... بعد طيران ساعة ونصف من « اوكيناوا » فوق المحيط الهادىء هبطت طائرتنا وسط جو غائم ممطر في « تايبيه » عاصمة « فرموزا » .

٥٢

الشنتو : الديانة اليابانية الطبيعية

الكامي :

الشنتو كلمة تعني طريق الآلهة أو طريق « الكامي » . ولفظة « كامي » تطلق على كل ما يصبح معبوداً أو مؤلـّهاً وبالتالي عدد الكامي مفتوح وغير محدود . نثرتُ هنا وهنالك فيما سبق كثيراً عن الشنتو وألمه هنا بايجاز مع الاعتذار لتكرار لا مفرّ منه .

ليس للشنتو مؤسس وكتب مقدسة . في القرن الثامن ب.م. ظهرت الى الوجود أول كتب يابانية ومما تتضمنه اخباراً وتواريخ وشيئاً عن الشنتو كطريق أو سلوك أو تقاليد عادات الأقدمين ولذلك لا تخلو الشنتو من امور مبهمة ومتناقضة . في اللغة الصينية شن = آلهة و تو = طريق . ولكن تختلف معانيها بحسب كتابة مقاطعها ومخارج لفظها فتتفرع الى : طريق الإلهة ونواميس الطبيعة والطاقات السحرية الكامنة في الطبيعة والروح الصوفية . وهي تشمل « الروح اليابانية » [١] .

---

(١) حسب الموسوعة البريطانية سنة ١٩٦٥ اتباع الديانات في العالم هم كما يلي: المسيحيون=

حسب مفكري اليـــابان ليست الشنتو ديانة بالمعنى الحصري أي إتصالاً بين الانسان والله بل هي عبادة ارواح أو كامي الأجداد وعبادة الطبيعة التي عاشوا فيها . لا يوجد إله خلق الطبيعة بل الطبيعة هي الله وبالتالي كل ما في الطبيعة يحتوي على مسحة من الألوهية (نوع من الحلولية) . ولذا تعبد كامي الاشجار والأنهار والصخور والكهوف والحيوانات ... وقديمـــاً كان يربط حبل مقدس حول الكائن الذي يرقـّى الى مقام معبود. وتقول بكامي ظواهر الطبيعة كالهواء والرعد والمطر وبكامي معنوية للولادة والخصب والنمو وغيرها.. في المعبد المنزلي يكرمون كامي الارواح التي ترعى البلاد وكامي الابطال الذين خدموا البلاد وضحوا من أجلها وكامي الاسرة والبلدة . تعاون كامي البلاد يفيد لخير البلاد وتعاون كامي الشمس مع باقي كامي الكون ضروري لحفظ ولحكم العالم ...

حسب ميثولوجيتهم وجدت اولاً ثلاثة « كامي » كبرى : «اماتيراسو» إلهة الشمس وهي كامي مملكة السماوات وتخـــدمها ألوف الكامي السماوية (كالملائكة) ، وشقيقها « سوســـانو » إله او كامي الارض ، وشقيقتها (توكيومي) آلهـــة أو كامي القمر . ثم كامي الولادة والنمو بالزوجين ايزانامي وايزاناجي اللذين اوجدا كامي ثمان جزر كوّنت فيما بعد اليابان .

انواع الشنتو :

الشنتو على انواع . الشعبية كما يؤمن بها ويمارس شعائرها عامة الشعب . والمنزلية كما تمـارس أمام الهيكل الشنتوي في المنزل . والمذهبية وهي ثلاثة عشر مذهباً حاول (ميجي) دمجها تحت إدارة حكومية وفي ١٩٤٥/١٢/١٥

= ٩٦١ مليون مقسمون الى كاثوليك ٥٩٠ مليون – ارثوذكس ١٤٣ مليون – بروتسطنت ٢٢٨ مليون – اليهود ١٢ مليون – المسلمون ٤٦٥ مليون – الزرادشيون ١٥٠ الف – الشنتويون ٦٧ مليون – التـاويون ٥٢ مليون – الكنفوشيون ٣٥٧ مليون – البوذيون ١٦٥ مليون – الهندوسيون ٤٠٨ مليون – الملحدون والبدائيون ٧٥٢ مليون .

بانفصال الدين عن الدولة عادت مستقلة متميّزة . والشنتو الامبراطورية كما تمارس في ثلاثة معابد في القصر الامبراطوري هي معبد الشمس ومعبد ارواح الاباطرة الاجداد (ومعبد الكامي) المكرّس لكل انواع كامي السماء والارض . في المناسبات الهامة يقوم الامبراطور نفسه بدور رئيس كهنة كما يبعث بموفدين الى المعابد الامبراطورية المرتبطة بالاسرة المالكة .

في الوقت الحاضر توجد ست جمعيات عليا دينية في اليابان هي جمعية معابد الشنتو والاتحاد الشنتوي والاتحاد البوذي والمجلس المسيحي ورابطة المنظمات الدينية والمجلس الياباني لتعاون الاديان . طوال التاريخ كان عداء كامن بين الشنتو والبوذية رغم ان بعض معلمي الشنتو قالوا ان الكامي تسر بسماع (السوترا) البوذية وتسرّ برؤية المعابد البوذية بجوارها لخدمتها. كما قال بعض فلاسفة البوذية ان بوذا هو الكامي الأول الاصلي وباقي الكامي من مظاهره المتعددة في اليابان ويوجد الآن مذهب شنتوي - بوذي مشترك اسمه (رهبنة الجبل) اتباعه موالون للديانتين .

معابدها :

كان عدد المعابد الشنتوية في اواخر القرن الماضي نحو ٢٠٠ الف أممّها (ميجي) وجعلها ١١٠ آلاف وعددها الآن نحو ٨٠ الفاً . كانت المعابد تحت إشراف المجالس البلدية ثم اشرفت عليها الحكومة سبعين سنة معتبرة رجال ونساء الدين موظفين حكوميين . والآن هي تحت إشراف جمعيات حرة يعتبرها القانون شخصاً معنوياً . في ٣ شباط ١٩٤٦ تأسست (جمعية معابد الشنتو) ترأسها رئيسة كهنة معبد (ايزي) [١] . بقي نحو الف معبد خارج هذه الجمعية ونحو ٢٥٠ معبداً منحت ذاتها أنظمة مستقلة . يدير المعبد كهنة ومندوبون ينتخبهم الشعب . توجد ايضاً (جامعة شنتوية) مرتبطة

---

(١) انظر صفحة ٣٨٩ .

بجمعية المعابد . اعطت جمعية المعابد الشنتوية المبادىء الثلاثة لرسالة المعابد :

١ ـ شكر الكامي وارواح الاجداد وإقامة الشعائر الطقسية .

٢ ـ خدمة المجتمع والعمل للسلام (لكي تُغطّى جهات الارض الاربع بسقف واحد) .

٣ ـ انسجام روح الشعب مع روح الامبراطور وانتشار المحبّة والتعاون.

داخل المعبد :

كان المعبد قاعة خشبية للاجتماع ثم اخذوا يضعون في صدره مخدعاً محجباً فيه طلسم هو « رمز الكامي » ولا يفتح بابه إلا الكاهن ومع ذلك يبقى ستار منسدلاً ليحجب رمز الكامي عن أعين الكهان أنفسهم . إذا كان المعبد لكامي كثيرة تتعدد المقادس وأبوابها بحسب عدد الكامي .

أمام مقدسها طاولات للتقادم حولها صور حيوانات أو رسوم أناس بأزياء البلاط ترمي الأقواس او اعلام عليها رسوم الشمس أو القمر أو الغيوم أو حيوانات أو طيور ... قديماً لم تكن تماثيل وصور في معابد الشنتو وإنما أُدخلت فيما بعد اقتداء بالبوذية . كانت توجد فقط رموز ولذلك لم تساعد الشنتو على ازدهار النحت والتصوير كما ساعدت على تقدم الشعر وفن الخط والعزف والرقص والهندسة . وبجانب الطاولة رمح وسيف ودرع أو رسومها وهي تعني ان الكامي تدفع الضرر وتقرّ العدالة . فوق الطاولة تتدلى من السقف حبال ورق أبيض وقضيب يتفرع عليه الورق كأنه غصن وقضيب يتساقط الورق من رأسه كالمطر وستائر تنزل منها اوراق متعرجة وكل ذلك علامة التطهير والغفران . تزيّن الجدران بآيات يتجلى فيها فن الخط وأحياناً توجد مرآة . إذا اعتبرت المرآة كامي وضعت وراء الباب المقدس وإذا اعتبرت للزينة فقط وضعت أمامه وهي تعكس للشعب روح الكامي الطاهرة وتعكس للكامي روح المتعبد لها لترعاه .

خارج المعبد :

على مدخل المعبد صندوق تقادم أو حفرة ترمى فيها النقود وجرس مزين بالأوراق البيضاء . وتباع حبال او قضبان او اغصان الورق ليقدمها الشعب للكامي . الهندسة «الكلاسيكية» لمعبد هي : قاعة الصلاة . ركن الاغتسال للتطهير . اماكن لِسدَنة المعبد وللزوار . ركن لإعداد الاطعمة التي تقدم الى الكامي . مصابيح من حجر او معدن تضـاء فيها السرج او الشموع . واحياناً قاعة مسرح « نوه – NOH » . وأحياناً مكان لحرق جثث الكهنة وخدام المعبد والمحاربين . للهندسة الخارجية نموذجان : معبد «ايزي» ومعبد « تايشا » الذي في نارا . كانت مـادة البناء في القديم خشب السرو والارز أما الآن فالحجر والاسمنت .

يقـام المعبد حيث تقع ظاهرة من كامي في شجرة أو مغارة او صخر او ينبوع او قمة جبل او على حافة نهر او على شاطىء البحر او بجوار مسكن رجل عظيم او اسرة قديمـة . إنما دائماً في اطار طبيعي جميل حتى لو كانت داخل المدن كما رأيت في طوكيو و كيوطو . علامة وجود معبد هي بوابة من عامودين ترتكز عليهما عتبة – جسر . البوابة هي فاصل بين المـادي والروحي بين عالمنا وحرم الكامي . يتبرع المتعبدون بالبوابات كما رأيت في نارا . طريق المعبد – ويدعى إقتراب – ممتـد من البوّابة الى المعبد . ينثر احياناً حصى على جانبي هذا الطريق المبارك وتصفّ المصابيح وتنصب تماثيل مشاهير الرجال الذين ارتبط اسمهم بالمعبد وتعلـّق لوحات بأسماء المحسنين . وهنالك حجر « المئة مرّة » يذهب المتأملون ويجيئون مائة مرة بينه وبين باب المعبد . تحرس المعبد من اقتراب الارواح الشريرة اليـه تماثيل أو صور « الارواح الحارسة » وهي مرعبة تتمثل بكلب او بأسد او بأشكال نصفها بشرية ونصفها حيوانية .

على مدخل المعبد ماء للتطهير بغسل الأنامل والمضمضة وغالباً مـا توجد

بقرب مكان التطهير شجرة مبـــاركة تتدلى منها حبال اوراق بيضاء قدمها الزائرون .

الكهان وسدنة المعبد :

في القديم كان الكهنوت وراثياً . في القرن الخامس الميلادي تبلورت اربع درجات من الكهنوت في البلاط الامبراطوري ثم عمّت البلاد. المصلون (كانوا من اسرة ناكاتومي) : يتلون ويرنمون الصلوات ويقومون بالشعـائر الطقسية . المتقشفون (كانوا من اسرة إجي) : يتلون صـــلوات التطهير والغفران والتقسيم أي طرد الارواح الشريرة . المبشرون (كانوا من اسرة اورابي) يعلـّمون الدين ويبلـّغون مشيئة الكامي للشعب . وأخيراً الراقصون والعازفون . الغى (ميجي) الكهنوت الوراثي فالآن يعتبر كاهناً من تعترف به جمعية معابد الشنتو أو الهيئـة المشرفة على المعبد . في الوقت الحاضر أهم عمل للكاهن هو اقامـــة الشعائر الطقسية يتعلمها من كهنة آخرين أو يتلقى دروساً في جمعية معابد الشنتو أو في جامعة الشنتو . الكهان والسدنة أناس عاديون متزوجون وخارج أوقات الصلاة يقومون بأشغالهم كمدرس أو عامل أو موظف ...

حسب احصاء سنة ١٩٥٩ في اليابان ٢١٠٢٠ كاهناً لخدمة ٨٠ الف معبد . خلال الحرب بينما كان عدد من الكهنة في الجبهة كانت نساؤهم تقوم بخدمة المعبد وإذ ترمّلنَ بقين (كاهنـات) . أما الفتيات (ميكو) بالكيمونو الابيض والقميص الاحمر فلسن كاهنات بل يقمن بالرقصات الدينية فترة من عمرهن ثم يتزوجن وتأتي غيرهن ...

(الزي الطقسي) لإقامة الصلاة هو زي افراد الحاشية في حقبة(هاين) . يختلف اللون والتفصيل حسب رتبة أو درجة خادم او كاهن المعبد. للرجال الزي الكلاسيكي هو القلنسوة والكيمونو وقميص مشقوق وأكـمام فضفاضة

ورداء واسع وجورب ابيض (تابي – TABI) وللفتيات كيمونو أبيض وقميص مشقوق احمر ومروحة وضفائر وجورب ابيض .

اركان العبادة :

الغاية من اقامة الشعائر هي اتقاء الشر والضرر وطلب حماية الكامي وبركاتها وارضاؤها ورفع التقادم لها . تكون الشعائر حرة أو رسمية فردية أو جماعية في البيت أو في المعبد. اركان العبادة هي أربعة : التطهير والتقادم والصلوات والوليمة .

٢ – **التطهير** : غايته إبعاد النجاسة والشر . يكتفي زائر المعبد بغسل الأنامل والمضمضة . أما عندما يطهّر الكاهن فيتلو الصلوات ويرفرف بيده في الهواء بحبل من الورق الابيض ويرش الماء المبارك والملح . قبل المهرجان يصوم الكاهن ويغسل المعبد ثم تُعلّق على المدخل قضبان خيزران أو اغصان (ساكاكي) او قش رز تتدلى منها كلها حبال اوراق بيضاء دلالة على ان المكان تطهّر .

٢ – **التقادم** : يحسن ان تقدّم الى الكامي مرة أو مرتين في اليوم لئلا تغتاظ وتنزل المصائب بالمهملين . تُعدّ التقادم في غرفة ملحقة بالمعبد وتوضع على صواني او اطباق وتحمل الى طاولة امام هيكل الكامي . ومن التقادم : غصن ساكاكي . زهور . نقود تُلفّ احياناً بورقة يكتب عليها المتبرع ما يرجوه من الكامي . مآكل مثل رز وسمك وملح وحبوب وفاكهة وحلويات. ماء . شراب الساكي . حلى . اسلحة . احصنة . وخصوصاً اوراق بيضاء .

٣ – **الصلوات** : تقال باللغة اليابانية القديمة التي لا يفهمها الشعب الآن والكثير منها شعر . الى عهد (ميجي) كان الكهان يتناقلون الصلوات أو يؤلفونها . في ١٨٧٥ اصدرت الحكومة مجموعة صلوات من حقبة (ايجي). بعد الحرب العالمية الثانية نشرت جمعية معابد الشنتو مجموعة صلوات وتركت للكهان الحرية بأن يضيفوا اليها . مضمون الصلاة هو عادة تسبيح الكامي

وشكرها وذكر اعمالها وصفاتها وتاريخ المهرجان المقـام لها ثم تعداد التقادم وذكر اسم الكاهن . وفي النهاية كلمات سجود ورهبة .

٤ – **الوليمة المقدسة** : تدعى الأكل والشرب مع الكامي . في الأيام العادية يرمز إليها بتناول « الساكي » من يد الكاهن او الـ « ميكو » أما في المهرجانات والحفلات فتقام وليمة حقيقية بعد الصلاة .

العبادة في المنزل :

يبدأ الياباني الورع نهاره بغسل وجهه وفمه ثم يطهر نفسه بعبادة الكامي وأرواح الأجداد في المعبد المنزلي حيث يضع مرآة وعـــن جانبيها مصباحاً وغصن ساكاكي . كل هذا يكون وراء ستار مسدل يُفتح وقت الصلاة . في صدر هذا المعبد حجاب من معبد «ايزي» وعن يمينه حجاب الكامي المعبودة الرئيسية وعن يساره حجاب باقي الكامي التي يعبدها أهل البيت . على رف تحت الأحجبة مرآة ولوحـة تحمل اسماء الأجداد كما كانوا يدعون في حياتهم وكما يدعون باسم جديد بعد مماتهم . التقادم هي بواكير الثمار ورز وماء وملح وفي بعض المناسبات سمك وخضار . وأحياناً الشهادة وعقـد العمل والاجرة والهدايا الخ .. دلالة على شكر الكامي . تقـام الموتى تذكارات على فترات فيوضع على طاولة أي شيء كانوا يستخدمونه وتتلى صلاة بعد وضع التقادم يقف المصلي او يجلس على الارض وينحني انحناءة بسيطة ثم انحناءتين عميقتين فصلاة قصيرة صامتة او شفهية. ثم يرفع رأسه لينحني مرتين ثم يصفّق مرتين فانحناءة عميقة وأخـيراً انحناءة بسيطة . ثم ترفع التقادم وتوضع على المائدة ليأكلها أهل البيت . قبل الأكل يشكر الياباني الكامي بـــأن يغمض عينيه ويحني رأسه ويصفق . عندما يبني الياباني المتدين منزله يقيم حفلة تطهير أرض البناء ويضع رمز « كامي » في «السقالة» . كما يقيم حفلة تنظيف البيت مرتين في السنة في الخريف والربيع . وعندما يتفق اثنان على شيء يشهدان عليهما الكامي بالانحناء وبالتصفيق مرتين كما يعملان في المعبد. وفي نصف آب تشعل

نار أمام المنزل يصلون ويرقصون حولها ويضعون أطعمة لأن ارواح الاجداد تحوم تلك الليلة حول بيوتها ولذلك يعود كثير من العاملين في المدن الى قراهم في ١٤ و١٥ و١٦ آب للاشتراك في مهرجان ارواح الأجداد .

العبادة في المعبد :

يزور الياباني الورع المعبد أقله مرتين في الشهر في أوله وفي ١٥ منه . لا يجوز أن يذهب الى المعبد المريض والجريح والحادّ . عند الوصول الى المعبد يرفع الزائر غطاء الرأس ويغسل أنامله ويتمضمض . ثم يقرع الجرس الصغير لطرد الارواح الشريرة ولمناداة الكامي . ويرمي نقوداً في الصندوق او في الحفرة . ثم يدخل ويقوم بالحركات الآتية : انحناء بسيط واحد ثم انحناءان عميقان فصلاة صامتة قصيرة فانحناءان عميقان فتصفيق مرتين فانحناء عميق وآخر خفيف فانصراف . إذا كان يحمل تقادم يضعها الكاهن على الطاولة ويصلي على نيته . قبل الخروج من حرم المعبد يقرأ البعض حظهم : يدخلون في علبة ١٠ ينّ فتخرج ورقة يقرأون فيها « بختهم » ثم يربطونها بشجرة المعبد . وقد يشترون حجاباً هو عادة قطعة ورق عليها اسم الكامي وفيها ذخيرة من خشب المعبد .

المهرجانات :

المهرجانات هي من أهم تقاليد المعابد والشعب . قبل المهرجان يزين المعبد وحرمه بأغصان الساكاكي وبأكاليل الزهور وبالأعلام وبأوراق ذات خمسة ألوان هي الابيض والاصفر والاحمر والازرق والبنفسجي وبعقود من الحجارة المخرومة وبالسيف والمرآة وعقد حجارة كريمة . يُشترط في الذين سيقومون بالاحتفال ان يصوموا من بعد غروب شمس اليوم السابق وان ينعزلوا عن الناس ويستحموا ويقضوا الوقت في الصلاة والسكون ويلبسوا ثياباً مغسولة.

في طليعة المهرجان يسير الكهان والعازفون ومندوبون عن المتعبدين وحاملو التقادم . وعندما يدخلون المعبد يقفون أمام مقدس الكامي

وينحنون انحنــــاءً عميقاً بينما يفتحه الكاهن ثم يحضرون الصلاة والرقص المقدس . بعد ذلك يتبرعون بتقادمهم . وإذا كان المتبرعون كثيرين يتقدم واحد باسمهم وهم يصفقون مرتين. وأخيراً ترفع التقادم ويقفل مقدس الكامي ويُوزّع الساكي .

الرقصات المقدسة :

تقام لإرضاء الكامي ولإدخال السرور إليها . غالباً ما تروى أساطير من ميثولوجية الشنتو . الخطوات بطيئة ورزينــــة . وضع الجسم وحركات الأيدي أهم من حركات الأرجل . يوجد ٣٥ رقصة تقليدية شنتوية – أهمها الـ « كاجورا » – وأضيفت إليها رقصات حديثة .

التطواف :

ويقول اليابانيون « المسيرة الإلهية الفخيمة » . تنقل الكامي من مقدسها وتوضع في هودج كبير يحمله الرجال ويطوفون به وهم يموّجونه الى عل وإلى أسفل . لا تنقل الكامي ذاتها بل فقط شيء آخر يرمز إليها مثل المرآة او غيرها . يحمل الأولاد هوادج صغيرة بداخلهــا اسم الكامي . يوضع الهودج فترة على منصّة ثم يعاد الى المعبد . قديماً كان الهدف من المسيرة الترحيب بقدوم كامي جديدة الى المعبد او زيارة الكامي لمكانٍ لها صلة به او تجوال الكامي بين رعيتها للبركة او إحياء ذكرى ما كان يعمله الأمراء والزعماء ورسل الإمبراطور في مواكبهم حين قدومهم الى المعبد . ترافق المهرجان ملاهٍ شعبيــة من رقص ورماية وسباق خيل و « سومو »[١] وأسواق البيع والشراء .

أهم تعاليم الشنتو :

تبدو الشنتو وكأنها متجسدة في المعابد فمن يعبر البوابة المقدسة ويخطو

---

(١) انظر صفحة ٤٢٧ .

في « طريق الاقتراب » ويرى المصابيح الصغيرة ويسمع رنين الأجراس الناعم ويشاهد الرموز والرقصات الخاشعة و «يضيع» في الطبيعة الجميلة التي تحتضن المعبد تتغلغل الشنتو الغامضة الصوفية الى أعماق نفسه .

ليس للشنتو كتب مقدسة ولا لاهوت نظري او أدبي ولا فلسفة بل هي طقوس وتعاليم توارثتها الاجيال وزاد في غموضها انها تطعّمت بالكنفوشية والبوذية وإنما حاول المعاصرون استخلاص بعض عقائدها .

١ – **الكامي** : ذكرت عنها الكثير .

٢ – **تأليه الطبيعة** : لا يوجد إله خلق الطبيعة بل الطبيعة هي الله ولذلك كل ما فيها مكرم .

٣ – **عبادة الأباطرة** : الأباطرة هم من سلالة « اماتيراسو » إلهة الشمس. من الأباطرة الـ ١٢٤ يعبد ٢٢ فيمعابد مكرّمة لهم[١] والباقون مع الكامي . سبعة منالإثنين والعشرين نزلت بهم كوارث فأقيمت المعابد لتعزية ارواحهم. ويوجد معابد لأحد عشر اميراً ماتوا في سبيل العرش .

٤ – **تكريم أرواح الأجداد** .

٥ – **تكريم الأشجار** : الكلمة ذاتها كانت تعني شجرة ومعبداً وكانت الغابة حول المعبد تدعى حرم الكامي . في نطاق حرم المعبد توجد عادة شجرة مباركة يربطون فيها حبال الأوراق البيضاء لدرء الشر ولاستجلاب الخير . تحاط بعض الأشجار بإكرام خاص لأنها « سكن الكامي » .

٦ – **تكريم الجبال** : كثيراً ما تقام معابد على الذرى لتكريم الكامي التي تسكنها فتصبح « جبل الروح او جبل الجسم الإلهي » . رأينا فيما سبق شيئاً عن ذلك في جبال «نانتاي» في نككو و «ايناري» في نارا و «فوجي» في هاكوني . في القديم لم يكن يسمح بالصعود الى جبل مقدس إلا للكهنة

---

(١) زرت منها ميجي في طوكيو . وفي كيوطو معبد كامو وكوماي .

ثم سمح للمتعبدين ولم يسمح للنساء . عدا الجبال والاشجار يقدّسون بعض الكهوف والصخور كما رأينا في كاماكورا . أقدس كهف هو في « ميازاكي » حيث تُعبد كامي والد الإمبراطور الأول « جيمو » إذ يقال انه وُلد في ذلك الكهف . في مياجيما الجزيرة كلها مقدسة وتعبد فيها كامي الجزيرة .

٧ – **الكون** : يتطور العالم الذي نعيش فيه من الفوضى الى النظام ومن التناقض الى الانسجام ولا نهاية لأدوار تطوره . ما في الطبيعة أوجدته الكامي وتحفظة وترعاه . ولذا عالمنا هو صالح ويجب أن يعيش فيه الإنسان سعيداً وأن ينبذ كل ما يعوق سعادته. العالم الآخر السعيد تطلق عليه أسماء : السهل السماوي . موطن الكامي . بلاد الخصب . عالم الحياة الأبدية . عالم الأرواح الصالحة . يوجد عالم ثالث هو موطن الأرواح الشريرة .

٨ – **الانسان** : إنه ابن الكامي ويولد صالحاً . يجب أن يُرضي الكامي وأرواح الاجداد وأن يخدم الإنسانية ويسلك حسناً فإذا ما فعل ذلك انضم بعد موته الى عالم الكامي . رسالته في الحياة أن يحقق آمال الأجداد وأن يعلـّم أبناءَه ذلك . انه ابن الطبيعة فيحبها وابن مجتمعه فيعمل له الخير . عليه أن يؤثر الخير العام على منفعته الشخصية وإذا تطلب المجتمع التضحية العظمى فلا يجوز النكوص[1] . بينما تعلـّم البوذية الزهـد والتقشف تعتبر الشنتو الازدهار من علامات رضى الكامي وتقيم صلوات ومهرجانات للزرع وللجني .

٩ – **الخير والشر** : لا كتاب مقدس يحدد ما الخير وما الشر . الخير هو الحفاظ على التقاليد والعادات الموروثة من الأجداد والشر هو مخالفتها . لكن – وقد يناقض هذا ما سبق – القيم الأخلاقية هي نسبية لأن العالم في تطور مستمر . وُجد العالم صالحاً وأدخلت فيه الشر الأرواح الشريرة « ماجاتوش

---

(١) هكذا فعل « الانتحاريون » في الحرب العالمية الثانية إذ كانوا ينقضون بطائراتهم على السفن الحربية الأميركية .

الشياطين » التي تسكن أحياناً في الإنسان وتخرج منه بالاستقسام . روح الإنسان صالحة ولكن جسده يميل الى الخطيئة التي تحدث له المرارة والحزن . يفعل الإنسان الخطيئة إذا ضل او فسد او فقد قدرته على القيام بالأعمال الطبيعية لذلك درجة « أخلاقية » العمل منوطة بالظروف والبواعث والقصد والحالة الجسمية والنفسية ... على الإنسان أن يعمل جهده ليكون صادقاً ونظيفاً ومؤدباً ومسامحاً ومتعاوناً ومحباً . في العالم الخارجي لا يوجد شر وخير بل هما في داخل الإنسان والكامي تساعده لتمييز الخير من الشر ولعمل الخير فعليه أن يطابق أفكاره وإرادته مع إيحاءات ومشيئة الكامي .

١٠ – **الخلاص** : ليس عالم الكامي عالماً أعلى وأخروياً لأن الكامي تركت « سماءها » لتسكن عالم الإنسان وتسعده . الأرواح الشريرة يجب أن تطرد من عالم الإنسان . التطهير لا يكفي للتكفير عن الآثام بل على المرء أن يسلك سلوكاً حسناً حسب مشيئة الكامي .

١١ – **الموت** : الحياة خير والموت شر . يتنجس أهل المتوفى لفترة يمنع عليهم فيها الذهاب الى المعابد والاختلاط بالناس . ترك كهان الشنتو صلوات المآتم للرهبان البوذيين وإذا ما أقيم « جناز » شنتوي يحتفل به خارج المعبد بدون الكهان الذين مهمتهم خدمة الكامي لا خدمة الموتى . حتى القرن التاسع عشر لم تكن توجد مقابر في اليابان لأنهم يحرقون موتاهم . عند حرق الجثة ينتشلون الحرقدة (تفاحة آدم) وينثرون البخور وزهوراً صفراء . تكرم روح المتوفى « وتـُعزّى » كلما مرت عشرة أيام بعد موته حتى اليوم التاسع والأربعين لأن روحه تبقى هائمة حول مسكنه الأرضي سبعة أسابيع . تعيش الروح في العالم الآخر وتزور الحين بعد الحين عالم الإنسان وتتقبل التكريم والتقادم من الابناء والأحفاد وتباركهم . تظل أرواح المحاربين بعد الوفاة تدافع عن البلاد . إذا انتحر عاشقان يعيشان الى الأبد عاشقين في العالم الآخر .

٥٣

تايبيه

فرموزا

لمحة عن فرموزا :

في القرن السادس عشر لمح بحارة برتغاليون جزيرة كبيرة تمتد بين المحيط الهـادىء وبحر الصين – على بعد نحو ٢٠٠ كلم الى شرقي القـارة الصينية – وهتفوا « فرموزا » أي جميلة وعلق بها هذا الاسم . أما الصينيون فيدعونها « تيوان – TAIWAN » ومعناها «الخليج المدرّج» . معدّل طولها ٤٠٠ كلم ومعـــدل عرضها ١٢٥ كلم ومجموع مساحتها ٣٦ الف كلم[٢] يعيش عليها ١٣ مليوناً . أرضها متنوعة التضاريس ففي الشرق جبال ترتفع الى اربعة آلاف متر وفي الوسط غـابات وفي الغرب سهول وهضاب اكثر ما يزرع فيها الارز وقصب السكر . مناخها « فوق الاستوائي » رطب جداً وغزير الامطار .

تيوان هي الآن « جمهورية الصين الوطنية » منذ ان انتقلت اليها حكومة تشانج كاي شيك سنة ١٩٤٩ وبقربها ٧٧ جزيرة صغيرة .

عبر تاريخها القصير انتقلت من حكم البرتغاليين الى الاسبانيين الى الهولنديين

الى الصينيين الى اليابانيين . كان الاحتلال الياباني (١٨٩٥ – ١٩٤٥) أفضل حقبة إذ تقدمت الجزيرة في الزراعـــة والطرق والصناعة والري وأصبحت مركز مواصلات هاماً في الشرق الأقصى . من منتوجاتها البطاطا الحلوة – الفستق – الخضار – قصب السكر – الشاي – الأناناس – الدخان – جوز الهند . للرز ثلاثة مواسم فيالسنة الواحدة وهو من اجود الأصناف ويأكلونه في كل وجبة . وفيها صناعات النسيج والفحم الحجري والرخام والقيشاني وبعض الحجارة الكريمة لا سيما اليشب . حاولت قدر المستطاع أن اطلع عن كثب على الحضارة الصينية في هذه « الصين المصغـّرة » التي تزعم انها وريثة الصين الحقيقية بدينها ومعتقداتها وعاداتها لأن الصين الشعبية – دوماً حسب زعمها – خلعت كنفوشيوش معلم الصين الاول عن عرشه الإقطـاعي ومحت ألواناً من صفحات الصين التاريخية .

انس وسرعة :

تقع « تايپيه – TAIPEI » عاصمة فرموزا في شمال الجزيرة ويبلغ عـدد سكانها مليوناً ونصفمليون وهم ذوو انس وجاذبية. اجسامهمالصغيرة تطبـع فيالغريب التأثير بأن حركاتهم سريعة وشفاههم الصغيرة جداً تظهرهم وكأنهم سريعون في كلامهم . انهم قنـّع سعـــداء . كل شيء رخيص جداً جداً والمساومة تستغرق وقتاً طويلاً . تلبس النساء بنطلوناً فضفاضاً او فستاناً مشقوقاً عن الجانبين .

الأبجدية : ٤٨ ألف مقطعاً :

بدأ السيد «تونج تانج» دليل شركة الجنوب الشرقي السياحية التيتعاقدت معها لجولاتي بأن قال لنا : الأبجدية الصينية مكونة من ٤٨ ألف مقطع يعلـّم منها في المدرسة ٦ آلاف. وبما أن الشكلات تغير المعنى (كما في لغتنا العربية) فلكي يكون الصيني واضحاً يكتب احياناً المقطع على راحة يده اليسرى او يرسمه في الهواء بمروحته ... وربما هذا من أسباب كثرة حركاتهم .

شمسية العروس :

في اوائل القرن الماضي جعل الصينيون « تايبيه » مدينة مسوّرة كغالب مدن القارة . رأينا على بوابات الأسوار تماثيل ورسوم آلهة المدينة .

الأرصفة عريضة تعلوها قناطر تحميهـــا من الامطار . العروس تسير في زفافها تحت شمسية ولو كان النهار شامساً لأنه منذ ٣٠٠ سنة استعمر «المانشو» فرموزا فحلف السكان ألا يتزوجوا في ظل حكم المانشو بل .. في ظل شمسية . شارعها الرئيسي يحمل اسم « الدكتور صن يات صن » الذي أسس الجمهورية الصينية سنة ١٩١٢ وتشانج كاي شيك هو أحد تلاميذه . قصر تشانج كاي شيك بهندسته وألوانه ورسومه الخارجية هو صيني ١٠٠ ٪ . تفتح الاسواق من ٨ صباحاً الى ١١ ليلاً بما في ذلك بعض البنوك .

المعابد والمتاحف :

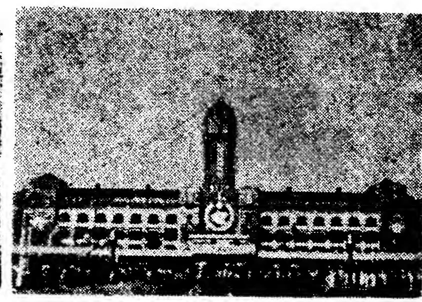
المعابد هي متاحف الحضارة الصينية زرت منهـــا العديد بتأنٍ وبيدي كتاب «عادات وعقائد الصينيين» . أذكر معبد «لونج شان» البوذي ويدعى ايضاً معبد « تنين الجبل » ووراءَه معبد « تاوي »[1] للتنين ايضاً و « شنج هوانج» المكرّس لإله المدينة ومعبد « كنفوشيوس» يقيمون فيه يوم ٢٨ ايلول من كل عام ذكرى ميلاده ويذبحون له بقرة وخنزيراً ومعزاة .

المعبود والحظ :

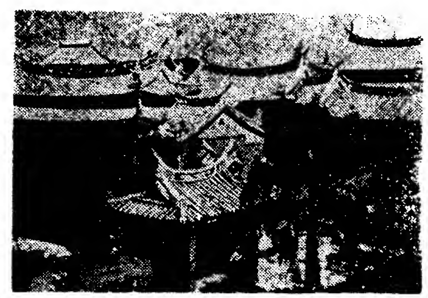
رأيت مراراً الصينيين يسألون معبودهم هل يُقدمون على عمل أم يحجمون وهل سيحدث شيء أم لا . بيد السائل قطعتا خشب مقعرتان من جهة ومسطحتان من الجهة الاخرى . يضمر السائل نيته ويرميهما . إذا وقعتا على الارض والجهتان المسطحتان الى فوق فالجواب هو بالنفي، وإذا وقعتا والجهتان المقعرتان الى فوق فلا جواب وتعاد الرمية ، وإذا وقعتا واحدة جهتها المقعرة

---

(١) « تاو » هي الديانة الصينية . انظر فصل ٥٥ .



قصر الرئاسة

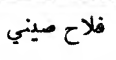


معبد كنفوشيوس



تاكسي تيوان





فلاح صيني

الى فوق والاخرى جهتها المسطحة الى فوق فالجواب بالإيجاب . ترمى ثلاث مرات ويكفي جواب إيجابي مرة واحدة . أكثر شعوب الارض اتكالاً على الحظ هو الشعب الصيني .

المتحف الوطني :

أشجار « حديقة النبـات » تشبه ما رأيته في هونولولو وداخل الحديقة زرت «المتحف الوطني» . فيه أواني برونزية منعهد أسرة «شانج» (١٧٦٦ – ١١٢٢ ق. م.) ومخلفات من حضارة أسرة « شو » (١١٢٢ – ٢٢١ ق. م.) ومخطوطات وقيشاني وركن خاص للحجر الكريم المدعو اليشب وكان هاماً للعبـادة ولجلب الحظ . على أحد الجدران رسم « تطواف امبراطوري » من القرن السادس عشر طول الرسم ٣٠ متراً وعرضه ٨٥ سم . الإمبراطور على عرش مزين بتنينين وبمئات الرسومات المصغرة جداً حسب فن الصينيين واليابانيين في رسوماتهم . وغرفة للمرايا التي كانت تستعمل ليس فقط للزينة بل ايضاً لأغراض دينية ولجلب الحظ فحسب اعتقادهم الارواح الشريرة التي تؤذي البشر بالأمراض والطاعون والمصائب تهرب من المرآة إذ ترى فيهـا أشكالها القبيحة ... وطبعاً في المتحف الكثير من « الصيني » .

معمل الصيني :

طاف بنا الدليل في معمل الصيني . في المرحلة الاولى يصنعون الفخار كما نصنعه في بلادنا ثم في المرحلة الثـانية يزينونه بالرسومات وفي المرحلة الثالثة يطلونه بشحم خاص وهو نوع من الزيت وفي المرحلة الرابعة تدخل الاواني في فرن تحته النار وحرارته ١٣٠٠ درجة مئوية وتبقى فيه ٤٨ ساعة . في المعمل صالة عرض واسعة والبضاعة رخيصة جداً .

الاعصار :

حجزت تذكرة بـ ٤٥ دولاراً أميركياً (١ دولار = ٤٠ دولار تيواني)

لزيارة جبال الرخام في وسط الجزيرة الشرقي لأن الصينيين يقولون إنه أجمل موقع في تيوان . ولكن في المساء ألغت الشركة الرحلة لأن إعصاراً بدأ يكتسح في تلك المنطقة . تيوان أكثر بقاع الارض تعرضاً للاعصارات . الإعصار (تيفون) ظاهرة طبيعية مخيفة تتقدم رياحه العاتية بطريقة لولبية حلزونية دائرة على نفسها وتقارب سرعتها احياناً مائتي كيلو متر في الساعة محطمة كل ما يعترضها هادمة المنازل ومقتلعة الاشجار ولا ينجح في إيقاف غزوها إلا الجبال الشاهقة .

بلدة « هسين شو » :

بدل رحلة « هوا ليان » وجبال « تاروكو » ذهبت بالسيارة الى بلدة « هسين شو » وهي اهم مركز كاثوليكي في فرموزا . الاتوبيس مزدحم جداً بالركاب والشمسيات والسلال والأكياس . طوال الطريق تتوالى الحوانيت الصغيرة فكل شيء صغير عندهم. الصبية يبيعون الاجاصة المقشرة المشكوكة في مسواك .

بعد ساعتين وصلت الى محطة البلدة وركبت منها « الدراجة التاكسي » الى الكاتدرائية. يلبس المطران والكهنة الزي العلماني. تضم مدرسة الصبيان التي يديرونها ٤٠٠ طالب كلهم بالبدلة الشعبية ذات القميص المقفول فكأنهم جنود صغار . وتضم مدرسة راهبات الروح القدس ١٢٠٠ طالبة . تعرفت بكاهن يسوعي اميركي مصاب بداء « البوليو » فيعيش باستمرار على كرسي وهو يؤدي رسالته هنا في مركز للشباب الجامعي فأعجبت ببطولته وشجاعته. يدير كاهن يسوعي آخر مركز الشبيبة العاملة المسيحية . ١٣ ٪ من سكان فرموزا هم مسيحيون ومستواهم الاجتماعي راقٍ . يلاحظ في الشرق الاقصى أن المسيحية تنتشر في الاقطار التي تتمتع بجو حرية . يتعلم المرسلون اللغة الصينية ويتقنونها في سنتين . أكلت معهم ومثلهم « الشوربة » في سلطانية

بملعقة كبيرة من القيشاني وباقي الأكل بالقضيبين المهودين . يشربون الشاي مع الأكل بدل الماء والشاي هو المشروب الشعبي لكل الاوقات .

غداء صيني :

طلبت في تايپيه غداء صينيـــاً صرفاً . جلس معي صاحب المطعم نصف ساعة يحدثني . جاء الأكل في قصعة كبيرة وهو يكفي لثمانية أشخاص . اسم الصنف « ساكو » وهو مزيج عجيب من انواع الخضار ولحم الخنزير والضأن والسمك والمكرونة (الإبر) ولب البـامبو والبصل والأرز ولا أدري ماذا أيضاً ... لكي أتشجع طلبت الى صاحب المطعم أن يتغدى معي وعرفت منه غرائب عن مطبخهم فهم يأكلون السمك نيأ ، والأفاعي ما عدا رأسها وجلدها ، والسلاحف ومخ القرود ويضعون فيالشوربة النمل ودود الارض . وقال لي انه توجد اربعة «مذاهب» لفن الطهي الصيني حسب المناطقالكبرى في القارة وإن المآكل الصينية هي أكثر مآكل الارض تنوعاً . يكثرون جداً من تناول الأرز .

حول تايپيه :

حول تايپيه زرت « تاتون ـ TATUN » جبل المصايف وبحيرة «بيتان ـ PITAN » أي الخضراء وشلالات « وولاي ـ WULAI » . ثم اصطحبني الدليل الى قرية تسكنها قبيلة ليست كباقي شعب الصين ولها في فرموزا سبع قرى منعزلة. يختلف الشكل عن الصينيين فهو اقرب الى النوع «البولينيزي» الذي رأيته في «هاواي» . قدموا لنا أغاني ورقصات فولكلورية في سرادق من حصير . ولا أذكر أنني رأيت في حياتي يوماً ممطراً كذلك اليوم .

حديث ديني مع الدليل :

في الطريق كنت والدليل وحدنا وكان مهذاراً ظريفاً وسألته عن معتقده فأجابني : نحن لا نهتم بالدين ولا نتمسك بأي دين . معلمنا كنفوشيوس لم

يكن ديّنـاً وعندما سُئل عن الآلهة أجاب « لا نعرف هل توجد أم لا وإذا وُجـــدت فلا علاقة لها بنا» وعندما سُئل عن الحياة الاخرى أجاب « لا تفكروا فيها واسلكوا سلوكاً حسناً في حياتكم » .



صغيرة وأخوها

للسلام يضمّ الصيني يديه ويحركهما صعوداً ونزولاً وينحني. والمرأة تمسك بيدها اليمنى كم اليد اليسرى وتنحني . يعطى الشيء ويؤخذ باليـــدين معاً . وحتى للشرب «على صحة» أحد يرفع الفنجان باليدين معاً .

فيلم الطالبة المغامرة :

فيلم لطيف مرح فيه غناء كثير فهو أشبه «بأوبريت» . الازياء جميلة جداً والبيوت غنية قديمة. تلبس البطلة زي الرجال لكي تخرج وتتردد على المدرسة. تمضي أعوام الدراسة وزميلاها لا يعلمان انها فتاة . يريد اهلها تزويجها وتريد هي أن تقدم الامتحان العالي فيالمدرسة الامبراطورية في العاصمة « بكين » . يخيّرها اهلها بين صديقيها للزواج فتحتار . ترسل مع حمامة ورقة صلاة الى الآلهة ولكن لا تلقى جواباً فترمي ورقة اخرى في سهم وتنذر أن تتزوج الذي يلتقط السهم. التقطه أحدهما وعرف خطها وأراد أن يعيد إليها الورقة لكنه كان مشغولاً فأرسلها مع صديقه وظنت هي أن حامل الورقة هو الذي التقط السهم. ويحين موعد الامتحان ولكنها لا تذهب لأن أباها سُجن بتهمة

وأمها مرضت . يذهب الطالبان وينجحان ويعلمانها بنجاحهما فتذهب الى بكين مع خادمها وزوجته . ترى في الفندق لصاً يخطف امرأة فتتبعه وتقتله في بيته وتصرع ثمانية لصوص شركائه وتنجّي المرأة المخطوفة فتحبها هـذه وتستضيفها في بيتها وتعرض أن تتزوجها ظانة إياها رجلا . تتمنع البطلة ثم تتملص بقولها انها مخطوبة لكن رب البيت يسأل الخادم ويعرف منه انها حرة . تتملص ثانية بالوعد على أن تأخـذ رضى والديها . عندما تصل الى « بكين » تعرف أن أحد زميليها عاد الى قريتها ليخلص والدها من السجن وبقي الثاني في بكين . تلتزم أن تنام في غرفته ولِمَ لا فهي شاب صديق ! في الصباح يكتشف من شعرها انها فتاة ويلمّح لها بذلك في طريق العودة بالأغاني والغمزات وينتهي بأن يرمي قبعتها في معبد ويعرض عليها الزواج فترفض لأن « النصيب » قرّر أن تكون لصديقه إذ انها نذرت أن تتزوج من يلتقط السهم. قال لها : أنا التقطت السهم وسلمته لرفيقي فحمله لك. فصدقته وتزوجا . في البيت يصدم الرفيق إذ يرى انها بنت ويطلب يدها هو ايضاً . ثم تحضر المرأة التي خطفت ونجت وتطالب بأن تتزوجها إذ لا تزال تعتقد انها رجل .. تفصح انها امرأة مثلها وأنها تزوجت من رفيقها فيتزوج الرفيق الثاني تلك المرأة الغريبة .

فيلم المرأة القائد :

هذا الفيلم مقتبس من قصة شعبية في الصين . يُغير المغول على البلاد وترى البطلة أن والدها عجوز وأخاها لا يزال صغيراً فتتطوع هي . ولكي تُقنع والدها تتنكر بثياب رجل وتبارزه وتنتصر عليه ثم تكشف له انها بنته فيرضى بتطوعها . تنضم الى الجيش كرجل وتغلب الجميع في المبارزة فتعيَّن قائداً وتُبلي بلاءً حسناً في المعارك . ذات ليلة نبّهت القيادة العليـــا انه ستحدث غارة ليلية فيجب أن يخلو المخيم . وفعلاً يهجم المغول فلا يجدون أحداً فيحاصرهم الصينيون ويفتكون بهم . يعجب بها (به) القـائد الأعلى

فيعرض عليها (عليه) الزواج من بنته فتقول انها تريد أن تستشير أهلها . ولكنها بالفعل أحبت قائداً زميلاً. يرسل القائد الاعلى مع هذا الزميل هدايا قيّمة الى أهلها فتصرح له انها بنت وتتزوجه .

فيلم الغرفة الغربية :

توجد في غرفة غربي معبد تأوي المسافرين. يُعجَب طالبٌ بفتاة حسناء في البيت الغني القريب الى المعبد . يبوح بسره الى خادمتها فترتّب هـــذه اللقاءات بينهما وتنقل الرسائل الغرامية العفيفة . يموت والدها وتأتي العائلة الى المعبد للصلاة على روحه فيحاصر عدو المعبد بثلاثة آلاف مقاتل لكي يحظى بالفتاة . تعلن امها انها ستزوّجها لمن يُبعد المحاصرين . يتقدم ذلك الطالب ويقترح أن يقال للغازي انها فيحِداد ينتهي بعد ثلاثة أيام ثم تذهب معه . قبل القائد وانصرف . في هذه الاثناء استدعوا الجيش لحمايتهم لكن الام حنثت بوعدها فحزن الشاب وقارب الموت فرضيت الام أن تزوجه بنتها .

سير الافلام بطيء وفيها قصائد وأغاني كثيرة ومراجعات لكن الحركات لطيفة جداً . في القصص الثلاث احترام الابناء لوالديهم وطاعتهم فهذه أولى وأهم الوصايا والتقاليد في الصين . ثم احترام العهـــود وتنفيذها . القبلة بين الام وبنتها بحكّ الجبينين . شاهدت في أحد هذه الافلام لعبة جماعية لطيفة وسهلة : يجلس اللاعبون في دائرة . يسلّم اللاعب الاول خاتماً للذي يجانبه ويتنقل الخاتم من يد لاعب الى الآخر بينما تعزف الموسيقى . وعندما تتوقف الموسيقى عنالعزف فالذي يكون الخاتم في يده يلتزم أن ينفـّذ حكماً يصدره الذي سبق ووقع قبله وهكذا ..

٥٤

اقوال كنفوشيوس

المحافظ والمجدد :

كنفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق.م.) ـ ومعنى اسمـــه المعلّم كنج – لم يُؤلّه ولم يؤسس أو يبعث ديانة إنما اعتبر المعلم الأول وحكيم الحكماء . وهو الذي علّم الصين احترام القيم الاخلاقية والإخلاص للوطن وتقديس الروابط العائلية ووجوب التقيد بالآداب الاجتماعية .

كانت الصين في زمن كنفوشيوس مجتمعاً اقطاعياً مكوناً من عدة دويلات وتسوده السلطة الوالدية على الأبنـــاء والاحفاد وتتسلط طبقة الحاكمين على المحكومين . كان اعظم شرف للمرء الوصول الى وظيفة حكومية لذلك عظم شأن «المعلّمين» فمن يدرس على يدهم يأمل ان يتوظف . تصرّف كنفوشيوس كمحافظ بالنسبة لإقامة الشعائر الدينية الرسمية ولعــادات وتقاليد الأجداد وللولاء للحاكمين وللقناعة بالعيشة البسيطة . وتصرّف كمجدّد إذ حاول إبعاد زملائه وتلاميذه عن خرافـــات الديانة الشعبية وعن التهافت على الوظائف وعلّمهم وجوب الحياة الأدبية الراقية وتقدير كل انسان وتقييم الفرد بحسب صفاته الشخصية .

رغم التقسّم الى دويلات كان الصينيون يعترفون بوجود ملك رمزي يلقب بـ « ابن السماء ». عاش كنفوشيوس في عهد السلالة الثالثة « شو » وكان عهداً مضطرباً يتصارع فيه الطامعون في السلطة المركزية ويقلّ تقدير القيم العليا[1] وربما لهـذه الأسباب بقي كنفوشيوس مبتعداً عن الوظائف الحكومية وعن السياسة .

كتاب « اقوال كنفوشيوس » :

لم يؤلف كنفوشيوس كتباً بل كتب تلاميذه ما سمعوه منه وجمعت أقواله في كتاب صغير اسمـه : « أقوال كنفوشيوس » مكوّن من ١٩ فصلاً وكل فصل مقسم الى جمل أو آيات . يعتبر الصينيون ان عندهم ثلاثة عشر كتاباً عريقاً محترماً منها القصائد وكتابات القدماء ـ الشعائر والطقوس ـ سجلات الربيع والخريف الخ ... والكتاب العـاشر هو أقوال كنفوشيوس واسمه بالصينية « لون يو ـ LUNYü » تناقلته الأجيال وكان يُعلّم لكل التلاميذ حتى سنة ١٩٥٠ .

أهم محتويات الكتاب هي : واجبات الأولاد نحو والديهم ـ الواجبـات بين الاخوة ـ الواجبات بين الاصدقاء ـ الولاء للحاكمين ولأصحاب السلطة ـ وجوب اتباع الحق وإقرار العدل ـ وجوب المحافظة على الطقوس والشعائر ـ وجوب التقيد بعادات وتقاليـد الأقدمين ـ السعي لاكتساب العـلم وخبرة الحياة . إذا اتبع الانسان في سلوكه هذه القواعد يكون « مثالياً ـ كاملاً ـ فاضلاً ـ عظيماً » وهذه النعوت تتكرر كثيراً في أقواله .

---

(١) بين ٢٢١ و ٢٠٧ ق.م. انتصرت دويلة « شين » الشمالية على مناوئاتها ووحـدت البلاد وجعلتها امبراطورية لأول مرة واعطت لها اسمها وكان الاسم الشامل من قبل «شونجكو» أي المملكة المتوسطة .

عيد كنفوشيوس ومقامه :

في ٤ ايلول ١٩١٨ أصدر رئيس الجمهورية قراراً يحدّد طريقة الاحتفال بذكرى مولد كنفوشيوس يوم ٢٨ ايلول من كل عام كما يلي :

١ ـ على كل التلاميذ في البلاد ان يزوروا معابد كنفوشيوس ويقوموا بالشعائر الدينية وبتطوافٍ بالمشاعل .

٢ ـ على كل الجماعات المنظمة (هيئات ـ نقابات ـ جمعيات ...) ان تزور معبده .

٣ ـ على موظفي الحكومة ايفاد مندوبين عنهم الى معبده .

٤ ـ ترفع أعلام البلاد وتنار الابنية العامة والمدارس .

٥ ـ يكون يوم عطلة في المدارس وفي الدوائر الرسمية .

في الديانة الصينية ـ « تاو » ـ يعتبر كنفوشيوس « صاحب المقام الأول في السماء » وشفيع العلوم والآداب . إنما مع انتشار الشيوعية في « الصين الشعبية » أفل نجمه ونُحّيَ عن عرشه لأن تعاليمه غير اشتراكية ولأن المعلّم ماوتسي تونغ أهم منه. لكن في «الصين الوطنية ـ فرموزا» وفي هونغ كونغ وفي كل مكان يوجد فيه صينيون محافظون لا يزال كنفوشيوس المعلم الأول .

أودّ ان انقل الى القارىء بعض أقوال كنفوشيوس مأخوذة من كتابه المذكور وأدعها كما هي بتتابعها مبعثرة وأحياناً متشابهة .

من اقوال كنفوشيوس

ـ إذا اقيمت شعائر الدفن باتقان ، وإذا قُدِّمت القرابين التقليدية للمتوفى ، فلا شك ان الشعب صالح .

ـ راقب أقوال المرء ما دام والده على قيد الحياة ، وراقب أعماله بعد

موت والده . إذا لم يعـدل عن سلوكه الصالح مدة ثلاث سنوات ، (وهي فترة الحداد) ، يمكنك ان تعتبره براً بوالده .

ـ إذا جهلني الغير لا اهتم ، ولكن اهتم إذا جهلت الغير .

ـ لا يهمني إذا لم يعرف عني غيري، ولكن يهمني إذا لم أعرف عن الغير.

ـ على الذي ينخرط في السلك الحكومي ان يكون كالنجم القطبي : ان يثبت في مكانه بينما سائر النجوم تتنقل .

ـ في سن ١٥ اهتممت بالتعلـّم . في سن ٣٠ بـدأت أؤدي دوري . في سن ٤٠ اكتسبت الثقـة بنفسي . في سن ٥٠ وطدت مركزي بين الناس . في سن ٦٠ لم أعد منطقياً متشدداً. والآن فيسن ٧٠ يمكنني ان اتبـع رغائب قلبي بدون ان اخالف التقاليد .

إذا كان الهمُّ الوحيد الذي تسببه لوالديك خوفهم من ان تُصـاب بمرض فأنت ولد بارّ .

ـ اليوم ، إذا قال الناس عن ابن انه بارّ ، فيعنون انه يعيـّش والديه . ولكن هو يعيـّش ايضاً خيوله وكلابه ! فإذا لم يعـــامل والديه باحترام ، أي فرق يكون بينهما وبين البهائم ؟

ـ ينظر الكبير الى الأمور نظرة شاملة لأنه غير متحيـّز ، ولا ينظر اليها الصغير نظرة شاملة لأنه متحيـّز .

ـ العلم هو ان يعرف المرء ما يعلم وما لا يعلم .

ـ الصين ، حتى بدون زعيم معترف به ، تبقى أفضل من سائر البلدان مع كل زعمائها .

ـ سأل أحدهم: كيف يُقال عن كنفوشيوس انه يعرف كل الشعائر وهو، عندما يحضرها ، يسأل دوماً عنها ؟ فأجاب كنفوشيوس : « ولكن الشعائر نفسها تتطلب ذلك » .

ـ العاقل لا يتحسّر على مـــا فات وانقضى ، ولا يعترض على ما هو في دور التطوّر ، ولا ينتقد اخطاء وقعت .

ـ تستعملني السماء كمطرقة لقرع جرس يدعو الناس الى التعلّم .

ـ إذا فهمت النهج [1] في الصباح فيمكنك ان تموت في المساء .

ـ لا تحزن إذا لم ترتقِ الى وظيفة عالية ، بل احزن إذا لم تقم بواجبك .

ـ إذا رأيت رجلاً مثالياً حاول انتسمو مثله ، وإذا رأيت رجلاً غيرمثالي عُد الى بيتك وافحص ضميرك .

ـ في حياة والديك لا تهاجر . وإذا ابتعدت عنهم فاسكن فى مكان يعلمانه .

ـ الرجل الكامل لا يبقى وحيداً فهو يجذب جيرانه .

ـ في الماضي ، كان موقفي من النـــاس ان اكتفي بسماع أقوالهم ، دون ان اراقب افعالهم . واليوم ، إذا سمعت أقوالهم ، راقبت أفعالهم .

ـ سأله « شونج يو » : مـــا هي أعظم أمانيك ؟ فأجاب : ان أؤمّن الاستقرار والطمأنينة للمسنّ ، وان اكون مخلصاً لأصدقائي ومحباً للشبيبة .

ـ لم أجـــد بعد الانسان الذي يلوم نفسه حين يخطىء . من يفعل ذلك يبلغ القمة .

ـ من هو الحكيم ؟ ـ هو الذي يحث الشعب على العدالة ، ويحترم ارواح الموتى ، ويكرم الآلهة بدون دالـّة معها .

ومن هو المثالي ؟ ـ هو الذي يهتم بالواجب قبل المكافأة .

ـ انني انقل ولا أخلق . انني مغرم بالقـــديم واريد ان اتشبه بالعريق « بنج » ، الذي كان يتحدث عن الأزمنة الغابرة السعيدة ، ازمنة الأجداد .

---

(١) النهج اي طرق السلوك القويم . ويعني ايضاً الـ « تاو ـ TAO » التي هي الديانة الصينية الأولى . ورأينا المعنى ذاته في الـ « شنتو » الديانة اليابانية .

ـ أكل نبات بدون لحم، وشرب المـــاء القراح، وطي الذراع وسادة : هذا لا يتنافى مع التمتع بالحياة. ولكن احراز الثروة وبلوغ المناصب العالية عن طريق الظلم : هذا تمتُّع سيضمحل كغمامة .

ـ ولعي بعملي يُنسيني الأكل والهموم ويُنسيني انني اتقدم في السن .

ـ لم يكن المعلّم يتحدث عن اربعة : الخوارق والمغامرات والثورات والإلهيات .

ـ كان المعلم يهتم بأربعة : الأدب والسلوك والاستقامة والثقة .

ـ لم يكن المعلم يصطاد السمك بالشبكة بل بالصنارة ، ولم يكن يطلق سهماً على عصفور واقف .

ـ صغير النفس يرتبك في كل شيء وكبير النفس لا يرتبك في أي شيء .

ـ دع الغير يعملوا ما يشاؤون ولا تتدخل في شؤونهم .

ـ عندما قيل للمعلم ان اصطبله احترق ، سأل هـل اصيب أحد الرجال بأذى ، ولم يسأل عن خيله .

ـ سُئل المعـــلم عن السلوك مع الارواح والآلهة فأجاب : لا يمكن ان تكون حسن السلوك مع الارواح والآلهة قبـل ان تكون حسن السلوك مع البشر .

وماذا عن الموت ؟ فأجاب : لا يمكنك ان تعرف كنه الموت قبـل ان تعرف كنه الحياة .

ـ لا تعمل للغير مـــا لا تريد ان يعمله الغير لك . عندئذ لا يكون لك اعداء لا في داخل بيتك ولا في خارجه .

ـ هل توجد كلمة تحفظ الانسان في النهج القويم الى نهـــاية أيامه ؟ نعم « المبادلة » : لا تُرد لغيرك ما لا تريده لنفسك .

ـ كيف يمكن للرجل المثـــالي ان يقول إنه لا اخوة له بينما كل البشر هم اخوته ؟

ـ مَن هو الذي يستحق لقب «انسان نبيل» ؟ ـ الذي هو صادق ومتقن ومتساهل . الاصدقاء هم صادقون والأخوة هم متساهلون .

ـ دفع شعب جاهل الى الحرب يلقيه في تهلكة .

ـ ثلاثة أصدقاء يفيدوننا : المستقيم والمضحي والمتعلم . وثلاثة أصدقاء يضرون بنا : المتزلّف والخدّاع والثرثار .

ـ ثلاث ملذات تفيدنا : حب الشعائر والموسيقى ، التحدث عن صفات الآخرين ، الأصدقاء الصالحون . وثلاث ملذات تضِرُّ بنا : الانغماس في الشهوات والبطالة والشراهة .

ـ الرجل الذي يتحلّى بالصفات الخمس الآتية هو مثالي : التواضع ـ عزة النفس ـ الصدق ـ الاجتهاد ـ اللطف .

إذا كنت متواضعاً لن يُهزأ بك .

إذا كنت عزيز النفس تجذب الكثيرين .

إذا كنت صادقاً يصدّقك الناس .

إذا كنت مجتهداً تنجح .

إذا كنت لطيفاً يحبك حتى مرؤوسوك .

ـ كان كنفوشيوس في عربته فسمع مجنون الملك يغني :

« ايتها العنقاء ! كيف ولّت الأيام الحلوة ! لماذا يغمّنا ما فات ولماذا يهمّنا ما هو آت وهي هي أقدار الحياة ! » .

ترجّل المعلم من عربته وأراد ان يتحدث الى المجنون فهرب هذا من أمامه. فهل اردت يا كنفوشيوس ان تحقق القول المأثور : مجنون يتكلم وعاقل يسمع !

٥٥

الديانة الصينية « تاو » وملحقاتها

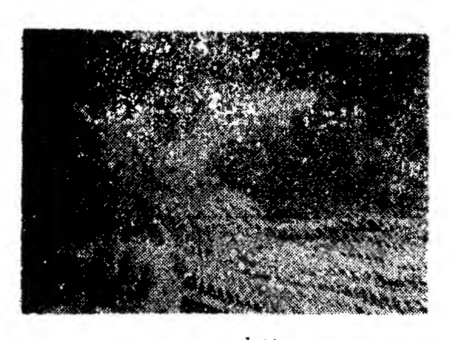
تسامح وانفتاح :

يقال ليس للصينيين ديانة حقيقية بـــل خرافات واعتقادات وعادات . ملأت ميثولوجيتهم الكون بالآلهة فجعلوا لكل نوع حي إلهاً ولكل عمـــل إنساني إلهاً وأسكنوا الارواح صالحة وشريرة في الكهوف والاشجار وألّهوا بعض أباطرتهم وابطالهم وبمرور الزمن تضخمت مجموعـة آلهتهم . ليس عندهم إله واحد غيور فيقبلون أي دين وأي إله . يتبـع الواحد منهم التاو والبوذية وتعاليم كنفوشيوس ويصلي في المعبد البوذي الملاصق للمعبد التاوي ويستدعي للصلاة على الموتى الكهان التاويين والرهبان والراهبات البوذيين . حتى الذي يعتنق الدين المسيحي لا ينبذ عادة تقديم القرابين لأرواح الأجداد أمام اللوحة التي تحمل أسماءَهم .

يقول حكماء الصين : « الديانات عند الشعب حقيقية وعند الفلاسفة غـير حقيقية وعند الساسة مفيدة » .

ليست ديانتهم قومية كما هي ديانـــة اليابانيين والهنود . فقبل أن تنفتح الصين على العالم الغربي كان هم المرء خير عائلته وليس خير الوطن . لم يعرفوا

حب الوطن بقدر مـــا عرفوا كره الاجنبي الى ان انتشرت الشيوعية فاضطرت الكهان الى ترك كهانتهم كمهنة ، وحوّلت المعابد ، وشجعت على نبذ عبادة أرواح الأجداد ، وعلّمت تفضيل الحزب على الاسرة و « ماو » على كنفوشيوس ، والأمــة على الفئات ، ونفت الدين كخرافة.



زخرفة في معبد صيني

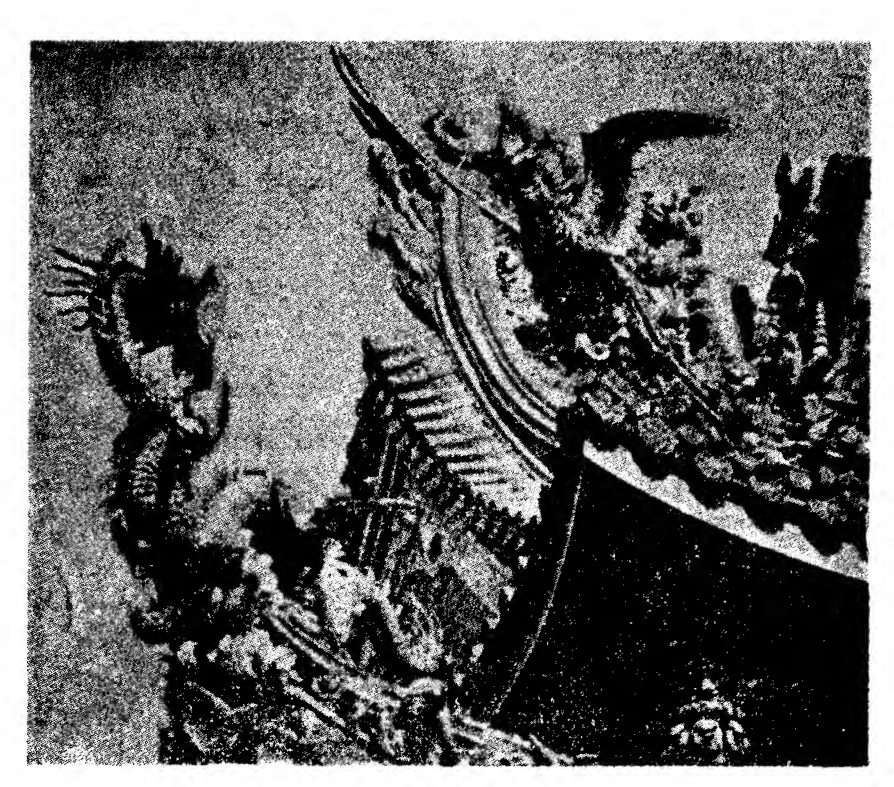
قبل شيوع التاو ثم البوذية كانت هنالك اعتقادات عريقة استوعبت هاتان الديانتان جزءاً منها وابقتا على عدد الآلهة غير محدود . آخر مَن أُلّه كان دكتوراً ألّهه آخر امبراطور في ١٩١١ .

مؤسس التاو :

التاو التي هي الديانة الصينية الاصلية بقيت نسيجاً من الاساطير الشعبية والاعتقادات المستهجنة المتجمدة وهي التي اعرض لها الآن [١] . صاغها كدين مذهبي زعيمها الاول « شانج تاولنج » وأدخل فيها السحر ومـــا يتبعه من شعوذة وطلاسم وتمائم وعوذ وأسّس طغمة من الكهان عملهم الاول الاستقسام لطرد الارواح الشريرة ولشفاء الامراض ولدرء الطاعون ولجلب « السعد »

---

(١) اشتهرت في النصف الاول من قرننا العشرين «السواستيكا» ـ البوذية الاصل ـ وعلامتها صليب معقوف 卍 (عكس الصليب النازي 卐) . يزين الصينيون بهـــذا الرسم صدور وبطون الاصنام والسقوف والقماش الخ .. في ١٩١٧ أسس صيني « جمعية السواستيكا الحمراء » زاعماً انها مزيج من احسن ما في الكنفوشسية والبوذية والتاو والاسلام والمسيحية . من أعمالها استحضار الارواح . في ١٩٣٨ كان عـدد فروعها خمسمائة . لها مشاريع خيرية وتربوية وصحية وترفيهية .



على سطح معبد صيني

ولابعاد « النحس » ولرفع ابتهالات الشكر للآلهة بعد الشفاء وإقامة شعائر المآتم . كهان التاو لا يخدمون المعابد لأن الاتصال مع الآلهة مباشر بدون كاهن وسيط . يسترزق الكهان من أعمالهم المذكورة ومن فتح حوانيت لبيع اوراق وتعاويذ تستعمل في الحفلات الدينية والشعبية . لا رهبنة في التاو ولا سلطة كهنوتية منظمة من رتب ورؤساء ومرؤوسين ولو ان الزعامة المعنوية بقيت زمناً في اسرة « شانج » .

تعلم « شانج » من الآلهة تركيب « اكسير الخلود » وانخطفت روحه في رؤيا عجيبة اكتشف فيها « كتاب الشعائر والطقوس وكتابات الأباطرة المثاليين» واكتسب سلطاناً علىعناصر الطبيعة وطاقاتها وعلى الارواح الشريرة وأصبح زعيماً دينياً وسياسياً وعالماً وساحراً فعم وعظم تكريمه حتى زين الأباطرة شاراتهم بسيفه السحري . يُصوّر « شانج » راكباً النمر ملوّحاً بسيفه وممسكاً بصندوق يحوي التعاويذ وكان قد حبس فيه الحيوانات السامة الخمسة[1] التي في الخامس منالقمر الخامس أفرزت سمومها فصنع منها الاكسير. حين بلغ ١٢٣ سنة « انتقل الى العالم السماوي » وفي عام ٤٢٤ ب. م. لقبه الامبراطور « بالزعيم السماوي » .

كيف يصلي الصيني :

ليس للصيني يوم في الاسبوع للصلاة والراحة بل هنالك أيام معينة للعبادة حسب التقويم القمري، منها : بدء فصول السنة — ليلة رأس السنة — اليوم السابع من القمر الاول وهو ذكرى خروج الجنس البشري الى الوجود — مهرجان الارواح الجائعة في نهاية القمر السابع — مهرجان صاحب معبد الخ. يحرق الصيني عود بخور وينير شمعة ويعلّق حبال ورق ثم ينحني ويركع . وقد يحرق أوراقاً ومآكل للمعبود وللأرواح الجائعة الهائمة . ثم يتناول من

---

(١) هي الافعى والعقرب وأم اربع وأربعين والسلطعون والعنكبوت .

الهيكل قضيب خيزران تتدلى منه شرائط ويرفّ بـــه فوق البخور . قبل الانصراف يستطلع رأي الإله بالخشبتين اللتين ذكرتها فيما سبق .

اولمب التاو :

تغص المعابد بتماثيل ورسوم آلهة لا تعداد لهــا اقتصر على ذكر بعضها . أرضنا مسطحة وفي وسطها الصين « المملكة المتوسطة » وفوق الارض قبــة السماء وفي أوجها فوق وسط الصين « معبد السماء الاكبر » . في القبة السماوية ٢٨ مجموعة من النجوم وفي كل مجموعة إله كبير وآلهــة صغار . التنين الازرق هو إله الشرق والعنقاء الحمراء آلهـــة الجنوب والنمر الابيض إله الغرب والسلحفاة السوداء آلهة الشمال. في مجموعة بنات نعش الكبرى (الدب الاكبر) تسكن ملكة السماء ويسكن «تشانج تي» أعظم آلهة التاو ومعها آلهة الادب والشعر والفنون وفي النجم القطبي يسكن «الروح الأعظم». كان الامبراطور يطبع النجم القطبي على شاراته علامة الدوام والعزة .

في رأس السنة عيد شامل لجميع « آلهــة الارض » وهي طائفة من الجن يرعون شؤون المنازل والحياة اليومية ويصوّرون عادة في حجر او فخار وهم جلوس فيتراوح ارتفاع التمثال بين ٣٠ و٤٥ سم . « آلهـــة المدينة » هم من أصل بشري ألـّهوا بعــد موتهم ويقع عيدهم يوم ٢٥ من القمر التاسع . لكل مدينة وقرية آلهتها الحماة يتكلون عليها لحفظهم من العدو والطاعون والمرض والمصائب .

من أحب الآلهة لديهم آلهة السعادة وطول العمر والمال . لإله المال صورة في كل منزل وله معابد. يقع عيده في اليوم العشرين من القمر السابع ويزورون معبده في رأس السنة لتكون موفقة. يوم رأس السنة بعد الظهر يدور الاولاد المتسوّلون على المنازل وهم يُغنون : «نحمل اليكم بركة من إله الغنى : شجرة من المال ثمارها ذهب وأغصانها مثقلة بالنقود » فيصدقون عليهم .

آلهة الرحمة «كوان يين» تُصوّر على زهرة اللوتس التي هي رمز الخلاص .

وعندهم آلهة المطر والرعد والنار الخ .. اسم إله الرعد « لي كونج » في خدمته ٨٠ جندياً ٦ منهم ضباط يصوّرون في المعابد. يمسك إله المطر بيمينه تنيناً ويسكب بيساره الماء وله زوجة زنجية تحمل ثعباناً في كل يد .

يكرمون آلهة « شفعاء » لكل المهن وإله الشاي « لويو » الذي ألّف مصنفاً عن الشاي والإله « وين شانج » مخترع الحروف الصينية .

من المؤلّهين « حراس المعابد » . يستنجدون بـ « يانج » روح النور والخصب والحياة وزعيم الارواح الصالحة ليطردوا «يين» روح الظلمة والقحط والموت وزعيم الارواح الشريرة . كان الحراس عسكريين متفوقين اصبحوا انصاف آلهة او كائنات فائقة الطبيعة ويروى الكهان الكثير من مآثرهم .

خالق الارض :

خالق أرضنا او بالأحرى مهندسها هو « پان كو » . ظل يعمل ١٨ الف سنة حتى وصل بعالمنا الى حالته الحاضرة . عندما مات ـ او بالأحرى تغيرـ أصبح رأسه قمم الجبال ونفسُه الريح والسحاب وصوته الرعد وعينه اليسرى الشمس واليمنى القمر وشعر ذقنه النجوم ودمه المطر وجلده النبات وعظمه المعادن ومخه الجواهر الخ .. كتب « سوماشن » في ٧٢٠ ب. م. ان عدد السنين منذ موت « پان كو » الى مولد كنفوشيوس هو ٢٧٦٠٠٠٣ سنة ! تبعت تفككك « پان كو » حقبة ظهر فيها بشر خارقون دامت سلالتهم ١٨ الف سنة . كان آخر إنسان خارق الامبراطور « فوهسي » الذي بقي في جوف أمه اثني عشر عاماً ! ملك بين ٢٩٥٣ و٢٨٣٨ (؟) ق. م. كان أهم الأباطرة الخمسة العظام الأول « هوانج تي » الملقب بالاصفر وهو الذي اخترع الحساب العشري وقسم مملكته كما يلي: ١٠ أقاليم وكل اقليم ١٠ مديريات وكل مديرية ١٠ مدن . واخترع القياس والوزن العشري . ووضع التقويم وجعل القرن ٦٠ عاماً .

الخالدون الثمانية :

كانوا بشراً رفعوا بعـــد مماتهم الى مقام انصاف الآلهة او الجن . ينشد الرواة والمغنون بطولاتهم وترى رسومهم كثيراً حـــتى على أباريق الشاي . ١ – « **شونج لي شوان** » عاش في زمن مـــا قبل التاريخ . يحمل تفاحة ومروحة يوقظ بها أرواح الموتى . ٢ – « **شانج كولاو** » عـاش في اواخر القرن السابع واوائل القرن الثامن ب. م. سكنه روح بغل ابيض جعله يقطع ألوف الاميال . رمزه آلة موسيقية وناي من قصب . ٣ – « **لوتونج بين** » عاش في اواسط القرن الثامن ب. م. هو شفيع الطلبة لأنـه علـّم الكيمياء وهو ملك الفضاء ومبـــدّد الغيوم . رمزه سيف مسلـّط على الشر . ٤ – «**شاوكونشو**» يصوّر كقائد جيش وهو شفيع الممثلين لذلك يحمل في أصابعه الصحنين . ٥ – « **لي شياه كواي** » أحب الثمانية وأكثرهم شعبية . تيتم طفلاً وعاش فقـــيراً مريضاً وهو أول من اكتسب الخلود وأصبح شفيع المعزّمين وبائعي الأدوية ويصوّر كمتسول يحمل مطرة . ٦ – « **هان هسيانغ شو** » عاش في قرن ٩ ب. م. أكل من شجرة الدراقن الخالدة فأصبح خالداً. يصور ومعه زهور وناي وهو شفيع المغنين . ٧ – « **لان تساي هو** » لا يعرف هل هو رجل ام امرأة ام خنثى . قزم بقدم محذاة وقدم حافية . عاش يغني في الشوارعمزهداً الناسبمتاع الدنيا. يصوّر حاملاًسلة زهور. ٨– «**هوهسياكو**» امرأة عاشت في قرن ٧ ب. م. رمزها زهرة اللوتس المتفتحة . كانت أصلاً « سندريلا » طردتها ام قاسية فهامت تعيش من أكل الاعشاب . حنّ عليها الخالد الثالث « لوتونج بين » واطعمها من دراقن ومن فطر الخلود .

الروح :

في الانسان روحان العليا والسفلى . ماذا يحل بالعليا بعد الموت ؟ حسب الكنفوشسية تنعدم وحسب البوذية تتقمص وحسب التـــاو تذهب الى سجن الارض . إنما الشعب الصيني عموماً يعتقد اما بالتقمص او بالانعدام . توجـد

في الجنين الروح السفلى الحيوانية المادية فقط وعند الولادة تدخل فيه الروح العليا « الإنسانية » . في ساعة الموت تطير العليا من اليأفوخ (قمة الرأس التي يترك فيها الصيني خصلة شعر طويل جداً) وتبقى السفلى في الجسم حتى انحلاله التام. إذا عرفوا ان فترة انحلاله تطول يحرقونه لئلا تسكنه الأرواح الشريرة او لئلا تصبح روحه « مصاصة دماء – VAMPIRE » . يتطيّرون من بقايا الجثة لا سيما العظام والجمجمة فيطمرونها بعيداً .

الحلم هيام الروح :

يخاف الصينيون من الاحلام والاغماء والانخطاف الروحاني لأنه بها تخرج الروح العليا من قمة الرأس وتهيم ويخشى ان تتوه ولا تعود او ان يحدث لها ضرر او تؤسر او تُقتل او تدخل في جسم آخر .. وفي تلك الفترة تتحكم الروح السفلى فيالجسد ويكون الإنسان فاقداً ليس فقط وعيه بل عقله أيضاً.

طريق المطهر :

بعد الموت تسلك الروح « طريق المطهر » مدة سبعة اسابيع . يجب ان تتم شعائر المأتم باتقان وعظمة وإلا تصبح الروح جائعة هائمة حول ذويها لتنتقم منهم .

الاسبوع الاول : تصل الروح الى « حاجز الشيطان » حيث يطلب منها الشيطان نقوداً فإذا دفعت عبرت بكرامة وإلا ضربت وأهينت قبل السماح لها بالعبور . لذلك يحرقون في المأتم اوراقاً نقدية ، مزيفة طبعاً « فالصيني أشطر من الشيطان » .

الاسبوع الثاني : تصل الى « جسر الاثقال » . إذا كانت صالحة مرّت خفيفة سريعة وإذا كانت شريرة شعرت بثقل وتهاوى بها الجسر فتُجلد قبل متابعة سيرها .

الاسبوع الثالث : تصل الى «قرية الكلاب الشريرة» . إذا كانت صالحة لا تصاب بأذى وإذا كانت شريرة تُعَضّ .

الاسبوع الرابع : تصل الى «مرآة الجزاء». إذا كانت صالحة ترى ذاتها جميلة وإذا كانت شريرة ترى ذاتها بشكل حيوان قبيح .

الاسبوع الخامس : تتمنى الروح العودة الى الارض لهول ما تصادف من مصاعب وعقبات ولكن الآلهة لا تسمح لها بالعودة .

الاسبوع السادس: تصل الى نهرهائج تطل منه رؤوس أفاعي. إذا كانت صـالحة يقودها « الصبي الذهبي » على جسور ذهبية وفضيـة . وإذا كانت شريرة تمشي وحدها على حبل رفيع عرضه ٣ سم فقط ومرتفع مـائة الف قدم فوق مجرى النهر .

الاسبوع السابع : تدخل «عالم امير العجلة» وتقدم طلباً لمتابعة رحلتها وفيما يفحص طلبها تستريح في استراحة السيدة «مانج» وتشرب الشاي مجاناً فإذا كانت صـــالحة تشعر بلذة مذاقه وإذا كانت شريرة تنسى ماضيها كله بخيّره وبشّره .

حين بلوغ « عجلة القانون » تدخل الارواح في وسطها وتدور معها . إذا افلتت من الجهة اليمنى العلوية تتقمص في أحد النبلاء، وإذا من الجهة اليسرى العلوية في ارمل أو يتيم أو مشوّه، وإذا من الجهة اليمنى السفليةفي زحافات، وإذا من الجهة اليسرى السفلية في حيوان يدبّ على الاربعة ...

جهنم سجن الأرض :

جهنم تعني « سجن الارض » وفيـــه الارواح الشريرة والارواح الجائعة المهملة . يستطيع الإله المخلص « بوسا – PUSA » [1] ان يحطم أبواب جهنم وان يخلص منها تلك الأرواح . وفي هـذه الحياة هو غوث الضعيف والفقير والمظلوم وتكرار اسمه يجترح الخوارق ويمنع الحيوانات السامة والمفترسة من

(١) من اهم اعمال « كريشنا » الإله الهندوسي غزو العالم السفلي ليخلص النفوس من قبضة « ياما » إله الشر .

أحداث الضرر . يصوّر وبقربه كلب لأن امـــه تقمصت في كلبة ! تُطلق الارواح الجائعة من سجن الارض في الشهر القمري السابع وتهيم في الأرض . تدعى جائعة هائمة لأن الأحياء لا يقدمون لها القرابين فالشعب الصيني طوال ١٥ يوماً (من ١٥ الى ٣٠) يقدم لها القرابين وفي الأيام الثلاثة الأخيرة يحتفلون في الشوارع وأمام الابواب وفي ساحات المعابد بأن يشعلوا الشموع ويحرقوا البخور ويشعلوا حبالاً من الورق ويقدموا لها الرز والشاي والنبيذ وغيرها. وفي ختام الشهر القمري السابع ينتهي التطواف بأن يمسك المتقدم بشمعة موقدة يتقدم بها خطوة الى كلٍ من الجهات الجغرافية الاربع لطرد تلك الأرواح ...

يمكن لبعض الارواح ان تنتقم بعد الموت إذا كانت وفاتها مفجعة اليمة . فيتجنبون مثلاً الشجرة التي سقط منها أحـد ومات وأماكن الشنق والقتل والبشر التي وقع فيها أحد ولقي حتفه الخ ... ذلك لأن الأرواح تظل هائمة حول مكان مصرعها الى ان يكتمل عمرها الحقيقي الذي كان مقرراً لهـا في « كتاب الحياة والموت » ... وهنالك نوع من الأشباح بدون أيادي وأرجل تهيم في ظلام الليـــل ويمكن طردها بأن يُدلّ عليها بالأصبع الوسطى القوية لأن الدم يسري اليها رأســاً من القلب ! توجد روح شريرة اسمها « حلاّقة » تحلق جزءاً من رأس النائم فلا يعود ينبت فيه شعر . و « روح الملاريا » التي يمكن اخراجها بغرز ابر في العمود الفقري . إذا استعصى خروج الأرواح من الحيوانات أو الاماكن او البشر يلجأون الى الاستقسام . يوضع أمام المستقسم شمع وبخور ، وبيـــده سيف من خشب الدرّاقن ، وتعــاويذ مكتوبة يحرقها ويبلّل رمادها بماءٍ مستقى من ينبوع حي ينفثه من فمـه على الحائط الشرقي وعلى الرماد ، ويتلو ادعيــة وتعــازيم بينما تقرع الطبول ، فتهرب الحمر منها الى الجنوب والبيض الى الغرب والزرق الى الشرق والصفر الى الوسط أي الى قلب الأرض ... ثم يخطو نحو الباب والسيف مسلول ويقفل الباب .

●

بعض الحيوانات المكرمة

التنين :

هو أعظم حيوان خرافي عنـدهم ومن خصائص الآلهة والأباطرة . له في ظهره ٤٩ زعنفة (العـــدد ٤٩ كامـل مقدس) . أكله المفضل لحم الطيور لا سيما الببغاء. لا يفقس من بيضته الجبّارة إلا إذا نزلت عليها صاعقة فحينئذ يخرج منها ويصعد حالاً الى السماء التي هي موطنه. التنين هو سبب الكسوف والخسوف حين يبتلع الشمس أو القمر فيقرعون الطبول والصنوج والصفائح ليولّي . التنانين كثيرة ولكن رئيسها واحـــد . بعضها بأجنحة وبعضها بدون أجنحة . كل تنين يسود بقعة من الارض فإذا تعدّى عليها آخر قـام بينهما قتال . إذا تقاتلت التنانين في المياه احدثت الفيضانات . وإذا تقاتلت في الجو احدثت الصواعق والامطار. لذلك تمطر السماء احياناً في بقعة صغيرة ولا تمطر بجانبها ...

العنقاء :

مزيج من أجمل ما في الطيور . شكلها يشبه دجاج الارض . لريشها خمسة ألوان على رأسها عرف كعرف الديك . وُلدت من النـار . رآها البشر أول مرة سنة ٢٦٠٠ ق.م. ظهرت حين ولد كنفوشيوس وظهورها بشير خير ثم ظهرت آخر مرة في القرن ١٥ ب.م. انها وحيدة وتعيش في جبال « مخلية » وكلما ماتت انبعثت حيّة من رفاتها. بما ان العنقاء هي انثى فهي من خصائص الإلاهات والملكات [1] .

---

(١) كتب السناتور الروماني مانيليوس انه سمع عن العنقاء من سكان صحراء العرب . توجد واحدة فقط وتعيش ٥٤٠ عاماً . تستشعر دنو اجلها فتموت على اعشاب وتحترق الاعشاب . عندما يبرد الرمـاد تنبعث منه عنقاء جديدة تحمل رمـــاد امها الى مدينـة الشمس المقدسة =

وحيد القرن :

صعد من النهر الاصفر وقدم الى الامبراطور «فوسكي» وثيقة فيها الابجدية الصينية والرموز الهندسية الثمانية المكونة من خطوط متصلة (علامة الذكر) وخطوط متقطعة (علامة الانثى) وهي أصل علم الرياضيات والحساب . يشبه وحيد القرن الحصان . جسمه أبيض ورأسه احمر وعيناه زرقاوان . ينبت في جبينه قرن طوله نصف متر . وارتأى البعض ان له جسم حصان ورأس غزال وقدمي فيل وذيل خنزير . ظهر آخر مرة حوالي سنة ٢٦٠٠ ق.م. وهو أليف لا يؤذي بشراً ولا يقتل حيواناً ولا يقطع ورقة من شجرة وهو لا يظهر إلا في فترات متباعدة جداً وظهوره دليل خير .

السلحفاة :

تعمّر طويلا وتستحق لذلك الإكرام ونوعاً من التعبد . كان مؤسس «التاو» يستعمل عظمها ليقرأ عليه البخت والغيب فأصبحت هامة في السحر والعرافة . عندما كان « بان كو » يهندس العالم طوال ١٨ الف سنة كانت معه الحيوانات المقدسة الأربعة المذكورة ومنها انحدرت سائرالحيوانات ويحظى منها باعتبار خاص الثعلب والقرد .

الثعلب :

اكرموه في مغاور مقدسة واعتبروا انه يتقمص بأشكال عديدة وأحياناً بشكل امرأة . لذلك تضع النساء احذيتهن أمام مغاوره للتبرك به. اكتسب الثعلب هذه الرهبة لأنهم كانوا يرونه احياناً خارجاً من بين القبور فظنوا ان الأرواح تتقمص فيه وانه يأخذ من اسرار العالم الآخر . عندما يصير عمره

= (هليو بوليس) كقربان لإلاهة الشمس . دورة ٥٤٠ سنة هي اشبه بعجلة في تاريخ العالم فعندما تموت عنقاء وتولد اخرى تبدأ دورة جديدة تشبه ايامها ايام سابقتها . اظهر الامبراطور كلوديوس طائراً للرومانيين يوم تنصيبه وقال لهم : هذه هي العنقاء بشير الخير والسعد !

الف سنة يصعد الى السماء ويصبح ذا تسعة ذيول ذهبية . يطلبون منه الشفاء وطول العمر . وهو الحيوان الوحيد الذي يستطيع العثور على فِطر الخلود ولذا يرسمونه احياناً والفطر في فمه . وهو أكثر الحيوانات اسراراً والغازاً ويتمتع كل عضو في جسده بقوة خاصة . يمكنه إشعال النار بحك جسمه في الأرض . يعرف مكان الكنوز المخفية والاشياء الضائعة كما ينبىء عن تقلبات الجو لذلك أكرمه الفلاحون .

القرد :

اصنام القرود كثيرة في معابد التاو . لقبه الديني « الحكيم الأعظم السماوي »[1] . يمكنه اخذ ٧٢ شكلاً . يستطيع ان يساعد في أي ظرف وان يجد حلاً لأية معضلة .

كانوا يكرمون أيضاً القطط لأنها تأكل الجرذان وبذلك تحمي الغلة . وكانوا يخشون الحيوانات التي تعيش في حجور إذ انها تمتلك قوة خارقة باطلاعها على اسرار الارض الأم في سكون الليل . وكلما طال عمرها زاد تكريمها لا سيما الأفعى .

●

المأتم :

إذا سُئل الصيني عن اهم شيء في تقديره اجاب المأتم وقد رأينا ذلك في أقوال كنفوشيوس . كلما كان المأتم فخماً كلما انشرحت الروح وزاد اعتبار العائلة .

---

(١) في زمن الفراعنة اكرمت القرود وعثر على اصنام عديدة لها لا سيما في « صقارة » وكان القرد رمزاً للحكمة والمعرفة واسمه الديني « حجوتي » كان ينحت عادة مبتهلاً الى الإله الاكبر الشمس « رع » وربما لأنه يسكن الاشجار ويتطلع كل صباح الى الشمس المشرقة ويهلل لها بأيديه الاربع وبصراخه المرح .

عندما « تصعد الروح من اليأفوخ » تعلّق على باب المتوفى مصابيح ملونة ويستدعى الفلكي ليحدد ساعة الدفن . تغسل الجثة عدة مرات بماء بئر ترمى فيه بعض النقود . تلبس عادة كراهب بوذي ويوضع في الفم حجر كريم أو ورقة ذهب أو بخور . يوضع الحذاء في القدمين ثم تربطان بحبل . تُسجّى الجثة رأسُها الى الباب وتوضع حولها شمعتان وخمس أواني زهور وأوراق بيضاء وزرقاء ومصباح زيت على « باجودا » صغيرة . يقف على الباب رجل ليقرع طبلاً أو جرساً عند قدوم المعزين حتى يُظهر أقارب المتوفى أقصى دلائل الحزن ! يركع القادم للتعزية عند رأس الجثة ويشرب نبيذاً من يد فتاة وينحني ثلاث مرات ثم يندب ويولول. كذلك تكتب اسماء خدم المتوفى وسياراته ومواشيه وأثاثه وكل ما كان يملكه على أوراق تحمل في الموكب ثم تدفن أو تحرق معه وذلك لكي يستعملها في حياته الأخرى . ويرمى في النار رز وماء لتلهو بهما الارواح الجائعة الهائمة فلا تعتدي على ما يخص المتوفى . صباح الدفن يستقدم كهان تاويون ورهبان أو راهبات بوذيون ويصلون ويرنمون . توضع صورة المتوفى على النعش . يحمل المشيعون الابن الاكبر على الاكتاف لأنه حزين متعب لا يقوى على السير . يرفع لوحة عليها اسم المرحوم والده . يمشي الرجال أمام النعش والنساء وراءه . حين يحرق أو يوارى التراب ينحني المشيّعون وينثرون عليه حفنة تراب ويولولون .

تكريم ارواح الاجداد :

يكتبون اسم المتوفى على « لوحة ارواح الاجداد » بعد ان يضيفوا بعض أعوام الى عمره الحقيقي للرفع من قدره ويكتبون ايضاً وظائفه وأعماله. مدة ٤٩ يوماً بعد الوفاة تبقى اللوحة على هيكل وتقدم لها قرابين من رز ونبيذ وغيرهما . تقام صلاة خاصة في الليالي السابعة والحادية والعشرين والخامسة والثلاثين . في اليوم التاسع والاربعين تقام حفلة دينية طويلة . يغمس الكاهن أو الراهب ريشة بدم ديك ويكتب بها بجانب اسم المتوفى لقب «النبيل» .

في مطلع الشهر القمري وفي الخامس عشر منـــه تقدم القرابين لأرواح الاجداد . تتيح هذه اللوحات للصيني ان يرتقي الى مئات السنين لمعرفة أجداده ولو انه بعد الجيـــل الثالث تغادر الارواح الهيكل العائلي فيمكن احراق اللوحة إنما تبقى الاسماء محفوظة في شجرة العائلة . الذين يموتون قبل ان يتزوجوا لا تكتب اسماؤهم فيلوحة الاجداد لذلك اعتاد الصينيون الزواج في سن مبكرة جـداً . ومن لا نسل له تكون روحه شقية إذ لا يوجد مَن يقدم لها القرابين . وعلى القـاضي ان يأخذ بعين الاعتبار هذا الأمر فيخفف العقوبة الصـــادرة على الابن الاكبر أو الوحيد أو الذي فقد أحد والديه من قريب. وإكرام الموتى يكون أيضاً بحسن السلوك لئلا يُحزن الابناء أرواحَ والديهم المتوفين . وإذا لم ينجب الرجل صبياناً من زوجته يجوز له ان يتبنى ذكوراً او ان يتخذ خليلة ينجب منها صبياناً .

الاتصال بالموتى :

يحب الصينيون الاتصال بأرواح الموتى . مـــا يقوله الموتى عن طريق الوسيط هو مقدس ويتحتم تنفيذه . عادة الوسيط فتاة أو كاهن تاوي. أمام هيكل يفرش رمل على صينية ويمسك شخصان بريشة خشبية . عندما تجيب الروح تنقـــل الريشة وتتحرك على الرمل وتكتب . شخص ثالث يتهجّى الحروف وشخص رابع ينقلها . إنما هذه الطريقة تتيح الاتصال مع أي روح هائمة قد تكون غـــير الروح المطلوبة فأفضل وأغلى وسيطة هي التي تؤمن الاتصال المباشر مع الروح المطلوبة كأنما على خط التليفون . ولكي تتثبت منها تجعلها تكتب اسماء أفراد العائـلة وأشغالهم . يستشيرون الارواح أمام لوحة الاجداد لأي عمـــل هام كسفر أو مشروع أو بناء أو زواج . غالب الوسيطات هنّ هواة ولسنَ محترفـــات ويحضّرون الروح في الظلام أو في وضح النهار على السواء .

بعض غرائب صينية

الارقام :

الرقم ٥ هو مقدس عندهم :

– ٥ جهات الارض : الشمال والجنوب والشرق والغرب والوسط .

– ٥ الوان رئيسية تقابلها خمسة شعوب تكونت منها الأمة الصينية وهي الاصفر (الصينيون) والابيض (المسلمون) والأزرق (المغوليون) والأحمر (المنشوريون) والأسود (التيبتيون) وكانت الخمسة الوان علم الجمهورية .

– ٥ ملوك سماويين مثاليين في العصور الاولى .

– ٥ أواني مقدسة في المعبد .

– ٥ عناصر في الطبيعة هي المعدن والتراب والنار والماء والخشب ومن تفاعلها تنتج الاحوال الجوية الخمسة والحبوب الأساسية الخمسة وهي الفاصوليا والقمح والرز والذرة والقنّب .

– ٥ انواع الطعم أو الذوق .

– ٥ اولاد في العائلة الصينية المثالية : ٣ صبيان وبنتان الخ ...

الوقت :

اتخذت الصين رسمياً التقويم الغربي لكن الشعب لا يزال يتبع التقويم القمري للزراعة والمهرجانات الدينية ولاستطلاع البخت. ولكل شهر مهرجانه الخاص . مثلاً : في اليوم الثامن من القمر الثامن عيد الحصاد والاحتفال بأجمل بدر في السنة (وكذلك في اليابان) . في اليوم التاسع من الشهر التاسع « شم النسيم » بين الجبال الخ ... انهم يعيشون « على مهل » والوقت مطاط فعندما يقولون غداً يعنون بعد أيام أو اسبوع ! ويقولون : فترة شرب فنجان الشاي او اكل صحن رز أو اشتعال عود بخور كما نقول في بلادنا « شربة سيجارة » !

طول العمر :

عندما يرى الجنين النور يحسبون أن عمره سنة . وإذا وُلد قبل نصف ليلة السنة الجديدة حتى بدقيقة واحدة يحسبون أن عمره سنتان . في اعياد ميلادهم يأكلون «الإبر» الطويلة جداً (ليطول عمرهم) وهي المكرونة الصينية الرفيعة جداً تعلمها منهم « ماركوبولو » ونقلها الى إيطاليا . اهم عيد ميلاد هو عند بلوغ الستين فالقرن الصيني ٦٠ عاماً . عندما بلغته الإمبراطورة «تزوهسي» سنة ١٨٩٤ اقامت لها البلاد اعياداً وأصدرت لها طوابع تذكارية تحمل صورتها ورموز طول العمر .

الحظ :

يصدر الفلكيون وكهان تاو كتبـــاً عن الحظ لكل يوم من ايام السنة يستوحونه من «قصور القمر» وهي ٢٨ برجاً سماوياً تؤثر على حياة الإنسان . ولا يمكن أن يعترف بالكاهن التاوي إلا إذا أتقن علم البخت واستطلاع الحظ.

ويتداولون كتاباً شهيراً اسمه «المرآة المائية الناطقة بالحظ والبخت» وفيه نوع من الفراسة يستقرىء الطبع والحظ من شكل الرأس . تُقسَّمُ الأشكال الى أربعة عشر حسب الشبه برؤوس بعض الحيوانات . أذكر ذلك لطرافتـه وليس لحقيقته .

١ــ **التنين**: وجه مستطيل وأنف مرتفع وعينان براقتان: نبيه ومؤدب وناجح.

٢ ــ **النمر** : رأس ضخم وجبين عريض مستدير وفم كبير وصوت اجش: قليل الحظ في التجارة والمال ولكن مصارع ناجح .

٣ ــ **الأسد** : ذقن وشارب وحاجبان كثيفة وجبين عريض وأنف مفلطح وفم ضخم مربّع : طبع قوي حربي .

٤ ــ **البجع** : عنق طويل وصوت ناعم ورأس نحيف : لطف .

٥ ــ **الغزال** : عينان سوداوان وأذنان طويلتان وخدان نافران وشارب كثيف لا يسيء الى غيره ولكن لا يتمتع بصفات إيجابية .

٦ – **الثور** : جسم ضخم مربع وعينان سوداوان ورقبة غليظة: يشتغل كثيراً ويكسب قليلا .

٧ – **الأفعى** : جسم نحيف مسحوب وجبين ضيق طويل وعينان صغيرتان وفم واسع وأنف نحيف : غير صادق وغير أمين .

٨ – **الحصان** : وجه بيضاوي وعينان لوزيتان وأسنان كبيرة : يشتغل كثيراً وينجح .

٩ – **الخروف** : رأس مربّع وخدّان عريضتان وذقن كمثلث وفك ضيّق: غبي وغير مؤدب .

١٠ – **الخنزير** : رأس ضخم ووجه مستطيل قبيح وعينان واسعتان وأذنان عريضتان وعنق قصير : غبي وجلف .

١١ – **الكلب** : رأس منبسط وشعر الحاجبين اصفر وخدان ضيقان وذقن كمثلث وشفتان متهدلتان : سريع ونشيط .

١٢ – **العنقاء** : عينان جميلتان لوزيتان وملامح الوجه وسيمة متناسقة وأنف « ارستقراطي » وصوت رخيم : انسان كامل .

١٣ – **النسر** : رأس مربّع وجبين مستدير وشعر الحاجبين احمر وأنف معقوف : طبع سيء وبغيض .

١٤ – **الطاووس** : الرأس والوجه والعينان صغيرة ولكن الجسم ضخم: طبع متقلب وشكس .

بعض اعتقادات شعبية :

السير في طريق معوّج خير من السير في طريق مستقيم لأن الأرواح الشريرة لا تعرف أن تسير في الطريق المعوجة . رؤية ديك ابيض: سعد . رسم ديك احمر على الحائط : حماية من الحريق . كلب غريب يدخل البيت : غنى. دخول الخفاش : فأل حسن . مرآة تنكسر : ٧ سنين «نحس» ولكن يمكن اتقاؤه

بالاستقسام . وقوع او كسر شيء في حفلة : مصيبة على الأبواب . إذا فتح الولد شمسية داخل البيت يتوقف عن النمو وكذلك إذا وضع قبعة على اخرى. أفضل اتجاه للنوم أن يكون الرأس الى الشمال والقدمان الى الجنوب حسب اتجاه التيار المغناطيسي وهكذا مات بوذا . لا يشار بالبنان الى قوس قزح فهذا خطر على الاصبع . لا توجّه بلبلة ابريق الشاي الى ضيف فهـذا يخلق خصاماً الخ ..

الزواج :

اول يوم من الشهر القمري هو الأفضل للسؤال عن « النصيب » . يستشير قارىء البخت «الشيخ القاطن في القمر» بمقارنة تواريخ وساعات وأبراج ميلاد الفتى والفتاة . فإذا أشار شيخ القمر بالزواج اقدما وأقاما حفلة الوعد بالزواج ثم حفلة الخطوبة وتهاديا شجرتي عائلتيهما وحلوى الرز وزهرات اللوتس . يحضر حفلة الزواج الذين يستلمون « حلوى التنين والعنقاء » فهذه هي بمثابة بطاقة الدعوة . في اليوم السابق للزواج تعرض العروس الهدايا على صاحباتها وهي تتباكى لأنهـا ستغادر البيت الابوي ولا بد انها تقول في نفسها يا ما احيلى مثل هذا البكاء «أبكي وأذهب» ! قبل الخروج من البيت الوالدي تنحني أمام لوحة الاجداد وأمام اهلها وتشكرهم . ثم تقدم لها الوصيفات نقوداً لجلب الحظ ويرافقنها الى خارج الباب حيث يكون العريس في انتظارها فيجلسها في العربة على مقعد احمر ويجانبها مرآة « لطرد الارواح الشريرة وللحفظ من العين » ! وتريد العادة الشعبية أن ينقد العريس الوصيفات « بقشيشاً » هزيلاً فيطلبن اكثر فيتمنع فتتدخل العروس فيزيد المبلغ « لأجل خاطرها » . اهل العروس لا يرافقونها الى حفـلة الزواج . عندما تصل الى بيت العريس يرفع هذا برقعها ويضربها (او يداعبها ؟) بالمروحة على رأسها . بعد ثلاثة ايام تزور اهلها بثوب احمر وبحلاها .

حالة المرأة الاجتماعية :

تصبح الزوجة تحت طاعة حماها وحماتها وفي خدمتهما وإذا انفت من ذلك عرّضت نفسها للطلاق . حسب تعليم كنفوشيوس يجوز الرجل أن يُطلِّق زوجته لسبعة اسباب : العقرية – الخيانة – الغيرة – الهذر – السرقة – البرص – عصيان اهله . ولا يجوز له أن يطلقها إذا كان والداها متوفيين . ويمكن الطلاق بالرضى المتبادل . زواج الارملة غير مشجوب . يجوز للرجل أن يتخذ جواري ويطلقهن على هواه وأن يتخذ خليلة لينجب منها ابناً إذا لم تعطه زوجته ابناً .

صبي لا بنت :

يفرحون بمولد صبي لأنه سيؤمّن نسل العائلة وشعائر الدفن وإكرام ارواح الأجداد بينما البنت تكلف اهلها لتنشئتها ثم تنضم إلى عائلة زوجها . الشرق شرق !

يربطون المولود بحبل بورك في المعبد وعقدت فيه احجبة وتعاويذ ويضعون حول عنقه طوقاً لكي تظنه الارواح الشريرة كلباً فلا تخطفه . ويقفلون الطوق «بقفل المائة قرش» لأن والده يكون قد جمع له من الجيران مائة قرش ليعيش مائة سنة ! ويغطون صدره بطلاسم الحيوانات الخمسة السامة .

للصيني اسماء عديدة . فبعد شهر[١] من الولادة يعطى اسم الحليب ثم اسم الكتاب او المدرسة ثم اسم العمل . ويوم زواجه يعطى اسمين آخرين . وبعد وفاته يطلق عليه الاسم الاخير النهائي الذي يكتب في لوحة الاجداد .

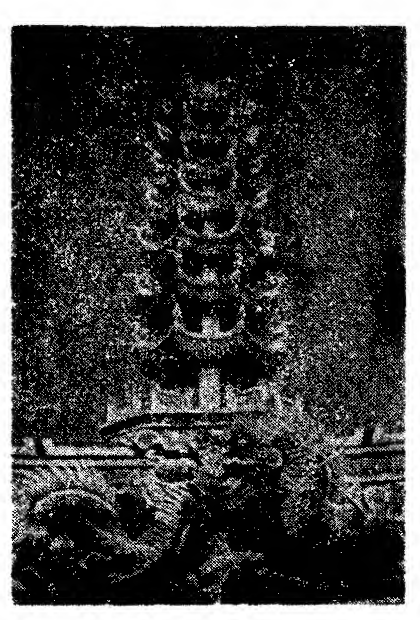
التبني شائع ولا فرق بين المتبنى والشرعي . إذا مات رجل ولم يخلف نسلاً يمكن أن يتبنى له ولداً حتى بعد مماته ويكون وريثه القانوني .

---

(١) لا يعترف بمولد طفل جديد إلا بعد انقضاء شهر على ولادته فيقيمون استقبالاً ويقدمونه للمجتمع ويعرفون به الآلهة ويطلقون عليه « اسم الحليب » .

رموز الهدايا :

هدية قطعة من حجر « اليشب » تجلب الحظ السعيد . هدية رسم قط مع نحلة : رمز لطول العمر وللحظ، فالنحلة امنية أن يعيش الى ٨٠ سنة والقط الى ٩٠ سنة وذلك لأن كتابة اسميهما قريبة الى هذين الرقمين . هدية العنب : طول العمر والثراء . هدية الدرّاقة او رسمهـا لطول العمر وحسب زعمهم يوجد رسمها في قصر الام الملكة السماوية . في قمة جبل بآسيا الوسطى شجرة درّاقن تطرح ثمرة واحدة كل ثلاثة آلاف سنة من يأكلها يخلد . في هدية الرمان تمني لكثرة الأولاد . الهدية المريض غصن صفصاف فالصفصاف رمز الشفاء وشجر النور لا تجسر الارواح الشريرة المؤذية علىالاقتراب منه. زهرة عرف الديك او رسمها : امنية للترقية .



قبة معبد صيني

قلما يذهب الصيني الىزيارة ويده فارغة . وَيجب أن تقبل الهدايا بحفاوة وشكر عميم لئلا يجرح شعور مهديها وجرح شعور احد هو جرم اجتماعي مقيت . يربون الاطفـال على المحبـة والتسامح وعدم الغيرة وعدم الخصام فيكبرون على هذه الخصال الحميـدة . والصينيون عموماً ليّنو العريكة ويفضّلون نصف الحلول علىالحلول الكاملة الصادمة «ولا يقطعون الجسور» ولا يتخذون قرارات جازمة « لا عودة فيهـا » . وإذا ما فقد احدهم السيطرة على نفسه وأراد الخصام

لا يشتم ولا يضرب بل يكسر مشطاً ويرفع الدعوات الى آلهتـه لينزلوا الأذى بعدوّه !

يحضرني وأنا أكتب عن الصين الوطنية ما ذكر التاريخ عن « ماركوبولو » الذي بعد أن عاش ١٧ سنة في الصين أملى على كاتب وهما في سجن « جنوى » بإيطاليا كتابه الشهير « اسفار ماركوبولو » . قيل له وهو على فراش الموت : انك ستقابل ربك عن قريب فاندم واعدل عن الأكاذيب التي كتبتهـا . فأجاب : « لم أذكر ولا نصف كذبة » . ربما كان على حق فالآن ٦٥٠ سنة بعد ماركوبولو يوجد في فرموزا « الصين المصغرة » مجموعات من الغرائب !

●

٥٦

هونغ كونغ

هونغ كونغ المثلثة :

استغرقت مدة الطيران من تايپه الى هونغ كونغ ساعة واحدة قطعنا فيها ٨٠٦ كـلم في جو صحو . بانت هونغ كونغ كنيويورك مصغّرة بناطحات سحابها البيضاء . في بحرها ألوف المراكب وعلى شواطئها تقف جبال عالية . هبطت الطائرة فيمطار « كاي تاك – KAI TAK » على مدرج يمتد كاللسان في البحر ويوازيــه مدرج توأم طول كل واحد منهما ٢٥٠٠ م اكتسبا بردم البحر . تخيل لي لحظة الهبوط ان جناحي الطائرة يحاذيان القمم .

هونغ كونغ هي مستعمرة بريطانية او بالأحرى امتداد لبريطانيا فيما وراء البحار . وهي أعظم ملتقى بين الشرق الاقصى والغرب . تفصلها عن القارة الصينية فقط ٦ دقائق إبحار . تتكون من ثلاث مناطق هي : جزيرة هونغ كونغ (معناها الميناء العطر) مساحتها ١٢٢ كلم² – وشبه جزيرة « كاولون » مساحتها ٨ كلم² – والاراضي الجديدة مساحتها ٩١٢ كـلم² . مجموع السكان نحو أربعة مـلايين ، ٩٩ ٪ صينيون (منهم ٤٠ ٪ تحت سن ١٣) و١ ٪ بريطانيون وأميركيون وبرتغاليون ويابانيون .. هونغ كونغ هي اكثر مكان

في العالم كثافة سكنية. الجزيرة للتجارة وكاولون للصناعة والاراضي الجديدة للزراعة .

حرب الافيون :

استملكت بريطانيا هونغ كونغ بعد « حرب الافيون » ضد الصين . كانت « شركة الهند الشرقية » ، صاحبة اليد الطولى في الاستعمار البريطاني بالشرق الاقصى ، قد احتكرت تجارة الشاي مع الصين وأنشأت لها مركزاً في « ماكاو » البرتغالية [1] . كان موظفو الشركة يسكنون في أشهر الموسم – من تشرين الاول الى ايار – بجوار حقول مصانع الشاي حول مدينة « كانتون » التي تبعد ١١٠ كلم شمالي ماكاو . ومن حزيران الى ايلول في « ماكاو » . بعد عزلة الصين عن العالم الغربي كان الصينيون يحتقرون الاوروبيين ويُسيئون معاملتهم ولا يثقون بهم . حاولت بريطانيا عقد معاهدات تجارية مع الصين في اواخر القرن ١٨ فكان الجواب دوماً: «ليست الصين بحاجة الى اوروبا فإذا ابتغى البرابرة الاوروبيون التجارة معها عليهم أن يقبلوا شروطها». حاول اللورد « نابيير – NAPIER » انتزاع الاعتراف بـه كممثل دبلوماسي فردّت الصين بمنع البحّارة البريطانيين من الاقامة فيها ومن مزاولة تجارتهم فأوعز « نابيير » الى حكومته باحتلال هونغ كونغ ليسكن فيها البريطانيون بأمان .

اعتاد الصينيون تعاطي الافيون الذي يزرع في الصين الغربية وما عتموا ان فضّلوا الافيون الاجنبي الذي جلبه البرتغاليون عن طريق الهند وماكاو. في القرن١٨ تاجر بريطانيون بالافيون على نطاق واسع مع الصينيين سنة ١٨٣٩ اوفدت حكومة «بكين» مندوباً امبراطورياً لالغاء تجارة الافيون وصادرت كميات الافيون في «كانتون» وطردت منها الأجانب . كان المشرف البريطاني

---

(١) أنظر فصل ٦٢ .

على التجارة هنـــاك « الكابتن اليوت – ELLIOT » فحمى البريطانيين في « ماكاو » ثم أبحر بهم الى هونغ كونغ ونشبت حرب الافيون. طلب رئيس الوزارة البريطانية « لورد پالمرستون » من الصين دفـــع ثمن كميات الافيون المصادرة وعقد معاهدة تجارية مع بريطانيا او التخلي لها عن جزيرة يعيش فيها رعاياهـــا . رفضت الصين فحاصر اليوت كانتون وانتصر فتنازلت الصين لبريطانيا عن جزيرة هونغ كونغ التي أصبحت ملكاً لها في ٢٦ كانون الثاني ١٨٤١ ولكن لم توقع الصين على معاهدة بذلـــك . استُبدل اليوت المعتدل بـ « هنري بوتنجر – HENRY POTTINGER » الذي أشعل الحرب من جديد واحتل مدناً عديدة وحاصر « نانكين » وأرغم الحكومة الصينية على توقيع معاهدة في ٢٩ آب ١٨٤٢ بموجبها تدفع الصين ثمن الافيون وتوافق على أن تصبح هونغ كونغ نهائياً ملكاً لبريطانيا وتقبل بوجود قنصليات ومراكز تجارية بريطانية في بعض المدن . منذئذٍ أنشئت هونغ كونغ « ميناءً حراً » لا جمرك فيه وأُعطي لأي صيني يسكن هونغ كونغ او يمتلك سفينة مسجلة في هونغ كونغ ان يتمتع بالجنسية البريطانية . في ١٨٥٥ أسر الصينيون بحّـــارة سفينة صينية مسجلة في هونغ كونغ معتبرين اياهم قراصنة فنشبت الحرب من جديد واحتلت بريطانيا « پكين » وأملت معاهدة « پكين » التي بموجبها امتلكت شبه جزيرة «كاولون» تجاه هونغ كونغ مباشرة . وفي سنة ١٨٩٨ اعطت الصين لبريطانيا « امتيازاً لمـدة ٩٩ سنة » بموجبه استأجرت بريطانيا « الاراضي الجديدة » وهي بقعة وراء كاولون و٢٣٥ جزيرة صغيرة صخرية مهجورة .

في كانون الاول ١٩٤١ احتل اليابانيون هونغ كونغ وخرجوا منهـــا بعد الحرب .

سوق حرة :

مع نهاية الحرب ثار الموضوع : هـــل تعود هونغ كونغ الى الصين أم الى

التاج البريطاني ؟ أعيدت الى التاج واستأنف ادارتها حاكم باسم التاج . بعد تاريخ مضطرب أصبحت هونغ كونغ أشبه بـ « واحة » حرية وازدهار وغنى في الشرق الاقصى . والصين الشيوعية التي تتاخمها لا تثير ساكناً وهي راضية لأن هونغ كونغ باب واسع تدخل منه الملايين بالنقد الاجنبي وتخرج اليه بضاعتها وهي منفذ للنازحين غير المرغوب فيهم . في ١٩٣١ كان عدد سكان هونغ كونغ ٨٤٠,٤٧٠ وفي ١٩٤١ ١,٦٠٠,٠٠٠ وفي ١٩٦٦ ٣,٩٠٠,٠٠٠ وذلك بسبب اللاجئين اليها من الصين الشيوعية ولارتفاع نسبة الولادة فيها .

كتب « بالمرستون » الى « اليوت » ان هونغ كونغ لا تصلح لتكون سوقاً للتجارة ولا شيء فيها وفي الجزر الصغيرة حولها سوى الصخر الأجرد والماء المالح والقراصنة .. لقد اخطأ «بالمرسون» في تقديره فالآن هونغ كونغ هي أعظم سوق تجارية في الشرق الاقصى تدخل اليها وتخرج منها بضاعة من كل أنحاء العالم بدون رسوم جمركية إلا على الكحول والدخان . حتى الحرب العالمية الثانية كان سدس دخلها من تجارة الافيون ثم حُرّمت هذه فاقتصر دخلها على التجارة الحرّة. يدخل ميناءها شهرياً ٦٠٠ باخرة او مركب تنزل أية بضاعة او تشحنها بحرية بما في ذلك الذهب الذي يصرّح به فقط وانها لا قيود عليه .

مدينة فكتوريا :

المدينة التي في جزيرة هونغ كونغ تدعى «فكتوريا» من شارعيها الرئيسين « جادة الملكة – QUEEN'S ROAD وجادة الأماني – DES VOEUX ROAD » تتفرع ازقة وحواري صينية جذّابة لوحات الاسماء والاعلانات مكتوبة بالانجليزية أفقياً وبالصينية عمودياً . حافلات النقل بدورين كما في لندن .

أشهر ما في الجزيرة قصر البلدية وهو حديث فخم . و « حديقة النمر TIGER BALM » الصينية بتنسيقها وقبابها وابراجها ورسوم حيواناتها



مدينة فكتوريا في هونغ كونغ





سكان الماء

ومنظر « لجهنم » حسب اعتقادهم . كانت ملكاً للثري « او بون هـاو — AW BOON HAW » الذي كوّن ثروتـه من دواء اخترعـه وسماه « بلسم النمر » الفرق شاسع جداً بـين حديقة صينية وحديقة يابانية فالصينية ذات ألوان صارخـة والاشكال فيهـا غريبة مستهجنة والصنعة تطغى على الطبيعة فيفقدها هذا « التبرج » الرونق وجو الهدوء والراحة .

لا بدّ للسائح من أن يركب القطار الصاعد الى «قمة فكتوريا» (٤٠٥ م). قال لنا الدليل انـه من ١٨٨٨ الى الآن لم يقع لهـذا القطار أي حادث فهو « محظوظ » حسب اعتقادهم .

مررنا « بالشوارع المدرّجة » — هذا هو اسمها وشكلها — إذ أنها مصعدة ولا تسلكها السيارات فقطعناها سيراً على الاقدام . الصينيون فيها «كالنمل» يضيع اطفالهم بين الاقدام . تحمل البنات الصغيرات اخوتهن على ظهورهن . تلبس السيدات بيجاما (بنطلون) سوداء فضفاضة وبرانيط قش واسعة جداً للحماية من الشمس وربما من العين .. عموماً يحتذون الصندل الخشبي الذي يزيد قرقعـة على حياتهم النشطة « الضاجة » كل شيء رخيص ولكن لا بـدّ من المساومة وإلا ينعتون المشتري بالجهـل ويغلبونه في السعر . ارخص بضاعـة تعرض في « سوق الحرامية » ودعي هكذا لأن مـا هو مسروق او مفقود يباع فيه .

قرية برمانية :



مطعم في البحر

يسكن الصيادون قـــرية « ابردين ». جزء منها عائم على البحر وجزء في البر وهي تعج بالحركة البشرية . من أشهر ما فيهـا « المراكب – المطاعم » مزخرفةمزركشة كما يريد الذوق الصيني . تتدلى منهـا فوانيس الورق ومصابيح كهربائية ملونة وتزينها الرموز الصينية والحيوانات الخرافية. القوارب فيجيئة وذهابلا ينقطعان تحمل السياح. يمكن «للزبون» انتقاء اسماك حية من براميل الماء . في الدورة السياحية التي اخترتها كان عشاؤنا في مطعم « قصر البحر » حيث كل شيء صيني صرف وتضمنت قائمة الطعام ما يلي : مرقة على ثلاثة أنواع ثقيلة او متوسطة او خفيفة شربناها بغرفة لا بملعقة ثم شربنا بالمغرفة شوربة (ذرة بسلطعون البحر) وأكلنا باقيالاصناف بالقضيبين: جمبري – لحم خنزير مـع جوز – سلطعون ضخم مع بيض وبصل – سمك مقلي مع مخلل وبصل – رز بالجمبري والبصل الفاكهة برتقال مقطع ومقـدم بقشره وأخيراً الشاي . لست أدري كم كلف هذا العشاء لأن ثمنه متضمن في تذكرة الجولة السياحية إنما منالمؤكد ان الطعام في هونغكونغ رخيص جداً. تناولت غذاءً في مطعم راقٍ مكيف الهواء وكيلا اقـع في مفاجآت طلبت (طبق اليوم) فكان : شوربـة خضار – سمك مـع بطاطس مقلية – لحم وسلطة خضراوات مع مايونيز – رز مع كاري وشرائح لحم فراخ – خبز – برتقال – بوظة . كل هذا بمـا فيه الخدمة بـ ٨٠ سنت فقط ! لا عجب إذا ما أحب السياح هونغ كونغ لجمالها ولتنوعها ولحريتها ولرخصها العجيب في كل شيء . البضاعة التي فيها هي ارخص مما في البلاد التي تنتجها .

سكان المراكب :

يبلغ عـدد سكان المراكب ١٦٠ الفـاً يعيشون في ١٣ الف مركب تخفق دوماً عليها ثيابهم المنشورة. يولدون ويعيشون ويموتون في المركب فهو بيتهم المتنقل العائم الصحي لأنهم يعيشون في الشمس والهواء الطلق والرياضة البدنية الاضطرارية وهم قوم مسالمون مرحون لا يصطدم بهم رجال الأمن إلا لسببين: إذا حمّلوا المركب فوق الثقل المقرر وإذا ألقوا متفجرات لصيد السمك. أما إذا قامت مشكلة او حدث تصادم بين مركبين في جيرتهم المزدحمة فيحتكمون الى « سيد الميناء » (منهم وفيهم) ولا استئناف لقراره ولا اعتراض !

قبل الحرب العالمية الثانية كان معظمهم من جهة (كانتون). بعد الحرب انضم اليهم لاجئون من مختلف مناطق الصين لكن الاجيال القديـة الاصلية تحتفظ بنوع من (الانعزال المتعالي) فيقولون مثلاً : نحن شعب الماء او نحن سكان المراكب نعمل كذا ولا نعمل كذا .. يعيشون بمعتقدات وخرافـات وعادات الشعب الصيني فيؤمنون بالأحجبة والتعاويذ والسحرة والكهان اكثر منه بالاطباء . تعتبر الأم نجسة مدة شهر بعد الوضع فلا يجوز لها أن تمس أي مركب غير مركب اسرتها وإذا وضعت في البر يجب أن يقوم مركب عائلتها بنقلها. أول من يعلم بالخبر هو المنجّم ليتنبأ للوليد عن مستقبله وحظه حسب برج ويوم وساعة ميلاده . معبودتهم الكبرى هي (ملكة السماء الغربية) . ينذرون لها مئة بيضة إذا رزقت امرأة صبياً ويحملون اليها الصبي بعد شهر من ولادته لتتعرف به وتباركه ويقدم لها أهله مصباحاً ولو من ورق . في كل مركب صور لآلهتهم او للثمانية الخالدين .. كل مـا عرفته ورأيته في فرموزا موجود هنا . عندما (يولد مركب) وينزل البحر المرة الاولى يقيمون فيه حفـلة عشاء ورقص وغنـاء ويهدونه المرايا لطرد الارواح الشريرة . بعض المراكب هي سوق متنقلة او مطعم او مقهى او معبد او مدرسة او خزان ماء الشرب يملأون منه الجرار. قدماؤهم (معصومون عن الخطأ) وتجب لهم

طاعـة عمياء فالشيخوخة بركة . عندما يموت الاب يرثـه فقط ابناؤه وأحفاده الذكور .

صيادو (ستانلي) :

توجد قرية أخرى تدعى (ستانلي) يسكنها الفقراء وهي أيضاً جزء في البر وجزء في البحر . بعضهم يصيدون السمك بالأنوار القوية إذ ينجذب اليها او بقرع رتيب على طبلة لأن السمك – رغم طرشه – يطرب لهـا ويتجمع حولها . عملهم في النهار تنشيف وترقيع شباك الصيد على رمال الشاطىء وفي الليل الصيد وكثيراً ما يبتعدون نحو الجزر المهجورة ويصطادون بالمتفجرات قبـل طلوع الفجر لكي يحميهم الليل من شرطة البحر . عـدوّهم الاكبر هو (الإعصار) فعندما يثور يحطم مراكبهم . حدث ليلة عيد الميلاد سنة ١٩٥٣ ان (التيفون) جعل ٥٠ ألفاً منهم بدون مأوى . بعد تلك النكبة سوّروا بقعة دعوهـا (الملجأ من التيفون) ليهرعوا اليهـا عنـدما تنبئهم الارصاد بقدوم الاعصار [١] . عند (ملجأ التيفون) أرانا الدليل منطقة شعبية اسمها (عالم سوزي وونج) وذكرنا بالفيلم الجميل الذي يحمل هذا الاسم .

قرية (ستانلي) ذات شهرة كئيبة لأن اليابانيين جعلوها معتقلاً خـلال الحرب وفيها الآن سجن هونغ كونغ والمقبرة العسكرية. يعانون هنا من ازمة السكن حتى ان عائلة قد تستأجر شقة لمدة ١٢ ساعة في اليوم ثم تخليها لغيرها للنصف الباقي على ان تعود في اليوم التـالي .. يؤجرون الفراغ الذي تحت

---

(١) تولد الأعاصير في البحار المحيطة بخط الاستواء بـين خطي عرض ١٥ شمالاً وجنوباً ثم تجتاح في عدوها اللولبي الصاعد ألوف الاميال. بالقرب من خط الاستواء يتوفر عاملان لتوالدها هما طاقة الانحراف من دوران الارض حول نفسها والحرارة اذ لا يتحرك الاعصار الا فوق ٢٨ درجة مئوية على سطح المحيط . يبدأ الاعصار كاضطراب بسيط ثم يصبح رياحاً عاتية تدمر مـا يعترض اكتساحها . يستعين الخبراء بأقمار الرصد الصناعية التي تدور حول الارض ليتنبأوا عن الاعاصير ويعرفوا خط سيرها وينذروا المناطق المهددة لكي تتحذر وتحتاط قدر ما تستطيع .



شارع في هونغ كونغ

السرير ليضع فيه المستأجر اغراضه .. انهم يعبدون القرش او بالأحرى الدولار الهونغكونغي الذي يساوي سدس الدولار الاميركي .

هونغ كونغ مشتهرة بكل أنواع البضاعة والتعامل ولا سيما في ثلاثة أشياء : فهي سوق حرة لبيع وشراء العملة . وهي سوق الشعر المستعار فشعور الصينيات ناعم وطويل تصدّر منه هونغ كونغ الى كل العالم . وهي جزيرة الخياطة فمحلات الخياطين على كل خطوة وخياطتهم رخيصة وسريعة إذ ينجزون البدلة في يوم واحد لعلمهم ان العابرين يقضون وقتاً وجيزاً في هونغ كونغ . ٩٠ ٪ من متاجر هونغ كونغ هي ضيقة مكتظة غير متخصصة تتلاصق فيها أنواع السلع المختلفة . بجانب هذا يؤذي النظر انتشار اكواخ

قذرة وغزو متسوّلين غالبهم تحت سن المراهقة يستأجرهم «مقاولو التسوّل» ليأخذوا منهم نصيب الأسد في آخر يومهم . التسوّل و«البقشيش» ضروريان على كل خطوة وبعد كل خدمة حتى غير مجانية . تنبه السلطات السياح ان لا يعطوا شيئاً للمستعطين ولكن ما الحيلة للتخلص منهم ؟

كاولون :

معناها مدينة « التنانين التسعة » . فيها ثمانية جبال يسكنها تنانين فمن أين التاسع؟ — الحاكم الذي سماها زعم ان الامبراطور هو أيضاً تنين مقدّس! الفنادق الحديثة هي في كاولون وعلى رأسها « هيلتون » فيه ٩٠٠ غرفة و٧ مطاعم .

في « كاولون » مكان تجمّع الوافدين من وراء «ستار الخيزران» من الصين الشيوعية ، فكانتون تبعد فقط ١٤٥ كلم عن هونغ كونغ . في الماضي كان المسلولون والعُمي والعاجزون هم الذين يتسللون فشوهوا وجه هونغ كونغ حتى اضطرت السلطات الى أن تعيد الى الصين من لا يقدر على العمل او من يبقى عاطلاً .

الاراضي الجديدة :

بعد كاولون توغّلتْ بنا السيارة في « الاراضي الجديدة » حيث يعيش الفلاحون الصينيون . رأيناهم في حقولهم وعلى رؤوسهم قبعتهم الواسعة كشمسية. مررنا بقرية « كام تين — KAM TIN » وهي مسوّرة للدفاع كما كانت غالب قرى الصين . رأينا مزارع تربية الاسماك والدواجن لا سيما البط الذي يصدّر من هنا الى الاسواق العالمية . من المعروف ان اميركا كانت تمنع أن تدخل اليها أية بضاعة مشتراة من الصين الشعبية وعندما يعود الاميركيون من هونغ كونغ كان عليهم أن يبرزوا شهادات تثبت ان ما اشتروه ليس مصنوعاً في الصين الشعبية او في كوريا الشمالية. حدث ان القنصلية الاميركية اقترحت على بعض التجار في « الاراضي الجديدة » تربية البط وتصديره الى



صخرة آماه

اميركا . صدّروه على نطاق واسع الى ان حضر يوماً احـــد المتخصصين الاميركيين في تربية الدواجن ورأى ان تناسل البط هنا وبيضه يفوقان طاقة المزارع وبعـــد التحقيق عرف ان إناث البط في هونغ كونغ كانت تحتضن وتخصب « بيضاً من الصين الحمراء » . فألغت اميركا هـذه التجارة مع هونغ كونغ ! كل هذا انتهى الآن بعد تقارب اميركا والصين .

أرانا الدليل في الاراضي الجديدة صخرة « آمـاه — AMAH » التي تشبه امرأة واقفـة تحمل ابنها على ظهرها . وتقول الرواية ان زوجة صياد كانت تنتظره هنا مع ولدهما . غرق زوجها في رحـلة صيد واستمرت هي تنتظره مع كل غروب شمس . وبعد مرور عام رئفت بهـــا الآلهة وجمعتها بزوجها وتركت في مكانها هذا التمثال الحجري !

على حدود الصين الشعبية :

توقفنا للراحة وللتنزه ساعة كامـــلة على حدود الصين الشعبية في منطقة

« لوك ما شاو » عند نهر « شمشوم » . رأينا الفلاحين يعملون في الجهة المقابلة. وراء هذه التخوم تمتد الصين الشعبية ويقولون هنا انها منفصلة عن هونغ كونغ بستار خيزران والاتصال صعب جداً إلا عندما تكون الصين هي الكاسبة . إنما لا بدّ ان تنفتح الصين يوماً على العالم وان تستعيد هونغ كونغ .

زرت في هونغ كونغ معبداً بوذياً واحداً في « دير العشرة آلاف بوذا » حيث يقوم فعلاً عشرة آلاف تمثال! في هونغ كونغ معابد كثيرة تاوية وبوذية تشبه ما رأيته وكتبت عنه في فرموزا واليابان .

●

٥٧

ماكاو

في السيارة المائية :

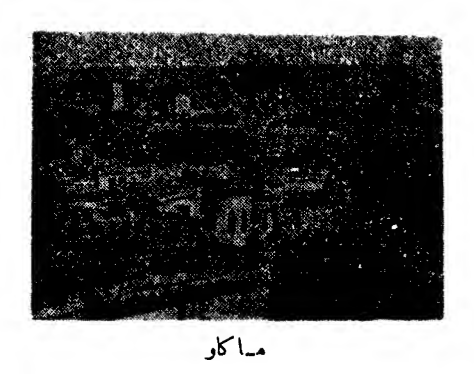
ركبت سيارة مائية «ايدروفويل» قطعت ٧٧ كم بين هونغ كونغ و«ماكاو – MACAO » في مدة ٧٥ دقيقة . مرّت بنا بين جزر جرداء هي تلال منتصبة فوق سطح الماء . السيارة المائية هي أشبه بأوتوبيس مستطيل جداً . المقاعد تحاذي صفحة البحر فعندما نشقّها يتطاير الماء من حولنا .

مدينة برتغالية في الصين :

اشتقت «ماكاو» اسمها من معبد « ماكاو » الذي عمره فيها سبعمائة سنة ومعناه معبد إلهة « آما » شفيعة البحارة . ماكاو مدينة برتغالية مساحتها ٦ كم٢ وعدد سكانها نحو اربعمائة ألف ، ٩٨٪ منهم صينيون. انها اشبه بمدينة من شواطىء البحر المتوسط في ذلك الشرق الاقصى احتفظت بطابع ومظهر الاوروبيين .

سنة ١٥١٣ وصل الى «ماكاو» بحارة برتغاليون لأول مرة . بعد اربعين سنة أسَرَ بعضهم قراصنة كانوا يزعجون تلك المنطقة فكافأت الصين البرتغال

في ١٥٥٧ بأن باعتها « ماكاو » مقابل عشرين الف « تال او دينار » عند مصب « نهر اللآلىء » .


ماكاو

لا تعتبر ماكاو الآن مستعمرة بل محافظة من جمهورية البرتغال تنتخب ثلاثة نواب وترسلهم الى المجلس النيابي في «ليشبونه» . تستطيع الصين ان تضمها اليها في ربع ساعة ولكنها لا تطالب بها رغم ان البرتغال ليست صديقة للصين الشيوعية .. السر أن (ماكاو) – مع هونغ كونغ – هي باب واسع لدخول العملة الصعبة الى الصين ولتصريف البضاعة الصينية . وعبارة ماوتسي تونغ شهيرة : (كل قرش من عملة اجنبية هو نقطة دم للصين) .

لقد كانت ماكاو عظيمة المركز والشأن طوال ثلاثة قرون الى أن أنشىء ميناء هونغ كونغ الحر في سنة ١٨٤١ فدخلت ماكاو في عصر الانحطاط . لم يحتلها اليابانيون في الحرب العالمية الثانية لأن البرتغال لم تدخل الحرب . في ١٩٦٢ وضع حاكمها البرتغالي لنهضتها ميزانية ١٠٩ ملايين (باتاكا) ماكاوي (الباتاكا يساوي $\frac{١}{٦}$ دولار اميركي) . اكبر مورد لهذه الميزانية من دور القمار (خمسة كازينوهات) لأن ماكاو هي مونتي كارلو الشرق الاقصى . غالب الذين يلعبون يأتون من هونغ كونغ لا سيا في عطلة نهاية الاسبوع لهذا اصبحت ماكاو مدينة استجمام ولهو وحظ ويزيد في جاذبيتها مناخها المعتدل صيفاً وشتاءً . لم يلحق التجديد ثلثها الى الآن فتغلب عليها صبغة القرون الخالية التي صبغها بها آنئذٍ البحّارون والحكام والتجار والجنود البرتغاليون من قصور وكنائس وأديرة وقلاع وأسوار ومراكز تبشير ، ٥ ٪ فقط من سكانها اليوم هم مسيحيون فالديانة الغالبة فيها هي البوذية .

المدينة الامينة :

جـــادة (الميداريبيرو – ALMEIDA RIBERO) تقطع المدينة الى قسمين وهي الشريان الرئيسي . يقـع فيها قصر مجلس الشيوخ او (المشيخة الأمينة) إذ ان الاعضاء ازدانوا بلقب الأمانة بسبب ولائهم للبرتغال خلال احتلال اسبانيا لها (١٥٨٠ – ١٦٤٠) وهو الآن مجلس البلدية .

مغارة كاموينس :

في شارع « ڤاسكودا جاما – VASCO DA GAMA » يقوم «نُصب النصر» لتخليد ذكرى انتصار البرتغاليين في ١٦٢٧ على الهولنديين الذين حاولوا مراراً أخذ ماكاو. وكل سنة في ٣٠ ايار يسير الكاثوليك في تطواف من الكاتدرائية الى المطرانية لتكريم تمثال للعذراء كما ظهرت للبرتغاليين لتعاونهم على صد الهولنديين المعتدين . مقـابل « نصب النصر » يقوم تمثال برونزي لـ فاسكو دا جاما أول بحار برتغالي قطع رأس الرجاء الصالح . وعلى قاعـــدة التمثال مشهد ومقطع شعري من ملحمة « كاموينس » المسماة « لويزد » ذلك لأن « كاموينس » نُفي الى الشرق الاقصى مـدة ٣٥ عاماً قضى منها وقتاً طويلاً في « ماكاو » وكان يختلي ويؤلف في مغارة زرتها هنا في«حديقة كاموينس» التي هي اجمـــل حديقة في ماكاو تزينها الزهور على مدار الفصول الأربعة وتظللها أشجار « البانيان » القديمة . وفيها اجرى العالم الفرنسي «لاپروز – LA PEROUSE » اولى تجاربه المغناطيسية بين ١٧٧٥ و ١٧٨٧ .

مدينة الكنائس :

الى الجهة الشرقية من حديقة « كاموينس » قادنا الدليل الى كنيسة قديمة للقديس انطونيوس بجوار مدافن « شركة الهند الشرقية » الشهيرة التي كان مركزها الرئيسي (هو الآن متحف) في ماكاو قبـــل امتلاك البريطانيين لهونغ كونغ . ثم الى كنيسة « سيدة الرجاء » وهي مخصصة الآن للمسيحيين الصينيين للقيام بالصلوات حسب العـادات الصينية . في المقابر يوجد مدفن

اللورد « جون سبنسر تشرشل » ابن دوق« مالبوروك » الخامس ومن أجداد ونستون تشرشل .

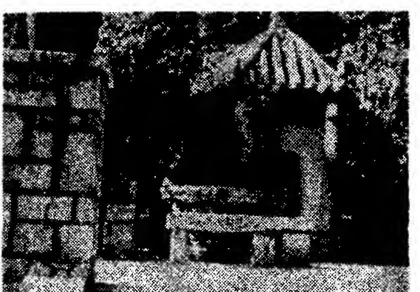
يمتـد جزء من « حديقـة القديس فرنسوا » في البحر على أرض مكتسبة بالردم في خليج « باريا جراندي » . وفيه دير القديسة « كلارا » ومدرسة للراهبات « الكلاريس ». في نهاية الحديقة ثكنة القديس فرنسوا وهي مركز شرطة ماكاو . في ماكاو سبع روابي أجملها قمة رابية (جويا) تشرف منها أقـدم منارة وضعت على الشواطىء الصينية . بدت لي منها ماكاو صغيرة خضراء داخلة في البحر تملأ خليجها مراكب سكان الماء (٨٠ الفاً) ووراءها أراضي الصين الشيوعية. نوافذ المنازل صغيرة تحصنها قضبان حديد وواجهات البيوت كلها بيضاء .

مدينة الحصون والقلاع :

تقع المباني الحكومية في منحنى (خليج برايا جراندي) في جادة مظللة بأشجار البانيان . أمـام قصر الحاكم تمثال (خورخي الفارس – JORGE ALVAREZ) أول من وصل الى ماكاو في مطلع القرن السادس عشر. وفي هذه الجادة الخضراء نصب تذكاري للحاكم (امارال – AMARAL) الذي اشتهر بتشجيع التجارة الحرة وشق الطرق لزيادة الاتصال مع الصين. قطعوا رأسه وحمـلوه الى بكين وذهب ٣٤ جندياً برتغالياً فأرجعوه الى ماكاو . يوجد ثلاث قلاع غير ما ذكرت ولا عجب في ذلـك فماكاو كانت مطمعاً للقراصنة وللصينيين وللدول الاوروبية المعادية للبرتغال .

معبد ماكاو إلهة البحّارة :

توقفنا في قلعة (بارّا – BARRA) ثم بجوارها في معبد (ماكاو) إلهـة البحارة. زادت شهرته منذ سنة ١٨٤٤ إذ وُقـّعت في فنائه اول معاهدة بين الصين وأميركا على طاولة مستديرة من حجر حولهـا أربعة مقاعد من حجر جلسنا عليها . هنا أيضاً دير بوذي رأينا رهبانه بردائهم البرتقالي . في معبد



طاولة المعاهدة أمام معبد ماكاو





على حدود الصين الشعبية

الدير يوجد هيكل (إلهة العوانس) تصلي لهـا الفتاة التي لم ترزق بعد بفق احلامها وتنذر ان تزورها وهي مرتدية ثوب الزفاف . وهيكل إلهـة الرحمة على يمينها تسع تماثيل وعلى يسارها تسع غيرهـــا لحكماء البوذية وبينهم (ماركوبولو) لأنه تضلع من الثقافة والفلسفة والديانة البوذية . تمثال (ماكاو) إلهة البحارة مزين بشرائط وأوراق ملونة ومصابيح تتدلى حوله من السقف. أمام هيكل (إله الصحة) يصلي المرضى ويبلون تراباً في الماء ثم يشربون هذا الماء معتقدين انه يطرد (روح المرض الشرير) .

بوابة حدود الصين :

يقف أمامها جنديان (ماكاويان) أمام عـــلم البرتغال ووراءهما جنديان صينيان ، أمام العلم الصيني وهو احمر تنقـّطه نجمة صفراء كبيرة وأربعة نجوم صفر صغار . صوّرت الاربعة ولم يروا حرجاً في ذلك .

ميناء الذهب والتهريب :

ماكاو هي طريق تجارة الذهب لأن نقله في هونغ كونغ يخضع لإجراءات في دخوله وخروجه أما هنا فيمرّ بحرية وذلك لأن البرتغال لم توقع المعاهدة الدولية لتجارة الذهب . يكسب تجار ماكاو ٣٠ ٪ في الذهب وأكبر سوق لشراء ذهبهم هي الهند بسبب تدهور عملتها . وهنا أغنى موظفي جمارك في

العالم حلالاً او حراماً .. لهم الفيلات الفخمة وسيارات الكاديلاك والحاكم يغض الطرف . ماكاو هي مدينة التهريب والجاسوسية والحشيش والقمار .

الأب « مكرونة » :

إذا كانت بوابة الحدود تحت حراسة مشددة فباقي أميال التخوم من يحرسها خصوصاً في البحر ؟ يقــدم كل يوم الى ماكاو من الصين الشيوعية نحو ١٧ لاجئاً . زرت مؤسسة « ريتشي » (وهو اسم الكاهن اليسوعي اول رسول في الصين في القرن ١٦) بادارة الأب « رويز – RUIZ » الاسبـاني اليسوعي. قال لي إنه استقبل بالأمس ٢٢ لاجئاً مشوا احدى عشرة ليلة. كانوا يختبئون في النهار ويسيرون تحت جنح الليل . يؤدي اللاجئين ١٥ يوماً ثم يسرّحهم ولا يعودون اليه إلا إذا مرضوا . يسكن غالبهم في المراكب . المحسنون الى هذا الملجأ هم اميركيون . يوجــد مركز آخر يدعى مركز الإغاثة يديره الاب « مكرونة » ويلقب هكذا لأنه يوزع كل صباح الإبر الرفيعة وأربعة أرغفة ورزاً وأدوية .

مهرجانات لا تنقطع :

من مميزات ماكاو « سباق الكلاب » فليس عندهم أرض كافية لميدان سباق الخيــل . يتراهنون على كلاب من فصيلة « جرايهوند » مجال سباقها ٤٠٠ متر . وفيها صناعة المفرقعات مزدهرة جداً لأن الصينيين يستخدمونها كثيراً. ما أكثر الأعياد والمهرجانات في ماكاو: دينية وشعبية وصينية وطنية وصينية شيوعية وبرتغالية . مثلاً في اول تشرين الاول يحتفلون بعيد الصين الشعبية يزيّنون ويرقصون ويلعبون ويهتفون لـ « مـاو » . تترك الزينة الى اليوم الخامس منه عيــد البرتغال القومي فيتكرر المهرجان وتبدّل صورة « ماو » بصورة رئيس جمهورية أو رئيس وزارة البرتغال . وفي الحادي عشر منه عيــد الصين الوطنية ودور صورة « تشانج كاي شيك » ... وهكذا تتوالى الحياة وتدور الايام والليالي في هذه المدينة العجيبة !

٥٨

نبذة جغرافية وتاريخية عن الفيلبين

بلاد ٧١٠٩ جزر :

اكتشف (الفيلبين) البحّار (ماجلان) . دعيت (جزر القديس لعازر) ثم (الفيلبين) من اسم الملك الاسباني فيليب الثاني ودام احتلال اسبانيا لها ٣٣٣ سنة . عـــدد جزرها حالياً ٧١٠٩ . قلتُ (حالياً) لأن جزراً منها تغور واخرى تنبت ! ٦٠٪ منها بدون اسم فليتهم يعرّفونها بالارقام و ٩٠٪ مهجورة ملعب للطيور . ٦٦٤٧ جزيرة تبلغ مساحة كل واحـدة منها كيلو متراً مربعاً واحداً . الجزيرتان الرئيسيتان همـا (لوزون) في الشمال وفيها العاصمة مانيلا و (ميندانا) في الجنوب .

بلاد الطبيعة العنيفة :

موقعها عند خط العرض ١٥ فوق خط الاستواء يجعلها معرضة للتيفون ، كما تقع داخـــل (حزام الزلازل) الذي يمرّ بالمحيط الهادىء . وتكثر فيها البراكين والغابات والقبائل البدائية . من براكينها العديدة تشتعل عشرة من وقت الى آخر . بركان (مايون) ذو شكل مخروطي كامـــل ومنذ سنة

١٦١٥ اشتعل ٣٠ مرة . وبركان (هيبوك هيبوك) اشتعل في ٤ كانون الاول ١٩٥١ وسبّب كارثة قوميـــة . فيها فصلان الجـــاف والممطر وتسودها رطوبة خانقة .

اجناس السكان :

عـدد سكانها ٣٢ مليون (كانوا في مطلع هـذا القرن ٧ ملايين فقط) وهم من اجناس مختلفة اهمها السود والاندونيزيون والماليزيون .

السود « NEGRITOS » شعب بدائي قامـــاتهم قصيرة ولونهـم أسود وشعرهم ذو عقد وأنفهم مفلطح وعيونهم سمر يعيشون من صيد الطير والسمك ومن جني الارض . قـوم بدائيون رحّـــل دينهم نوع من الـ (فتيشيسم — FÉTICHISME). يزورهم علماء الأجناس لمعرفة احوال (الانسان الاول).

الاندونيزيون ذوو قامات فارعـــة وأنوف طويلة معقوفة ووجوه نحيفة واجبنة عريضة وهم نصف بدائيين يأكلون بأصابعهم ويعيشون من صيـــد السمك والطير ومن الزراعة وأسلحتهم القوس والسهام والخناجر ...

الماليزيون ذوو لون اسمر وقامات معتدلة وأجسام نحيفة وأنوف مفلطحة وشعر اسود وعيون سمر . امتزج بهم الأسبان كثيراً وهم أجـــداد غالبية السكان الحاليين . قدم الماليزيون على ثلاث دفعات الأولى بدءاً من القرن الثاني قبل المسيح والثانية بدءاً من القرن الأول بعد المسيح والثالثة بدءاً من القرن الرابع عشر وكان هؤلاء مسلمين .

لغاتهم :

٨٧ لغـة أهمها الـ « تاجالوج — TAGALOG » التي أصبحت الآن اللغة القومية ودُعيت الـ (فيلبينو) . يعرف المثقف العـــادي ثلاث لغات هي الانجليزية والاسبـــانية والفيلبينو . في (التاجالوج) كلمات عربية كثيرة ادخلها المسلمون مثل : سورة — حكم — عِلم — سلامات الخ ...

ديانتهم :

٩٣٪ مسيحيون معظمهم كاثوليك ، وطائفة اسلامية كبيرة في الجنوب ، والباقون وثنيون. في ١٤ نيسان سنة ١٥٢١ ـ بعد اسبوع واحد من نزول ماجلاّن في جزيرة « سيبو ـ CEBU » ـ اعتمد ٨٠٠ وغيّر زعيمهم اسمه من هيابون الى « كارلوس » إذ كان في عهد كارلوس الخامس ودعيت زوجته « جوانا » كإسم ام الملك كارلوس .

كيف وجدهم الاسبان :

بدأت علاقات الفيلبين التجارية مع الصين في القرن ٩ ب. م. حين طُرد التجار العرب من الصين فوجدوا طريقاً آخر لتجارتهم من مالاكا الى بورنيو الى الفيلبين الى فرموزا. كان هؤلاء التجار العرب يحملون البضاعة الىالفيلبين ويصدّرون منتوجاتها الى الخارج .

في عهد سلالة « سونج ـ SUNG » الصينية استوطنت فئات صينية في الفيلبين واشتغلت بالتجارة . في القرن الخامس عشر تأسست وتمكنت دولة مالاكا الاسلامية وانتشر الإسلام الى جنوب الفيلبين وغلبت تجارة المسلمين تجارة الصينيين في البلاد . عندما احتلها الاسبان كانت معظم التجارة بيد المسلمين .

في المجال الثقافي وجد الاسبان تأثيرات هندية وصينية وعربية . كانت ثقافة الفيلبين حينئذ مكوّنة من حِكم وأشعار شعبية وأغانٍ وتمثيليات وكانوا يكتبون بقضبان على ورق الموز وعلى قشر الشجر وعلى الخيزران وكانت لهم ابجديتهم الخاصة من أصل عربي وهندي . عندما رأى الاوروبيون الوشم يغطي أجسامهم دعوهم الـ « موشومين ـ PINTADOS ». كانت مشروباتهم مستخرجة من البلح وجوز الهند والرز وقصب السكر . كان المجتمع مؤلفاً من ثلاث فئات هي الأشراف والأحرار والعبيد. يصبح المرء عبداً إما بشرائه، أو لعدم دفع ديونه، أو لعقوبة على جريمة، أو بالولادة من رقيق، أو بالأسر .

كان الرقيق يستطيع ان يتحرّر بفدية مالية أو بأعمال بطولية. كانت حالة المرأة مساوية للرجل فهي التي تعطي الاسم للوليد ولها مالها الخاص وتحق لها التجارة ويمكنها ان تعتلي العرش . سياسياً كانوا نحو مائة دويلة . تقويمهم شمسي فالسنة ١٢ شهراً والشهر ٣٠ يوماً ما عدا كانون الأول فهو ٣٦ يوماً. ويا ليت عصرنا يأخذ بهذا التقويم جاعلاً الستة الأيام الاخيرة مع (رأس السنة) عطلة اسبوع كامل !

الاستعمار الاسباني :

« فردينان ماجلاّن » برتغالي اكتسب الجنسية الاسبانية واحتل بلداناً عديدة باسم التاج الاسباني . غادر اسبانيا في ٢٠ ايلول ١٥١٩ ووصل الى الفيلبين في ٢٦ آذار ١٥٢١ . قتل في ٢٧ نيسان سنة ١٥٢١ في جزيرة « ماكتان » في معركة مع السكان الأصليين .

لاقى المستعمرون الاسبانيون تمرداً وغزوات من البرتغاليين والهولنديين والصينيين واليابانيين والمسلمين والسكان الاصليين . وكانت تقوم منازعات بين الاسبان أنفسهم للتفرد بالحكم والاستغلال والاثراء ولذلك كثيراً ما قرّع رجال الدين المسيحي بعض الحكام . في سنة ١٨٧٢ أُعدم ثلاثة كهنة فيلبيين أصليين طالبوا بالاستقلال لبلادهم .

بوادر الثورة :

من ذلك الحين استحكم العداء بين السكان الاصليين والاسبانيين . ساعدهم على التفتح والمطالبة بالاستقلال فتح الموانىء الفيلبينية للتجارة الخارجية وصعود الطبقة المتوسطة، وفتح قناة السويس الذي سهّل الاتصال مع اسبانيا والانفتاح للافكار الجديدة . ذهب دعاة فيلبينيون الى اسبانيا وتأسست جمعية ثورية باسم « كاتيبونان – KATIPUNAN » اتخذت التاجالوج لغتها الرسمية . اعلنوا الثورة سنة ١٨٩٦ وساعدهم الاميرال الاميركي «ديوي – DEWEY » بأسطوله الذي قدم من هونغ كونغ وحطّم الاسطول الاسباني في مانيلا .

الاحتلال الاميركي :

بعدئذٍ اغرق الاسبان سفينة اميركية قرب « كوبا » فاندلعت الحرب رسمياً بين الدولتين. بمعاهدة باريس في ١٠ كانون الاول ١٨٩٨ تخلت اسبانيا للولايات المتحدة عن الفيلبين وبورتوريكو مقابل ٢٠ مليون دولار .

كانت فترة الاحتلال الاسباني للفيلبين عزلاً عن العالم حتى انه منذ قرن أرادت اسبانيّة فيلبينيّة ان تتزوج اميركياً فرفض طلبها فتمّت مراسم الزواج في باخرة ! أما فترة الاحتلال الأميركي فكانت لخير الفيلبين اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً . سُمح بالأحزاب وأُنشىء مجلس نواب ومجلس شيوخ وجرى الاستفتاء على الدستور سنة ١٩٣٥ وانتخب « مانويل كويزون » اول رئيس جمهورية .

في ١٨ كانون الاول ١٩٤١ غزتها الجيوش اليابانية واحتلتهاثلاث سنوات. حرّرها « مــاك آرثر » بأعظم معركة جوية ـ بحرية في الشرق الأقصى : ١٦٦ سفينة اميركية ضـد ٦٥ يابانية و ١٢٨٠ طائرة اميركية ضد ٧١٦ يابانية [١] .

الاستقلال :

اعلن استقلالها في ٤ تموز ١٩٤٦. اقتبس دستورها من الدستور الاميركي: رئيس الجمهورية هو رئيس الحكومة . ومدة رئاسته ٤ سنوات ، البرلمان مكون من مجلس نواب عددهم ١٢٠ لمدة ٤ سنوات ومن مجلس شيوخ عددهم ٢٤ لمدة ٦ سنوات يتغير ثلثهم كل عامين ، والمحكمة العليا مكونة من رئيس وعشرة قضاة . البلاد مقسمة إدارياً الى ولايات ولكل ولاية حاكمها .

---

(١) في ١٧ كانون الاول ١٩٤٤ حدث اعصار في الفيلبين فقتل ٧٩٠ بحاراً وجرح ٨٠ واغرق ٣ سفن حربية واعطب ٤ سفن و ١٤٦ طائرة و ٤ حاملات طائرات فكانت اعظم خسارة في الحرب بدون حرب !

الاقتصاد القومي :

ارض الفيلبين غنية ولكن الشعب فقير و كسول تعوزه الإدارة الرشيدة ورؤوس الأموال وروح النشاط والكفاح. وتخفض من طاقاته امراض كثيرة اهمها امراض الصدر تساعد للانتصار عليها هيئة الصحة العالميـــة وصندوق الطفولة . ينمو السكان بمعدل ٣٫٢٪ سنوياً وهذه من اعلى النسب في العـالم . كان معدل الدخل الفردي قبل الحرب العالمية الثانية فقط ٨٩ دولاراً بالسنة. من المشاكل المزمنة البطالة فقبل الحرب العالمية الثانية كان ٧٤٪ بدون عمل والآن ٣٠٪ . في ١٩٦١ زاد الدخل القومي ٢٠٠ مليون دولار منها مائـــة مليون من الزراعة والصناعة الخفيفة ولكن الانفجار السكاني اسرع .

زراعتهم الاولى الرز . بعد شهر من زرع الحبـة ينقلون الشتلة الى مكان آخر حيث تبقى ٥ أشهر وتعطي السنبلة نحو ٦٠ حبة . معهد الرز جمع من العـالم عشرة آلاف صنف من الرز . نجحوا في خفض النبتة من ١٦٥ سم الى ٩٥ سم كيلا تقتلها الامطار والرياح . ٥٧٪ من ارضها غابات تمتلك الحكومة ٩٧٪ منها . ينبت فيها نحو ٣ آلاف نوع من الشجر . في مياههـا نحو الفي نوع من السمك وفي سنة ١٩٦٠ بلغ انتاج السمك ١٢٥ مليون دولار . فيها ذهب وفضة وحديد ورصاص وزنك ونحاس ومنجنيز و كروم وفحم ورخام وقليل من البترول . لكن العاملين في الصناعات المعدنية فقط ٥٠ الفاً .

٥٩

مانيلا

مدينة النيلة :

اسم « مانيلا » مشتق من عبارة فيلبينية « ماي نيلاد — MAY NILAD » أي «هنا توجد نيلة» . مساحة خليجها ١٩٢٥ كلم٢ وامتداد قوسه ١٩٢ كلم. أسسها كعاصمة الفاتح «ليجازبي — LEGAZPI » سنة ١٥٧١ بعد ان طرد منها الملك المسلم «سليمان» . عدد سكان مانيلا الصغرى نحو مليون ونصف ومانيلا الكبرى التي تشمل الضواحي مثل العاصمة «كويزون» و « ماكاتي » وغيرهما نحو ثلاثة ملايين .

كنت اتخيل مانيلا مدينة جميلة يحلو السكن فيها ربما لأنني كنت أقرأ في نشرات الدعاية انهـا بلاد الربيع الدائم والشعر والغناء فإذا بها لا نظام فيها ولا جمال . شوارعها ضيقة محفرة قـذرة ويغلب عليها مظهر الفقر ويسودها جو حار رطب وتعيش في الكسل والعطلات الرسمية العديدة وحرق الدخان. ٩٠ ٪ من سكانها يدخنون فهذه أعلى نسبة تدخين في العالم وقـــد يبدأون بالتدخين منذ سن السادسة !

الحي المسور :

العاصمة القديمة او « الحي المسوّر – INTRAMUROS » بُدىء به في ١٥٧١ واستمر تشييده ٢٨٢ سنة. في السور سبع بوابات كانت أهمها البوابة الملكية يعبرهـــا في الحفلات نائب الملك ورئيس الاساقفة . دُمّر الحي المسوّر سنة ١٩٤٥ ودمّرت معـه سبع من الكنائس الثمان ولم تبقَ إلا اطلال الكنيسة الاسبانية الاولى على اسم القديس اغسطينوس . زرنا آثار قلعة« سانتياجو » أي القديس يعقوب حيث كان مقر هيئة أركان حرب المستعمرين الاسبان ثم الاميركان ثم اليابانيين . وهنا قضى البطل القومي « خوسي ريزال » ساعاتـه الأخيرة قبل اعدامه في ٣٠ كانون الاول ١٨٩٦ وأصبح هـــذا التاريخ عيداً قومياً .

لا شيء يذكر في المتحف الوطني ما عدا بعض الفخار من السلالات الصينية الاولى والسياميين ومخلفات من السكان الاصليين كانوا يستعملونها في معيشتهم اليومية وتشبه ما رأيته في متحف « هاواي » .

القصر الجمهوري :

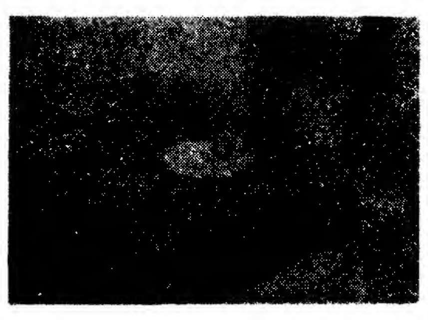
على ضفة نهر «بازيج– PASIG» زرنا القصر الجمهوري المسمّى «مالاكانيانج– MALACANANG » ومعناه « هنا مقر النبلاء ». مما فيه ركن استراحة خارجي كله من خشب الخيزران على ضفة شعرية رومانتيكية . انتُخب الرئيس الحالي « ماركوس » سنة ١٩٦٥ وعمره ٤٨ سنة وفي خطابه الاول صوّر حالة البلاد كما يلي : « يبدو ان الفيلبين فقدت روحها وشجاعتها وكرامتها وإن شعبنا كاد يستسلم الى اليأس . الحكومة ودوائرها فريسة الفساد والرشوة. الخزينة في عجز. الطاقات معطلة. الخدمات العامة مهملة . القوات المسلحة مضعضعة فنحن بحاجة الى ابطال كثيرين لإعادة البناء » .

المقبرة الاميركية :

المدافن القديمـة (باكو ـ PACO) هي واحة صمت وهدوء وهي الآن



المقبرة العسكرية الاميركية



البالوت

حديقة عامة فيها اشجار عنبر يفوق عمرها مائة سنة وكنيسة صغيرة جذابة دفن فيها جثمان (ريزال) بعد إعدامه قبل ان تنقل رفاتـه الى (لونيتا — LUNETA) حيث أُعدم. المقبرة العسكرية للجنود الاميركيين الذين سقطوا في حروب الباسيفيك هي من أجمل المقابر في العالم . غابـــة مؤثرة من ألوف الصلبان البيضاء المزروعة فوق الجثث التي عثر عليها . وبناء فخم يحمل اسماء الذين فقدوا ولم يعثر على جثثهم. يهيمن على هذا البستان الرائع المنسق الجلال والجمـــال وهو يضاهي مقبرة حديقة (ارلنجتون) في واشنطن ، والمقبرة الاميركية في (نتـّونو) بايطاليا لقتلى الجبهة الاوروبية .

كنيسة الناصري الاسود :

فيها تمثال للمسيح اسود وبالحجم الطبيعي يؤمـّهُ الالوف كل يوم جمعة ويقال انه من صنع هنود مكسيكيين . يطاف به في الشوارع يوم الجمعة العظيمة في ذكرى صلب المسيح وبعض الرجال يُعرّون أمامه صدورهم وظهورهم ويجلدون ذواتهم حتى الدم وواحد منهم يصلب نفسه .

الـ « جيبني » :

وسيلة النقل الشعبية والرخيصة والتي أصبحت من ميزات مانيلا السياحية هي الـ (جيبني): تاكسي كبير ومحوّل من سيارات الجيب العسكرية الاميركية

مطلي بالألوان الزاهية يغلب عليها الاحمر ويجوب شوارع مانيلا بعصبية مخيفة .

رأيت فيلمين فيلبينيين يغلب فيهما العنف واللؤم . في الأفـلام الاميركية عندما يصوّرون جزءاً في الفيلبين يُظهرون عادةً صاحب الفندق وهو يدسّ السم للغريم . وقيل لي انـــه من المخاطرة الابتعاد عن قلب العاصمة ليلاً او الانفراد بركوب تاكسي الى مكان بعيد .

الـ « هايالاي » :

اصطحبتني عائـــلة صديقة من القاهرة تقيم في مانيلا الى سهرة لمشاهدة الـ (هايالاي ــ HAIALAI) اللعبة الشعبية الاولى في البـــلاد . يمسك اللاعب بمضرب طويل يستلقي بـه الكرة التي يكون خصمه قد ضربها في الحائط . يتراهن الحاضرون بأن يكتبوا لوائح تتنبأ عن نتيجة المباراة بـين فريقين : فوز ــ انهزام ــ تعادل . استمتعنا بهـــذه الرياضة ونحن في مطعم ونسمع الموسيقى الفيلبينية . آلاتها الرئيسية وترية تشيع جواً عاطفياً حزيناً قليلاً .

الـ « بالوت » :

يأكلون الكتكوت (الصوص وبالفصحى القوب) في بيضته وهذا مـا يسمى (البالوت) . عندما يصير عمره عشرة أيام يغلون البيضة عشرين دقيقة ثم يفتحونها ويأكلون القوب الذي فيها بزغبه وبكل مـــا فيه . فتحتها ولم أجسر على أكلها .

٦٠

خارج مانيلا

ارغن خيزران :

على بعد ١٢ كلم جنوبي مانيلا زرنا كنيسة الصنوبر « LAS PINAS » وفيها ارغن أنابيبه من خيزران وهو الارغن الوحيـــد من نوعه في العالم . ذكّرني بالناي القصبي المفرد في الريف المصري وبالمجوز في الريف اللبناني وبالمثلث في الريف الليبي . الارغن الخيزراني يختلف عنها بأن أصـابعه الجوّفة الرنّانة هي بالمئات والعزف طبعاً بالنقر لا بالنفخ . عزفت عليه راهبــة ترانيم دينية واسمعتنا اخرى موسيقى أغاني فيلبينية .

من « لاس بيناس » تابعنا الرحلة مدة ساعة ونصف في الريف فرأينا ان الشعب فقير جـداً . البيوت من قش وقصب وأعمدتها جذوع شجر . فوق مأوى الماشية تقيم العـائلة في غرفة واحدة . الأطفال كثيرون جداً يلعبون حول البيوت ويعبرون طريق‌السيارات بأقدام حافية وبأسمال. طبيعة الريف جميلة فكله أخضر .

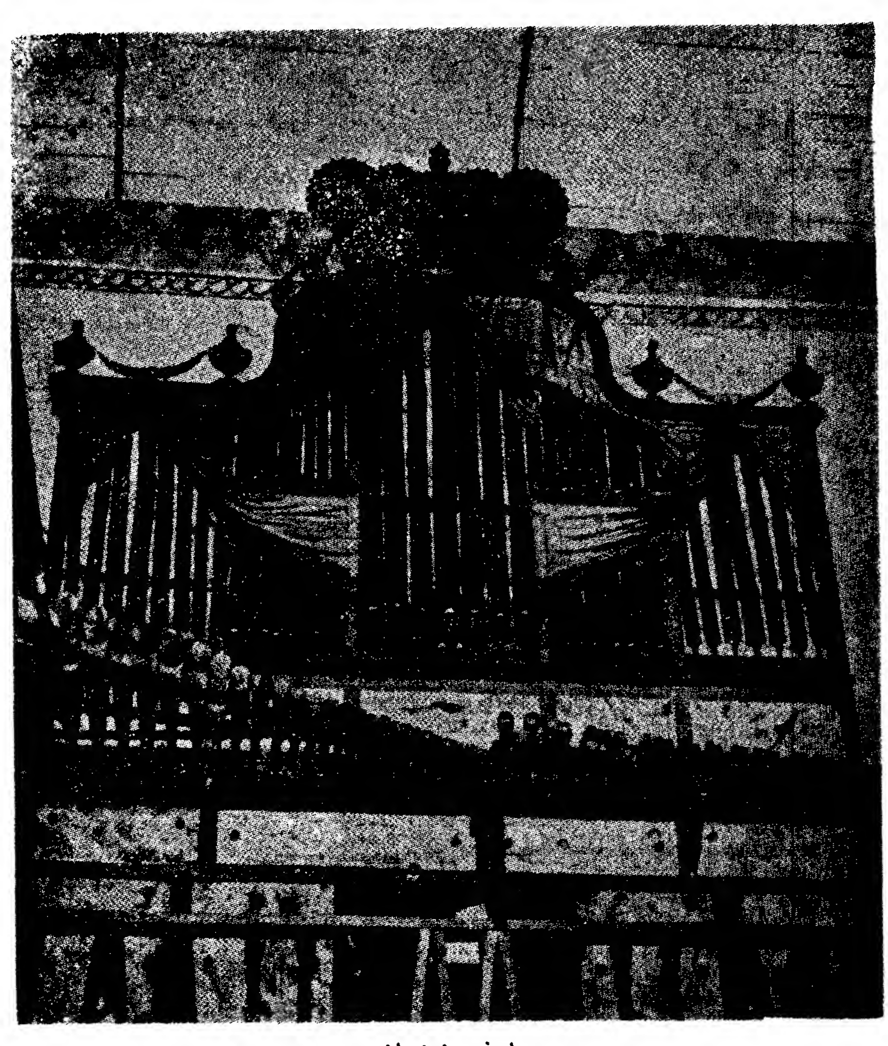
بركان عجيب :

قبيل الظهر وصلنا الى مدينة « تاجايتاي ــ TAGAYTAY » بـــين الجبال

وهي تطـل على بحيرة « بونبون — BONBON » . حول البحيرة تنتشر قرى الفلاحين والصيادين وفي وسطها ترتفع جزيرة كبرج قمتـه مفتوحة مستديرة وهي فوهة بركان « تال ـ TAAL » أصغر وأعجب بركان في العـالم . يشتعل مرة كل ٥٤ عاماً وقد حدث هذا بانتظام ١٢ مرة حتى الآن ! في ١٩١١ قتل ١٣٣٥ شخصاً وفي ١٩٦٥ قتـل ٢٠٠ شخص فقط لأن مياه البحيرة أنذرت السكان إذ سخنت وارتفعت وفاضت على الشواطىء فهرب معظم السكان قبل الانفجار. ما لبثوا ان عادوا بعد همود ه لأن التربة حول البحيرة خصبة جداً بسبب الدفء والحِمم .

اطعمة ورقصات فيلبينية :

من « تاجاتاي » يمتد النظر الى بحر الصين وخليج مانيلا . تناولنا هناك غداءً فيلبينياً قوامه رز وسمك ، ثم الـ « ابابو ـ ABABO » من لحم فراخ وبقر وخنزير مع كمية وافرة من الثوم ، ثم حلوى من الرز . شربنا الـ « توبا » من عصير جوز الهند وأكلنا المانجو الفيلبيني . خلال الغداء عزف لنـا شبان وشابات على الربابة وقاموا ببعض رقصات شعبية محتشمة. يقال عن الفيلبينيين انهم شعب مرح مغنٍ راقص يفكرون اسبانياً ويتحدثون اميركياً ويتصرفون شرقياً ... من عاداتهم ان يلبس الراقص في كفه قفـازاً ابيض إذ لم يكن يجوز لمس الفتـــاة قبل الزواج . حركات رقصهم بطيئة تدعو الى الاستمتاع الهادىء . عرضوا لنـــا رقصتهم الشهيرة « تينيكلينج ـ TINIKLING » وقد رأيتهاقبل ذلكفيالطرقات وأمام المدارس ويعرفها العالممن الأفلام والتلفزيون: يمسك اثنان بطرفي خشبتين يصطف الراقصون والراقصات على طولها من هنا ومن هنا . عندما تفتح الخشبتان يدخلون بينهما اقدامهم وعندما تتقاربان يرفعون أقدامهم قبل ان تصطدم . واصطدام الخشبتين هو الايقـاع المرافق للرقص. كلما كثر عدد الراقصين والراقصات وطالت الخشبتان واسرع الايقاع كلما زادت الرقصة جمالاً . رقصوا لنـا ايضاً الـ « ساكوتينج ـ SAKUTING »



ارغن خیزران

وهي تشبه « التحطيب المصري » : عصا في اليـد اليمنى وعصا في اليسرى يضربون بهما على عصاتي الراقص المقابل .

صراع الديوك :

بعد الغداء حضرنا صراع الديوك . أُنزل ديكان في حلبة في الرجل اليمنى ربطت شفرة حـادّة بارزة . بـدأ الديكان المتبارزان « يتنافران » بمنقاريهما ثم أخذا يتواثبان وفي إحـدى الوثبات جرحت الشفرة الديك الآخر فصُرع وُهزم والذين راهنوا عليـه خسروا ودفعوا للذين راهنوا على الديك الفائز . صراع الديكة هو المراهنة الاولى في الفيلبين ويسمح بهـا فقط يومي السبت والاحد. ليس العراك وحشياً ويدوم أقل من ١٥ ثانية يموت فيها ديك«بطل» ُدرّب على العراك اكثر من سنة . اذكر انني عندما حضرت مصارعة الثيران لأول مرة في اسبانيا شعرت باشفاق علىالشبان المصارعين وبرأفة بالثور الجريح والصريع وبشيء من الاصفرار والغثيان ولكن هـذا كله زال خلال مشاهدة تلك المصارعة الفنية . أليست اقل وحشية من الملاكمة مثلاً ؟

مغامرة نهرية :

قمت برحـــلة ممتعة تبعد ساعتين ونصف عن مانيلا الى وادي وشلالات « باجسانجان ـ PAGSANGAN » . مررت بمزرعة للأفاعي حيث تُربّى لاستخراج سمومها للأدوية والمصل (كما رأيت في معهد بوتانتان في ساوباولو). توقفت ببـلدة (الحمامات ـ LOS BANOS) حيث توجد ميـــاه كبريتية ومعدنية ساخنة وفنادق واستراحات يقصدها المرضى وخصوصاً المستشفون من داء المفاصل (روماتيزم) . عبرت مدينـة (كالمبا) مسقط رأس البطل القومي (ريزال) . رأيت كثيراً من حقول قصب السكر والرز وغابات تلو غابات وفقراً في كل مكان .

الرحلة النهرية مغامرة حافـــلة بالغرائب . جلست مع اميركي في قارب طويل وضيق يدفعه ويوجهه ملاّحان (لماذا لا نقول نهّار مثل بحّار ؟) .

في النهر قوارب يحمل قصب السكر وجوز الهند وحبالاً وخضراوات وفيه أناس يغسلون ثيابهم وجواميس تستحم لمقــاومة الحرّ والذباب والبرغش . دخلنا في اخدود بين حائطين جبليين ارتفاع كل منهما ١٣٠ متراً تنحدر منهما جداول وشلالات وتطير بينهما عصافير سوداء ومئات الفراشات وتطل القرود الصغيرة من بين نبات المناطق الاستوائية مثل النارجيل والبجنونيا والاوركيديا البرية . في العالم عشرة آلاف صنف من الاوركيديا منها في الفيلبين الف صنف أجملها تدعى « فندا سنداريانا – VANDA SAN DERIANA » وهي الثانية في العــالم والاولى في هــاواي وتدعى « كاتليا – CATTLEYA » . دفع (النهّاران) القــارب بين الصخور والحجارة الملساء السمراء ورأينا عند الاقتراب الى الشلال الرئيسي عشرات الشلالات الرفيعة عن يميننا وعن يسارنا يتطاير الينا رذاذها وتطربنا بخريرها . بعد ساعة وأربعين دقيقة وصلنا الى نهر يصب فيه شلال (باجسانجان) وهديره يملأ الوادي الذي يردّد صداه .

وصلنا مانيلا مع الاصيل ومتعنا الدليـل برؤية غروب رائع وراء قوس الخليج ويقـال ان أروع غروب هو في هــاواي وفي مانيلا . وكما قلت في هاواي (الوها) قلت هنا للشمس الغاربة ولمانيلا (مابوهاي – وداعاً) لأني اغادرها هذه الليلة الى استراليا .

قصيدة الوداع من (ريزال) :

اودّ ان اعرب مقتطفات من قصيدة (ريزال) قبل إعدامه .

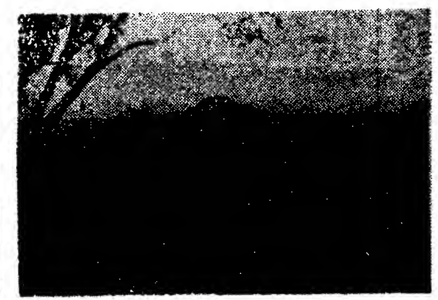
وداعاً يا بلاداً احبّها . وداعاً يا بلاداً تحبّها الشمس .
يا لؤلؤة بحار الشرق ويا جنة عدن الدنيا .
اقدم لك بفرحٍ حياتي ولو انها اصبحت بلا نعيم ولا أمل ،
وارحل الى حياة اخرى اكثر إشراقاً ونضارة وجمالاً .
وحتى هذه الأخرى اضحي بها لأجلك إذا كان في التضحية خير لك.
اني سائر لملاقاة الموت بينما أرى السماء صافية جذلة

تبشّر بقدوم نهار حي بعد ليل ميت .
إذا كنتِ بحاجة الى الوان فإليك دمي الذي سيسفك عن قريب
اصبغي به اضواءَ النهار الاولى .

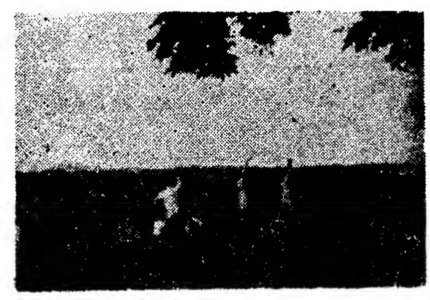
لأجلك ، يا بهجة حياتي ويا حبي الكبير
لأجلك ، هكذا تهتف روحي عند آخر خطوة ومع آخر رمق
لأجلك ، يا بلادي الحبيبة يسقط ما تستطيعين ان تُنهضِي
ويفنى ما تستطيعين ان تخلّدي
وتحت ثراك الحبيب يستريح في نوم ابدي .

لن يقوى شيء على محو ذكراي منكِ
عبر هوائك ومائك وأوديتك سيتنقل طيفي .
سأظل فيك نغماً قوياً رناناً – ونوراً ولوناً – وهمسة وأنّة .
اني راحل الى حيث لا عبيد ولا ظالمون
الى حيث الله هو السيد الأوحد والأعلى

وداعاً يا والديّ واخوتي ، يا فلذات روحي !
وداعاً يا اصدقائي ويا رفاق صباي وشبابي !
اشكروا معي لأني اتحرّر من اليوم الذي لا راحة فيه !
وداعاً ايها الغريب العزيز الذي سيمرّ بي !
وداعاً ايتها الكائنات التي أحبها !
وداعاً ! الموت هو الراحة !



بحيرة وبركان تال



رقصة التينيكلينج



صراع الديوك



في نهر باجسانجان

٦١

نبذة جغرافية وتاريخية عن استراليا

مرسوم من ملك السماوات :

طرت من مانيلا الى سيدني تسع ساعات قطعت فيها ٦٢٦٢ كلم بدون توقف . عند المرور فوق خط الاستواء (إذا اسعدك الحظ وطرت يوماً فوقه فلا تحاول ان تراه من نافذة الطائرة) اسلمتنا المضيفة الاسترالية شهادة العبور من نصف الكرة الشمالي الى النصف الجنوبي . على الشهادة صورة « نبتون » ملك البحر والجو وتوقيع قائد الطائرة تحت هذا النص الطريف :

« من الملك نبتون .

أمر الى المسافرين عبر الجو الاستوائي :

ليكن في علم الجميع ان الأب جوزيف رعد اللبناني الذي عبر اليوم خطنا الاستوائي أصبح إنساناً حراً مواطن الفضاء يتمتع مجاناً بكل الحقوق والامتيازات والتسهيلات المحفوظة للذين يعبرون بالطائرات من نصف الكرة الارضية الى النصف الآخر .

لتحط علماً بهذا جميع القوات والسلطات الخاصة لجلالة الملك نبتون المعظم.

طائرة كانتاس في ٩ / ٦ / ١٩٧٢ ـ التوقيع : نبتون ملك السماوات » .
الى اليمين الاعلى من هـــذا المرسوم صورة طائرة كانتاس . وإلى اليمين الاسفل شعار وعلم كانتاس. والى اليسار الاعلى الشمس الشارقة . والى اليسار الاسفل حمامــة وصورة نبتون بـذقن بيضاء مسترسلة وتاج وهو راكب على سمكة عملاقة وبيده اليسرى الشوكة المثلثة .

بين الاسطورة والواقع :

ما ألطف وأطرف هذا التذكار من اسطورة نبتون الميثولوجية ! للأساطير مغناطيس يجذب روح الانسان التي تعلم انهــا خرافات ومع ذلك تميل اليها . ان التعبير « أصبح إنساناً حراً مواطن الفضاء » يوحي للانسان انه عبد الارض وعبد الزمــان والمكان فبطيرانــه يتغلب على أسر المكان وعلى بطء الزمان ويتحرر من قيود الطبيعة ! التكنولوجيا تنتج الدقة والسرعة في الفهم والعمل والانتقال ويتغلب الانسان على الطبيعة بتطبيق قوانين الطبيعة ذاتها.

كان أمر نبتون مطاعاً هذه المرة لأننا طرنا في جو هادىء صحو مع ان تلك الجواء مسرح للأمطار والصواعق والعواصف والأعاصير .

يمكن الاستمتاع بالموسيقى الخافتــة في قلب الطائرة وبمشاهدة التلفزيون ولكن لا يسمح بفتح الترانزستور فأمامنا تنبيه من «وكالة الطيران المتحدة ـ FAA » : ممنوع فتح الترانزستور أثناء الطيران لأنــه قد يؤثر على جهــاز اللاسلكي في الطائرة .

دخلنا جو استراليا فوق ولاية « كوينزلاند » وقــد طلع الصباح فرأينا الساحل الشرقي ولفت مساعد القائد نظرنا الى الحاجز الاكبر او سد المرجان الذي طوله نحو الفي كيلومتر وهو سلسلة من الحواجز المرجانية تقفل الساحل الشرقي عن المحيط ولا تنفرج إلا عند مصاب الأنهار .

الارض والسكان والمناخ :

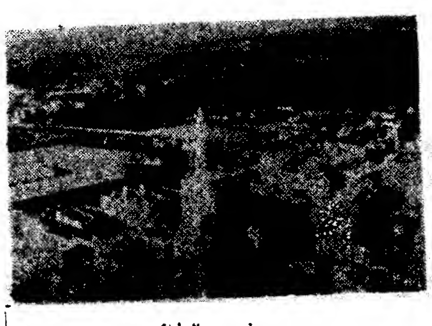
استراليا ـ ومعناها الجنوبية ـ هي القــارة الوحيدة التي تشغلهــا دولة

واحـدة . مساحتها ٧٧٠٤٠٠٠ كيلو متراً مربعـاً وهي أشبه بمستطيل : ٣١٠٠ كلم من الشمال الى الجنوب و٣٨٠٠ كلم من الشرق الى الغرب . دائرة شواطئها نحو ٢٠ الف كلم. انها اكبر من بريطانيا ٣٠ مرة ولكن عدد سكانها أثنـا عشر مليوناً . في بريطانيا ٢٢٠٠ ساكن في الكيلو متر المربـع الواحد وفي استراليا ١،٥ فقط. معظم السكان بريطانيو الاصل وكل السكان تقريباً مسيحيون . استراليا مقسمة الى ست ولايات تضاف اليها « مقاطعة الشمال » التي لها وضع قانوني خاص والمنطقة الاتحادية (الفدرالية) حيث تقوم العاصمة « كانـبرا » . اطول نهر فيها هو « دارلينج ـ DARLING » (ومعناه يا عزيزي) يبلغ طوله ٢٧٢٠ كلم . إنما أهم نهر هو « ميوراي ـ MURRAY» طوله ٢٤١٣ كلم ويفصل بـين ولايتي نيوساوث ويـلز التي عاصمتها سيدني وفكتوريا التي عاصمتها ملبورن. أعلى جبل هو (كوشيوسكو) ٢٢٢٧ متراً ويكلل الثلج قمته ستة أشهر .

تحتل استراليا ثلاثين خط عرض على الكرة الارضية لذلك يتراوح مناخها من تحت الاستوائي فيالشمال الى معدل فيالجنوب الشرقي الى بارد في الجنوب. وفي وسط البلاد المناخ صحراوي مائل الى الصحو والدفء وهنالك مساحات شاسعة منالمراعي والقفار والهضاب. معظم السكان متجمعون على الشواطىء الشرقية الجنوبية حيث مناخها كمناخ حوض البحر المتوسط . بما ان استراليا هي في نصف الكرة الجنوبي فالفصول فيهـا (معكوسة) : ربيعها خريفنا وصيفها شتاؤنا . اكثر الاشهر برداً في سيدني هو تموز إذ تبلغ درجة الحرارة الصغرى ٨ والعظمى ١٩ . اكثر الاشهر حراً كانون الثاني وشباط إذ تبلغ الصغرى ١٩ والعظمى ٢٦ ولكن تقفز أحيانـاً الى درجة القيظ . ١٠ ٪ من مياه امطارها تفيدها و٩٠٪ تتبخر او تضيـع لذلك هي مهتمة جداً في تخزين المياه بانشاء السدود والبحيرات للري ولتوليد الطاقة الكهربائية لأنهـا تسير بخطى جبارة في التصنيـع .



الدب الاسترالي كوالا



سيدني من الطائرة



الكنغر

الانتاج :

بما ان استراليا قـــارة منعزلة واكتشفت حديثاً احتفظ حيوانها ونباتها بطابع خاص وبعضه لا يوجد إلا فيها . ٤٠٪ من ثروتها هي زراعيــة وفيها نحو ١٠٠ مليون رأس غنم . ادخل فيها غنم (المارينوس) من جنوب افريقيا في اواخر القرن الثـامن عشر وهو يعطي أجود نوع من الصوف لأن جفاف الهواء في الهضاب الداخلية يضفي على صوفه نعومة فريدة عالية . يملك فيها بعض (الاقطاعيين الرعائيين اوسع مراعٍ فردية في العـــالم فهنالك مثلاً مرعى (مولولو ــ MOOLULOO) الذي يمتد وحده ١٤٢٥٠ كلم مربع (مرة ونصف تقريباً مساحة لبنـان) . عندما تتنقل القطعان لتغيير المراعي من اكبر اعدائها الجمال البرية الهائمة والكنغر والبومة إذ ان ادنى حركة من هذه تبعث الذعر في القطيع ويصرع منـه الكثير . وإذا استعصى على الفـارس ترويض ثور يكوي ذيله فيستسلم . عدو آخر المواشي هو القحط فتموت من العطش ومن قلة المرعى وقد يصل ثمن الخروف حينئذ الى أقل من دولار وهذا يعطل تصدير اللحوم إذ ان استراليا من أكبر الدول المصدرة لها . إنما أكبر عدو للزراعة هي الأرنب البرية فملايين وملايين منها تعبث في الحقول وتنزل خسارة جسيمة باقتصاد البلاد . تزرع استراليا القمح وهي من كبريات الدول المصدرة له كما تزرع الشعير والذرة والرز والكثيرمن الحبوب الاخرى. يعطى

للذي يشتغل في حقول قصب السكر أعلى أجر لأي عامل ومع ذلك العاملون فيها قليلون لأنهم مهددون بلدغ الثعابين ... وفيهـا العنب والموز والأناناس والحمضيات والإجاص والتفاح حتى ان (تسمانيا تعرف بجزيرة التفاح) .

تستغل استراليا صناعات الخشب لا سيما في المناطق الممطرة وفيها شجرة المطـاط ونحو ٥٠٠ نوع من شجر الكينا والكافور . تنتج ٦٧٪ من بترولها وتأمل أكثر من ذلك في صحاريها الشاسعة. فيها كثير من المعادن مثل النيكل والالومينا والحديد والاورانيوم والنحاس والرصاص والفضة ومناجم واسعة من الفحم الحجري الممتاز. تكسب استراليا من مواردها الخام اكثر مما تكسب من صناعاتها إذ انها لم تتجه الى التصنيع إلا بعد الحرب العالمية الثانية وكانت متكلة من قبـل على بريطانيا . حتى الآن بريطانيا هي اكبر سوق لاستراليـا فمن بريطانيا ٤٥٪ من الواردات وإليها ٥٠٪ من الصادرات .

اكتشاف استراليا :

سنة ١٧٧٠ اكتشف القبطان «كوك» سواحل استراليا الجنوبية الشرقية. سنة ١٧٨٨ استعمر استراليا باسم التـاج الانجليزي القبطان « ارثور فيليب » بأسطول بـدائي مكوّن من ١١ سفينة على متنها ١٠٢٤ بريطانياً منهم ٧٧٠ محكوماً عليهم بالنفي والاشغال الشاقة . لهذا السبب حتى الآن يعير الانجليز الاستراليين ـ على سبيل الدعابة ـ بـأنهم نسل المنفيين المحكومين « پومي ـ POME : PRISONERS OF MOTHER ENGLAND » . سنـة ١٧٩٣ وصل أول فوج من البريطانيين المواطنين الأحرار . بقيت الهجرة قليلة جداً حتى سنة ١٨٥١ إذ عرف ان في استراليا مناجم ذهب فأقبل عليها المهاجرون لكنهم لم يكسبوا الكثير فارتدوا الى الزراعة وتربية المواشي. في البدء كانت الأراضي كلها ملكاً للدولة تبيع او تُقطِعُ منها للأفراد .

الاتحاد الاسترالي :

في ١ / ١ / ١٩٠١ وُلد « الاتحاد الاسترالي » المكوّن من ٦ ولايات. كان

من قبل مقر الحكومة في « سيدني » ومقر المجلس التشريعي في « ملبورن » ثم انشأوا العاصمة الاتحادية « كانبرا » . السلطة التشريعية مكوّنة من مجلس نواب ومن مجلس شيوخ . في كل ولاية مجلسها التشريعي وحكومتها وحاكمها. يهتم برلمـــان الولاية وحكومتها بالتربية والتعليم والصحة والاسكان والزراعة والقضاء والصناعة المحلية والسياحة والمواصلات البرية وما أشبه ذلك وتبقى للبرلمـــان الفدرالي وللحكومة الفدرالية شؤون الدفاع والخارجية والضرائب العامة والهجرة والتجارة الخارجية والجمارك والانمـــاء القومي والمواصلات البحرية والجوية .. لا يعدّل في الدستور إلا باستفتاء ينال $\frac{2}{3}$ أصوات الشعب وغالبية مطلقة من أصوات ممثلي الولايات .

سيدني من الطائرة :

لم اقطع الاطلاع على هـذه المعلومات إلا عند سماع صوت المذيعة : بعد قليل نبـاشر الهبوط في مطار سيدني . كانت الشمس ساطعة كأن الانقشاع ١٠٠ ٪ فبانت لي سيدني من أجمل مـدن العالم . البحر يتغلغل فيها خلجاناً زرقاء وهي تلال خضراء زرعت فيها بيوت حمراء على جوانب شوارع مستقيمة وطويلة جداً . رغم بعدها وانعزالها يمر بمطارها سنوياً نحو مليوني مسافر . من نافـــذة الطائرة بان العَلم الاسترالي يخفق على أبنية المطار : الصليب البريطاني ونجم كبير ذو سبع أشعة وخمس نجوم صغيرة رمز لصليب الجنوب الذي يظهر في فلـك نصف الكرة الجنوبي وأصبح كرمز قومي . انني بعيد جداً عن بلادي والفرق في الوقت ٨ ساعات بـــين سيدني وبيروت ولكني نسيت هذا إذ رأيت عشرات المستقبلين من الأصدقاء المهاجرين الجدد يلوّحون لي ويحدثونني بالعربية : أهلا وسهلا أهلا وسهلا !

٦٢

سيدني

اهلاً بك لتموت :

في مكتب سياحي قدمت لي السكرتيرة برامج الجولات. قلت لها أرغب ان اشترك في جولة اليوم (TO DAY) فأجابتني: (اهلا وسهلا بك لتموت WELCOME TO DIE) فأعدت لهـــا : (مـــاذا ؟ جولة اليوم اليوم - TO DAY , TO DAY) . فكررت بابتســامة : (نعم لتموت لتموت - YES , TO DIE , TO DIE) . وحينئذ فقط ادركت ان الاستراليـين يلفظون الـ (A - آ) وليس (ايه) كالإنجليز !

جولة في المدينة :

الاوتوبيس السياحي بدورين كما في لندن وهونغ كونغ والسير الى اليسار. بدأ الدليل يحدثنا عن سيدني مدينة الميناء والجسر الشهير والحدائق والشمس والمرح والغنى وكان معجباً بمدينته و (باستراليته) . مساحة المدينـــة ١٦٧٥ كلم مربع وعدد سكانها مليونان ونصف . انطلقت الجولة من (مارتين بلاس - MARTIN PLACE) الذي هو الميدان والشارع الرئيسي في وسط المدينة التجاري ويدعونه الـ (سيتي - CITY) . ان البنايات العالية البراقة

بالصلب والزجاج والالومينيوم والرخـــام الابيض تطبع في الذاكرة صورة فخمة عن الـ (سيتي) .

في الحي القديم (منطقة الصخور) حيث وُلدت سيدني بين الصخور التي كان يقطعها المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وأقدم البيوت في شارع (ارجايل - YRGALF) . ثم الكنيسة الاولى (سانت جيمس) بناهـا (جرينواي) المحكوم هو ايضاً ولكنه خلـّد اسمه بمسلـة (جرينواي) المرتفعة في ميدان (ماكواري) إذ جعلت النقطة المركزية الصفر لبدء عـــدّ اميال الطرق . مررنا بكاتدرائية مريم العذراء للكاثوليك وبكاتدرائية (سانت اندروز) للانجليكان وبالبرلمان وبمعهد الموسيقى . وأشـــار الدليل الى المحلات التجارية الكبرى (دافيد جونز و فارمرز و جريس بروس) وغيرها وقد زرتها بعدئذ مراراً. يجد فيها المرء كل شيء كما في مثيلاتها بأميركا و كنـدا وعلى العموم نمط الحياة والعادات والعقلية والانظمة تتشابه جداً في هذه البلدان الثلاثة .

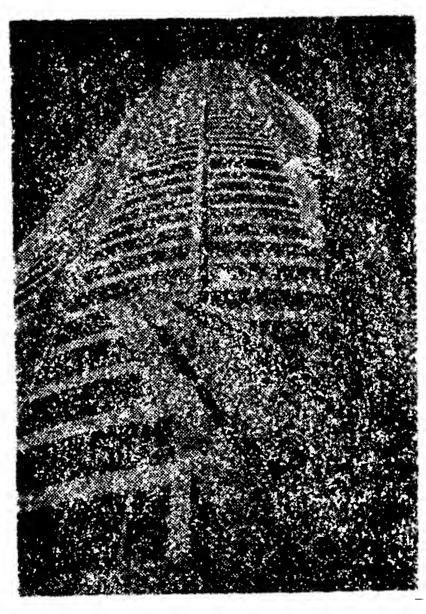
(جسر الميناء) هو من اضخم جسور الصلب في العالم . الطول المعلق بين عاموديه ١٤٩٥ متراً وعرضه ٥٠٣ أمتار وارتفاعه ١١٣ متراً منها ٥٢ فوق سطح الماء . يعبره يومياً ١١٠ آلاف سيارة بعد ان تدفع رسم العبور. يتسع لسكة حـــديد ولثمان سيارات والمشاة على رصيفين . بُني في تسعة أعوام وأُنجز سنة ١٩٣٢ وكلف ٢٠ مليون دولار . لكن (جسر الميناء) مفخرة سيدني يبين عادياً إذا ما قورن بجسور نيويورك الجبارة والرشيقة معاً .

مررنا بخلجان عديدة من خلجان سيدني الاربعة والعشرين : بونداي حيث يصب نهر (بارامـاتا) - روز - وطسن - تامـــارا - برونت - نارابين - كولاروي - مانلي - كورنولا - بالم ... وقفنا عند رأس (كورنيل) على خليج (بوتاني) حيث نزل القبطان (كوك) وبعده القبطان فيليب . رأينا بعض المستحمين في البحر رغم ان الفصـل شتاء وكان بين المستحمين اولاد في سن الدراسة يستمتعون (بإجازة مـا بين الفترات) إذ انهم يدرسون في

استراليا ثلاثة اشهر ثم يأخذون إجازة ثلاثة اسابيع وهكذا . في شاطىء (مانلي) زرنا (مارينلاند) حيث غطس أمامنا الرجل الضفدع وعلى ظهره انبوبة الاكسجين وبقي وقتاً طويلا تحت الماء يطعم السمك . ثم استرحنا عند بحيرة (نارابين) وطفنا (بالغابة الفرنسية) الأنيقة .

في حي « كينجز كروس » تختلط الأجناس واللغات من مختلف بلدان العالم وتقدم كل أنواع الأطعمة وتتجاور المقاهي والبارات والمسارح والسينمات. انه حي الليل لا سيا السبت والأحد وحي « شم الهواء » لمن يريد أن يرى الغرائب على أرصفته . يكثر فيه تجوال البوليس للحفاظ على الأمن ولردع عصابات كثيرة تعكر الحياة فيه . انه مثل حي « سوهو » في لندن وحي « ڤيلاج » في نيويورك وحي « يورك ڤيل » في تورنتو ، إنما في سيدني يتفوق الفتيان على زملائهم في كل العالم بشعرهم الطويل وزيهم « الحريمي » والطلاء بالأصباغ .

بناية استراليا سكوير :



بناية استراليا سكوير

ترتفع في الـ « سيتي » أعلى بناية في البلاد وهي « استراليا سكوير- SQUIRE ». شكلها كبرج شاهق في قمته سطح دائري اكتشف نظري منه كل آفاق سيدني وقوس الجبال الذي يطوقها من جهات ثلاث وخط البحر الذي يحدد شرقيها. انها خلابة بمناظرها الطبيعية وتبدو نظيفة لامعة كأنها مستعدة دوماً لاستقبال ضيوف. يحلو كل شيء على هذا السطح :

الأكل والشرب في مطعم أنيق وتصوير الجمال الذي أبدعه الباري والجمال الذي صنعه الانسان وتنشق الهواء الهادىء الصافي في العالي واختزان الذكريات من جولات تدوم أشهراً في أعماق النفس على مدى الحياة .. تنبهت من شـــذا «الانخطاف» لكي أقرأ بين يدي شيئاً عن ناطحة السحاب التي تحت قدمي . انجزت سنة ١٩٦٨ وبلغت تكاليفها ٣٠ مليون دولار وتعلو عن سطح الشارع ١٨٢ متراً بسبعة وأربعين طابقاً عـدا ثلاثة طوابق تحت الارض . فيها ١٩ مصعداً ويستغرق «الطيران» بالمصعد نصف دقيقة فقط . عدد نوافذها ٣٣٠٠ ومساحة زجاجها نحو ٨ آلاف مترمربع ينيرها ٣٠الف مصباح «فلورسانت» فتبدو كشعلة في الليل في الدور السادس يوجـــد منجم اصطناعي لأحجار كريمة لا سيما « الاوپال » وأكبر حجر « اوپال » في العالم وزنه ٦٢٣٧ جراماً وثمنه مليون ونصف مليون دولار وجد في جنوب استراليا سنة ١٩٦٩ .

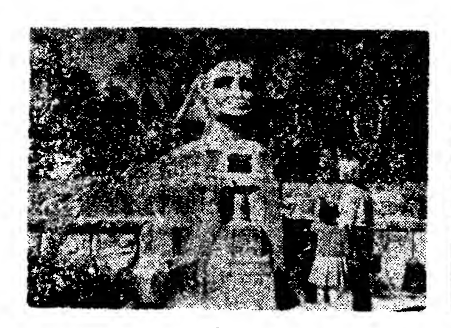
ڤوكليز هاوس :

قصر بورجوازي من اوائل القرن الماضي تحجبه أشجار عالية فتضفي عليه مسحة من الغموض . تعتبره الحكومة متحفاً ولذلك ترك على مـــا كان عليه بكل ما فيه من أثاث قديم جلب من بومباي والبندقية وبراغ وطهران وباريس ولندن .. فيه صور الذين سكنوه ، وأوقفنا الدليل وحدثنا أمـام صورتي مؤسسه (هايس ـ HAYES) (ومشتريه) ونتو ورث ـ WENTWORTH وكلاهما لا يخلوان من عبقرية وشذوذ .

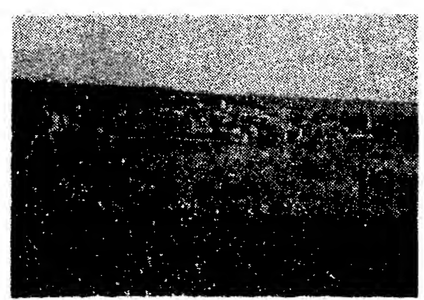
كان (هايس) يعيش في ايرلندا. اختطف أرملة ثرية وعقد عليها الزواج ويده تمسك بالمسدس . حكم عليه بالنفي الى استراليا فقضى حياته فيها من تمرد الى سجن الى مغامرات . في ١٨٠٣ اشترى بمائة جنيه ٤٢٤٨٣٠ متراً مربعاً في سيدني (ثمنها اليوم نحو ربع مليار دولار !) وبنى منزله ودعاه (ڤوكليز ـ VAUGLUSE) على اسم قرية فرنسية كان يحبها . وجلب من ايرلندا ٥٠٠ برميل تراب نفطي نثرهـا في أرضه لتمنع تسرب الافاعي الى بيته . يعتقد



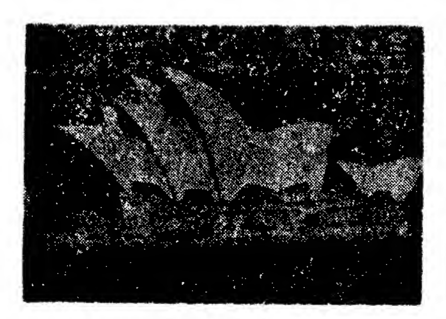
بين الخلجان



نسخة من أبي الهول



بين زرقة البحر وخضرة الروابي



الاوبرا

الايرلنديون ان القديس (باتريك) أبعــد الافاعي عن ايرلندا فنثر التراب النفطي يوم عيده . ثم باع ملكه وعـاد ليموت في ايرلندا وعمره ٧٠ سنة .

أما (ونتو ورث) فولد في استراليا من أب محكوم عليه ومنفي . كافح للثروة وللجاه وأسس (جريدة الاوسترالي) طالب فيها بالحريات الديموقراطية رغم انه بقي ارستقراطياً . كان في صراع مستمر مع الحاكم (دارلنج) وإذ استُدعي هذا الى بريطانيا أقام (ونتو ورث) في (قصر ڤوكليز) عيداً حضره أربعة آلاف مدعو . في إحدى قاعات هـــذا القصر اشترك في وضع نص الدستور الاسترالي . وهو أيضاً توفي في بريطانيا عـن ٧٩ سنة ولكن نقلت رفاته الى « ڤوكليز » .

اسماك عجيبة :

تشتهر « حديقة الحيوان طارونجا – TARONGA ZOO » بسمكتها . رأيت السمك الكهربائي الذي يفرغ من جسمه شحنات تتراوح قوتها بـــين ٠٫٠٣ وبـين ٦٠٠ فولت الشحنة الواحدة ! وهو لا يؤذي السمك الذي من نوعه ويأكل المرجان .

اسماك المرجان رائعة جداً فكأنها عناقيد او باقات زهور. وهنالك سمك أعمى وسمك بشكل بساط او سجادة ونوع قيل عنه انـه الحلقة بين السمك والحيوان البري يشبه الجرذ ويقف على أربعة أقدام لكنه لا يستطيع أن يعيش خارج الماء ولا يستطيع العوم في الماء فيبقى في القعر .

وحصان البحر طوله كالاصبع فقط ورأسه كرأس حصان وهو الحيوان الوحيد الذي تبيض أنثاه ثم تضع البيض فيجوف الذكر. من حديقة الحيوان ترى الـ « سيتي » عبر الخليج فـلو امتد جسر بينهما لبلغتها سيارتنا في ثلاث دقائق ولكن بقينا ساعة كاملة نتلوى مع الخليج وهذا ممـــا يجعل المسافات شاسعة في المدينة ويقتل الوقت .

حدائق سيدني :

أمام كل بيتٍ جنينةٌ خاصة وفي كل حيٍّ جنينةٌ عامة وفي المدينة حدائق كبيرة طالما سرت وطالعت وكتبت فيها وأطعمت الحمام وجلست مع الاصدقاء. أجملها حديقة النبات أمام الميناء والجسر والاوبرا ومدينة الملاهي. بين الثانية عشرة ظهراً والواحدة يقصدها ألوف الموظفين لأنها قريبة من الـ «سيتي» ويتناولون فيها « السندويتشات » . وبعد خروجهم لا ترى العين أية اوراق او فضلات فهذا الشعب هو من انظف شعوب العالم . من يرمي أي شيء يعاقب بغرامة تصل أحياناً الى مائة دولار حسب الشوارع والمناطق . في هذه الحديقة يقوم قصر حاكم الولاية وهو مبني بطراز القرون الوسطى مع أنه أنجز سنة ١٩٤٥ .

في الـ « سيتي » نفسها حديقة « هايد بارك » حيث تكثر النافورات والتماثيل وملاعب « البولنج » . وفيها نصب تذكاري للجنود الاستراليين والنيوزيلانديين « انزاك – AUSTRALIA NEW ZELAND ARMY CORPS » . في حديقة « ذي دوماين – THE DOMAIN » منابر الخطابة الحرة لأي فرد يوم الأحد بعد الظهر كما في « هايد بارك » بلندن .

اكبر حديقة هي « المئوية – CENTENNIAL » انشئت في الذكرى المئوية المدينة وتكثر فيها الاقنية والملاعب الرياضية والزهور والحقول ويعشقها هواة ركوب الخيل .

في ضواحي سيدني حدائق لا تحصى اكبرها « كورنج جاي» وقد اشتهرت بالهرم وبأبي الهول اللذين نحتهما في الصخر الفنان « و. شيرلي » لذكرى رفاق السلاح في الحرب العالمية الاولى .

رحلة بحرية :

من أروع ذكرياتي عن سيدني رحلة دامت ثلاث ساعات بين الجزر والخلجان. انطلقت الباخرة من « الرصيف الدائري – CIRCULAR QUAY » الدائم

الحركة من وإلى جميع أنحاء سيدني . مررنا بجانب الميناء الذي تبلغ مساحته ٥٣ كلم مربعاً ولفت نظري بين المستقبلين والمودعين الجمال البشري فلا اظن انني اغالي إذا مـــا قلت انهم هنا من أجمل البشر ! ويزيد في جمالهم الثياب الانيقة ذات الألوان الجذابة . صورت كثيراً « الاوبرا » البيضاء التي صممها المهندس الدنمركي « جورن اتزون » كفراشات او كأصداف فـلا تشبهها بناية أخرى في العالم . انهـــا جارة « جسر الميناء » وهي تطاله فأعلى سطح فيها يجاوزه. تسع قاعتها الكبرى ٢٨٠٠ كرسي ، والقاعة الثانية ١٠٠٠ كرسي، والقاعات الصغرى ٤٣٠ و٣١٠ . عبر الخليج توجد مدينة الملاهي «لونابارك» تشبه ألعابها ما رأيته في كاليفورنيا في « الجبل المسحور » وفي «ديزنيلاند» .

يدعى الموقع الذي بنيت عليـــه الأوبرا « نقطة بنلونج – BENNELONG POINT » . كان بنلونج هـذا ابو ريجينيا أسره الحاكم فيليب وأخـذه معه الى لندن حيث قدمه للملك . ولكن بعد الرجوع الى سيدني سمع « نـــداء الغاب » وعاد الى حالة التوحّش .. حصن « دانيسون » الذي يستعمل الآن لقياس ارتفاع الموج كان سجناً صارماً لا يذوق نزلاؤه إلا الخبز والماء خصوصاً إذا ثبتت عليهم تهمة سرقة أغذية .

في خلجان كثيرة رأينـا شبكة منصوبة في البحر لتحمي المستحمين من اسماك القرش التي تكثر جداً في شواطىء استراليا وتنشر الرعب . وقال لنا دليلنا ان سيدني هي مدينة الشمس والعوم ترى الشمس ثلاثة ارباع ايام السنة وليس بحرها بارداً فلا عجب إذا ما كرهوا سمك القرش .

تبدو غالب أحياء سيدني كشبه جزر مستطيلة عالية يحيط بها المـاء من جهات ثلاث. وتتدرج البيوت من الشط على السفح الى خط القمة بين العشب والشجر. وهنالك شبه جزر برية لا بيوت فيها يوجد في احداها نادي «مشاة الغاب » وهم عشاق البراري يهوون السير بـين الأدغال ليضيعوا في الطبيعة البكر التي لم تطلها يد الانسان . لو عشت في استراليا لانضممت اليهم .

في الذهاب والاياب انفتـــح « جسر سبيت – SPIT BRIDGE » ووقف الى ان عبرت باخرتنا ثم نزل وامتدلتعبر عليه السيارات. يحمل اسم«سبيت» الخليـج والجسر وطريق السيارات ومعناه « البصاق » ربما اتى هذا الاسم من عملية الردم فكأن ناقلة مواد الردم كانت « تبصقها » هناك .

عرف الدليل ان نحو اربعين من اصل مصري مشتركون في الرحلة فأذاع انه يعرف مصر من الحرب العالمية الثـــانية واخذ يتحدث عنها . وفوجئت بسماع اسمي مرتين مع عبارات ترحيبفقصدته لأشكره ولأسأله كيف يعرفني فأجاب ان رفاقي على البـاخرة طلبوا اليـــه ذلك . في كل رحلاتي باستراليا أعجبت بلطف واناقـة ومرح المرشدين السياحيين ومن خلالهم عرفت ان الاسترالي إنسان محبوب ويحب الحياة والفكاهة . قلت له : ارجوك ان تذيع ان اسمي هذا ليس « ابوريجينيا » كأسماء الاماكن التي نسمعها منك اليوم : بنلونج – بورووانج – جوبوفال – ويـلارا ... ولو اني في أعمـــاق نفسي أحببت رنتها الغريبة .

●

٦٣

رحلات من سيدني

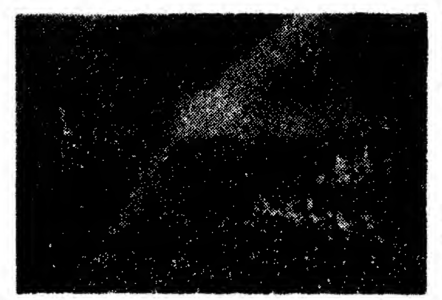
بين الجبال والكهوف :

كانت الليلة التي سبقت موعد رحلتنا الى الجبال ليلة رعد ومطر ورياح . تحدثنا بالتليفون وتساءلنا هل نلغي الرحلة فكان الجواب كلا لأن علامة الطقس أشرت الساعة ١٠ ليلا بأن الجو سيكون صحواً . يرتفع مؤشر الرصد على ثاني بنـــاية في سيدني وهي لشركة تأمين . يستقرئه السكان خصوصاً عشية اجازاتهم . يؤشر اربع مرات في اليوم : ٦ صباحاً و ١٢ ظهراً و ٤٫٣٠ بعد الظهر و ١٠ ليلا . اشارات الحرارة : أنوار متألقة أي الجو مائل الى الحر ، أنوار منخفضة أي الجو مائل الى البرد ، أنوار ثابتة أي لا تغيير في الجو . وإشارات الطقس : اللون الابيض علامة الصحو واللون الاحمر علامة المطر . انه يهم الاستراليين أكثر من اخبار السياسة والحرب ...

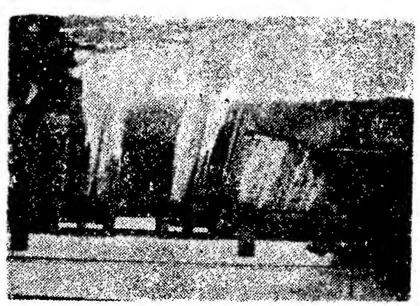
في الذهاب والاياب مررنا بمـدن وقرى جبلية جذابة . منها ونتوورث و لوريا و هامبتون و سبرنجوود ومنتزه هـاوكسبيري و ريتشموند وكاسيل هيل . عبرنا جسر « جلاديس ڤيل » الذي هو الثـاني بعد جسر الميناء ونهر



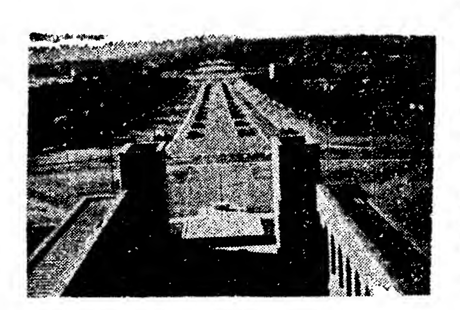
في كهوف جنولان



الاخوات الثلاث والجبال الزرقاء



سد واراجامبا



في كانــبرا

« نيبان » و وادي « هارتلي » و جبـــل ومعبر « فكتوريا و ... ولم أعد أذكر كل تلك الأسماء الجميلة .

تبعد « كهوف جنولان » ١٨٠ كـلم عن سيدني . اكتشفت سنة ١٩٣١ وعددها ستة في قلب جبل واحد زرنا منها اثنين . مشينا في « كهف لوكا» ساعة وربع الساعة صعوداً ونزولاً وراء دليلنا وفي جو من الموسيقى الخافتـة يرافقها خرير مياه منحجبة . كانت رواسب الاحجار المتدلية من السقف أو الناتئة من الارض او المتحجرة في الجدران تطالعنا بأشكال منوعة غريبة : رأس حصان أو كلب – شلالات – اشجار – عواميد – وشكل كاتدرائية وقفنا امامهـا لنسمع انشودة « السلام الملائـكي – AVE MARIA » . هـذه الكهوف اضخم من مغارة « جعيتا » في لبنان ولكن جعيتا تفوقها جمـالاً وسحراً وتنوعاً وتطبـع في النفس اثراً أكثر شاعرية ونعومة ولا بد ان للمياه وللفسحة بالمركب نصيباً في ذلك الانطباع الذي لا يمحى .

تناولنا غداءً ريفياً بارداً في جو بارد جداً تساقط فيه رذاذ ثلجي وكنا في(كاتومبا) بمنطقة (الجبال الزرقاء) على ارتفاع ١٠٦٤ متراً عن سطح البحر وعلى بعد ساعتين من سيدني . ذكّرني هـذا المنظر بجبال (جران كانيون) بأميركا ولكن هنالك الصمت والقمم السمراء العارية والمخيفة بينما هنا الجبال مشجرة . أمامنا ثـــلاث قمم متجاورة منتصبة كالأبراج تدعى (الاخوات الثلاث – THREE SISTERS) تقابلها (القمة المنفردة – MOUNT SOLITARY) . ركبنا مصعداً عبر بنا من جبل الى جبل ثم انحدرنا بقطار بطيء الى الوادي وتمتعت أعيننا بمشاهدة سفوح زرقـــاء خضراء واودية داكنة وبأقواس قزح تمتد بين شفيري الوادي . انهـــا لوحة لا تخلو من مسحات بدائية متوحشة ساحرة !

ذكرت منذ قليـــل (جعيتا) والآن اذكر (فيروز) . كنت اقضي بعض السهرات في بيت عائلة مصرية مهاجرة . عندما كنا نستمع الى اغاني

(فيروز) كان طفل عمره ثلاث سنوات ـ وهو مولود في سيدني ـ يتركنا وينفرد ويبدو التأثر على وجهه وتترقرق عيناه بالدموع . ترى ما السر في تغلغل صوت (فيروز) حتى الى اعماق نفوس الاطفال ؟ ...

سد واراجامبا :

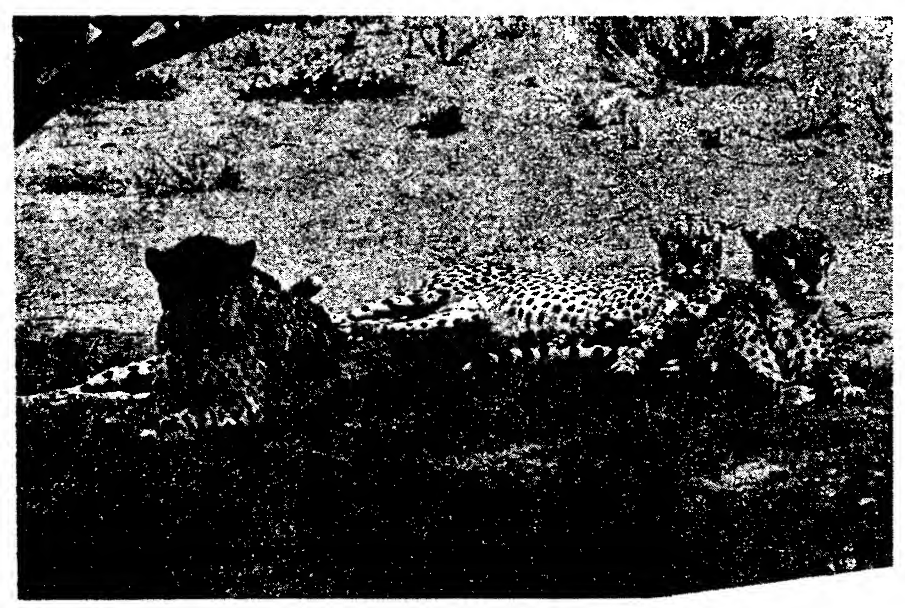
حول (سيدني) سبعة سدود تمدّها بالماء وستنشأ سدود اخرى إذ يقدّر ان عدد سكانها سيبلغ خمسة ملايين سنة الفين . الاكبر هو (سد واراجامبا WARRAGAMBA DAM) الذي أنشىء في ١٩٦٠ . يبلغ ارتفاعه ١٣٥ متراً وطوله ٣٤٥ مترا وسمكه ١٠٢ مترا . يخزن وراءه ٤٥٢٥٠٠ جالوناً تحتويها بحيرة (بوراجورانج) تحتل مساحة ٧٥ كلم٢ بين الجبال . عندما رأيت السد في ١٢/٦/١٩٧٢ قرأت على لوحة (انه ممتلىء) الى نسبة ٩٥٪ من سعته . ان المنظر رائع جدا من سطح السد الى الشلالات والبحيرة والاودية والجبال . الى هنا والى عشرات الاماكن المماثلة يخرج سكان سيدني في عطلة نهاية الاسبوع للاستمتاع بأرضهم الجميلة وكان فريقنا وحده مكوناً من اثنين وثمانين .

بين الأسود

بقرب منطقة التنزه عند السد دخلنا بسياراتنا الى مأسدة يسرح فيها ستون اسدا . كانت الأسود تمشي بين سياراتنا وتصعد عليها ونحن نلتقط لها صورا من وراء النوافذ المقفلة . انها مقسمة الى اربع مجموعات لئلا ينشب العراك بينها. عندما يمرض أسد يطلقون عليه مخدرا من مسدس يفقده الوعي مدة ربع ساعة الى ان ينتهي الطبيب من عمله .

احتلاب البقر آلياً :

في مزرعة (كامدين – CAMDEN) بجوار سيدني رأيت لأول مرة احتلاب البقر آلياً . تغطس البقرة اقدامها في ماء مطهر وهي تدخل المحلب ويغسل الحارس ضرعها ويحصر عنقها في طوق ويرش مطهرا على خراطيم الحليب ثم يركبها في حلماتها وهي تأكل منمعلف بينما تدور بها ارضيته. رأينا



في مأسدة

الحليب يصعـد بأنابيب ثم يتجمع ويجري في مواسير الى خزاناته حيث تبقى حرارته درجتين مئويتين . تقف في الدائرة المتحركة خمسون بقرة و كلمـا خرجت واحدة دخلت اخرى وتدوم مـدة الاحتلاب سبع دقائق . تحلب البقرة مرتين في اليوم ومعدل كميـة حليبها نحو اثني عشر ليترا . ويفحص يومياً حليب كل بقرة قبل السماح بدخولها . يمكن لهذا المحلب ان يحلب الفي بقرة في اليوم .

في ١٧٨٨ كان في استراليا ثوران واربع بقرات فقط فرت من حظيرتها في سيدني. بعد سبع سنوات رأى الحاكم (هنتر) في (كامدين) اربعين رأس بقر هائمة فأسرها وأصدر امرا بمنع قتل البقر الى ان تتكاثر وهكذا بدأت تربيتها في استراليا .

في « كانبرا » :

على بعد ٣٢٧ كلم من سيدني وعلى عمق ١٠٧ كلم في القارة غربي الساحل تقوم العاصمة (كانبرا – CANBERRA). عدد سكانها ١٣٠ الفاً ومساحتها ٢٣٠٠ كلم٢ : تقريباً ربع مساحة لبنـــان . ذكرتني (بأوتاوا) بحدائقها وبحيراتها وشوارعها الواسعة المظللة ومنـــازلها المنثورة على التلال وصغرها وكبرها معاً وقد خرجت عاصمـــة ريفية فخمة وأنيقة من تصميم المهندس الاميركي (جريفين – GRIFFIN) . ليس فيهـا (سيتي) تجارية بمبانٍ شاهقة ولا ازدحام سيارات ولا دخان مصانع ولا ازقة قديـــة أناخ عليها الدهر ولا حفرة واحدة في شوارعها .

البرلمان :

يتضمن مبنى البرلمـــان قاعة مجلس النواب وقاعة مجلس الشيوخ وبينهما الردهة الملكية ثم المكتبة و ٥٢٠ غرفـة . من الداخل لون مجلس الشيوخ أحمر ولون مجلس النواب أخضر كما في برلمان لندن. ويسير المجلسان الاستراليان على تقاليد اخويهما الانجليزيين. وقفت طويلاً أمام وثيقة (الشرعة الكبرى – MAGNA CARTA) التي اصدرها سنة ١٢٩٧ ادوار الاول وهي احدى ثلاث اصلية ومكتوبة باللغة اللاتينية على جـــلد حجمه ٥٠×٤١ سم . من المعروف انها اول شرعة ديمقراطية في العالم تكرس الحقوق الشخصية فتمنع الحبس ومصادرة الاملاك والنفي وأي عقاب إلا بعد(محاكمة مستقيمة عادلة). وفي مكتبة البرلمان (مخطوط كوك) عن اكتشافه استراليا .

عند صورة الملكة قرأت هذا النص : « اليزابيث الثانية بنعمة الله ملكة المملكة المتحدة واستراليا وسائر الممتلكات البريطانية ورئيسة الكومنولث وحامية الايمـان » . يمثلها في استراليا حاكم عام تنتخبه الحكومة ويقترحه رئيس الوزراء وتعينه الملكة .

مجلس الشيوخ مؤلف من ٦٠ عضواً ١٠ عن كل ولاية . مدة العضوية ست

سنين إنما كل ثلاث سنوات ينتخب نصف المجلس . ومجلس النواب مؤلف من ١٢٥ نائباً: ٤٥ عن ولاية نيوساوث ويلز و٣٤ عن فكتوريا و١٨ عن كوينزلند و١٢ عن جنوب استراليا و٩ عن غرب استراليا و٥ عن تسمانيا وواحد عن مقاطعة العاصمة وواحد عن المقاطعة الشمالية . تجري الانتخابات النيابية مرة كل ثلاثة اعوام . عدد الوزراء ٢٦ .

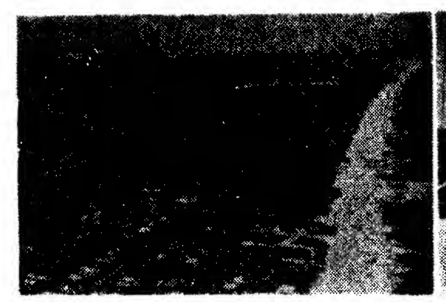
عندما يقول أحد النواب في خطابه « القاعة الأخرى » فهو يعني مجلس الشيوخ ولا يذكره باسمه . وعندما يدخل القاعة او يخرج منها يحني رأسه أمام رئيس المجلس. يمكنهم ان يثنوا على خطيب بالهتاف أما التصفيق فممنوع. عندما يغطي نائب رأسه بورقة فهذا يعني انه يطلب الكلام وكانوا يضعون قديماً القبعة العالية. بعد عشر دقائق من انتهاء الخطاب يكون امناء السر قد طبعوه وأرسلوه الى قائله لينقحه دون أن يعدل في مضمونه او أن يضيف شيئاً.

ضريح الجندي المجهول :

أمام البرلمان رأينا خيمة « السفارة الابوريجينية » ونافورات في بحيرة صناعية ثم عبرنا جسراً وسرنا في جادة عريضة جداً تنتهي عند ضريح الجندي المجهول. درج فخم يفضي الى متحف وإلى نصب محاط بالزهور يتبختر أمامه الحرس وبركة مستطيلة يلقي فيها الزائرون نقوداً معدنية وقاعة مستديرة تبدو ككنيسة تظللها قبة وتزين جدرانها لوحات زجاج ملونة رسمت عليها صور تمثل فضائل الجندية في محبة الوطن والتضحية والولاء والشجاعة والتحمل الخ .. رسمها جندي فنان اسمه « والر — WALLER » بيده اليسرى لأنه فقد يده اليمنى في فرنسا خلال حرب ١٤/١٨ . القبة كلها فسيفساء مذهبة وفي وسطها « صليب الجنوب » . يتضمن «سجل الشرف» اسماء ١٠٢,٠٠٠ جندياً استرالياً ماتوا في ساحات القتال منذ حرب السودان الى حرب كوريا بعد الحرب العالمية الثانية .

اقامت الحكومة مسلة ارتفاعها ٧٥ متراً وفي رأسها نسر تكريماً للجنود

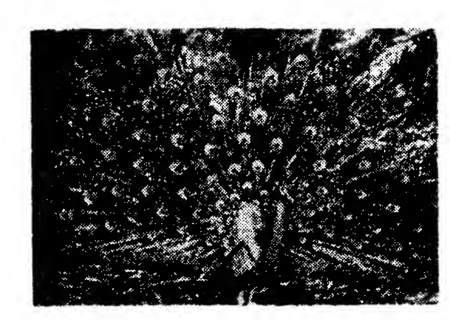
ضريح الجندي المجهول



سيرفرز بارادايز



جنة العصافير



الطاووس

الاميركيين الذين ساهموا في الدفاع عن استراليا خـلال الحرب الثانية . وفي بحيرة « جريفين » نافورة لذكرى القبطان « كوك » يرتفع ماؤها ١٢٠ متراً . وعلى نقطة من الشاطىء مجموعة من ٥٢ جرساً أهدتها الحكومة البريطانية سنة ١٩٦٣ بمناسبة مرور ٥٠ سنة على تأسيس « كانبرا » .

في جنة استراليا :

عندما يعرف الاستراليون من احد انـه سائح يسألونه اولاً هل تعجبك استراليا ولا بدّ أن يكون الجواب نعم . وثانياً هل زرت جنة عشاق البحر « سير فرز بارادايز – SURFERS PARADISE » ؟ [1] فقلت في نفسي : ان اقامتي في استراليا طويلة ، وتلك الجنة هي بدون شك فاتنة ، ورفقائي اليها لطفاء و « الرفيق قبل الطريق » فلماذا لا اقصد الجنة ولو انها على بعد اربع عشرة ساعة سفر بالسيارة من سيدني ؟

أجمـــل بقعة في استراليا هي « شاطىء الذهب – GOLD COAST » في ولاية « كوينز لاند » وعروستها بلدة « سير فرز بارادايز » جنة السياح صيفاً وخريفاً وشتاءً وربيعاً . مباني البلدة هي كلها تقريباً « اوتيلات وموتيلات » ومطاعم وبارات وملاعب ومتاجر على شاطىء هادىء شامس جاف المناخ . تزينهـا الزهور والمروج وأشجار الكافور والصنوبر وبالأخص « الاروكاريا » الانيقة . كان فندقي محاطاً بأشجار النخيل ومنها أخذ اسمه « لاس بالماس ».

لم يكتفوا بأرضهم الواسعة فأنشأوا على مصب نهر « نيرانج – NERANG » اثنتي عشرة جزيرة « من صنع يـد الانسان » عدا باقي الجزر الطبيعية وبنوا عليها بيوت أحـلام رأيناها من المركب السياحي الذي طاف بنا في « الجنة التي تجري من تحتها الأنهار » .

فيهذه الجنة تسكن أجمل عصافير استراليا داعبناها وحطت على رؤوسنا

---

(١) « السيرفير » هو الرياضي الذي يمتطي لوحاً على الماء ويجذف بمجذاف او بذراعيه .

وتناولت أكلها من أيدينا وصرعتنا بزقزقتها . ألفا عصفور بألوان بنفسجية وصفراء وخضراء وحمراء وزرقـــاء وبيضاء تعيش حرة في جنتها بضاحية « كورّمبين – CURRUMBIN » . وفيها أيضاً الكنجر والطاووس والنعام و « عالم الجنيات » حيث توجد مئات التماثيل من فخار تجسم قصصاً للأطفال وبينها سوق عربية وجامع. وبما ان الجنة فسيحة سيّروا فيها قطاراً مصغّراً يعشقه الصغار .

لكي يجذبوا السياح اقاموا على مقربة من جنة العصافير « مسرح البحر » حيث شاهدنا ألعاب القفمة والدلفين وبعض الاسماك وهي نفس الألعاب التي رأيتها في « مارينلاند » وفي « عالم البحر » في كاليفورنيا. طلب المدرب ان يتقدم العرسان الجدد لكي يطبع الدلفين قبلات على خدودهم فتقدموا بأعداد كبيرة إذ إن « سيرفرز بارادیز » هي الجنة التي يقصدها الاستراليون لقضاء شهر العسل .

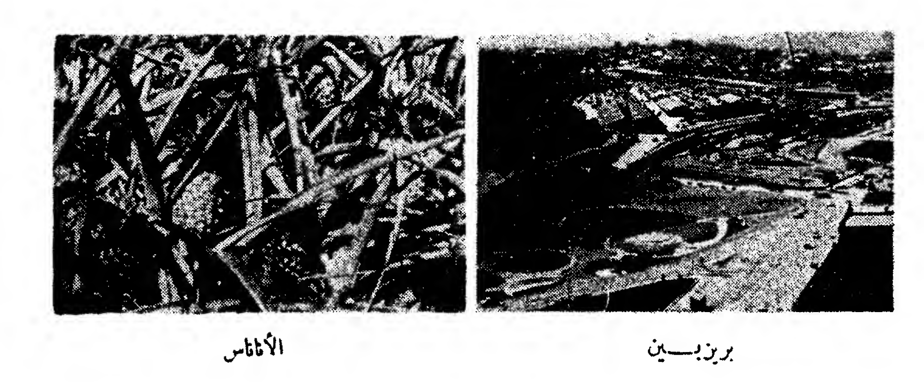
خلال الاسبوع الذي طويناه في «سيرفرز بارادیز» زرنا مدينة «بريزبين – BRISBANE » عاصمة ولاية كوينزلاند . انها ككل المدن والقرى الاسترالية منظمة نظيفة راقية متسعة. صورت في ميدانها الرئيسي مظاهرة اشترك فيها مئـــات « الهيبيز » احتجاجاً على التجارب الذرية الفرنسية في الباسيفيك . امعانـاً في النظام يرسم على طول وسط الرصيف في الـ « سيتي » خط كبير اصفر يقسم الرصيف الى اتجاهين فـلا يصطدم المارة ولا يتلاقون بوجوههم . وهنا كما في سيدني رأينا الكلاب ذاتها لا تعبر الشارع إلا عند التقاطع المخصوص الذي يعبره الانسان وتقف عند ظهور النور الاحمر فأبدينا العجب للدليل فقال لنا : هذا لأن الكلاب تتبع الناس وتتعلم منهم ولأنه توجد كلاب تقود العميان . وفي حديقة نبات وحيوان تصورنا مع الدب الاسترالي الـ «كوالا» وأخذناه بـين أيدينا وضممناه الى صدرنا وهو لا يبدي حراكاً كتمثاله الذي أضعه في سيارتي . انه يعيش على الشجر ويأكل ورقه ولا يشرب الماء .

في العودة من «بريزبين» زرنا أكبر مصنع اناناس في استراليا يدعى «جولدن سيركل – GOLDEN CIRCLE » أي الدائرة الذهبية . الصنابير في ردهة الانتظار تـنزل عصير اناناس أضافونا منه « على شبع » ! في جولتنا بالمصنع تابعنا العملية من لحظة وصول الناقـــلة التي تحمل الأناناس الى لحظة خروج العلب والزجاجات معبأة عصيراً او قطعاً . يفرغ الأناناس ويوزن ويقشر ويقطع قطعاً مستديرة توضع في العلبة ويضاف اليها عصير ويطرد منها الهواء وتعقم بمـــا فيها تعقيماً ساخناً ثم تمر بماء بارد وتنشف بالهواء وتلصق عليها ورقة العلامة التجارية للمصنع وترص في صندوق من كرتون . يتم هذا كله في ٣١ دقيقة . ينتج هذا المصنع سنوياً ٣٣ مليون زجاجة و١٤٩ مليون علبة . فيالكتيب الذي وزع علينا قرأنا ان اصل الأناناس منالباراجواي والبرازيل. ادخل الى البلدان الآسيوية في القرن السادس عشر ومن الهند الى استراليا في أواسط القرن التاسع عشر .

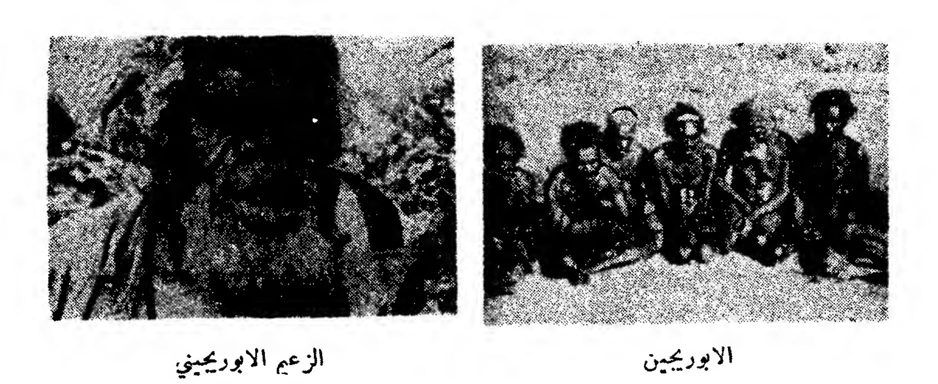
الابوريجين :

الأبوريجين هم سكان استراليا الأصليون قبلوصول الأوروبيين اليها. يوجد منهم فيسيدني ١٢ الفاً يسكنون عموماً فيحي « لابروز– LA PEROUSE ». زرتهم في ذلـــك الحي وفي « مؤسسة شؤون الأبوريجين » بشارع جورج في الـ « سيتي » وقرأت عنهم كتباً وعرفت معلومات من « المتحف الاسترالي » في سيدني. يبلغ عددهم في استراليا ١٣٠ الفاً (١ ٪ من مجموع السكان) منهم نحو ٢٦ الفاً في ولاية « نيو ساوث ويلز » والباقون هم في الشمال . عندما بدأ استعمار استراليا كانوا نحو ثلاثمائة الف مقسمين الى حوالي خمسمائة قبيلة مات منهم الكثير بسبب مطاردة ومحاربة المستعمرين والأمراض الجديدة التي حملها معـــه الجنس الأبيض والعزل الاضطراري او الاختياري ومـــا يتبعه من جوع وفقر .

الأبوريجين الخليط هم الذين اتصلوا بحضارة الرجـــل الأبيض وتطوروا



بريزبـــين — الأناناس



الابوريجين — الزعيم الابوريجيني

بشكلهم ولونهم وعقليتهم أما الأبوريجين الصرف فلا يزالون يعيشون في أماكن مقفلة معزولة وبقوا متوحشين وهم أقرب نوع إنساني الى شكل القرد وأقل جنس ذكاء بين البشر . انهم إنسان ما قبل التاريخ .. لونهم اسود فاحم وجمجمتهم ضخمة وجبينهم ضيق ويعيشون عراة مكتفين بالصيد ويجني الارض . آلة صيدهم الشهيرة هي « البوميرانج - BOOMERANG » التي تصيب الهدف حتى ٥٠ متراً وإذا لم تصبه يعود السهم فيقع أمام راميه . لم يخلـّفوا شيئاً من الحضارة فلم يعرفوا لغة بل لهجات تختلف بحسب القبائل ولا قواعد لها. لم يعرفوا الغناء ولم يخترعوا آلات موسيقية سوى قصبة بدون ثقوب تعطي صوتاً واحداً « بم بم » . لم يتعاطوا الزراعة وتدجين الحيوانات لاستخدامها ما عدا كلب « الدينجو - DINGO » الذي بقي برياً مثلهم .

لكل قبيلة زعيمها يخشاه الجميع وهو لا يرهب إلا الطبيب الساحر الذي يتمتع بقوة خارقة . آلة سحره هي العظمة التي تضم ضلوع الصدر فإذا ما أشار بها الى أحد فكأنه حكم عليه بالموت.. عندما يموت أحدهم يجففون جثته في الشمس ويطلونها بطين ابيض ويندبونه مستعينين بقطع خشبية تتدلى من حبال وتُخرج أصوات الأجداد . ان ديانتهم هي نوع من التوتمية البدائية [1].

حاولت الحكومة وبعثات إنسانية وتبشيرية ان تحضّرهم فأحرقوا المنازل ورفضوا المدارس والمستشفيات إذ لا يؤمنون بالعلم والطب ولا يفكرون بالمستقبل وبتحسين أحوالهم. ومهما قضوا من الزمن في مجتمع إنساني يسمعون يوماً « نداء الغاب » فيعودون الى حياة الفطرة ويخلعون ثيابهم ويهيمون احراراً بدون قيد يفرضه المجتمع عليهم .

أما الابوريجين الخليط فيحاولون مزاولة عمل في دنيا الرجل الابيض ويرسلون اولادهم الى المدارس . في ولاية نيو ساوث ويلز ١٦٠٨ تلاميذ

---

(١) انظر صفحة ٢٦ .

ابوريجنيين مع البيض لكنهم متأخرون في الدراسة . لا شك انه بمرور الزمن سيرتفعون الى مستوى البيض وتساعدهم في ذلك الحكومة وهيئات عديـدة منها « المجلس الاتحادي لتنمية الابوريجين » و « المجلس الابوريجيني القومي » و «مؤسسة شؤون الأبوريجين». يوجد منهم عضو في مجلس الشيوخ ويطالبون بممثلين عنهم شيوخاً ونواباً لا سيما في «المقاطعة الشمالية» حيث يشكلون ٦٢٪ من العائشين في المناطق الزراعية. منذ ١٩٧٢/١/٢٦ نصبوا خيمة أمام البرلمان في العاصمة «كانبرا» دعوها «السفارة الابوريجينية» كأنهم يقولون للحكومة : نحن كأجانب فيبلادنا نقيم هذه السفارة لتطالب بحقوقنا. ولا تقوى الحكومة على إزالة تلك السفارة ـ الخيمة ! يطـالب بعض المتعلمين منهم بتعويضات لشعبهم ارضاً أو مالاً تشبُّهاً بما ناله هنود أميركا من الحكومة الاميركية .

من السهل ان يدرك المرء لمـاذا بقوا على الفطرة فلقد كانوا قليلي العـدد محرومين من الاختلاط بأي مجتمع بشري آخر في جزيرتهم النائية . ولكن من أي أصل هم ؟ يزعم البعض انهم جنس بشري مستقل يدعى«استرالويد» لم يقدم الى استراليا من قارة اخرى بل هو من إفرازها . ويقدّر غيرهم انهم قدموا من غرب افريقيا الى جنوب شرقي آسيا فإلى استراليا .

●

٦٤

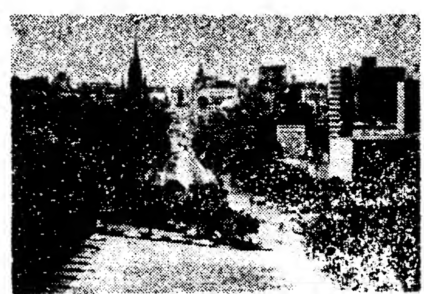
ملبورن

ملبورن المحافظة :

المسافة بين سيدني وملبورن ٧٤٠ كلم جواً . يبلغ عدد سكانها مليونين وربع مليون ويشبهونها ببوسطن وبتورنتو لأنها ارستقراطية ويقولون: سيدني اميركية وملبورن انجليزية ! مثلاً يجوز فيها بيع المشروبات الكحولية فقط من ٩ صباحاً الى ٦ مساءً . وفيها – كما في سائر مدن استراليا – محظور بيع المشروبات الكحولية أيام الأحد وعيد الميلاد والجمعة العظيمة لأنها « أيام مقدسة » وكذلك في أيام الانتخابات لأنها « أيام خطرة » ! وملبورن مدينة باردة استعملت فيها لأول مرة الفراش الكهربائي في السرير ودرجة التدفئة به عالية او متوسطة او خفيفة .

صورة عامة :

تبعد ملبورن عن البحر نحو ٢٤ كيلومتراً ويمر بها نهر «يارا – YARRA». شوارعها عريضة مشجرة نظيفة مستقيمة مقسمة الى مربعات تكاد تكون متساوية . من أشهرها «شارع كولينز» حيث تنتشر المقاهي في الهواء الطلق وجادة « سانت كيلدا » التي تنتهي في حديقة ملاهي «لونابارك» . الـ «سيتي»



ملبورن



من حدائق ملبورن

تبدو أقل فخامة ممـــا في سيدني ولكن في ملبورن حجم الأعمال أضخم والماهيات أعلى ولو أن نفقات المعيشة أقل .

مررنا بالجامعـــة وبالمستشفى الملكي وبنصب فكتوريا الذي شيد لتخليد ذكرى الذين سقطوا في الحرب العالمية الاولى وهو أشبه بمذبح ضخم يعلو قمته هرم . زرنا في إحـدى حدائقها بيتاً برجوازياً من سنة ١٨٤٠ اسمه « منزل كومو-COMOHOUSE» وهوصورة لمنازل الانجليز الأثرياء لا سيما في الريف. رأينا ميادين سباق الخيل والكلاب وملاعب لا تحصى لكرة المضرب «التنس» في شهر تشرين الثاني من كل سنة يجرى في ميدان « فلمنجتون » أكـبر سباق خيـــل على كأس ملبورن وهو يوم المهرجانات والشمبانيا والموضة والزهور والرهان كذلك فيآخر تشرين الثاني تقام بطولة فكتوريا للتنس والاستراليون أعظم لاعبي تنس في العالم. فيأحد المعارض اشغال يدوية منصنع «الابوريجين» من فخار ومن جلود الحردون والتمساح والكنغر والأفعى .

بيت « كوك » :

في حديقـــة « فيتزروي ـ FITZROY » زرنا بيت القبطان « جيمس كوك » الذي أهدته بريطانيا الى ملبورن سنة ١٩٣٤ بمناسبة الذكرى المئوية الاولى لتأسيسها . اقتلع من الريف الانجليزي وزرع هنا . من داخـله تعرف

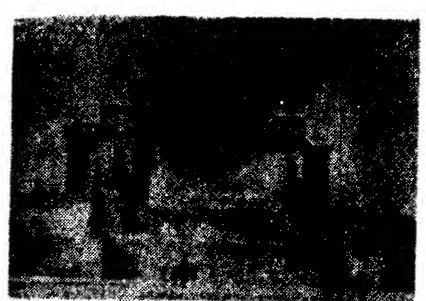
حياة هذا المسفار المكتشف الشهير . ولد سنة ١٧٢٨ في عائلة فقيرة وكان له ثمانية اخوة وأخوات . أغرم بعلوم الحساب والجغرافيا والفلك . بـدأ حياة البحر وعمره ١٥ سنة عامـلا على مركب ينقل الفحم ثم انخرط في البحرية الملكية واشترك في حصار « كيبك » بكندا . عهدت اليـه البحرية بقيادة بعثة الى البحار الجنوبية . اكتشف تاهيتي ودار حول نيوزيلاند وتعرف الى الجنوب الشرقي من استراليا التي لم يكن يدري أحد بوجودها بعد. قام برحلة حول القارة القطبية الجنوبية وبرحلة الى القطب الشمالي حيث اكتشف المضيق بين ألاسكا وسيبيريا ومر بمضيق « برينج – BERING » واضطر الى التوقف عند جبال الجليد في ألاسكا . كما اكتشف جزر هاواي حيث استقبله السكان استقبال الآلهة . إنمـا في ٤ شباط سنة ١٧٧٩ هبت عاصفة حطمت المراكب الصغيرة الراسية فابتعد « الهاوائيون » عن ذلك الشاطىء « المسحور » بعد ان سرقوا سفينته «ديسكوفيري – DISCOVYRY » . توجه اليهم « كوك » مع بعض بحارته المسلحين بالبنادق وفيما هو يفاوضهم أطلق أحد رجاله النار فقتـل زعيماً منهم فانقضّوا على كوك بالفؤوس والحراب . رُميت جثته في البحر الذي أحبـه وعاش فيه . أقيم له نصب تذكاري في هاواي في المكان الذي صُرع فيه وقـد رأيته كما ذكرت في حديثي عن هاواي [١] . بقي أن تعرف ان كوك لم يتعلم العوم لخوفه من النزول في الماء !

حيوانات غريبة :

بالقرب من ملبورن زرت حديقة الحيوانات في « هيلز فيل » وهي غابـة جمعت خصوصاً الحيوانات التي تنفرد بهـا استراليا وأولها الكنغر . ساقاه الخلفيتان أطول بكثير من الأماميين مما يسهل له العدو والقفز . قـد يصل ارتفاع قفزته الى ثلاثة أمتار وربع وطولها الى تسعة أمتار . بعد اخصاب

---

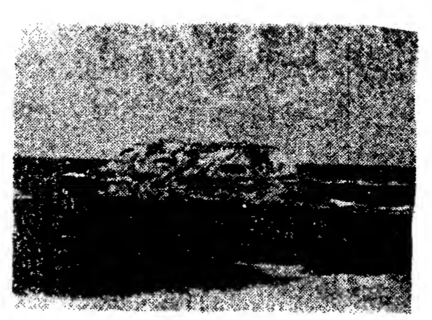
(١) انظر صفحة ٣٦٧ .



شهداء الحرب



بيت كوك



جزيرة فيليب



بالارات

الانثى يكون الجنين مثل دودة . يهجر الرحم وعمره عشرة أيام ليدخل في الجيب الذي على بطن الأم ويبقى هنـــاك ستة أشهر وهو يرضع ثم يقفز من الجيب نهائياً ليعيش حراً. والكنغر أنواع عديدة منه الأحمر والأبرش وأسود الذيل عدا نوعين يعيشان على الشجر . وهنالك سلاحف وطيور « كوكابورا» وهي تضحك بـــدل أن تغني وبغبغانات متنوعة والدب الاسترالي والغيهب وعصفور العود ويدعى هكذا من شكل جناحيه .

الى الجبل والبحر :

ذهبت في رحـلة الى الجبال شرقي ملبورن حيث رأيت سفوحاً ومروجاً من زهر أصفر يشبه « الوزّال » وحقول الفراولة وغـابات الصنوبر والشوح والسرو والكينا والكافور وبساتين التوليب الاحمر حيث ترتـدي العاملات الزي الهولندي وُترى دواليب الهواء الهولندية فيخال المرء أنـه في ضواحي امستردام . من قمة جبل « دندينونجز - DANDENONGS » يسرح النظر في خليج « ميناء فيليب » الذي هو على أطراف ملبورن وإلى سد «سيلڤان» وإلى مروج خضراء ترعى فيها ألوف الأغنام .

في يوم آخر ذهبت الى « جزيرة فيليب » على بعـد ١٣٠ كلم من ملبورن وهي مصيف الملبورنيين. كانت هادئة مهجورة في شهر تموز إنما تجملها أشجار الأرز والأروكاريا وكان بحرها كحلياً هائجاً ترتطم أمواجه بشواطىء سوداء التربة وبجزر صخرية صغيرة .

قرية بالارات التاريخية :

في ١٨٥١ هرع الباحثون عن الذهب الى بقعة « بالارات » على بعـد نحو ١٢٠ كلم من ملبورن وعندما استنفدوا ذهب المناجم هجروها سنة ١٩١٧ . انشأت الحكومة قرية تاريخية افتتحت سنة ١٩٧٠ ليرى الاستراليون كيف كان يعيش أجدادهم [١] . رأينا الحداد في معمله يُضرم النار بالمنفاخ الكبير

(١) وهكذا فعلت كندا في قرية « آبر كندا فيلاج » . انظر صفحة ١٥١ .

والخيول والبغال في الاصطبل ومطبعة قديمة ومطعماً بمقاعد خشبية ومعبداً صينياً والناعورة وطريقة صنع أواني الفخار الخ .. البيوت هي من خشب بجدرانها وبسقفها بشكل ٨ وبمساميرها وأثاثها . عندما يرى الاسترالي هذه الأمور فكأننا نرى نحن آثار قدماء المصريين فالاسترالي والكندي والأميركي مصابون « بعقدة انعدام القديم » .. إنما ما رأيناه في بيت « مونروز » هو حقاً طريف : « بريستو » من حديد ومطحنة قهوة ومكوى حديدي يفتح فتوضع في جوفه حديدة كالجمرة وسقف من قماش لاتقاء البرد ومصيدة ذباب إذ يدخل الذباب تحت قبة زجاجية ويموت في الماء وطريقة صنع الشمع وحفرة في الغرفة كانت تستعمل كثلاجة الخ .

حفر نفق في الجبل طوله ٢٤٠ متراً رأينا فيه كيف كانوا يستخرجون الذهب . في ٩ / ٦ / ١٨٥٨ عثر في « بالارات » على اكبر قطعة ذهب في العالم كان وزنها ٦٤ كيلو جراماً وكان حجمها ٥٢ × ٣٠ × ٢١ سم . وهنا كما في ألاسكا يحاول السياح استخراج بعض ذرات ذهب من مزج التربة بالماء وغربلتها وتنتهي العملية بأخذ زجاجة صغيرة تذكارية من ذهب « بالارات ». وأعطينا تذكاراً هو نسخة عمرها ١٢٠ سنة من رخصة الدخول الى « حرم المناجم » واعلان من الحاكم بجائزة مالية لِمَن يهدي رجال الأمن الى مقر فارّين من العدالة .. العالم لم يتغير كثيراً أليس كذلك ؟

•

٦٥

الهجرة والمهاجرون الى استراليا

فئات المهاجرين :

استراليا هي بلاد المستقبل[١]. خلال مئتي سنة قفزت من قارة مجهولة يقطنها بعض الوف من « الابوريجين » الى بلاد غنية ديمقراطية يسكنها ١٢ مليوناً . بين ١٩٤٥ و ١٩٦٩ هاجر اليها مليونان وأربعة وخمسون الفاً منهم ١٨٣ الفاً في سنة ١٩٦٩ وحدها . تريد ان تصل الى ٣٠ مليوناً ليتسنّى لها ان تستغل طاقاتها وثرواتها ولكي تؤمّن دفاعها خصوصاً ضد الخطر الاصفر ولكي تفي حاجاتها من رؤوس الاموال ومن الايدي العاملة والأدمغة العاملة . انها تقبل الآن سنوياً من مائة الف الى مائة وعشرين الف مهاجر لا سيما الاختصاصيين والفنيين والعمال اليدويين وهي تفضّل المهاجرين الانجليز ثم الاميركيين والاوروبيين ثم سواهم . ولكنها لا تقبل الجنس الاسود والجنس الاصفر إذ تريد ان تبقى قارة الرجل الابيض .

---

(١) انظر فصل ٢٨ للمقارنة مع المهاجرين الى كندا .

الانجليز اولاً ولكن ...

يتكلف الانجليزي المهاجر اليها ٢٠ دولاراً من الباب البريطاني الى الباب الاسترالي وإذا كان دون التاسعة عشرة فلا يتكلف شيئاً . وحالما يصل يتمتع بالحقوق السياسية ويمكنه الحصول على الجنسية الاسترالية إذا طلبها. وله وحده حق إدخال قطط وكلاب وخيول !

باقي المهاجرين –غير الانجليز– يتمتعون بالحقوق الاقتصادية كاملة وبالاعانات الاجتماعية إذا كانوا بحاجة اليها . أما الحقوق السياسية فيمارسونها عندما يكتسبون الجنسية الاسترالية بعد إقامة خمس سنين في البلاد وإذا كانوا يحسنون اللغة الانجليزية فبعد ثلاث سنوات ونصف فقط .

ان المميزات الممنوحة للانجليز لا تكفي لجذب اعداد كبيرة منهم. وقرأت مقالاً في صحيفة « الديلي تلجراف » لم تذكر كاتبته اسمها خشية ان تطرد من عملها وهي مهاجرة انجليزية تنتقد بمرارة اوضاع المهاجرين :

« يتعلم الاولاد في مدارس هي كأكواخ من خشب خالية من تسهيلات المعيشة الموجودة في بريطانيا. ومستوى التعليم متأخر سنتين عنه في بريطانيا.

« شواطىء استراليا حافلة بسمك القرش .

« في بريطانيا التطبيب هو مجاني وفي استراليا هو غالٍ جداً .

« في بريطانيا المرأة تشتغل أقل مما في استراليا ويمكن لرب الاسرة ان يعول اسرته دون ان تشتغل زوجته أما في استراليا فلا .

« هجرتُ بريطانيا لأن اموراً كثيرة لا تعجبني فيها ولكن هنا ما لا يعجبني اكثر .

« لا يبقى في استراليا من الانجليز إلا البائسون ! » .

أترى هذه الكاتبة لا تُغالي فمن المعروف ان مستوى المعيشة في استراليا ارقى منه في انجلترا . وهل ستظل الأمور على هذه الحال ؟ وهل تنطبق المقارنة على المهاجرين من الشرق الاوسط ؟

لا السود ولا الصفر :

وقرأت في صحيفة « الاستراليان » آراءً ساخرة اشترك في كتابتها بعض مشجعي فتح الهجرة للسود وللصفر . ومما كتبوا :

« من يقول ان تعدد الأجناس يؤدي الى الصراع – كما هي الحال في اميركا وفي جنوب افريقيا – فهو كمن يعتبر انه على المرء ان لا يستحم بمزيج من الماء البارد والساخن فقد يحترق بالساخن وحده وقد يجلّد بالبارد وحده! ولكن لماذا لا يمزجها بالنسبة المطلوبة فينعم بحمام لذيذ ؟ يمكننا التحكم في قبول المهاجرين وخلق جو اجتماعي وتربوي ملائم لانسجامهم .

« لقد كسبت اميركا من تعدد الأجناس المهاجرة اليها فلماذا نخشى نحن ؟ تعايش أجناس متعددة يدعو الى الانفتاح والمحبّة والكفاح . الأنه ينشب احياناً خلاف في استراليا بين الكاثوليك والبروتسطنت أو بين السلت والسكسون أو بين البريطانيين والاوروبيين نتوصل الى القول : لنقبل فقط البريطانيين السكسونيين البروتسطنت ؟ وإذا لم ننسَ الحرب الدائمة بين الرجل والمرأة أنخلص الى القول : لنقصر الهجرة على الرجال أو على النساء ؟ ألسنا حقاً بلاداً عنصرية ؟ » ...

مهاجرونا الجدد ومصاعبهم :

ان المهاجرين القدماء – كما هي حال أمثالهم في الولايات المتحدة وكندا والبرازيل والأرجنتين – هم ميسورو الحال سعداء في وطنهم الجديد . أما المهاجرون الجدد فقليلون ويزيد في تعبهم وقلقهم تسرعهم للاستمتاع بالرفاهية والاطمئنان . ومـا سأذكره عن أحوالهم سمعته منهم خلال زيارتي الاولى لاستراليا إذ كانوا جدداً فيها ولم اسمعه في زيارتي الثانية إذ رأيتهم سعداء .

« المعيشة غالية جداً فلا يكفي المرتب الى آخر الشهر » .

– من المفروض ان يشتغل اثنان من البيت كما تفعل العائلات الاسترالية .

« الأدوية غالية ولا تباع إلا بحسب أمر الطبيب » .

– هذا تدبير سليم وليست أغلى من باقي المشتروات .

« الطب غالٍ جداً فإذا مرض أحد يخرب البيت » .

– يمكن بل يجب الدخول في التأمينات الصحية لخير الأسرة ولمصلحة الشعب العامة .

« الاجار يستهلك ٤٠٪ من الماهية فيجب شراء بيت ولكن المبلغ الاجمالي غير متوفر وإذا دفع بالتقسيط فهناك عقبتان : يجب دفع مبلغ أساسي نحو الفي دولار ثم يمتد التقسيط الى ١٥ سنة أو أكثر فيتضاعف الثمن بسبب الفوائد » .

– ولكن في البلاد الاولى ربما كان من الصعب بل من المستحيل التوصل الى شراء بيت صغير طوال الحياة ! وكيف يتوصل كل المهاجرين تقريباً الى شراء منزل ! والشراء لا يرهق لأن الاستملاك يتم بدفع الاجار الشهري فبعد ١٥ سنة بدل ان تكون مبالغ الاجار قد ضاعت تكون قد استملكت . وما هي ١٥ سنة في الحياة ؟ ...

« المدينة واسعة جداً فيضيع الوقت في المواصلات ولا يمكن شراء سيارة في البدء » .

– ولكن غالبهم كانوا عاجزين عن اقتناء سيارة في بلادهم الاولى ولم تكن ماهيتهم تسمح لهم بأن يأملوا شراء سيارة طول عمرهم . وكلهم بعد فترة وجيزة يشترون سيارة .

« انهم بعيدون عن بعضهم ولا يلتقون إلا نادراً » .

– هذا أمر متعلق بهم عدا انه يضطرهم الى الامتزاج بغيرهم في المجتمع الاسترالي .

« استراليا نائية في آخر الدنيا وهم بعيدون جداً عن أهلهم » .

– ولكن كل نقطة على الكرة الأرضية هي في آخر الدنيا نسبياً ! والمسافات تقترب بين الاقطار . وليست استراليا جزيرة ضيقة كسجن

يختنقون فيها بل هي قارة جميلة مطمئنة يحلو العيش فيها . وعلى الانسان — والمهاجر قبـل غيره — ان يتطلع دوماً الى الأمام وان يعيش بعقله أكثر مما بعاطفته .

« يمكن فصل الموظف والعامل في أي وقت » .

— هكذا قوانين العمل في البلدان المتقدمة. وسوق العمل واسعة متنوعة. وهل الأفضل الارتباط بعمل واحد طول العمر إذا تُرك لا يجد المرء غيره ؟ وهل إلزام صاحب العمل بالاحتفاظ بالعامل الى ما لا نهاية حتى ولو كان خاملاً ومهملاً وجاهلاً وغير ضروري هو مبدأ قانوني واقتصادي سليم ؟. وفي فترة التعطل تمنح الحكومة اعانة .

« غالب المهاجرين ثقافتهم فرنسية ولا يعرف الاستراليون الانجليزية » .

— يسقط حاجز اللغة بعـد أشهر معدودة وعلى المهاجرين ان يجتهدوا في اتقان الانجليزية لوجود عمل يناسبهم وللاختلاط بمجتمعهم الجديد .

« مهاجرونا متدينون ذوو مبادىء اخلاقية محافظة فيصطدمون بمجتمع متحرر » .

— هذا في نظرهم لأنهم قادمون من بلدان تختلف مقاييس الاخلاق فيها . ومع مرور الزمن ستتكيف عقلياتهم وتتأقلم في الوطن الجديد وسيدركون ان الصدق في المعاملة وعدم الغش في التجارة واتقان العمل وعدم انتقاد الناس وعـدم التدخل في شؤون الغير والتقيد بالنظـام وتقدير النظافة واحترام المواعيد هي قواعد اخلاقية متبعة في استراليا وهي أهم من السلوك الشخصي إذ يعتبرون ان كل انسان حر في حياته الخاصة .

الشغل الممنوع :

شغل واحد ممنوع على المهاجرين وهو : تنظيف بيوت الخلاء ! في احياء كثيرة بيت الخلاء منفصل عن المنزل وقابع في ركن الجنينة فعلى المرء ان

يخرج في المطر والبرد والظلام ! لا يجوز للمهاجرين ان يقوموا بهـــذا العمل لسببين : الاول لأنه محفوظ للاستراليين المحاربين القدمـــاء لا سيما إذا كانوا مشوهين بعاهة . والثاني لأن أجره عالٍ جداً !!

الجيل الضائع :

في ابحاث الهجرة يوجد مـا يدعى « الجيل الضائع » الفدائي وعليه ان يقبل بتضحيات لمستقبل الأبناء والأحفاد . ومما يشجعه على ذلك المقارنة بين (ما كان) و (ما سيكون) متناسياً قليلاً (ما هو) في الوقت الحاضر . يقول غالب المهاجرين انهم هاجروا من أجـل ابنائهم . إذن فليصبروا قليلاً سنوات لا تتعدى الخمس وليحدثوا تغييراً جـذرياً في نفوسهم وليضعوا أمام اعينهم ان مستوى الحياة راقٍ في المهجر فلا بد من الكفاح للصعود ...

الاعانات الحكومية :

تمنح الحكومة بعض إعانات تزيد مبالغها بمرور السنين وذلك للمتعطلين عن العمل ولرب الأسرة بحسب عـدد اولاده الذين تحت سن السادسة عشرة. كما تمنح معاشات للعـاجزين عن الشغل مهما كانت سنـّهم وللرجال بعد سن ٦٥ وللنساء بعد سن ٦٠ وللأرملة وللأيتام . وتدفع حتى نفقات المأتم للعاجز وللفقير .

التعليم مجاني في المرحلتين الابتدائية والثانوية وهو إلزامي حتى سن ١٥ . ينقل الطالب بالسيارة مجاناً إذا كان البيت يبعد عن المدرسة اكثر من ميلين أما إذا كان اقرب من ميلين فيدفع الطالب مبلغاً زهيدا . وإذا تعلـّم الولد في مدارس خاصة بمصروفات تخصم الحكومة مقابل ذلك من الضرائب المقررة على ولي أمره . في المدارس يُعطى لكل تلميذ ربع لتر حليب مجاناً باليوم . توجد منح دراسية كثيرة ودروس مسائية بأجور مخفضة فعلى سبيل المثال يدرس في الـ (تكنيكال كوليج) في سيدني الوف الذين لم يُتح لهم ان يدخلوا الجامعات فيشتغلون ويتعلمون .

استراليا ام كندا :

إذا ما قارنت بين استراليا و كندا رأيت ان الهجرة الى كندا اكثر اغراء وجاذبية والذين قصدوها مؤخراً من مصر هم أضعاف اضعاف الذين قصدوا استراليا . ففي كندا ـ وبالأخص في مونتريال ـ الثقافة فرنسية كثقافة غالبية مهاجرينا . والأقارب والأصدقاء كثيرون . والماهيات عالية مما يُعجّل بالرفاهية والادخار . و كندا اقل بعداً من استراليا النائية . مع كل ذلك يبدو لي ان استراليا بلاد المستقبل اكثر من كندا فالمناخ فيها أفضل وفرص العمل متوفرة اكثر واراضيها الزراعية لا تحد وإمكاناتها المعدنية والصناعية ضخمة وتجارتها الداخلية والخارجية متقدمة . إذا سُئلت : ما الأفضل للهجرة اميركا أم كندا أم استراليا ؟ أجبت : لكل مهاجر ظروفه الخاصة والبلدان الثلاثة تكاد تتساوى .

افضل المهاجرين الجدد هم المصريون :

اطلعني اخواني المهاجرون من مصر على مقال نشر في جريدة (يوم المرأة ـ WOMANSDAY) بتاريخ ١٩٧١/٦/٢١ بقلم الصحفيّة (ماريان براتوريوس) استخلصته من تقارير موظفي الهجرة ومن اختلاطها بالمهاجرين. العنوان هو : من هم أفضل المهاجرين الجدد الى استراليا ؟ وجوابها : هم المصريون لأنهم يدفعون اجور سفرهم فلا يكلفون الدولة شيئاً ، ويسكنون في احياء الاستراليين فلا يشكلون فئة مقفلة ، ويتأقلمون بسرعة ويندمج اولادهم مع الاستراليين في المدارس ، ولا يتطلعون الى الوراء من حيث قدموا ، ويعيشون بسلام فلا يسببون مشاكل للبوليس ولا تعرفهم المحاكم ، ويعرفون أكثر من لغة واحدة [١] ، وكلهم مثقفون و كثيرون منهم مؤهلون وفنيون ،

---

(١) ابناء المهاجرين يعرفون العربية والفرنسية والانجليزية فيعتبرهم المدرسون نوابغ ويقدمونهم الى زوار واصدقاء المدرسة .

وكلهم يشتغلون وبالوقت نفسه يتابع بعضهم دروساً عالية ليتقدموا... هكذا شهدت واحدة منهم . وهكذا يشهدون في كندا أيضاً ...

أول المهاجرين هم اللبنانيون – منذ ٢٧٠٠ سنة :

أعطاني اخواني اللبنانيون عـــدد تموز ١٩٧٠ من مجلة (ووكاباوت – WALKABOUT) الاسترالية وقرأت في الصفحة الرابعة مقالاً عنوانه : (كنوز في البحر) . يعيش (آلن روبنسون) من اصطياد كنوز في قاع البحر بشواطىء استراليا حتى بلغت قيمة ما استخرجه نحو ٥٠ مليون دولار استرالي . حسب القانون هذه الكنوز هي ملك الدولة فتأخذها منه وتعطيه مكافآت . في شهر شباط ١٩٦٩ انتشل سفينة طولهـا ٥٠ متراً وعرضها ٦ أمتار قال عنها علماء جامعة سيدني وأيّدهم بعدئذٍ علماء جامعة نيويورك انها سفينة فينيقية ترتقي هي والمعدن الذي فيها الى الفترة بـين سنة ٥٠٠ وسنة ٧٠٠ قبل المسيح . ويختم الكاتب بهـذا السؤال : أليس الفينيقيون هم الذين اكتشفوا استراليا ؟ ماذا تشعر يا أخي اللبناني وأنت تقرأ هذا ؟ أمـــا أنا فترجمت المقال ثم أقفلت المجلة وأطلقت لخيالي العنان علّني أهتدي الىمعرفة الطريق الذي اتبعته تلك السفينة فلم اهتدِ . كما اني لم اهتدِ الى جواب على تساؤلي : لماذا تتأخر شعوب كانت في الطليعة ؟

نصائح عملية :

يا أخي المهاجر لا تنس أن تأخذ معك شهادات عـن حسن سلوكك وحالتك الاجتماعية والدينية وخبرتك والاشغال التي قمت بهـــا والشهادات التعليمية التي نلتها وأدوات حرفتك وملابس صيفية كثيرة وشتوية قليلة . ورخصة قيادة السيارات ولو انك ستخضع لامتحان صارم لأن السير الى الشمال . لا تأخذ معك حيواناً ولا لحماً ولو معلباً ولا منتوج حيوان ولا أي نبات. لا تلف امتعتك بكرتون او ورق او خشب مسّت خضراً او فاكهة. جلب العفار والتراب ممنوع فتُطهَّر في الحجر الصحي الأدوات والسيارات

والملابس .. لا تريد استراليا استيراد (ميكروبات) ! فمثلاً الجدري والحمّى الصفراء والتيفوس غير معروفة فيها . حال وصولك صوّر صدرك بالأشعة وقيّد اسمك في مكتب العمل واشترك في نشرة (الجار الطيّب ـ THE GOOD NEIGHBOUR) التي تصدرها الحكومة خصيصاً لك . كن على اطلاع باللغة الانجليزية حتى لا تكون (مثل الأطرش في الزفّة) .

إذهب (خفيفاً نظيفاً) واتكل على الله وعلى ذاتك وعلى موظفي مكتب الهجرة الذين سيستقبلونك بالترحاب . لا تفكر بالعودة فالإنسان الحكيم لا يتطلع الى الوراء .. ان تذكرة السفر غالية والبحر أمامك ووراءك وعن يمينك وعن يسارك ولا حول ولا قوة إلا بالله !

طباع الشعب الاسترالي :

طباع الشعب الاسترالي وصفاته مزيج من الانجليزي والأميركي. أجسامهم طويلة ممتلئة تفيض بالصحة والقوة ويغلب فيهم اللون الأشقر . ثيابهم أنيقة. المرأة تهتم جداً بمظهرها وبتسريحات شعرها . يحبون الرياضة بكل أنواعها والحياة في الهواء الطلق . يساعدهم على ذلك المناخ المعتدل وأيام الصحو الكثيرة حتى انهم يأخذون من وقت عملهم للرياضة ويميلون قليلاً الى الكسل والراحة وحين كنت في سيدني أعلنت فئات الاضراب المطالبة بخمس وثلاثين ساعة عمل في الاسبوع بدل اربعين. ويحبون ألعاب القمار في الرهان والسباق وخصوصاً في الـ (بوكر ماشين) المنتشرة جداً . وفي سيدني وحدها أربعة ميادين لسباق الخيل عدا سباق الكلاب (جرايهاوند) .

٦٠ ٪ منهم تحت سن الثلاثين فهم شعب فتي وهم مرحون يحبون الحياة ويصرفون ببذخ . في استراليا أقل نسبة بالعالم من المستأجرين لأن معظم السكان يملكون بيوتهم . الغِنى المفرط والفقر المدقع لا وجود لهما فالأوضاع هي عملياً اشتراكية والحكومة هي فعلاً في خدمة الشعب . معدل الدخل الفردي نحو ٣٠٠٠ دولار استرالي بالسنة . طبعهم منفتح ليّن وهم طيّبو

القلب والنية لطفاء مع الضيف ومع الغريب [1] . يحبون الشعارات الرنانـة والعموميات . أليسوا في كل هـذا مثل الاميركيين ؟ انهم يتجهون الآن الى اميركا اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً . في ولاية نيو ساوث ويلز وحدهـا يوجد ١٦٩ فرعاً لشركات اميركية و٤٣٩ شركة اميركية أخرى تمنح تسهيلات في تعاملها معهم .

يعشق الاسترالي الحرية بكل أنواعها وهو حساس جداً لحقوقه الشخصية والنقابية ولذلك كثيراً ما تقوم صعوبات وتنشب خلافات بين العمال وأرباب العمل ويعلن العمال اضرابات تمتد أشهراً . قيمة الفرد عنـدهم في شخصيته وليس في نسبه وجنسه. إذا ركب سائح تاكسي فلا يجلس في المقعد الخلفي بل الى شمال السائق ليظهر بذلك احترامه ولكي يسمع حديثه فهو لا يطيق ان يبقى صامتاً ولو انه يبدأ دوماً حديثه بعبارة . يوم جميل أليس كذلك ؟

انهم منأكثر شعوب الأرض اكلاً للحوم إذ يبلغ ما تستهلكه كل (معدة) سنوياً ١٦٠ كيلوجراماً أي ما يقرب من نصف كيلو باليوم وكذلك يكثرون من أكل السمك ومن تعاطي الشرب وبالعموم هم شعب أكول شريب . انهم مغرمون بالبيرة فلدى الخروج من العمل بين ٢/١ ٤ و ٢/١ ٥ مساء يشربونهـا يومياً في البارات(PUB) . وقال لي احد المهاجرين ان استرالياً قضى عنده نصف يوم شرب فيه ثلاث عشرة زجاجة بيرة كبيرة ! وعقب صديقي بهذا الحادث الطريف : وصل لبناني الى جمرك سيدني ومعه اربع زجاجات عرق. قال له الموظف يمكنك ان تدخل باثنتين فقط دون دفع رسم جمركي فللحال شرب الثالثة والرابعة . فقال له الموظف : ستصبح استرالياً عظيماً ! لا بد ان هذا اللبناني كان من زحلة فالزحلاويون كثيرون في استراليا .

---

(١) قالت لي إحدى مهاجراتنا انها رأت في محل بقالة اكثر من ستين نوعاً من الجبن ولاحظ صاحب المحل حيرتها فقطع لهـا « عينة » صغيرة من كل نوع لفها بورقة وكتب عليها اسم صنف الجبنة وقال : ذوقيها في بيتك وعودي لشراء ما يروق لك .

انهم يحبون جـــداً الأطفال ويهتمون بهم وتخصص لهم الحكومة مراكز ومستشفيات وملاهي وإعانات . نسبة الولادة ٢١ بالألف وهي نسبة عالية . حسب احصاء سنة ١٩٥٩ من كل الف مولود في بريطانيا كان يموت ٢٣,١ وفي الولايات المتحدة ٢٦,٦٥ وفي استراليا ٢٢,٦٥ وانخفضت النسبة فيها الى ١٩,٩ سنة ١٩٦٣ انها من الدول التي تمتـاز بأطول نسبة أعمار وبأقل نسبة وفيات .

يحب الاستراليون الحيوانات ويدللونها ويصرفون مئات الملايين سنوياً على القطط والكلاب لغذائها وتطبيبها ولبسها وقص شعرها وقد يُقاضى ويُسجن المُسيء اليها ... ولا بد ان القطط والكلاب ناقمة على اليونانيين واللبنانيين لأنهم علـّموا الاستراليين أكل الرأس والمخ والمعـدة والامعاء بعد ان كانوا يأنفون منها .

ماذا لم يعجبني في استراليا ؟

في المطار قبل ان أركب الطائرة الى « تاهيتي » جلس معي موظف من مصلحة السياحة والهجرة وطلب إليّ الإجـابة على نحو عشرين سؤالاً وذلك للاحصاءات ولتنوير المسؤولين. من بين الأسئلة : ما هي الأمور التي اعجبتك في استراليا ؟ فأفضت في الشرح لأنني معجب باستراليا... ثم قلت له: ولكن لماذا لا يوجد سؤال ما هي الامور التي لم تعجبك في استراليا ؟ فالجواب عليه يفيدكم أكثر . وكتبت من تلقاء نفسي : شيء واحـد لم يعجبني في استراليا وهو ان غمر البيوت صغيرة وغـــير وأضحة فضحك وانطلقتُ مع مودّعيّ بضحك غطينا به دمعة وحسرة الفراق ...

●

٦٦

نيوزيلاند

نبذة جغرافيّة وتاريخيّة عن نيوزيلاندا

مرح ورقّة :

بين « سيدني » و « ولنجستون » كانت الشمس تسطع فوق المحيط الهادىء وكأنّ المرح يشيع في الجو الخارجي كما يملأ جوّ نفسي وأنا ذاهب الى « آخر الدنيا » الى أبعد بـــلاد مأهولة في نصف الكرة الجنوبي . قدّمنا ساعاتنا ساعتين لأننا متجهون نحو الشرق وكنا فقط ١٢ مسافراً فأحاطتنا المضيفات النيوزيلنديات باهتمام والتفات طوال الرحلة التي دامت أربع ساعات . يتميّزن بالرقة والنعومة والصفاء المكتسبة من بلادهنّ .

من أي جنس أنا اللبناني :

في استمارة الأمن العـام التى وزعت علينا قرأت : « من اي جنس بشري انت : ماوري ؟ هندي ؟ أوروبي ؟ اندو — اوروبي ؟ » انه سؤال أطرحه على نفسي منذ أزمان ولا أجد الجواب المقنع . فمن أي جنس هم اللبنانيون؟ لا بد انهم خليط من عدة أجناس ولكن ليس الآن مجال هذا البحث التاريخي والانثربولوجي فالمضيفة تنتظر لتأخذ مني الاستمارة :

أنا — ماذا أكتب ؟
هي — من أين أنت ؟
أنا — من لبنان
هي — أين لبنان ؟
أنا — في أقصى غرب آسيا على البحر المتوسط .
هي — اكتب : اندو — اوروبي .

كتبت اندو — أوروبي وأمري لله لكن علامـــة الاستفهام لم تمح من رأسي ...

حجاب تيكي :

وَزّعت علينا المضيفة « حجاباً ماورياً » ليجلب السعد وليُبعد النحس اسمه « تيكي — TIKI » وهو بشكل وجه إنسان من حجر أخضر . وضعته في محفظتي بشير خيرٍ في هـــذه البلاد النائية التي لا أعرف فيها إلاّ عائلة واحدة هاجرت إليها من مصر ولا أظن انني سأزور نيوزيلاند مرة واحـدة « زوروني بالعمر مرة ! » .

« حدثني عن نيوزيلاند » :

شغلت معظم وقتي بمطالعة كتيّب اسمه « حدثني عن نيوزيلاند » . كان اسمها القـديم « اوتيارا — AOTEAROA » ومعناه « أرض السحابة البيضاء الـكبيرة » . سنة ١٦٤٢ اكتشفها بحـارة هولنديون ولم يسكنوها وسمّوها « نيوزيلاند اي بلاد زي الجديدة » نقلاً عن بقعة تحمل مثل هذا الاسم في هولندا . حسب اسطورة عريقة ضائعة في غياهب الزمن كانت أسرة مكونة من خمسة أخوة اصطادوا سمكة ضخمة وقصد أحدهم الـكاهن ليأتي به كي يجزّئها عليهم الى خمسة أقسام متساوية . في غيابه أخذ اخوته يضربون السمكة ليقطعوها فتمدّدت وطفرت من المركب وكوّنت الجزيرة الشمالية بآكامها وأوديتها وكوّن القارب الجزيرة الجنوبية ! ..

صورة جغرافية :

نيوزيلاند جزيرتان الشمالية والجنوبية يفصل بينهما « مضيق كوك » . هذا عدا جزر صغيرة منها مجموعة « شتهام » التي تبعد ٨٠٠ كم الى شرق الجزيرتين الرئيسيتين . تبعد نيوزيلاند نحو ٢٠٠٠كم الى جنوب شرقي استراليا وتقع تقريباً في نصف المسافة بين القطب الجنوبي وخط الاستواء بين خطيّ العرض ٣٣ و ٤٧ . مساحتها ٢٦٧٨٣٧ كم٢ وعدد سكانها مليونان ونصف.

تلقّب نيوزيلاند بِ « انجلترا جنوب الباسيفيك » اذ ان مساحتها تقارب مساحة انجلترا ، وطبيعة أرضها تشبهها وثلثي تجارتها الخارجية معها و ٩٠ ٪ من سكانها انجليز (و ٧ ٪ ماوري و ٣ ٪ من غير أجناس) . معظم سكانها بروتسطنت وأقلية كاثوليكية وبعض اليهود . مناخها معتدل ورطب يميل الى البرد والمطر . الشهر الأشدُّ حرارة هو شباط اذ تبلغ الدرجة العظمى ٣٣ درجة مئوية والصغرى ١٦ درجة مئوية . الشهر الأشدّ برداً هو تموز اذ تبلغ العظمى ١٤ والصغرى ٨ .

في الجزيرة الشمالية منطقة البراكين والمياه الساخنة والتلال ومئات البحيرات وفي الجنوبية الأودية العميقة والجبال الشاهقة الى ٣٧٦٤ متراً وعلى قممها ثلاجات طبيعية طوال أشهر عديدة من السنة وعلى سفوحها غابات . أهم مدنها في الجزيرة الشمالية « ولنجستون » العاصمة (١/٤ مليون) و « اوكلاند » (١/٢ مليون) . وفي الجزيرة الجنوبية مدينة « كريستتشيرتش اي كنيسة المسيح » (٢٠٠ ألف) و « دندين » (١٠٠ ألف) .

أهم منتجاتها من تربية القطعان وفيها ملايين من الغنم والبقر . وهي في العالم الاولى بتصدير الجبن والثانية بتصدير اللحم واللبن والرابعة بتصدير الصوف . تصدّر الخشب وتزرع التفاح والقمح والذرة والشعير والبطاطس والبرتقال والاجاص ... فيها قليل من مناجم الذهب والفضة والتنجستين والفحم الحجري . ليس فيها حديد ولا بترول .

لفتة تاريخية :

عرف بوجودها البولينيزيون في القرن العاشر الميلادي ولكن لم يسكنوها إلاّ في القرن الثالث عشر . في ١٧٦٠ احتلـّها « كوك » باسم الملك جورج الثالث ولكن بريطانيا لم تهتمّ بها ولم يذهب إليها سوى بعض التجار والمبشرين. كانت تخضع لحاكم استراليا وفي ١٨٤٠ هدّدت فرنسا باحتلالها فاستقر فيها حاكم بريطاني وأعلن سيادة بريطانيا الـكاملة عليها .

بين ١٨٥٠ و ١٨٧٦ نشبت منازعات بين الإنجليز والماوريين . في ١٨٧٦ اعتـُرف لهؤلاء بالجنسية البريطانية وخصصت لهـم بعض مقاعد في مجلس النواب . في ١٨٩٣ أعطي المرأة الحق في أن تـَنتخِب . في ١٩٠٧ أعلنت « دومينيون » وفيما بعد صارت عضوًا في الكومنولث . لها حاكم عام باسم التاج البريطاني الى الآن . في الحرب العالمية الأولى اشترك منها مائة ألف في القتال . في ايار سنة ١٩٤٢ انقذها الجنرال ماك ارثر من خطر الغزو الياباني ودخلت بعدئذٍ في حلف جنوب شرق آسيا .

جنّة العمال :

دُعيت نيوزيلاند « جنّة العمال » وطبّقت اشتراكية حقيقية عملية بدون نظريات ومذاهب وسبقت العالمين الاوروبي والاميركي في هـذا المضمار . حكمها رئيس وزراء شهير اسمه « ريتشارد سدّون ـ RICHARD SEDDON » من١٨٩٠ الى١٩٠٣ وفي عهده أدخل تشريع حماية العمّال والتفتيش الحكومي على مسار العمل لصالحهم والراحة الأسبوعية وأقصى حد ٤٨ ساعة عمـل في الاسبوع انخفضت فيما بعد الى ٤٠ وإلزام التحكيم قبل الدعاوى وحق الإضراب لكن ليس بعـد صدور الحكم ، وخصّص معاشاً للمسنـّين من بعـد ٦٥ سنة وأقرّ حق المرأة بأن تـُنتـَخـَب وإلغاء إقطاعية الأراضي وتوزيع الاراضي على العاطلين عن العمـل والتسليف الزراعي وقوانين ضد دخول الصينيين وغـير المرغوب فيهم مثل ضعاف العقول والمرضى والمحكوم عليهم بسبب ارتكابهم

جرائم . في الوقت الحاضر نيوزيلاند مهتمّة بحماية نفسها من خطر « الجنس الاصفر » ومثل شقيقتها الكبرى استراليا تريد ان تبقى بلاد الرجل الأبيض او بالأحرى الأشقر .

هل معك أحذية ؟ :

رأى كشاف الجمرك ان معي فقط حقيبة يدي فسألني سؤالاً واحداً : هل معك أحذية ؟ أجبت كلا ما عدا الذي في قدميّ. انهم يعقّمون الاحذية فربما علقت بهـا « مكروبات » أجنبية تنتقل الى العشب ومنه الى المواشي فتحدث كارثة للبـلاد سببها « مكروب ميكروسكوبي »! استلمت بطاقة صفراء قرأت فيها : اذا احسست خـلال اسبوعين أو ثلاثة من وصولك الى نيوزيلانه بأعراض مرضية مثل ارتفاع الحرارة او ارتعاش او حكاك او فقدان الشهيـة او الإسهال او انحطاط فاتصل بطبيب وقل له انك قادم جديداً الى نيوزيلاند . لم يزعجني هذا الإنذار فحتى الآن ألحظ حليفي في كل الاقطار التي زرتها ومعي حجاب الـ « تيكي » الحامي من النحس والجالب السعد !

٦٧

ولنجتون

أرقام والوان :

عـدد سكان العاصمة « ولنجتون – WELLINGTON » ٢٥٠ الفـاً . مساحتها ٧٢ كلم مربع . طول شبكة شوارعها ٤٥٠ كلم . من ٨٧٦٠ ساعة في السنة تشرق عليها الشمس ٢٠٠٠ ساعة . يهمني أكثر من هذه الاحصائيات انـني وصلت اليها في احسن وقت للسياحة طقساً وطبيعةً إذ ان الزهرة « القومية » الصفراء التي تشبه الوزّال كانت تضفي عليها جمالاً ساحراً . اسم هذه الزهرة « كوهاي – KOWHAI » تتفتح في ايلول وتبقى الى كانون الاول وهم يتغنون بها وينظمون لها القصائد .

السكان طوال القامـة نحاف البنية بيض البشرة شعرهم أشقر وخدودهم مورّدة وهندامهم أنيق وصغارهم كالعرائس شكلاً ودلالاً . يكفي أن يرفع صغيران علماً ليقف السير ويمرّ زملاؤهما فحتى « عسكري المرور هو تحت أمرهما » ! سنة ١٨٢٦ كتب القبطان « هيرد – HERD » عن ولنجتون : «هنا يمكن أن تتجمع كل سفن اوروبا ثم تُبحر بأمان» . سنة ١٨٤٠ أنزلت فيها الشركة النيوزيلندية – البريطانية أول حامية ودعتها «مدينة ولنجتون»

لأن هـــذا القائد الشهير — قاهر نابليون في معركة « واترلو » — سند تلك الشركة وحماها . تطاولوا على البحر وردموا منـــه مسافات واسعة للبناء والميناء . والمطار نفسه — واسمه « رونجوتاي » من اسم قبيلة قديمة — قـام على ردم ٣٤٤ الف متر مربـع من البحر .

زرت جامعـة فكتوريا ونافورة الذكرى المئوية ومقر الحكومة الذي هو أكبر بناية خشبية في العـالم ومكتبة غنيّة عن الباسيفيك وساعة زهور في نهاية شارع « كوبا » ، وسوقاً في الهواء الطلق في شارع « توري » .

طيور لا تطير :

يحتوي متحف «الدومينيون» على معروضات عن تاريخ وحياة الماوريين وعلى مجموعة نادرة من طيور نيوزيلند اغربها عصفور الـ « كيوي ـ KIWI » منقاره معقوف وجناحاه صغيران جداً فلا يقوى على الطيران وهو لا يخرج إلا في الليل ويهرب من أي صوت ... وعصفور الـ « ويكا ـ WEKA » وهو اصغر من الـ « كيوي » ولا يطير . وزحّافـة « تواتارا ـ TUATARA » وهي الحيوان الوحيد العائش حتى الآن من عصر الديناصور .

نظرة من القمة :

على قمة ربوة فكتوريا منتزه سوره مبني بحجر جسر واترلو الذي افتتحه ولنجتون في لندن سنة ١٨١٧ . هدم سنة ١٩٣٨ ونُقلت حجارته الى هــذا المنتزه المشرف على الشاطىء الشرقي اجمل شاطىء استحمام في العاصمة .

لدى نهـاية الجولة طلبت من سكرتيرة المكتب السياحي ان تستدعي لي تاكسي لينقلني الى محطـة الترام المعلـّق فقالت لي انهـا قريبة جداً . ولكن لخوفي من رذاذ متساقط ومن ضيـاع الوقت ومن ان اضيع انا نفسي ألححتُ عليها فطلبت لي تاكسي بالتليفون . أفهمت السـائق وجهتي فابتسم واصعدني الى جانبـــه واستدار في الشارع وبأقل من نصف دقيقة انزلني على الرصيف المقابل وقال لي : « هنا المحطة ». ففهمت لماذا ابتسم ونقدته الأجرة مضاعفة

وأنا اضحك من نفسي ... يخترق الترام المعلّق ثلاثة أنفاق ويصعد الى علو ١٥٠ متراً في دقائق معدودة . من قمة « كيلبرن – KELBURN » يشمل البصر ولنجتون بأكملها مع مينائها ومطارها وخليجها ومدرّج بيوتها وكل ذلك جميل جذّاب صغير . زرت في تلك الربوة مصلحة الارصاد الجوية وبرج التلفزيون وحديقة النبات حيث رأيت زهوراً وأشجاراً غريبة عليّ .

مدينة الشاي والروجبي والحرية :

ليس في ولنجتون كفتيريات ولا مقاهٍ بل قاعات للشاي فالنيوزيلنديون مغرمون بالشاي واللبن في كل ساعة . بعض البارات تفتح ليلاً ولو ان الملاهي الليلية نادرة جداً . انهم يمارسون الرياضة بكل انواعها خصوصاً العوم والتنس والتزلج ولعبتهم المفضلة هي الـ « روجبي – RUGBY » العنيفة بل هي العنف الوحيد في هؤلاء القوم الرقيقين. انهم لطفاء ولكن مقفلون منعزلون قالت لي العائلة المصرية التي أضافتني انه طوال الاربعة عشر شهراً التي قضتها حتى الآن في نيوزيلند لم يطرق احد بابها ليسأل عنها .

يقال ان الاولاد غير الشرعيين هنا يبلغون ١٠٪ من مجموع سكان المدينة . إذا لم ترد الامهات مواليد السفاح هؤلاء يتركنهم في ملجأ أو في مستشفى ويتقدم دوماً من يتبنّاهم .

جزيرة وساكن واحد :

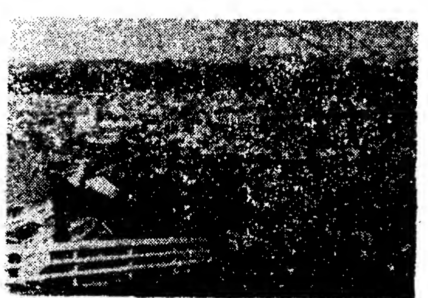
قرأت مع النيوزيلنديين في صحيفة اليوم مقالاً عنوانه « جزيرة وساكن واحد » وهذا المتوحّد الناسك هو من ولنجتون . رأى ان نيوزيلند صاخبة مزدحمة فراح ينشد الهدوء في جزيرة « انكوراج » التي تبعد عن نيوزيلند ٢٩٥٢ كلم وعن لوس انجلوس ٤٣٦٨ كلم. سكن فيها ست سنوات ثم هجرها لأن صيادين زاروها صدفة . وذكرت الصحيفة ان بحاراً انجليزياً اسمه « الكسندر سلكرك » كان قد عاش وحده في جزيرة بالباسيفيك اربع سنوات ونصف يقتات من لحم الماعز ومن النباتات البرية ثم التحق بمركب



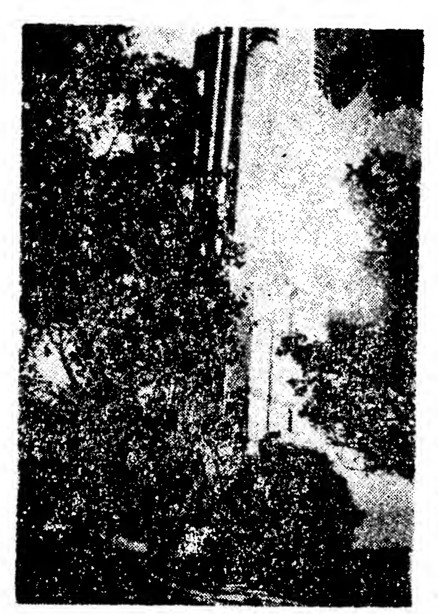
ولنجتون من المطار



ميناء ولنجتون



الترام المعلق ونظرة الى ولنتجون



برج الساعة والأجراس

قراصنة وعاد الى بلاده . إذا كان «روبنسون كروزويه» بطل رواية خيالية فهذان بطلا قصتين واقعيتين . وتحـذّر صحيفة اليـوم من خطر الصينيين إذ ارتفع عددهم في نيوزيلند الى أحد عشر الفاً .

بلاد السلام والهناء :

نيوزيلند هي بلاد السلام والهناء . لم تعرف حرباً حقيقية في تاريخها مـا عـدا بعض نزاعات بين الوافدين الاوروبيين والماوريين وسرعان ما اتفقوا . لا قلاع ولا حصون فيها ولا مدافع تحرس شواطئها . حتى أرضها ليس فيها حشرات سامة ولا حيوانات مفترسة ولا أفاعي ولا تعرف ما هي البراغيث والبعوض والبرغش وأمثالها قبل مجيء الانجليز لم يكن فيها من الحيوانات إلا بعض الطيور . لا تعرف الحيـــاة الصاخبة ولا الأمراض الجسمية والنفسية المتولدة من السرعة والقلق والازدحام وضغط العمل. فمدنها أشبه بقرى كبيرة وادعة بيوتها منثورة بـــين الخضرة والزهور . الناس يتعشون نحو السادسة مساءً وقلـما يخرجون بعد ذلك . يتحدثون بصوت خافت ويسيرون الهوينا ويطالع الغريب الصفاء والهدوء على وجوههم .

في المتحف الماوري :

عندما قدم الاوروبيون الى نيوزيلند كان شعب الماوري في العصر الحجري الجديد لم يبلغ بعد عصر البرونز والحديد . آلاتهم الحادة من حجارة سوداء . قراهم مسوّرة بخشب وعادة هي على رأس أكمة .

أقنعة «التوتم» هي غالباً طويلة ومثلثة الأدوار او الأوجه . من تقادمهم للآلهة رؤوس الاسماك الاولى في صيدهم . البيوت من قش والعواميد والزوايا من خشب . الأثاث والأدوات المنزلية من قش وحصير وخشب .

كانوا يحفرون وجوه أجدادهم وآبائهم على جذوع الشجر وينحتون لمشاهيرهم تماثيل من خشب .

بيضة طائر الـ « موا – MOA » كبيرة جـداً كشمامة كانوا يستعملونها للسحر ولمعرفة الغيب . كانوا يخزّنون المـاءَ في القرع او في جذع مجوّف .

كانوا يعيشون على الاكثر من الصيد فيضعون في الماء سلالاً تبقى أياماً . عرفوا استخراج الزيت من سمك القرش ومن الحوت وخزّنوه في الأصداف الكبيرة للإنارة وفي القرع للتموين . مقبض السكاكين من خشب ومبضعها من أسنان او زعانف سمك القرش . كانوا يولدون النار من حك خشبتين .

إله الزراعة هو القمر وكانوا يزرعون في بعض أيام الشهر القمري دون غيرها بعد حفلة رقص وصلاة . اسم محراثهم « كو – KO » وهو خشبة طويلة يركب في رأسها حجر حاد وفوقه عقلة يضغط عليها بالقدم ليغرز الحجر في الأرض . الجاروف والمجرفة والمعول من خشب حتى برؤوسها .

عرفوا الحفر على الخشب . في حفلة دينية كان الكاهن يختار الشجرة فيحفرون عليها بأحجار مسنّنة او بعظام صلبة وفي حفرهم يفضّلون بروز اللسان من الفم ويكتفون أحياناً بثلاث أصابع في اليد ويبرزون الأذن من الخد وبدل العين يضعون صدفة برّاقة وقد يدهنون الخشب المحفور باللون الأحمر المستخرج من تربة معينة . في أواخر القرن التاسع عشر عرفوا الرسم بالألوان على الخشب .

كانوا يهابون ويحفرون الحرذون الأخضر وال «ماراكيهاو – MARAKIHAU» وهو كائن خرافي أشبه بتنين له لسان طويل جداً يلتهم به السمك والانسان. اعتقدوا ان اصل الحجر الأخضر هو نوع من السمك المنقرض اسمه « بوتيني – PUTINI » وان الآلهة ألقت تلك الأسماك فوقعت في نهر « أراهورا – ARAHURA » في غرب الجزيرة الجنوبية وتحوّلت الى أحجار خضراء ولذلك يصنعون منها « التيكي » .

درع إله الحرب هو جلد مغطى بريش يُحمَل كراية في القتال . توجد باقات زينة من ريش الطيور وعقود وحلي من أسنان الحوت . تفيد العصافير لحفظ أرواح الموتى فيكثرون منها في بيوتهم .

في المتحف « قاعة الباسيفيك » تعمّ باقي الشعوب البولينزية . تظهر فيها وجوه سكان غينيا الجديدة شديدة الشبه بزنوج افريقيا .

٦٨

روتوروا بقعة النار والماوريين

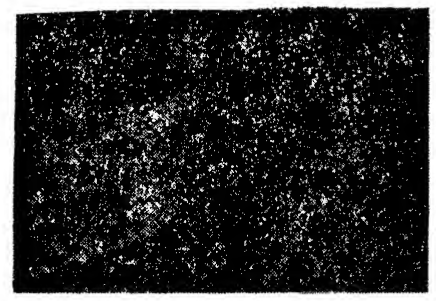
فوق الأغنام :

المسافــــة من ولنجتون الى « روتوروا – ROTORUA » براً ٤٧٣ كلم وجواً ٢٠٨ كلم . كانت الطائرة تطير على ارتفــــاع منخفض وتحتنا ألوف الأغنام في المروج والتلال كأنها نقاط بيضاء في لوحة خضراء .

عندمــا اقتربنا من روتوروا رأينا البخار يتصاعد من الأرض في مناطق عديدة وحالما خرجنا من الطائرة شممنا رائحة الكبريت و « المحروق » التي تملأ الجو. هذه المنطقة هي أشهر بقعة في العالم من المياه والتربة الساخنة وهي مستوطنة الجنس الماوري .

وصلت بعــد الظهر فقمت بجولة سيراً على قدميّ والروائح « الكبريتية والمعدنية » تدغدغ أنفي . إنهم غير عمليين في طريقة معيشتهم فالذي يبيع « ليموناضه » لا يبيع كوكاكولا وهذا يبيع عصير برتقال فقط وذاك عصير تفاح . وحيث تباع زجاجات الكوكاكولا الكبيرة (الحجم العائلي) لا تباع الصغيرة العادية.. وفي الفندق ـ مع انه أشهر فندق في روتوروا ـ المراحيض

بحيرة روتوروا

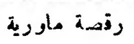


مدخل القرية الماورية



ماوريتان





رقصة ماورية

في غرفة والدوش في أخرى ومغطس الحمام في غرفة ثالثة !

نيوزيلند وابنان :

على العشاء جلس بجانبي نيوزيلندي من « أوكلاند » قال لي انـه يفضّل الحياة في «سيدني» لأن نيوزيلند «هادئة نائمة تصلح أنتكون ملجأ للمسنين». ومع ذلك بدا لي متفائلاً حـين قال ان امام كل إنسان في نيوزيلاند نحو ١٥ فرصة لأنواع مختلفة من العمل وان المعيشة فيهـا رخيصة بالنسبة للمكسب . قلتُ له : هـل لذة الحياة في الصخب والقرقعة والعدد ؟ يمكن أن تكونوا أسعد الناس فيبلادكم هذه حيث الصحة والجمال والرقيّ والغنى واعتدال المناخ على مدار السنة وهناء البال بعيدا عن كثير من الأمراض والميكروبات وعن الأجواء المتربـــة القذرة وعن ضغط العمل والإرهاق وعن أخطار الحروب ومشاكل الدول النامية او المهيمنة .. تعجّب كيف اني معجب ببلاده الى هذا الحد وسألني عن وطني فقلت له (لبنان) وإذا بـه لا يعرف عنه شيئاً فقلت له : ان لبنان صغير جدا وجميل جـدا ومناخه رائع ولكنه في قلب عالم مضطرب لا يعرف الاستقرار وهناء البال وهو معبر وممر بـــين الشرق والغرب . وهو ملجـأ اختياري او اضطراري للذين لا ترغب فيهم اوطانهم او هم لا يرغبون فيها .. قال لي انه لصعب عليه فهم هذه الأمور عن لبنان فأجبته : لا تعجب فحتى نحن اللبنانيين لا نفهم أحوالنا ! بعد العشاء أويت الى غرفتي أتابع التفكير في المقارنة بـين لبنان ونيوزيلند وقلت في نفسي : ما أسرع الفكر والخيال فأين أنا من لبنان والفرق في الوقت عشر ساعات ! ولماذا همُّ حالة بلادي لاحقني الى (آخر الدنيا) ؟

كتيب ماوري :

اعجبتني نصيحةٌ ماورية قرأتهـــا اليوم : (أعظم تعب هو تعب الهم والتفكير فتحرّر منه) . هكذا كان يقول رجل الدين الماوري لكل مقدم على عمل عظيم إذ كان يعترف له بخطاياه وبهمومه فيطهّره منها لأنهـا تضعف

الإنسان . قرأت هذا في أصغر كتيب وقعت عليه عيني واحتوته يدي اسمه (امثال وعادات الماوريين) وحجمه ٤ × ٣ سم . تصفّحته قبـل أن أنام فوجدت فيه بعض أمور طريفة ومنها :

– كن صالحاً في الأيام البيضاء وشريرا في الأيام السوداء .
– ليس كل من وضع على كتفيه جلد كلب أصبح زعيماً .
– أتريد أن تعرف طبع إنسان : لاحظه كيف يأكل .
– المرأة في البيت كالببغاء في الغابة : كلام في كلام في كلام !
– لا تأكل كثيرا فتعرض جسمك للثقل ويغلبك عدوّك .
– لا تتعرض لخطر الموت فالإنسان وكل حي يموت مرة واحدة إلا القمر.
– عندما يولد الطفل تدلك أمه قدميه ليكبر عدّاءً .
– عندما يبلغ الصبي عاماً يُغطّسونه في المـاء الساخن علامة تكريسه لإله الحرب .

– فنّ الوشم : ابتدعه (واتونجا ـ UETONGA) زعيم عـالم الأرواح وعلّمه لزوج بنته (ماتوورا ـ MATURA) وهذا علّمه للبشر .
– الحفر والنقش على الخشب علّمها نصف الإله (راورو– RAURU).
– العصافير هي أولاد الإله (تان ـ TANE) .
– الرياح والأمطار والثلوج تنزل من عند الإله النجم (سيريوس) .

قرية ماورية :

قضيت اليومين التاليين مـع دليل ماوري في جولات سياحية . كانت الجولة الأولى في بلدة الماوريين الملتصقة بـ روتوروا واسمها (وها كاريواريوا ـ WHAKAREWAREWA) . الماوريون يعدون الآن نحو ١٨٨ الفـاً . لهم نواب في المجلس التشريعي وينعمون بكل حقوق المواطنين وببعض امتيازات خاصة بهـم . انهم من الشعوب البولينيزية ويشبهون سكان هاواي . يغطون جزءا كبيرا من وجوههم وأذرعهم بالوشم . يحملون أطفالهم على ظهورهم

ويسلـّمون بحك الأنوف . مدخل (وهاكاريواريوا) محاط بسور تزينه تماثيل ماورية حمراء وبيوتهم مطلية من الخارج باللون الأحمر. رقصتهم هي الـ (هاكا) وتشبه «هولا» الهاوائيين. سلام الهاوائيين (آلوها) وسلام الماوريين (هايريماي).

أطول اسم قرية في العالم :

في الأبجدية الماورية ١٣ حرفاً فقط وربمـــا لذلك يكثر فيها استعمال الأحرف الصوتية . لكن الأسماء طويلة جدا وعندهم هنا أطول اسم قرية في العالم مكوّن من ٥٧ حرفاً وهو :

« TAUMATAWHAKATANGIHANGAKOAUAUATAMATEAPOKAIWHENUAKITA - NATAHU ».

ومعناه (المكان حيث تاماتيا غنّى على الناي لحبيبته وهو الرجـــل ذو الركبتين الضخمتين اللتين تنزلقان لتسلق الجبال وهو الشهير بآكل الارض). انها لغة اختزالية شعرية أليس كذلك [١] ؟

رأيت بعض رجالهم يلبسون فساتين قصيرة ملوّنة ويضعون (پروكات) ويزينونها بالريش . النساء مترهلات ممتلئات الجسم ينفر ذوقنا من ملاحهن .

منطقة جهنم :

في (وهاكاريواريوا) رأيت أشهر مكان للمياه الساخنة في هذه المنطقة الشاسعة منطقة البراكين والكبريت وحمامات الطين الساخن والينابيع الحارة والمياه المعدنية.. وأعجب من ذلك ان فيها أحياناً قرب منبع ساخن جدول ماءٍ بارد . للطبخ تعلق الماوريات القدر في عصا او في سلك حديدي وسط بركة مـــاء حار . وهنا مستشفيات لعلاج أمراض المفـاصل الروماتيزم والارتريتيزم وما أشبه. اكبر ينبوع حار متقطع كان يغور ويفور أمام أعيننا.

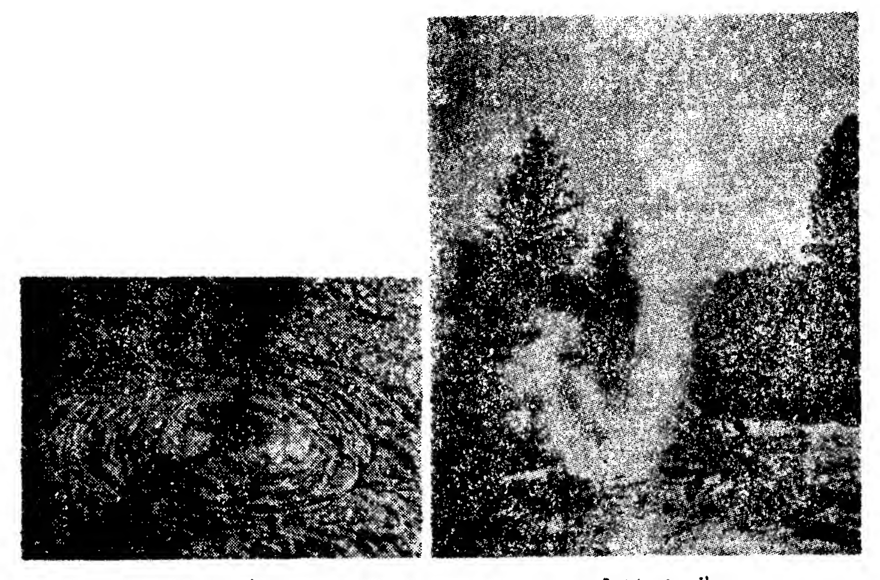
زرت منطقة « تيـكي تيري – TIKI TERI » أي باب جهنم خطوة

---

(١) انظر صفحة ٢٧٥ عن اللغة الهاوائية .



اطول اسم قرية في العالم



نافورة ساخنة

طين يغلي

خطوة وراء الدليل لئلا انزلق وأقع في ما لا تحمد عقباه ... في هـــذا المكان « الجهنمي » مواقع عديدة منها : (**حمام الشيطان**) : عمقه ٥,٥ متراً وحرارته ١٠١ درجة مئوية . (**هوريتيني**) : وهو اسم اميرة ماورية انتحرت هنا بعد خصام مع والديها . عندما وجدت امها ثوبها على حافة البئر صرخت نائحة « هوريتيني هوريتيني ! » . (**باب جهنم**) : هو اكبر بئر هنا . لا يعرف

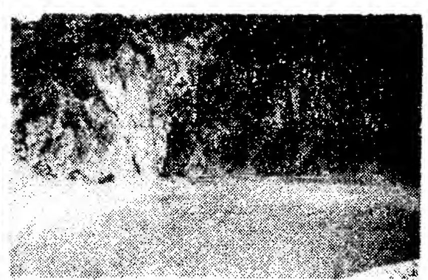


في منطقة جهنم

عمقه . حرارة مائه ١٠٣ درجات مئوية . (**آدم الطفل**) : يثور احياناً فترتفع نافورته ثم تنخفض كما يقفز الطفل . (**حمام الكبريت**) : تملأ النساء زجاجات من مائه الصافي يستعملنه للتدليك . (**جهنم**) : يقولون ان لهذا البئر ٦ درجات حرارة اعلاها ١٠٠ درجة مئوية . (**شلالات كاكاهي**) : حرارتها ٤٠ وتأتي من بحيرة عالية ويمكن الوقوف لتنصب مثل «دوش» على الجسم . (**وادي الكبريت البلوري**) : يوجد كبريت نقي تحت سطح ارضه. (**البحيرات الساخنة**) : اوسع مساحة مياه ساخنة هنا وكلها تحت سطح الارض . (**خريطة استراليا**) : وتدعى هكذا من شكلها . (**صادوم وعمورة**) : هكذا دعاها جورج برناردشو لأن داخلها مفقود !

وادي الابخرة والشلالات الساخنة :

ألبسني الدليل « جزمة » صلبة تصل الى الركبة وسرت معه في وادي



فوهـة جهنم



في البلدة المدفونة

«وايراكاي – WAIRAKEI » حيث الابخرة والجداول والنافورات الساخنة والآبار والشلالات التي تغلي . وزرنا منطقة « وايوتاپو – WAIOTAPU » المتميّزة بشقوق في الارض تتصاعد منها الأبخرة كالبخور بل كالسحاب. وفيها بحيرة « اوكاتاينا – OKATAINA » تقف حولها الجبال كأسوار مكتسية بأدغال تكاثر فيها عصافير صغيرة ملوّنة لا تعرفها بلادنا .

البلدة المدفونة :

على بعد ١٨ كلم من روتوروا زرت «البلدة المدفونة» المدعوة«تي وايروا». دفنها بركان (تاراويرا) في ١٠ تموز ١٨٨٦ . اشتعل ذلك البركان وقذف عليها الحمم وفاضت عليها بحيرة (راماهانا) بتربة محرقة فطُمرت البلدة تحت مترين من الحمم والطين والكبريت والحجار النارية . دام اشتعال البركان ٣٦ ساعة . أراني الدليل فوهاته الاربع على قمة جبل (تاراويرا) .

اطلال البلدة المدفونة متنوعة جمع بعضها في متحف يضمّ اواني من فخار ومجارف ومعاول وتماثيل خشبية محروقة وفرناً وبرج حمام وعرائس ومصنوعات خشبية غريبة الشكل .

تجولنا في (البلدة المحروقة) واوقفني دليلي في بقايا بيت (تونجا) وهو اسم طبيبهم الساحر الذي انذرهم يومين قبل الكارثة لأنه أحسّ بارتفاع

حرارة ميـاه البحيرة وبهيجانها غير العادي . هرب كل السكان فلم يمت منهم إلا اثنان أما هو فعجز عن الهرب إذ كان عمره ١١٠ سنين . بقي أربعة أيام مدفوناً حياً وقد مات حالاً بعد ان انقذوه . رأيت رسومات برتقالية اللون على صخور ملطخة بالسواد والخنـدق الذي كان يطـّوق البلدة قبــل قدوم الاوروبيين وبقايا فنـدق (روتوماهانا) الذي كان بنــاية اوروبية ضخمة يستريح فيها السياح قبل وبعـد استمتاعهم (بالجنائن الخضراء والبيضاء) في بحيرة روتوماهانا .

بئر الاماني :

وقفنا على حافـة (بئر الاماني) عند مصبّ شلال ارتفاعه ٨٣ مترا . حسب تقليد الماوريين شبكت يدي ّ بيد الدليل وادليناهما في فم البئر وتمنى كل منا شيئاً دون ان يبوح به. فعلنا ذلك ضاحكين ولكن في أعماق النفس كنت أفكر : ربما فمن يدري ! مهما اقتنع الانسان ان في هذا وذاك خرافة يبقى مدفوعاً الى طلب تحقيق مناه حتى من الخرافات فلعلّ وعسى ! أمـــا امنيتي فلن ابوح بها الآن لئلا يبطل المفعول السحري للبئر . اني انتظر سنة ٢٠٠١ لأعرف هل ستتحقق أم لا ...

بحيرتان زرقاء وخضراء :

في طريق العودة توقفنا عنـد البحيرتين المعروفتين بالزرقاء وبالخضراء من لونيهما رغم انهما متجاورتان يفصلهما شريط من الارض عرضه ٤٠ مترا فقط. اسم الزرقاء (تيكيتاپو) أي الكائن المقدس عمقها ٤٠٧ أمتـار ومساحتها ١ ١/٤ كلم٢ . واسم الخضراء (روتوهاكاهي) أي صدفة السمك عمقها ٤٨٨ مترا ومساحتها ٤ ١/٤ كلم٢ . حول البحيرتين روابٍ شجراء ترعى فيهـــا الأغنام . كم يحس المرء هنـــا بالهدوء وبسحر الطبيعة ويود أن يستلقي على العشب بين البحيرتين ويحلم ويحلم .

٦٩

سنغافورة

قطعت بنا طائرة (البطاليا) ٦٣٠٠ كلم من سيدني الى سنغافورة في سبع ساعات ونصف منها اربع ساعات فوق صحاري استراليا . مررنا فوق جزر اندونيسيا وفوق خط الاستواء وبعد قليل نزلنا في مطار سنغافورة .

(الدولة – المدينة – الجزيرة) :

مساحة جزيرة سنغافورة ٥٦٠ كلم^{٢} وتعداد سكانها مليون ونصف . هذه الدولة – المدينة – الجزيرة تربط خطوط الملاحة البحرية بين الشرق والغرب. تقع في جنوب مضيق (مالاكا) ويحدها من الشمال ماليزيا ومن الغرب سوماترا ومن الشرق والجنوب بحر الصين . في ٩ آب ١٩٦٥ انفصلت عن ماليزيا وأصبحت دولة مستقلة . انها محاطة بدول غير صديقة ومع صغرها تريد ان تعيش بحجم دولة. تسير الجزيرة في طريق الصناعات الخفيفة وإنتاج الاسمنت وبعض انواع السيارات .

رأيت فيها اعلانات وأسماء مكتوبة بالأحرف العربية سواء لكلمات عربية أم غير عربية (باكستانية مثلا) . تنقلت فيها بالتاكسي و (بالبديكاب)

كما في فرموزا أي بالدّراجة ذات الثلاث عجلات بجلس السائق في المقدمة ووراءه مقعدان لراكبين . من قمة ربوة (فابر – FABER) رأيت جزيرة (سوماترا) في اندونيسيا والميناءين القديم والجديد ومصفاة البترول وطريقاً (معلقاً) للسيارات لأن خمسة كيلومترات منه تمتد على أعمدة في البحر .

(أكل الهواء) :

مناخ سنغافورة حار على مدار السنة ورطب. رأيت الناس بعد السادسة مساءً يجلسون على الشاطىء للأحاديث ولسماع الأغاني ويدعون هذه الجلسات في لغتهم (أكل هواء) لأنهم فعلاً يستمتعون بهواء البحر الذي يخفف من شدة الحرارة . وتطول (القعدة) فيأكلون السلاحف والفراخ المشوية على عيدان الخيزران وخصوصاً السمك . في الليل ينيرون مصابيح على الشاطىء ينجذب اليها السمك فيقع في الشباك المخفية بالماء أمام المصابيح . يمكن الاستحمام في البحر كل السنة .

سوق حرة ولكن غالية :

رغم ان سنغافورة هي مدينة حرة لا جمرك فيها خبرت ان المعيشة فيها غالية : اصغر ترانزستور (سوني) بعشرة دولارات . المبيت في الفندق بخمسة عشر دولارا . زجاجة الكوكاكولا الصغيرة بعشرة سنت . فيها سوق العملة حرّ كما في بيروت . ان هونغ كونغ بالنسبة الى سنغافورة متقدمة ومزدهرة وأرخص في كل شيء .

طوائف منعزلة ومنفتحة :

لغاتها الرسمية اربع في الإذاعة والتلفزيون والصحف : المالاوية والصينية والانجليزية والتامالية (نوع من الهندية) ولو ان المالاوية هي اللغة الشعبية . يكاد سكانها يعيشون في جماعات مقفلة: فالباكستانية ترتدي البنطلون الطويل الضيق والصينية البنطلون أو الفستان المشقوق عن الجانبين والهندية الساري واليابانية الكيمونو.. . واحتفظت كل طائفة بطريقة أكلها فيفضّل الصينيون

الخضراوت يقطع عليها السمك المسلوق ويكثر المالاويون من الشطة وجوز الهند والهنود من البهارات والزعفران والكاري . وفي سنغافورة المرأة تنتخِب و تنتخَب .

دياناتها أيضاً متعددة : الاسلام والمسيحية والبوذية والهندوسية والتاوية . ولكل طائفة اعيادها ومهرجاناتها وعطلاتها الرسمية وتقاليدها وعاداتها وموسيقاها وأشغالها اليدوية الخ ... فمن هذه الناحية لسنغافورة وجوه عدة جذّابة . من دور العبادة فيها : معبد السعادة السماوية ومعبد القرود ومعبد لوتس الجبل وجامع السلطان الذي هو اكبر جوامعها .

جزيرة الزهور :

زرت ڤيلا غريبة بتحفها الصينية اسمها «هاوپار» واشتركت في فسحات بحرية بالمراكب البخارية والشراعية . الطبيعة في سنغافورة جميلة خضراء على مدار السنة وتكثر فيها الاركيديا والدالية والجردينيا والجهنمية والانجسانا ذات العناقيد الصفراء .

مدينة الاسد :

يقول المؤرخون ان سنغافورة هي بدون تاريخ . في القرن السابع بعد الميلاد كانت مع المناطق التي حولها مملكة بوذية . وفي القرن التاسع كان احد مهراجات الهند ملكاً على ماليزيا وسنغافورة . في كتاب « سجلات ماليزيا » من سنة ١٥١٥ ذكر الحادث الآتي : في القرن الثالث عشر أبحر أحد الأمراء مع حاشيته جنوبي شبه جزيرة ماليزيا فحطّمت العواصف مراكبهم ونزل هو على شاطىء الجزيرة فرأى حيواناً جميلاً قوياً عدّاءً لون ظهره قريب الى الاحمر ولون رأسه قريب الى الاسود وصدره ابيض وحجمه كذكر الماعز . فقال له احد مرافقيه – خطأ – انه أسد . فأجاب الأمير : إذا كانت الحيوانات هنا جريئة وضارية وجميلة فلا بدّ انها بقعة مثالية لتأسيس مملكة . فأسس مملكة ودعاها سنغافورة أي « مدينة الأسد » . ان الاسود لا تعيش

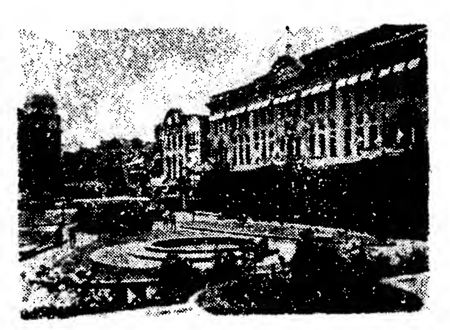
في الغـابات الاستوائية فكان الأفضل ان تدعى « مدينة الفهد » لأن الفهود والنمور وجدت في تلك البقعة حتى مطلع القرن الحالي والحيوان الموصوف هو أقرب الى الفهد منه الى الأسد .

اعمال « سير رافلز » :

تعاقب على غزو سنغافورة سكان سيـــام وماليزيا واندونيسيا والصين . زعيمها « پارامسوارا » اعتنق الاسلام سنة ١٤١٤ واتخذ اسم اسكندر شاه. سنة ١٧٨٦ عقد « فرنسيس لايت » معـاهدة مع السلطان باسم شركة الهند الشرقية . اشهر رجـل في تاريخ سنغافورة الحديث هو « توماس ستامفورد رافلز » . عينته شركة الهنـد الشرقية مندوبها هناك سنة ١٨٠٥ وهو الذي أنشأ ميناء سنغافورة فربط الخطوط البحرية بين الشرق والغرب. سنة ١٨١٩ دعم تنصيب السلطان حسين على جوهور وسنغافورة ووقع معه معاهدة تحتكر بموجبها بريطانيا النفوذ في المنطقة ويقبض السلطان سنوياً خمسة آلاف بزوس اسباني . واخذت المدينة ــ الميناء تزدهر وحكمها رافلز بعدل وأعطى الحريات الدينية وخطـّط المدينة وضواحيها . منعاً لتصادم الجنسيات قسّم المدينة الى احياء. غادرها رافلز سنة ١٨٢٣. طالب السلطان بزيادة الأتاوة فاستجابت له بريطانيا لأنه قَبِـل ان تصبح سنغافورة « الى الابد » لشركة الهند الشرقية. شغـّلت فيها الشركة المحكومين بالاشغال الشاقة والهنود لأن اجرتهم بخسة .

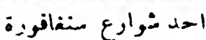
رابع ميناء في العالم :

كان هـدف رافلز ان تصبح سنغافورة ملتقى ملاحة بين الشرق والغرب ولكن حلمـه لم يتحقق بسبب وجود القراصنة في بحر الصين وبسبب إنشاء هونغ كونغ التي أصبحت منـذ سنة ١٨٤١ السوق الرئيسية لتصريف بضاعة الصين. فيما بعد ساعد عاملان لازدهار سنغافورة هما البواخر التي كبرت جداً فأصبحت تتحمل الإبحار البعيد وتصمد للقراصنة ولا تعوقها العواصف والرياح الموسمية ثم فتح قناة السويس إذ جعلتها بريطانيا طريقها الى الشرق فبعد ان



من ميادين سنغافورة





احد شوارع سنغافورة

كانت مدة السفر ١٧ اسبوعاً أصبحت ٧ أسابيع . أُنشيء الميناء الجديد بقرب القديم وأصبحت سنغافورة رابع مرفأ في العالم ومرّت بها كل أنواع البضاعة . يوجد الى الآن « مخزن الثلج » حيث كان تاجر صيني يخزن الثلج المشترى من أميركا .

حتى ١٨٦٧ كانت تحت حكم الحاكم البريطاني في الهند ومنذ تلك السنة عين لها التاج حاكماً خاصاً لأنها ازدهرت وكبرت ولأن هولندا كانت تهدد باحتلال جزيرة سوماترا بأجمعها غربي سنغافورة وكانت فرنسا قد احتلت الهند الصينية وأخذت تتطلع الى سيام وتفكر بحفر قناة في خليج « كرا ـ KRA » شمالي شبه جزيرة ماليزيا يصل البحار الغربية بالشرقية ويعطّل عمل سنغافورة . سنة ١٨٧٤ مدّت بريطانيا حمايتها على دويلات ماليزيا فانتعش بذلك ميناء سنغافورة .

مجنون المطاط :

في١٨٨٨ ادخل اليها «هنري رايدلي» زراعة أشجار المطاط ودعوه لذلك « رايدلي المجنون » . لكن هذا المجنون نجح فأصبح المطاط محصولها الأول وتغلب حتى على القهوة. سنة ١٨٩٦ كانت ثلاثة ارباع أرض سنغافورة غابات برّية وسنة١٩٣٠ بقي الثمنفقط غابات وأصبح معظم الباقي مزروعاً بالمطاط.

في الربع الاول من القرن العشرين كان سعر الكيلو منه جنيهاً استرلينياً واحداً.

الاحتلال الياباني والاستقلال :

في ١٩٤٢ احتلّ اليابانيون سنغافورة واضطهدوا الصينيين وطردوا الانجليز أو سجنوهم وفضّلوا تشغيل الماليزيين والهنود . بعد الحرب عادت السيادة البريطانية فوجدت حزازات وعداءً بين الجنسيات انفجرت بثورة المسلمين عام ١٩٥١ . في ١٩٥٩ أعطيت استقلالاً ذاتياً ودخلت في الاتحاد الماليزي وبقيت فيه فقط ستة أعوام .



المطاط في سنغافورة

٧٠

نبذة جغرافية وتاريخية عن تايلاند

بلاد بعيدة وسعيدة :

بعـــد الاقلاع من سنغافورة حطت الطائرة في « كوالا لامبور » عاصمة « ماليزيا » ثم تابعت الى « بنكوك » . لم تفلح في الهبوط إلا في المحـــاولة الرابعة إذ كان الطقس رديئاً جـــداً برياح هوجاء وضباب كثيف . عرفت بعدئذٍ ان الهبوط والاقلاع هما عادة شاقان في بنكوك مع ان مطارها ملتقى الطيران من وإلى الصين والهنـــد واليابان والفيلبين وماليزيا وأندونيسيا واستراليا .. كانت الليلة ممطرة جداً لكن الشمس أشرقت في النهار التالي . وهكذا تعاقبت أيامي في بنكوك مطر في المساء والليـل وصحو في النهار ، كما حدث لي في مكسيكو .

معنى تايلاند أرض الحرية . استعمر الاوروبيون كل البلدان المتاخمة لهـــا أما هي فلا . دعيت بهـذا الاسم منذ ١٩٤٠ وكانت قبلئذٍ تدعى « سيام — SIAM » . انها بلاد « بعيدة وسعيدة » يعرف عنها الأجانب القليل .

مساحتها ٥١٣٥٢١ كلم٢ وهي تقع بـــين خطي العرض الشمالي ٢١٫٥ .

تتفتح خريطتها كزهرة الاوركيديا . يحدها شمالاً برمانيا ولاوس وشرقاً لاوس وكمبوديا وجنوباً ماليزيا وخليج سيام وغرباً بورما . انها بلاد خصب وسلام وابتسام وحولها فقر واضطراب وحروب أهلية. ٨٠٪ فيها فلاحون. عدد سكانها ٣٢ مليون منهم ٤ ملايين من أصل وشكل صيني . مليون هم مسلمون وربع مليون مسيحيون والباقون بوذيون . البوذية هي دين الدولة وتتمتع باقي الديانات بحرية كاملة . ٨٠ ٪ من سكانها يعرفون القراءة والكتابة. التعليم إلزامي من سن ٦ الى ١٤ و٣٠ ٪ من ميزانية الدولة تنفق على التعليم . غالب أرضها تلال وهضاب خضراء و٦٧ ٪ منها غابات تكثر فيها الحيوانات البرية خصوصاً الفيلة والقرود والأفاعي والكلاب. أهم محاصيلها الخشب والرز والمطاط وقصب السكر والقطن والحبوب والزيوت وبعض المعادن. وفيها كل أنواع الفاكهة الاستوائية مثل جوز الهند والموز والبابايا والبرتقال والتمر والأناناس والتمر الهندي والمانجو الخ .. انها بلاد مزهرة على مدار السنة .

حقبة ايوديا :

في القرن الثالث عشر نزحت قبائل « تاي – THAI » من جنوب الصين الى سيام وطردت منها شعبي « الكمبوديين والمونس » وانتحلت الديانة البوذية ووحّدت البلاد تحت حكم ملك واحد . في ١٣٥٠ تأسست « ايوديا » التي بقيت عاصمة طوال أربعة قرون .

في ١٥١١ وصل اليها طلائع التجار البرتغاليين وفي النصف الاول من القرن السابع عشر تقاطر اليها تجار من هولندا وبريطانيا والدنمرك وفرنسا . اتخذ الملك ناراي (١٦٥٦ – ١٦٨٨) مستشاراً يونانياً وتبادل السفراء مع لويس الرابع عشر ملك فرنسا . في ١٦٨٨ أقفلت أبوابها في وجه الغرب الاوروبي ولم تفتحها حتى ١٨٢٥ بمعاهدة مع شركة الهند الشرقية . في ١٨٣١ دخلها مبشرون اميركيون وفي ١٨٥٦ عُيّن القس « ستيفان ماتون » أول قنصل اميركي فيها .

من راما الاول الى راما الثامن :

نقل الملك « تاكسين ـ TAKSIN » العاصمة الى «تونبوري ـ THONBURI »ـ التي تقوم إزاء بنكوك حالياً ـ وما عتّم ان ُعزِل لأنــه اهتمّ بالصوفية البوذية اكثر ممـا بالحكم . أخذ منه العرش قائد الجيش « شاوبهيا شاكري ـ CHAO PHYA CHAKRI » مؤسس سلالة «شاكري» التي لا تزال تملك الى الآن . اتخـذ ـ وخلفاؤه من بعده ـ اسم « راما » بطل ملحمة « الراماياتا »[1] الشهيرة في الأدب الهندي والسيامي .

رامـا الاول ترك آثاراً فخمة كثيرة في عاصمته الجديدة بنكوك سأصف مـا زرته منها . راما الثاني كان فناناً وراقص باليه وشاعراً . رامـا الثالث شجّع التجارة مع البلدان الاوروبية وسمح بقدوم مبشّرين مسيحيين أدخلوا معهم الطباعة والتعليم وأنشأوا مستشفيات . راما الرابع بقي ٢٧ سنة راهباً بوذياً في الدير قبل أن يعتلي العرش . راما الخامس كان له ٨٤ زوجة و٣٦٢ ولداً فلا عجب إذا ما انتمى الآن فيتايلاند نحو عشرة آلاف الى الدم الملكي! حرر العبيد وحظر الرق . كان مرهوباً « مقدساً » الى درجة ان إحدى زوجاته سقطت في قناة فلم يجسر أحد أن يمد يده لينقذها فغرقت .. راما السادس تلقى العلم في انجلترا وكان شاعراً وكاتباً . في الحرب العالمية الاولى حارب جيشه مع الفرنسيين . راما السابع تعلم أيضاً في انجلترا . في عهـده حدثت ثورة بيضاء في ١٩٣٢ أعلنت المملكة الدستورية والحكم الديموقراطي فاستقال وعاش في لندن . رامـا الثامن وجـد مقتولاً سنة ١٩٤٦ في القصر بطلقة من مسدس وبقي القاتل مجهولاً . مات عن ٢١ سنة وقد اعتلى العرش وعمره ٩ أعوام . قال الناطق الرسمي ان التقرير الطبي حدّد ان سبب الوفاة نزيف في المعدة . قيل له : ولكن الرصاصة التي في رأسه ؟ أجاب : انهـا سر من أسرار الطبيعة لا ندركه! في عهد راما الثامن احتل اليابانيون تايلاند

---

(١) انظر فصل ٨٦ .

خـلال الحرب العالمية الثانية ولكنهم صادقوها ولم ينكـّلوا بهـا . يسمي المواطنون هذا الاحتلال « زيارة » لأن تايلاند هي بلاد الحرية الأبدية !

راما التاسع :

راما التاسع هو الملك الحالي واسمه « فوميفون ادوليا ديج » . وُلد في الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٢٧ وتلقى العلم في سويسرا . عندما صرع شقيقه راما الثامن قطع دراسته ليتوّج في بنكوك ثم قضى في سويسرا أربع سنين أخرى وهو ملك . كشاعر ألـّف نشيد جامعة بنكوك ونشيد البحرية وكموسيقي ألـّف عـدداً من الاوبريت عرض بعضها على مسارح برودواي في نيويورك . وهو يجيـد العزف على السكسوفون والترومبيت والكلارينيت ويشترك مع اوركسترا « جاز » تذيع من إذاعة بنكوك . وكرياضي يحسن الجولف والعوم والانزلاق على المـاء . وجهه رزين صارم ويشكو من قِصر النظر زاد فيـه جرح في إحدى عينيه . حديقة قصره الملكي تمتد ٩ ملايين متراً مربعاً وفيها ملعب جولف وأحواض سباحة ومدرسة للأمراء وللأميرات.

من ألقاب الملك :

من ألقاب الملك : السيد الإلهي الأعظم . قوة البلاد الكبرى . القـدرة التي لا مثيل لها . ملك الملوك . الرئيس السامي للشعب . الحامي الأعظم . شقيق القمر . رب المد والجزر .. تشتم من هذه النعوت رائحة تأليه الزعماء في القـديم . الملك هو زعيم الديانة البوذية في البلاد وحامي جميع الأديان في بلاده . في أيام الاعياد الدينية الكبرى يبدو كصنم على رأسه التاج المثلث . كل نجاح وخير ينسب الى الملك وكل فشل وتقهقر ينسب الى السياسيين فهو يملك ولا يحكم !

الثورة التي حدثت سنة ١٩٣٢ قام بها ضابطان خرّيجا الاكاديمية العسكرية في باريس وهما «بريدي – PRIDI » و «پيبول – PIBUL ». بين ١٩٣٢ و ١٩٥٧

عرفت حكومة تايلاند ١١ انقلاباً و٥ دساتير وكانت السياسة حرباً سجالاً بين هذين الضابطين وبين الجيش والبحرية . سنة ١٩٤١ كان رئيس الوزارة پيبول أقنع بلاده بقبول الاحتلال الياباني السلمي وأعلن الحرب ـ اسمياً ـ على اميركا. عارضه پريدي وتنبأ بهزيمة المحور ولكنه هرب الى الصين في ١٩٤٩. خاف پيبول خطر الشيوعية المتلاطمة أمواجها حول بلاده فارتمى في أحضان اميركا وأصبحت بنكوك عاصمة « حلف جنوب شرقي آسيا ـ SEATO » .

●

٧١

بنكوك

بلدة الزيتون والملائكة :

لا أعرف كيف أرتّب ما رأيت في «بنكوك – BANGKOK » فأفضّل وصفاً مبعثراً فوضوياً كحالتها هي :

بنكوك – أي قرية الزيتون – كان اسمها «ترونج تاب –TRUNG TEP» أي مدينة الملائكة وكلا المعنيين ينطبقان على سكانها المسالمين اللطفاء . تقع على ضفة نهر «مينام او شاوبهيا – MENAM ‘ CHAOPHYA » – ومعناه أم المياه النبيلة – وتعدّ مليونين . إزاءها على الضفة المقابلة مدينة «تونبوري» وتعدّ نصف مليون . انها على بعد ٣٢ كلم من خليج سيام .

بنكوك هي مدينة « الاردية البرتقالية » التي يلتف بها آلاف الرهبان البوذيين. ومدينة القباب والأبراج الزرقاء والحمراء والصفراء . ومدينة الاقنية والجسور والقوارب . ومدينة الزهور والمرح والابتسامة .

كرامة المرأة :

يلبس الرجـــال في المدينة الزي الاوروبي وفي الارياف الزي القومي

« ساورنج » وهو السروال المتهدل . على الرأس قبعة واسعة من قش . تلبس بعض النساء الزي الغربي وغالبهن يلبسن الـ « پـــاسين ـ PASIN » : بنطلون وجاكيت من قماش رقيق عادة حريري . عموماً التايلانديون هم صغار القامة متناسقو الأعضاء سريعون لا يعرفون الغضب ولا يشعرون بعقد النقص إزاء الرجل الابيض. النساء مساويات للرجال وهنّ على قدر رفيع من الجمال. لم يعرفن وضع البرقع وكل مواليدهن يعتبرون شرعيين في تايلاند احتراماً للأمهات وللأبناء . والطلاق هو نسبياً قليل .

هدايا الملك قطط ودُمى :

في بنكوك شوارع فسيحة جديدة مثل شارع « راجادام نوين ـ RAJADAM NOEN » الذي يقع فيه البرلمان ومركز حلف جنوب شرقي آسيا ونصب الديموقراطية وينتهي بأجمل وأكبر جسر على نهر « مينام » . وفيها الأزقة والحواري حيث المخازن الصغيرة المتراصة تتكدس فيها أنواع البضاعة في شارع « سوليم » رقم ٢٨٥ مركز القطط السيامية يحرسه خفراء مسلّحون. كل قطة تباع تعطى شهادة باسمها ونسبها وحالتها. أحياناً كثيرة يهدي الملك لضيوفه العظام قططاً سيامية . كما يهدي دُمى (عرائس) وهي غالية جداً لأنها حريرية ومذهّبة ومصنوعة باليد وتباع زوجاً زوجاً .

السوق العائمة :

يعيش ثلث سكان بنكوك في المراكب والعوامات وفي اكواخ على الضفاف . وتزيد الرطوبة في ثقل المناخ الحار فيستحمون في أقنيتها ثلاث وأربع مرات في اليوم . حتى الفيلة تغطس طويلاً لتبترد



السوق العائمة

ولتطرد عنها الذباب والبرغش . بسبب الحر الشديد اعتاد السكان القيلولة بعد الظهر فأصبحت فترة الراحة وفترة .. السرقات .

تتراص المنازل على الضفاف بين النخيل والبامبو والنارجيل والموز والزهور . قبل سنة ١٩١٤ لم تعرف بنكوك شبكة مياه تمد المنازل بالماء فكان كل بيت « يدبر نفسه » . وإلى الآن يغسل سكان الضفاف في الماء الجارية أجسامهم وأسنانهم وملابسهم والخضار والصحون .

تجوّلنا بالقارب في السوق العائمة. يطوف الباعة – او بالأحرى البائعات – بكل أنواع السلع على متاجرهم المتنقلة التي هي القوارب الذاهبة الآيبة في النهر وفي الترع المتفرعة منه . رأينا نماذج عديدة لمعابد بوذية مصغرة جداً (٥٠ × ٣٠ سم او اكبر) موضوعة أمام المنازل لتستريح فيها الأرواح الهائمة قبل ان تتقمص جسداً آخر ويقدمون الىبيوت الأرواح هذه البخور والشمع والزهور ويرجون منها الحظ السعيد. تتدلى أحياناً من النوافذ أجراس صغيرة مقرعتها الداخلية على شكل قلب يحرّكها الهواء فتُسمع رنات ناعمة رومانتيكية .

تركنا القوارب لزيارة سوق الحرير فتايلاند كاليابان مشهورة بتربية دودة القز . رأينا الأدوار التي تمرّ بها « ام الحرير » ثم الحياكة على الأنوال اليدوية ثم معرضاً لبيع المصنوعات الحريرية. قرأت هنا ان الدودة تنتج خيطاً رفيعاً طوله ٦٠٠ متر وانه يلزم ٢٠٠٠ فيلجة (شرنقة) لصنع ثوب حرير نسوي.

المواصلات :

السيارات العمومية مجهزة بعدادات إنما السائق لا يتقيد بها فيجب الاتفاق معه قبل التحرّك . ولكن بأية لغة ؟ قليلون جداً يتكلمون الانجليزية ولغتهم التايلاندية معقّدة كأمها اللغة الصينية. منها : «سوادّي – SAWADDEE» صبحاً وظهراً ومساءً وفي كل ساعة . و « كوربجاي – KORBJAI » شكراً . و « كهون – KHUN » : يا سيد . يا سيدة . يا آنسة . و «ماي

پن راي — MAI PEN RAI » : « معليش » . نحن هنا في الشرق بـلاد الـ « معليش » ! ابجديتهم ٤٤ حرفاً وتكتب من اليمين الى الشمال .

.. السير الى الشمال على الطريقة اليابانية والانجليزية. عندما يمرّ السائق قرب معبد يسلّم عليه فيترك عجلة القيادة ويضم راحتيه ويحني رأسه ونحن السياح « نمسك قلبنا » في هذه اللحظات المخيفة الخطرة . وإذا عرفت ان في بنكوك اربعمائة معبد بوذي ألا تخاف معي ؟ يختفي الترام رويداً رويداً من شوارع بنكوك وتكثر فيها الدراجة ذات الثلاث عجلات يدعونها هنا « ساملور — SAMLOR » .

بعض المآكل :

غذاؤهم الرئيسي هو السمك والرز . الطبق القومي الغالي هو الـ «باهمي» مزيج من لحم وسمك ومعكرونة وملفوف وبصل . والطبق الشعبي الرخيص هو لحم مجفف يطبخ مع الكاري . تختم الوجبة بحلوى من الرز. يعرضون على الارصفة الموز المشوي او المطبوخ موضوعاً في ورقـة موز . عندهم ٢٠ صنفاً من الموز وكل فواكه المناطق الاستوائية ونوع غريب من العنب يشبه النبق . يشربون كثيراً عصير الفواكه والويسكي المستخرجة من عصير الرز واسمهـا « ميكونغ — MEKONG » . إذا أحببت ان تأكل على الطريقة التايلاندية فتناول بيمناك ملعقة وبيسراك شوكة وحاول .. في المطاعم الصينية تحتوي قائمـة الطعام على ٣٨٠ صنفاً إنما يوجد منها فقط ٢٠ لتقدم للزبائن . ولكن أي ٢٠ من الـ ٣٨٠ ؟ الله أعـلم ! إذا كنت منطقياً فستتعب كثيراً مـع هذا الشعب !

المتحف الوطني البوذي :

في سنة ١٩٥٧ عثر في دير « راجبورانا » بالعاصمة القديمة « ايوديا » على ٦١٨ صورة وتمثال لبوذا وعلى مائة الف لوحـة بوذية بيع جزء منها وبثمنه شيّد المتحف الوطني « سام پرايا » وهو اسم الملك الذي أسس الدير في القرن

الخامس عشر . كانوا ثلاثة اخوة عيّنهم والدهم الملك حكاماً على ثلاث مدن . حين توفي الملك هرع اثنـان الى ايوديا وتقاتلا على العرش ممتطين فيلين ولقيا حتفهما فاعتلى العرش سام پرايا وبنى دير راجبورانا حيث أُحرِق جثمانا شقيقيه.

على مدخـل المتحف تماثيل أربعـــة حرّاس برأس نسر وجسم انسان وذيل مهر . في الداخل صور حيوانات خرافية مثل ايراوان وجارودا وناجا[1] وبوابة رسم عليها « براهمــا » بأربعـــة وجوه وعن جانبيها أوانٍ وصناديق كانت فيهـــا الذخائر واللوحات. كل المتحف تقريباً هو بوذي ومعروضاته من القرن التاسع ومـا بعده : بوذا على ورقة اللوتس، بوذا المتجول يبشر بمذهبه ، المتربّع يتأمـل وهو شابك يديه، المحسن باسطاً يديه، الشافي وبيده ورقة نخيل ودواء ، قاهر الشيطان «مارا» بإشارة من يمينه . بوذا بتـــاج وبغير تاج ، متربع وفي حضنه

بوذا يمشي

(١) ايراوان فيل ذو ثلاثة رؤوس . وجارودا نصفه انسان ونصفه طير . وناجـا الافعى السماوية .

الكرة الارضية وفوق هامته رأس وخرطوم فيـل ، أو تحت شجرة المعرفة يتقبل الاستنارة ، أو بين ملاكين يحملان فوقه مظلة ، أو تحت شمسية تقيه من المطر وهو يتأمل . بوذا المسجى حين توفي أو انتقل الى النيرڤانا .

رأيت في قاعة رحبة تماثيل بوذا من مختلف البـــلدان : بورما و نيبال والهند والتيبت وسيلان وجاوا والصين وتايلاند ... والتماثيل المذكورة هي مذهّبة أو مفضضة أو من برونز أو فخار أو حجر . في وسطها تمثال مكرّم جداً يخرجونه الى البـــاحة في رأس السنة الميلادية وفي رأس السنة البوذية وينضحونه بالعطور .

في المتحف جنـاح الخزف والفخار وآلات كانت تستعمل للعبادة منها الصنوج . وهوادج مذهّبة للأمـيرات . وأشغال يدوية من برونز وقيشاني وقش وبامبو. وعربات مذهّبة تشبه أبراج المعابد كانت تنقل جثث الملوك لحرقها وزن احداها ٢٠ طناً وطولها ١٢ مـــتراً وكان يجرّها ١٣٥ نفراً . على النعش توجد صورة بومة .



قاعة العرش او البرلمان



قاعة العرش أو البرلمان :

في ١٩٣٣ أصبحت قاعـة العرش البرلمان. بناها مهندسون ايطاليون على طراز عصر النهضة وبشكل صليب وكلفت ٣,٥ مليون دولار.

في الصدر عرش الملـك مغشّى بصدف ومصمّم بحيث يمكن الملك ان يجلس عليه « جلسة اللوتس البوذية » وعليه رمز يذكـّر بحجر العرش الذي يرتقي الى ١٢٨٢ وهو الآن في القصر الملكي. فوقه شمسية تساعية وعلى جانبيه سبع شمسيات كل واحدة منها سباعية. عن يمينه كرسي رئيس الوزراء وعن يساره كرسي رئيس المعارضة . على أحد الحيطان تمثل لوحة إعـلان الحرية الدينية في سيام وعلى حائط ثانٍ رامـــا الخامس يلغي الرقّ وعلى ثالثٍ راما الاول يمتطي فيلاً ويشرف على تأسيس العاصمة بنكوك .

فيل ابيض :

لا بد لكل اجنبي من زيارة الفيل الابيض في حديقة الحيوانات. يكرمونه لأن بوذا تقمّص في إحـدى حيواته السابقة في جسم فيل أبيض ! مشيت طويلاً في المطر والوحل حتى بلغت « مقدسه » . قلت لدليلي : ولكنه ليس أبيض فلونه كلون سائر الفيـــلة ؟ فصبح على نقاط بيضاء تكاد لا تلمح في خرطومه وحول عينيه وفي قوائمه : انه محجّل واحد من الالف ؛ ألا يكفي هذا للقول انه ابيض ! في ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٩ رُقي الى درجة « الفيل المقدس المعبود » واطلقت عليه أسماء عديدة منها اسم الملك « فوميفون » ولم يعد يسرح ويمرح في الحديقة بل حجز في قفص واسع من حديد يتقبل فيه إكرام الشعب . في العصور الخوالي كان ظهور فيل محجل بشير هناء ورفاهية للشعب .

القصر الملكي :

قضينا نصف يوم في زيارة القصر الملكي ومعبد بوذا الزمردي الذي داخل أسواره . نبهنا الدليل ان يكون الرجـــال بالياقة والجاكيت والنساء بزي محتشم لائق . مباني القصر هي افخم وأكبر مجموعـة هندسية في بنكوك . سطوح متداخلة في سطوح وقباب بجوار قباب ذات ادوار متعددة والطراز السيامي يختلط بالهندي والكمبوجي فالقبة الكمبوجية برج ذو طبقات، والهندية

كالجرس ، والسيامية كمركب مقلوب. البوابات عالية جداً إذ كانوا يعبرونها وهم على ظهر الفيل .

بدأ قصور « شاكري » راما الاول مسخراً جنـــوداً كمبوجيين وضع رسومهم على البوابات . أول غرفة زرناها هي غرفة حلق الشعر حين يصبح الامراء رهباناً بوذيين . ثم القاعة حيث يسجّى جثمان الملك وكانت قبلاً قاعة التتويج . يخرج منها الجثمان ليحرق في باحة القصر ثم يضمون الرمادفي المعبد. في السقف الـ « جارودا » ملكة الطيور السماوية ومنزلة الأمطار وقد أصبحت من شارات المملكة وتصور على الاعلام الملكية حمراء في مرج مذهّب . والـ « ناجا » الأفعى السماوية منزلة الأمطار ونصف الآلهة وترى في السقوف وعلى سطوح المعابد جسمها منسحب على شفير السطح وذيلها ملتف على ظهرها . ترسم أحياناً بقرب بوذا ولهـــا سبعة رؤوس لأنها حمته بها من الأمطار وهو يتأمل . وعلى جدران قاعة التتويج هـذه صور ملائكة ينبثُـون من اللوتس ويبدو التلوين كسجّاد . السقف أحمر مع نقوش مذهّبة والعواميد من لونين أحمر ومذهّب والنعش مذهّب ومزيّن بالحجارة الكريمة ويوجـد في القاعـة ركن خاص للرهبان البوذيين . رأينا عرشاً أسود من خشب مغشّى بالصدف وفوقه الشمسية ذات التسع قطع تحمي الملوك من الشمس المحرقـة ومن المطر الشديد في هذه البلاد .

ثم مررنا بقاعة العرش وفيها أربع لوحات كبيرة تمثـــل استقبال لويس الرابع عشر في فرساي لأمير تايلاندي ، واستقبال الملك مونكوت (راما الرابع) لسفير انجليزي ، واستقبال الملكة فيكتوريا لأمـــير تايلاندي ، واستقبال نابليون الثالث لسفير سيام . « الجارودا » تحمل العرش للدلالة على انه فوق الأرض والعالم . في قاعة استقبال الملكة رسوم مطرزة لراما الأول بشكل قائد جيش وللملوك حتى راما السادس . وفي قاعـة استقبـال الملك رسوم ملكات تايلاند .



القصر الملكي



قصر بانجبرين

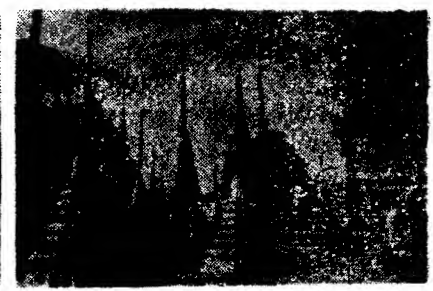
هنا أيضاً جناح قصر الضيافة وقاعـة استحمام حسب الطقوس الهندية لكنها لا تستعمل الآن ووراءَها جناح الحريم .

على السطوح مجموعـــة أخرى من المباني منها « البانثيون — مجمع الآلهة » بشكل صليب وفوقه قباب عديدة تحمل إحداها خطافاً بثلاث شوكات شارة الإله الهندوسي « شيفا » . في البانثيون تماثيل ملوك سلالة شاكري ، القدماء منهم بالزي السيامي والحديثون بالزي الأوروبي . ثم قاعة المكتبة المقدسة حيث تحفظ الكتب البوذية . فعواميد تحمل سطوحاً وأبراجاً تطلّ من فوقها سطوح وأبراج أخرى حسب طراز الفن المعماري التايلاندي الأصيل .

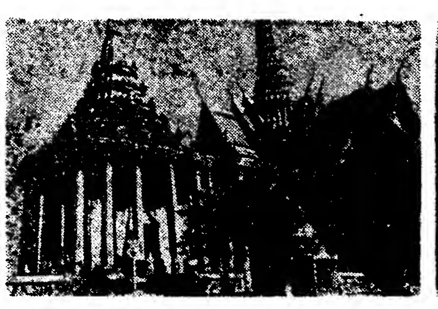
رأيت تماثيل فيلة بيضاء وعلى كل فيل نموذج من تاج الملك الذي اصطيد الفيل في عهده . وصور نصفها بشر ونصفها طائر اسمها « كنّارة » يقال انها تعيش في أدغال جبال « حملايا ». وصور نصفها شياطين ونصفها اسود . بنى الملك راما الاول فوق هذه المجموعة ٨ أبراج بثمانية ألوان تمثل ثمانية كواكب.

بوذا الزمرُّدي :

هو أقدس وأحبّ بوذا في بنكوك . معبده داخل أسرار القصر الملكي. خلعنا أحذيتنا وولجنا من إحدى البوابات الاربع التي تحرسها تماثيل أُسُود . يجلس بوذا على عرش مذهّب علوّه ١٠,٥٠ متر والعرش على هيكل من بلور.



جمال السطوح



أناقة وغرابة

اكتشف التمثال في القرن الخامس عشر وقيل انه من زمرّد ولكن هو قطعة واحدة من اليشب الاخضر . تقول التقاليد الشعبية ان الآلهة صنعته لملكة الافاعي في سيلان ثم تنقّل في ممالك عديدة كغنيمة حرب الى ان وضعه راما الاول في هذا المعبد المدعو : « المعبد الذي يحتوي على الجوهرة الفريدة لدير المعلّم الآلهي » . تنبسط فوق التمثال المظلة التساعية البوذية يحملها أربع تماثيل بحجم الانسان . وتوجد تماثيل أخرى نصفها الاعلى امرأة والاسفل طير . وتماثيل صينية صغيرة يفيض منها البشر والضحك . وتماثيل حرّاس المعبد بوجوه مقنّعة .

يعتبر التايلانديون بوذا الزمرّدي كشخص حيّ فيما بينهم يكرمونه ويأملون منه التعزية والحظ والمال والحب . في بدء فصل الجفاف (تشرين الثاني — شباط) يربطون ذراعيه بشرائط تتدلى منها حلي ومجوهرات ويضعون عقداً ثميناً في عنقه وحزاماً حول وسطه وأساور في ساقيه ومعصميه . وفي بدء فصل الامطار (اذار — تشرين الاول) يغطّونه بشملة تقيه من البرد . لهذا التمثال أوقاف غنيّة وتقادم ورأيت منها شجيرات من ذهب وفضة عند الهيكل تبرع بها أمراء من لاووس وماليزيا .

تقدمت سيدة أمامنا وركعت وضمّت يديها وانحنت حتى لامست بهما

الارض وسجدت هكذا ثلاث مرات . ثم أحرقت عود بخور موجّت به أمام بوذا وهي « تتمتم » .


بوذا الزمردي

في حرم المعبد ركن التكريس وهو فسحة محاطة بثمانية حجارمقدسة تشكل تخومها وحجر تاسع تحت أرضها . هنا تتمّ حفلة الانخراط في سلك الرهبنة .

في قاعة الاجتماع مراحل حياة بوذا ومشاهد مصوّرة خيالياً منحياة بوذا السابقة اذ عاش ٥٥٠ حياة قبل مولده في سنة ٥٦٦ ق . م . حول قاعة المصلّين هذه ١٢ غرفة للاستراحة ترتفع فوقها الابراج وفي وسطها أجمل قبة جرس في بنكوك . يقصد المرضى تمثالاً برونزياً لراهب بوذي اشتهر بمعجزات الشفاء .

معبد روح المدينة والحظ :

في احد ميادين بنكوك نافورة « توراني » آلهة الارض يتساقط شعرها كالمطر وبذلك تخصب الارض وتطرد الشيطان « مارا » . وفي ميدان آخر معبد روح المدينة « لاك موانج » في داخل عمود . المعبد صغير جداً مبنى بالآجرّ ومغطى بطين أصفر . تباع حوله أوراق اليانصيب فيستشيرون إله معبد المدينة ليوحي إليهم بالنمر الرابحة ويفتدون عصافير حيّة اذ يشترونها ثم يطلقون سراحها معتقدين ان في ذلك مثوبة ومجلبة للحظ . ويستطلعون مستقبلهم عند « قارئي البخت » قبل سفر أو مشروع أو موعد عقد زواج.

معبد پو – بوذا النائم :

انه أوسع معبد في بنكوك وله ١٦ بوابة. أهم ما فيه القباب وقاعة الصلاة وبوذا النائم.

بين القباب العديدة أربع خضراء وبيضاء وصفراء وزرقاء شادها الملوك الاربعة الأول من سلالة « شاكري » على ثلاثة سطوح يطلّ الواحد من فوق الآخر. يحب التايلانديون تعدّد الألوان وعلم بلادهم أحمر – أبيض – أزرق – أبيض – أحمر.

لقاعة الصلاة ٨ أبواب من خشب طعّم بصدف. من الداخل تشبه القاعة كنيسة: ردهة في الوسط وعن يمينها ويسارها عواميد وراءَها رواقان. في الرواقين ٣٩٤ بوذا بجلسة اللوتس. هنا تتعبّد النساء العاقرات للإله « شيڤا » فيقدمن له زهوراً صفراء وأنسجة حريرية معطّرة لعلّه يرزقهن بطفل. رأينا نساء كثيرات جالسات يأكلن ويشربن ويتحدثن ويحرقن البخور وينرن الشموع ويستمعن الى عظة راهب أوجزها لنا الدليل: الجسم يتعب وينام ولكن الذهن لا ينام. لكي نبلغ السعادة والخلاص علينا ان لا ننغلب للهموم والقلق. الماضي لن يعود والمستقبل سر مجهول فما فائدة الحزن والخوف والاضطراب؟ قلت في نفسي: انها أفكاري ومبادئي في الحياة فيمكنني أن أعظ مكانه.

تمثال بوذا النائم طوله ٤٩ متراً وعرضه ١٢ متراً يمثّل بوذا وهو يموت أو ينتقل الى النرڤانا. التمثال مصنوع من اسمنت مغطى بجص ثم بورق مذهّب فيه مائة كيلو ذهب ولكن بعض اجزائه متكسرة وفقدت ذهبها. قدماه مكسوان بـ ١٠٨ صور من صدف في مربعات.

معبد فولكلوري :

شيّد راما الرابع معبد« راجاپراديست » أي الخليقة الملكية. على جدرانه

مشاهد من الحفلات والأعياد الدينية والشعبية ومنها : راما الرابع يشاهد اول كسوف روى عنه تاريخ تايلاند في ١٨ آب ١٨٦٨ . تقديم الطعام للرهبان باليانصيب : توجد سلال مرقمة يسحب الراهب رقماً فيعطى السلة التي تحمل الرقم نفسه . دخول الأمراء في الرهبنة وبهذه المناسبة ينثرون الصدقات على الشعب . ومشهد طريف جداً يدعى « برهان البكارة » : تعدّ فتيات « الأكل السماوي » للرهبان فالتي يتبقّع ثوبها أو تحط عليها او على طعامها ذبابة او نملة تكون غيرعذراء وتسوء سمعتها وقد تنتحر ،لذلك يعددن الطعام باقصى سرعة . مشهد تقديم الاردية البرتقالية للرهبان في ختام السنة البوذية . مشهد طرد الشياطين من المدينة في نهاية السنة القمرية مع قرع الطبول والمفرقعات واطلاق المسدسات .

في حرم المعبد بقايا « شجرة صينية » حيث شنق صيني نفسه . من وقت إلى آخر تأتي جماعات صينية تصلي وتقدم أي شيء المعبد لتهدئة وترضية روحه . الحي التجاري الصيني قريب من هنا واسمه « سمبانج ». التايلانديون لا يحبون الصينيين لأسباب كثيرة منها : كثرة عددهم وتعصبهم بعضهم لبعض وتكدس ثروات بين ايديهم وميلهم الى الصين التي لا تحبها تايلاند .

معبد الفجر :

بنى راما الاول « معبد الفجر – WATARUN » موطىء قدم له عندما هرب ليلاً مع زوجته واخوته وأتوا الى بنكوك ونووا أن يجعلوها العاصمة . انه أعلى معبد (٨٣مترا) ومن سطحه احتفظت بمنظر اخّاذ لبنكوك الغريبة العجيبة بغالب ما فيها . يتفرّد بصورة إله القمر على متن جواد أبيض وبصورة « اندرا » إله الرعد الهندوسي يمتطي فيلاً ذا ثلاثةرؤوس (ايراوان). مرة في السنة يزوره الملك مع البلاط قادمين على ٥١ مركباً طويلا تشبه

« الجندول » . ستون مجذفاً يحركون «المركب الملكي الذهبي» وستون غيرهم مركب « الافعى ذات السبعة رؤوس » الذي يحمل الهدايا الملكية الى معبد الفجر . كثير من تلك المراكب الغريبة يرسو في نهر « مينام » .



المراكب الملكية

بوذا الحشيشة :

أحدث معبد بناه راما الخامس سنة ١٩٠٠ اسمه « بنشامابوپيت » وكله من رخام « كارّارا » الإيطالي الشهير. ويوجد معبد اسمه « راجانادا » بشكل قارب صيني امر به راما الثالث متعللاً بأن شكل هـذا القارب سيندثر مع الزمن فيحسن ان يحفظ هكذا للتاريخ . في معبد «رجابوپيت» توجد الأوسمة التلايلاندية : التاج الملكي – الفيـــل الابيض – سلالة شاكري – الحجارة الكريمة التسعة ولكل حجر ميزة تمنح حامله الامان والتوفيق والصحة وتضع الأميرات رسمه على خواتمهنّ . في معبد « تريميت » اي الأصدقاء الثلاثة يوجد تمثـال « بوذا الذهبي » يزن ٥٫٥ طناً من الذهب ($\frac{٧}{٩}$ من ذهب صرف) . التمثال هـــو من القرن الثالث عشر وفي زمنٍ مجهول نقل من « ايوديا » الى بنكوك وأُخفي ونُسِيَ مخبأه . اشترى ثلاثة اصدقاء قطعة أرض وحفروا فيها ليبنوا مطحنة فعثروا على هذا التمثال وكان ملاطاً تشقق فبان الذهب . في معبد « بوفورنيف » رسم مشهد اول سباق خيل في بنكوك وأول صلاة مسيحية بروتسطنتية في بنكوك . وتوجد في باحته شجرة « بو » البوذية فصيلتها من الشجرة الاصلية التي استنار تحتها بوذا وبقربها طبعة قدمي بوذا. في « معبد الجبل الذهبي » عظمة من بوذا أُتي بهـــا من سيلان سنة ١٨٩٩ باحتفال فخم . ولا ازال اذكر من هذا المعبد رسماً خيالياً للنرفانا وتحتها رسم

لجهنم حيث يعاقب إله الموتى الأشرار ورسم ملائكة يلوحون بالمراوح لرهبان بوذيين يتلون « السوترا » أي النصوص البوذية المقدّسة .

اختم هذه الفسيفساء عن المعابد بمعبد « بوذا الحشيشة » : منع راما الثالث تجارة وتعاطي الافيون وكان مرسومه هـذا اول نص طبع في بنكوك سنة ١٨٣٩ في مطبعة امريكية . الصناديق التي صودرت صُهرت وصنع منهـــا « بوذا الحشيشة » هذا وبجانبه نموذج من مرسوم الملك !

الرهبان البوذيون :

في بنكوك ٤٠٠ معبـــد بوذي وفي تايلاند ١٨ ألف راهب بوذي . في الصباح كنت ارى الرهبان البوذيين أفواجاً أفواجاً يسيرون حفاة او يحتذون صندلاً خشبياً ورأسهم حليق ورداؤهم برتقالي وباليد قصعة للتسوّل . يدورون على البيوت يستعطون أكل نهارهم . يتناولون عند الظهر وجبتهم الوحيدة كل ٢٤ ساعة . لا يذوقون اللحم ولا اي منتوج حيواني . المتقدمين حق تعرية الكتف أما المبتدئون فلا .

يمكن ان يصير الرجل راهباً ـ أو المرأة راهبة ـ مرات عديدة في الحياة أو مرة واحدة طول العمر او لفترة أعوام او أشهر او أيام. يبدأ الولد طالباً في المعبد او الدير يخدم جماعة الرهبان ثم يصبح مبتدئاً . لا يقبل نهائياً راهباً قبل سن ٢١ . اذا دخل بعـــد الحادية والعشرين ونجح في امتحانات الترهب يصبح حالاً راهباً . تريد التقاليد ان يدخل الصبي قبـــل المراهقة ليعتاد السيطرة على ذاته والخدمة والتواضع والمحبة والتسامح واحترام الجنس الآخر . واذا عاد الى حياة العالم يكون مُهيّئاً لسلوك شريف .

تعتبر العائلة شرفاً لها ان يتكرس احد ابنائها او بناتها في الرهبنة وبذلك علامة « الخلاص او الفداء » للعائلة . وإكراماً لذكرى الوالد المتوفى يترهب أحد أنجاله ولو لفترة ثلاثة أشهر. « البطريرك الأعلى للرهبنات البوذية قداسة فلان ... ورئيس دير « ماكوت ـ MACUT » كان الأب الروحي والمرشد

الملك الحالي حين ترهب مدة ثلاثة أشهر في سنة ١٩٥٦ . للنساء رهبنة خاصة بهنّ . يحلقن شعرهن ويلتحفن بالرداء البرتقالي . لا يشتركن في الطقوس بل يقمن ببعض الخدمات الدينية . في القديم كانت الحياة الاجتماعية تدور حول المعبد والدير وكان الفلاحون يرسلون ابناءهم الى الرهبان ليتعلموا الحكمة وقوانين الحياة .



الرهبان البوذيون يتسولون

المهرجانات :

مهرجاناتهم وحفلاتهم لا تنتهي وغالبها بوذية . حضرت يوم ٦ تشرين الاول افتتاح حفلة ألعاب رياضية بدأت بمسيرة حول فيل مزين . الملاكمة التايلاندية باليدين والمرفقين والقدمين. يحبون مباريات طيارات الورق وسباق الجواميس ومصارعة السمك في الاناء ويراهنون على الأسماك مميزين اياها بألوانها .

كان أهم مهرجان يقام في رأس السنة ـ أول نيسان ومنذ ١٩٤١ أصبح أول كانون الثاني ـ فكان عام ١٩٤٠ في تايلاند تسعة أشهر فقط . كان حسابهم السابق بالسنين البوذية (١٩٤٠ = ٢٤٨٤) .

في ٦ نيسان يؤم الشعب معهد القصر الملكي حيث بوذا الزمردي ويقدمون زهوراً او شموعاً وبخوراً تكريماً لسلالة « شاكري » . وفي منتصف نيسان

يطوفون بتماثيل بوذا « ويحشونها » ويزينونها . في نيسان أيضاً مهرجان الغفران : يحملون رملاً إلى باحات المعابد وكل حبة رمـــل يقابلها غفران



في دير رهبان بوذيين

خطيئة ! اتعدى عن ذكر باقي المهرجانات ولكن لا يمكنني ان اغفل اثنين هما بدء ونهاية فترة الترهب .

حفلة بدء الترهب :

تبدأ فترة الترهب في تموز فيحتفل الأهــل والجيران والأصحاب بالذين سيدخلون الدير . يلبس هؤلاء أجمل ثيابهم – كما كان يلبس الأمير بوذا – ويخرجون من بيوتهم في موكب كبير . حين يصلون الى الدير يخلعون كل ملابسهم الا ما يستر عورتهـم ويحلقون كل شعر رأسهم ويرتدون الجلباب البرتقالي وينضمون الى الرهبان .

حفلة نهاية الترهب :

مع سقوط آخر الأمطـــار في تشرين الاول يسمح للرهبان ان يمضوا بعض الليـــالي خارج الدير وان يحجوا الى مزارات . وتنتهي بالنسبة لكثيرين من الشبان فترة الترهب المؤقت . يتألف موكب يطوف في النهر او في الشوارع ويحمل افراده زهوراً واعلاماً ملونة وهدايا للرهبان وينضم الكثيرون الى الموكب في مسيرته هازجين مغنين راقصين. يحمل البعض عجلات يديرها الهواء وقد نقشت عليها آيات دينية . يقدمون للرهبان وجبتهم وتكون « أطيب » وجبة بالسنة . ثم يسلمونهم الهدايا فتصبح ملكاً للدير او المعبد او لجماعـة الأخوة ما عدا بعض أشياء يمكن للراهب ان يحتفظ بها لنفسه وهي : اردية برتقالية – حزام – شمسيات – قصعات التسوّل – مراوح – آلة حلاقة – ابر وخيطان – قدور – أكياس – ادوية – قماشة لتصفية ماء الشرب كيلا يبتلع

اي كائن حي قد يكون في الماء . بهذه المناسبة يرسل الملك هـــدايا لبعض الاديار والمعابد وعلى رأسها « معبد الفجر » .

من نوادرهم :

الرقم ٩ هو بشير خير وتقدسه البوذية .

الرأس لا يُمسّ ولا يداعب . كانت البيوت بدوْر واحد كيلا يمشوا فوق رؤوس الجيران « اللي تحت » . وقد طُرد احد قناصل فرنسا من سيام لأنه جذب خادماً من شعر رأسه .

لا يضعون « رجلاً فوق رجل » لأن قدم الرجل المعتلية قد تدلّ على احد الحاضرين .

طريقة السلام : ضم الراحتين امام الصدر مع احناء الرأس .

قبل دخول معبد او بيت يخلعون الحذاء وقديمـاً كانوا يغسلون أقدامهم قبل الدخول .

من امثالهم : العقلاء يذهبون الى النـوم في الهجعة الأولى من الليل (٩ مساء) والتجار في الثانية (نصف الليل) والسارقون في الثالثة (٣ صباحاً).

يحبّون الاطفال ويحترمون المسنين حتى انهـم يقفون ويستأذنونهم للمرور من أمامهم في البيت . وفي الشرق الاقصى كانت المرأة السيامية تتمتع بأعلى درجة من الاحترام بين نساء آسيا .

يدربون القرود على قطف جوز الهنـــد . يتسلق القرد الشجرة ويمسك الثمرة ويتطلع الى معلمه ليعرف من اشارته هل هي ناضجة فيقطفها .

حسب تقليد قـديم تـُنعم آلهة الكواكب بالحظ على الذين ـ وخصوصاً اللواتي ـ يلبسون ألوانها :

اليـــوم	الكوكب	اللون المفضـــل
الاحـــد	الشمس	أحمـــر
الإثنين	القمـــر	أصـــفر
الثـــلاثاء	المريـخ	وردي
الاربعاء	عطـــارد	أخضر
الخميس	المشتري	برتقـــالي
الجمعـــة	الزهـــرة	ازرق
السبت	زُحـــل	مخمـــل

أشهر توأمين ملتصقين :

بمنـاسبة زيارتي لبنكوك اودّ ان أوجز للقراء قصة التوأمين السياميين الشهيرين . وُلدا سنة ١٨١١ ملتصقين عنـــد جنبيهما وعاشا ملتصقين اذ قال الاطباء انهما يموتان اذا فـُصلا . بلغ طول « شانج – CHANJ » ١٥٥ سم وطول « انج – ENJ » ١٥٧ سم فمنعاً للعرج كان كعب حذاء الاول أعلى من الثاني . اذا غـُرز دبوس في العضلة التي تلصقهما احسّ الاثنان معاً وماعدا ذلك كان كل واحـد يحسّ بمـا يحدث لجسمه منفرداً . اصابتهما الحصبة والجدري معاً .

خطفهما بحّار اميركي من ميناء بنكوك وعمرهما ١٨ سنة . تجوّل بهما في أوربا واميركا ثم تنازل عنهما لمـدير « سيرك » كسب بهما كثيراً . احبتهما انجليزية وأرادت ان تتزوجهما ولكن قيل لهـا انهما شخصان والقانون يمنـع زواجها من اثنين فودّعت حبها لهما ببيتين من الشعر :

« آه لكم أكون سعيدة مع احدكما لولا حضور الحبيبين دائمـاً معاً ! »

اكتسبا الجنسية الاميركية واعتبرا فردين مستقلين. كان السؤال الدائم

ما العمل اذا اجرم احدهماوحكم عليه بالسجن ؟ لكن ذلك لم يحدث . كان عيب احدهما السكر ولكن الثاني لم يكن يفقد وعيه معه . كانا ينامان ويصحوان معاً ولايمكن لاحدهما ان يدير حديثاً متميزاً عن حديث الآخر . كانا يتحادثان نادراً لان الافكار والتأثيرات والتعابير شبه مشتركة . كانا يعرفان « الشطرنج » ولكن لايلعبان معاً لان الواحد يعرف ما سيلعبه الآخر . اختلفا في السياسة فسنة ١٨٤٧ صوّت الواحد للحزب الجمهوري والآخر للحزب الديمقراطي .



التوأمان السياميان

في ١٨٤٣ تزوجا اختين اميركيتين لم تتفقا في حياة مشتركة تحت سقف واحد ولم ينسجم كل من التوأمين مع زوجة شقيقه فكان الحلّ ان سكنت الزوجتان في منزلين منفصلين وكان التوأمان يقضيان ثلاثة ايام هنا وثلاثة ايام هناك . دام زواجهما ٣٠ سنة ورزق شانج ٧ بنات و ٣ صبيان ورزق انج ٧ صبيان و ٥ بنات .

في ٢٣ كانون الثاني ١٨٧٤ ـ وعمرهما ٦٣سنة ـ أصيب شانج ببردوهماعلى ظهر حصان وسط عاصفة ممطرة . في الليل استيقظ انج فرأى ان شانج قد توفي فاضطرب وتشنّج ومات بعد ساعتين . قال الطب الشرعي ان شانج مات من احتقان في المخ وانج مات من الرعب ...

٧٢

بوذا

بنكوك هي « روما » البوذية في الشرق الاقصى . زرت العديد من أديارها ومعابدها وجلست مع رهبانها وقرأت من نصوص البوذية وأودّ ان اثبت هنا شيئاً من ذلك .

حياة بوذا :

وُلد بوذا سنة ٥٦٦ ق . م . (يقول البعض بين ٥٦٦ و ٥٥٣) في شمال شرقي الهند على حدود « نيبال » . كان ابن زعيم قبيلة « شاكيا » من أسرة تنتمي الى طبقة « الكشتريا » العسكرية وهي الثانية بعد البراهمية . تزوّج ابنة عمه ولكنه زهد في حياة الدنيا فأصبح راهباً متوحداً ثم متجولاً وعلّم مذهباً عن الاستنارة وطريق السعادة والخلاص وصار له أتباع كثيرون في مناطق نهر « الجانج » الشمالية الشرقية . مات وعمره ٨٠ سنة .

تلك هي الخطوط الرئيسية التاريخية عن بوذا ولكن أتباعه يروون حياته بطريقتهم الدينية فيضيع بوذا التاريخ في عناكب الخيال .

ذات ليلة حلِمت الملكة « ماهايا ما » زوجة ملك «شاكيا » ان الحرّاس

السماويين لجهات الأرض الاربع حملوها الى بحيرة حيث استحمّت ثم دخل في جوفها فيل ابيض في خرطومه زهرة لوتس . في اليوم التالي فسر المنجّمون حلمها بأن روح الحقيقة حلت عليها فحبلت بدون زرع رجل وستلد ولداً عجيباً سيكون ملك العالم او معلّم العالم . وُلد الطفل في غابة وأمه في الطريق الى اهلها . استظلت تحت شجرة ومدت يدها لتهز غصناً واذا بنور يشرق حولها وبصوت يقول ان الفرح سيعم السماء والارض لأنه يولد منها الذي سينشر العلم والحق والسلام . وخرج الوليد من بطنها وخطا سبع خطوات ثم انتصب وقال : « هذا آخر ميلاد لي فلن أولد من بعد » . وجاء ملوك قدّموا للوليد زهوراً .

في اليوم الخامس لميلاده أعطوه اسماً مدنياً « سيدهارتا — SIDDHARTA » واسماً دينياً « جوتاما — GAUTAMA » وله لقب آخر هو « شاكيا موني » اي الراهب المتوحّد من قبيلة شاكيا .

تنبأ المنجمون انه سيصير ملكاً على العالم إلا إذا أثرت عليه علامات اربع واقنعته بأن العالم زائل فحينئذ سيصبح معلم ومخلص العالم. جاء شيخ حكيم وقال ان هذا الطفل سيكون مخلص العالم وبكى فرحاً لأنه رآه قبل الوفاة. أما أمه فقالت : لن ألد آخر . ماتت بعد ولادته بأيام قليلة فأرضعته خالته. خشي والده ان تتحقق نبوءة المنجمين فغمره بالغنى والملذات وخصه بثلاثة قصور وعلمه الفنون والفلسفة والفروسية وحين بلغ سن ١٩ تزوج بنت عمه « يا شود هارا » .

في صباه رأى عصفوراً ينقض ويلتهم دودة فتساءل لماذا تأكل الأحياء بعضها بعضاً ؟ وكان دائم التفكير بسر الألم . وضعت الآلهة على طريقه العلامات الاربع . فذات يوم وهو مع حوذيه وخادمه « شانا » رأى شيخاً عاجزاً ثم رجلاً مريضاً تنهشه الدمامل ويرتعش من الحمى ثم جثة محمولة لتحرق. وأخيراً رأى راهباً متسولاً متجولاً مرتدياً جلباباً أصفر يشع منه الهدوء

والصفاء . أدرك ان الإنسان عاجز عن دفع الشيخوخة والمرض والموت وان السعادة هي في انتحال حالة الزهد والرهبنة . ظل يفكر في هـذه الأمور ووالده يحاول ان يغرقه في نعيم الدنيا وهو عازف عنه .

ساعة واحدة بعـد ولادة بكره « راهولا » ركب حصاناً واصطحب خادمه « شانا » ورافقته آلهة غير منظورة بطـنّـنت حوافرحصانه لئلا يسمع وقعها . عنـدما بلغ حافة نهر خلع ملابسه الملكية وحزامه المذهب وسيفه وأرسلها الى والده الملك . وحلق شعره الطويل ومشى حافياً مرتدياً جلباباً برتقالي اللون .

من ذلك الحين اخذ بوذا أربعة مقاصد : ان يحرم نفسه من كل الشهوات – ان يتعلم كل التعاليم – ان يبلغ الاستنارة – ان يخلص الشعب من الألم .

بدأ يستعطي طعامه في قصعة وانضوى تحت ارشاد راهب ناسك هندوسي تعـلم منه التأمل والديانة الهندوسية لكنه لم يقتنع انه بذلك سيبلغ المعرفة والخلاص من الألم . انضم الى خمسة نسّاك عائشين في تقشف صارم جداً بغية الوصول الى السعادة الـكاملة بعدم تكرار المولد أي بأن لا يتقمصوا بعـد في جسد آخر . كان يصوم كثيراً ويكتفي أياماً ببعض حبوب من الرز ويُلقي بنفسه بين الاشواك ويتعرض للبرد والحر . وكان يقول: « لا زاهد في الماضي والحاضر والمستقبل سيتفوق عليّ في التقشف . » بقي معهـم ست سنوات يعذب ذاته الى ان أعي وأغمي عليه ذات يوم حتى ظنوا انه قد مات. لكنه افاق وادرك ان اصوامه وتقشفاته لم تنفعه . وتطهر في نهر « الجانج » المقدس واقتبل رزاً بلبن من يد فتـاة اسمها « سوجانا » فتنكر له رفاقه . عاد الى التجول والتسول واذ تعب يوماً من المسير جلس في ظل شجرة في ضواحي مدينة « جايا » وقال في نفسه : لن اترك هذا المكان – ولو انفصلت عظامي وجمد دمي – إلا إذا اكتشفت سر الألم. وبقي على هذه الحالة ٤٩ يوماً جرّبه خلالها « مارا » اي الشيطان . اتخذ الشيطان شكل رسول من البلاط أعلمه

ان والده ووالدته قد اعتقلا في ثورة فلم يتحرك . جرّبه بالزلزال والعاصفة والسيل وهو بقي جالساً الأربعاء تحت الشجرة . قدّم له « مارا » دليلاً على قدرته بأن مسّ الارض بأصبعه فصرخت : «انا اشهد له» . ثم جسّد «مارا» الشهوة واللذة والهوى في ثلاث فاتنات غنّين ورقصن وجرّبن مختلف أنواع الاغراء لكن « جوتاما » لم ينهزّ ولم يتحرّك . قال له « مارا » انه سيجعله ملك العالم وهو لم يعبأ به. ذهب عنه الشيطان واستغرق «جوتاما» في التأمل. في اليوم التاسع والاربعين استنار بمعرفة الحقيقة واكتشف سر الألم والواسطة للنجاة من الألم . منذ تلك اللحظة ـ وكان عمره ٣٥ عاماً ـ اصبح « بوذا » اي المستنير لأنه حظي باشراقة المعرفة كأنما بوحي شامل، وصار المعلم الاول والمبارك الاسمى من كل البشر . بقي سبعة اسابيع اخرى تحت تلك الشجرة يتأمل بالحقائق التي تجلت له . اصبحت تدعى شجرة بوذا شجرة المعرفة [1] وأصبحت الغابة غابة بوذا .

تساءل هل يعلن استنارته للعالم فنزل كبير الآلهة « براهما » واقنعه ان ينشر تعليمه فقصد حديقة الغزلان في «بناريس» [2] حيث كان رفاقه الخمسة والقى عليهم عظته الاولى التي عرفت فيما بعد بعظة «حركة عجلة الشريعة» . تبعه الرفاق الخمسة وبعد ايام قليلة انضم اليه ستون راهباً شاباً وانتشر صيته على ضفاف نهر « الجانج » وآمن بتعليمه ملوك كثيرون مع رعاياهم . انشأ رهبانية دعي رهبانها « المتسوّلين » . هدى والده وزوجته وابنه وكثيرين من مملكة والده . قال له والده : انت من اصل ملكي فكيف تتسوّل ؟ اجاب بوذا : انا واتباعي من بوذا القديم الايام . عن طلب خالته أنشأ مكرهاً رهبانية نسائية . اوقف حرباً بين مملكة والده ومملكة مجاورة إذ اخذ يمشي بين الجيشين المتأهبين ويعظهم عن المحبة والسلام . قصد عصابة فأصبح لصوصها اتباعه .

---

(١) هي من نوع الـ « فيكس – FICUS » المنتشر في شوارع القاهرة .

(٢) انظر فصل ٧٩ .

ينسبون الى بوذا بعض معجزات مع انه حرّم على رهبانه ان يقوموا بخوارق وبأعمال سحرية . اتته امرأة بجثة ابنها الوحيد وسألته ان يقيمه فقال لها اذهبي اولاً وأتيني بحفنة حبوب من عائلة لم يمت فيها احد فلم تجد عائلة لم يزرها الموت فأدركت ان لا مناص من الموت والالم وقبلت مصابها واصبحت راهبة .

مدة ثمانية اشهر في السنة كان يطوف البلاد مبشراً ومدة اربعة اشهر المطر كان يختلي مع رهبانه في الاديرة . لم يُضطهَد ولم يلاقِ مصاعب في تبشيره . عرف يوم موته ثلاثة اشهر قبل وقوعه فهيّأ اتباعه له وحذّرهم ان لا يبحثوا عن معلم آخر بعده فمعلمهم هو « الدارما » اي شريعة او تعاليم بوذا . تمدّد بين شجرتين وقال عظته الاخيرة ثم انتقل الى النرفانا فزلزلت الارض واظلمت وقال احد تلاميذه : « كل شيء تم . بوذا باقٍ الى الابد ». احرق تلاميذه جثمانه واقتسم عظامه ورماده زعماء القبائل والممالك المجاورة وبنوا فوقها قباباً .

عظة بوذا الاولى :

على المتجوّل ان يتحاشى امرين : اولهما السعي وراء الشهوات والملذات لأنها سافلة ومضرة وعاقبتها ولادة جديدة (اي التقمص) . وثانيهما السعي وراء الآلام والمشقات لأنها تحط بالانسان وتعذبه ولا تفيده . الطريق الوسط المستنير يتحاشى هذين الامرين ويفضي الى الحكمة والسلام والمعرفة والخلاص والى « النيرفانا » .

الطريق الوسط هو طريق المبادىء الثمانية السامية : الرأي السليم — المقصد السليم — الكلام السليم — السلوك السليم — العيش السليم — الجهد السليم — الاختلاء السليم — التأمل السليم .

هذا هو طريق الألم :

الولادة ألم . الحياة ألم . المرض ألم. الموت ألم . التواجد مع غير المحبوبين

ألم . الانفصال عن المحبوبين ألم . كل رغبة غير مشبعة تنتج الالم .

هذا هو طريق تولد الألم :

من الشهوة التي تفضي الى ولادة جديدة وتحمل الميل وتبحث عن اللذة تارة هنا وتارة هنالك. من الرغبة في اللذة الحسّية وفي طول العمر وفي التسلط.

هذا هو طريق التخلص من الألم :

القضاء على الشهوة بحيث تموت الرغائب . الإعراض عن الشهوة والتحرّر والنجاة منها ويتمّ ذلك باتباع الصراط السامي او المبادىء الثمانية وهي : الرأي السليم ... التأمل السليم .

عظة بوذا الاخيرة :

اجعلوا من تعليمي نوركم . ثقوا به . لا تتبعوا اي تعليم آخر . اجعلوا ذواتكم نوراً . ثقوا بانفسكم . لا تتبعوا اي شخص آخر .

لا تنسوا ان الجسد دنس . كيف تلبون شهواته وانتم تعرفون ان لذته وألمه كلاهما سبب عذاب ؟ فكروا ان روحكم فانية . كيف يمكنكم ان تقعوا فريسة الاوهام فيما يخصها وان تتملككم الانانية والغطرسة وانتم تعلمون ان هذه كلها تنتج في النهاية العذاب ؟ تأملوا بالكائنات . هل يمكنكم ان تجدوا فيها ذاتاً جوهرية ؟ أليست مكوّنة من جزيئات وعاجلاً ام آجلاً ستتحطم وتتناثر ؟ لا تكونوا في حيرة ويأس ازاء شمول العذاب بل اتبعوا تعليمي فتتخلصوا من العذاب . افعلوا ذلك فتكونوا حقاً تلاميذي .

يا تلاميذي ، لا تنسوا ولا تتركوا التعاليم التي اعطيتكم اياها. حافظوا عليها وفكروا فيها واعملوا بها . إذا اتبعتموها ستكونون دوماً سعداء .

أهمّ ما في تعليمي ان تسيطروا على نفوسكم . احفظوا نفوسكم من الجشع فبذلك يبقى جسمكم صالحاً وذهنكم صافياً وكلامكم صادقاً. فكروا دوماً بزوال الحياة فتصبحوا قادرين على التخلص من الجشع والغضب وقادرين على حفظ ذواتكم من كل شر .

إذا رأيتم ان نفسكم معرّضة للجشع وللتجربة فعليكم ان تزيلوا الجشع وتسيطروا على ذهنكم . كونوا أسياد انفسكم . نفس الانسان تجعل منه « بوذا » أو بهيمة . الذي يغويه الضلال يصبح شيطاناً والمستنير يصبح بوذا. لهذا سيطروا على نفوسكم ولا تسمحوا لها ان تضلّ وتبتعد عن الصراط السامي .

بحسب تعاليمي على الاخوة ان يحترموا بعضهم بعضاً وان يمتنعوا عن الخصام . لا يتنافروا كالماء والزيت بل ليتمازجوا كاللبن والماء . ابحثوا معاً . تعلموا معاً . اعملوا بحسب ما تطلبه التعاليم معاً . لا تبعثروا ذهنكم ووقتكم في البطالة والخصام. تمتعوا بزهور الاستنارة في حينها واحصدوا ثمرة الصلاح.

التعاليم التي اعطيتكم اياها اكتسبتها باتباعي الصراط السامي . عليكم ان تتبعوا التعاليم وتعيشوا بحسبها في كل حين . إذا اهملتموها لن تجدوني ابداً حتى لو كنتم الآن معي وإذا قبلتم واتبعتم تعاليمي تكونون قريبين مني ولو كنتم بعيدين عني .

يا تلاميذي ، النهاية تقترب . فراقنا قريب . لا تحزنوا . الحياة في تغيّر مستمر . لا احد ينجو من انحلال الجسد. الآن اختبر هذا بموتي فالجسم يهوي كعربة مهلهلة . لا تحزنوا عبثاً بل اعتبروا بتعليمي عن الفناء وعن فراغ الحياة البشرية . لا تضيعوا في اضغاث الاحلام آملين ان المتغيّر يصبح غير متغيّر . ان شيطان الشهوات العالمية يتحين دوماً الفرص ليخدع النفس . إذا وُجدت افعى في غرفتكم واردتم ان تنعموا بنوم هادىء تطردونها . عليكم ان تكسروا اغلال الاهواء العالمية وتتخلصوا منها كما تتخلصون من الافعى .

يا تلاميذي ، اللحظة الاخيرة أتت. لا تنسوا ان الموت هو فقط اضمحلال الجسد. الجسد اتى من الوالدين وتغذّى بالمأكل ، والمرض والموت لا مناص منهما. « بوذا » الحقيقي ليس فقط جسداً بشرياً بل هو استنارة . الجسد البشري

يضمحل لكن حكمة الاستنارة تبقى الى الأبـــد في حقائق « الدامار » وفي ممــارسة « الدارما » . الذي يرى جسدي فقط ليس هو الذي يراني حقاً . الذي يتقبل تعــاليمي هو الذي حقاً يراني . بعــد موتي ستبقى « الدارما » معلـّمكم . اتبعوا « الدارما » فتبقوا في الحق .

خلال خمسة واربعين عاماً من حياتي لم افرط بشيء من تعاليمي. لا يوجد تعليم سري ومعنى خفي بل كل شيء قيل بوضوح وعلانية .

يا تلاميذي الاحباء ، هيذي النهاية . بعد لحظة سأنتقل الى «النيرڤانا» .

٧٣

الديانة البوذية

مجامع ومؤلفات :

لم يترك بوذا كتاباً . حسب التقليد عقد رهبانه مجمعاً بعد وفاته تلا فيه «اوبالي» القوانين و « آنندا » العظات حسبما سمعاها منه إذ كانا من صحابته. خلال مئة سنة ظهرت انقسامات وخلافات فعقد مجمع ثانٍ أسفر عن انشطار الاتباع الى فريقين : الذين يؤمنون بتعاليم الاقدمين وأعضاء الجماعة الكبرى. انعقد مجمع ثالث — وهو الوحيد الثابت تاريخياً — برئاسة الملك « اشوكا » أقرّ الفريق الاول وحرم المجدّدين ودفع البوذية الى آفاق اوسع مما تصورها بوذا . وتضخمت « التوراة البوذية » على مدى اجيال عديدة واقحمت عليها مؤلفات دخيلة من علم النفس وما وراء الطبيعة . لا يدّعون ان النصوص الدينية منزلة بل هي مجموعات « حديث » .

مذهب يصبح ديانة :

حسب الرأي الأرجح لم يؤسس بوذا ديناً وتجاهل وجود الله ولم يبحث في « الغيبيات والماورائيات » بل علّم مذهباً اخلاقياً لبلوغ الخلاص من الألم

ومن تكرار المولد ولبلوغ النرفـــانا بالضياع في الطبيعة او الكون الواحد . وقوام مذهبه الزهد والتقشف والاخلاق السامية . والطريق الامين لذلك هو الترهّب . لكن بعـد بوذا بمائتي سنة افرزت جماعاته الديانة البوذية متميزة عـــن سائر الديانات التي نبتت ونمت في الهند وخاضت في العقائد والفلسفة واقامت المعابد .

صنّف « اشوكا » الديانات في مملكته الى خمس : البوذية ــ البراهمية ــ الآجيفيكية (بدعة خرجت من البراهمية) ــ الجينية [1]ــ والديانات الباقية الصغرى مجتمعة . اشوكا هو أعظم ملك في تاريخ الهند . ملك ٢٨ عاماً نشر فيها البوذية وتوفي سنة ٢٣٢ ق. م. قتل اخوتـــه التسعة والعشرين وحرق زوجاته وجواريه الخمسمائة وظلم وطغى . ولكن بعد ان اعتنق البوذية اصبح من « قديسيها » وصار مصلحاً اجتماعيـاً وأرسل بعثات تبشيرية الى كشمير وسيلان وفارس واليونان والاسكندرية .. ويقال انـــه عُقد مجمع رابـع في كشمير في القرن الاول او الثاني بعد المسيح .

عندما اصبحت البوذية ديانة تفاعلت مـــع باقي الديانات . كانت مراكز اشعاعها الاديار و « أماكن مقدسة » للتأمل والنسك تحوّلت بمرور الزمن الى معابـــد . لم يطل عمر البوذية في الهند لأن الهندوسية « امتصتها وابتلعتها وهضمتها » وجعلت من بوذا التجسّد التاسع للاله الهندوسي « فشنو » [2] . نادت البوذية بنبذ الطقوس والذبائح البراهمية وباحلال التأمل والرياضة النفسية محل الصلاة للآلهة وبالغاء الطبقات وبقبول المنبوذين وبالابتعاد عن الغيبيات والسحر وبأولوية الطهارة الداخلية وصفاء النية ونبـــل الاخلاق . لم يكن الشعب الهندي متسامياً متطوراً لتقبلها فانتشرت خارج الهند اكثر ممـــا في الهند .

---

(١) انظر فصل ٧٨ .
(٢) انظر فصل ٨٠ .

تأليه بوذا :

خمسمائة سنة بعد وفـاة بوذا رفعوه الى مصف الآلهة وأقاموا له التماثيل والصور وشيّدوا له المعابـد وبرزت أربعة أماكن للحج هي مسقط رأسه وغابة استنارته وحديقة الغزلان التي ألقى فيها عظته الاولى والغابة التي توفي فيها . فالذي أراد إلغـاء الاديان والذي أنكر وجود الآلهة أصبح المعبود الاول وتحوّل مذهبه الفكري الاخلاقي الى اكبر ديانة في الشرق !

للبوذية ثلاثـة وجوه او مذاهب هي بوذية المركبة الصغرى والمركبة الكبرى ومركبة الصاعقة . لماذا « مركبة » ؟ لأنها تقود اتباعها الى الخلاص او النرڤانا .

بوذية المركبة الصغرى :

هي منتشرة في تايـلاند وسيلان وبورما وكمبودجيا ولاوس، وتزعم انهـا الوريثة الحقيقية الاصلية لبوذا، وان نصوصها المقدسة كتبت فيسيلان بين سنة ٨٩ و٧٧ ق. م. بينما يقول « بوداجوما » وهو من اكبر كتبة البوذية انـه لم يثبت وجود نصوص بوذية مكتوبة قبل القرن الخامس بعد المسيح . كتبت النصوص على اوراق النخيل ووضعت في قفف لذلك يقسمونها الى ثـلاث : قفّة السلوك وقفّة العظات وقفّة علم النفس والطبيعة وما وراء الطبيعة .

يوجز تعليم بوذية المركبة الصغرى كما يلي : الألم يلازم كل حي . مصدره الشهوات فلا يزول إلا بإماتتها . منبع الشهوات هو جهل الانسان ذاتـه إذ يفكـّر ان له وجوداً فردياً مستقلاً يصبو الى الخلود بينما هو ـ ككل ما في الكون ـ سلسلة متعاقبة من الاسباب والنتائج . كل مـا في العالم ـ بمـا فيه الانسان ـ مركب وفانٍ يتحوّل وينحلّ . العجوز في سن السبعين ليس الشخص ذاته الذي ولد منذ ٧٠ عاماً . الذات او الـ «أنا» الثابتة هي وَهمٌ . لا توجد نفس خالدة بـل في التقمّص او تكرار المولد تولد حياة جديدة من تعاقب العلـل والنتائج ولا تنتقل نفس من حياة الى أخرى او من جسد الى

آخر . الله لا يوجد والنفس لا توجـد وبالتالي الاديان لا معنى لهـا . قوانين الطبيعة المـادية والانسانية تطبق ذاتها بدون تدخل إله . لا حياة ثانية بعد الموت بل الضياع في النرڤانا او في وحدة الكون . وإذا سئلت بوذية المركبة الصغرى : إذن ما معنى التناسخ ؟ تجيب : الشمعة تستنير من شمعة ولا علاقة أخرى للثانية بالاولى . وكما ان إنساناً عمره ٦٠ سنة يتألم من مرض أصابه في سن الثلاثين هكذا سبب آلام الانسان اعمال شريرة فعلها إنسان سالف كان إحدى حلقات سلسلة وجوده .

الوجود الوحيد الثابت هي النرڤانا : حالة سعادة كاملة لا تحوّل فيها ولا تطوّر ولا تناسخ ولا تعاقب أسباب ونتائج وتبلغها فقط الكائنات الكاملة . وجود الذات المنفردة هو سبب شقائهـا فإذا « ضاعت » في النرڤانا انعـدم شقاؤها . لا أحد يعرف ما هي النرڤانا على حقيقتها وبوذا نفسه قال عنها : « ليست وجوداً ولا عدماً . لا عقل فيها ولا فراغ ولا زمان ولا مكان ولا حياة ولا موت. انها حالة انعدام الالم بانعدام الوجود الذاتيالمنفرد المستقل». ومن يستطع ان يفهم فليفهم ! انهـا تفوق الوصف ومع ذلك وصفها بعض البوذيين بعبارات مثل: الارض الشريفة البراقة البيضاء الطاهرة لا شيخوخة فيهـا ولا عجز ولا هموم ولا أحزان ولا امراض ولا موت بـل حياة سلام وهناء ونعيم .

أوصى بوذا بعدم البحث في اصل وغـاية العالم والانسان إلا ان بعض اتباعه خاضوا في هذه الأمور فقالوا : لا يوجد إله خلق العالم وكل وجود هو دوري مرحلي متطور الى مـا لا نهاية . في دورتنـا ظهر اربعة بوذاوات رابعهم هو «سيد هارتا ـ جوتاما» (الذي سردت حياته فيا سبق) وسيكون الخامس « ميترايا » بوذا المنتظر في نهاية دورتنا .

بوذية المركبة الكبرى :

اكتسب بوذا الاستنارة بجهده وكفاحه بعـد حيوات متعاقبة في سلسلة

تقمّص . بعد انتقاله الى النرڤانا لم يعـــد له وجود ذاتي منفرد وانقطعت علاقته بعالمنا. رغم ذلك يعلـّم تلاميذه «الجواهر الثلاث» التي هي «الشهادة» او فعل الايمان البوذي: «التجيء الى بوذا ـ التجيء الى تعليم بوذا ـ التجيء الى شريعة بوذا » .

قال البعض ان عدد البوذاوات يبلغ ٥٠٠ وقال آخرون ٢٥ وقال غيرهم انه سيتجسّد بعد بوذاوات لا يعرف عددهم لخير ولخلاص الانسانية .

بـــدأ هذا المذهب بتكريم « رموز » بوذا ، ثم صوره وتماثيله . ثم عُبد بوذا كما تعبد الآلهة الهندوسية بتقديم الزهور والبخور والشموع وبالصلاة له. ثم قال بعالم الارواح وادخل عبادة آلهة وآلهات . علـّم بعضهم ان بوذا لن يدخل النرڤانا إلا بعد ان يخلـّص كل كائن حي من الجهل والالم والشر وتكرار المولد . هنا ايضاً متناقضات ! ويعبـــد بعضهم حتى « ميترايا » بوذا المنتظر زاعمين انـــه موجود في الكون ولو انه لم يصل بعد الى ارضنا .. من اقوال بوذا « انني اتحمل آلام جميع الكائنات حتى الذين في الجحيم وفي عوالم غـير الارض .. اقدم ذاتي فداءً عن كل الكائنات الحية » . حسب بوذية المركبة الصغرى لا يمكن انتقال اجر العمل الصالح من شخص الى آخر . اما حسب بوذية المركبة الكبرى فهذا ممكن ولذلك يكتبون على بعض التقادم: «لتكن لتوفيق فلان وابيه وامه وكل كائن حي » .

تطورت بوذية المركبة الكبرى الى القول بأن بوذا لم يكن انساناً فقط بـل تجسيداً إنسانياً لروح إلهية لهـا ثلاثة اجسام : الاول هو جسم جوهر الكائنات وهو حال في كل الكائنات ويدبرها. الثاني هو جسم السعادة ينبثق من الاول ويوجد في السماء ويبقى الى ان تذوب الكائنات في الجسم الاول . الثالث هو الجسم المحدث انبثق من الثاني وتأنس في « بوذا » الذي عاش مع البشر إنساناً وكائناً إلهياً . بوذا الازلي لا شكل له ولا يتحوّل ولا يتغيّر ولكن يستطيع ان يظهر بأشكال مختلفة .

يوجد عدد كبير من البوذاوات في كواكب غير ارضنا انبثقوا كلهم من الجسم الاول الذي يسمى احياناً « براهما » او روح العالم او الكائن المطلق الاوحد . وهكذا تلتقي بوذية المركبة الكبرى مع الهندوسية في عقيدة وحدة الكون [1] .

تولدت من بوذيـــة المركبة الكبرى مذاهب فلسفية شتى منها مذهب اليوجا ومذهب الطريق الوسط . يعلّم مذهب « اليوجا » ان الذي بنى العالم هو العقل الكلي ولو انه ليس له وجود اكثر مما لوجود الحلم ! فالموجود الحقيقي الاوحد هو الظواهر المتعاقبة فقط .. ومذهب الطريق الوسط (غير الصراط المثمن) دُعي هكذا لأنــه وسط بين واقعية بوذية المركبة الصغرى الغامضة وبين مثالية فلسفة اليوجا وهو يعلّم ان التحوّل المستمر غير صحيح وان العقل الذي تصوّره لا يمكن ان يوجد لأنه يكون حتماً في تغيّر مستمر مثله . والتناسخ غير موجود. والنرفانا غير موجودة . الشيء الوحيد الموجود هو الفراغ ! والفراغ الاعظم الذي يحيط بالعالم ويتغلغل في كل كائن هو جسم الجوهر، او اصل الكائنات، او بوذا او النرفانا، ولكل هذه الكلمات معنى واحد . والسعادة هي في العودة اليه بعد اتمام اشواط الحيوات . هنا أيضاً من استطاع أن يفهم فليفهم !

بوذية مركبة الصاعقة :

علّمت الصغرى ان الانسان يبلغ السعادة والخلاص بالتأمل والزهد والترهّب . وزادت الكبرى ان بوذا والآلهة والارواح تعاون الإنسان في ذلك . وابتدعت بوذية مركبة الصاعقة انـــه يمكن بلوغ السعادة والخلاص باكتساب طاقة سحرية دعتها « الصاعقة » . في كل الازمان وجد بوذيون من هـذا الطراز « المتفوّق » تعاطوا السحر وتحضير أرواح الموتى ولا بدّ انهم

---

(١) انظر فصل ٨٠ .

اسهموا في ظهور بوذية مركبة الصاعقة . آلهاتها هن الفاديات او المخلصات او زوجات البوذاوات (جمـع بوذا) . ثم الشيطانات الساحرات . ثم الحرّاس والجنود السماويون الذين يخدمون البوذاوات . يمكن استمداد قوة خارقة من الإلهات والارواح بتلاوة آيات معينة او برسم رموز سحرية . أشهر آية هي «آية الكلمات الست : آه ! الجوهرة هي فعلاً في اللوتس» . يكررونها مئات وألوف المرات خصوصاً في « التيبيت » . لم تهمل بوذيـــة الصاعقة التأمل والتدريب الذهني لكنها جعلت الغايـــة منها احراز قوى خارقة فيتوصل البعض منهم الى تنويم غـيرهم وإلى تنويم أنفسهم ويعتبر بعض المتقدمين فيهم أنهم يتشبهون بالبوذاوات فيختارون « بوذة » أي زوجة على مثال زوجات البوذاوات .

الرهبنة في البوذية :

الرهبنة مفتوحة للجميع حتى للمنبوذين فـلا طبقات في البوذية . يمكن قبول طلاب الترهّب من سن الثامنة فما فوق على أن لا تُصبح عضويتهم كاملة في الجمعية الرهبانية إلا عند بلوغ سن العشرين . طقوس الدخول في الرهبنة هي لبس اردية صفراء برتقالية وحلق شعر الرأس والتلفظ بالجواهر الثلاث وتلاوة الوصايا العشر وهي :

لا أؤذي أي كائن حي . لا اسرق . لا ازني . لا اكذب . لا أشرب مسكراً . لا آكل في الاوقات المحرمة . امتنع عن الرقص والغناء والتمثيل . امتنع عن استعمال العطور والحلي . لا أنـــام على سرير واسع ومرتفع . لا امتلك ذهباً ولا فضة .

يلتزم بالخمسة الاولى كل بوذي سواء كان راهباً ام علمانياً أما الخمس الثانية فللرهبان وحدهم . وعندما يرى انـه لا يستطيع المحافظة على الخمس الثانية يترك الرهبنة بحرّية .

بالنسبة للراهب تتضمن الوصية الاولى أن لا يأكل اللحم أبداً، والثالثة أن

لا يتزوج والسادسة أن لا يأكل بعد الظهر ، والعاشرة أن لا يمتلك شيئاً مـا عدا الضروري للاستعمال الشخصي [1] .

ينذر الراهب الفقر والعفة ولا ينذر الطاعة فالطاعة فقط « لتعاليم بوذا او الشريعة او النظام الرهباني » يستوحيها الراهب لحياته . اصلاً كان كل دير مستقلاً ينتخب [2] رئيسه ومجلسه من المتقدمين لتصريف الشؤون العادية أما الامور الخطيرة وقبول او طرد عضو فيقررها رهبان الدير مجتمعين . يجتمع الرهبان مرتين في الشهر للتشاور ولتلاوة قوانين ديرهم وللاستغفار إذ يعترف الراهب علناً بأخطائه ويتقبّل العقوبة إذا فُرضت عليه . وتختم هذه « الرياضة النصف شهرية » بعظة يسمح للعلمانيين ان يحضروها .

لكل مبتدىء وراهب مستجد معلمه . اعمال الراهب اليومية هي ان يستعطي الأكل كل صباح ، ويأتي به الى الدير لوجبة الافطار ظهراً ، والقيام بتمارين الرياضة الروحية خصوصاً التأمل ، وبإتمام « العمل التعاوني » اي العمل المفروض عليه في حياة الرهبان المشتركة . اهم تمرين روحي هو التأمل بالفضائل البوذية الاربع الكبرى وهي المحبة والشفقة والصفاء والسرور . ثم التأمل بآلام الحياة وبزوال الدنيا . يتأمل الراهب وهو متربع كجلسة بوذا المعروفة . قد يصل البعض في تأملاتهم الى الانخطاف او الغيبوبة الروحية .

يطـبّقون في حياتهم مبادىء الصراط السامي المثمّن التي اعلنها بوذا في

---

(١) انظر فصل ٨٠ .

(٢) اصل السلطة حسب البوذية ليس من الله بل من « عقد اجتماعي » فسبقت بذلك «جان جاك روسو» ٢٤ قرناً : في البدء لم تكن حكومة وقوانين واملاك خاصة وزوجة وعائلة، سقط الانسان وظهرت الجرائم والتعديات والطبقات فاتفق البشر على ان يقيموا رئيساً يقر النظام لقب بـ «راجا» او المختار . تفرغ مع معاونيه للحكم وكان الشعب يدفع لهم ضرائب من القطعان والمزروعات .

عظته الاولى [١] ومنها الاختلاء السليم ويعنون بـه التركيز ومراقبـة الذات والاتقان في كل عمل .

توجد راهبـات بوذيات ولكن عددهن قليل . يلبسن ثوباً ابيض ويحلقن شعرهنّ ويتبعن نظام الرهبان ذاته .

حسب البوذية في الترّهب خير للراهب وخير للانسانية لأن تكرار المولد شقاء. فالراهب يوفر على غيره هذا الشقاء بسيطرته على الشهوة التي تولد حيوات جديدة ... ترى هل عرف ابو العلاء المعري هذا التعليم البوذي حين قال:

« هذا جناه ابي عليّ   وما جنيت على احد » ؟

التعاليم الاخلاقية في البوذية :

مبادىء « الطريق المثمّن » والفضـائل البوذية الاربع واعظمها المحبة كما يتضح من هذا النص البوذي : « ليمتلىء كل كائن حي فرحاً . لا يخدع احد غيره او يظن بـه سوءاً او يغضب عليـه او يتمنّ له الضرر . لنكن ممتلئين محبة للجميع ولا نحمل عداوة لأحـد . بالمحبة والجودة والسيطرة على الذات يستطيع الانسان امتلاك كـنز خفي ثمين لا يأخذه من احـد ولا يسلبه منه احد وهذا الكنز هو ان يحب الجميع ويعمل الخير للجميع . »

البوذية هي ضد الروح العسكرية والتجنيد والحرب وكل نوع من العنف . وهي تمنع السرقة والغش والكسب غـير المشروع في الاعمال والتجارة . تمنع الزنى والاتصال الجنسي خارج الزواج . لم تحدّد قواعد الزواج والطلاق بل تركتها للعادات المحلية . تمنع الكذب والحنث بالوعد. طلب بوذا التنزه حتى عن « الخطايا الصغيرة الست » وهي شرب المسكر والتجول في الشوارع في اوقات غير لائقـة وارتياد الملاهي والمهرجانات ولعب القمار ومعاشرة رفاق

---

(١) انظر صفحة ٥٧٠ .

السوء والكلام البطال . البوذي المحافظ لا يؤذي حياً ولذلك لا يصطاد ولا يذبح ويفضل نظام أكل نباتي ...

توصي البوذية **الزوج** باحترام زوجته وعدم خيانتها وبقضاء حاجاتها وشراء ثياب جميلة وحلياً لها . وتوصي **الزوجة** بالقيام بواجباتها المنزلية باتقان وفرح وباللطف مع الجميع وبالأمانة . وتوصي **الصديق** بالكرم والوفاء قولاً وعملاً وبإكرام اعضاء اسرة صديقه، وبغضّ النظر والصفح ، وبالتعاضد في المحن. وتوصي **العمال** والخدم بأن يصحوا باكراً وينامو بعد اسيادهم ويكتفوا بالأجر المقرّر لهم ويحافظوا على سمعة مخدوميهم. وتوصي **ارباب العمل** بمعاملة الخدم والعمال بالحسنى وبعدم ارهاقهم وبإعطائهم الأجرة المناسبة وبالاعتناء بهم في المرض والعجز وبالرفق بهم إذا قصّروا .

مقتطفات من التوراة البوذية :

لتكوين فكرة اكمل عن البوذية اقتطف بعض نصوص من كتاب « التوراة البوذية » الذي هو بين يديّ ولا بأس إذا ما توارد بعض التشابه والتكرار .

التلذذ والغضب والحماقة هي أسباب شقاء الانسان . يضيّع الناس حياتهم في محاولة اشباع وارواء رغائبهم لكنهم لا يرتوون كمن يشرب ماءً مالحاً ولذلك يقعون تحت قانون الجزاء فيولدون للشقاء في حيوات متتابعة .

يعتقد الناس ان كل شيء في حياتهم هو من القضاء والقدر ، او من الله ، او من الحظ والثلاثة خطأ . كل شيء هو من تعاقب الاسباب والنتائج ويمكن للانسان ان يتحكم فيها جزئياً باتباع الطريق السامي المثمن .

بما ان عالمنا هو عالم الم وشقاء فعلى الناس ان يتعاطفوا ويتحابوا ويحترموا الحقوق المتبادلة .

قطع بوذا على نفسه هذه العهود : لن استريح إلا بعد ان يصل كل إنسان الى الاستنارة .. إلا بعد ان تخلص الاستنارة جميع الناس.. إلا بعد ان ينقذ

كل من يدعو باسمي من تكرار المولد ... الا بعد ان يكتسب الناس الحكمة وافكاراً سليمة عن الحياة والموت ... الا بعد ان يصل كل البشر الى أرضي السعيدة حيث لا ألم ولا مطلب ولا رغبة ولا معاد ..

اذا كرر الانسان اسم بوذا المقدس تغفر خطاياه وتتبدد ظلمات عقله وفي ساعة احتضاره يأتي بوذا مع إلهي الرحمة والحكمة وينقلونه الى أرض بوذا السعيدة حيث السلام والفرح والبحيرات الصافية وزهور اللوتس وطيور أنيقة وهواء لطيف وأشجار وارفة الظلال ونور دائم وغناء لا ينقطع .. كل كائن يتحول وكل موركب ينحل والخلاص هو بدخول النرفانا حيث يتحد الانسان ببوذا في ارض بوذا السعيدة .

الأهواء تولد الاوهام والآلام . توجد خمس وسائل للتحرر من الأهواء :

١ — التفكير السليم حول سلسلة الأسباب والنتائج وبه يدرك الإنسان ان الألم ناتج عن الرغبة وعن وهم الوجود المستقل الفردي . ٢ — سيطرة العقل على الحواس . ٣ — التقشف . ٤ — التحمل اي الصبر على الجوع والعطش والبرد والحر والتعب والاهانة . ٥ — معاشرة الحكماء والصالحين والابتعاد عن الجهّال والاشرار كأنما عن الخيول البرية وعن الكلاب المسعورة .

الجاه كالبخور الذي يفني نفسه بنفسه . على الانسان ان يتحرر من الرغبة فيه لأنه اذا لم يتحقق ينتج الألم .

من شمعة واحدة تضاء ألوف الشموع وهكذا بإسعاد الغير تنشر السعادة.

في أول طريق الاستنارة توجد ٢٠ صعوبة منها : صعب على الغني ان يسير في طريق الاستنارة ... صعب سماع تعليم بوذا في صخب الحياة العالمية ... صعب عدم احتقار الفقير والمتسول ... صعب ان يسيطر الانسان على الهم والقلق ويتمتع بذهن صاف هادىء ...

سرّ صحة الجسم والذهن ليس في التحسر على الماضي ولا في القلق للمستقبل بل في عيش اللحظة الحاضرة بحكمة .

الحقد لا يغلب بالحقد بل بالمحبة . والعطاء خير من الأخذ .
أصلح عيوبك قبل ان تنظر الى عيب جارك .
لا عجائب ولا خوارق في عالمنا والاعتقاد بها جهل .
الصخرة لا تهزها الريح وهكذا الانسان الحكيم لا يهزه الثناء او الذم .
الذي يسيطر على ذاته أفضل ممّن يكسب المعارك .
جوهر تعليم بوذا : تجنب الشر واعمل الخير واحفظ ذهنك صافياً .

طريقة التركيز لإحراز صفاء الذهن : الانفراد — التربُّع — التنفس البطيء العميق — عـــدم التفكير بأي شيء او تفريغ الذهن من كل شيء — محاولة الانقطاع عن الاتصال بالاشياء الخارجية وانعكاس العقل على الداخل .

رسالة تلميذي المتجوِّل (الراهب) هي نشر تعاليمي . عليه ان يكون متجرداً عن كل شيء ومتحرراً من اي رباط وان يبتعـد عن ذوي السلطة وعن النساء وان يعامـــل كل انسان بمحبَّة . على اتباعي (العلمانيين) ان يكرموا الاخوة المتجولين المبشرين وان يعملوا بالوصايا الخمس (الأولى) وان لا ينغلبوا للشهوات وان لا يسببوا اذى لأحد وان يفقهوا انه لا يوجـد عالم الشر وعالم الخير بل عالم واحد تتعاقب فيه الأسباب والنتائج وعقل الانسان هو الذي يتصور ان هذا خير أو شر وان ذاك صحيح أو خطأ [1] .

لا يوجـد نصيب وحظ وسعد ونحس وعلى الانسان ان يعيش بالحكمة والفضيلة وان يقوم بواجباته .

لتتخذ المرأة هذه المقاصد يوم زواجها : سأكرم وأخدم والدي زوجي لأنهما أعطيانا الخيرات التي ننعم بهـــا . سأخدم معلم زوجي . سأتفهم زوجي وسأعاونه في عمله . سأدرس أوضاع وأذواق افراد عائلته وخدمه. سأحافظ

---

(١) تلتقي هذه الفكرة الخطرة مع وجه من أوجه الوجودية . ويقول تعليم بوذي آخر ان العقل هو الذي يميز بين الحياة والموت ففي الطبيعة يوجد فقط تعاقب الأسباب والنتائج كما لايوجد شرق وغرب وشمال وجنوب بل العقل تصورها .

على ماله ... زار بوذا عائلة فرأى ان الزوجة متعجرفة لا تطيع زوجها ولا تكرم والديه وتخلق الخصام فنصحها بما يلي : يوجد سبعة أنواع من الزوجات. القاتلة : لا تكرم زوجها وتعطي قلبها لغيره . السارقة : لا تقدر عمل زوجها وتهتم فقط بنفسها . الآمرة : تحتقر زوجها وتهمل أمور بيتها . الأم : تهتم بزوجها اهتمام ام بابنها وتحافظ على ماله . الأخت : تعامل زوجها كأخت ودودة أمينة خدومة . الصديقة : تحاول ان ترضي زوجها كصديق عائد من السفر . الخادمة : تخدم زوجها بأمانة ومحبة وتحترمه وتعمل ما يسعده . فأي نوع تختارين ؟ أجابت خجلة نادمة : سأكون الزوجة الخادمة .

عقل المرأة يضطرب ويقلق بسرعة وهي تستسلم لأهوائها وللحسد أكثر من الرجل ... الشباب والجمال لا يدومان وستتبعهما الامراض والشيخوخة والآلام ... المرأة التي تسلك طريق الاستنارة هي بطلة لأن اتباع « الطريق المثمن النبيل » هو للمرأة أصعب ممّا للرجل .. قال لرهبانه عن المرأة : اعتبروا بسمتها ودمعتها وحركتها كعدوّ .. الأفضل ان تحرق عيونكم من أن تتطلعوا الى المرأة بنظرة شهوانية فتفسد نذوركم .

أهدت ملكة خمسمئة ثوب للاخوة . فسأل الملك الراهب آنندا :

ماذا ستعمل بالخمسمئة ثوب ؟

سأوزعها على الأخوة .

ماذا تعمل بثيابهم القديمة ؟

أغطية للنوم .

وبالأغطية القديمة ؟

أكياساً للوسادات .

وبالأكياس القديمة ؟ .

أغطية أفرش بها أرضية البيت .

وبالاغطية القديمة التي كانت تفرش في البيت ؟

مماسح .

وبالمماسح القديمـــة ؟

مكانس .

وبالمـكانس القديمة ؟

يا صاحب الجـلالة أمزقها قطعاً قطعاً وأعجنها مع الطين « وأطين » بها الحيطان ..

علـّم بوذا بأمثال بعضها منه وبعضها كان شائعاً في الهند ويتضمن كتاب التوراة البوذية الكثير منها مثل : الببغاء ـ الطائر ذو الرأسين ـ الأفعى التي تأكل ذيلها ـ الانسان الاحمق الذي رأى بناية ذات ثلاثة ادوار فطلب الى بنـّاء ان يبني له مثلها مبتدئاً بالدور الأعلى ـ إلهة الفقر واختها إلهة الغنى ـ إله يتخذ هيئة شيطان الخ .. اكتفي بذكر مثل الابن الضال الذي يشبه ـ ولو من بعيد ـ مثلاً في الإنجيل : هجر ولد أباه الغني ثم وقع في فقر مدقع . أضاع الوالد اثر ابنه رغم البحث عنه ثم انتقل الى بلدة أخرى . مرت اعوام عديدة وأخذ الابن يتجول مستعطياً ووصل الى تلك البلدة ولم يعرف لا والده ولا البيت . لكن الوالد عرفه فأرسل الخدم واتوا به وعرض عليه ان يعمل خادماً عنـده فقبل . وسلك حسناً فعين وكيلاً على ممتلـكات ابيه . قبل ان يموت الوالد دعا اقاربه واصدقاءه وخدمه وقال لهم : هــذا هو ابني وهو وريث كل أمـلاكي . فتعجب الابن وقال : لاقيت ليس فقط ابي بل ايضاً الغنى والخير .

٧٤

نبذة جغرافية وتاريخية عن الهند

الخريطة والمنـــاخ :

نهر « الهندوس » أعطى للهند اسمهـا . تبلغ مساحتها ٣،٢٨٩،٠٢٨ كم ٢ ما يعادل ثلثي مساحة أوروبا . شكلها كمثلث رأسه الى أسفل وهو « رأس كومورين » في الجنوب وقاعدته هي سلسلة جبال « هملايا » التي تقفل شمـال الهند من الشرق الى الغرب . يحدها شمـــالاً هملايا والتيبيت ونيبال وجنوبا المحيط الهندي وغرباً بحر العرب وباكستان وشرقاً خليج البنجـال وبورما وبنجالاديش . تمتد سلسلة جبال « ڤيندهيا » في وسط شبه الجزيرة فاصـلة هضبة « الدكن » في الجنوب عن سهول « الجانج والهندوس » في الشمال .

معدل ارتفاع سلسلة هملايا ستة آلاف متر ولو ان إحدى عشرة ذروة تجاوز الثمانية آلاف متر . « افرست » ـ القمة رقم ١٥ من هملايا الشرقية ـ هي أعلى قمة في الارض تبلغ ٨٨٨٢ متراً ودُعيت سنة ١٨٦٥ باسم «افرست» اول مفتش عام بريطاني في « كلكتا » .

مناخ الهند متنوع لامتدادها ٣٢١٨ كم من الشمال الى الجنوب لكن بالعموم مناخ حار وثقيل . كل نواحي الحيـــاة فيها تخضع للرياح الموسمية الدورية

(موسّون). اذا تأخر المطر عم القحط والجوع واذا غزر المطر عمّ الفيضان. فصول السنة هي ثلاثة : البارد من تشرين الاول الى آذار ، والجاف من نيسان الى حزيران ، والممطر من تموز الى ايلول .

كثرة وقـــلة :

كل شيء كثير في الهند ما عـدا المال ! ارضها غنية بأنواع النبات وفيها نحو خمسمئة نوع من الحيوان بينها الفيل والأسد والنمر والماعزالبري والافاعي وخصوصاً البقر « الحيوان الشريف المقدس » . فيها امراض وأوبئة كثيرة منها الملاريا والسل والكوليرا والجدري والديسنتاريا ..

هي ثاني دولة في العالم بعد الصين بتعداد السكان (نحو ٥٥٠ مليوناً). فيها ٨٤٥ لهجة حُصرت في ٤٠ لغة وتحـــاول الحكومة أن تفرض لغة مشتركة شاملة هي «الهندي» . بقيت الانجليزية اللغة الرسمية الثانية حتى سنة ١٩٦٥ .

فيها تعـــدد الاديان : يتبع البوذية ١٢ مليوناً ، والجينية ٥ ملايين ، والسيخ ٦ ملايين ، والاسلام ٤٠ مليـــوناً ، والمسيحية ٩ ملايين ، بينما الزرادشتيون واليهود هم بضعة آلاف . ديانة الغالبية العظمى هي الهندوسية.

فيها تنوع الاجناس : الاسود القـديم « الدرافيدي » ، والبني وهم الذين من مزيج آري وهندي قديم ، والابيض قليلاً الذي دخلها من الغرب والشمال الغربي ، والاصفر الذي دخلها من الشمال .

فيها تنوع الطبقات والفئات الاجتماعية التي بلغت في الماضي نحـــو ثلاثة آلاف اما الآن فألغاها الدستور قانونياً ولكن عملياً بقي منها الكثير .

مشكلة الهند الكبرى هي الانفجار السكاني بأعلى نسبة في العالم. من ١٩٦١ الى ١٩٦٦ زادت ستين مليوناً . انها تزيد في اليوم الواحد بمعـــدّل ٣٤٢٤٧ نسمة اي نحـــو ١٢ مليوناً ونصف سنوياً . يُولد الآن في العالم يومياً نحو ٣٣٨,٤٠٠ ويموت نحو ١٣٨٢٤٠ فيزيد العـالم يومياً نحو ٢٠٠١٦٠ والنصيب

الاكبر للهند ! يزيد الطين بلـّة تدفـّق اللاجئين إليها لا سيما من باكستان . سنة ١٩٤٧ دخلها من باكستان خمسة ملايين ونصف من الهندوس والسيخ ، وسنة ١٩٧٢ دخلها عشرة ملايين من بنجالاديش ردّ معظمهم على الاعقاب .

ازاءَ ذلك تعاني الهند من الفقر والقلة . شعبها أفقر شعوب الارض ويبلغ معدل الدخـل الفردي فقط ٢٥ دولاراً بالسنة ! أعمارهم قصيرة معدّلها ٣٢ سنة . تعليمهم قليل فغالبهم أميون . بنيتهم هزيلة وصحتهم متأخرة .

الدستـــــور :

الدستور الحالي للهند أُعلن في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٠ . رئيس الجمهورية ينتخب لخمس سنوات . فيها مجلس نواب ومجلس شيوخ . عــــدا الحكومة المركزية الاتحادية لكل ولاية من ولاياتها الاربع عشرة حكومة ومجلس نواب ومجلس شيوخ . تخضع مباشرة للحكومة المركزية ست اراضٍ وجزيرتان صغيرتان في المحيط الهندي هما الاكاديف و مالاديف .

قبل إعلان الدستور كانت الهند مقسّمة الى ٥٦٢ امارة تتمتّع باستقلال داخلي تحت حكم « المهراجات » الذين تنازلوا عن سلطانهم مقابل امتيازات مالية وسياسية ضخمة ألغتها انديرا غاندي سنة ١٩٧١ .

الشعب القديم الأسود :

يرتقي تاريخ الهند المعروف الى ٣٥٠٠ سنة قبـل المسيح وهو لا ينفصل عن دياناتها . قبـل ان يدخلها الآريون من الغرب كان فيها « الدرافيديون والموندا » وهم شعوب يغلب عليهم اللون الاسود وكانوا على قسط كبير من الحضارة . كانت في مدنهم شوارع واسعة ومجارٍ وحمامات عـامة ومعابد ، واهراء لخزن الغلال وبيوت من آجرّ ومن حجر وعرفوا نوعاً من الكتابة . اكتشِفت هذه الحضارة القديمة سنة ١٩٢٠ في السند وبلوشستان والبنجاب وهي تنبيء عن شعوب عبرت من العصر الحجري الجديد الى العصر النحاسي .

الآريون :

نحو سنة ١٥٠٠ ق . م . دخلها الآريون (كلمة آريا تعني السادة) المنتمون الى فصيلة الاندوايرانيين من أسرة الشعوب الاندواوروبية . دخـــلوا من افغانستان الى وادي نهر الهندوس وأخذوا يتمدّون في الهند ويسيطرون على الشعوب الاصلية. تنظم الآريون في الهنـــد قبائل وإمارات مستقلة متعاونة يرأسها الـ « راجا » بمعاونة مجلس شورى من الاقدمين يدعى « صبحا »[١].

كان لرئيس الكهنة مركز هـــام في المجتمع الآري وغالباً ما كان ايضاً طبيب القبيلة وساحرها فلم يكن الملك رئيس الكهنة كما كانت الحال في بعض الحضارات القديمة .

الطبقات الأربع :

قسم الآريون المجتمع الهندي الى اربع طبقات[٢] : البرهمانيين او رجال الدين ـ والمحاربين (كاشتريا) ـ والفلاحين (فايشا) والخادمين (سودرا). لفظة طبقة عندهم هي « فارنا » ومعناها اللون فكان اللون في البـــدء الفارق الاساسي بين الطبقات . وبمـــا أن السكان الاصليين كانوا سوداً ومغلوبين على أمرهم فاستُعبِـدوا واستخدِموا واصبح جزء منهم « منبوذيين » .

كان الآريون شعبـــاً متوحشاً حربيّاً ومستسلماً للخرافات . وكانوا يهوون لعب القمار والسكْر ويشربون الـ « سوما ـ SOMA » في الحفلات الدينية والـ « سورا ـ SURA » وغيرها . كانوا يحبون الغناء وعرفوا الناي والعود والطبل والصنج . فضلوا القرى الصغيرة على المدن ولم يبنوا من حجر ولا من آجرّ .

---

(١) هذه الكلمة بقيت الى الآن فمجلس الشيوخ الحالي هو « راجا صبحا » ومجلس النواب هو « كوك صبحا » .

(٢) انظر صفحة ٦٦٠ .

من عصر بوذا الى العصر الاسلامي :

في القرن السادس قبل المسيح ـ مع بدء عصر بوذا ـ عبر تاريخ الهند من عالم الاساطير والتخمين الى العصر المؤرخ . ظهر صوفيون عديدون يدعو كل واحد الى طريقة لبلوغ السعادة او الخلاص او الانطلاق او النرفانا او عـدم تكرار المولد ولهذه كلها تقريباً معنى واحد .

احتل ملوك الفرس جزءًا من الهند ثم احتلها الاسكندر ذو القرنين سنة ٣٢٦ ق . م . دخلها من بلاد الفرس عبر جبال « الهندكوش » واذ اراد ان يتابع الزحف شرقاً « حتى آخر الدنيا » رفض جيشه المتعب وعاد ادراجه ومات هو قرب « بابل » .

بعد وفاة الاسكندر بسبعة أعوام طرد الامير الهندي « شندراجوبتا » المكدونيين وأسس سلالة « موريا » الهندية التي امتد مُلكها على افغانستان وهندوستان وأشهر ملوكها هو « آشوكا » (مات في ٢٣٢ ق . م .) الذي نشر البوذية وأقام أعمدته الشهيرة في كل انحاء الهند ناقشا عليها تعاليم البوذية .

غزا اليونانيون الهند مراراً متكررة بعد موت آشوكا وأقاموا في غربيها بعض ملوك آخرهم « ميناندر » . وفي القرن الاول ق . م . قدم إليها غزاة من آسيا الوسطى طردوا الملوك اليونانيين ومنهم البهلويون القادمون من فارس و الاسكيثيون والساكيون . في للقرن الرابع الميلادي ظهرت سلالة « جوبتا » الجديدة وكان أعظم ملوكها « سامودراجوبتا » . في عصره ازدهرت العلوم والفنون وعمت سطوة البراهمة وتقهقرت البوذية . وفي هـــذه الحقبة أُلفت ملحمتا الهند الشهيرتان وهما الماهابهاراتا و الرامايانا . بعـــد انحلال أسرة «جوبتا» الجديدة ظهرت ممالك في جنوبي الهند منها « تاميل و كيرالا و كولا» وأصبحت الهند فريسة القلاقل والتقسم والاقطاع الى ان جاء «اكبر» المغولي.

الاسلام في الهند :

بدأ الإسلام يدخـل الهند في القرن الثامن مع تجـار ومبشرين عرب .

في النصف الثاني من القرن العاشر توطدت في افغانستان السلالة الغزنوية الاسلامية وغزا السلطان محمود الغزنوي (٩٩٨ – ١٠٣٠) الهند وادخل معه الاسلام على نطاق واسع . ثم أتت سلالة الافغانيين الغوريين ومنها محمد الغوري (١١٧٥ – ١٢٠٦) الذي أسس سلطنة دلهي الإسلامية . أسس « بـبر » (مات في ١٥٣٠) امبراطورية المغول بالهند وبقيت الى ١٨٥٧ .

الاستعمار الأوروبي :

عرف الأوروبيون الهند في أواخر القرن الخامس عشر . ففي ٢٠ ايار سنة ١٤٩٨ نزل « فاسكودا جاما » في « كلكتا » . وفي ١٥١٠ احتل البرتغاليون « جوا – GOA » . في ١٦٣٩ أصبحت « مدراس » المركز الرئيسي لشركة الهند الشرقية . في ١٨٥٨ أصبحت الهند كلها مستعمرة بريطانية وفي ١٨٧٧/١/١ أعلن « دزرائيلي » رئيس وزراء بريطانيا الملكة فكتوريا « امبراطورة الهند » . في ١٨ تموز ١٩٤٧ انقسمت الهند الى ثلاث دول هي الهند وباكستان وسيلان بقيت كلها في رابطة الشعوب البريطانية (كومنولث) .

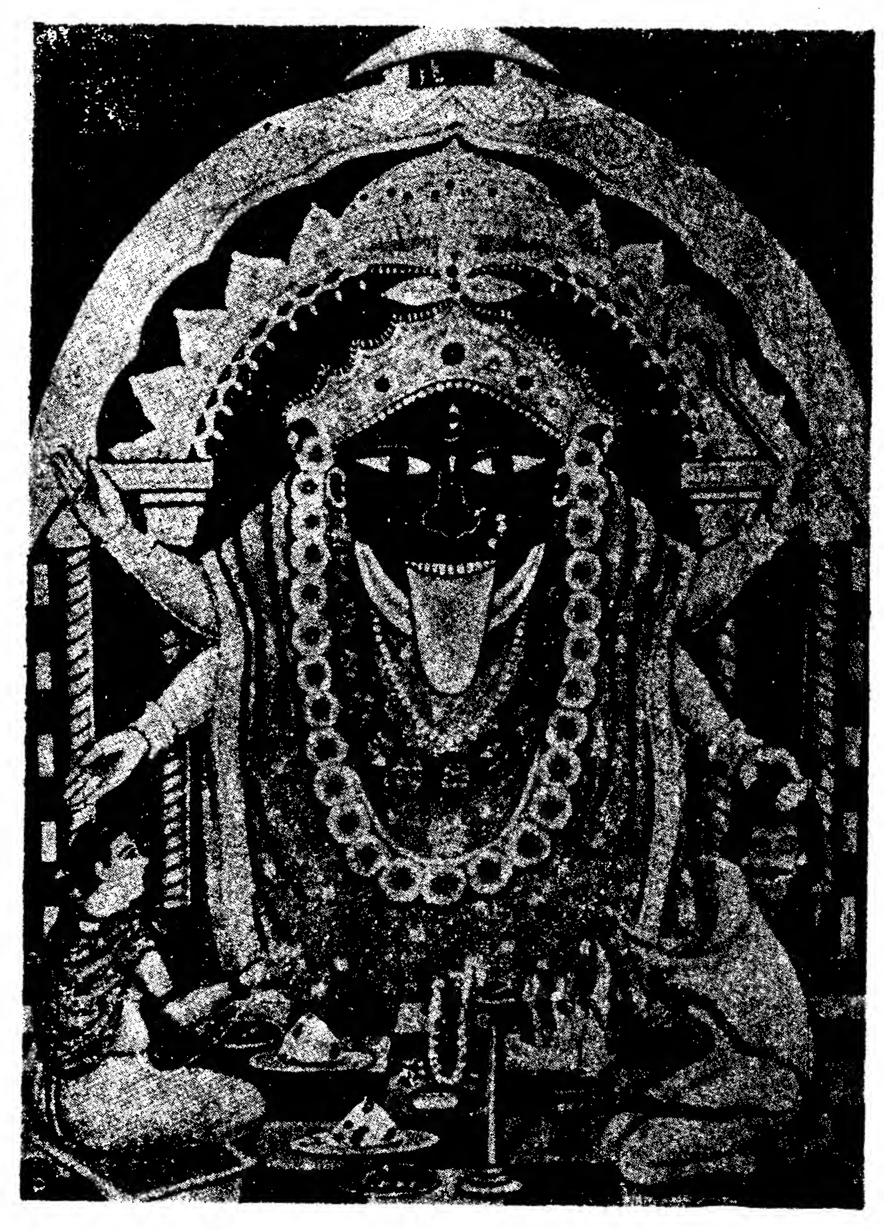
٧٩

كلكتا

أكبر مدينة هندية :

طرت الى « كلكتا – CALCUTTA » من بنكوك ونزلت في مطارها قبيل الغروب . التفتيش في الجمرك دقيق جـــداً ولكنني اعجبت بالاحترام والأدب و « مظهر الاعتذار » الذي يبديه موظفو الجمرك .

كان الجو رطباً خانقاً وكانت إضاءة المدينة خافتة جداً وهـــذا اول ما طالعني من مظاهر الفقر . نزلت في فندق « الشرق الأكبر – GREAT EASTERN » ومع انه أشهر فندق في كلكتا – ومن مجموعة فنادق ركاب پان اميركان – فهو بمستوى فندق من درجة ثانية في بيروت . لا يوجد فيـه تبريد عام بل لكل غرفة جهاز تبريد فغيرت ثلاث غرف الى ان عثرت على الجهاز الذي يعمل ٨٠ ٪ . عرض عليّ الموظف تبديل الدولار بعشر روبيات بدل السعر الرسمي ٧،٥ . رغم المكسب الضخم الذي اجنيه اعتذرت لأنه منذ هنيهة قيـــل لي في الجمرك ان التبديل الحر ممنوع ويجب ابراز الاقرار الجمركي ومستند التبديل الرسمي لدى مغادرة البلاد .



كالي إلهة كلكتا

كلكتا هي كبرى مدن الهند تعد ستة ملايين وهي عاصمة ولاية البنجال ومن الموانىء الرئيسية ويمر بهـا ٩٠ ٪ من « جوت » العالم . أهم ميدان فيها هو « دالهوسي – DALHOUSIE » حيث البنايات العالية والبنوك ومكاتب الشركات . واهم شارع هو « شور هينجي – CHOWR HINGHEE » على جانب منه السينمات والمسارح والمطاعم والمتاجر الكبيرة وعلى الجانب الآخر – ويسمونه « ميدان » بلفظه العربي – حدائق وملاعب ومجمعات المياه ومباني الحكومة .

أثران بريطانيان :

في كلكتا اثران بريطانيان هما « قلعة وليم » التي بناها في ١٧٥٧ لورد « كليف » وكانت تقيم فيهـا الحامية البريطانية الأولى ثم « نصب الملكة فكتوريا » وهو مبنى رحب من المرمر الابيض بداخله متحف . أقيم هنا لأن كلكتا كانت عاصمة الهند ومقر الحاكم البريطاني حتى سنة ١٩١١. ازاء نصب فكتوريا يرتفع تمثال غاندي وهو اعجف صارم موحٍ وكأنه يخطر على قاعدته العالية ويقول لأعظم أثر بريطاني في كلكتا : الهند عنا !

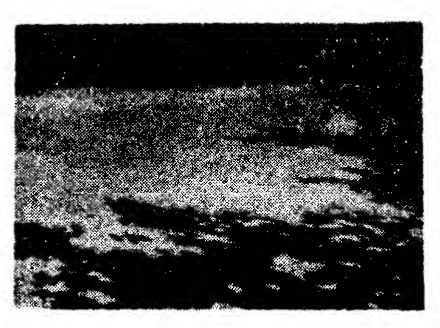
مظاهر الفقر :

ما عدا ذلك كلكتا هي مدينـة يشيع فيها الازدحام والفوضى والفقر والقذارة بشكل مريع ذليل . قلت ذلك لدليلي كما عبرت له عن خوفي من ان تلحق بي امراض من هـذه البيئة التي قد تكون موبوءة فنصحني ان لا آكل الخضراوات والفواكه النية وان لا أشرب الماء . الدليل الرسمي الذي رافقني كان يعرف بعض الكلمات العربية وكان واسع الاطلاع على الديانات المتجاورة في الهند .

ألوف الناس في كلكتا بدون مأوى ينامون ويغتسلون ويعملون كل شيء في الشوارع ! وقيل لي ان هذه هي الحـال ايضاً في « بومباي » وفي بعض المراكز المزدحمة مثلهما . ثيابهم ممزقـة كأنهم شبه عراة وغالبهم حفاة



معبر القرود في كلكتا



البقرة تنام في الشارع

وهزيلون . المتسولون يلاحقون الغريب ويقولون : « أيهــا الأجنبي لا أب لي ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا مأوى اعطني نقوداً » . كنت أشعر بتمزق كل مرة أسير في شوارع كلكتا .

الزي :

لبس الرجال متنوع : بعضهم يرتدي البدلة الأوروبية وبعضهم الجلباب « دوتي — DHOTI » وبعضهم السروال الممزّق « أشكان — ACHCAN » وسترة مقفولة حتى العنق « جوبة : JUBBA » والعمامة . الزي الشعبي هــو سروال أبيض فضفاض و « الجلابية دوتي » تغطي كل الجسم . كما في الريف المصري ثوب النساء طويل حتى القدمين يبــدأُ بالالتفاف حول شعر الرأس . « الساري » جميل جدا . الهندية تحب التبرج بالحلى الكثيرة وتغــالي في الطلاء وتطبــع « شامة » على جبينها . اذا كانت الشامة حمراء فالمــرأة من عابدات الإله « كالي » ، واذا بيضاء فمن عابدات «شيفا » ، واذا صفراء فمن عابدات « كريشنا » ...

حديقة النبات والحيوان :

في كلكتا أكبر حديقة نبات بالهند تشبه اشجارها ما رأيته في المكسيك وريودي جانيرو . أعجب مافيهـــا من شجرة « بانيان — BANIAN »

عمرها ۱۸۰ سنة ودائرتها بل بالأحرى دوائرها ۳۰٥ امتار لأنها عشرات من الاشجار المتولدة من جذع واحـــد : تتدلى الأغصان حتى تصل الى الارض فتتثبت بها وتصبح جذوعاً لشجرات أخرى وهكذا ..

أصر دليلي على ان يريني في حديقة الحيوان « النمر الابيض » فحكيت له أمري مع « الفيـل الابيض » في بنكوك فضحك وقال لي : لا لا هنا النمر كله أبيض . وفعلاً كان كذلك عـدا خطوط رفيعة غبراء تجعـل جلده مقلماً وتزيد في جماله. في الهند النمر هو ملك الغاب يرهبه حتى الأسد والفيل. رأيت أنواعا عديدة من الغابة والافاعي والقرود . « الكوبرا» الهندية يمكن ان تنفث سمها على بعد ۹۰ متراً . الفيـــل لا يتوالد كثيراً وفترة حمل انثى الفيل ٦٢٠ ــ ٧٢٠ يوماً. هنا يرقـّصون القرود في الشوارع ويحبونها كثيراً .

الريكشا :

في كلكتا ركبت « الريكشا » وهي عربة صغيرة ذات مقعد واحـــد يجرها آدمي بكلتا يديه وهو يجري ليكسب وقتاً . أجرة النقل فيها رخيصة جداً . ركبتها مرة واحدة على سبيل التجربة وسألت كيف تقبل حكومة الهند « بالريكشا » حتى الآن فأجابني الدليل انها باب رزق ! من آلات النقل عربات يجرها البقر ودراجات بعجلتين وبثلاث عجلات وعربات يجرها حصان اسمها « جاري – GARI » . يجب الاتفاق مع سائق التاكسي ولكنه مهما طلب تبقى الاجرة زهيدة . كذلك تجب المساومة في البيع والشراء اذ انهـم يصلون الى طلب أربعة اضعاف الثمن الحقيقي . اكثر كلمة انتشاراً في كلكتا هي « بقشيش » ويلفظونها هكذا . لمحت إعلانات بلغة الـ « اردو » التي هي لغة الباكستان ومسلمي الهنـــد تكتب بأحرف عربيـة وفيها كلمات عربية كثيرة .

في كاتدرائية كلكتا :

يوم الأحد حضرت القداس مع الشعب في كاتدرائية كلكتا وتأثرت من

خشوعهم وبساطتهم وحشمتهم وترنيمهم الجماعي . كانوا فقراء ولكن نظيفين. بعد القداس تعرفت على كاهن من إيطاليا وثلاثة كهنة من كندا ولم أتمالك التعبير لهم عن إعجابي بهم كيف يتركون بلادهم المتمدنة الراقية ويعيشون هنا.

البقرة تنام في الشارع :

رأيت البقر يسير في شوارع كلكتا طليقاً كأنه في البراري وموظفو المرور يحترمونه . وصورت بقرة متمددة في عرض الشارع ولا من ينهرها وينُهضها .

اقتادني الدليل الى الميناء والى فسحة على ضفاف نهر (هوجلي) حيث تقوم المصانع والمطاحن والدباغات ومستودعات الجوت ومراكز النفط وكان أمامنا خامس جسر في العالم بضخامته اسمه جسر (هورا) يصل بين كلكتا ومدينة (هورا) المقابلة . زرت من جامعة كلكتا المكتبة فقط . عدد طلابها نحو ١٢٤ ألفاً تتسع لثلثهم فيدرسون فيها ثلاث (ورديات) .

متحف كلكتا :

أكبر متاحف الهند هو في كلكتا زرته بتأنٍ لأطلع على تراث الهند الذي يدين له العالم بالكثير . فيه معروضات عن حياة الهنود القدماء وعن دياناتهم وعن توصلهم الى مراحل متقدمة في الحساب والفلك والرقص والموسيقى . في المدخل الرئيسي للمتحف تمثال بقرة يذكر الزائر بتقديس الهنود لها . وتماثيل عديدة لبوذا بأوضاع مختلفة منها تمثال بوذا نازل من السماء بشكل فيل أبيض . جناح (الانثربولوجيا) هو عن الاجناس البشرية في الهند بنوع خاص . جناح الجواهر والحجارة الكريمة هو رائع فالهند كانت ولا تزال من أغنى بلدان العالم بها . من اجمل مافي المتحف السجاد والنسيج المنقوش والمزخرف بالالوان وقطع مشغولة من البرونز والخشب .

إطعام الصنم :

زرت معبد كلكتا الرسمي واسمه معبد (كالي – CALI) الإلهة السوداء

التي اشتقت منها المدينة اسمها . كما زرت على ضفاف النهر بعيداً عن المدينة في حديقة واسعة وادعة دير ومعبد (راما كريشنا) قديس البنجال الذي توفي سنة ١٩٤١ وقد تبرعت لانشائهما سيدتان امير كيتان كانتا معجبتين به. المعهد فخم جدا غالبه من مرمر وشكل قبابه العديدة أشبه بالقلل . يقصده الالوف لان راماكريشنا هو (أحدث قديس هندوسي) ومن أعظم المعلمين كان يطوف الهند داعياً الى الخير والاصلاح الاجتماعي . رأيت في هذا المعبد سيدة تضع عقداً من الخرز الملون في عنق صنم صغير وامامها كوب حليب تغط يدها فيه وتمسح فم التمثال كأنها تطعمه .

في إحدى مناطق حرق الموتى على ضفة النهر شعرت بالاشمئزاز فهي بقعة وسخة جداً والطريق إليها قذر جداً فاكتفيت بنظرة خاطفة وسمعت نصيحة دليلي بأن اترك هذا المشهد لاراه في (بناريس) عاصمة الدين والخلاص وحرق الجثث ...

٧٦

مع طاغور

في بيت طاغور :

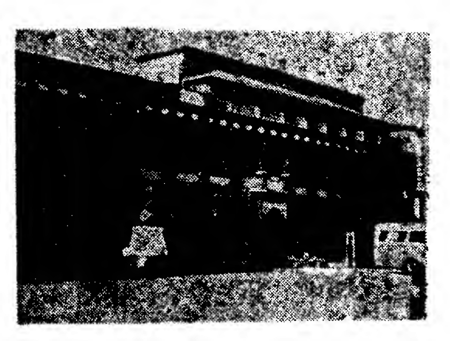
زرت في كلكتا بيت طاغور أشعر شعراء الهند وأحبّ رجل الى الهنود بعد غاندي . بيته « ڤيـــلا » برجوازية لونها الخارجي أحمر . في الداخل مكتبة وقطع أثاث من خشب وعلى السرير حصير وكراسي المائدة بدون ظهر تزين جدرانه رسوم عديدة بعضها من طاغور نفسه . وقفت مع الزائرين « دقيقة صمت وتحية » في الركن حيث توفى طاغور في ٧ آب ١٩٤١ .

كانت لطاغور أفكاره الخاصة عن تفاعل الثقافة الهندية مـــع الثقافات الغربية وعن وجوب الإبقاء على الثقافة والتقاليد والعلوم والأديان والفلسفة الهندية وفي الوقت نفسه الانفتاح على تقنية علوم الغرب. أسس بقرب كلكتا جامعة اسمها « فيشفابهاراتي » وتدعى ايضاً « سانتينيكتان » اي مقرّ السلام من اسم المـكان الذي تقوم فيه . تعلمت فيها مدة اندبرا غاندي بنت نهرو .

قصائد من طاغور :

اشتريت من بيت طاغور كتابه « جيتانجالي – GITANJALI » وقرأت

معظمه في ليلة واحــــدة . انه مجموعـة أناشيد غالبها دينيــة صوفيّة ألفها طاغور باللغــــة البنجالية ولحنها وترجمهـا هو نفسه الى الإنجليزية . كان طاغور فيلسوفاً وشاعــــراً وموسيقياً ومغنياً ورساماً ومصلحاً اجتماعياً كأن مختلف نواحي الروح الهندية تجسدت فيه .



بيت طاغور

في شعر طاغور غــــزل بريء وحب الطفولة والوطن وتصوف وفلسفة فاخترت من كتابه « جيتانجالي » بعض قصائد بهذا المعنى .

القـــارب :

مع بزوغ الفجـــر هُمِس لنا
لنبحر في قارب وحدنا ، انت وأنا
دون أن يدري أحـد بمطافنا
مطاف لا نهاية له الى عالم لا نعرفه

في ذلك البحر الذي لا شواطىء له
ازاء بسمتك الصامتـــة المنفتحة
تنسكب ألحاني ، حرّة كالأمواج
طليقة حتى من قيود الكلمات

ألم تحن الساعة؟ أهنالك أشغال بعد ؟
هــــوذا المساء يلف الشواطىء
وعلى ضوء العشـــايا الشاحب

تأوي الطيـــور الى أعشاشها
ترى مـــتى تتحطم السلاســل
ويغيب القارب في اليمّ والظلام
كما يغيب ، وراء الأفـــق
آخر شعاع من الشمس الغاربة ...

السفر الى الذات :

ان سفري طويل وطريقي بعيد :

امتطيت مركبة أول شعاع من النـــور ، وتابعت سفري عبر العوالم ، تاركاً آثار مسيرتي في كثير من الكواكب والنجوم .

الطريق التي تهديك الى ذاتك هي أبعــد طريق . والتمرين الذي ينتهي بأداء اللحن الـكامل الصافي هو اشقّ تدريب .

على المسافر ان يقرع كل باب غريب ، قبـــل ان يصل الى بابه الخاص . وعلى المرء ان يضلّ في العــالم الخارجي ، قبل ان ينتهي الى معبده الداخلي .

تاهت عيناي بعيداً في الخلوات قبل ان اقفلهما وأقول انك هنا ! آه ! أين ؟ تلك الصرخة ، وذلك السؤال ، ضاعا في دمـــوع من ألوف السواقي . وغرق العالم في طوفان من اليقين : اني أنا .

بـــلادي :

حيث يعيش الفكر بدون خوف وينتصب الرأس عالياً .
حيث المعرفة هي حرة .
حيث لم يتكسر العالم شظايا داخل حدود التفرقة .
حيث تنبـع الكلمات من عمق الحقيقة .
حيث الكفاح يمد ذراعيه بدون عناء نحو الكمال .
حيث مجرى العقل الصافي لم يضلّ فيصحراء رمال حزينة من التقاليد الميتة .

حيث العقل يتبعك الى آفاق واسعة من الفكر والعمل .
في سماء الحرية هذه ، يا أبتِ أيقظ بلادي من سباتها .

أطفال الشاطىء :

على شاطىء عوالم لا حدود لها يلتقي الأطفال . فوق رؤوسهم السماء غير المتناهية تبدو بدون حراك ، بينما عند اقدامهم مياه البحر تجلجل صاخبة .
على شاطىء عوالم لا حدود لها يلتقي الأطفال وهم يهزجون ويرقصون .

يبنون بيوتهم من الرمال ويلعبون بأصداف فارغة . ينسجون مراكبهم من أوراق ذابلة ثم يدفعونها مبتسمين الى عرض البحر . انهم يلعبون على شاطىء العوالم .

يجهلون العوم ولا يحسنون رمي الشباك . صيادو اللؤلؤ يغوصون طالبين اللآلىء ، والتجار يمخرون عباب اليم بسفنهم ، بينما الصغار يجمعون الحصى ثم ينثرونه . انهم لا يبحثون عن كنوز خفية ، ولا يعلمون كيف يلقون الشباك .

البحر يعلو هادراً ، وبسمة الشاطىء شاحبة . الأمواج الحاملة الموت تغنّي للأطفال قصائد لا معاني لها كالأمّ وهي تهدهد طفلها . البحر يلاعب الصغار وبسمة الشاطىء شاحبة .

على شاطىء عوالم لا حدود لها يلتقي الأطفال .

العاصفة تهب في سماء لا طرق فيها ، والسفن تغرق في مياه لا سبل فيها ، والموت في الأفق والصغار يلعبون .

على شواطىء عوالم لا حدود لها يلتقي الاطفال .

يا ابني :

يا ابني .

عندما أعطيك لعباً ملونة ، أُدرك لماذا تتراقص الألوان في الغيوم والمياه والزهور ــ عندما أعطيك لعباً ملونة . يا ابني .

عندما أُغني لأرقّصك ، أفقه لمـــاذا تغني أوراق الشجر ، ولماذا تبعث الامواج بألحانهـا الى قلب الارض المنصتة ـ عندما أغني لارقصك ، يا ابني .

عندما أجلب مآكل حلوة ليديك المتهافتتين ، أعلم لمـاذا يوجد عسل في كأس الزهور ، ولمـاذا تخفي الثمار عصيرها الحلو ـ عندما أجلب مآكل حلوة ليديك ، يا ابني .

عندما أقبل وجهك لتبتسم ، يا حبيبي ، اعرف ما هي الفرحة المنحدرة من السماء مع نور الصباح ، وما هي اللذة المنعشة التي تشيعها هبّاتُ نسائم الصيف ـ عندما اقبل وجهك لتبتسم ، يا ابني .

دعـــاء :

يا سيد حياتي :

يوماً بعد يوم هل لي أن أقف امامك وجهاً لوجه . يا سيد العوالم .

هل لي أن أقف امامك وجهاً لوجه بيدين ضارعتين .

تحت السماء العظيمة في العزلة والسكون بقلب خاشع . هل لي ان أقف أمامك وجهاً لوجه .

في عالمك المنهمك يتدافعه العناء والنضال وسط جموع متزاحمة . هـل لي ان أقف امامك وجهاً لوجه .

وعندما أُنهي عملي في هذا العالم ، يا ملك الملوك ، وأنا وحيد عديم النطق ، هل لي أن أقف امامك وجها لوجه .

النجم الضائع :

عندما كانت الخليقة جـديدة ، وكانت النجوم تتلألأ بلمعانهـا الاول ، اجتمع الآلهة في السماء وترنـّموا : « يا لها من صورة كامـلة ! يا له من فرح صافٍ ! » .

وإذا بأحدهم يصرخ فجأة : « يبـدو ان هنالك حلقة كسرت في سلسلة الضياء ، وان نجماً قد ضاع » .

تقطعت أوتار قيثارتهم الذهبية ، وتوقفوا عن الغناء ، ثم صرخوا بهلع : « أجل لقد كان النجم الضائع افضل النجوم ، لقد كان فخر السماوات ! » .

ومن ذلك الحين ، لم ينقطع البحث عنه ، وانتقل من واحد الى آخر ذلك الصراخ الجازع : لقد فقد به العالم فرحه الأوحد !

في سكون الليل العميق تبتسم النجوم وتهمس الواحدة للأخرى :

« عبثاً نحاول البحث عنـه ، فالكمال غـير المتناهي هو فوق الكل ! » .

●

٧٧

الديانة الزرادشتية

القاء الجثث للطيور :

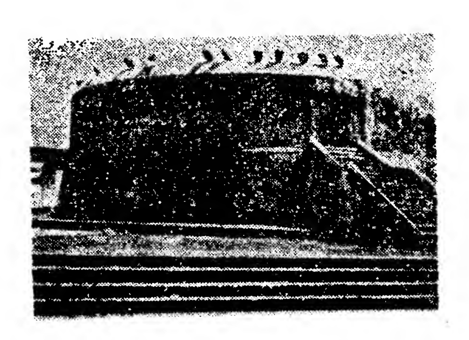
اذا كان اتباع الدين الهندوسي يحرقون الجثث فاتباع دين « زرادشت » يرمونها في العراء لتأكلها طيور السماء . زرت معبداً زرادشتياً من الخارج فقط فلا يجوز دخوله الا للزرادشتيين . وزرت بجانبه « برج الصمت والموت » ، وهو أسود اللون مفتوح على السماء تقف على دائرته الصقور مفترسة الجثث . يغسلون جثة الميت بماء بشر مطهر لا يقربه إلا الزرادتشتيون ثم يسجون الجثمان في المعبد بقرب النار حيث يصلون عليه ثم يلقونه في ارض البرج لتأكله الطيور .

حديث مع حارس برج الموت :

سألت حارس برج الصمت والموت عن هذه العادة فقال لي : ان أعظم شريعة عندهم هي المحبّة فحتى بعد الموت يتصدقون بجثثهم على الطيور [١] .

(١) السبب الحقيقي لعدم دفن الجثة هو « نجاسة الموت » لئلا تتدنس بها الأرض . كل انسان يمس ميتاً يتنجس ويجب عليه التطهير وكذلك المكان . ومذكور في نصوص الزرادشتية =

سألته : والنفس؟ قال لي : بعد الموت ترتفع الى جبل النار تحت القمر . فإذا كانت صالحة مرت وسط النار وتحولت الى ملاك ، وإذا كانت شريرة عجزت عن عبور النار وعادت الى الارض الى جسم آخر وهكذا يتكرر تقمصها الى ان تصبح صالحة فتعبر الى العالم الثاني عالم الملائكة والارواح



الزرادشتيون يلقون الجثث للطيور

حوار ممتع مع كاهن زرادشتي :

شوقني هـذا لمعرفة المزيد عن الزرادشتية فقصدت مقر كاهنها في كلكتا وتحدثت معـه طويلاً وأعطاني كتيبا عن ديانته . ومما قال لي : ان اصل الزرادشتيين ـ ويعرفون في الهند باسم « پارسي » ـ من بلاد فارس . هربوا الى الهند عندما احتل الاسلام فارس في القرن السابع لان الاسلام لا يسمح بعبادة النار . هم الآن ٧٥ ألفاً فقط معظمهم في بومباي و كلكتا . سألته هل يمكنني ان أدخل المعبد المدعو « برج للشمس » فاعتذر . رأيت أكواماً من الحطب فأفهمني انهم يشعلون بهـا ناراً دائمـة في وسط المعبد ويدخل الكاهن ويصلي أمامها كل مساء . سألته كيف يمكن ان يفعلوا هذا في القرن العشرين وقد عرف العالم مصدر النار وطريقة تولدها والتغلب عليها ؟ أجابني : وأنتم ألا تشعلون ناراً دائمة في كنائسكم ؟ قلت له من اين تعرف هـذا ؟ أجاب : ازور هنا في كلكتا كنائس مسيحية وأرى فيها شعلة مستمرة . فأفهمته اننا

= ما يلي: « اذا دفن انسان جثة حيوان او بشر في الأرض ولم ينبشها مدة ستة اشهر يجلد ٥٠٠ جلدة واذا ترك الجثة في الأرض سنة كاملة يجلد ١٠٠٠ جلدة . اما اذا تركها سنتين كاملتين فيرتكب جرماً لا توازيه اية عقوبة ! » .

لا نعبد النار بل نشعلها رمزاً امام المذبح والقربان . فقال لي : وكذلك نحن فلا نعبد النار كنار بل نعبد الإله الواحـد « اهورامازدا » ونشعل له النار تعبيراً عن الشكر ورمزاً للتضرع المستمر لان النار هي من العناصر الهامة في حياة البشر . وقام فأراني عجلة بيضاء أخذ يربت على ظهرها بحنان وقال لي انهم يحبون الحيوانات لا سيما البقرة . فقلت لابد ان هذا من تأثير الهندوسية فأجاب بل لان بقرة حمت بجسمها زرادشت اذ رُمي وهو صغير أمام قطيع بقر هائج . رأيت عنده زجاجة فيها مشروب الـ « هاوما – HAOMA » المستخرج من عشبة مرة وقال لي : « اننا نشرب قليلاً منه في حفلاتنا الدينية كما يرشف الهندوسيون السوما والمسيحيون جرعة من الخمر » . لا أنكر على نفسي انني تأثرت من خشوع ذلك الـكاهن الزرادشتي وشفافية روحه ولو انه يفهم دیانتي حسب عقليته .

تأنس الله في زرادشت :

حسب الزرادشتية كان زرادشت[1] معلماً عظيماً ظهر فيه الله ليعلم العـالم الدين الحق وطريق السعادة . يُقرأ في نصوصهم المقدسة ما يلي : عندما يهيم الجنس البشري في الضلال والشر يأخذ الله جسداً بشرياً لتعليم الصراط المستقيم ولحماية الخير وتدمير الشر والأرواح الشريرة فيتأنس الله أكثر من مرة حسب حاجة الانسانية .

كانت بلاد فارس هائمـــة في الضلال والفساد تحت حكم ملكي قبيلتين شريرتين تدعيان « كافي وكاربان – KAVI,KARPAN » . نشرا عبـــادة الاصنام وحاولا القضاء على أقلية دينيـة مستقيمة تنتمي الى دين « مازدا » ويُدعى كهانها المجوس .

---

(١) الاسم الأصلي هو « زراتشترا » ومعناه النور الذهبي أو النجم الساطع دعاه اليونانيون زرادشت ومعناه النجم الحي . على الأرجح عاش في القرن السابع قبل المسيح .

حبل عجيب وولادة عجيبة :

صلت روح العـــالم – واسمها « جوش اوروان » – الى الإله الأعظم « اهورامازدا » وقالت له : « لماذا خلقتني ؟ ان في العالم الدمار والطغيان والفساد وليس من ينقذني غيرك » . فظهر لها اهورامازدا بشكل نور ساطع ودخل في الطفلة « داجدو – DAGDO » وهي جنين وعنـدما وُلدت كان وجهها وجسمها منيرين . رهبها الناس وحاولوا قتلها فأبعدها والدها من بقعة «راي–REY »[1] إلى بقعة اذربيجان حيث قبلها بعطف وحنان رجل اسمه بايتيراسب – PAITIRASP » . ولمـــا شبّت تزوجها ابنه « بوروشابسو – PORUSHAPSO » وأنجب منها خمسة ابناء ثالثهم هو « زراتشترا » واسم عائلتهم « سبيتاما – SPITAMA » . حبلت داجدو بزرادشت بنوع عجيب اذ ان أرواحاً إلهية دخلت في أغصان شجرة «هاوما» واذ شربت « داجدو » حليباً وضع فيه غصن من تلك الشجرة شعرت انهـا حُبلى . عندما ولدت زرادشت ظهرت هالة نور حـول البيت وسمع صوت من السماء يبشر بالفرح ووُلد زرادشت وهو يضحك ويهـز رأسه بعنف بحيث يُطيح باليـد التي تعترضه .

محاولة قتـــل الطفل :

في ذلك الزمان كان المجوس كهان طائفة قليلة العدد تدين بديانة «مازدا» بينما عموم الشعب يعبد الأوثان تحت حكم ملكي قبيلتي « كافي وكارپان » . نـُمي الى الملكين ان زرادشت سيقضي على سلطانهما فأمر احدهما رجـلاً ان يساعده في قتل الطفل . ولكن عندما همّ القاتل أن يطعنه بخنجر شطت يده واخطأه . رماه في النار فلم يحترق . قذف به أمام قطيع بقر هائج فوقفت أمامه بقرة كبيرة وحمته . رُمي على طريق خيول جامحة ونجا منها . اقلع

---

(١) « راي » تقع بجوار طهران .

الشريران عن محـاولاتهما الى ان بلغ زرادشت سنّ السابعة فأعادا الكرّة لقتله بشتى الوسائل ولم يُفلحا .

الحبل المقـــدس :

في صغره تعلم على يد ال ـ « غورو بورجينكوروس » ولفظ « غورو » يُطلق على الشيخ الحكيم في طائفة المجوس. شبّ زرادشت نبيلاً شهماً مسارعاً الى المساعدة عاطفاً على الضعيف والفقير . حين بلغ سن الخامسة عشرة طلب اخوته الى والدهم ان يقسم بينهم الميراث فسأل زرادشت ماذا يريد فأجاب : « الحبْل المقدس » . حفظ الزرادشتيون الى الآن هـذا التقليد عن الآريين القدماء كما أخذه عن هؤلاء الهندوسيون فعندما يبلغ الصبي سنّ الثامنة يقيمون له حفلة « الميـلاد الثاني » التي تُدخله رسمياً في المجتمع الديني : يلبس ثوب راهب ويوضع الحبْل المقدس على كتفه اليمنى ويمرّ على صدره وظهره ليلتقي الطرفان تحت الابط الأيسر .

عشرة أعوام نسك .

حين بلغ سن العشرين[1] ترك البيت الوالدي وانصرف الى العزلة والرياضة الروحية متعبداً للإله « اهورا مازدا » . بقي عشر سنين مختليـاً في مغارة جبلية حفرتها نار عجيبة . ذكر هيرودوتس ان كبار المجوس كانوا يقضون سنوات كثيرة في الخلوة والتوحّد . خلال السنوات العشر غالب زرادشت أنانيته حتى غلبها . واذ بلغ الثلاثين أخـذه روح صالح الى « اهورامازدا » الذي أنعم عليه بالاستنارة ومنحه سلطانه الإلهي وجعله رسوله الى البشر لينشر بينهم دينه .

---

(١) التقويم الزرادشتي : رأس السنة يوم الاعتدال الربيعي ٢١ اذار . السنة ٣٦٥ يوماً مقسمة الى ١٢ شهراً وكل شهر ٣٠ يوماً ما عـدا الشهر الثاني عشر فهو ٣٥ يوما . كل ١٢٠ سنة تأتي « سنة كبيسة » فيها شهر ثالث عشر .

التبشير الفاشل :

ترك زرادشت منسكه وتنقل في البلاد يبشر بالدين الجديد . طوال عشر سنين لم يؤمن به أحد . ويقال انه بشّر في فارس والهند والصين وتركستان ولكن طرد من كل هـذه البلدان . واذ عاد الى فارس سُجن فترة قصيرة . كان يشكو أمره الى إلهه اهورامازدا فيرسل إليه روحه « ڤوهومانا» ليشجعه ويثبته في رسالته . وكان يقول عن نفسه : انه ابن الله المختار أرسله الله أبوه الى العالم برسالة إلهية ولذلك لا يفشل ولن ييأس . اول من قبل دعوته ابن عمه المجوسي « مدهيوما » بعد عشر سنين من التبشير .

من عمر ٤٥ الى ٦٠ كان وهو يوالي التبشير يخدم الفقراء والمحتاجين ويبني المعابد ويعطي تعاليم عن الطب والفلك وقوانين الطبيعة وشرائع المجتمع حتى قيل ان تلاميذه استعملوا اثني عشر ألف جلد بقر ليكتبوا عليها ما علمهم ! وكان يجترح المعجزات فمرّ بأعمى ونقّط في عينيه من مائية شجرة الـ « هاوما » فشفاه .

ذكر المسعودي والشهرستاني انه كان يوجد عشرة معابد للنار المقدسة في أماكن متنوعة قبل ان يولد زرادشت وهو أمر ببناء معابد تماثلها كان منها واحد في « نيصابور » وآخر في « نيسيا » .

شفاء حصان الملك :

أراد الملك « جوستاسب – GUSTASP ان يستمع له فقابله في حوار مع عشرة من أحكم حكماء مملكته . مدة ثلاثة أيام طرحوا عليه ٣٣ سؤالاً أجاب عليها بالصواب ولكن بدل ان يقتنعوا منه حاولوا تسميمه وسمموا نفس الملك ازاءه فأمر بسجنه . يوم سباق الخيل أُصيب حصان الملك بمرض مفاجىء وتسمرت أقدامه في بطنه ولم يستطع أحد ان يشفيه . سمع بذلك زرادشت فطلب مقابلة الملك وقال له : «أيها الملك سيشفى حصانك وسيفوز اذا نـُفـّـذَت أربعة شروط : ١ – على الملك ان يترك دينه الخرافي ويتبع

دين اهورامازدا الحق . ٢ – على الملكة ان تفعل ذلك أيضاً . ٣ – على ابنه الأمير « اصفنديار – ASFANDIAR » ان يخوض حروباً مقدسة لنشر هذا الدين . ٤ – على الملك ان يحاكم مضللي الشعب والأشرار .

قبل الملك بهذه الشروط وصلّى زرادشت فشُفي الحصان وفازبالسباق. وهكذا بدأ انتشار الدين الجديد .

في مدينة « كيسمر – KISMER » بولاية ترشيز على مدخل معبد للنار المقدسة زرع زرادشت شجرة وتنبأ ان الدين الجديد سينمو مثل تلك الشجرة. وبالفعل انتشر وتعدّى حدود ايران واعتنقه بعض الكهان الهندوس منهم البرهماني « المعلم شانجرانجانش – PANDIT CHANGRANGANGH » .

وفاة زرادشت :

شنّ الملك « جستاسب » وابنه حروباً عديدة لنشر الدين الجديد وانتصر مرّة عليه عدوّه الملك « ارجاسب » واحتلّ عاصمة ايران وهـدم المعبد الرئيسي للديانة الجديدة وفيه طُعن زرادشت بخنجر في ظهره ومات . انما يقول بعض اتباعه ان الذي مات هو تلميذ له اما هو فصعد الى قمـة جبل ومات بإرادته تاركاً جسمه على ذروة الجبل . ربما هـذا من أسباب عادة الزرادشتيين في رمي موتاهم في العراء لتأكلهم طيور السماء ... توفي عن ٧٧ سنة و ٤٠ يوماً وكان ذلك في اليوم الحادي عشر من الشهر الثاني من السنة الزرادشتية . في آخر العالم سيعود كمخلص يقود قوات الخير والنور وينتصر على قوات الشر والظلام .

أهم تعليم الزرادشتية :

يقول أتباع زرادشت ان تعاليمه كانت في ٢١ كتاباً ضاعت كلها وجمع ما حفظ من تعاليمه في الـ « آفستا – AVESTA » . كانت تلك الكتب تشمل مواد تاريخية وأدبية وفلسفية ودينية وسياسية كما هي الحال في كتب الديانة الهندوسية .

اهورامازدا هو الإله الواحد القيوم رب العالم وخالق الكل وهو موجود من قبل العالم وهو الحافظ والمحسِن والمملوء حبّاً ورحمة لذلك يجب ان يُعبد هو وحده [١] . عبادة الاوثان هي ضلال وظلام . يجب تكرار اسمه بقلب محب وعقـــل متأمل ويجب اعتباره موجوداً في كل خليقة : في الملائكة والطبيعة وفي الشمس والقمر والنار والماء ...

يجب اقتبال الحقيقة التي يبشر بها زرادشت فهي الديانة الوحيدة الصحيحة نزلت عليــه بوحي داخلي . الحقيقة هي بكر كل خليقة وهي تظهر نفسها للباحث عنها باخلاص وتعطيه معرفة روحية وسماوية وفيضاً من الحكمة .

يجب أن يكون عند اتباعه أفكار ورغائب صالحة مستقيمة ، وان يعملوا لأجل الله وحده ، وان يخدموا الفقراء والمحتاجين كا اهورامازدا فمن يخدمهم يخدمه هو . من يعمل الصلاح يصل الى الله ويتحد به .

الحقيقة هي إلهية وقائمة بذاتها وموجودة منذ قبل العالم وستبقى بعد ان تزول كل الخلائق . بين حقبة وأخرى يظهر في العـــالم أناس يبشرون بدين الحقيقة هنا او هناك إنما دين الحقيقة موجود من قبل هؤلاء كلهم . زرادشت هو نبي الحقيقة والمبشّر بها جاءَ ليقوّم الدين المعوج وليدمّر قوى الشر وليعيد حب الحقيقة الى قلوب البشر .

توجد قوتان توأمتان ومن التقائهما خرج العالم الى حيز الوجود وستبقيان الى نهاية العالم وهما روح الخير و روح الشر . روح الخير يهدي الى الله الواحد والى محبة الجميع و روح الشر يعلم الانانية وجهل الله وتجاهل الغير . روح الخير يوحي بأفكار ورغائب وأقوال صالحة يجب اتباعها وبالعكس روح الشر. الإنسان حرّ ان يتبع هذا الروح او ذاك . روح الشر «انجرامانيو أو اهريمان» أوجد الشر في العـــالم وفي نهـــاية الكون سينعدم هو واتباعه « الشياطين — DAEVAS » فلا يبقى في الوجود إلا اهورامازدا واتباعه والخير .

(١) بعد زرادشت بقليل تسربت آلهة الشعب الفارسي الى ديانته .

اهورامازدا هو الإله الأوحد ولكنه يُظهر ذاته في ستة أرواح إلهية صالحة . الثلاثة الأولى ذكور والثلاثة الباقية إناث وينبغي التعبد لها فهي تبارك وتسعد عابديها :

١ – « فاهو ميناه – VAHU - MENAH » تظهر فيه ألوهة اهورامازدا بكاملها . وهو وعي اهورامازدا لذاته .

٢ – « اشفاهيشتا – ASHVAHISHTA » تظهر فيه الألوهة العاملة معطية الشرائع الطبيعية التي في معرفتها الحكمة .

٣ – كشترا فايريا – KSHTHRAVAIRYA» يظهر فيه الملكوت الإلهي مع بركاته .

٤ – « ارمايتي – ARMAITI » تظهر فيها المحبة لله والعبادة له .

٥ – « اهورافاتات AHURVATAT » يظهر فيها الكمال الإلهي في نظام الكون في ملكوت الله السرمدي الذي لا يتغير ولا يتحول .

٦ – اميرتيات – AMERETAT يظهر فيها الخلود الإلهي .

غاية كل انسان أن يذوب في الذات الإلهية الوحيدة اهورامازدا . يمكن ان يتحقق هذا بنعمة اهورامازدا التي تساعد المؤمن المتعبد ليخلص من الـ « أنا » المنفردة المستقلة ويتوق الى الذوبان في الذات الإلهية[1] . وزرادشت – حسب اتباعه – هو وسيط بين الله والبشر . تحقق فيه نوع من التجسّد الإلهي ليعلم البشر كيف يصلون الى الله وبذلك يخلصون . بصفته شخصاً بشرياً عاش ٧٧ سنة و ٤٠ يوماً ثم مات . وبصفته شخصاً إلهياً هو باقٍ مع البشر يهديهم الى الحق والخلاص .

---

(١) في هذا شبه بالبوذية والهندوسية : النجاة او الخلاص او النرفانا بالضياع في الله او في الكون الواحد .

بعض ابتهالات زرادشتية :

يا اهورامازدا ، انت محب الكل وحبيب الكل ، وكل انسان في النهاية يتوجه إليك . كل ما فينا من نبل واخلاص وحكمة هو منك .

يا اهورامازدا ، اجعلني أصل إليك بصلواتي التي بها اسبحك وبأناشيدي التي بها امجدك .

يا اهورامازدا قل لي ما هو ملكوتك ، وما هي مشيئتك .

ايها الرب العارف كل شيء ، اجعلني اصل إليك بواسطة فاهوميناه .

يا اهورامازدا ، إنني اريد شيئين فقط : الاتصال بك والحديث معك .

يا اهورامازدا ، في السراء والضراء ، انت تمنح الحكمة لعبادك الذين يعيشون بطهارة الفكر والقلب ويحفظون وصاياك كأثمن كنز .

●

٧٨

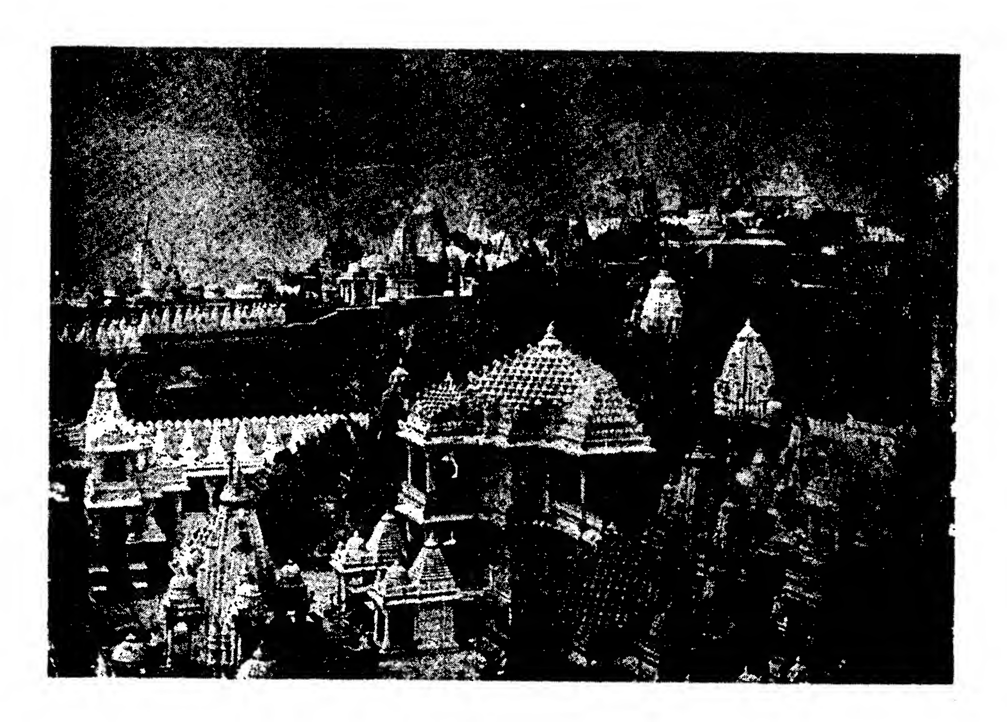
الديانة الجينية

ثلاثة رهبان جينيين :

بعـــد الزرادشتية تعرّفت في كلكتا على الجينية . معبد الجينيين هو من أجمل معابد كلكتا وأوسعها يشبه بهندسته كنيسة ذات ثلاث باحات . بُني سنة ١٨٦٧ وكله من رخام أبيض تزيّنه الفسيفساء فهو بذلك يتناقض وروح الجينية الصارمة الزاهدة . رأيت فيه ثلاثة رهبان جينيين هم من أعجب مـا رأيت من رجال الديانات في الهند. شعرهم طويل الى الارض فلا يقصّون شعر رأسهم وذقنهم أبداً. لا يأكلون لحماً ولا منتوج الحيوان طوال عمرهم . فاخبر أحدهم أمامنا بـــأن الجينية التي ترتقي الى القرن السادس ق. م. هي ضد الطبقات في الهند ومن ذلك الزمن علـّمت مساواة الجميع . يعـد اتباعها نحو خمسة ملايين .

مؤسس الجينية عاش عارياً وصام حتى الموت :

مؤسس الجينية – ومعناها ديانــة المنتصرين – هو الراهب « ماهاويرا » – أي البطل الاكبر – الذي كان معاصراً لبوذا .



معبد جيني

وُلد ماهاويرا حوالي سنة ٥٤٠ ق. م. وكان من طبقة « الكاشتريا » العسكرية . كان والده زعيم قبيلة . نشأ كأمير وتزوّج ورزق طفلة . عندما بلغ سن الثلاثين – وكان والداه قد توفيا – هجر البيت وصار راهباً . تجوّل اثنتي عشرة سنة متسوّلاً متأملاً مبشراً مُخضعاً جسده لتقشّفات صارمة . ستر جسمه برداء واحد طيلة ثلاثة عشر شهراً ثم خلعه وعاش عرياناً الى آخر عمره . نزلت عليه الاستنارة وعمره ٤٣ سنة فأصبح « جينيا » أي منتصراً وذاع صيته وكثر أتباعه . مات وعمره ٧٢ سنة او بالأحرى أمات نفسه جوعاً طوعياً !

شيعتا الجينية :

من بعده بقيت الجينية نحو مئتي سنة طائفة صغيرة من رهبان وعلمانيين

نزح كثيرون منهم الى الجنوب حيث أقاموا لهم دويلة. ثم انقسموا الى فرعين: فرع يريد العري التام [1] وهم الذين في الجنوب وفرع يريد لبس ثوب أبيض وهم الذين في الشمال . ولا يزال هـذان الفرعان الى أيامنا ولكن الفرع الثاني يقول : بمـــا اننا في فترة الانحطاط والتقهقر يسمح بارتداء الثياب تمشّياً مع الضعف البشري !

ماهاويرا ومعلمو الجينية أُكرموا ثم عُبدوا كبوذا وكآلهة الهندوس مـع ان الجينية الحقة الصِرف هي ملحدة .

بعـــد وفاة ماهاويرا اجتمع أتباعـــه واتفقوا على جوهر تعاليمه التي سينشرونها وكُتبت فيما بعد وأضافت اليها الأجيال نصوصاً شعرية ونثرية .

اهم تعاليم الجينية

الكون والبشر :

العالم هو أزلي . وجود العالم ينقسم الى عدد غير متناهٍ من الدورات وفي كل واحدة منها فترة صعود ورُقي تعقبها فترة تقهقر وانحطاط ثم تتبعها دورة أخرى .. كل دورة تشبه سابقتها تمام الشبه ففيها ٢٢ معلماً و١٢ امبراطوراً و٣٦ رجلاً عظيماً يعيشون في فترات منتظمة متتابعة. في أوج الدورة أجسام الناس ضخمة وأعمارهم طويلة وليسوا بحاجة الى التملك والعمل لأن الاشجار توّفر لهم كل حاجاتهم. آخر معلـّم في حلقتنا التي نعيش فيها بلغ النرڤانا ومن بعد رحيله تقهقر الدين . ستدوم فترة الانحطاط أربعين الف سنة وفي نهايتها يصبح البشر أقزاماً ويكون معدّل أعمارهم ٢٠سنة فقط ويسكنون الكهوف وينسون كل ثقافة وعِلم وينسون حتى كيف يستعملون النار . ثم تبدأ الدورة

---

(١) في شهر آذار ١٩٧٢ ذكرت الصحف ان بعض « الجينيين » حضروا وهم عراة اجتماع « حزب المؤتمر » في نيودلهي .

التالية فيرتقون رويداً رويداً حتى اوجها ثم ينحدرون . وهكذا الى مـــا لا نهاية .

الروح والحياة والتقمّص :

الحياة في عالمنا أتت من تفاعل الأرواح الحية مع خمس فئات من الكائنات غـــير الحياة هي الأثير والفضاء والفراغ والوقت والمادة . الارواح توجد في النبات والحيوان والحجارة والمياه وفي كل كائن مادي .

الروح هي نورانية ومدركة ومباركة . يوجد في العالم عدد غـير محدود من الارواح وكلها متساوية . الفروق تأتي من الـ « كارما » وهي مادة أثيرية دقيقة جداً لا تراها العين وبواسطتها تتحد الأرواح بالاجسام. عندما تضمحل الكارما تعقبها كارما أخرى أفضل او أقل منها حسب استحقاقها وبواسطتها تتحد الروح بجسم جديد وهذا هو التناسخ . لا يمكن الخلاص من التناسخ إلا بالتأكد من ان الروح عند الوفاة لم « تعلق » بكارما جديدة . وهـذا تدرُّج بطيء جـداً وشاق تتوصل الى نهايته قلة من الارواح المتفوّقة ، أمـا غالبية الارواح فتتقمص الى ما لا نهاية . للتوصل الى إبادة الكارما والانعتاق منها ، وبالتالي للنجاة من التناسخ ، يجب التقشف والزهد والسلوك الصارم المنظم . الروح التي تحظى بهذه النجاة تنطلق الى قمة العالم فوق أعلى سماء حيث تبقى بدون حراك وفي حالة عِلم كامل ونعيم أبدي : هذه هي النرفانا الجينية .

طريق الخلاص ملحدة :

لا يمكن للعلماني أن يبلغ النجاة عكس مـا تعلم الهندوسية والبوذية . فلبلوغ النرفانا يجب الترهب والتجرد عن كل ما في العالم (حتى من الثياب) والصوم الطويل والتقشف الصارم والتأمل المضني . وفي الوقت الحاضر العالم هو في فترة التقهقر فلا يمكن لأي نفس أن تبلغ الخلاص في النرفانا .

النظام الرهباني المتزمت :

نظام الرهبان الجينيين هو صارم جـداً حتى ايامنا هذه . لا يقصّون

شعرهم وإذا طال كثيراً يشلطونه شلطاً. يجلسون ورأسهم مكشوف في شمس الصيف المحرقة ويتعرّون حتى في ايام البرد الشديد ويقفون او يجلسون جلسة شاقة ساعات بل اياماً . أكلهم قليل جداً . يُميت بعضهم انفسهم جوعاً على مثال مؤسسهم . عندهم خمسة نذور او وصايا وهي : لا اقتل ، لا أسرق ، لا أكذب ، لا أمارس النشاط الجنسي ، لا أمتلك شيئاً . لا يأكلون اللحم ولا منتوجات الحيوان طول عمرهم . لا يقتلون حتى اصغر حشرة . يصفّون الماء بصفاة كيلا يبتلعوا اي حي فيه . يحمل بعضهم دوماً مكانس ليكنسوا امامهم وهم سائرون حتى لا يدوسوا اي حي. يضع بعضهم قناعاً على افواههم حتى لا تدخلها حشرة من الجو ...

العلمانيون :

الجيني العلماني – غير الراهب – لا يجوز ان يشتغل فلاحاً لأنه يتعرّض لقتل حيوانات صغيرة تعيش في التربة ولهذا غالبهم تجار واغنياء ومعابدهم جميلة. يلتزم العلمانيون بالنبل والقناعة والمحبة والرحمة للجميع وعدم استعمال العنف ابداً . يتبعون الطقوس الهندوسية في الولادة والزواج والموت . في البدء لم تكن لهم معابد لأنهم ملحدون وبمرور الزمن بنوا المعابد وصاروا يعبدون فيها مؤسّسهم ومعلّمي الجينية ويقدمون لهم الزهور والبخور والمصابيح والشموع .

قصيدة تعليمية صوفية :

كما ان الوردة الذابلة عندما يحين اجلها تقع من النبتة على الارض هكذا حياة الانسان . فياجوتاما كن دوماً محترساً ويقظاً . (جوتاما هذا هو احد تلاميذ ماهاويرا) .

كما ان قطرة الندى تبقى لحظة واحدة على العشب هكذا حياة الانسان . فياجوتاما ...

الروح تتعذب من خمولها وشرها وتهيم في العالم من « كارما » صـالحة الى شريرة . فياجوتاما ...

عندما يعجز الجسم ويشيب الشَعر وتنحط كل القوى الحيوية يأتي المرض والخور ويتقهقر البدن . فياجوتاما ...

لذلك تحرّر من كل رباط وكن طاهراً كاللوتس وكماء الخريف . يا جوتاما كن دوماً محترساً ويقظاً .

قصيدة تعليمية ساخرة :

إذا حنث راهب بنذر العفة وتزوج فسيتمتع بالسعادة الآتية :

ستركله زوجته بقدميها على رأسه وقفاه وتقول له : ايهـا الراهب إذا لم ترد ان تساكنني فسأقص شعري واصبح راهبة فكيف تعيش بدوني ! وإذا ساكنها سيسمع منها هذا الكلام : اعطني فاكهة وسكيناً لأقشرها بها. جهّز الحطب للطبخ وللتدفئة . اطلِ قدميّ . ادلك ظهري . اعطني طلاءً لشفتي والشمسية والقبقاب . خـــذ فستاني واصبغه ازرق. اعطني المشط والشريطة والمراية والفرشاة ... وتقول له عندما يُولد الطفل : حطه على كتفيك ، احمله على ظهرك كالجمل ودب على الاربعة ...

فيا أيها الراهب لا تسلـّم نفسك لحب النساء وتجنـّب صداقتهنّ وعشرتهنّ . مقابل اللذة الصغيرة التي تنعم بها معهنّ تصادف متاعب كبيرة !

طائفة السيخ :

في كلكتا يوجد مركز لطائفة «السيـخ» الشهيرة . ان منطقتهم الاساسية هي في البنجاب بالهند الشرقية وهم يطالبون بمملكة مستقلة فيها ويثيرون لذلك الاضطرابات ، ويصوم زعمـــاؤهم «حتى الموت» لينتزعوا من الحكومة الهنـدية بعض امتيازات لطائفتهم . في اواخر القرن الماضي كانت مملكتهم مستقلة ثم ادخلت في الاتحاد الهندي الشامل .

علـّم راهب هندوسي اسمـــه « كابـيرا » (١٤٤٠ – ١٥١٨ ب.م.) الأخوّة بـــين المسلمين والهندوسيين والايمان بإله واحـــد هو أب المسلمين والهندوسيين . ومنع عبـــادة الاوثان . ونادى بإلغـاء الطبقات وبمساواة المنبوذين ببـاقي المواطنين . وبإمكانية الصلاة في المعبد الهندوسي وفي الجامع الإسلامي على السواء . ومن بعده جاء راهب آخر اسمه « ناناك » (١٤٦٩ – ١٥٣٣ ب.م.) من البنجاب اخذ هـــذه التعاليم وتوسّع فيها وأسّس ديانة السيخ جامعاً فيها احسن ما في الهندوسية والاسلام على حسب زعمه . لكن الاسلام لم يقبلوا بالسيخ . ولجأ هؤلاء بأعداد كبيرة من الباكستان الى الهند حين اعلنتا دولتين مستقلتين سنة ١٩٤٨ .

●

٧٩

بناريس

اقدم واقدس محج في الهند :

«تراث الهند هو هنا» هكذا قال «نهرو» عن «بناريس – BANARES» او « ڤاراناسي » كأن روح الأمة اختارتها مقراً . عندما دخل الآريون الهند نحو القرن ١٥ ق.م. كانت بناريس معتبرة أقدس محج .

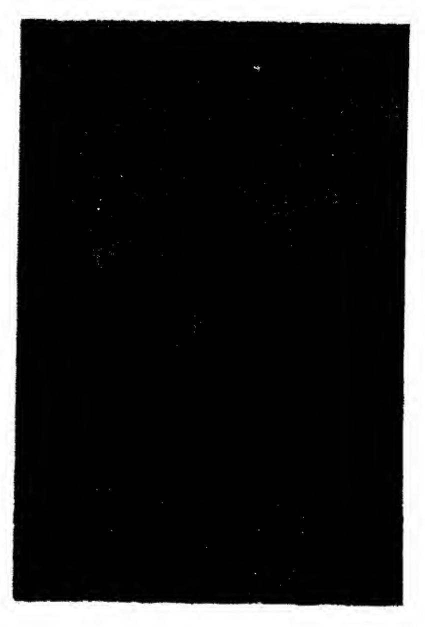
لا يقبل الشعب الهندي بقول البعض ان الدين يبدأ حيث يقف العلم والفلسفة . فللشعب الهندي الدين هو عملي – طقوس وحركات وعبادات – قبل ان يكون تعليماً ولاهوتاً . وهو تقليدي الى اقصى الحدود فيفعلون في بناريس ما كان يفعله اجدادهم منذ ثلاثة آلاف سنة ونيّف . وبناريس هي مدينة « شيڤا » الاقنوم الثالث من الثالوث الهندي . مسكنه الاول هملايا عند منبع نهر الجانج ومسكنه الثاني هنا . وبناريس هي مدينة الموت وحرق الجثث ومدينة الخلاص لأن من يُحرَق جثمانه فيها يتخلّص من عقاب تكرار المولد وتصعد روحه رأساً الى « النرڤانا » يزيدها قداسة ان بوذا عاش زمناً طويلاً بالقرب منها والقى عظته الاولى فيها وبدأ التبشير بمذهبه في ضواحيها .

ملتقى الحجاج :

تقع بناريس على بعد ٦٩٦ كلم من كلكتا و ٧٧٢ كلم من نيودلهي على ضفاف نهر الجانج وعند ملتقى نهرين صغيرين اسماهما «ڤاراتا» و « آسي » . تتجاور فيها معابد كل الاديان المعروفة في الهند ولكن يطغي عليها اللون الهندوسي ففيها الف وخمسمائة معبد هندوسي وادبرة للرهبان وللكهان الهندوسيين . مساحتها تمتد نحو ٢٣ كلم² وعدد سكانها المقيمين يبلغ نصف مليون. كل سنة يقصد بناريس ملايين من الحجاج يحملون مرضاهم على حمالات او على الاكتاف او يزحفون اليها على بطونهم او يقيسون طول الطريق بجسمهم ثم يرجعون مسرورين لأنهم استحمّوا في جانج بناريس .

منظر الاستحمام المقدس :

قمت أنا ودليلي الساعة ٥ صباحاً . ركبنا مركباً صغيراً وكانت نسمة الصباح منعشة والشمس تتأهب للشروق . رأيت ألوفاً من الهنود على الادراج او في الماء او في المراكب يستعدون لاستقبال الشمس . وحين بانت رفعوا أياديهم وهللوا وحنوا رؤوسهم بسرعة وتكراراً « تعبداً لأعظم مظهر من قدرة الله واحسانه للبشر التي هي الشمس معطية الحياة للأرض ورمز نور الحقيقة الشاملة » . كانت أمواج تضرعاتهم تمتزج بأمواج الجانج



الاستحمام المقدس في الجانج

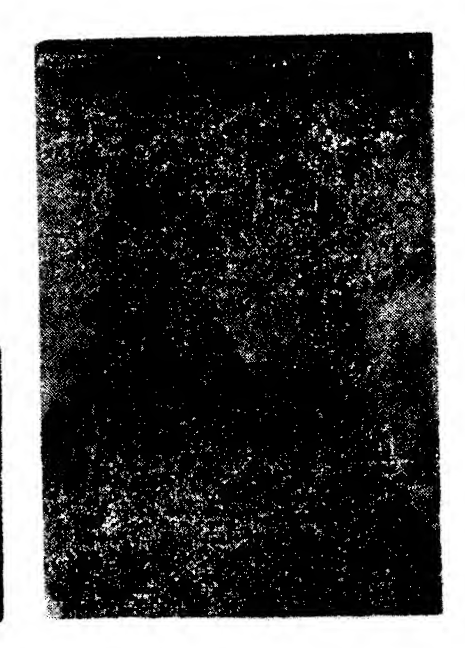
المقدّس والمطهّر من الخطايا وحامل الصحة والشفاء فيعتقدون ان مياهه بمرورها في تربة ومعادن وأعشاب متنوعة تكتسب ميزات صحية . رأيت الكثيرين يشربون منه ويغسلون أفواههم بمائه العكر . للجانج آلهة تشرف على سيره وتقدّسه عدا تقديسه منذ ألوف السنين بصلوات وحج الهنود والقاء رماد موتاهم فيه . يُقرأ في كتابهم المقدس « الفيدا » ما يلي : « مياه الجانج دواء . تطرد الامراض من الجسم وتعطيه النشاط والحيوية وتمنح الصفاء للذهن . وهي مُملوءة من الحياة الخالدة . وعلى كل مستحم فيها ان لا ينسى صفاتها هذه » . ويعتقدون ان الجانج يكتسب في بناريس طاقات خارقة فينزل فيه المصابون بالبرص والسل والجدري والعمى متأملين الشفاء .

الهندي يتأمل اكثر مما يصلي وهو ليس معقّداً في تعبده الذي تعلمه من والديه ببساطة . لا ضرورة لمعبد او لمعرفة عقائد الدين او للاشتراك مع جمهور في طقوس صعبة . يكفي أن يتطلع الى الطبيعة ويسكت ويطلق لأفكاره العنان . هذا ما يعمله الالوف على ضفة الجانج في بناريس دون ان تعكّر المدينة صفاء تأملهم بقصورها وأبراجها ومآذنها وصخبها ورواح ومجيء الالوف من وإلى الجانج. الاستحمام في الماء — مهما كان البرد قارصاً — هو من اعمال العبادة .

من ميزات بناريس انها واقعة على الضفة الغربية للنهر ومرتفعة عنه فيجلس الهنود الوفاً الوفاً على الادراج لاستقبال الشمس . الهندوسي يصلي الى الشرق والمسلم الهندي الى الغرب متجهاً الى الكعبة . يجلسون القرفصاء ساعات متوالية . توجد مقاعد من الخيزران والخشب والحجر وشماسي من النخيل تحتها الحلاقون وبائعو المآكل الشعبية والصرّافون . ويوجد كهان لخدمة المستحمّين إذ يكسبون رزقهم من ذلك : مسابح مربوطة حول اذرعهم وعقود متدلية من اعناقهم وعلى اجنبتهم رسم مذراة « شيفا » وشعورهم مسترسلة وبجانبهم مرايا وامشاط وشموع واعواد بخور مثل اعواد كبريت



شيفا الإله الراقص



قباب معبد هندوسي

احراق الجثة على ضفة الجانج

طويلة وورق وزهر الياسمين الاصفر وأحجبة الخ ... يجلس حولهم الحجاج والاولاد ليسمعوا منهم نصوص « الفيدا » المقدسة وبعض التعاليم . يقون من العين ويطردون الارواح الشريرة ويوزعون صلوات على قطع من الصيني . كان احدهم يقول للذين حوله :

عظة على ضفة النهر :

« عندنا تعليمان رئيسيان هما التناسخ ووحدة روح البشرية الشاملة التي لا تتجزأ وتبقى حية بعد فناء الجسد [١] . فالانسان ليس فقط ابن والديه بل

---

(١) يقول بعض المفكرين ان الفيلسوف الالماني « كانت – KANT » اعتقد بوحـــدة روح البشر . الهندوسية والبوذية وكل باقي ديانات الشرق الاقصى لا تعرف قيامة الاجساد .

أيضاً ابن بيئته وتراثـه . الغاية من الاستحمام والصلاة هنا هي تسامي الروح وتطهيرها لكي تستحق بعـد الموت ان تتقمّص في جسد أفضل او تخلص من سنّة التقمّص وتصعد الى النرڤانا. وهنا ترون أمامكم عشرات الجثث تُحَرق وُيرمى رمادُها في الجانج لأننـا نعتقد أن من يمت او يُحرق جثمانه او يُرمَ رماده هنا يبلغ النرڤانا حيث يتحد بالروح الإلهية العليا الدائمة الوجود والحالة في كل كائن موجود . بناريس هي لنا باب النرڤانا » .

احراق الجثث :

عند الاستماع لكلامه أدركت لماذا يقصد الهنود هـــذا المكان ليحرقوا جثث موتاهم فيـــه . وبالفعل رأيت عشرات الجثث على الحطب وحولها المشيّعون يحضرون حرقها على « ضفاف الموت والخلاص » . توجد هنا غرف خاصة ليموت فيها المنازعون فبالنزاع تبدأ الروح رحلتها . بعد أن يلفظوا أنفاسهم يُغطّسـون في نهـر الجانج ليطهّر المتوفي من الخطايا والمشيّعون من نجاسة الجثة . ثم يضعونهم على الحطب ويرشون عليهم بعض البخور والعطور منعاً لتفشي الرائحة الكريهة ورائحة الاحتراق . كبير أبناء المتوفى يحلق ذقنه ويستحم بالنهر ويلبس ثوباً أبيض نظيفاً ويدور بالمشعل ثـلاث مرات حول الجثــة ثم يطوف من اليمين الى اليسار ويُدني المشعل ثلاث مرات الى رأس الميت المسجى ثم يشعل الحطب . يبقون حوله ثـــلاث ساعات الى أن ينتهي ثم يرمون رماده في نهر الجانج. يتم هذا ببساطة وبدون حزن وتفجع. يجب أن تتم طقوس الحرق بكل دقة وإلا فلا تصعد الروح الى النرڤانا وتبقى حائمة كروح جائعة حانقة تنتقم من أقاربها الاحياء . لذلك لا يقبل الهنود بحرق الجثة في فرن كهربائي ، ويخشون أن يموتوا بعيداً عن أهلهم — في ساحة الحرب مثلاً — فلا تتم لهم هذه الطقوس وبالتالي لا نرڤانا ولا راحة لهم. طوال عشرة أيام يقدمون لروح المتوفى رزاً ولبنـــاً ومشروباً . بنهاية اليوم العاشر تنتهي نجاسة الموت .

ترى أليس حرق الميت أفضل من دفنه ؟ والآن وقد اخذ الطب يبدّل أعضاء الجسم فما المانع من استئصال الاعضاء التي قد تفيد الغير ثم حرق الباقي والاحتفاظ بالرماد في قمقم عليه اسم المتوفى ؟

اليوجيون والفقيرون والسحرة :

تتعاقب مناظر اخرى فريدة في هـذا المكان الفريد . اطباء طبيعيون يداوون بالاعشاب ويعملون « كاسات هوا » بقرون البقر ويقومون بالوشم . الملاكمون والمصارعون يتدربون بعد الاستحمام . اليوجيون يقومون بتمارينهم المعروفة من ضبط التنفس والجلوس كتمثال والتمدد او التلوي بطرق صعبة. و «الفقيرون» — كي نميزهم عن الفقراء — السحرة الهنود المشهورون يعرضون بعض معجزاتهم . بناريس هي عاصمة هـذه الالعاب البهلوانية الخارقة من شكّ الجسم بالإبر والرماح وبلع السيوف والخناجر والتمدد على نورج المسامير والتسلق على الحبال والتهام النيران وبلع الزجاج والمسامير والدبابيس والسير على الجمر وما الى ذلك ... رأيت من هذه الخوارق الفقير الممدد على المسامير وبالع السيف. سألت دليلي عن ذلك وقلت له: بالطبع هذه ليست معجزات بل مهـارة فنية فكيف يفعلون ذلك . فقال لي : بين مواقع الاحساس في الجسم نقـاط لا تحس بالألم . مثلاً على طرف اللسان بين كل مركز عصبي يحس والمركز الذي بجانبه يوجد مليمتر لا يحس . وعلى قفا اليد تمتد مساحة عدم الاحساس من ٣ الى ٥ سم. وعلى الظهر والذراع والفخذ من ٤ الى ١٠ سم. فإذا عرف المرء هذه المواقع غير الحسّاسة وشكّ فيها على البعد المطلوب إبراً لا يحس بأي ألم . فعلى نورج الفقير المسامير متباعدة بهذه الطريقة لذلك لا يقبل الفقير ان يتمدد على أي نورج ولا يشعر إلا بألم بسيط فقط في لحظة بدء التمدد . أما بلع السيوف فيتطلب تدريباً طويلاً ودقيقاً وسره هو في معرفة تلاقي فتحة البلعوم في مؤخر الفم مع مجرى البلعوم. يبدأون باستعمال سيوف مزيفة لا تجرح ثم ينتهون باستعمال سيوف حقيقية عندما يتقدمون في المهنة .



فقير على نورج المسامير

اهم شيء عندالیوجیین والفقيرين هو سيطرة الروح على الجسد وانفصال الذهن عن المادة كأنما فينوم عميق او انخطاف فلا يشعرون بالألم او يسيطرون عليه.

عدا هؤلاء الفقيرين – السحرة يوجد فقراء روحانيون زهّاد يعيشون في التجول والتسول وفي التقشف والتأمل لا يملكون إلا ثيابهم وكوباً يتلقون به الصدقات وعصا يتوكأون عليها في سيرهم المتواصل الى اماكن الحج والمهرجانات.

يتوصل اليوجيون الى السيطرة بنوع عجيب على تنفسهم وخفقان قلبهم وتحريك بعض عضلات لا يستطيع الناس العاديون ان يحركوها، وتحمل الجوع اياماً، والوقوف ساعات على رجل واحدة الخ... ومن التمارين للدخول في سلك اليوجيين: طوال ليلة من ليالي الشتاء الباردة يقف الطالب عارياً ثم يرتدي ثوباً نُقع في الماء المجلّد ويبقيه عليه الى ان تسقط كل نقاط الماء فيبدله بآخر مثله ويبقى هكذا حتى شروق الشمس...

في ايامنا انتشرت « اليوجا » في العالم الغربي وكتب عنها الكثير . لفظة « اليوجا » معناها « الاتحاد » بالله او بالروح الشاملة . أما لغير المؤمن فهي فقط رياضة جسدية وذهنية . اهم مـــا فيها التحكم في التنفس والقيام بتمارين رياضية هادئة تتطلب الاستغراق والتركيز وهي تتدرج من الأسهل الى الأصعب. لليوجا فوائد عظيمة جـــداً للجسم وللذهن ولتقوية الشخصية ولاكتساب الاتزان والهدوء والصفاء . ويسعدني انني من ممارسى اليوجا ومحبذيها[1] ...

المقادس :

قُسمت هذه الضفاف والادراج الى« مقادس » أهمها حرق الجثث ومقدس ذبيحة الخيول العشرة وروايتها ان احد المهراجات طرد من بناريس كل الآلهة وأراد شيئا العودة اليها فاستنجد ببراهما . ظهر براهما للمهراجا بشكل كاهن براهمـــاني عجوز طلب من المهراجا ان يقدم هنـــا ذبيحة من عشرة خيول لاسترضاء الآلهة فكان له ما طلب .

وهنا « مقدس الانهر الخمسة » فمن يستحم في هذه النقطة بالذات يكسب أجر من يستحم في خمسة أنهر !

عنـــد الغروب يلقون في النهر مراكب صغيرة من ورق ومنورة تشكل منظراً اخاذاً رومانتيكياً وهي تتهادى على امواج النهر كأنها تهزه لينام بعد الغروب. ويرمون زهور الياسمين البيضاء والصفراء فتكاد تغطي صفحة الماء . هذان المنظران يُصَوَّران في بعض الافـــلام الهندية . ويأتون بصورة الآلهة « دورجا » والآلهة « كالى » ويغطسونها في مياه النهر .

لا يكتفي الحجاج بالاستحمام فيالجانج وبزيارة معبد شيفا فالورعون منهم يذرعون طريقاً طولها ٥٥ كم والاكثر ورعاً يقطعونها حفاة الاقـدام ومعهم نزر من القوت والماء ، وفي الطريق لا يتلفظون بكلام غير لائق ، ولا يقبلون

---

[1] انظر صفحة ٦٥٥ عن اليوجا كطريق الخلاص .

عطايا من احد . يبدأ الطريق عند النهر ثم يمر بحقول مزروعة قمحاً وشعيراً ثم ببساتين . على حافته استراحات ريفية وتماثيل آلهة . تذكرت وانا اقطعه في السيارة « بالنـــذر » الذي يعمله عندنا الكثيرون : ان يسيروا حفاة الى بعض المزارات البعيدة .

طريقة الصلاة في معبد شيفا :

اهم معبد في بناريس هو المعبد الذهبي او معبد شيفا إله بناريس . كل يوم يُلقي عبّاد شيفا بتقادم من ذهب عند قدميه معتبرين ذلك عمل زهد وتضحية ومحبة لاسترضاء إله الموت والدمـار . المعبد الأصلي هدمه « قطب ايبك » قائد جيوش الملك محمود الغوري وبنى اورنجزيب من بقاياه جامعاً إسلامياً . سنة ١٧٧٧ شُيّد المعبد الحالي مكان المعبد القديم . في المعبد ثلاثة ارباع طن ذهب تبرع بها «رانجيت سينج» مهراجا البنجاب الذي كان من طائفة السيخ. يدخل المتعبدون ومعهم زهور او اوراق شجر او فواكه او حلويات ومـاء من الجانج في أواني صغيرة . ينحنون الى الارض ويعفـّرون جباهم بالتراب الذي في باحة المعبد ثم يدخلون ويقدمون مـا يحملون . ولا بد من ذكر أمر هام عن هذا المعبد رغم ما يبعثه من الاستهجان: رمز الاله شيفا هنا هو رسم عضو التلقيح للدلالة على ان الله الخالق هو رب الحيـاة ورب الموت وخالق الذكر والانثى للتناسل . شعراء الهند وكهانها وابطالها يتغنـّون برمز شيفا هذا . ويمثل شيفا ايضاً برجـل جليل ابيض اللون طويل اللحية له ٣ عيون و ٥ أرجل و ٤ أيدي .

العجل المزين :

في حرم هذا المعبد يوجد تمثال « ناندي » العجل المقدس الذي هو مطية الإله شيفا كما يوجد في غالب معابد شيفا . يكرمونه ويضعون عقوداً من زهر وخرز حول عنقه وعلى ظهره .


العجل المقدس


قبة بوذية في حديقة الغزلان

بئر المعرفة :

توجد بئر مقدسة يجلس على حافتها السياح والحجاج ليستقوا منها المعرفة. يزعمون انه في قديم الزمان عانت بناريس من الجفـاف فتناول كاهن مذراة شيفا وضرب بها الارض فتفجر ينبوع في قاع بئر المعرفة .

معبد دورجا :

« دورجا » هي إحدى زوجات شيفا وهي إلهة طاقات الطبيعة ومصدر المعرفة الروحية والمادية . وهي وراء كل نشاط يظهر في الانسان وفي الطبيعة غير العاقلة . مطيتها الاسد والثور . يدعى هذا المعبد ايضاً « معبد القرود » لأن قروداً أليفة لطيفة تعيش في كنفـــه ويُسر الزوار باطعامها وبملاعبتها. يعتقدون ان إلهـــة دورجا صرعت هنا شيطانين هما شمبا ونيشامبا . يزور الازواج الجدد هذا المعبد . دلني مرشدي على اربعة منهم دخلوا وخرجوا . طنّـوا جرساً لتحية صاحبة المعبد ولتنبيهها الى حضورهم ثم لتوديعها. يلتصق بمعبد «دورجا» معبد عصري رائع من الرخـام الناصع البياض داخله مزيّن بأشخاص ملحمة الـ « رامايانا » .

معبد الهند الأم :

اقيم في بناريس لإله الأمة او لإله الروح الوطنية الشعبية الهندية والمعبود

هنا ممثل في مجسم (ماكيت) خريطة الهند . مذكور في نصوص « الفيدا » ان الوطن هو اعظم من السماء نفسها ! سنة ١٩٣٦ دشن «اب الامـة» المهاتما غاندي هذا المعبد في فترة نضال الهند لتحرّرها من الاستعمار البريطاني .

يُرى بوضوح في المجسّم مسار نهر الجانج ومجرى نهر الهنـدوس وهو يمرّ في باكستان ثم في الهند الى ان يصبّ في بحر العرب . ومعبر «خيبر» الشهير بين افغانستان وباكستان وسط ذُرى الجبال ومنه كان يعبر الغزاة الى الهند.

جامعة بناريس :

أنشئت لحفظ ولنشر الثقافة الهنـدية التي وُلدت هنا منذ الوف السنين .

أسستّها سنة ١٩١٦ الباندديت – اي المعلم – « مادان موهان ». فيها ٣٧ علماً وثمانمائة مدرّس ونحو ثلاثةعشر الف طالب من مختلف الاديان والطبقات. انها غنية وواسعة جداً تبلغ مساحتها خمسة ملايين ونصف مليون متر مربع وطول طرقها ٣٢ كلم . طراز مبانيها هندي يزينه الاجرّ الاحمر . قبـــل الاستقلال كان رئيسها الفخري الحاكم البريطاني وبعد الاستقلال رئيس الجمهورية. تجولت فيها بالسيارة واكتفيت بنظرة سريعة الى مكتبتها والى ملعبها الذي يسع مائة الف متفرج والى معبد شيفا وهو احدث معابد الهند وأكبرها إذ يبلغ ارتفاعه ٧٧ متراً. دُعي لوضع حجره الاساسي ناسك قضى اثنتي عشرة سنة متواصلة في التوحد والتأمل وسط ثلوج هملايا . على احد جدران المعبد مكتوب « براهما الله » وحول هـاتين الكلمتين في كل الجهات عيون وافواه وأيادي واقدام للدلالة على ان الله موجود في كل مكان ويملأ كل شيء. ولشيفا تمثال من البرونز بأربعة اذرع وهو يرقص رقصة الحرب والدمار وهذا النوع من تماثيله منتشر في بناريس . ولدورجا زوجته ثمـان ايدي . كان في المعبد مرفـّم ديني يعيد ويعيد على ارغن صغير : آه آه آه وربما كان يقول كلمات لم افهمها .

يوجد في بناريس جامعة صغيرة سنسكريتية صِرف للغات وآداب الهند

المكتوبة بالسنسكريتية ومما تهتم به علم الفلك وتكوين العالم حسب الاعتقادات الهندية .

الفنون في الميادين :

بما أن بناريس هي مدينة العلم فمن تقاليدها ان يقف طلاب المدارس أو بعض المثقفين في الميادين يلقون نصوصاً من الكتب المقدسة أو يتناقشون علناً. ومن تشرين الاول الى شباط تقدّم تمثيليات في العراء أهمها من الـ « رامايانا » ويلعب الرجال فيها دور النساء حسب العادات القديمة . كما تشتهر بناريس بنوع خاص من الموسيقى الهندية القديمة وبرقصة الـ «كاتهاك – KATHAK » التي هي أصعب وأعقد رقصة هندية تنفرد بحركات غريبة وسريعة بالرأس واليدين اكثر مما بالجسم والقدمين . بناريس مشهورة ايضاً بصنع « الساري » الذي تفاخر به المرأة الهندية ويرى بعض الاوروبيين انه اجمل زي نسائي على وجه الارض . عليه رسوم هندية ميثولوجية أو نباتية أو حيوانية وتطريزه في غاية الدقة . ويتباهى الرجال والنساء بلبس حرير بناريس وقد اشتهرت الهند بصنع الحرير منذ ازمان عريقة وكان الرومان يشترونه منها . وهنالك نشيد قديم يقول : « إذا فكر متزوج بهجر امرأته ليصير راهباً تقول له سألبس من اجل ارضائك أجمل الفساتين من حرير بناريس وقبقاباً خشبياً احمر معطراً . كتب « ماكنلي » : « من بناريس خرج الحرير الذي زيّن قاعات سان جيمس وفرساي » .

بناريس هي مدينة المهرجانات يقام فيها نحو ٤٠٠ مهرجان في العام حتى قيل عنها : « غريبة حياة بناريس ففي ٧ أيام يقام فيها ٨ مهرجانات » ! وشعبها كعموم الشعب الهندي قنوع – كيلا نقول كسول – يكتفي بالشغل القليل والمكسب اليسير وباقي وقته فراغ و « شم هواء » . في بناريس تظهر طبائع الشعب الهندي: التدين والاستسلام والقناعة والوداعة والروح الاخلاقية المحافظة وبعض الكسل والخمول وحبّ الموسيقى والرقص والشعر .

مقادس البوذية في ضواحي بناريس

حديقة الغزلان :

هنـــا في « سارنات – SARNATH » ببناريس القى بوذا عظته الاولى ونسك بعض الزمن وكان يتنقل في منطقة بناريس للتبشير بمذهبه .

قضيتُ نصف نهار في «سارنات» ومعناها سيد الغزلان ذلك لأن اسطورة تحكي ان مهراجا بناريس كان يصيد في الغابة هنا يومياً عدداً من الغزلان . أقنعه بوذا أن يكتفي بصيد غزال واحدٍ كل يوم . ذات يوم كان دور غزالة حامل فقدم ملك الغزلان نفسه فداءً عنها فأعجب المهراجا بتضحيته وشهامته وأقسم ان لا يصيد غزالاً في « سارنات » . الغزال هو من حيوانات بوذا المفضّلة لأنـــه في إحدى تقمّصاته القديمة كان ملك الغزلان حسب أساطير البوذية .

قباب بوذية :

لتخليد حادث عظة بوذا الاولى [1] أقيمت هنا قبـة « شوكهاندي » . بَنى فوقها « أكبر » في ١٥٨٨ ب. م. برجاً مثمّناً . توجـــد قبة أخرى « دارماراجيكا » أقيمت حديثاً مكان قبة قديمة بناها اشوكا ووضع فيها بعض عظام بوذا . سنة ١٧٩٤ هدمها أحد المهراجات وبنى بموادها نُصباً تـذكارياً في بناريس ورمى عظام بوذا في الجانج . وتوجد قبة ثالثة « دهاميك » تخلد ذكرى « بدء دوران عجلة الشريعة » وفيها ٨ نوافذ صغيرة ترمز الى طريق بوذا المثمّن . مقابلها معبد جيني بُني في ١٨٢٤ مـع ان الجينية كانت خصم البوذية حين تأسّستا في زمن واحد .

من قبل عصر بوذا كان الآريون يبنون في الهند قباباً او ابراجاً او اهراماً

---

(١) انظر فصل ٨٥ .

صغيرة يدفنون فيها رفات عظمائهم فاقتدى بهم البوذيون واعتبروا القبة رمزاً للقبة السماوية . حول القبة كانت حجار مقدسة شبه تخوم تحدّد حرم القبة فــلا يتجاوزها الزوار في طوافهم حولها من الشرق الى الغرب تبعاً لدوران الشمس . وكان لهـا ٤ أبواب ترمز : الشرقي لمولد بوذا والجنوبي لاستنارتـه والشمالي لبلوغه النرڤانا والغربي لانتشار البوذية ولذلك عليه رسم عجلة الشريعة .

أقدم متحف بوذي :

جمعت مصلحة الآثار في متحف «سارنات» آثاراً هامة تاريخها بين القرن ٥ ق. م. والقرن ١٢ ب. م. أهم قطعة بالمتحف هي الاسد الملكي الذي أمر بصنعه الملك اشوكا سنة ٢٥٠ ق. م. ليمثل به عظمة تعاليم بوذا وانتشارها وكان على رأس مسلة او عـامود اشوكا الموجود هنا قطعاً متكسرة . الاسد الملكي هو بالفعل أربعة اسود متلاصقة في زمن أشوكا لم يكن لبوذا صور وتماثيل إنمـا رموز فقط . على قاعدة التمثال رسم عجلة الشريعة وفيل وثور وجواد وأسد وكأنها تدور مع العجلة من اليمين الى اليسار. لأهمية هذه القطعة الأثرية جُعلت رمز جمهورية الهند الحالية .

من أقدم تماثيل بوذا تمثال «جوتاما قبل أن يصير بوذا المستنير» . يستنتج من النقوش التي عليه ان الراهب « بالا » صنعه سنة ٨١ ب. م. في «ماتورا» قرب «اجرا» في عهد الملك « كانيشكا » . وكان قد وُضع حيث اعتاد بوذا أن يقوم بمشيته اليومية قبل الرقاد وبعد النهوض .

الشمسية المقدسة :

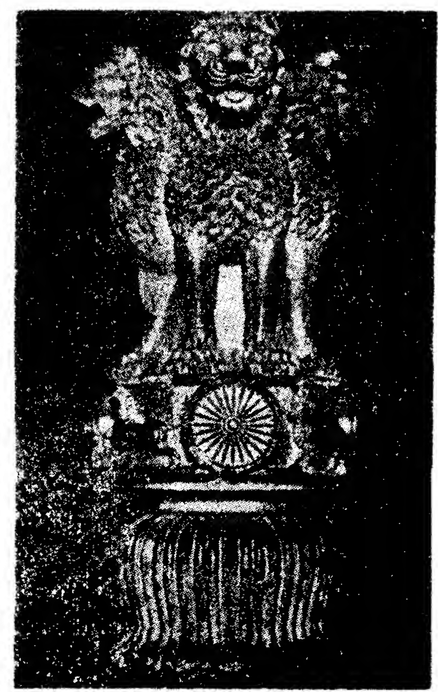
هي من حجر واحـــد وبشكل زهرة لوتس متفتحة وكانت أصلاً فوق التمثال لتقيه من المطر والشمس . على اوراقها رسوم ١٢ حيواناً خرافياً و١٢ رمزاً بوذياً للثالوث البوذي وسمكتان وآنية عسل وصدفـــة وطبق فواكه وصليب السواستيكا [١] . بقرب الشمسية المقدسة تمثال لِ بوذا متربع وعلى

---

(١) انظر صفحة ٥٣٢ .



بوذا الواعظ



الاسد الملكي

قدميه غزالان وأمامه النسّاك الخمسة يستمعون لعظته الاولى وإلى جانبه الايمن السيدة التي تبرّعت بالتمثال وابنتها وإلى جانبه الايسر عجلة الشريعة وحول رأسه هالة وملاكان ينثران عليه زهوراً .. وفي المتحف تماثيل عديدة ولوحات عبادة وقباب مصغّرة وأصداف (كانت تستعمل في الماضي كقطع عملة) وقصعات التسول التي كان يحملها الرهبان البوذيون الخ .

كوخ بوذا :

أرانا الدليل اطلال معبد وكوخ حيث قضى بوذا أربعة أشهر فصل الأمطار بعد عظته الاولى . نصب اشوكا هنا عموداً ارتفاعه ٥١ متراً حطمه « قطب الدين ايبك » سنة ١١٩٤ . على هذا العمود مرسوم من اشوكا يأمر

بـــه الرهبان البوذيين والراهبات البوذيات العائشين في « سارنات » ان لا يحدثوا أي انقسام في البوذية. بقرب الكوخ يجتمع رهبان بوذيون من كل انحاء العالم مرة في السنة مع بدر (تشرين الثاني) .

ان وجود « حديقة الغزلان » و «بحيرة اللوتس» قرب هذه الآثار البوذية بعيداً عن صخب المدينة (٨ كم من بناريس) يشيع في النفس الهدوء والخشوع فيتمنى المرء أن يطول مقامه هنا كما أقام بوذا والنسّاك الخمسة ثم ألوف الرهبان الذين تعاقبوا في هذا المكان .

في منطقة بناريس أماكن مقدسة بوذية أخرى لم أزرها ومنها : غابـة جايا التي استنارا فيها بوذا وموقع « كاشيا » حيث أُحرِق جثمانه وغابـــة « لومبيني » حيث ُلد تحت الشجرة وبلدة « سرافستي » حيث قضى ٢٤ مرة فصل الامطار .

●

٨٠

الديانة الهندوسية

ديانات الشعوب الاندواوروبية :

الديانة الهندوسية متاهات وسراديب وظلمات فحاول أن تفهم معي شيئاً منها . وإذا بَقِيت في رأسك بعض علامات استفهام ففي رأسي اكثر منها. الهندوسية دين وتقاليد وفلسفة وأدب وعـــادات شعبية . هي روح الهند « ويسألونك عن الروح قُل الروح من أمر ربي » .

قبـــل وصول الآريين كان سكان الهنـــد الاصليين يعبدون الإله الأب والإلهـــات الأم ويكرمون بعض الاشجـــار والحيوانـــات ويتطهرون من النجاسة بالاغتسال في الانهار . حوالي سنة ١٥٠٠ ق. م. غزا الآريون الهند وأدخـلوا معهم ديانة « الفيدا » التي كانت تشبه ديانات شعوب اوروبا التي انحدروا منها .

كهان هندوسيون

في اوائـل الألف الثاني قبل المسيح [١] حدثت موجات هجرة الشعوب الآرية او الاندو اوروبية التي كانت تسكن بين ما ندعوه الآن بولندا وأواسط آسيا . الذين بقوا في البقعة الاصلية أصبحوا أجداد بلدان البلطيق والبلدان السلافية. الذين توجهوا الى الغرب أصبحوا اجداد الاغريق واللاتين والتيتون والسلت .. الذين توجهوا الى الشرق اصبحوا سكان القوقـاز وايران وبلدان الشرق الاوسط والشرق الادنى وعبروا الى الهند . فلا عجب إذا ما وجدت وجوه شبه بين الديانات القديمة وفي ميثولوجيا الاغريق والرومان والايرانيين والهنود .. والآريون كالشعوب اللاتينية لقبوا معبوداتهم الذكور « داوس — DEUS » ومعبوداتهم الأناث « ديوا — DEVA » .

كتب الفيدا :

بين ١٥٠٠ و٧٠٠ ق. م. عرف الآريون بالهند ١٠٢٨ نشيداً شملهـا اسم « رج ڤيدا — RG VEDA » وتعتبر من اقـدم النصوص المقدسة في العالم . أُلّفت بعدها ثـــلاث ڤيدات هي : « ساما — SAMA » اناشيد طقسية ، و « ياجور — YAJUR » آيات من النثر والشعر يتلوهـا الكاهن وهو يُعد الذبيحة ، « اتكرڤا — ATKARVA » آيات شعرية للسحر. إذا اضيفت الى مـــا ذكر كتب الـ « براهمانا » بين ٨٠٠ و٦٠٠ ق. م. والـ « ارانياكا — ARANYAKA » و « الاوبانيشاد — UPANISHADS » تكتمل كتب الفيدا المقدسة . اللغة التي كتبت بها هي السنسكريتية وفيها تقارب ملحوظ مـــع لغات اوروبا الغربية . بينا كتب البوذية كانت بلغتي « براكريت » و « پالي » الشعبيتين . عَرَفت الهند الورق من الصين التي اخترعته في القرن الثاني ب. م. [٢] .

---

(١) هجرة ابراهيم من « أور » ثم من « حاران » الى بلاد كنعان حدثت في الوقت ذاتـه . وكانت أسماء بعض الملوك والآلهة في سوريا وفلسطين اندو اوروبية .

(٢) الأبجدية الهندية الحالية ٤٩ حرفاً منها ٣٥ ساكناً و١٤ صوتياً .

آلهة الآريين :

بعد ان استقرّ الآريون في الهند اخـذت ديانتهم تبتعد عن اصلها العريق المشترك . اهم آلهتهم : « دياوس ــ DYAUS » كبير الآلهـة وإله السماوات والآب السماوي . « إيندرا ــ INDRA » سرعان مـا اصبح إلههم الأعظم لأنـــه صار إله الحرب والأحوال الجوية تتبعه آلهة العواصف « ماروت ــ MARUTS » في مسيرته عبر الافلاك . « سوريا ــ SURYA » ابن الشمس تتبعه آلهـة عديدة اهمها : « فشنو » متقبل الذبائح و « اجني ــ AGNI » آلهة النار محرقة الذبائح . « سوما ــ SOMA » : كان نباتـاً يُستخرج منه السوما الذي يُشرَب مع الذبائح (مثل الـ هوما عند الزرادشتيين) . كانوا يعصرون النبات بـين حجرين ويمزجون العصير بالحليب ويصفون السائل ثم يشربونـه وإذا اكثروا منه « انخطفوا » الى عـالم الآلهـة . « ڤارونا ــ VARUNA » يأتي بالمقام بعد « ايندرا » وهو اهورا مازدا إله الزرادشتيين. كان عظيم آلهة الاندو ايرانيين قبل ان ينقسم الشعبان وهو رب النظام الكوني وله خـدام مجنحون (ملائكة) يطيرون الى كل اقطار الأرض . « ياما ــ YAMA » رب الموت . وعرفوا انصاف الآلهة وعرائس الآلهة كاليونانيين .

أهم تعاليم الفيدا :

كان اهم عمـل في ديانتهم تقـديم الذبيحة لغايات عديدة منها اكتساب الـ « براهمان ــ BRAHMAN » وهي في نصوص الفيدا الطاقة الكونية الخفية غـير المحدودة التي تسير الكائنات وكانت تدعى معرفة بعض اسرارها قبيلة يخرج منها السحرة والكهّان .

لم تعلـّم الفيدا ان إلهاً خلق العالم . إنما في اواخر العصر الفيدي اعتقدوا ان الانسان الاول ــ واسمه «براجاباتي-PRAJAPATI» قدم نفسه ذبيحةومن جسمه المضحّى خرج عالمنا ونشيد الانسان الاول هذا شهير في الفيدا .

علمت الفيدا نوعـاً بدائياً من التقمّص . بعـد الموت تنتقل الارواح الى

فردوس « ياما » ثم الى القمر ثم الى الفضاء ثم تنزل الى الأرض مع الأمطار وتتحول الى غذاء وتسكن إنساناً او امرأة إذا كانت صالحة أما إذا كانت شريرة فتسكن الحشرات والطيور والبهائم ويبقى بعضها في حيوانات صغيرة جداً لا تُرى تعيش في الهواء . قالوا بوحدانية وأبدية الكون والحياة وكل الكائنات تمر بأدوار وتذهب وتعود . وقالوا بوحدانية الروح روح العالم وأرواح الأفراد وأرواح الجن .. وحتى الآن بعض فلاسفة الهند يعلمون هذه الوحدانية . الأماكن المقدسة الاولى كانت كهوفاً او اشجاراً [1] .

كتب الهندوسية :

كتب الفيدا والبراهما والأوبانيشاد كان يدرسها مَنْ مَرّ بحفلة الاستنارة[2] ومع الوقت حفظت فقط للبراهمانيين. أما كتب الهندوسية فكانت في متناول الجميع وهي لا تُحصى : ملحمتا الماهابهاراتا [3] والراماياتا [4] ، ١٨ مجموعة روايات وأساطير اسمها « پوراتا » ، أحد عشر كتاباً « تيرومووراي – TIRUMURAI » ألفت بين القرنين ٧ و١٠ ب. م. ، مجموعة الـ « تاليرام – NALYIRAM » أي الاربعة آلاف من تأليف اثني عشر قديساً ومعلّماً وغير ذلك .

الثالوث الهندي :

الثالوث الهندي مكوّن من براهما الإله الخالق وفشنوا الإله الحافظ وشيفا الإله المدمر [5] . براهما سرعان ما افل نجمه في الاولمب الهندوسي والآن في

(١) في سفر التكوين ذكر لأشجار مقدسة في « شكيم ومورة » (تك ١٢ : ٦) وفي «ممرا» (تك ١٣ : ١٨ – و١٨ : ١ و٨) وغرس ابراهيم شجراً في « بئر سبع » (تك ٢١ : ٢٣).

(٢) انظر فصل ٨٠ .

(٣) الماهابهاراتا اطول ملحمة بالعالم مكونة من ٢٢٠٠٠٠ سطراً بينما الالياذة والاوديسية معاً مكونتان من ٣٠٠٠٠ سطراً .

(٤) انظر فصل ٨٦ .

(٥) من نشيد للثالوث: « التسبيح لك أيها الثالوث. الواحد قبل الخليقة والمنقسم الى صفات ثلاث تعلن بها مجدك . انت وحدك سبب الحياة والولادة والموت . في دورة نهارك يحيا العالم وفي دورة ليلك يموت . عندما تكون مستيقظاً نحيا وعندما تنام نهلك » .

الهند كلهـــا له معبد واحد في « اجمر — AJMER » ولو ان الكهّان يدعون براهمانيين . الهندي اما فشنوي واما شيفي حسبما يفضّل في العبادة الاول او الثاني إنما يعتبر بعض الهندوسيين المتعمّقين ان كل الآلهة مظاهر لكائن واحد هو مثل الماسة المتعددة الوجوه .

فشنو :

«لا شيء يوجد بدوني ولا حدود لقدرتي» هكذا يقول فشنو عن نفسه . كان فيقديم الزمان نائماً على أفعى ذات ألف رأس فوق الغمر. نبتت «لوتس» من سرته وتفتحت عن نصف الإله «براهما» الذي خلق العالم فاستيقظ فشنو مع بـدء الخليقة وملك في السماوات العلى مع زوجته الآلهـة « لكشمي » . يُرسم عـــادة بأربعة أذرع وبلون نيلي وهو متوّج على عرشه وممتطٍ النسر الاسطوري « جارودا — GARUDA » . بما أنه يحفظ العالم فعندما يهدّد خطر او شر شامل يتجسد فشنو وينقذ العالم ثم يعود الى سمائه . حتى الآن تجسد عشر مرات : ١ — **السمكة** . غَمَرَ طوفـان الأرض فتجسد فشنو في سمكة عملاقـة حملت على قرنها مركباً فيه « مانو — MANU » (ادم الهندوسية) وسبعة حكماء وكتب الفيدا . ٢ — **السلحفاة** . اغرق الطوفان كل شيء حتى «الكوثر» الذي يحفظ للآلهة شبابها فغطس فشنو الىقعر المحيط بجسم سلحفاة على ظهرها جبل « ماندارا » وحولهـا الأفعى المقدسة « ڤاشوكي » وخضت السلحفاة المحيط فخرج منه الكوثر والآلهة لكشمي . ٣ — **الخنزير** . اغرق شيطان الأرض فرفعها فشنو على ناب خنزير تجسد فيه. يوجد في بعض المعابد رسم الخنزير المقدس. ٤ — **الانسان الاسد** . وعد براهما شيطاناً انه لن يقتل نهاراً ولا ليلاً لا بيد بشر ولا بيد حيوان فتسلح بهـــذا « الامان » وعاث فساداً . خرج له فشنو من عامود عند الغروب إذ لا ليل ولا نهار نصف أسد ونصف إنسان وصرعه . ٥ — **القزم** . ٦ — **في باراشوراما. ٧ في راما**[1].

---

(١) انظر فصل ٨٦ .

٨ – **كريشنا** . هو اهم تجسّد . شاعت نبوءة ان الولد الثامن (كريشنا) للسيدة « ديفاكي » سيأخذ عرش المملكة فأمر الملك بقتل جميع أولادها . ولكن نجـا كريشنا والبكر مع راعيين فأمر الملك « كامسا » بقتل جميع اطفال مملكته ولكن الراعيين نجحا في اخفاء الولدين. قتل كريشنا في صباه بعض الشياطين ورفع جبلاً بإصبعه. كان عندما ينفخ في الناي تجتمع الراعيات حوله وتخرج النساء من بيوتهن ولو في الليـل . اتخذ ١٦ الف زوجة ورزق ١٨٠ الف ولد . وفي ملحمة الماهابهاراتا عـاون الاخوة الخمسة « پاندافا – PANDAVAS » لاسترجاع مملكتهم ولدى عودته رأى ان بعض العظماء استبدّوا بمملكته وقامت فيها ثورة اهلية وقُتل احـد ابنائه امام عينيه فهجر الملك الى غابة حيث قتله احـد الصيادين ظاناً اياه غزالاً وساعتئذٍ أغرق البحر مملكته . لفظ كريشنا يعني « اسود » وعـادة يرسم بهذا اللون . اوحى بقصائد بطولية وغرامية واصبح شفيع الاطفال .

٩ – **بوذا** . كان آخر تجسّد . فشنو اصبح بوذا ليقضي على الشر وليزيل دين الفيدا ويمنع الذبائح والخرافات ... هكذا ادخلت الهنـدوسية بوذا في مجموعة آلهتها .

١٠ – « **كلكين** – KALKIN » هو التجسّد المنتظر . في نهاية عالمنا سيظهر فشنو بطلاً منتصراً على حصان ابيض وسيدين البشر ويعيد الزمن الذهبي السعيد.

شيفا :

شيفا هو إله الموت والزمن والخلاص وإله التقشف والتصوف . في منطقة « كايلاسا – KAILASA من سلسلة « هملايا » يجلس جلسة « اليوجا » على جلد نمر وينبع «الجانج» من خصلات شعره وفي جبينه عين ثالثة هي عين الحكمة . حول عنقه الاسود تلتف الافاعي وجسمه المتقشف مغشّى بالرماد . بجانبـه زوجته «پارڤاتي – PARVATI » بنت«هملايا» التي فشلت في إغوائه فاستنجدت بـ « كاما – KAMA » إله الحب فاحرقه شيفا باللهب المنبعث من عينه الثالثة

لكن الإلهة « راتي – RATI » أي اللذة زوجة كاما احيتْه بسحرها . يئست پارڤاتي وقررت الزهد والنسك على ذروة ازاءَه وحينئذٍ مال اليها وتزوجها وولد منها « سكاندا – SKANDA » إله الحرب الذي هزم الشيطان «تاراكا – TARAKA » مثير القلاقل للآلهة . شيفا هو ايضاً إله الرقص علم البشر ١٠٨ رقصات ناعمة او ضارية وفي نهاية العالم سيرقص رقصة الـ«تانداڤا – TANDAVA » وهو غاضب وحوله ارواح سكرى وبرقصته الجنونية هذه سيبيد العالم !

لپارڤاتي زوجته مظاهر صالحة تدعى : ماهاديفي (الإلهة العظمى) وساتي (الفاضلة) وجوري (البيضاء) واناپورنا (عطية الغذاء) والأم ... ومظاهر شريرة تدعى : دورجا (غير المقترب اليها) وكالي (السوداء) وكاندي (الضارية) وكوراڤاي (إلهة الحرب) . والشريرة ترسم كعجوز شمطاء ساحرة ذات انياب ضارية ولسان احمر ممتد وتحيط بها الجماجم. واحياناً تصرع شيطاناً له رأس جاموس .

الآلهة الكبار :

بعد الثالوث الهندي ، إله الشمس « سوريا » الكبير ، وإله القمر ، و « إندرا » إله العواصف حارس الافق الشرقي ، و « ڤارونا » إله المياه حارس الأفق الغربي ، و « ياما » حارس الافق الجنوبي وهو ديّان الموتى يحمل ميزاناً مثل الإله المصري « توت » ، و «كوبيرا» حارس الافق الشمالي إله الثروة وملك الجن (ذكور الجن يحبون البشر أما الجنيات فيرسلن المصائب ويأكلن الاطفال ...) ، و «سوما» حارس الشمال الشرقي ، و «فايو» حارس الشمال الغربي ، و « اجني » حارس الجنوب الشرقي، وسوريا الصغير حارس الجنوب الغربي . « موروجان » هو إله الخمر ، و « جاناپاتي » هو زعيم انصاف الآلهة والمنجي من الامطار ، و « هانومان » هو الإله القرد الذي ساعد « راما » ، و « سكاندا » إله الحرب ، و « كاما » إله الحب تتبعه آلاف من الحوريات ...

للآلهة زوجات على رأسهن « لكشمي » زوجة فشنو إلهة الحظ والخير و « بارفاتي » زوجة شيفا و « سراسفاتي » زوجة براهما ربّة الفنون ومخترعة اللغة السنسكريتية .

الآلهة الصغار :

يوجد عدد غير محدود من الآلهة الصغار فلكل قرية إلهها ولكل مظهر في الطبيعة إله : آلهة الجدري والفلاحة والموسيقى والسحر وخصوصاً آلهة الافاعي التي اعتقد البعض انها تهدي الى كنوز خفية في الارض وفاخرت بعض الأسر انها من نسل نوع الـ « ناجا — NAJA » العالم مملوء من الارواح الصالحة او الشريرة «الشياطين اشورا— ASURAS » الذين هم في حرب مستمرة ضد الآلهة ويتخذون اشكالاً مرعبة ويسكنون اماكن مظلمة ويؤذون البشر ومنهم « مصاصو الدماء » يدخلون في الجثث .

يكرم الهندوسي القديسين والعظماء وبعض الاشجار وزهرة الريحان المخصصة لعبادة فشنو ، وبعض الصخور والانهار خصوصاً الجانج . وبعض البحيرات والمدن خصوصاً بناريس . وقمم الجبال خصوصاً ذروة « مارو — MERU » التي هي وسط الدنيا... ومن الحيوانات يكرمون بنوع خاص البقرة ويتبركون بمنتوجاتها كلها حتى الروث والبول ! غاندي نفسه افتخر بأن من اعظم ما علمته الهند للعالم عبادة البقرة وكتب مقالاً شهيراً يقول فيه إن الأم البقرة هي أهم من الأم البشرية لأسباب عديدة ! في سنة ١٩٥٦ خصصت الحكومة ١٢٥ مليون روبية لحماية ورعاية البقر الضعيف ولما سُئل نهرو عن هذا أجاب : في الهند قوة أقوى من برامجنا !

اهم تعاليم الهندوسية

اولاً – الكون :

يعتقد بعض علماء الهندوسية ان إلهاً خالقاً صنع هذا العالم من مادة موجودة منذ الازل . ويعلم غالبهم ان الله وحده كان موجوداً واخرج من جوهره كل ما في هذا العالم . ينتقل الكون من دورة زمنية الى اخرى بدون نهاية وكل دورة مكونة من ١٤ حقبة . الحقبة الاساسية هي «يوم براهما» الذي يساوي ٤٣٢٠ مليون عام من اعوامنا. ثم ليل براهما مساوٍ لنهاره اي ٤٣٢٠ مليون سنة اخرى . سنة براهما هي ٣٦٠ نهاراً و ٣٦٠ ليلة اي ٣،١١٠،٤٠٠ مليون سنة. عمر براهما هو مائة سنة من سني براهما أي ٣١١،٠٤٠،٠٠٠ مليون سنة . بنهايتها تنتهي الدورة الاولى فيذوب عالمنا في روح العالم الكائن الأوحد ويأتي إله خالق آخر وتبدأ دورة وجود اخرى وهكذا ... في بدء كل دورة يظهر انسان جديد «مانو – MANU » آدم الهندوسية. وكل حقبة تابعة تحمل معها تقهقراً في التقوى والاخلاق والبنية وطول العمر والسعادة ... نحن الآن –حسب البعض– في الحقبة السابعة وفي نهايتها لن تكون طبقات ولا اخلاق ولا أديان ولا طقوس وسيحكم طغاة فاسدون .

ثانياً – التناسخ :

يترتب على كل عمل صالح ثواب وعلى كل عمل شرير عقاب فبعد الوفاة تنتقل الروح الى جسد آخر بحسب الـ « كارما » اي نظام العدالة الكونية وقانون الجزاء غير المنظور وغير المدرك لأعمال سابقة . تدخل الروح في جسد إلهي او بشري او حيواني او دون الحيواني [١] . وبحسب الـ «كارما» تكون

(١) هنالك اعتراضات عديدة على نظرية التناسخ . الذين لا يعتقدون بوجود الروح الفردية لا يقبلون بالتناسخ. والذين يعتقدون بوجود الروح يتساءلون : كيف لا تذكر «الروح المتقمصة» شيئاً عن حيواتها السالفة؟ ولماذا يموت الاطفال؟ ومن اين ملايين ومليارات الارواح الجديدة مع ازدياد سكان الارض؟ واين المسؤولية الشخصية والحرية الفردية ونتائجها ؟ اليست قوانين الوراثة من الوالدين والاجداد تطبع الفرد اكثر من التقمص من مجهول ؟ الخ ...

حالات الانسان من حظ وطبقة اجتماعية ونعيم وشقاء ... لا تستطيع الروح ان تتذكر ما حدث لها في الحيوات السابقة ولا تعرف كيف تقمصت لأن التذكر – حسب زعمهم – مرتبط بالحواس وبمركبات الجسد التي تبيد معه. مكوّنات الذات من فهم ووعي ليست من عالم الروح بل من عالم الجسد وتفنى معه. في نهاية كل دورة من دورات الوجود تذوب الارواح في براهما. وعندما يموت براهما في نهاية مائة سنة من عمره تذوب الارواح معه في « روح العالم » الشاملة. يشبّهون التناسخ بعجلة تدور باستمرار فتملّ الروح من الوجود مع الجسد وتتعب وتصبو الى الخلاص بالتحرر من المادة والوصول الى براهما والخلاص من الحياة. فما هي طرق الخلاص ؟

ثالثاً – طرق الخلاص :

عرفت الهندوسية طرقاً او مناهج عديدة للخلاص اهمّها سبعة اذكرها بمنتهى الايجاز :

١ – التفكير السليم والمنطق السليم والسلوك السليم (قريب من البوذية).

٢ – الانسان مادة وروح. يبلغ الخلاص من يهتم كلياً بأمور الروح.

٣ – **الحساب** – « **سانكيا** – SANKHIA ». يوجد ٣٥ عنصراً اساسياً

اهمها المادة الاولى وتدعى « براكرتي – PRAKARTI » التي هي منبع الخلق والتطور. ويوجد منذ الازل عدد غير محدود من الارواح تختلط بطريقة ما بالمادة وخلاصها يقوم بأن « تتخلص » من المادة. في المادة الاولى توجد بتوازن الفضيلة والشهوة والحماقة ولكن هذه الثلاث تفقد توازنها في الكائنات التي تخرج الى الوجود من المادة الاولى. تمتاز بالفضيلة الكائنات التي تصبو الى الحق والحكمة والخير والجمال. وتمتاز بالشهوة الكائنات التي تصبو الى العنف والتلذذ والإجرام. وتمتاز بالحماقة الكائنات الغبية الشقية. هذا التقسيم الثلاثي هام جداً ومتغلغل في التفكير الهندوسي. ولبلوغ الخلاص يجب التفوق في الفئة الاولى.

٤ ـ **اليوجا.** كلمة يوجا تعني الاتحاد ولليوجا معانٍ متعددة فهي التدريب الروحي ، وهي الاعمـال والتمارين الروحية المتضمنة اماتة وجهاداً في الدين الهندوسي وممارسها يدعى « يوجي – YOGI » ، وهي مدرسة او منهج لبلوغ الخلاص بتلك التمارين . في أيامنا أفرغت « اليوجـا » احياناً من مضمونها الهندوسي القـديم واصبحت الطريقة المعروفة للرياضـة النفسية ـ الجسدية الشهيرة بأل « يوجا » .

مؤسس اليوجا هو المعلم « باتانجالي – PATANJALI » الذي عـاش في القرن الثـاني قبل الميلاد . تفترض اليوجا الاصلية ايماناً بإله هو روح كاملة سرمدية لم تختلط مطلقاً بالمادة منعزلة عن العالم يصبو البشر للاتحاد بها ويرمز اليها بحرفي « و – م . O . M » .

اليوجا أنواع منها : « النهجية » وتقوم بتكرار مقاطع وعبارات اشبه بسحرية . و « الاعجازية » تقوم بتمارين بهلوانية وجلسات ورقصات خارقة . و « الانحلالية » او الضياع في اللاوعي ... اهمها «اليوجا الملكية» وطريقها على مراحل هي الآتية :

١) السيطرة على الذات بالتحلي بفضائل اخلاقية خمس هي :
عدم العنف . التمسك بالحقيقة . عدم السرقة . العفة . القناعة .
٢) ممارسة مستمرة للفضائل المذكورة .
٣) التعود على جلسات وحركات تساعد على الهدوء والتأمل وأهمها التربع بجلسة اللوتس .
٤) التحكم بالتنفس . هـذا أهم عنصر وله نتائج روحانية وجسمانية مدهشة [١] .

---

(١) تكفي للاقتناع من ذلك مطالعة « دائرة المعـارف السيكولوجية » المكونة من اثني عشر كتاباً تحث كلها على التحكم بالتنفس وعلى التركيز والهدوء والايحاء الذاتي كأن «روح اليوجا» منبثة فيها .

٥) عزل الحواس بتدريبها على عدم إدراك موضوع الحاسة وعدم الانفعال بها.
٦) تركيز الذهن في نقطة واحدة مثل ارنبة الانف، او صورة، او رمز وخصوصاً رمز « و – م . O-M » .
٧) التأمل في موضوع واحد يستوعب الذهن كله .
٨) الاستغراق او نوع من الانخطاف بحيث تصبح شخصية الانسان كأنها منحلة او غير موجودة لبعض الوقت .

حسب بعض معلمي اليوجا اهم عصب في الجسم هو الممتد في العمود الفقري ويوجد فيه ستة مراكز للقوى النفسية . في قمتـه بالرأس مركز قوة اللوتس وفي اسفله بمؤخر الظهر قوة الافعى التي هي في حـالة ساكنة نائمة . بالتمارين اليوجية توقظ قوة الافعى وتصعد في باقي مراكز العمود الفقري الى ان تبلغ مركز اللوتس. بإيقاظ قوة مركز الافعى يكتسب «اليوجي» قدرة روحية خارقة وباتحاد طاقة مركز الافعى مع طاقة مركز اللوتس يكتسب «اليوجي» الخلاص !

٥ – طريق الخلاص في اتباع تعاليم قوانين الـ « ڤيدا » .

٦ – أهم طريق هو الـ « ڤيدانتا – VEDANTA » ومعناها نهاية الـ ڤيدا . تفرعت الى مذاهب عديدة وطبعت الثقافـة الهندوسية الحديثة وينتمي اليها حتى في أيامنا لاهوتيون وفلاسفة وصوفيون منهم « رادا كريشنان ». المذهب « الكلاسيكي » هو « ڤيدانتا الفيلسوف سانكارا » (٧٨٨ – ٨٢٠ ب. م.) توما الاكويني في الهندوسية . عـلم ان كل نصوص الڤيدا والهندوسية هي مقدسة وحقيقية . ولكي يوفق بـين متناقضاتها تذرع بمبدأ « القياس الثنائي للحقيقة » المعروف في البوذية حتى قيل عنه انـه بوذي متستر : على المستوى الاسفل للحقيقة هذا الكون هو من صنع براهما وسائر بسنة التحول والتطور وفيه الطبائع الثلاث الفضيلة والشهوة والحماقة. إنما على المستوى الأعلى للحقيقة الكون واحد وكل مـا فيه – حتى الآلهة – هو غير حقيقي وغير واقعي .

الوجود الحقيقي هو الروح الكلية او روح الكون الواحدة وكل روح أخرى هي منها وستعود اليها وتذوب فيها والطريق الى ذلك هو في المعرفة والتأمل والاستغراق . بهذه العبارة الفضفاضة الخيالية غطى سانكارا كل الهندوسية وظن انه أبعد عنها التناقض .

٧ — **العبادة** : كانت الهندوسية القديمة تعتبر الله سيداً بعيداً عالياً يجب الاستسلام والسجود له. ثم إذ تطعمت بالبوذية التي اعتبرت بوذا إلهاً متجسداً عطوفاً قرّبت آلهتها من عبادها .

حسب رامانوجا (١٠١٧ — ١١٣٧ ب.م.) الطقوس والذبائح هي باطلة وطريق الخلاص هو في عبادة الله والتسليم الكامل له وانتظار العون منه . الارواح كانت في الله وخرجت منه وستعود اليه . طريق العودة اليه — او الخلاص — في العبادة وليس في المعرفة كما علم سانكارا . وزادت « مدرسة طريقة القرد » ان الله يخلص النفوس ولكن يطلب منها عملاً وجهداً كالجراء التي تتعلق بجهدها في بطن القرد فيحملها ويسير بها . أما « مدرسة طريقة القط » فعلمت ان الله يخلّص مِن النفوس حسبما يشاء بدون عمل الانسان وكفاحه كالقط الذي يحمل جراءه في فمه بدون أي جهد منها ...

حسب المعلم « مادهوا — MADHVA» الذي عاش في القرن الثالث عشر ب. م. فشنو يخلص بنعمته التي يمنحها للنفوس التي تعيش عيشة صالحة ويحرم منها النفوس التي تحيا حياة شريرة فتذهب الى شقاء أبدي . بينما النفوس التي لا هي صالحة تماماً ولا هي شريرة تماماً فتنتقل بالتناسخ . ويُعطي «مادهوا» دوراً هاماً لإله الريح « ڤايو — VAYU » بن ڤشنو . تأنس ڤايو في عالمنا وعلـّمه طريق الخلاص وأتى بالخوارق ومنها : جادل وهو صبي براهمانيين في المعبد . عندما صار راهباً شهد له صوت من السماء معلناً عظمته . أطعم جموعاً غفيرة من حفنة طعام . مشى على الماء وسكن البحر الهائج .. يقول المؤرخون — بحق — ان مادهوا اقتبس هذه الأمور من المسيحية عن طريق السريان الملابار بالهند .

العبادة الهندوسية الاصلية هي فردية وعائلية . تعلم الهنود العبادة الجماعية من المسلمين والمسيحيين. عادة يُعبد الإله في تمثالٍ يسكنه كمقرٍّ له. في الصباح يُوقظ على صوت الموسيقى ورنين الأجراس ثم يُغسل ويُلبَّس . يقدمون له البخور والزهور ويشعلون المصابيح والشموع ويطعمونه الرز واللبن والفواكه. وفي المعابد الغنيّة ترقص له الراقصات . كانت في المعابد جوار وبغايا ولم تبطل هذه العادة إلا في أواخر القرن الماضي . في المهرجانات يطوفون به في عربة مزينة تخفق حولها المراوح والمظلات والاعلام ويزفونه بالرقص والغناء وتواكبه الآلهة الاصغر منه شأناً والتي هي في خدمته. في القديم كانوا يقدمون أحياناً ذبائح بشرية من المجرمين والمخطوفين والبنات . وفي أوائل القرون الوسطى انتشر الانتحار الذبيحي . الى الآن تقوم بعض الفئات سرّاً بنوع غريب من عبادة لم تندثر بالكلية : يجتمعون ليمارسوا المحرمات الخمس وهي شرب المسكر وأكل اللحم والسمك والرقص والتمثيل والجماع الجنسي . الهندي الصالح يقوم بالأعمال الآتية : عبادة الإله براهما روح العالم بتلاوة الفيدا . عبادة أرواح الاجداد بتقديم غذاء او مشروب لها . عبادة الآلهة بالعموم بسكب زيت على النار . اكرام الكائنات الحية باطعام الحيوانات والطيور و « الارواح الجائعة » . إكرام البشر بتقديم ضيافة لهم .

رابعاً – بعض مبادىء اخلاقية :

الزاهد متجرّد من أمور الدنيا أما العلماني فلحياته ثلاثة أهداف هي اكتساب الأجر بتتميم الطقوس الدينية ، واكتساب المال بالعمل والطرق الشريفة ، والتنعم باختلاف أنواعه المسموح بها . وزاد علماء الاخلاق فوضعوا تفاصيل واجبات الناس حسب أعمارهم وشغلهم وطبقاتهم . للملك مثلاً عشرون واجباً منها : ان يتجنب المآكل المحرّمة وهي اللحم وما مر بأيدي المنبوذين وما بقي من وجبة سابقة ، وأن يكرم أرواح أجداده ، ويستحم في المياه المقدسة ، ويطعم البقر ويحسن الى البراهمانيين .. الهندي المتدين يمر

بأربع مراحل : بعد حفلة الاستنارة يترهب ويتعلم الفيدا – ثم يعود الى بيته ويـتزوج – وإذ يرى أحفاده يهجر بيته ويصبح ناسكاً . في النهـاية يصير متسولاً متجولاً لا يتمنى الموت ولا الحياة بل ينتظر أجله باستسلام ولا يسيء الى من يسيء اليه ولا يهتم بشيء من أمور الحياة .

للروح ثماني فضائل هي : الشفقة بكل الكائنات فلا يجوز قتل او تعذيب أي كائن حي ، والصبر والقناعـة والطهارة والاجتهاد والأفكار الصالحة والتحرر من الشهوة والتحرر من الجسد . من يتمم الطقوس دون أن يكون حائزاً على هذه الفضائل لن يصل الى براهما أما مَنْ يتمم طقساً واحداً وهو حائز عليها فيصل اليه ...

عدم العنف هو مبدأ جوهري في الهندوسية . المحبة والمسامحة والصدقة هي أساسية . ومن نصوصهم: « على الانسان أن يجرد ذاته حتى العظم لأجل الآخرين » . و « لذة الانتقام ليوم أمـا غبطة المسامحة فعلى مدى الحياة » و « رأس الحكمة ان لا تجازي شراً بشرّ ولا تسيء الى من أساء اليك » . و « المولود سيموت والمائت سيولد ثانية وكل شيء مقرر فليس من الحكمة ان نحزن ونهتم لما لا مفر منه » .

فضائل الطبقات الأربع هي : للبراهماني الحكمة والمحارب الشجاعـة ولصاحب العمل المهارة وللخادم الخدمة الحسنة .

خامساً – الطبقات :

للطبقات اصل ديني في نصوص الفيدا. فالبراهميون خرجوا من فم براهما، والمحاربون من ذراعه ، والعاملون من فخذه ، والخدم من قدمه .. ولها اصل اجتماعي هو تفوق الآري الابيض على الهندي الاصلي الاسود .

« البراهمية » تضم البراهمة ورجال الدين . عملهم هو تقـديم الذبائح والعبادة والدرس والتعليم . كانوا يتمتعون بمـيزات ضخمة من هبات الحكام وضرائب على الفلاحين وعصمة أرضهم من الضريبة . « الكاشتريا » او طبقة

المحاربين والحكام ومن ميزاتهم اخذ السبايا والتسري . « الفاشيا » او طبقة اصحاب الاعمال من تجار ورعاة وفلاحين ومرابين [1] الخ .. انتشرت بينهم البوذية والجينية لأن أفراد الطبقتين السابقتين كانوا يتعالون عليهم. «السودرا» أي طبقة الخدم والعبيد[2] الذين يقومون بخدمة الطبقات الثلاث السابقة وإذا مـا احسنوا الخدمة يتقمصون في طبقة أعلى . كان كثيرون من المواليد غير الشرعيين يصبحون « سودرا » .

كان يجب التزاوج والتعامل والأكل مع اعضاء الطبقة والذي يخالف يتنجس ويتوجب عليه ان يتطهّر ويكفـّر . ومن واجب الحكام عدم مزج الطبقات .

بقيت الطبقات الأربع هي هي ولكن مع تمادي الزمن تعددت «الفئات CASTES » داخل كل طبقة حتى كان عددها يتجاوز الثلاثة آلاف حين دخل البرتغاليون الهند في القرن السادس عشر. مسيحيو الملابار أنفسهم كانوا منقسمين الى فئات . الفئة هي ضمان وأمان لأعضائها الذين يتكتلون ويتعاونون كالنقابات .

سادساً – المنبوذون :

الذين لم يكونوا أعضاء في إحدى الطبقات الاربع كانوا يسمّون «منبوذين» وهم رعاع المجتمع يتعاطون الاشغال الوضيعة من كنس وتنظيف وصباغة

---

(١) الربا انتشر جداً في الهند . كانت تحسب الفائدة السنوية قديماً هكذا : ٢٤ ٪ على طبقة البراهمية – ٣٦ ٪ على طبقة المحاربين والحكام – ٤٨ ٪ على طبقة اصحاب الاعمال – ٦٠ ٪ على طبقة الخدم والعبيد – ٢٠ ٪ بالشهر للمسافر بحراً و ١٠ ٪ المسافر براً .

(٢) كانت حالة الرق تتأتى من الأسر في الحروب ، ومن الولادة من عبد او من امة ، ومن بيع المدين نفسه وفاء لدينه الى وقت او على مدى الحياة . ويتحرر العبد بالإعتاق او بالفدية بأن يشتري نفسه من سيده. كان يجوز للسيد بيع عبده ورهنه وطرده. عندما دخل البرتغاليون الهند في القرن السادس عشر وجدوا فيها الرق .

وتنجيد وصنع أحذية الخ .. المنبوذون أنفسهم كانوا فئـات – وصل عددها الى ٤٢٩ – تتعالى بعضها على بعض وتتنكر بعضها لبعض وفي أسفل السافلين حامـلو وحارقو الجثث . الاصل التاريخي هو ان اللاجئين الهاربين من جراء الغزوات لم يسمح لهم بالاختلاط بالشعب الذي ينزحون الى قربـه فكانوا يعيشون خارج طبقات المجتمع الاربع او يخدمونها بالأعمال الدنيئة التي يأنف منها « السودرا » . وزاد في مقتهم انهم كانوا لشدة جوعهم يأكلون لحم البقر المائت الملقى خارج القرية . وإذ تحددت فئات الاعمال الوضيعة أصبح كل من يشتغل فيها من المنبوذين .

لا يجوز للمنبوذين أن يدخلوا المعابد وأن يسكنوا في أحياء أفراد الطبقات الاربع وأن يلمسوهم وأن يتطلعوا فيهم . لهم صندوق بريد خاص . إذا شهدوا في المحكمة يبقون في الشارع ولا يدخلون القاعة . إذا وقع نظرهم على بنت تغسل عينيها ووجهها . إذا تطلعوا الى أكل رُمي . إذا تسوّلوا يضمون يدهم كالكوب حتى تُلقى فيها الصدقة دون أن تمسها يد المحسن .

ألغى دستور الهند الذي أعلن في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٠ حالة المنبوذين الذين كانوا سُبع السكان وألغى الطبقات والفئات ولكنها لم تستأصل بعد من عقلية وتعامـل الشعب حتى ان البرلمان أصدر قانوناً في مايو ١٩٥٥ يعاقب بالحبس ستة أشهر وبغرامة خمسمئة روبية من يُظهر تمييزاً عنصرياً ضد المنبوذين. في سنة ١٩٦٢ استقى منبوذون ماءً من بئر قرية في ولاية « مدهيا » ودخلوا المعبد فرجم سكان القرية اكواخهم وأحرقوا محصولهم وقتلوا منهم أربعـة . دافع عنهم غاندي ونادى باحترامهم وسمّاهم «هاريجان» أي أبناء الله ولكنه لم يطالب بإلغاء حالة المنبوذين والطبقات بحجة انه تراث هندي قديم.. لذلك في البدء عاداه المحامي « امبدكار » الذي كان أصلاً من المنبوذين .

كان امبدكار ابن منبوذ والطالب المنبوذ الوحيد بمدرسة فيها خمسمئة تلميذ يتجنبونه فيعيش منفرداً ويتفوّق عليهم كلهم في الدروس . المعـلم لا

يتطلع اليه ولا يسأله ولا يمس دفاتره. إذا أراد أن يشرب من الصنبور يفتحه له ولد آخر ليسقط الماء في فمه « من بعيد ».. أصبح محامياً ولكن «زبائنه» لم يكونوا يتطلعون اليه ولا يمسون أوراقه . والمنبوذون أنفسهم الذين كان يحامي عنهم كانوا يعرضون عنه لأنه يخونهم ويختلط بالفئات الراقية .. هجر الهند ونال شهادات دكتوراه من اميركا وألمانيا وبريطانيا ثم كرّس حياته في الهند لإلغاء حالة المنبوذين والطبقات. نجح سنة ١٩٤٧ في انتخابات «بومباي» كعضو في حزب المؤتمر وأصبح رئيس لجنة صياغة الدستور الذي ألغى حالة المنبوذين .

سابعاً — العائلة :

تفرض تعاليم الهندوسية والتقاليد ترابط أفراد العائلة وتعاضدهم حتى ان التمييز بين الأخ وابن العم لم يكن سهلاً والى اليوم اللفظة نفسها تطلق على الاثنين . احترام وطاعة الوالدين في الهند — كما في الصين — هي من أقدس الواجبات . الذكور يقومون بتقدمة القرابين لأرواح الأجداد وهذا يربط المتوفى بنسله — كذلك في اليابان والصين. لذلك يفضلون الصبيان على البنات ويقولون : البنت تترك أهلها وعائلتها في هذه الحياة ولا تخلّد نسلهم ولا تساعدهم في العالم الثاني ! بعد الولادة يصبح الوالدان منجسّين وتزول النجاسة بعد عشرة أيام بطقوس دينية . عندهم حفلة التسمية وحفلة خرم الأذن .

مارست الهندوسية — كالزرادشتية — حفلة تعرف بالاستنارة أو الولادة الثانية تعمل للصبي في سن الثامنة لطبقة البرهمانيين وفي سن الحادية عشرة لطبقة المحاربين وفي سن الثانية عشرة لطبقة العاملين أما لطبقة الخدم فلا تعمل. يلبس الصبي ثوب زاهد ويلف الحبل المقدّس ذا العقد على كتفه الايمن وتحت ابطه الايسر ويعتبر خلعه عملاً شائناً يستوجب التطهير والتكفير . ويقول الكاهن وهو يضعه : « لنفكر ببهاء ولمعان الإله الشمس ولنطلب اليه أن ينير اذهاننا » .

عقد الزواج :

يتم بطرق عديدة والمعترف بها ثمانية ، اهمها الزواج بحفلة دينية . يذهب العريس الى بيت العروس ويقفان يحجز بينهما ستـــار ويتلو الكاهن نصوصاً دينية ثم يفتح الستار فيرى احدهما الآخر ، وكان في الغالب لأول مرة . يقدمها والدها للعريس الذي بعد ان يسعى لتحقيق أهـداف الحياة الثلاثة : التقوى والغنى والنعيم. ثم يرميان رزاً في النار لروح الأجداد ويدوران حولها سبع خطوات وطرَفا ثوبيهما معقودان يواكبهما المدعوون الى بيت العريس حيث يرمي الرز في النار لأجداده هو . في الليلة الاولى يرقبان النجم القطبي علامة الامانة والثبات على مدى الحياة ويُتمان الزواج في الليلة الرابعة بعـــد تلاوة نصوص للحبل .

حالة المرأة والارملة :

مبدئياً لا انحلال للزواج الديني بعـد إتمام الخطوات السبع حول النار . ولكن عملياً عَرفت الهنـــد الطلاق لا سيما في الفئات السفلى وعرفت تعدّد الزوجات لا سيما في الفئات العليا . قديماً عرفت بعض الفئات تعدّد الرجال لزوجة واحدة وفي الماهابهاراتا كان للاخوة الخمسة « پانداڤا » زوجة واحدة مشتركة . كانت المرأة حتى القرن العشرين تعتبر قانوناً دوماً قاصرة تحت سلطة والدها فزوجها فأولادها إذا ترمّلت . هي في درجة «طبقة السودرا»: خادمة العائلة لا تملك إلا مصاغها وتورثه لبنـاتها لذلك أكثرت المرأة الهندية من التحلي بالمصاغ . تأكل بعـد زوجها وتنـام بعده وتنهض قبله « وتكرمه كإلهها » حسب نصوص الفيـدا . إذا ترمّلت نزل بهـا شقاء شامل : تُحتقر إذا تزوجت ثانية ، ويجب ان تعيش كزاهدة تنام على الحضيض ، تأكل مرة في اليوم بدون عسل ولا لحم ولا خمر ولا ملح ، لا تتعطر ، تلبس ثياباً سوداء ، تحلق شعرها ، تتعبد كثيراً ... إذا خالفت هذه «الفروض» تسيء الى روح زوجها وتتقمص في جسم ادنى. وإذا حافظت عليها سيقبل زوجها

ان يتزوجها في العالم الثاني وفي جسد ارقى ... لا تعود الى أهلها بل تبقى مع عائلة زوجها المتوفى . لا تحضر الأعيـــاد والحفلات . يتطيّر منها حتى الخدم . فلا عجب إذا ما انتشر في الهند « الساكي » أي انتحار الأرامل في النار التي تحرق جثة الزوج . في طول الهند وعرضها توجد «احجار الساكي» حيث يكون تم ذلك . كان « الساكي » اختيارياً ولكن التقاليد والعادات وشقاء الأرامـــل جعلته احياناً إضطرارياً ولا سيما لنساء الفئـات الراقية والمحاربين. وتذكر بعض نصوص الفيدا أن الارملة بتضحيتها هذه تكفر عن خطاياها وخطايا زوجها وتستحق لها وله خمسة وثلاثين مليون سنة من النعيم في العالم الآخر !

●

٨١

اجرا

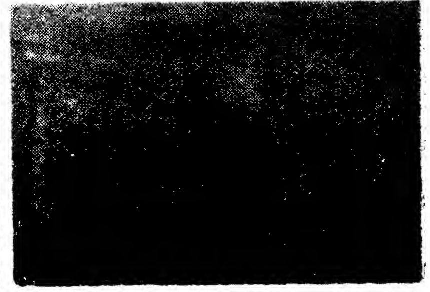
مدينة التاج :

تقع « اجرا – AGRA » على بعـــد ٦٥٠ كلم من بناريس و٢٠٤ كلم من نيودلهي . تعلو عن سطح البحر ١٦٨ متراً . عـــدد سكانها نصف مليون ومساحتها ٦٣ كلم مربع . انهـا من أقـدم مدن الهند . كتبت على خريطة « بطليوس » وُذكرت في الملحمة الهندية « ماهابهاراتا » سنة ١٨٠٣ وقعت تحت الحكم البريطاني . شهرتها في العالم انها « مدينة التاج » .

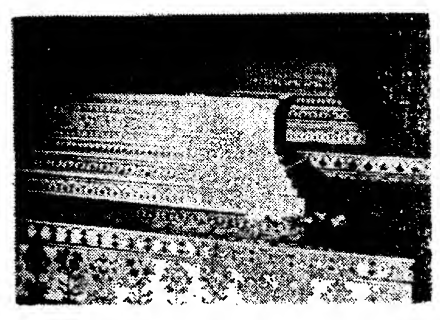
تاج محال :

قيل عنه انه « قصيدة من الاحلام ». تجب مشاهدته بالعين والقلب والفن والتاريخ فهو قصيدة حبّ وفيّ نبيل تنبعث منه النعومة والرقة . لقد خلـّد به « شاه جهان » الملكة « ممتاز محال » بل خلـّد نفسه إذ أنشأه ضريحاً لها ثم ُدفن بجانبها. مر عليه اكثر منثلاثة قرون ولم يزل محتفظاً ببياضه الجذاب الصافي الشعري .

أول تأثير يحس به المرء إذ يراه من بعيد هو الانبهار وكلما اقترب يشعر بالانجذاب وإذ يقف أمامه ويتجول فيه يأخذه الخشوع والصمت والاعجاب.



تاج محـــال



ضريحا ممتاز محال وشاه جهان

سيدة التاج :

ارجمان بانوبيچوم الشهيرة بـِ ممتاز محال (ممتاز أي المفضلة الممتازة ومحال أي القصر وتاج محال أي قصر التاج) تزوجت الملك شاه جهان سنة ١٦١٠. كانت ابنة عساف خـان شقيق الملكة نور جهان . اشتهرت بالجمـال وحب الفنون وعمـل الخير للمحتاجين لا سيما الايتام والأرامل . عاشت مع زوجها عشرين سنة وأنجبت له أربعة عشر ولداً . قبل أن يعتلي العرش نفـاه والده الملك « جهان جير » ثماني سنوات فرافقته في منفاه . وحـــين اصبح ملكاً كانت له خـير معين في البيت وفي السياسة . توفيت وعمرها ٣٩ سنة وقبيل وفاتها طلبت من شاه جهان ثلاث أمنيات : رعاية اولادهما واقامة ضريح لها وعدم زواجه من غيرها ووضعت يده بيد ابنتيها «جهانارا» وأغمضت عينيها الى الأبد . لقد حقق شاه جهان الطلبين الأولين أما الثالث فلا ندري إذ كان «حريم» ملوك المغول اربع فئات من النساء : الزوجات والخليلات والفتيات المهداة من المهراجات وسواهم والجواري . من فرط حزنه عليها ابيض شعره في اشهر معدودة ونادراً ما كان يخرج من جناحه وجناحها وعندما عزله ابنه « اورنجزيب » عن العرش قضى خمس عشرة سنة مسجوناً في ركن من قلعة « اجرا » يطل على « تاج محال » حيث ترقد زوجته الحبيبة. مات في سجنه يتطلع الى ضريحها ثم دفن بجوارها .

بناء التاج :

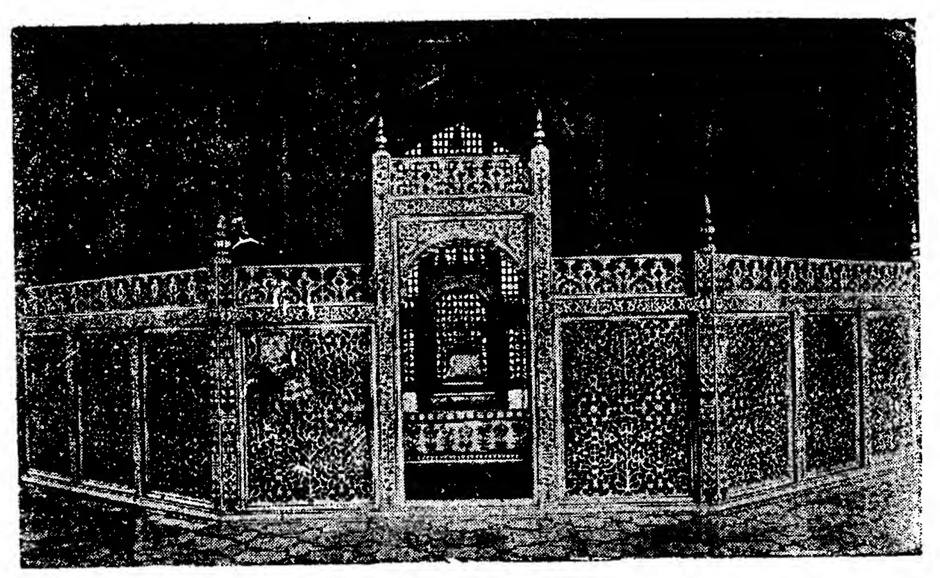
استغرق إنشاء تاج محال ثلاث عشرة سنة من ١٦٣٩ الى ١٦٥٢ . عمل فيه اثنان وعشرون الفاً بينهم أمهر فناني الامبراطورية المغولية فخرج اروع آية للفن المعماري الاسلامي المطعّم بالمغولي والفارسي وتجلى فيه انسجام وتناسق كاملان في هندسته العامة ودقة واتقان في كل موضع يد . ُقدّرت تكاليفه آنئذٍ بأربعة ملايين استرليني وُتقدّر قيمته « الاقتصادية » اليوم بخمسة وأربعين مليون استرليني أما قيمته التاريخية والفنية فلا تقدر. مهندسه الاول الاستاذ عيسى من إيران خلفه تلميذه الاستاذ أحمد . رخامه هندي من « ماكرانا » على بعد ٣٢٠٠ كلم من اجرا .

حديقة التاج :

بعد البوابة ذات الثلاثة أدوار - تزين جبهتها آيات قرآنية - دخلت حديقة واسعة جداً ووقفتُ أمام بركة مستطيلة ماؤها جارٍ كالجدول ومنتثر من نافورات عديدة وحولها خضرة وزهور وعن اليمين واليسار صفّان من اشجار السرو العالية الواقفة كالشموع أمام الضريح. تقدمتُ ونظري معلّق بتاج محال كأنه حيّ جذاب لا قبر جامد .

القبران والجامعان والقباب المغولية :

سطح مرتفع من حجر أحمر وفوقه سطح ثانٍ من رخام أبيض وفوقه البناء على مساحة ٩٠ متراً مربعاً . ارضيته بلاط أبيض وأسود كلوحة شطرنج غاية في الروعة. على كل ركن من الأركان الأربعة ترتفع مأذنة من رخام علوها ٤٠ متراً تدق وترق كلما امعنت في الارتفاع وتكللها قبة بشكل بصلة. المدخل قوس ُنقشت عليه آيات قرآنية . الجدران المنبسطة بين القوس والزوايا كلها فسيفساء على مرمر . الآيات القرآنية في الداخل وفي الخارج مكتوبة بطريقة توحي للناظر اليها انها من حجم أو من « بنط » واحد إذ يكبر « البنط »



الفن في الرخام

كلما علا الخط بحيث ترى العين ان السطور من الارضيـة الى السقف كلها بحجم واحد .

تُتوّجُ وسط السقف القبة الرئيسية قطرها ١٨ متراً وارتفـاعها فوق السطح ٢٣ متراً . تحت القبة قبر « ممتاز محال » يبدأ عند الأرضية مستطيلا واسعاً ثم يضيق كلمـا اعتلى الى ان ينتهي بشكل نعش أكبر قليلا من جسم الانسان . قاعـدة القبر وجوانبه وسطحه كلها مرمر مخرم كأنه « مشغول بالإبرة » ومزين بحجارة كريمة. الى الآن تطوف حوله الهنديات تنثرن الزهور وتشعلن الشموع . على بعد خطوات منه قبر « شاه جهان » يشبهه كتوأم . في كل زواية من الزوايا الأربع توجد غرفتان احـداهما فوق الاخرى تتوجها قبة ولهما جدار مضاعف مخرم ينفذ منه النور الى داخل الضريح بطريقة ناعمة جـداً . ينبهر الزائر من كثرة الحجارة الكريمة ومن الوانها التي يغلب عليها الاخضر والرمادي والأزرق ومن دقة التخريم في الرخام ومن تنوع اساليب

التزيين وروعتها على جدران من مرمر ابيض ناصع يشع منه الصفاء والطهر .

رفات الملكة والملك موضوعة في نعشيْن موجودين تحت أرضية الضريح وتحت النعشين اللذين أمامي . هذه الهندسة مستوحاة من عادات ذلك العصر التي كانت تقضي بأن لا تدوس قدم فوق مقر رفات « سيدة وسيد التاج » . عن يمين الضريح وعن يساره جامعان صغيران توأمان في كل صغيرة وكبيرة شكلهما انيق رقيق .

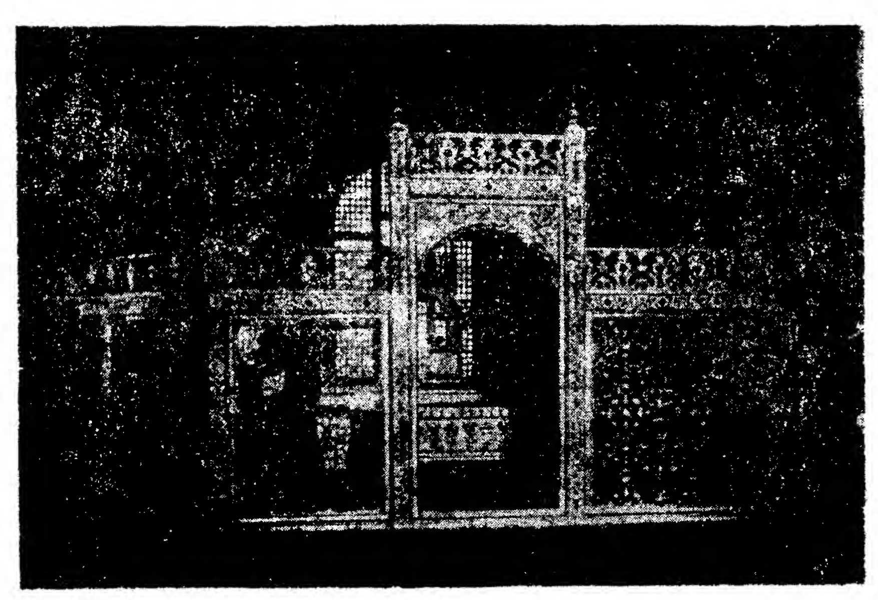
كان فندقي قريباً من تاج محال فأشبعت منه النظر . يتنوع لونه قليلاً فهو رمادي في الصباح ابيض ناصع في الظهيرة ووردي قليلاً ساعة الغروب. وهو « ثلجي » شفاف تحت ضوء القمر . سهرة في الحديقة أمام تاج محال السابح في ضوء القمر هي حلم من أحلام العمر كلما أتذكرها أغمض عيني لأستغرق في رؤياها ! وما أجمـــله وهو ينعكس في مرآة نهر « اليمونة » فيظهر تاجين ! صدق القول ان تاج محال يستحق ان يأتي المرء « من آخر الدنيا » ليراه ولو لم يرَ شيئاً آخر من الهند كلها .

زرتُ في اجرا آثاراً مغولية عدا تاج محال أمرُّ عليها بسرعة .

ضريح اعتماد الدولة :

يقع الضريح على الضفة اليسرى « لليمونة » في جو رهبة وسلام . شيدته الملكة «نور جهان» لتخليد والدها . الضريح طبقتان من رخام أبيض مرصع بحجارة كريمة وشبه كريمة حتى قال عنه بعض المهندسين : « انه حلية بحجم هندسي جبار » . تزينه رسوم متنوعة جداً وكلها من أصل فارسي : أشكال هندسية وزهور وسرو واباريق وأطباق ... أنجز هذا الضريح قبل تاج محال فهو اول بناء مغولي من رخام .

على بعد نحو ٣٠٠ متر منـــه قبر « أفضل خان » وزوجته وكان الوزير الأول لـ شاه جهان .



النور يدخل بين الرخام

ضريح اكبر :

يقوم ضريح الملك « اكبر » في « سيكاندرا » على بعد ثمانية كيلو مترات من اجرا شيده له ابنه « جهان جير » . هو بنـــاء ضخم في حديقة ومآذنه الأربع عملاقة —مثل «اكبر»— ورتاجه من الحجر الأحمر وكذلك ثلاثة ادوار منه . أما الدور الرابع فمن رخام ويبلغ الارتفاع الإجمالي ٣٠ متراً . شـكله الهندسي كدير بوذي وبنـــاه فنيّون هنود وأكثروا فيه القناطر والعواميد والأروقة المفتوحة والأبراج . على جدرانه من الداخـل آيات قرآنية وأسماء صفات الله الحُسنى التسع والتسعون وعبارات مثل جلّ جلاله والله اكبر !

حصن اجرا :

حصن اجرا هو مجموعة من المباني المغولية تقع داخل سور دائرته ٢٤٠٠ متر ولونه الغالب أحمر حتى دُعي « الحصن الأحمر » بدأه اكبر وزاد عليه خلفاؤه .

السور هو بالفعل سوران ارتفـاع كل منهما واحد وعشرون متراً وبينهما خندق فارغ عرضه ١٢ متراً . في جدران السور منافذ لقذف السلاح وفوقه محارس وأبراج للمراقبة . بعد الدخول من إحدى بواباته الأربع وقفنا حيث كان يقف العازفون وأمامنـا كأس من حجر واحد تزينها نقوش فارسية . ارتفاع الكأس ١٥٠ سم وعرضها ١٢٠ سم ودائرتها ٧٦ سم. قيل ان« اكبر» أمر بصنعها للاحتفال بمولد ابنـــه « جهان جير » واستعملت فيما بعد حمّاماً للطفل وقيل انها هدية الزواج من جهان جير الى زوجته نور جهان .

قصر اكبر :

تهدّم ولم يبقَ منه سوى أطلال لا تذكر .

قصر جهان جير :

مزيج من طراز هندي ومغولي مساحته ٨٨×٨٠ متراً .

قصر شاه جهان :

قصرجهان اغرب ما فيه ثلاث شرفات مثمنة الشكل تعلو إحداها الاخرى وتنتهي بسطح صغير كان يجلس عليه شاه جهان للاستمتاع فيساعات الغروب. **القصر الخاص** – (يلفظه الهنود خاص محال) – كان جنـاح الحريم الملكي وله تحت الارض غرف باردة . **قصر المرايا** (شيش محال) كان حمّام ساكني القصر الخاص جدرانه وسقوفه مرايا . إذا أُضيء مصباح واحد بان في المرايا مئات من المصابيح والأضواء . **البرج المثمن** (مثمن برج) كانت ممتاز محال تتمتع منه بمنظر نهر اليمونة والسهل . قضى فيه شاه جهان الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته سجيناً يتطلع الى تاج محال. **الديوان الخاص**(ديواني خاص) يُدعى ايضاً جناح العرشين وهمـا عرش شاه جهان من رخام أبيض وعرش جهان جير من رخام اسود . بجانبه مسجد « ناجينا » حيث كان يصلي الذين ينتظرون مقابلة خاصـة مع شاه جهان . **الديوان العام** (ديواني عام) حيث كانت تجري المقابلات العامة للشعب تقريباً يومياً قبل الظهر. مساحته ٦١×٢٠



ضريح اعتماد الدولة





من حصن اجرا

متراً وفيه ثلاث باحات رحبة بين عشرات الأعمدة . كان الملك يجلس على عرشه وحوله حاملو المراوح من ريش الطـاووس للتهوية ولطرد الذباب ، ثم الخصيـان وبعض اولاده ، ثم باقي الموظفين والحرس من مشاة وخيّـالة . عرشه يعلو الباحة ست درجات وفي الباحـة أمامه كبـار رجال البلاط والمهراجـات والسفراء ثم الشعب في الوسط . في الدور الأعلى اروقة تحجبها حواجز مثقوبة « شعريات » من الرخام تشاهد نساء الحريم الملكي من ورائها ما يجري دون ان يراهنّ أحد . وصف زائرون شرقيون واوروبيون هـذه المقابلات العامة : يتقدم الملتمس وينحني ثلاثاً على الدرجات الاولى فالثانية فالثالثة حيث يسلّم ملتمسَه الى الوزير فيهتف المنادي : « انت الآن أمام شمس العالم وإمبراطور بلدان عديدة اطرق طرفك اجلالاً » . يطّلع الوزير على الطلب ويضعه عند العرش ويُوجزه ويصدر الملك قراره .

قصر السمك :

كانت فيه أقنية وبرك تلعب فيها الأسماك .

« معطي مسجد – MOTI MASJED » :

هو اجمل بناء في قصر اجرا . مساحته ٧٤×٥٧ متراً ما عدا فناء مفتوح مساحته ٤٨×١٦ متراً . تحمل السقف سبع قناطر من هندسة مغولية . بناه شاه جهان في سبع سنين وزينه بالقباب والأبراج والمآذن الفخمة .

٨٢

فاتح بورسكري

العاصمة الميتة :

قطعت بالسيارة ٣٨ كلم من اجرا الى فاتح بورسكري وكانت المناظر تشبه الريف المصري وكذلك بيوت الفلاحين وحتى لبسهم .

فاتح بورسكري هي مجموعة قصور ضخمة ميتة لا يعيش فيها سوى موظفي الآثار . بناها « اكبر » وسكن فيها هو وحاشيته نحو إحدى عشرة سنة ثم هجرها لقلة المياه وذهب الى « لاهور » من ١٥٨٥ الى ١٦٠٠ ثم الى اجرا من ١٦٠٠ الى ١٦٠٥ سنة وفاته .

قصة غريبة لولادة عجيبة :

لهذه العاصمة المهجورة قصة غريبة لمؤسسها « اكبر » الذي يعد من اكبر وأغرب الملوك في التاريخ . بلغ سن السابعة والعشرين وكان يطمع في صبي يرث عرشه ولكن أطفاله يموتون . سمع بقداسة وعجائب شيخ مسلم اسمه « سليم شيستي – CHISTI » من أصل ايراني كان يعيش في فاتح بورسكري مأوى قطاعي الحجارة . قصده اكبر وانطرح على قدميه وقبل أن يفاتحه

بطلبه قال له الشيخ : « ان امنيتك مستجابة إذا عاشت زوجتك الهندية في فاتح بورسكري » . فبنى اكبر لزوجته « چودباي » قصراً هناك وبعد عام انجبت ولداً سنة ١٥٧٠ سمّاه سليم وأصبح فيما بعد الملك جهان جير . وقرر اكبر نقل بلاطه الى هناك . دام البناء أربع سنوات حتى ١٥٧٤ وهي أيضاً سنة انجاز حصن اكرا. يقول بعض المؤرخين ان اكبر اكثر من البناء لتشغيل العاطلين عن العمل ...

أعظم من لندن :

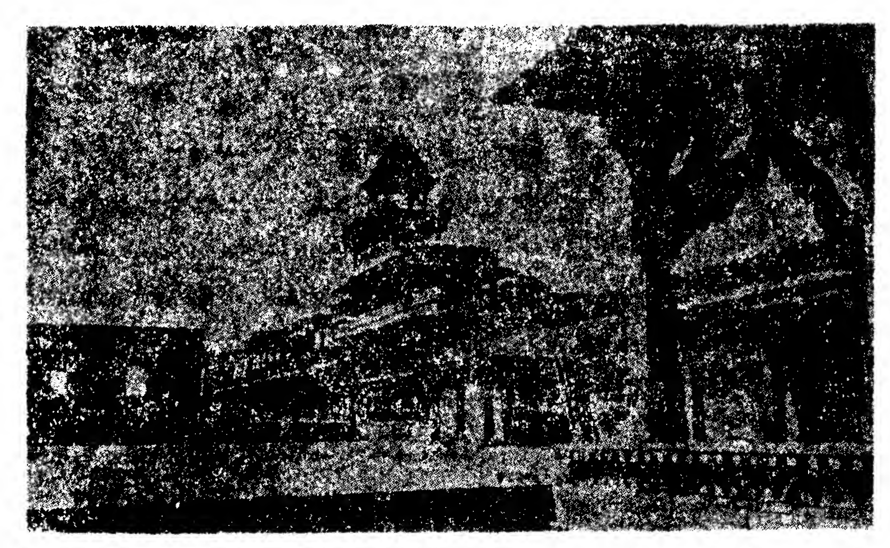
كتب أحد الانجليز في ١٥٨٣ : « تبين فاتح بورسكري أعظم من لندن! يمتلك اكبر فيها ١٠ فيلة و٣٠٠ حصان و١٤٠٠ غزال و٨٠٠ امرأة وحديقة نبات وحديقة حيوانات تكاثر فيها الببغاوات والطواويس .. يلبس اكبر رداء أبيض مشقوقاً (قمباز ؟) وعلى رأسه عمامة صفراء وحمراء » .

من غرائب العاصمة الميتة :

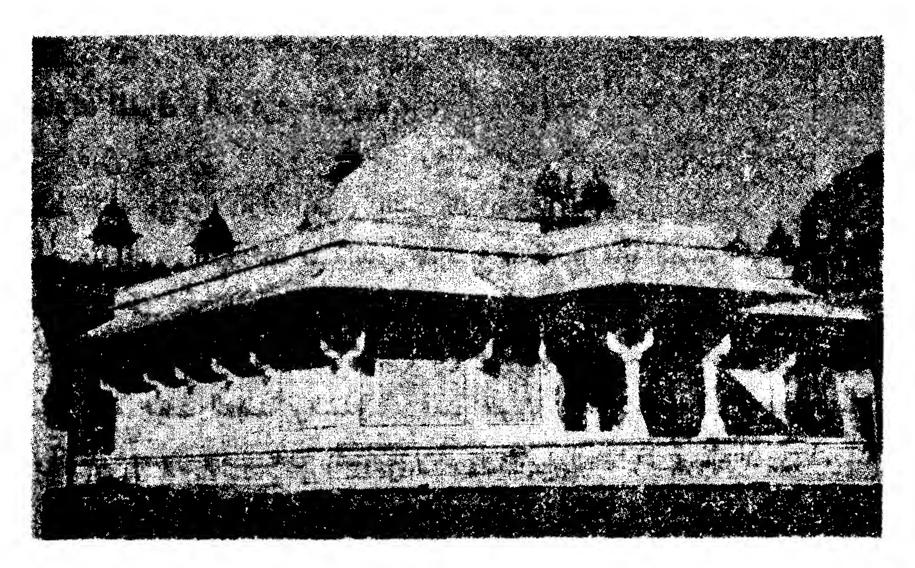


بين اطلال فاتح بورسكري

يطوّق فاتح بورسكري سور دائرته نحو ١٠ كلم وارتفاعه تسعة أمتار يحوّطها من ثلاث جهات والرابعة بحيرة صناعية . فيه إحدى عشرة بوابة ارتفاع واحدة منها ١٥ متراً ليعبرها اكبر وهو في هودج على ظهر فيل . لن أصف فاتح بورسكري فأبنيتها الرئيسية تشبه حصن اجرا إنما فيها بعض غرائب . غرفة الفلكي الهندي حيث كان اكبر يقضي مع منجّمه ساعات من الليل يستطلع حظه ومستقبله ويسأله هل يخوض حرباً أم لا . وضع المنجّم حظه تحت علامة نجم « جوبيتر » كبير آلهة الرومان . وعن طلب المنجّم كان اكبر يلبس حلقاً وأساور ويرتدي الألوان



قصر اكبر في فاتح بورسكري



قبر الشيخ سليم شيستي

التي يعينها له كل يوم، وألوانه المفضلة الاصفر والأرجواني. كان كاهن هندوكي في منسكه يصلي يومياً من أجل اكبر ومملكته . ومجوسي في معبد نار لمجوس الزرادشتية أمام نار دائمة الاشتعال . و « غرفة الاستغماية » حيث كان يلعب هذه اللعبة مع حريمه . ومربعات الشطرنج حيث كانت قطع الشطرنج بنات من لحم ودم . ومستشفى ومدرسة مع انه كان هو أُمياً . وأجنحة لزوجاته المفضلات التركية او التترية مثله فهو من أصل تتري ، وحمام تركي له ولها ، والمسيحية مريم، والهندية چودباي .. أضخم بناء هو « بانش محال » بشكل دير هندوسي يرتفع ٤٣ متراً وفيه ١٨٠ عاموداً .

خطبة « صلح الكل » :

في « جامع مسجد » القى اكبر خطبته الشهيرة المسماة « صلح الكل » أعلن فيها حرية الأديان . وفي هذا الجامع قبر الشيخ سليم شيستي الذي مات سنة ١٥٧١ . انه البناء الوحيد من رخام في فاتح بورسكري وكل الباقي من حجر رمل احمر . نقش على قبر الشيخ : « معين الدين الهادي المستقيم الشيخ الخ... » .

ملوك المغول وأطوارهم الغريبة :

قبل أن أنهي كلامي عن اجرا وفاتح بورسكري أود أن أذكر بعض الطرائف عن ملوك المغول الذين كانوا إجمالاً « غريبي الأطوار » . أسس أسرتهم ظهير الدين محمد بير الذي طرد من مملكة فرغانة الصغيرة في افغانستان فحاول خمس مرات أن يؤسس مملكة الى أن نجح في دلهي سنة ١٥٢٦ . خلفه ابنه همايون وكان حشاشاً. ثم ابن هميون جلال الدين محمد اكبر شخصية متناقضة جمعت العظمة والشذوذ . امبراطورية واسعة جداً وجيش فتاك وانشاء قصور ومدن وتسامح وحرية لجميع الطوائف والأديان وتشجيع للفنون والآداب والعلوم والطب وانشاء مكتبة حافلة بين كتبها ترجمة فارسية للانجيل الذي قدمه له اليسوعيون مع مطبعة رفض أن يستعملها . هذا الرجل الفذ قال عن نفسه : لا اعرف كيف يطمئن ذهني ازاء اختلافات العقائد

والأديان فسمح بهـا كلها وأقام في فاتح بورسكري « عبادات خانـة » أي معبداً لكل الديانات . كان يقضي ليلة الخميس – الجمعة مع علماء الأديان . أُعجب بشاعر هندي فعيّنه قائداً للجيش ُهزم وذُبح في أول معركة ! كان له ٨٠٠ إمرأة ويخر ساجداً أمـام شيخ يلتمس تضرعاته ليرزقه الله ولداً ! يصدق المنجمين ويعلق مصير مملكته على « تخريفاتهم » ويتبرج بحـلى نسائية بحسب طلبهم ! أشعل عليه ابنه جهان جـير ثورة وحرباً ولكنه ُهزم فعفا عنه والده . كان جهان جـير مدمناً المسكرات خليعاً ضعيفاً أمـام زوجته نور جهان بقدر مـا كان متوحشاً « سادياً » في تعذيب وتقتيل خدمـه وفي تلذذه برؤية سبعمئة متآمر اماتهم على « الخوازيق » .

شاه جهان ترك أجمل مبانٍ ولكنه قتل اخوته وُجنّ بحب «ممتاز محال» وهزّ موتها كيانه وعرشه. ابنه اورنجزيب عيل صبره وخاف ان يموت دون ان يملك فخلع والده من العرش وسجنه سنين طويـلة دون ان يزوره مرة واحـدة في سجنه . اضطهد الشيعة وقتل رئيس طائفة السيخ لأنـه رفض اعتناق الاسلام وحرم على باقي الديانات اقامة اعيادها وهدم معابدها وأعـاد على اتباعها فريضة الجزية التي الغاهـا اكبر . عاش في الشظف وفي حروب دون هوادة حتى كرهه الجميع وتفككت المملكة بعـد وفاته الى دويلات وأمر ان يلف جثمانه بكفن بسيط وان لا يقام له ضريح .

كلمة تقدير :

في مطار اجرا ودّعني الدليـل وطلب إليّ « تقريراً » موجزاً . كان كل دليل او مندوب سياحي يودعني يطلب ان اكتب له كلمة تقدير تنفعه للترقية والدعاية ! كثيرون من الهنود معقدون مبيضو الجناح مكسورو النفوس ممـا يدعو الى الحنو والشفقة .. يحبون الاوراق الكثيرة فكل فاتورة بأربع نسخ حتى ولو كان الطلب زجاجة كوكاكولا وفي كل فندق لائحة طويلة من الاسئلة والمعلومات لكن السائح لا يتبرم بذلك لأنهم يفعلونه بـأدب جم يقارب الاستعطاف .

٨٣

جايبور

في قصر مهراجا :

«رامباج» هو قصر رائع يشغل مساحة واسعة جداً بين الاشجار والزهور وملاعب الجولف والتنس والبدمنتون ومسبح وبرك ونافورات. صالاته فخمة وغرفتي بحجم أربع غرف من فنادق الطراز الغربي وحمّامها بحجم غرفتين . منشورات الدعاية للنزول فيه تحمل عنوان : عش يومين كالمهراجا ! اغرتني واغراني السعر : سبع دولاوات فقط بما فيه الوجبات .

المدينة الوردية الأنيقة :

النعوت التي يطلقها السياح والهنود على جايبور هي : « المدينة الوردية المخططة الانيقة » وهي أحدث وأجمل مدن الهند العصرية . انشأها سنة ١٧٢٨ المهراجا « صاواي جاي سنج – SAWAI JAI SING » وجعلها عاصمة إمارة « راجستان » . يقال في الهند « راجستان وكشمير فردوس السياح » . تقع جايبور في هضبة ارتفاعها ٤٤٥ متراً عن سطح البحر . تحيط بها التلال بشكل حدوة حصان . قبل ان يُنشئها مؤسسها أرسل بعثة

من المهندسين الي اوروبا ليستوحوا تخطيطاً حديثاً فخرجت من أدمغتهم وأيديهم شوارعها مستقيمة عريضة مشجرة يطوقها سور علوه ستة أمتار وكثافته نحو مترين وله سبع بوابات من اسمائها: الشمس والقمر والنجم القطبي والأسد وشيفا ...

يمتد شارعها الرئيسي من الشرق الى الغرب بين بوابتي الشمس والقمر بعرض ٣٥ متراً . توازيه باقي الشوارع وتقطعه من الشمال الى الجنوب ثلاثة شوارع كبيرة بعرض ٣٠ متراً . عند التقاطع ميادين واسعة أهمها «ميدان الياقوت» فجايبور هي أكبر مركز في العالم لاستخراج ولصناعة الحجارة الكريمة . الحجر الرملي الأحمر نادر فلونها هو في الغالب من رش ودهان . لا يمكن لمن رأى جايبور لحظة واحدة ان ينسى صبغتها هذه الفريدة .

السكنى فيها ممتعة يلعب فيها الهواء الطلق وتزينها طوال السنة الزهور والخضرة ومناخها ناشف منعش وجوها يدعو الى الصفاء والنعمى . يظهر على أهلها الجمال والنعمة والغنى وربما لشفيعها « كوبير – KUBER » إله الغنى نصيب في ذلك ! ليست مزدحمة فعدد سكانها اربعمائة الف . من حسن حظها انها لم يكن لها تاريخ فأنشئت مرة واحدة . كم نتمنى ذلك لبعض مدننا بل كم نتمناه احياناً لشخصيتنا ولحياتنا : ان ننشأ من جديد مرة واحدة إذ يستحيل على الانسان حتى ولو كان « ديكارت » ان يهدم الكثير من ذاته لينشأ إنساناً جديداً متحرراً من أمور فرضها عليه ماضيه وتعليمه ومظهره ومجتمعه ...

مؤسس جايبور :

استغنى الملك « اورنجزيب » المتقشف عن المهندسين في بلاطه فتوزعوا على المهراجات فأخذ هؤلاء يتنافسون في فن العمارة وبذّهم جميعاً مهراجا جايبور « جاي سينج » الذي حكم ٤٣ سنة من ١٧٠٠ الى ١٧٢٨ في «امبر» ثم الى ١٧٤٣ في « جايبور » . كان قائداً مظفراً ودبلوماسياً بارعاً وعالماً في



فندق قصر رامباج



صانع جواهر

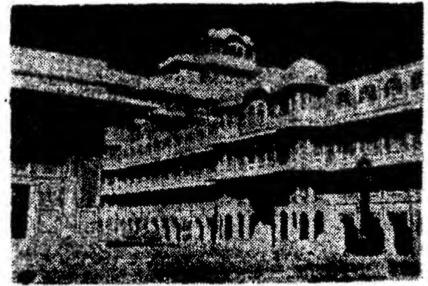
الهندسة والرياضيات والفلك حتى لقبه الامبراطور المغولي محمدشاه بـ«صاواي» أي واحد وربع فهو رجل وربع ! ولصق به هـــذا اللقب . عندما احرق جثمانه ارتمت ستون من نسائه على ناره .

مدينة الحجارة الكريمة :

أهم سوق في جـايبور هو « سوق الجواهر » فيــه من كل أنواع الحجارة الكريمة . بالقرب من جايبور توجــد مناجم الحجارة الكريمة يستخرجونها خاماً ثم يشتغلونها بأيديهم ويبعثون بها الى أسواق العالم . رأيت صانعاً يضع الحجر في رأس قضيب مجوّف يلصقه عليه بالشمع ثم يحرّك بسرعة بالغــة اسطوانة تبرد الحجر وتعطيه الشكل والحجم المطلوبين ثم يضع القضيب على النار فيسيخ الشمع ويقــذف الحجر الكريم . سألت الصــانع عن ثمن الحجر الذي بين يديه – وحجمه كحبة عــدس – فقال ٢٢٠ روبية . اندر واثمن حجر هو «الياقوت». قطعة منه حجمها ٦ قراريط تساوي ٣٥ الف دولاراً !

تقويم لمئة سنة :

اشتريت من جايبور كمية كبيرة من تقويم مدهش : لوحة نحاسية ثابتة بحجم الكف كتبت عليها ارقــام السنين وعليها لوحة متحركة تحمل اسماء الأشهر وأيام الاسبوع وتخدم ٤٠ و ٦٠ ومئة سنة !



قصر المدينة



ميدان فلكي

قصر المدينة :

كان المقر الرسمي لحكومة المهراجا ومركز دولة راجستان . مدخله من الشرق كعادة الهنود المحافظين الذين يوجهون بواباتهم الى مشرق الشمس . على مدخله فيلان من مرمر بالحجم الطبيعي . بعد المدخل ميدان فسيح كان يجري فيه العرض العسكري تتطلع اليه نساء «الحرملك» من الشرفات المحجبة المثقوبة . وفيه «ديواني العام» و «ديواني الخاص» كما يسميها الهنود ومكتبة والجناحان الصيفي والشتوي وصالات الرقص والمآدب وغرف السكن ... كل هذا في بناية وردية من سبعة ادوار . ولا أنس متحف السلاح دعاه الدليل «سلاحخانة» فكان مهراجات راجستان وفرسانها اشجع وأمهر محاربي الهند وتزوج الكثير منهم بنساء غربيات فجاء نسلهم أجمل نسل في الهند . ويذكر التاريخ انهم استبسلوا في الذود عن مدينة «تشيتور» حتى ان السلطان علاء الدين الخلجي عندما دخلها لم يجد فيها نفساً حية !

ميدان فلكي :

أنشأ « صاواي جاي سنج » خمسة ميادين فلكية اعظمها في جايبور . فيه آلات لقياس بُعد الشمس وانحنائها والاوج . وآلات لقياس الارتفاع عن سطح البحر ولمشاهدة ميل الارض على محورها وللاستدلال على السمت .

وساعة شمسية جعلت زاوية حائطها ٢٧ درجة وجايبور تقع على خط العرض الجغرافي ٢٧ ، والساعة بجزئين من ٧ الى ١٢ قبل الظهر ومن ١٢ الى ٦ بعد الظهر . وآلة مرصد موقع الشمس إذ تكون في الشمال بين ٢١ آذار و ٢١ ايلول وإذ تكون في الجنوب بين ٢٢ ايلول و ٢٠ آذار فيكون الظل فوق او تحت خط الاستواء ، وفي ايام الاعتدال بين الفصول يكون الظل على خط الاستواء ، وفي حالة الاوج إذ تكون الشمس في نصف السماء يوم واحد بالسنة هو ٢٠ حزيران يكون الظل عمودياً فوق الرأس . ومجموعة من اثنتي عشرة آلة داخل اطار واحد لتحدّد خطوط العرض والطول على الكرة الارضية. وخريطة لبعض مجموعات من النجوم ...

مسكن الله :

كان لعائلة المهراجا معبد خاص يدعى مسكن الله لأن « جاي سينج » رأى رؤيا وسمع صوتاً يقول له : « غادر هذا المكان فهو مسكن الله » . فبنى هناك معبداً للإله « كريشنا » في كنف « قصر الغيوم » .

هوا محال – قصر الهواء :

رمز جايبور في عالم السياحة هو «هوا محال» أي قصر الهواء بناه المهراجا « براتاب سنج » سنة ١٧٩٩ بشكل مروحة من تسعة ادوار تضيق كلما ارتفعت وفيها مئات الطاقات والثقوب بحيث تبين كأنها « پاراڤان » . طرازه الهندسي هندي عربي.



قصر الهواء

عمود السماء :

في جايبور سنة ١٧٤٩ نصب المهراجا « أشواري سنج » « عمود السماء »

لذكرى انتصاره على أخيه من امه « مادهوسنج » الذي نازعه عرش جايبور بعد وفاة والدهما « جاي سنج » . كان تعدد زوجات المهراجات والملوك يخلق النزاع على العروش في كل الهند . توفي حالاً بعد انجازه وخلفه « مادهو سنج » نفسه الذي كان من الشهامة — وربما من رهبة الآلهة — بحيث لم يهدم « عمود السماء » !

مدينة الجنائن :

ما ذكرته حتى الآن زرته داخل سور جايبور ومع الزمن امتدت المدينة خارج السور . سنة ١٨٦٨ أنشأ المهراجا «رام سنج» جنائن « رام نيواس — RAM - NIWAS » مساحتها ٢٨٣،٢٢٠ م² كلفت ٤ ملايين روبية دفعت لعمال مهددين بالموت من جراء مجاعة حدثت في تلك السنة .

نصب ومتحف « البرت » :

خارج السور ايضاً « نصب البرت » الذي اقيم سنة ١٨٧٦ لمناسبة زيارة الأمير البرت الذي اصبح فيما بعد ادوار السابع ملك بريطانيا . هندسته مزيج من الهندي والاوروبي فيه متحف تمت معروضاته بصلةٍ الى ولاية جايبور وتنم عن مهارة سكانها في صنع المعادن والجواهر والنسيج وعلى جدرانه مشاهد هندية ومصرية ويابانية وغيرها . وفيه تماثيل آلهة بابلية وفلاسفة اغارقة ورومان وبعض الرجال العظام . « صالة السجادة » تنبسط فيها — على ذمة الدليل — اكبر وأقدم سجادة عجمية في العالم جلبها « جان سنج » من « كابول » .

اثر قدم كريشنا :

شمال شرقي المدينة مقابر المهراجات . ضريح مؤسس جايبور من رخام ابيض تتوجه قبة انيقة فوق اثني عشر عموداً . توأمه ضريح « رام سنج » مزين جايبور . وهنا موقعان طريفان : معبد « جانيش » إله الحكمة والحظ رأسه رأس فيل ، وبلاطة رخام عليها اثر قدم الإله « كريشنا » .

جايبور عند الاصيل :

حول جايبور حصون وابراج منها « حصن النمر » لأن قمتــه تشبه رأس نمر . جزء منه كان لسكن المهراجا بعض فترات وجزء لإخفاء كنز الدولة . صعدتُ اليه الساعة السادسة بعــد الظهر وكان منظر جايبور رائعاً إذ تبين كلها مدينــة « وردية مخططة أنيقة خضراء ثرية » وتصبح ذات جمــال ناعس هادىء مكتسبة لوناً حالماً مع أشعة الغروب الشاحبة .

●

٨٤

امبر

« مدينة لن تنهض من سباتهـا . سكوت الصحارى المترامية والبحار الواسعة لا يقاس بسكون ووحدة « امبر » لأنها كانت عاصمة حيّة صاخبة واصبح كل ما فيها من قلاع وقصور ومعابد ذكريات صامتة تقنع بأن ترى صورتهـا منعكسة في مرآة البحيرة على أقدامها » .

« كپلنغ »

ملكة المعـــبر :

« امبر – AMBER » هي على بعـد ٨ كم من جايبور . في الطريق إليها على اليمين مقابر ملكات واميرات جايبور وعلى اليسار – كما بين أجرا وفاتح بورسكري – مواقع « ساكي » لنساءٍ انتحرن في النار التي أحرقت جثمان بعولهنّ . ومزار الجواد المقدّس حيث قدّم « جاي سنج » جواداً ذبيحة لِـ « سوريا » إله الشمس عند الهندوكيين .



امبر ملكة المعبر



على ظهر فيل

سارت السيارة بين جبلين واقفين كحائطين بحيث وصلت الى ملتقى السلسلتين كأنما الى قابي قوس عند معبر ضيّق جداً مما جعل المؤرخين يلقبون امبر « ملكة المعبر ». على خط القمم الأسوار الحصينة التي تصل حتى مشارف جايبور وفيها فتحات لاطلاق السهام والنيران وفتحات لصب الماء الساخن على المهاجمين . عند المعبر بحيرة صغيرة اسمها « ماوتا – MAOTA » فيها جنائن معلقة متدرجة ينعكس فيها قصر امبر المطل عليها.

على ظهر فيل :

ركبت ظهر فيل من الوادي الى رأس الاكمة ودليلي يحدثني عن تاريخ هذه البقعة . لاحظت ان السفوح مكسوة بشجر العنبر فقلت له : هذه الأشجار تدعى باللغة العربية عنبر فهلاّ يكون هذا أصل اسم امبر ؟ راق له هذا التفسير فأجاب : عندنا كلمات عربية كثيرة ولكن الشائع ان أصل الكلمة من « امبرا – AMBRA » التي هي في الهندوكية « ام الكل » .

أُنشئت امبر في القرن العاشر الميلادي وبقيت عاصمة الى القرن الثامن عشر اذ خلفتها جايبور فاصبحت امبر المدينة المائتة الصفراء بلون ابنيتها وبزهور العنبر التي تحيط بها . أنساني الحديث مع دليلي الخوف من ركوب الفيل لأول مرة . كان يتهادى كالجمل وهو يصعّد في طريق متعرجة . عبرت

خمس بوابات كانت كدروع لحماية القصر الذي أقامه على رأس الجبل « جاي سنج » حليف « أكبر » .

قصر امبر :

بوابة المدخل الرئيسي الى القصر هي حسب وصف السائح « فرسوجون – FERGUSSON » « أشرف وأنبل بوابة في العالم » كأن يد جواهرجي صنعتها . أجـزاء القصر كباقي قصور المهراجات التي وصفتها . غالب أبنيته من مرمر ويمتاز ببعض أعمدة ذات لون « ليلكي » وبقاعة المرايا « شيش محال » التي كتب عنها « هكسلي – HUXELY » : « رأيت قاعة للمرايا في حصن اجرا وفي غيره من القصور ولكن اجملها هي قاعة مرايا امبر حيث تكفي انارة شمعتين فتصبح الانارة عامة » . جناح الحريم فيه – واسمه « زنانة – ZENANA » – قريب الشبه بزنزانة السجن وهو فعلاً سجن نزلتُ إليه بدهليز كان محفوظاً للمهراجا وحده . الزنزانة دار مربعة حولها ١٢ باباً لـ ١٢ غرفة لـ ١٢ امرأة . فوق الغرف رواق كان يتمشّى عليه ليل نهار ستة حراس خصيان لا يسمحون لأحد بالدخول ولا لأية امرأة بالخروج . هذا أثر من آثار كثيرة لاستعباد المرأة في الشرق . كانت راجستان من آخر الولايات التي وقعت تحت الحكم البريطاني . لكن الاستعمار كرس الأوضاع الاجتماعية القائمة ولم يحرر الشعب والمرأة ولم يعالج الفقر والجهل والخرافات والتعصب الديني والطبقي .

المعبد الملكي :

معبد امبر الملكي مكرس للآلهة « كالي – KALI » . جَلَبَ تمثالها الأسود من كلكتا المهراجا جاي سنج اذ كان حاكم « البنجال » ووضعه هنا في معبد انيق واصبحت « كالي » شفيعة أسرته المالكة . تقدّم لها يومياً ذبيحة معزة وفي يوم مهرجانها بعد انتهاء موسم الأمطار كان الشعب يتجمع لعبادتها ويقدم لها ذبائح يسترضي بها تلك الآلهة الجشعة الى الدم .

مؤسس امبر :


جناح الحريم

مؤسس امبر هو « دهولاراي – DHOLA RAE » عاش في القرن العاشر الميلادي . نسج الخيال الهندي حوله اساطير اكسبته شعبية وشهرة . بعد وفاة والده حرمه عمه من العرش فهربت به أمه وتنكرت واشتغلت طباخة في قصر أحد مهراجات قبائل « مينا – MINA » . اكتشف الخدم ان يديها ناعمتان ليستا يدي خادمة ونميَ الخبر الى المهراجا فاستدرجها سرها وعاملها كأخت له . حين كبر ولدها أرسله سفيراً مدة خمس سنين في دلهي . واذ عرف « دهولاراي » كيف حرمه عمه من العرش حبك مؤامرة وقتل مهراجا « مينا » وهو يعوم في مسبح . أسس سلالة كاشهواها – KACHHWAHA » وجعل العاصمة امبر وقضى حياته في حروب مع قبائل « مينا » حتى قتل .

تزوج أكبر « جودباي » بنت « بيهارمال » مهراجا امبر وانجب منها سليم الذي اصبح الملك جهانجير . ومن بين زوجات جهانجير حفيدة « بيهارمال » . امبر هي أول امارة هندية تحالفت مع المغول المسلمين فحنقت عليها باقي الإمارات واعتبرتها خائنة ومدنّسة للدم الهندي باختلاطه بدمٍ غريبٍ غازٍ .

٨٥

نيودلهي

بانت نيودلهي من الطائرة حديقة واسعة تستحق لقبها « جاردن سيتي — المدينة الحديقة » . نزلت في فنـــدق « اوبيروى — O,BEROI » التابع لسلسلة فنادق « شركة بان اميركان » تمتعت منه عيني — من غرفتي بالدور الرابع عشر — بلوحات القديم والجديد وبغابات ومروج « على مد النظر » .

الاسلام في دلهي :

بدأ تاريخ دلهي كعاصمة للهند الشمالية منذ دخلها الإسلام سنة ١١٩٢ . كانت على منتصف الطريق بين طرف الهند الشرقي (كلكتا التي تبعد عنها ١٤٤٠ كم) وحدود الفرس وتركستان (توران) المنطقة التي أتى منها الغزاة المسلمون . هذا عدا انها مفتاح السهل الذي يسقيه الجانج والهندوس .

تعاقب السلالات :

بعد وفاة « محمد غوري » استقرّ « قطب الدين ايبك » في دلهي وأسّس فيها سنة ١٢٠٦ سلطنة المماليك او « سلالة العبيد » اذ كان عبداً للترك . خرجت من هذه السلالة اول ملكة للهند وهي « رضية » ماتت مقتولة ومعها

تلاشت السلالة التركية الأولى . خلفتها سلالة « خيلجي » التركية الثانية ثم سلالة « تغلق » التركية الثالثة . من سلالة «خيلجي» اشتهر الملك علاء الدين بإدارة رشيدة وبانتصارات عسكرية . ومن سـلالة « تغلق » اشتهر « محمد تغلق » .

سنة ١٣٩٩ افتتحها « تيمور الأعرج » ودمرها فنامت ليلاً طال نحو ٢٥٠ سنة الى ان بعثها ملوك المغول . بعـد تغلق ملكت سلالتان افغانيتان هما « السادات » ثم « لودي » .

سلالة المغول :

سنة ١٥٢٦ دخلها « بَبَر » المغولي . في البـدء جعل المغول عاصمتهم « اجرا » وفي ١٥٦٠ نقل شاه جهان العاصمة الى دلهي . سنة ١٧٣٩ دخلها جيش نادر شاه ملك الفرس ودمر منها الكثير وقتـل الألوف انتقاماً للفتك ببعض جنوده . ومن ذلك التاريخ ظلّ عرش دلهي المغولي باهتاً يعتليه ملوك مغمورون الى ان احتلتها بريطانيا سنة ١٨٥٧ وانتهت بذلك مملكة المغول .

المدن الثمان :

يتحدث المؤرخون عن ثمان مدن تعاقبت في دلهي من ١١٩٢ الى ١٩٤٧ ، وكانت تنمو بجوار قصر السلالة المالكة وبقيت متميزة الحدود حتى قيل ان دلهي متحف معماري هندي – اسلامي – افغاني – مغولي ...

١ – الأحياء التي حول قطب منار . ٢– سيري . ٣ – تغلق آباد . ٤ – جهان باناه . ٥ – فيروز اباد . ٦– بورانا كيلا . ٧ – شاه جهان آباد . ٨ – نيودلهي .

بعد استقلال الهند سنة ١٩٤٧ تكاثر سكان دلهي وقامت المباني في كل مكان فطغت دلهي الكبرى على الأحياء او المدن القديمـة ولم يبق سوى اسمين : دلهي ونيودلهي .

قطب منار :

من هنا تبدأ عادة الجولة السياحية . صعدتُ ٣٧٦ درجة حيث شمـــل بصري من ارتفاع ٧٠ متراً دلهي القديمة كلها التي ذكرتها . قطب منار شامخ كالعملاق وهـــو منحنٍ بسبب هزة أرضية . أقيم برج نصر كأمثاله في أفغانستان وإيران وهو آخر برج نصر في العالم الاسلامي. انه من اكمل الأمثلة على اختلاط الطراز الهندي بالاسلامي في دلهي . بدأه سنة ١١٩٩ « قطب الدين ايبك » وأنجز في حياته الدور الأول فقط . رفع خَلَفه ثلاثة أدوار أخرى اعاد بناءها فيروز تغلق بعـد أن صدعها زلزال وأضاف دوراً خاصاً جعله مئذنة مكللة بقبة هوت في ١٨٠٣ فوضع مهندس انجليزي بدلاً منها قبّة شوّهت الهندسة فأزيلت وبقيت ملقاة في الحديقة . أدوار البرج السفلى من حجر أحمر وأصفر بخطوط رأسية والأدوار العليا من رخام أبيض بخطوط أفقية . تلحظ العين الناظرة من قاعدة البرج الى قمته اختلالاً في التناسب لأن الدورين الأعليين نحيفان جـداً اذا ما قيسا بالأدوار الثلاثة الأولى التي تطبع تأثيراً عميقاً من الضخامة والفخامة والبساطة معاً . نقشت على البرج كلمات باللغة العربية غالبها آيات قرآنية .

جامع قوات الاسلام :

هو أول بناء إسلامي قام في دلهي شيّده سنة ١١٩١ قطب الدين ايبك . لم يكن معه مهندسون وبناؤون من جنسه فاستخدم هنوداً. أخذ مواد البناء من ٢٧ معبداً هندوسياً فخرج الطراز هندياً طعّم بطابع إسلامي اذ أضيف لمدخله ثلاث قناطر متشابكة واستعمل « العقد » لأول مرة في دلهي . وسّع علاء الدين هذا الجامع ورام أن يرفع مئذنته ضعف ارتفاع قطب منار ولكن لم يمهله الأجل .

عمود حديدي من ٢٥٠٠ سنة :

في فناء جامع قوات الإسلام يرتفع ١٠٢ مـــتراً العمود الحديدي الشهير

الذي يعود تاريخه حسب البعض الى القرن السابع ق . م . وحسب غيرهم الى الخامس او الثالث ق.م. عليه نقوش تخلد انتصارات الملك «شاندراورمان». كان العمود مصمماً ليرتفع أمام معبد لـ « فشنو » وليجثم على رأسه الطائر الخرافي « جارودا » مركبة فشنو . نقله المسلمون الى هنا كغنيمة حرب . هذا الحديد لم يلحقه الصدأ رغم مرور أكثر من ألفي سنة . ليس في ذلك معجزة – كما شاع الاعتقاد – لكنه تقدم عجيب في صناعة الحديد . فهو لا يصدأ وهو قطعة واحدة وهو من حديد صرف نقي لم تتوصّل صناعة الغرب الى انتاج مثله إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . من يقف وظهره الى العمود ويحوطه بذراعيه حتى تتشابك يداه فهو سعيد وسيصبح إنساناً عظيماً : هكذا يقول الاعتقاد الشعبي !

قبر أدهم خان :

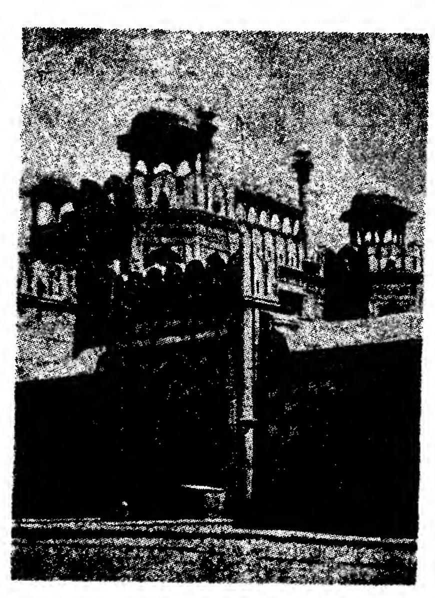
خارج سور قطب منار زرت قبر « أدهم خان » شقيق « أكبر » بالرضاعة . كان لأكبر مرضعتان فذات يوم قتل « أدهم » ابن احداهما زوج الثانية . فغضب اكبر ورمى أدهم من شرفة حصن « اجرا » واذ لم يمت من الرمية الأولى رماه ثانية الى ان فاضت روحه . قبره هنا هو آخر مدفن مثمّن في الهند ويشبه قبّة مسجد قبّة الصخرة بالقدس .

ذكرى المظالم في تغلق اباد :

بينما بقي سور فقط من عهد « سيري » حفظت آثار عديدة من مدينة تغلق أهمها قلعة « جياس الدين » التي كان لها غُرَف وسراديب تحت الأرض ورواق سرّي للهروب وقناة علوية تمتد على حائط بين البئر وخزّان حجري. ويرى مدفن ضخم لـ « جياس الدين » من الحجر الأحمر والمرمر الابيض والاسود والاصفر تكلله قبّة رخامية . ويوجد مدفن صغير لكلبه المفضّل . أقام جياس الدين صومعة خارج أسوار القلعة كان يختلي فيها اسقطها عليه ابنه محمد تغلق فقتله ليخلفه وبعد ان مات الابن القاتل دُفن بجوار أبيه !



قطب منار



القلعة الحمراء

هكذا تُنسي موجات التاريخ الذكريات وصدق معه قول حكيم : « كلما عاشرت الناس كلما ازددت تعلقاً بكلبي ! » . نزل « ابن بطوطة » ضيفاً على محمد تغلق المذكور وكتب عنه نحو مئة صفحة في وصف رحلته الشهيرة الى الهند منها أربع وثلاثون عن مظالمه ومذابحه ! حين رفض سكان دلهي الانتقال الى دولت اباد في هضبة « الدكن » جعل « مدينتهم » خراباً ينعق فيها البوم واذ رأى ان لا دخان ولا نار ولا نور فيها قال : الآن استراحت روحي » .

دلهي الرابعة هي التي بناها مجدداً محمد تغلق وسماها « جهان باناه : ملجأ العالم » . وأغرب ما فيها برج على قمته سطح وبقربه قبر ذو شكل مستهجن تتوجه قبة بيزنطية .

خلف محمداً فيروز تغلق الذي كان ذا ميول علمية ورياضية وفلسفية و — دموية — اذ كان يقيم « جبالاً من الجثث » . جعل عاصمته فيروز اباد وأهم ما بقي منها أدراج في قمتها عمود من عهد أشوكا عليه بعض تعاليم البوذية .

مسجد حبّة العدس :

قبور « السادات » و « لودي » تمتد على مساحة خمسة كيلو مترات مربعة وهي عموماً مثمنة الشكل ومن طراز إسلامي وهندي ممتزج وفي أحد جوامعها أجمل زخرفة من الحصى في الهند كلها وفيها « مسجد حبة العدس». دُعي هكذا لأن الملك « سيلندر » وجد حبة عدس في الأرض التي قام عليها فيما بعد المسجد . أعطاها لوزيره الذي زرعها ثم زرع من غلتها مواسم كثيرة جمع من ايرادها تكاليف بناء « مسجد حبة العدس »...

بوابة النمر :

« پوراناكيلا » اسوارها باقية كما هي . لها ثلاث بوابات رائعة الجمال رُسم على إحداها انسان يصطاد نمراً وهذا هو الرسم الإنساني الوحيد على بناية اسلامية في الهند ربما لأن اسم الملك كان « شيرشاه » وكلمة « شير » تعني النمر .

مدافن العظماء :

مررت بمزار « الولي نظام الدين» تعلوه قبة بيزنطية ثم بمدفن « جهانارا » بنت « شاه جهان » التي رافقت أباها في سجنه . وصّت ان تُدفن تحت العشب الأخضر بدون ضريح والى الآن يرمي المارة زهوراً على مثواها . في حيّ نظام الدين دفن أمراء وشعراء وعظماء وأولياء على مدى ثلاثمائة سنة .

تحفظ دلهي من عهد المغول ثلاثة آثار هامة هي ضريح هميون والقلعة الحمراء وجامع مسجد .

ضريح هميون :

أنجزته سنة ١٥٦٥ أرملته « حاجي بوجوم » التي دُفنت فيـه . انه من طراز فارسي وسط حديقة مسوّرة . كان المغول يحبون الماء والزهور والخضرة فأكثروا منهـا حولهم أحياءً وأمواتاً . يرتفع الضريح المثمن على سطح فوق اعمدة واقواس صغيرة فمتوسطة فكبيرة من حصى احمر ومرمر ابيض . قبته نسخة عن قبة جامع شهير في « مشهد » وهي من مرمر أبيض تكاد تكون مستديرة قريبـة من شكل البصلة . يغلب على العواميـد والقباب الصغيرة الطراز الهندي .

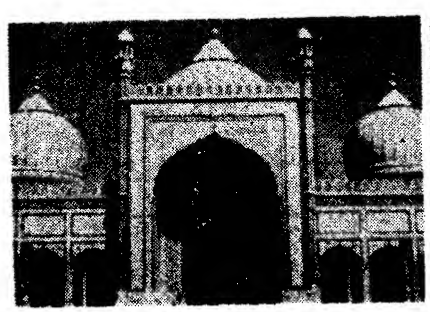
بجوار ضريح هميون مدافن بعض الملوك والأمراء المغوليين مات غالبهم قتلاً . ومنهم « دارا شيكوه » الابن الأكبر لـ شاه جهان قتـلـه أخوه اورنجزيب . والامبراطوران « جاهندار » و « فروخ سيار » قتلهما وزيرهما الاكبر . كان «فروخ سيار» محسناً فأعلن عليه الحداد متسوّلو دلهي ورفضوا أخذ الصدقة من قاتله ووزّعوا يوماً هم أنفسهم الطعام على فقراء المدينة حول الضريح ! الانسان عالم من المتناقضات : نفسه أمّارة بالظلم وثائرة على الظلم . فأولئك « الشحاذون » استنبطوا تلك الطريقة الطريفة لشجب الظلم .

القلعة الحمراء : جنة الدنيا :

هي من أشهر الآثار المغولية . أسوارها من الحجر الاحمر . لم يستمتع بها أصحابهـا فشاه جهان الذي شيدها خلع عن العرش وسجن في اجرا . وابنه اورنجزيب قضى معظم وقته في الحروب « بالدكن » وغيرها . وابنه « شاه علم بهادور شاه الأول» كان يفضّل مسكن الخيمة كالرحّل . بنيت من ١٦٣٩ الى ١٦٤٨ . في الديوان الخاص كتب بالفارسية : « اذا كانت توجد جنة على الارض فهي هنا فهي هنا . » و « انهـا اعظم من قصور السماء » . اضاف اورنجزيب على التصميم الاصلي بوابة ضخمة للحراسة فبعث إليه والده من سجنه : « لقد جعلت من قصري الجميل عروساً محجّبة ! » . بعد هـذه



الديوان العام



جامع مسجد

« البوابة — الحجاب » رواق ومنصة الموسيقيين ثم البـــاب الداخلي الأول الذي كان محفوظاً للأمبراطور وحده يعبره ممتطياً جواده .

« ديواني عام » او صالة الاستقبالات العـامة للشعب فيها منصّة العرش تحت مظلة من رخام ابيض وقناطر . الديوان العام مزين برسوم طيور وزهور وبرسم « اورفيه » يعزف على الناي وسط قطيـع من الحيوانات . « رانج محال » هو صالون الملـكات وحاشيتهن تمرّ فيـه قناة تدعى « نهر بيهبشت » اي الفردوس ، تخترق القصر من اوله الى آخره . وبركة بشكل زهرة لوتس. ثم « شيش محـال » اي قصر المرايا وهو الآن متحف . ثم « خاص محال » جناح الامبراطور وفيه برج مثمن اسمه الرسمي الهندي الىالآن «مثمن برج». كان الامبراطور يطلّ منه على شعبه الذي في الباحة كما كان يشاهد منـــه مصارعة الفيلة . في «ديواني خاص» كان الامبراطوريجتمع بوزرائه ومستشاريه وكبار زائريه وهو جالس على «عرش الطاووس» المطعّم بالجواهر والاحجار الكريمة . « ديواني خاص » هو أجمل جناح في القلعة كلها . كان سقفه من فضة أزيلت بعد ٧٠ عاماً للانفاق على الحروب ! الحمّام الملكي هو أجمـل حمّام بقي من عمر المغول : احواض وقاعات المياه الساخنة والباردة وقاعات للاستراحة وللتدليك ... يشبه الحمّام التركي في قصر « بيت الدين » ولـكنه يكبره بمراحـل . بُني « جامع اللؤلؤة » للحريم وحوط بجنينة حولهـــا

طاقات المصابيح . كان « جيش » من الفرّاشين يمتني بالقلعة الحمراء حتى دُعي حيّ في دلهي « حيّ الفراشخانة » ولا يزال يحتفظ الى الآن بهذا الإسم .

جامع مسجد :

هو أشهر جامع في الهند . بناه شاه جهان على أرض مرتفعة وزينه بأبواب مزخرفة . ترى العين من بعيد مئذنتيه الرشيقتين النحيفتين ترتفعان ٤١ متراً . من ميزات هذا الجامع الأنيق أضلاع طويلة من رخام اسود وأبيض في القبة ، واحمر وابيض في المئذنتين. مساحة قاعة الصلاة ٢١٦٠ متراً مربعاً (٦٠ × ٣٦) وتمتد على جهاتٍ ثلاث اروقةٌ بعواميد وقناطر .

حكم راقصة :

بدأ انحطاط دلهي المغولية مع وفاة بهادور شاه الثاني سنة ١٧١٢ . اذ خلفه ابنه جهاندار الذي وقع في غرام راقصة اسمها « لال كونار » رفعها الى اكثر من اميرة وعين شقيقها المغني حاكماً لاحدى الولايات . طلب الأعيان ان يوزع عليهم ألف قيثارة فتظلم لأخته التي أبلغت الأمرالى عشيقها الأمبراطور فاستدعى الوزير الأكبر وسمع منه هذا الجواب : « يا مليكي من يوم عُيّنَ الموسيقيون حكاماً يريد كل الأعيان ان يصبحوا موسيقيين » . فوعى الملك الدرس وألغى التعيين !

انحطاط واغتيالات :

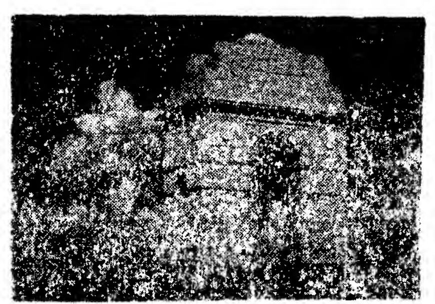
عندما مات هذا الملك كتب عنه مؤرخ : « البومة نامت في عش النسر والغراب أخذ مكان البلبل » . قتله ابن أخيه « فروخ سيار » وتخاصم هذا مع وزرائه فدخل عليه الاخوان « سيد دي بارها » مع رجالهما المسلحين فحنق وصرخ في وجوههم : « ستحرث الحمير اراضيكم وتلعب الفئران في ثياب نسائكم » فعزلوه وفقأوا عينيه وسجنوه في زنزانة بالقلعة الحمراء ، قال

وهو يدخلها : « كما يذوي السرو هكذا تستعبد حياة الملك » . وبعد ذلك بقليل مات مقتولاً .

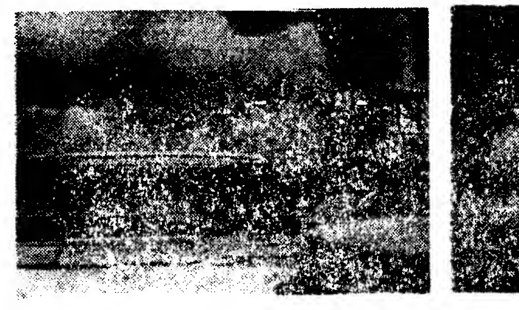
أتي بأمير شاب لينصب ملكاً لكنه كان حبيب الحريم فخبأنه وقدّمن غيره هو « محمد شاه » الذي حكم من ١٧١٩ الى ١٧٤٨ . انعتق من ربقة « سيد دي بارها » وتفرّغ للهو والملذات واقتدى به الوزراء والأمراء . سنة ١٧٤٨ خلفه ابنه محمد الذي أنجبه من راقصة واذ كان صغيراً حكمت أمّه مستعينة بالخصّي « جافيدخان » الذي لقبته « ناواب » . تألب الأعيان ضدهما وتمرّد الجيش لأن دفع المرتبات كان يتأخر . وذات يوم ربط حرّاس القصر حماراً وكلبةً سوداء ليحييّهما المارّة قائلين : « ناواب وبيجوم ! » انتهى الأمر بخلع محمد وتنصيب « الاجير الثاني » الذي كان تقياً وعالماً وشهوانياً . لمح يوماً ابنة اخيه المعزول وكان عمرها ١٦ سنة وعمره هو ٦٠ سنة . استغواها فلم تستجب له فحبسها في غرفة بالقلعة . خلفه « شاه علم الثاني » الذي هزمه غزاة افغانيون وفقأوا عينيه . وبينما كان البريطانيون يحتلون ولايات الهند كان عرش أكبر وشاه جهان يهوي حقيراً . عندما زار الاسقف « هيبر — HEBER » القلعة الحمراء سنة ١٨٢٤ وصف جيش المتسولين حولها وفيها وكانت خربة قذرة ورغم ذلك عندما دخل على الملك نادى المنادي : قفوا وانظروا . هوذا زين العالم وملجأ الأمم . الحمد الملك الملوك للامبراطور اكبر شاه العادل السعيد الظافر ...

العهد البريطاني :

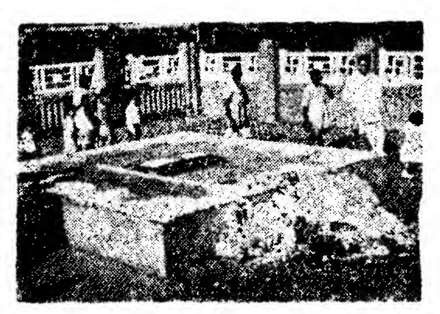
واجه نائب الملك البريطاني مشكلتين عند تأسيس نيودلهي . الأولى ان الرأي العام الهندي كان يعارض صرف مبالغ باهظة بسبب فقر الهند فتريث الحاكم ونفّذ على مراحل . والثانية اختلاف المهندسين على الطراز العام هل هندي ام أوروبي نهضوي ؟ انتهوا الى مزج الاثنين .



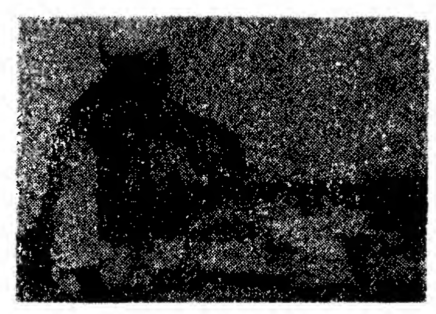
بوابة الهند



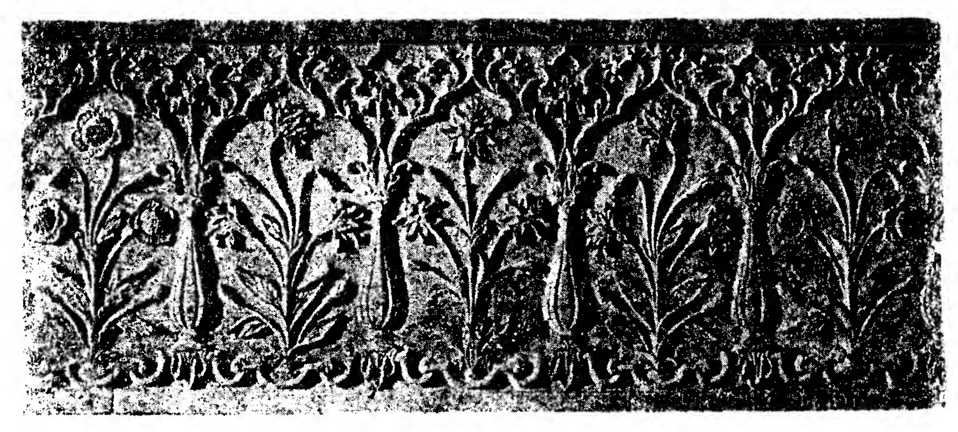
البرلمان



مزار غاندي



مطرب الأفاعي



من رسوم القلعة الحمراء

المباني الحكومية :

أهم ما ترك البريطانيون من ابنية هي السكرتيرية العامة ، وقصر الحكومة بقبابه البوذية وشرفاته وأروقته التي تشبه المعابد الهندوسية وجنينته المغولية. والمنظر العام على الفناء والجنائن يشبه الى حد بعيد « فرساي » . وبوابة الهند التي هي قوس نصر للهنود الذين سقطوا في الحرب العالمية الأولى. وتمثال جورج الخامس الذي أمر بنقل العاصمة من كلكتا الى نيودلهي ووضع الحجر الاول للأبنية الحكومية حول بوابة الهند الوزارات ورئاسة الجمهورية والبرلمان الدائري . بين السكرتيرية العامة وبوابة الهند شارع « سنترال فيستا » وعلى جانبيه الابنية المذكورة .

مزار غاندي :

لا بد لكل من يسير هنا ان يتوقف عند « راجغات – RAJGATH » حيث أحرق جثمان غاندي سنة ١٩٤٨ فأصبحت النقطة مزاراً قومياً. مررت كثيراً « بسنترال فيستا » ورأيت « راجغات » دوماً مغطى بالزهور الصفراء وغاصاً بالزائرين . سنة ١٩٦٤ أحرق بجواره جثمان « نهرو » ومثل غاندي نثر رماده في سبعة انهر هندية . كان غاندي افتتح هنا سنة ١٩٣٧ معبد « نارايان ولكشمي » الذي تزينه آلهة هندوسية عديدة وآيات من كتب الهندوس المقدسة ورسوم ميثولوجية ولست أدري لماذا أحسست ان قيامه هنا نغمة شاذة من القديم الخرافي وسط الحديث العلمي ! .

مطرب الأفاعي :

هنا رأيت الحاوي مرقّص الأفاعي ينفخ في الناي فترفع الأفعى رأسها وتلوّح به وعندما يسكت تلتف على نفسها فيضعها في كيس صغير وينتقل الى مكان آخر لقبض « بقشيش » آخر ومعه ابنه « يتعلم الصنعة » . يتدرب أبناء الحواة على الزحف في الغابات لاصطياد الأفعى السوداء بالضغط على عنقها بعود بشكل ٨ . وعندما يكبرون ويعطون شهادة « مطرب الأفاعي »

يلقونها في قصبته ويلقونها في الحزام ومعها « صرّة بودرة » سحرية لاستعمالها عندما تعود الافعى الى طبيعتها وتلدغ .. يقال ان الافعى لا تسمع فكيف تطرب ؟ .

دلهي الكبرى :

منذ إعــلان الاستقلال سنة ١٩٤٧ امتدت دلهي ونيودلهي كالأخطبوط وأصبحت مدنها المتعاقبة الثمان واحدة هي دلهي الكبرى . من أسباب تضخمها انهـا كانت في الحرب العالمية الثانية مركز تموين العمليات العسكرية في غرب آسيا وفي جنوب شرقي آسيا . ثم نزحت إليها أعداد هائلة بعد الحرب لدى انفصال باكستان عن الهند . بنت الحكومة للنازحين نحو عشرين حياً سكنياً شعبياً على نمط واحـد . واستوطنها الأجانب اذ أقامت الهنـد علاقات دبلوماسية مع الدول وانفتحت على العـالم واستقدمت الخبراء . كما جعلت النهضة الاقتصادية والثقافية من دلهي مركزاً لها بعد الإستقلال فقامت المكاتب والمصانع والفيلات والفنادق والبنوك ومراكز الشركات الكبيرة الخ ... أصبحت مساحتها تغطي ١٤٩٧ كم مربعاً وعدد سكانها ثلاثة ملايين .

٨٦

رام ليلا

الملحمة والأبريت :

كانت تعرض في العراء على أرض فيروز شاه مغناة «رام ليلا–RAMLILA» التي تحكي ملحمة « الرامايانا » تقدّمها منذ عشر سنوات فرقة « بهاراتيا كالا كندرا » التي جــدّدت في الرقص الكلاسيكي المدعو « كتهاك » [١] وجعلته فولكلوريا مزيجاً من القديم والجديد . كان خيط القصة يضيع مني وينقطع أمام ثلاثة مسارح متداخلة وديكور عجيب غريب وممثلين لا يحصى عــددهم وتراقص الألوان ورهبة الاقنعة واشكال القرود والشياطين وصيحات الغنــاء الهندي بألحانٍ تشبه أحياناً الألحان العربية . المغزى انه توجد قدرة إلهيــة تساعد الخير لينتصر على الشر .

---

(١) عند الهنود للتمثيل وللرقص معان روحية واجتماعية عالية . توجد اربعة انواع رئيسية من الرقص هي : « بهاراتا نا تيام » في جنوب الهنــد ، « كاتها كالي » في كيرالا ، « نتهاه » في الشمال ، « ماينبوري » في آصام ، عرفت الهند العريقة السلم الموسيقي بأصواته السبعة وهي : سا ـ ري ـ جا ـ ما ـ با ـ دا ـ ني . انما اندثرت الألحان لأن الهند لم تعرف الموسيقى المكتوبة .



تمثیل رام لیلا

زواج راما من سيتا :

نشبت حرب بين الآلهة والشياطين . تضرّع الآلهة الى « ڤشنو » فتأنس في شخص راما ابن ملك « ايودهايا » . ثم وُلد لـ راما ثلاثة أخـــوة هم شرتوجان وبهارات ولـكشمان . فـقِـهَ الأربعـة الكتابة وفن الحرب على يد معلّم اصطحب معه فيما بعد راما ولكشمان الى الغابة حيث علـّمهما الطقوس وتقدمة الذبائح واستعان بهما لطرد الشياطين من الغابة . ثم رافقاه الى بلاط ملك « ميتهيلا » حيث كانت تقام مباريات للفوز بيد « سيتا » ابنة الملك . صَلـّت سيتا ليفوز راما وفاز وعلـّقت في عنقه عقد النصر . حـــين كسر قـَوْسَ الإله « شيفا » جلجل صوت كهزيم الرعد أيقظ حارس القوس الذي أقسم ان ينتقم من كاسره . تزوج راما سيتا وعـاد إلى « ايود هايا » حيث استعدّ والده العجوز لتنصيبه ملكاً . لكن خادمة أصغر الملكات أوغرت صدر ابيه عليه فحكم على راما بالنفي أربع عشرة سنة في الغابة وأقام ملكاً « بهارات » الابن الثالث . لكن « بهارات » ذهب مـــع الشعب الى راما طالبين ان يعود ويملك أمـّا هو فأصرّ على تنفيذ حكم أبيه. فوضع«بهارات» حذاء راما على العرش وملك هو كنائب لِ راما .

١٣ سنة منفى في كوخ :

بنى راما وسيتا ولكشمان كوخاً في الغابة عاشوا فيـه ثلاث عشرة سنة في الخلوة والسعادة . في السنة الرابعة عشرة حدث ان « شوربناكها » أخت « راڤان » ملك الشياطين رأت الأميرين في الغابة وطلبت منهما ان يتزوجاها فرفضا فتوعدتهما شراً فقطع لكشمان انفها واذنيـها .

ملك الشياطين يختطف سيتا :

أرسل أخوها « راڤان » أحـد أبالسته « ماريك » بهيئة غزال ذي لون ذهبي. رأته سيتا فقالت لـ راما ان يقتله ويأخذ جلده . طارده راماوأوصى لكشمان ان يحرس سيتا . بعـد قليل سمعا راما يطلب النجدة فقالت سيتا

للكشمان ان يهرع إليه فرفض لئلا يتركها وحدها ثم أذعن ورجاها ان لا تخرج من الكوخ . جاء راڤان كراهب متسوّل على باب الكوخ فخرجت سيتا لتعطيه صدقة فاختطفها . حاول « جاتايو » ملك الطيور تخليصها من رافان لكنه جُرح . عاد راما ولكشمان فلم يجدا سيتا فهاما في الغابة يسألان عنها الشجر والطير ورأيا وسمعا « جاتايو » قبل ان يموت .

جيش القرود يعاون راما :

وصل راما ولكشمان الى مملكة القرود وتصادق راما مع ملك القرود ، وساعده لاسترجاع زوجته وعرشه من أخيه الغاصب واصبح « هانومان » قائد جيش القرود متعبداً لـ راما . عـــبر هانومان البحر الى « لانكا » (سيلان) مملكة الشياطين واهتدى الى مكان سيتا واختبأ في شجرة ورأى جنّيات يحاولن الترفيه عن سيتا بعرض فنونهنّ وراڤان يحاول ان يقترب منها وهي تصدّه . مع هبوط الليل نام الجميع حتى الحراس وبقيت سيتا تمشي على ضوء القمر في الحديقة فرمى هانومان خاتمـــاً رأته سيتا يلمع فالتقطته وعرفت انه خاتم راما وتحـــدثت الى هانومان . تنبّه الحرّاس واعتقل ابن راڤان هانومان بالشبكة السحرية وأمر راڤان ان يسكب على ذيـــله زيت وتشعل فيه النار . وطار هانومان فوق « لانكا » يزرع النار والدمار وعاد الى راما وأخبره .

حرب الشياطين والقرود :

في مملكة لانكا كان « بيبيشان » أصغر أخـــوة راڤان الروح الصالح الوحيد . رجا راڤان ان يعيد سيتا الى راما فركله وطرده فانضم الى معسكر راما واستعد المعسكران للحرب . خـــرج لكشمان لمبارزة « مجهنات » بن راڤان لكنه جُرح . اختطف هانومان طبيب راڤان ليلاً واقتاده الى قمـــة جبل حيث عرف منه سر عشب شفي به لكشمان فعاد هـــذا الى مبارزة « مجهنات» وصرعه . ايقظ راڤان شقيقه « الجبّار النائم » ودفعه الى مبارزة

راما فصرعه راما . والتحم جيش الشياطين وجيش القرود وقتل راما رافان وانتهى بذلك عهد مملكة الشر وبدأ عهـــد ملكوت السلام على الأرض . ونصّب راما بيبيشان على عرش مملكة لانكا وعاد هو مع سيتا ولكشمان وهانومان الى « ايودهايا » مع انتهاء السنة الرابعة عشرة لمنفاه واحسن أخوه بهارات استقباله واحتفل الشعب بتتويجه . وأسدل الستار بعد حفلة التتويج .

اذا أحببت ان تعرف أسمـاءَ هندية نسائية فإليك أسماء بعض الممثلات لعلها تروق لك وتطلقها على بنت أو أخت أو قريبة : شاندرا ــCHANDRA – آلوكا – ALOKA – كامله – KAMLA – ريبا – REBA – أورميلا – URMILA – پريا – PRIYA – يوكتي – YUKTI – موكـــتي MUKTI ...

٨٧

كشمير

لا شيء في الدنيا بعد كشمير :

« من لم يسمع عن وادي كشمير وعن أزهى
ورود الأرض فيها وعن معابدها وكهوفها
وثلوجها وعن ينابيعها الصافية كالعيون
العاشقة التي تتعرّى فيها . »

هكذا وصف « توماس مور » كشمير . أما الهنود فيقولون عنها : « زمردة خضراء في عقد لآلىء بيضاء » . وقال عنها « جهانجير » : « كشمير ولا شيء في الدنيا بعد كشمير ! » .

طرتُ من نيودلهي الثامنة صباحاً ووصلتُ الى « سرينا جار » عاصمة كشمير الساعة الحادية عشرة . بانت نيودلهي غوطة وسط يابسة . على يميني جبال هملايا تكلّل الثلوج رؤوسها ، وصدورسفوحها جرداء ، وأقدامها مغطاة بأشجار من فصيلة الصنوبر . انها تشبه مناظر « الألب » ولكن لوحاتها أقرب الى الطبيعة البكر التي تبعث رهبة وذهولاً .

كشمير هي عـــالم الرسّام والشاعر والعاشق والمتأمل والصوفي والمصوّر والسينمائي والصيّاد والمغامر ... يعشقها الشاب المتفتح ليمـــرح ويحبّها الكهل الذاوي ليستريح . هي أرض الادغال البكر والغابات الانيسة والذرى البيضاء والهضاب والمروج الخضراء والشلالات المغنّية والبحيرات الوادعـــة والأنهر البلورية المنسابة في أخاديد الاودية . وهي بلاد أجمـل فراشات في العـالم وأغرب طيور ونبات وجنائنها المغولية من أروع مافي الدنيا . أجمل وقت لزيارتها ايار وتشرين الأول فأنا محظوظ لأني زرتها في وسط تشرين الأول .

فنـــدق قصر :

في المطـــار التقطني سمسار فنادق وأراني العوّامات بدرجاتها الممتازة والأولى والثانية ولا أدري لماذا لم تأنس لها نفسي مع انها ذات لون محلي طريف. وجد لي غرفة بعشرة دولارات في فندق « اوبيروي » الذي كان مقرّ مهراجا كشمير . قصر عظيم بين الجنائن والنافورات والاقنية وله ارض « جولف ». أمامي حصن « اكبر » والبحيرة بعواماتهـــا وسوقها المتنقلة على المراكب وجزرها وحَورها » (بفتح الحاء) ، وعلى اليمين الجنائن المغولية ، وعلى الشمال سريناجار ، وورائي الجبل المتعدد الألوان : ثلج فعراء داكن فسّرو وشربين فعشب فالبحيرة .

— كم يوماً ستبقى ؟
— أربعة أيام .
— اذن أسرع واحجز الإياب .

انه موسم عودة المصطافين فلم أجد مكاناً في الطائرة الا بعـد اثني عشر يوماً . ما العمل ؟ اقترحَت عليّ شركة الطيران الهندية الذهاب مجاناً بالسيارة الى « جامّو » عاصمـــة كشمير الشتوية . اقتراح هبط عليّ كأجمل الاحلام فسأقطع وادي كشمير طوال نهار كامل من ٨ صباحاً الى ٨ مساءً . لا تكره

شراً لعله خير ، وفلسفة الحياة هي في التكيّف مـــع ظروفها بلين وانفتاح ليعيش المرء سعيداً ...

عالية ومنسية :

كانت كشمير جزءاً من مملكة « أشوكا » في القرن الثالث ق . م . وأصبحت من مراكز البوذية . عاشت بدون تاريخ عالية ومنسية الى ان ضمها « اكبر » سنة ١٥٨٧ الى مملكته .

وعشقها ملوك المغول وأنشأوا استراحات على طول الطريق من دلهي إليها .

مشكلة كشمير بين الهند وباكستان :

قبيل رحيل الاستعمار البريطاني طالب مسلمو الهنـــد بالتقسيم وقبـِلَ « نهرو » مرغماً . تبادل نحو ١٥ مليون هندي ومسلم الأراضي وقـُتِلَ نحـو مليون . كان سكان كشمير نحو خمسة ملايين ٩٠٪ منهم مسلمون يريدون باكستان فَـهُمْ ليسوا هنوداً بشكلهم ودينهم ولغتهم وتقاليدهم . عيّنت بريطانيا المهراجا الهندي « هاري سنج » حاكما على كشمير . وكان للحكام والمهراجات – وليس للشعب – الحق في اختيار الانضمام الى الهند او الى باكستان . واذ ثار مسلمو كشير طلب المهراجا العون من الهند لقمعهم فاشترطت عيه ان يعلن انضمام كشمير الى الهند ففعل . ودخل الجيشان الهنـــدي والباكستاني كشمير . فرضت الأمم المتحدة هدنة ووضعت مراقبين دوليين . كان انضمام كشمير الى الهند مؤقتاً الى حين إجراء استفتاء لكن « نهرو » تمنّع دوماً عن إجرائه بحجــة ان باكستان لم تنسحب من ثلث كشمير الذي احتلته بجيوشها . وفي ١٩٥٢ أعلن برلمان كشمير انهـــا جزء لا يتجزأ من الهند . ولا تزال مشكلة كشمير بين الهند وباكستان موضع نزاع بارد أو فاتر أو ساخن ...

العاصمة سرينا جار :

تقع « سرينا جار » عاصمة ولاية كشمير على بعد ٩٦ كم من حـــدود

باكستان على نهر « جهالوم » وعلى بحيرة « دال » . عدد سكانهـا ٢١٠ آلاف موردُهم الأساسي من السياحة خمسة أشهرثم يختبئون سبعة أشهر في صقيع وثلوج.

مياه بحيرة « دال » صافية كالبلور . مساحتها ٣٢ كم ٢ تنتثر فيها الجزر والجنائن والاعشاب الطويلة والزهور والعوامات . في قارب الفسحة كان يطالعني على كل لفتة بائعـــو الزهور والثمار والشالات والخناجر والكفوف والطواقي ...

من البحيرة تـُرى « سرينا جار » واقعة بين قمتين ، قمة « بارات » وقمـة « سنكاراشايرا » حيث يجثم معبد هندوسي من القرن السادس ق . م .

الجنائن المغولية :

تطوّق « الجنائن المغولية » بحـيرة « دال » من جهات ثلاث ويستغلها السينمائيون . أقربها الى المدينة وأصغرها جنينة الينبوع الملكي « ششمه شاهي – CHACHMA-CHAHI » انشأها شاه جهان وفيها نبع مثلّج لمياهه ميزات صحية فيستقي منه الكثيرون .

انشأ شاه جهان جنينة أخرى تدعى عش الغـــرام « شالامار – CHALAMAR » وهي مكونة من أربعة سطوح او « مصاطب » متدرجة وفي وسطها ركن استراحة من رخام أسود تحيط به النافورات . شقيق نور جهان أنشأ جنينة اللذة « نيشات باج – NICHAT BAGH » وهي من عشرة سطوح تبدأ عند البحيرة وتصعد مع الجبل تغني فيها الشلالات والنافورات والاقنية منحدرة من مصطبة الى أخرى . أشجار الدلب والحور فيها هي الاصلية وعمرها ٣٥٠ سنة . تزينها أنواع شتى من الزهور لا سيما الورود الحمراء والصفراء فهذان اللونان كانا المفضلين لدى ملوك المغول .

غرس « اكبر » حديقة نسمة الصباح « ناسم باج– NASSEM BAGH » وهي اشبه بغابة دلب ينطلق فيها النسيم وطنين الصراصير .

ورأيت راهبتين مع بنات مدرستهما فتحدثت معهما بالإيطالية وكانت حقاً صدفة سعيدة . عندما زرت الجنائن المغولية كان السينمائيون يصوّرون فيها مناظر فيلم « ارزو » الذي رأيته فيما بعـــد . فمن أراد ان يعرف كشمير فليشاهد هذا الفيلم ..

في سريناجار معامل الصوف الكشميري الشهير ومعامل الحرير الطبيعي والسجاد والفرو والتطريز ونقش الخشب والفضة والذهب ...

من مساجدها زرت فقط مسجد « همذان » وكلـــه من خشب وجامع « حضرتبال – HADRATBAL » وفيه شعرة من النبي محمد .

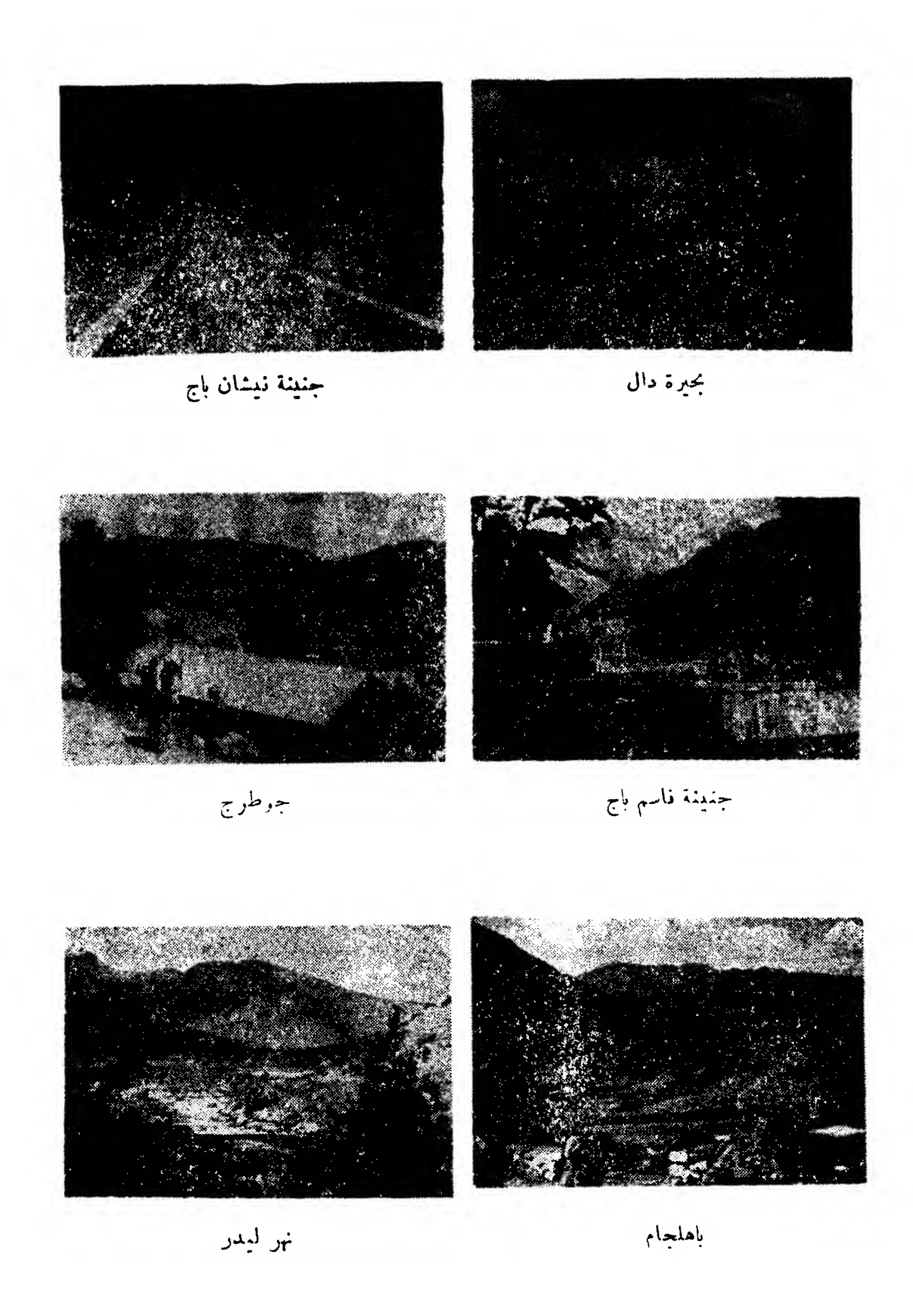
كيف أنت عربي مسيحي !

استغرب دليلي كيف اقرأ اللغة « الاوردية » الباكستانية فقلت له : لأنها مكتوبة بالأحرف العربيـة وأنا عربي . « ضرب كفاً على كف » وحلف اذ ظنني مسلماً مثله وافاض بحماس في شرح مشكلة كشمير . في النهاية ابتسمت وقلت له انني مسيحي عربي . فزادت دهشته : كيف يوجد عرب مسيحيون ! فدخلت معه في حوار تاريخي وشرحت له كيف نعيش نحن العرب المسيحيين والمسلمين في مودة . ولِمَ العجب من سكان كشمير وهنالك حتى الآن في بعض بلدان المغرب العربي مَنْ يجهل او يتجاهل انه يوجد عرب مسيحيون !

قمتُ مع دليـلي صاحب التاكسي بجـولات خارج « سرينا جار » الى « جولمرج – GULMARG » و « باهلجام – PAHALGAM » و « سونامرج – SUNAMARG » وهي الأماكن السياحية الشهيرة في تلك المنطقة .

جولمرج :

تبعد جولمرج اي مَرج الزهور ٤٦ كم شرقي سريناجار وهي على ارتفاع ٢٥٩١ متراً . قطعت ٧ كم ذهاباً وإياباً على ظهر المُهر في سبل ضيقة متعرجة ذكرتني ببلدتي في لبنان : فهنا وهناك الطريق محجّر والسفح مشجّر وغابات



بحيرة دال

جنينة نيشان باج

جنينة قاسم باج

جوطرج

باهلجام

نهر ليدر

الصنوبر وحقول أشجار الفاكهة لا سيما التفاح . حتى الشكل الإنساني يتشابه كثيراً وتتدفق الصحة على خدود وردية . ارتاحت نفسي جداً الى هـذا الطريق والى « مرج الزهور » العالي حيث البيوت صغيرة وخشبية والقطعان ترعى قرب ملعب جولف وفلاحون يستدفئون على حجر في موقـد وخط الأفق ثلوج ويسود البقعة سكون منعش حالم . قطعت بعض الوقت جيئة وذهاباً في مسالك تكاد معالمها تضيع بين الأشجار المطلة على مهاو سحيقة . ويقف النظر طويلاً عند أعالي « ابهروات – APHARWAT » البالغة ٤٤٢٠ متراً حيث البحيرة المتجمدة المقدسة محجٌ للهنود .

باهلجام :

في اليوم التـالي الساعة ٧ /½ صباحاً ذهبت الى باهلجام وسط الضباب وعلى الجليد الرقيق . قطعت ٩٧كم معظمها في وادي نهر «ليدر– LIDDER » بين اشجار الحور والنفت والدلب والتوت والزعفران الاحمر من جوانبه والاصفر من داخله وهنا المكان الوحيد في الهند حيث ينبت هذا الزعفران . يستعملونه لأمور عديدة منها للاضفاء على الطعام نكهة وعطراً . كانت نقاط الندى كاللآلىء الكبيرة وأوراق الشجر متناثرة كأنه نصف عريان والقمم ضائعة في السحب الزاحفة عليها . رأيت آثار قرية « افانتيبور – AVANTIPUR » ونبع معبـــد « نجبال – NAGBAL » ذا المياه المعدنية الفاترة وينابيع « متان – MATTAN » الغنية بالأسماك والمثقلة بالأساطير الهندوسية التي جعلت منها محجاً. مياه نهر «ليدر» تمتاز بصفائها وشفافيتها. هذا النهرضحل وتُرى الحصباء الملساء البيضاء تحت المـاء فيطيب المرء ان يماشيه ويستمتع بجاذبيته وبرؤية اللوتس الاحمر . باهلجام مصيف مشهور على ارتفـاع ٢١٣٤ متراً ومنطلق لتسلق الجبال وللرحلات في الهملايا الشرقية ونقطة الذهاب الى أروع ثلاجة في همـلايا اسمها « كولا هوى – KOLAHOI » . في آب يأتي ألوف الحجاج الهندوسيين الى كهف « امرنات – AMARNATH » على علو ٣٨٧٩ متراً ويبعد ٤٥ كم فقط عن باهلجام .



عائلة كشميرية



على ظهر مهر في سونامرج

في الإياب تحايلت مع دليلي لآخذ بعض الصور لفلاحي وفلاحات كشمير . الشكل يختلف جداً عن الهنود بالتقاطيع وباللون المائل الى الأبيض . تتغطى النساء برداء من قمة الرأس الى اخمص القدم . يحببن الألوان الصارخة ويزين الساري بزهور حمراء وبرتقالية .

سونامرج :

مَرج الذهب ـ سونامرج هو على بعد ٥٠ كم شمالي سريناجار وعلى ارتفاع ٢٦٦٧ متراً يمر فيه نهر « السند » النابع من ثلاجة « هاراموك » يقع المرج في هضبة قريباً من الثلاجات التي يغطيها الثلج طوال السنة . غالب السكان هنا في أكواخ خشبية وخيام . يكثر في مائها السمك ويقصدها الصيادون لقنص ماعز وخراف وغزلان الجبل والدببة وطيور فريدة .

رأيت مرة في التلفزيون مشهداً لا ينسى : قطيع من الماعز البري الكشميري يهرب من الذئاب ويصل إلى فجوة بين جبلين فيهوي فيها ويقفز من حائط جبل الى الآخر وهو ينزل كاللولب الى ان بلغ الوادي في لحظات والذئاب تتطلع عاجزة ! .

قصة الشطرنج :

قضيت سهراتي الثلاث في كشمير بالفندق . مرة لعبت الشطرنج مع هندي

تأثرت من ذقنه الطويلة الكثة وشاربه الطويل المفتول وعمّته الضخمة وروحه المرحة . هزمني مرتين في الشطرنج ثم حدثني عن « لعبة المربعات الأربعة والستين » كما يدعونها . كلمة شطرنج هي فارسية فالفرس تعلموا اللعبة من الهنود ومن الفرس تعلمها العرب وعن هؤلاء نقلها الصليبيون الى أوروبا . الوزير في الشطرنج الفارسي والعربي أصبح الملكة في الشطرنج الأوروبي .

من تراث الهند :

طالعت في سهرتين كتاباً عن « تراث الهند » عرفت منه أموراً شتى طريفة . فالهنود اخترعوا الأرقام والصفر والنظام العشري . وقالوا بوجود عوالم غير عالمنا وان عالمنا بشكل بيضة مقسّم الى إحدى وثلاثين منطقة والأرض هي السابعة . فوقها ست سماوات موطن النعيم وتحتها سبع طبقات العالم السفلي مقر أفاعي الـ « ناجا » وكائنات خرافية أخرى . ثم سبع مناطق المطهر موطن النفوس المعذبة ... في أوائل القرون المسيحية علم بعض الهنود ان الارض مستديرة ودائرتها تبلغ ٣٦ الف كلم فاقتربوا بذلك من الرقم الحقيقي (٤٠٠٧٦ كلم حول خط الاستواء — ٤٠٠٠٩ كلم حول القطب) . وبرع الهنود في علم الفلك وأخذوا بعض أسماء يونانية كما أعطوا علم الفلك اليوناني — الروماني بعض أسماء هندية وانتشر منجموهم في بلاد فارس والروم . اتبعوا التقويم القمري كغالب الشعوب القديمة ولو أنهم عرفوا التقويم الشمسي أيضاً وأسماء الاشهر الشمسية عندهم هي ترجمة لحيوانات « الزودياك » اليونانية وأسماء أيام الاسبوع تحمل أسماء الكواكب السيارة التي عرفوها .

نصائح للطبيب المتخرج :

لم يتقدّم الطب كثيراً لمنع لمس الجثث ولفكرة الجبرية والاستسلام . اعتقدوا كاليهود ان القلب هو مركز الادراك . ولقرّائي الاطباء انقل فقرة من محاضرة كانت تلقى على الطبيب المتخرّج تشبه من بعيد قَسَم ايبوقراط :

« ... صَلِّ كل يوم لأجل سعادة الكائنات خصوصاً البقر والبراهمة .

لا تسكر . لا تأت شرّاً . لا تعاشر الاشرار . كن ظريفاً في حـــديثك واجتهد ان تتقدم دوماً في المعرفة ... لا تتحدث عن أي شيء تراه في بيت المريض ولا تبح لأحد عن حالة وظروف المريض التي قد تسيء إليـه او الى غيره ...

كليلة ودمنة كتاب هندي :

نحن مدينون للهنـــد بكتاب « كليلة ودمنة » وأصله في السنسكريتية « كاراتاكا و دامانكا » وهما اسما الثعلبين وكان عنوانه الأصلي : سبل الحكمة الخمس . ألّفه الفيلسوف الهنـــدي « بِيدْبا – BIDBA » ثم تُرجِمَ الى الفارسية وعنها عرّبه ابن المقفـــع . كما ترجم الى السريانية بعنوان « كليلاج ودمناج » . اودّ ان أعرب مثلين قرأتهما في « تراث الهند » يشبهان أمثال كليلة ودمنة .

مثل الكاهن واللصوص :

رأى ثلاثة لصوص كاهناً براهمياً يشتري عـنزة ليقدمها ذبيحة فتآمروا لأخذها منه . تفرقوا على طريقه تحت شجرات متباعدة . قال له الاول : كيف تحمـل كلباً على كتفيك ؟ فأجاب : هـــذه عنزة وليست كلباً . ثم قال له الثاني : ما هذا الكلب الذي تحمله ؟ فانزل العنزة وتفحّصها جيداً وأجاب : هذه عنزة ! وأخيراً التقى به الثالث فسأله : ماذا ستعمل بهـذا الكلب ؟ فاقتنع البراهمي انه كلب وأنزله عن كتفيه وتركه ومضى . فأخذ اللصوص العنزة وأكلوها ...

مثل حماقة الجمل :

كان في غابة أسد وغراب ونمر وابن اوى . دخل في غابتهم جمل قال انه ضلّ الطريق واستأمن الأسد فأمّنه . بعد اشهر هطلت امطارشديدة وقبعت الحيوانات في مآويها وعضّها الجوع فاقترح الغراب ان يأكل الأسد الجمل وهم يشاركونه . فأجابه النمر : لن يقبل الاسد لأنه منحه الحماية فأجاب الغراب

ولكن عندما يرى الاسد انه سيموت جوعاً سيفترسه لا محالة فالأم الجائعة تأكل طفلها والأفعى الجائعة تأكل بيضها والسكران والمعتوه والغضوب والجائع والخائف والعاشق يقعون في الخطأ ... وذهب الثلاثة الى الأسد وعرضوا عليه ان يأكل الجمل فرفض قائلاً : "منحة" الأمان والحماية" هي مقدسة وهي أهم من منحة أرض أو ذهب أو قطيع أو طعام . ومَن يحمي الذي طلب منه الأمان أجره كأجر من يقدّم حصاناً ذبيحة والآلهة تستجيب كل طلباته وتحقق أمانيه . فقال الغراب : ولكن اذا قدّم الجمل نفسه فهل ترفض ؟ فسكت الأسد . تآمر الثلاثة على الجمل وحضروا لزيارة الاسد المريض فقدّم الغراب نفسه ليأكله فرفض . وتبعه النمر ثم ابن اوى والأسد يرفض . وفي الأخير اذ رأى الجمل وسمع كل هذا اطمأنّ وقدّم نفسه فهجم عليه الأسد وصرعه وأكلوه ...

أصل الغجر من الهند :

من « مخلفات » الهند في عالمنا الغجر أو « النَوَر » . اثبت ذلك علماء اللغات اذ قارنوا لغة نور أوروبا « الروماني » وغناءَهم بلهجات وغناء شمال غربي الهند ، وعادات « النوَر » بعادات فئات الـ « دوم – DOM » الذين يشبهونهم في الهند .

كان « الفردوسي » الشاعر الإيراني الشهير في القرن الحادي عشر كتب في « كتاب الملوك – الشاهنامه » ان الملك الساساني « بحرام جور » استقدم عشرة آلاف مغنٍّ من الهند الى مملكته ومنحهم قطعاناً وأراضي ليرضي شعبه الذي كان يقول ان الأغنياء فقط يستمتعون بالرقص والغناء والتمثيل ... لكن أولئك الهنود تخطوا حدود مملكته نحو الغرب .

قَبلَ الفردوسي ذُكِر في التاريخ البيزنطي ان أعداداً من الهنود وُجدوا في القسطنطينية وغيرها سنة ٨١٠ ومنهم مغنّون متجولون وحواة وسحرة وقارئو البخت ..

وذكر التاريخ ان « النَوَر » مروا بالبلقان في القرن الرابع عشر وفي مدينة « هيلدشيم » الألمانية في سنة ١٤٠٧ وفي مدينة « بال » السويسرية سنة ١٤٢٢ الخ ... وانتشروا في الاصقاع الاوروبية وعرفتهم الشعوب المتحضرة كسولين متسولين « فايقين و رايقين » مغنين راقصين مطالعين البخت مقفلين على أنفسهم كالفئات الهندية القديمة . ويقال ان هتلر أمات منهم الألوف في أفران الغاز .

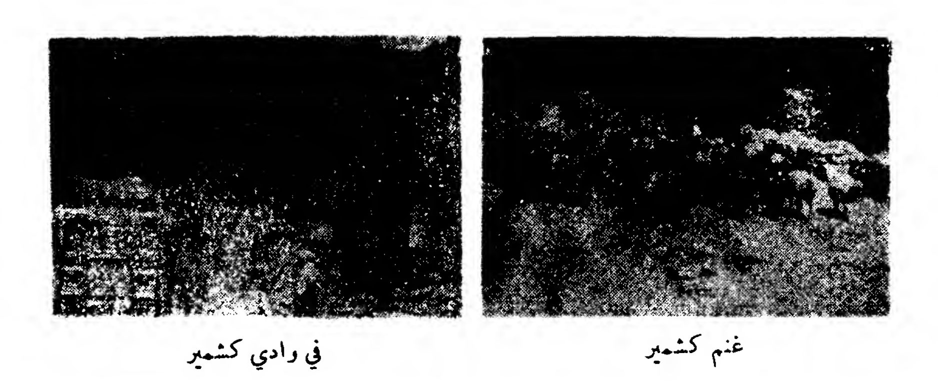
ألا يرى قارئي — كما ارى أنا — انه يوجد شبه بين شكل ولون الهنود وشكل ولون النور ؟ .

نهار في وادي كشمير :

قضيت النهار الاخير في كشمير في الأوتوبيس من ٨ صباحاً الى ٨ مساءً . كان السائق من طائفة السيخ . من يراه يقول ان المقص لم يقرب شعره . رغم منظره المهيب كان لطيفاً مرحاً .

قطعنا ٢٩٣كم . لو كان الطريق مسطحاً أو لو استوحوا الهندسة الاميريكية أو اليابانية بحفر انفاق ومد جسور لكفت اربع ساعات. ولكن فيه نفق واحد وأجزاء غير معبدة وفي الطريق صعود ونزول من «سريناجار» عاصمة كشمير الصيفية الى «جامو» عاصمتها الشتوية . مررنا بقرى كثيرة منها قرية«بطوطة» على ارتفاع ١٥٧٦ متراً وهي مصيف متواضع فيها فندق واحد من الدرجة الرابعة توقفنا فيه لتناول الشاي . رأيت التفاح والاجاص والجوز بأثمان رخيصة فكيلو الجوز المقشّر بثلاث روبيات فقط ! سطوح البيوت من تراب او من قش او من حصير كثيف كأنهم ليسوا في هذه الاعالي الباردة الممطرة.

علقت أعيننا ببعض قرى على شفير هوى سحيقة يتساءل البصر كيف يصلون إليها ؟ شعر السكان كثيف وذقونهم طويلة وخدودهم موردة . في صعودنا بلغنا طريقاً علوها ٣٧٠٠ مترا وهي أعلى طريق سلكتها في رحلتي . في الاعالي كان يقرصنا البرد ويلفنا الضباب . السفوح أحياناً جرداء وأحياناً



غنم كشمير

في وادي كشمير

مكسوة بالغابات . بعض السفوح «جلالي» قطعها الفلاحون كما يفعل اللبنانيون لاستثمار الجبال .

الساعة ٦،٠٥ غابت الشمس وراء الجبال وبدأنا نصعد آخر « طلعة » وكانت الطريق بعدها في السهل إلى « جامو » . بعد السابعة مساءً تقفل طريق وادي كشمير .

تعد « جامو » أربعمئة ألف نسمة . بانت لي فقيرة قذرة وحارة جداً . في العودة الى دلهي توقفت الطائرة في « امريتسار » حيث تناولنا غداءً هندياً صرفاً « حرّاقاً » . من امريتسار الى دلهي كانت الارض تحتنا تشبه الى حد بعيد « دلتا مصر » فكأنني بين بور سعيد والقاهرة .

٨٧

نبذة جغرافية وتاريخية عن ايران

الرحلة أم حالة نفسية ؟ :

بين نيودلهي وطهران (٢٥٤٦ كم) طرت فوق غرب الهند وباكستان وافغانستان وايران . الجو صافٍ جداً والمناظر جبال جرداء وصحاري . طائرة « ف . س ١٠ — V. C. 10 » تهيأ لي انها أكثر الطائرات راحة وهدوءاً . مضيفو ومضيفات شركة الخطوط الجوية البريطانية عبر البحار « B. O. A. C. » في غاية الظرف والاناقة . رأيت كل شيء جميلاً في هذه الرحلة وتساءلت هل السبب هو عناصر الرحلة ذاتها أم حالتي النفسية فكثيراً ما يدخل المرء « الذاتي » في « الموضوعي » ...

هل السفر بالطائرة أمين ؟ :

صرفتُ الوقت في مطالعة مجلتي المفضلة « ريدرزدايجست READER,S DIGEST » وكان العدد الذي بين يدي يتضمن مقالاً شيقاً بعنوان « هل السفر بالطائرة أمين ؟» يذكر المقال ان السفر بالطائرات في أمريكا هو سبع مرات أكثر اماناً من السفر بالسيارة . وانه حصل حادث واحد كل ٨٥ ألف ساعة

طيران سنة ١٩٥٩ ، وحادث واحد كل ٨٠٠ ألف ساعة طيران سنة ١٩٦٥، وان ٦٠ ٪ من الحوادث هي بسبب اخطاء الطيارين وان محركاً واحداً يكفي للهبوط بأمان في الحالات الاضطرارية . وان شركات الطيران تصرف ألف دولار بالساعة لتمرين الطيار وتستبقي فقط واحداً من عشرين ، وان هـذا الطيار يخضع لفحص طبي شامل كل ستة شهور ويقوم بتدريب تكميلي مرة كل سنة . سنة ١٩٦٥ سافر بالطائرة ١٨٠ مليوناً وسنوياً يزيد العدد بمعـدل ١٥ ٪ ويدرس الخـبراء امكانية هبوط امين ١٠٠٪ مهما كان الطقس رديئاً . بعد اعوام قليلة ستحمل بعض الطائرات ٥٠٠ و ٩٠٠ راكب .

بلاد الهضاب والصحارى :

ايران ـ واسمها القديم بهلوى ثم فارس ودعاها العرب العجم ـ هي من اقدم وأشهر البلدان في التاريخ القـديم امتدت مملكتها من الهند الى اليونان . مساحتها ١٦٢٢٠٠٠كم٢ وعدد سكانها ٢٣ مليوناً . يحدها شمالاً الاتحادالسوفيتي وبحـر قزوين وجنوباً الخليج العربي وغرباً العراق وتركيا وشرقاً باكستان وأفغانستان .

أرضها مجموعة من هضبات عالية تقفلها في الشمال والجنوب القمم الشاهقة وتطل على الخليج العربي مدينة « عبدان ». سلسلة جبال « البرز » تمر بجوار طهران وتطل على بحر قزوين ويصل ارتفاع بعض قممها الى ٥٤٦٥ مـــتراً . وسلسلة خراسان تقوم على حدودها مـــع تركستان السوفيتية . في الجنوب تقف المرتفعات على حدود العراق والخليج العربي . هذه الجبال تصد السحب فتجعل مناخ ايران في الداخل جافاً قليل المطر . غالب أراضيها صحاري او مراعي ذات عشب ضئيل . انهـا غنية بالبترول وهي مشهورة بسجادها الذي يصنع من صوف الغنم . فيهـــا بعض النسيج والاسمنت والحرير والرز والسكر والدخان والقطن . وفيها قليل من الخضراوات والفواكه مما لا يمنع ان يكون معظم سكانها فلاحين بدائيين يستخدمون البقر والحمار والجمل .

مؤسس الأسرة المالكة :

أسس الأسرة المالكة الحالية رضا خان بهلوى بعـد ان خلع الامبراطور محمد شاه من سلالة « كاجار » التي ملكت على ايران منذ١٧٨٦. في٩/٨/١٩١٩ وقـّعت الحكومة الايرانية معاهدة مـع بريطانيا وضعت ايران تحت الوصاية البريطانية . في ٢١/٢/١٩٢١ زحف القائد رضا خان على طهران – وكان عمره ٤٣ سنة – واحتلها وصار وزير الحربية ثم رئيس الوزراء ثم أعلن نفسه شاهينشاه اي ملك الملوك في ٢٥/٤/١٩٢٥ . اجبر البدو الرحل ، وكانوا ربع السكان ، على الإقامة في بيوت ثابتة وانشأ جيشاً قوياً ومنظماً بمساعدة خـبراء فرنسيين وبدأ بانتزاع الأراضي من كبار الإقطاعيين . ألغى الطربوش (الاستراكان) وحرر المرأة من الحجاب وسمح لهـا بتلقي العلم وبالخروج من البيت وبالعمل . انشأ محاكم علمانية مدنية رغـم ان ٩٠ ٪ من سكان بلاده هم مسلمون من الشيعة وقد دخل الإسلام ايران سنة ٦٤١ ب . م .

أحدث منشآت للمواصلات وللري ولاستخراج السكر من البنجر واستعان بفنيّين ألمان وأمريكيين لتنظيم وتحسين مالية بلاده وسنة ١٩٣٦ احتكرت حكومته التجارة الخارجية .

من ١٩٤٠ الى الآن :

خسرت ايران الكثير من هـذه المكاسب خـلال الحرب العالمية الثانية اذ طلب منها الانجليز والروس طرد الخبراء الألمـان فرفضت فاحتلوها وعزلوا رضا شاه ونصّبوا مكانه سنة ١٩٤١ ابنه الشاه الحـالي وسرحوا الجيش واضطروا البلاد الى إعـلان الحرب على ألمانيا . عقب الحرب ساءت علاقات ايران مع روسيا التي ساعدت في محاولة سلخ ولايتين هما اذربيجان وكردستان لكن الامر انتهى ببقائهما في ايران . سنة ١٩٥١ طـرد رئيس الوزراء « مصدق » الانجليز من صناعة البترول وألغى امتيازاتهـم في التنقيب وهدد بالإطاحة بالعرش لكنه أُسقط وسُجن .

في عام ١٩٥٠ وزع الشاه ألف ضيعة و ١٢٠٠٠٠٠ هكتار من أراضي التاج على الفلاحين مقابل أثمان رمزية وأمل ان يقتدي بمثله الاقطاعيون لكنهم لم يفعلوا . في سنة ١٩٦٣ – بعد حل البرلمان المكون منهم – صدر قانون الإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي وأممت الغابات وبدأ برنامج محو الأمية بمساعدة الجيش اذ كان يقضي بعض الشبان الملتزمين بالخدمة العسكرية مدة الخدمة في تعليم الأميين . فكر الشاه في تطوير نظام العائلة والحد من الطلاق ومنع الزواج بثانية دون رضى الأولى . وأعطى المرأة حق الانتخاب (يوجد الآن ٦ نساء في البرلمان) . مجلس النواب ٢٠٠ عضو ومجلس الشيوخ ٦٠ عضواً والحكم ملكي دستوري لكن عملياً يتمتع الشاه بسلطات واسعة .

بين ١٩٥٠ و ١٩٦٦ قدمت أميركا لايران ١٧٠٠ مليون دولار مساعدة اقتصادية فإيران هي مرتبطة سياسياً بأميركا وهي عضو في الحلف المركزي . ولكن هذا لا يعوق تفاهمها مع الاتحاد السوفيتي الى درجة انه يقدم لها قروضاً ضخمة للتصنيع تفيها إيران بالغاز الطبيعي .

٨٨

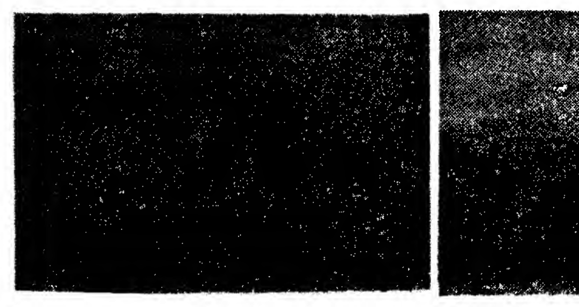
طهران

صورة فوتوغرافية :

طهران عاصمة رحبــــة تتدرج على سفح الجبل وبيوتها صغيرة لا تعرف ناطحات السحاب ولونها رملي وخضرتها قليلة ماعـدا شجر الدلب في بعض شوارعها . تعد مليونين ونصفاً ولكن لا يشكو سكانها من الزحام والسرعة والضوضاء بل يحيون حياة هادئة . لفت نظري مستوى الجمال العالي بقامات فوق المتوسطة وشعر اسود غـــزير وبشرة بيضاء يخالطها لون وردي . الإيرانيون هم من الجنس الآري المختلط — الاندو أوروبي — وفيهم دم تتري. طهران باردة جداً شتاءً وحارة قليلاً صيفاً رغم ارتفاعها ١١٥٠ مـتراً عن سطح البحر ، تقف . جارة لها جبال « البرز » المـكللة بالثلوج حتى في شهر تشرين الاول وقمة « داماڤاند » المستديرة البركانية .

أطول شارعين فيها هما شاه رضا من الشرق الى الغرب وبهلوى من الجنوب الى الشمال قطعتهما مراراً بالأوتوبيس ذي الطابقين .

بعض شوارع طهران تحمل أسماء اعتدنا عليها نحن العرب مثل : حافظ



شارع الفردوسي



منظر عام لطهران

وعمر الخيام والفردوسي وكسرى وبزرجمهر وشهر زاد وشيراز وخراسان واصفهان ...

السوق الشعبية :

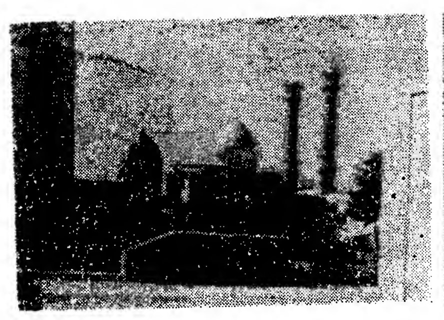
سوق طهران الشعبية تشبه أسواق « النورية » في بيروت و « الموسكي » في القاهرة و « الحميدية » في دمشق . وجد رفاقنا السياح الأوروبيون والاميركان متعة كبرى في التجول بالسوق التي كانت بالنسبة لي شيئاً عادياً . النارجيلة والملاية والسجاد والمسابح والقباقيب والطواقي والحلويات الشعبية و « الخردوات » الرخيصة والعطور والتوابل وأنواع القماش : كل هذا متراكم في حوانيت صغيرة متلاصقة . قال لنا الدليل : « لا تشتروا إلا بعد مفاصلة طويلة » ..

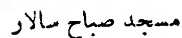
مسجد صباح سالار :

هو آخر مسجد بُني على عهد سلالة « كاجار » . ترتفع منه خمس مآذن وله قبة تسترعي الاعجاب بفسيفسائها التي يغلب فيها اللونان الأخضر والازرق . معظم بنائه من رخام إيراني أخضر . يقف الإمام في مكان أوطى من الشعب علامة تواضع ومثل صالح كما شرح لنا الدليل . في حرم المسجد يقوم معهد ديني شيعي رأيت فيه شيوخاً محترمين ذكرتني ذقونهم وزيهم ومظهرهم بإخواننا شيوخ الدروز الوقورين في لبنان .



ميدان بهارستان





مسجد صباح سالار

قصر جلستان :

بناه شاهات سلالة « كاجار » في أوائل القرن الماضي وهو الآن قصر الضيافة . مررت كثيراً في « ميدان القصور » حيث تتجاور أربعة قصور على أربع نواصي للشاه ولأشقائه . هندسة قصر « جولستان » فارسية قريبة الى العربية وأثاثه فرنسى . تكثر فيـــه الثريات والمرايا الكبيرة وأواني « السيفر ». في حديقته بركتان خضراوان قريبتان من جناح الحريم مما يذكّر بليالي ألف ليلة وليلة . وأضاف الدليل ان آخر شاه من سلالة « كاجار » الذي خلعه والد الشاه الحالي كان له ألف إمرأة ملكتهن « طاووس » . ثم أرانا العرش الرخامي وعرش الطاووس غير الاصلي لان الاصلي الذي صنعه شاه جهان والذي جلبه معه الشاه نادر ضاع أثره . وفي هـذا القصر سجادة مزهرة فازت بالجائزة الاولى منـذ مئة وأربعين سنة في معرض بأورُوبا . سألنا الدليل عن قيمتها فأجاب انها فوق كل تقدير ...

متحف الفنون الجميلة :

من قصر جولستان عرّجنا على متحف الفنون الجميلة حيث رأينا أشغال الفخار والخزف والخرز والتطريز والعـاج والفسيفساء وأعجبنا بفن الرسم المصغر « مينياتير » . رأينا نحـــو عشرين صحناً صغيراً مزينة برسومات

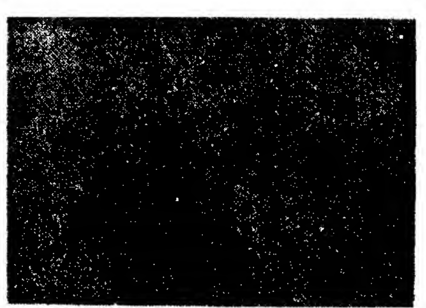
مستوحاة من رباعيات عمـــر الخيام الذي كان فيلسوفاً ورياضياً وفلكياً ولم يتخصص للشعر ومع ذلك إشتهر كشاعر الرباعيات . من الرسومات المصغرة التي رأيناها : حافظ شاعرهم الرومانتيـكي ، والشاعر السعدي من شيراز ، وقصة غـــرام خسرو وشيرين ، وشاعران يتباريان في الانشاد أمام الملك والحاشية ، وقصتهم الشعبية ليلى الغنية وعاشقها المجنون الفقير مما يذكّر عفواً بقصة مجنون ليلى ، ورسم على سجادة لوجه والد الشاه والرسم نحيف جداً يقارب الشفافية بحيث يُرى الوجه واضحاً من جانبي السجادة ، ورسم النبي محمد ممتطياً « البراق » ورسم آخر له على سجادة .

غسيل ونشر السجاد العجمي :

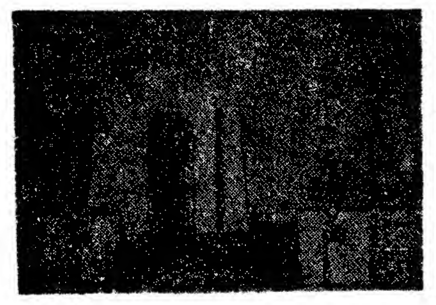
قصدنا ضاحية « راي » التي تعود الى سنة ٢٧٠٠ ق . م . هدمها المغول عن آخرها سنة ١٢٢٠ ب . م . فلا يظهر منها سوى بعض حيطان منخفضة لا قيمة لها ومجموعة من الصخور ينشرون عليها السجاد ليجف بعـــد غسله . السجاد العجمي الشهير هو من صوف الغنم وقد رأينا بعض مناسجه . يغسلون السجاد هنـــا في نبعة علي (واسمها بالفارسية شِشمة علي) زاعمين ان فيها خواصاً خارقة ثم ينشرونه على الصخور « التاريخية » حيث يبقى يومـين او اكثر ويحرسونه ليل نهار .

المساكن الشعبية :

في ضواحي طهران الفقر شديد والطرق غير مرصوفة والنساء متلفلفات «بالملاية» السوداء . فعلى بعـد ٨ كلم من قلب العاصمة يعود الإنسان الى ما قبل القرون الوسطى ... في ضاحية المساكن الشعبية بنت الحكومة تسعة آلاف بيت للفقراء يسكنونها مجاناً ويدفعون فقط ثمن الماء والكهرباء .. وفي ضاحية أخرى شعبية ايجـــار البيت خمسة دولارات شهرياً ويصبح ملكاً لمستأجره بعد مرور عشرين سنة اي يكون قد دفع ثمنه فقط ألفاً ومائتي دولار على مدى عشرين سنة .



غسيل ونشر السجاد العجمي





ميدان شاه رضا

مسجد الشاه عبد العظيم :

هو محج يَؤُمُّهُ كل عام نحو مليون ايراني وتقصده العواقر طلباً للحمل . بقربه برج « تغرول » من القرن الثاني عشر الميلادي وموقع « طابي ميل » و « زندان » اللذان كانا معبدين للنار المقدسة في القرن السابع الميلادي . كان اتباع دين زرادشت يقدّسون النار — وزرادشت هو من الفرس — وبقوا في ايران الى قدوم الاسلام الذي حظر ديانتهم فذهبوا الى الهند [1].

ضريح رضا شاه :

زرنا ضريح رضا شاه الاكبر والد الشاه الحالي . التابوت من مرمر اسود اقتطع قطعة واحدة من مقالع ايران . تمثال رضا شاه واقف بزيّه العسكري يطالع القادم من بعيد . قرب الضريح متحف يضم ما كان يخص رضا شاه وما كان يستعمله . وهنا تابوت ابنه الأمير علي رضا الذي توفي في حادث طائرة .

---

(١) انظر فصل ٧٧ .

متحف جواهر التاج الايراني

أعظم وأثمن مجموعة في العالم هي جواهر التاج الإيراني المعروضة في البنك المركزي بطهران ليستمتع بهـا الزوار والسياح وليزيدوها غنى بدفع رسم الدخول . صادف يوم زيارتي لهـا ان رأيت هناك ملك وملكة « نيبال » .

مصادر الكنز :

يرجع تاريخ بعض محتويات المعرض الى مئات سنين خلت . خـلال ٢٥ قرناً تنافس ملوك الفرس في اقتناء الجواهر وكان كل واحد يبغي التفوق على سلفه في هذه الهواية . ولكن فقط منذ القرن السادس عشر بدأ ملوك السلالة الصفوية – وخاصة الشاه عباس الأكبر – بتدوين تواريخ بعض الجواهر كما كتب عنها بعض الأوروبيين الذين زاروا قصور طهران في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ورث الصفديون جواهر عن اسلافهم واستخرجوا من مناجم خراسان وتركستان مجموعة اضافوا إليها لآلىء من الخليج واشتروا بعضهابواسطةموفدين خبراء . هذا عدا هدايا من الملوك والأمراء الأجانب وعدا غنائم الحروب . لقد تعرّض الكنز للسطو مراراً ويقال ان ما هو موجود الآن هو فقط عُشر ما كان في أوائل القرن الثامن عشر .

جواهر نادر شاه :

في ١٧٣٩ غزا نادر شاه الهند وغنم جواهر قدّرت آنئذٍ بنحو ثمـانين مليون جنيه استرليني . فقد بعضها في طريقه الطويل الى طهران في عبور الأنهار وفي اشتباكات مع البدو واهدى بعضها الى محمود سلطان تركيا والى كاترين الثانية ملكة روسيا وتبرع ببعضها الى مقام الإمام الرضا في مشهد... سنة ١٧٤٧ قتله قواد جيشه وسطوا على الجواهر . اخذ حصة الأسد القائد أحمد خان عبدلى واختص بالماسة الشهيرة « كوهي نور = جبل النور »

الكنز وسلالة كاجار :

سلالة « كاجار » ملكت من ١٧٧٩ الى ١٩٢٥ وحافظت على الكنز . فتح على شاه (١٧٩٧ — ١٨٣٣) ابن شقيق المؤسس صنع « تختي طاووس = عرش الطاووس » على اسم زوجته المفضلة التي كانت تدعى طاووس وعرشاً آخر باسم « عرش نادر » صنع من بعضها تاج التتويج. وكتب الشاه ناصر الدين (١٨٤٨ — ١٨٩٦) سجلاً مفصلاً لكل قطعة من قطع الكنز أعيـد النظر فيه على عهد رضا شاه الاكبر سنة ١٩٢٩ وامر هذا بنقلها من قصر جولستان الى البنك وسمح بعرضها للزوار .

قيمة الكنز :

قيمة حلي التاج الإيراني تغطي ستين بالمئة من نقـــد ايران تتدرج قيمة المعروضات من لوازم النارجيلة — يسمونها « كاليان » — الى عرش الطاووس والى الكرة الارضية والى عقد يقدر ثمنه بـ ١٧ مليون دولار ولكن اي عنق يتجاسر ويحمله ! من المعروضات : أواني الشاي والقهوة وشماعدين وخواتم وخناجر وسيوف و « بروش » وعقود وساعات وعلب دخان وزهور صناعية وحلق واساور ودبابيس وعباءات مطرزة بالذهب والحلي واللآليء وأوسمة وساعات واطارات وقطع المـاس اكبر قطعة فيها ١٨٢ قيراطاً وقطع زمرد احداها ٣٠٠ قيراط ودرع الشاه نادر وعرشه وتاج بهلوي ونجمة نادر والماسة داريانور (بحر النور) والحزام الامبراطوري والصولجان الذي قدمه الى رضا شاه سكان اذربيجان وتاج « كيان » وخُوَذ الخ الخ . واذكر الآن بإيجاز تفاصيل عن أهم المعروضات .

تاج بهلوي :

صنع سنة ١٩٢٥ لم يرد رضا شاه الاكبر ان يتوّج بتاج « كيان » الذي كان يستعمله ملوك كاجار فأمر بصنع هذا التاج وفيه : ٣٣٨٠ ماسة وزنهـا

١١٤٤ قيراط ـ ٥ زمردات وزنها ١٩٩ قيراط ـ ٢ صافير وزنها ١٩ قيراط ـ لآليء عددها ٣٦٨ .

داريا نور او بحر النور :

هي شقيقة « كوهي نور ـ جبل النور » التي آلت الى التاج البريطاني . كانت الاثنتان في حوزة ملك المغول محمد شاه . هزمه نادر شاه واستولى عليهما . بعد مقتل نادر شاه استأثر القائد احمد خان عبدلي بـ « كوهي‌نور» وهرب الى قندهار حيث أعلن نفسه ملكاً . اضطر خلفه شاه شودجا ان يتخلى عنها للمنتصر رونجيت سنج الهندي الملقب بأسد البنجاب ومنه اشترتها شركة الهند الشرقية وقدمتها للملكة فكتوريا .

أما « داريا نور » فبقيت في ايران وبعد مقتل نادرشاه استولى عليها حفيده شهروخ ثم مرت بأيد كثيرة الى ان وصلت الى مؤسس سلالة كاجار . هرب بهـا الشاه محمد علي عندما انتصر عليه معارضوه المطالبون بالملكية الدستورية فلجأ الى سفارة روسيا وادّعى ان حلّى التاج هي ملكه الخاص ولكن أعيدت الى الكنز الملكي .

الحزام الأمبراطوري :

هذا الحزام من ذهب وفي وسطه زمردة ضخمة من ١٧٥٫٥ قيراط . طول الحزام ١١٩ سم وعرضه ٤ سم . حول الزمردة ٢٠٥ ماسات .

وسام نادر شاه :

وزنه ٧٨١ قيراطاً . في وسطه زمردة كبيرة خضراء وحولها الماس تتدلى منها خمس زمردات أخرى صغيرة .

الصولجان :

هو من ذهب محلّى بأحجار كريمة طوله ٧٩ سم . في رأسه الكرة الارضية وحولها ثلاثة اسود وثلاث شموس وعليها بعض آيات قرآنية وآيات

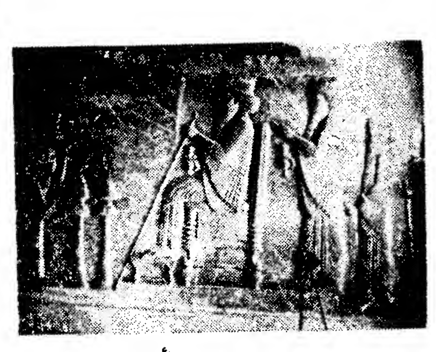
دريانور أو بحر النور



تاج كيان



الكرة الأرضية



لوحة دريوس الأول

في مديح رضـــا شاه الأكبر . قدّمه له سكان اذربيجان وقد صنع في تبريز سنة ١٩٢٤ .

تاج « كيان » :

هو من الماس وزمرد وياقوت ولآلىء . صنع سنة ١٧٩٨ .

الكرة الأرضية :

صنعت سنة ١٨٦٩ من ذهب محلّى بأحجار كريمة ويبلغ قطرها ٦٦ سم . الذهب الذي فيها يزن ٣٤ كيلو جراماً وعدد أحجارها الكريمة ٥١٣٦٦ تزن ٣٦٥٦ جراماً . البحار من زمرد اخضر واليابسة من ياقوت أحمر .

عرش نادر :

لدى عودة الشاه نادر منتصراً من الهند سنة ١٧٤٠ حمل معه تسعة عروش ثمينة . لا يوجد في التاريخ أثر مـا لهذه العروش ويقال انها فقدت بين مقتل نادر واواخر القرن ١٨ . لا علاقة لهـــذا العرش بنادر لأن الشاه فتح علي (١٧٩٧ — ١٨٣٣) هو الذي أمر بصنعه وكتب ذلـــك على العرش نفسه . العرش هو من خشب مطعّم بالأحجـار الكريـة وهو مكوّن من ١٢ قطعة يمكن فكـّها فيسهل نقله . طوله ٩٨ سم وعرضه ٩٦ سم وارتفاعه ٢١٦ سم وعدد الحجارة التي فيه ٢٦٧٣٣ .

●

متحف الآثار :

من روائع حلى التـاج في القرن العشرين الى آثار القرن الخامس والثلاثين قبل المسيح ... أقـدم حضارات التاريخ كانت في شرقنا الأوسط وأسعدني الحظ بزيارة بعضها في متحف الآثار بطهران . رأيت نقوشاً وتماثيـل صغيرة تعود الى ٣٥٠٠ سنة ق.م. تمثل بعض الحيوانات والزهور ، وفخاراً ونقوشاً واحجاراً كريمةتعود الى عهود البابليين والاخميديين والساسانيين قبل المسيـح.

عمود حامورابي :

أعظم قطعة في المتحف هي عمود حامورابي نقشت عليه أقـدم القوانين التي عرفتها البشرية . العامود أسود والحفر عليه أبيض . كان حامورابي ملك بابل في القرن الثامن عشر قبل المسيح (١٧٩٢ — ١٧٥٠) . جلب العمود من « بابل » الى « سوز » الملك المنتصر « شوتروك ناهومدي » . اكتـُشِف سنة ١٩٠١ ونـُقل الى هذا المتحف مع آثار كثيرة من « سوز » .

على العمود مقدمة منقوشة تحت رسم إله العدل « شاماش » وهو يسلـّم حامورابي مجموعة القوانين : « عندما اختارتني ــ انا حامورابي ــ الآلهة لأقرّ لعدل في البلاد ولأبيد الأشرار ولأمنع القويّ من سلب الفقير ولانير البلاد لأحقق الرفاهية للشعب .. سننت القانون وأقمت العدالة في البلاد .... » تكوّن المجموعة من ٢٨٢ قانوناً اذكر منها ما يلي :

- اذا شكا انسانٌ انساناً آخر بأنه ارتـكب القتل وعجز عن اثبات ذلك يقتل الشاكي (قانون ١) .
- اذا سرق انسان ثوراً أو خروفاً أو حماراً أو خنزيراً أو مركباً :

فإذا كانت لإله أو لقصر يدفع ثلاثين ضعفاً ، واذا كانت لإنسان عادي يدفع عشرة أضعاف ، واذا كان السارق لا يملك ما يجب عليه ان يدفعـه يقتل (قانون ٢) . اذا لم يكتشف السارق فعلى الحاكم والبلدة التي وقعت فيها السرقة ان يعوّضا للذي سُرق منه ...

- الذي يستأجر حقلاً ولا يزرعه يدفع لصاحب الحقل حسب غـلة الحقول المجاورة .
- الذي يضرب أباه تقطع يده .
- اذا فقأ انسان عين انسان آخر تفقأ عينه هو (قانون ١٩٦) .
- اذا كسر انسان سنّ انسان آخر تكسر سنـّه هو (قانون ٢٠٠).

(العين بالعين والسن بالسن حسب القانون اليهودي) .

- اذا سقط بيت وقتل ابن صاحب البيت وكان السبب عيباً في البناء فيقتل ابن البنّاء الذي بنى البيت !
- اذا أحدث طبيب بشفرة برونزية جرحاً عميقاً في جسم مريض نتجت عنه الوفاة ، او إذا استعمل الشفرة البرونزية لإجراء عملية في عين مريض ففقأها : تقطع يد الطبيب (قانون ٢١٨) .
- الإنسان مسؤول عن كل ما يقترضه او يستأجره . ولكن اذا استأجر ثوراً وضرب الله الثور فمات فالذي استأجره يُقسِم أمام الله ويُطلق الخ . الخ ...

تختم مجموعة القوانين بتصريح من حامورابي يقول فيه : « بأمر شاماش قاضي السماوات والأرض أقرّ العدل في البلاد ... ليأتِ كل مظلوم ويتظلم أمام صورتي أنا الملك العادل وليُقرأ له ما هو مكتوب على عمودي ... في الأزمنة القادمة والى الأبد ليطبق ملوك هذه البلاد القوانين العادلة التي كتبتها ولا يبدّلوا الاحكام التي سننتها ... »

قارن علماء الآثار والمؤرخون والباحثون في الديانات بين بعض قوانين حامورابي وبعض قوانين كتب اليهود المقدسة في العهد القديم . كما قارنوا بين مزامير بابلية ومزامير داود ، وقصة بابلية تشبه قصة أيوب ، وقصة الخليقة البابلية وقصة الخليقة في سفر التكوين ، وقصة الطوفان البابليةوقصة الطوفان في سفر التكوين .

لوحة داريوس الأول :

يُرى داريوس الاول على عرشه وفي يساره زهرة اللوتس وفي يمينهالصولجان ووراءه ارتحشِشتا فالكاهن الأعظم فالحرّاس وأمامه مجمرتان يحرق فيهما البخور وقائد يحيّي الملك ويده على شفتيه . بجانبها لوحة نقلت من « همذان » وتحمل هذه الكتابة : « داريوس الملك الاكبر ملك الملوك ملك جميع البلدان

ابن فيشتاسب الأخميدي : هـــذه هي مملكتي من بلاد « الساكس » الذين هم قرب ال « السوجديان » الى بلاد « كوش » من « الهندوس » الى « السارد ». هذا ما منحني اهورامازدا كبير الآلهة. ليحرسني اهورامازدا ويحرس بيتي ».

لوحات ارتحششتا :

وهنـــاك أربع لوحات من كلام ارتحششتا يشكر فيها اهورامازدا الذي ساعده لتوسيع مملكته واحتوائها البلدان الآتية : « بلاد العرب — مصر — الهند — كبادوك . انني هدمت هياكلهم وأمرت بعدم عبادة آلهتهم » .

في المتحف آثار من « برسيبوليس » ترتقي الى ٢٥٠٠ سنة ق . م . وتمثال ثور يحرس المعـــابد وبين قرنيه قرص الشمس وملك « سوز » يقدمه ذبيحة لِ « اهورامازدا » . ومجموعة من العملات القديمة ساسانية من ٦٥١ الى ٢٤٤ ق . م . ، وبارتية من ٢٢٨ الى ١٧٦ ق . م . ، و سلجوقية من سنة ٣١٢ ق . م . ، وأخميدية من سنة ٥٢١ ق . م . ، وعملات من صور وصيدا بدءاً من سنة ٣٣١ ق . م .

في الدور الثاني من المتحف قرآن بالخط الكوفي منذ القرن التاسع ، وعملات عربية من عهود الخلفاء الأمويين والعباسيين عليها اسماؤهم ، وعملات من حكام عرب طبرستان ، وبعض صور عن النبي محمد الخ...

ان محتويات متحف الآثار في طهران هي حقاً ذات قيمة تاريخية عظيمة. في طهران يلتقي القديم والجديد والشرق والغرب فكانت خاتمة موفقة لأطول جولاتي حول العالم .

الفهرس

فصل		صفحة

فصل صفحة

فصل صفحة

فصل　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　صفحة

فصل		صفحة
٤٢	**اليابان : نبذة جغرافية عن اليابان**	٣٩٨
	اليوم المفقود ٣٩٨ أسماء وأساطير ٣٩٩ البلاد الترانزستور ٤٠٠ إحصاء السكان ٤٠٠ اقتصادياتها ٤٠١ من دستورها ٤٠١ أمّة ليس فيها أميّة ٤٠٢ .	
٤٣	**نبذة تاريخية عن اليابان**	٤٠٣
	ما قبل التاريخ ٤٠٣ حقبة يا ماتو ٤٠٣ حقبة اشوكا ٤٠٥ حقبة نارا ٤٠٥ حقبة هاين ٤٠٥ حقبة كاما كورا ٤٠٦ حقبة نمبوكو ٤٠٧ حقبة ميروماشي ٤٠٧ حقبة ازوشي ٤٠٧ حقبة ايدو ٤٠٨ المعاهدة الأولى مع أميركا ٤٠٧ حقبة طوكيو ٤١٠ عهد ميجي ٤١٠ عهد الامبراطور هيروهيتو ٤١١ .	
٤٤	**طوكيو**	٤١٣
	فسيفساء ٤١٣ كلماتي اليابانية الأولى ٤١٤ شوارع دون أسماء وأرقام ٤١٥ حيّ جنزا ٤١٦ لقائي الاول مع البوذية ٤١٦ طوكيو يابان مصغّرة ٤١٧ اللغة اليابانية ٤١٨ برج طوكيو ٤١٩ حفلة شرب الشاي ٤٢٠ مدينة الألعاب الأولمبية ٤٢٣ الحيّ التجاري ٤٢٣ القصر المحجوب ٤٢٤ معبد سنسوجي ٤٢٥ معبد الانتحار ٤٢٦ الجودو ٤٢٦ السومو ٤٢٧ عشاء يا باني ٤٢٧ المسرح الياباني ٤٢٨ مسرح كابوكي ٤٣٠ مسرح نوه ٤٣٠ مسرح العرائس ٤٣١ مسرح قروي ٤٣١ الديانة الكاثوليكية في اليابان ٤٣٢	

فصل | صفحة

فصل | صفحة